

مكتبة الفيلسوف
في تفسير القرآن

المجلد

الكتاب الأول في التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



ضیاء الفرقان
فی
تفسیر القرآن
جلد ۴

لِمُؤَلِّفِهِ سید محمد تقی النّقوی

سرشناسه	: نقوی قائنی، محمد تقی، ۱۳۰۸ -
عنوان و نام پدیدآور	: ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن / مؤلفه محمدتقی نقوی قائنی.
مشخصات نشر	: تهران: قائن، ۱۳۹۵.
مشخصات ظاهری	: ۱۸ ج.
شابک	: دوره 7-24-978-964-8981-28-5؛ ج. ۴: 978-964-8981-28-5
وضعیت فهرست نویسی	: فیبا.
یادداشت	: عربی.
موضوع	: تفاسیر شیعه - - قرن ۱۴.
موضوع	: Qur'an - - Shiite hermeneutics - - 20th century
رده‌بندی کنگره	: ۱۳۹۵ ض ۹۸/۷ BP
رده‌بندی دیویی	: ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	: ۴۴۰۴۹۵۲

ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن - مجلد الرابع

المؤلف: محمد تقی نقوی قائنی

الکمية: ۱۰۰۰

الطبعة: الأول

تاریخ الطبع: ۱۳۹۶ ش. - ۱۴۳۸ ق.

تنسيق الصفحات: محسن نقوی

لبنو غرافي: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر اندیشه

انتشارات: قائن

تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مرکز التوزيع: تهران - شارع انقلاب - بازارچه کتاب - رقم ۱۰ - دارالکتب الاسلامية



شابک: ۵ - ۲۸ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

شابک دوره: ۷ - ۲۴ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

٧ الجزء الرابع
٩ سورة آل عمران
٣٩١ سورة النساء
٥١٥ الفهرست

الجزء

الرابع

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ
 إِسْرَآئِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ
 قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ
 (٩٣) فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ
 فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ (٩٥)

◀ اللغة

الطَّعَامُ: الطَّعْمُ تناول الغذاء وُسَمِيَ ما يتناول منه طَعْمٌ وطَعَامٌ.
 فَأَتُوا: أَمْرٌ مِنْ أَتَى يَأْتِي وأصله فَأَتُوا، نقلت الضمة الى ما قبل الياء لثقلها
 عليها ثم حذفت الياء.

أَفْتَرَى: الإِفْتَرَاءُ من الْفَرَى يقال فَرَيْتُ الأديم إذا قَطَعْتَهُ ولذلك قيل
 الإِفْتَرَاءُ القطع، قال الرَّاغِبُ هو يقال للإِصلاح والإِفساد إِلا أَنَّهُ في الفساد أَكْثَرُ
 وكذلك أُسْتَعْمِلَ في القرآن في الكذب والشُّرْكِ وَالظُّلْمِ وقيل أَنَّ الإِفْتَرَاءَ
 أُسْتَعِيرَ للكذب مع العمد.

حَنِيفًا: الْحَنَفُ هو مِيلٌ عن الضَّلَالِ الى الإِسْتِقَامَةِ والحَنِيفُ هو المائل الى ذلك.

◀ الإعراب

حَلَالًا أَي حَلَالًا والمعنى كان كُلُّه حَلَالًا إِلَّا مَا حَرَّمَ في موضع نصب لآئِهِ
 إِسْتِثْنَاءٌ مِنْ إِسْمِ كَانَ وَالْعَامِلُ فِيهِ، كَانَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهِ، حَلَالًا، وَيَكُونُ فِيهِ

ضمير يكون الإستثناء منه لأنَّ حَلَاءً، وَحَلَالاً، في موضع إسم الفاعل بمعنى الجائز والمباح مِنْ قَبْلِ مَتَعَلَقٍ، بِحَرَمٍ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ يجوز أن يتعلّق، بإفترى، و أن يتعلّق بالكذب حَنِيفاً حال من إبراهيم أو من الملة.

◀ التفسير

قيل في سبب نزولها، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال أنا على ملة إبراهيم، فقالت اليهود فكيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها فقال رسول الله ﷺ كان ذلك حلالاً لأبي إبراهيم عليه السلام ونحن نحله فقالت اليهود كل شيء إحتجنا اليوم نُحَرِّمُهُ فَأَنَّهُ كَانَ مُحَرَّمًا عَلَى نوح وإبراهيم حَتَّى انْتَهَى الْيَنَّا فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ تَكْذِيبًا لَهُمْ، روي بعض المفسرين من العمة أَنَّ إِسْرَائِيلَ وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، مَرَضَ مَرَضًا شَدِيدًا فَطَالَ سَقَمُهُ فَذَرَّ لِلَّهِ نَذْرًا أَن عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ سَقَمِهِ أَن يُحَرِّمَ أَوْ لِيُحَرِّمَ أَحَبَّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لَحْمُ الْإِبِلِ وَ أَحَبَّ الشَّرَابِ أَلْبَانُهَا فَفَعَلَ ذَلِكَ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ وَذَلِكَ مِنْ قَبْلِ أَن تَنْزَلَ التَّوْرَةُ:

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَآئِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ

كُلٌّ مِنْ صِيغِ الْعُمُومِ وَالطَّعَامُ أَصْلُهُ مُصَدَّرٌ أَقِيمَ مَقَامِ الْمَفْعُولِ وَهُوَ إِسْمٌ لِكُلِّ مَا يُطْعَمُ وَيُوكَلُّ وَزَعَمَ بَعْضُ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهُ إِسْمٌ لِلْبُرِّ خَاصَةً وَ لَيْسَ كَذَلِكَ وَالْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى بَطْلَانِ قَوْلِهِ لِأَنَّهُ إِسْتَشْنَى مِنْهُ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ وَاتَّقَوْا عَلَى أَنَّهُ شَيْءٌ سَوِئُ الْحِنْطَةِ وَسَوِئُ مَا يَتَّخِذُ مِنْهَا وَمَا يُؤْكَدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْمَاءِ:

قال الله تعالى: فَقَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنْهُ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي (١).

في التوراة في تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

قال الله تعالى: وَ طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ^(١).

و أراد منه الذبائح، ثم أن الاستثناء في قوله: إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَتَصِلًا وَأَنْ يَكُونَ مَنْقُطًا فعلى الأول يكون المستثنى وهو لحوم الإبل وألبانها أو أي شيء كان، داخلًا في المستثنى منه في الحكم وهو الحلية وعلى الثاني لا يكون المستثنى داخلًا في المستثنى منه وعليه فلا يندرج بحث الطعام حتى يكون حلالاً قليل الإتصال أظهر ولا يبعد أن يكون التحريم في شرعه كالنذر في شرعنا بمعنى أن ما حَرَّمَهُ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ لَمْ يَكُنْ مِمَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَكِنَّهُ حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ بِالنَّذْرِ مَثَلًا وَأَمَّا قَوْلُ بَعْضِهِمْ أَنَّ قَوْلَهُ: عَلَى نَفْسِهِ يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ تَحْرِيمِهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَكِنْ كَانَ ذَلِكَ بِاجْتِهَادٍ مِنْهُ وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَنْ يَحْرَمُوا أَوْ يَحْلُلُوا بِالْاجْتِهَادِ، كَلَامٌ بَاطِلٌ عَاطِلٌ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يَقُولُوا فِي الْأَحْكَامِ إِلَّا بِالْوَصْيِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ^(٢) مضافاً إلى أَنَّ الْاجْتِهَادَ فِي الْأَحْكَامِ أَمَّا يَجُوزُ لِأَجْلِ إِنْسَادَادِ بَابِ الْعِلْمِ وَهُوَ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَاخْتَلَفُوا فِي التَّحْرِيمِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ بِأَنَّ التَّحْرِيمَ كَانَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ وَلَكِنَّهُ فِي شَرْعِهِ كَانَ مِثْلَ النَّذْرِ فِي شَرْعِنَا، وَقَالَ الْأَصْمُ لَعَلَّ نَفْسَهُ كَانَتْ مِثْلَهُ إِلَى تِلْكَ الْأَنْوَاعِ فِإِمْتِنَاعٍ مِنْ أَكْلِهَا قَهْرًا لِلنَّفْسِ وَ طَلَبًا لِمَرْضَاةِ اللَّهِ كَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ الزَّهَادِ فَعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ الْإِمْتِنَاعِ بِالتَّحْرِيمِ، وَ اخْتَلَفُوا فِي سَبَبِ التَّحْرِيمِ أَيْضًا بِنَاءً عَلَى أَنَّ يَكُونُ الْإِسْتِثْنَاءُ مَتَصِلًا وَأَمَّا عَلَى الْإِنْفِصَالِ فَلَا، فَقِيلَ حَرَّمَهَا عَلَيْهِمْ بِتَحْرِيمِ إِسْرَائِيلَ وَلَمْ يَكُنْ مُحَرَّمًا فِي التَّوْرَةِ، وَقِيلَ أَنَّ يَعْقُوبَ قَالَ إِنْ عَافَانِي اللَّهُ لَا يَأْكُلُهُ لِي وَلَدٌ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَافَقُوا أَبَاهُمْ فِي تَحْرِيمِهِ لِأَنَّهُ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ بِالشَّرْعِ ثُمَّ أَضَافُوا تَحْرِيمَهُ إِلَى الشَّرْعِ

فأكذبهم الله، وقال ابن السائب حرّمه الله عليهم بعد التّوّارة لا فيها وكانوا إذا أصابوا ذنباً عظيماً حرّم عليهم به طعامٌ طيّبٌ أو صُبّ عليهم عذاب، وقيل لم يحرم عليهم قبل نزول التّوّارة ولا بعدها ولا بتحريم إسرائيل عليهم لموافقتهم بل قالوا ذلك تحريضاً وإفتراءً وقال صاحب الكشف أنّ المطاعم كلّها لم تزل حلالاً لبني إسرائيل من قبل إنزال التّوّارة وتحريم ما حرّم عليهم منها لأظلمهم وبعيهم لم يحرم منها شيء قبل ذلك غير المطعوم الواحد الذي حرّمه أبوههم إسرائيل على نفسه فتبعوهم على تحريمه وهو ردّ على اليهود وتكذيب لهم حيث أرادوا براءة ساحتهم ممّا لغى عليهم في قوله تعالى: **فَيُظْلَمُ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ إِلَى قَوْلِهِ: عَذَابٌ أَلِيمٌ**^(١).

قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

أمر الله رسوله بأن يحاجهم بكتابهم ويكتبهم ممّا هو ناطق به من أن تحريم ما حرّم عليهم تحريمٌ حادث بسبب ظلمهم وبعيهم لا تحريم قديم كما يدعونه فروي أنّهم لم يجسروا على إخراج التّوّارة وبهتوا وأنقلبوا صاغرين وفي ذلك حجة بينة على صدق النبي وعلى جواز النسخ الذي كانوا ينكرونه. في الكافي - بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: **أَنَّ إِسْرَائِيلَ كَانَ إِذَا أَكَلَ مِنْ لَحْمِ الْإِبِلِ هَيَّجَ عَلَيْهِ وَجَعُ الْخَاصِرَةِ فَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ لَحْمَ الْإِبِلِ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ فَلَمَّا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ لَمْ يَحْرَمْهُ وَلَمْ يَأْكُلِ الْحَدِيثُ وَفِي تَفْسِيرِ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ.**

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ

قال أنّ يعقوب كان يُصيب عرق النساء فحرم على نفسه لحم الإبل (الجمّل) فقالت اليهود أنّ لحم الجمّل محرّم في التّوّارة فقال الله عزّ وجلّ

لَهُمْ: فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ إِنَّمَا حَرَّمَ هَذَا إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ وَلَمْ يُحَرِّمْهُ عَلَى النَّاسِ إِنْتَهَى.

فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ

أي بعد قيام الحجة و ظهور البينة فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ لأنفسهم بفعل ما أوجب العقاب عليهم وإِنَّمَا عَبَّرَ بِالْإِفْتِرَاءِ وَلَمْ يَقْنَعْ بِالْكَذِبِ فَقَطْ أَي لَمْ يَقُلْ فَمَنْ يَقُولُ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لِأَنَّهُ كَذِبُهُمْ هَذَا كَانَ عَنْ عِلْمٍ وَعَمْدٍ وَالْكَذِبُ عَنْ عَمْدٍ يَعْبَرُ عَنْهُ بِالْإِفْتِرَاءِ وَهَذَا يَتِمُّ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ وَظُهُورِ الْبَيِّنَةِ وَأَمَّا قَبْلَهُ فَلَا وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ، وَقِيلَ أَنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُؤَاخِذُ بِهِ بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ بِمَا لَيْسَ بِمَحْجُوجٍ فِيهِ جَرَى مَجْرَى الصَّبِيِّ الَّذِي لَا يَسْتَحَقُّ الْوَعِيدَ بِكَذِبِهِ قَالَهُ الطَّبْرَسِيُّ رحمته:

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

أي قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْيَهُودِ صَدَقَ اللَّهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فِي التَّوْرَةِ مُحَرَّمًا فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا أَي فَاتَّبِعُوا حَقِيقَتًا لَا قَوْلًا وَكَذِبًا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ بِاتِّبَاعِهِ وَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَي أَنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ فَلِمَ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ وَقُلْتُمْ أَنَّ عَزِيرًا ابْنَ اللَّهِ وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ اتِّبَاعِكُمْ لَهُ، لِأَنَّهُ عليه السلام كَانَ مَوْحِدًا لَمْ يَشْرِكْ بِرَبِّهِ طَرَفَةً عَيْنٍ وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ الْمَشْرُكَ لَا يَكُونُ تَابِعًا لِلْمَوْحِدِ وَقَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِيهِ سَابِقًا فَلَا نَعِيدُهُ حَذْرًا مِنَ الْإِطَالَةِ.



إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَ
هُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ
إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ
حِجٌّ آلْبَيْتِ مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ
فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)

◀ اللغة

بَيْتٌ: أصل البيت مأوى الإنسان بالليل لأنه يقال بات أقام الليل كما يقال
ظَلَّ بالنهار ثم قد يقال للمسكن بيت من غير اعتبار الليل فيه وجمعه أبيات و
بُيُوت لكن البيوت بالمسكن أخص والأبيات للشعر وعبر عن مكان الشيء
بأنه بيته وبيت الله والبيت العتيق مكة وإضافة البيت الى الله للتشريف كما
يقال جار الله، عبد الله.

بِكَّةٌ: بكَّة هي مكة، وقيل بطن مكة، وقيل هي إسم المسجد وقيل هي
البيت وقيل هي حيث الطواف وسمي بذلك من التباك أي الإزدحام لأن
الناس يزدحمون فيه للطواف وقيل سُميت مكة بكَّة لأنها تَبَكُّ أعناق الجبابرة
إذا ألدوا فيها بظلم.
مُبَارَكًا: من بَارَكَ يقال بَارَكَ اللَّهُ لك وفيك وعليك وباركك جعلك
مباركًا.

هُدًى: مصدر بمعنى الفاعل أي هادٍ.

آيَاتٌ: جمع آية وهي العلامة.

آمِنًا: آمنة آمنًا فهو آمِن.

حِجٌّ آلْبَيْتِ: أصل الحجَّ القصد للزيارة، قال الشاعر يحجون بيت الزبرقان
المعصفرا، خص في تعارف الشرع بقصد بيت الله تعالى إقامة للنسك فقبل

الحجَّ والحجَّ بكسر الحاء وفتحها فهو بالفتح مصدر وبالكسر إسمه وهو على أقسام والمراد هنا كافر الجحود أي من أنكر أو كفران النعمة وسيأتي البحث فيه.

◀ الإعراب

وُضِعَ لِلنَّاسِ الْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعٍ جَزْ صِفَةِ لَبِيتٍ، وَالْخَبَرُ، لِلَّذِي بِبَيْكَةِ مُبَارَكًا وَهُدًى حَالَانِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي، وَضِعَ وَأَنْ شُتَّ فِي الْجَارِ وَالْعَامِلِ فِيهِمَا الْإِسْتِقْرَارُ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ مَسْأَلَةً مَغْمَرَةً لِمَعْنَى الْبَرَكَةِ وَالْهُدًى وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَوْضِعُهَا حَالًا أُخْرَى وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: لِلْعَالَمِينَ وَالْعَامِلُ فِيهِ هُدًى وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي مُبَارَكًا وَهُوَ الْعَامِلُ فِيهَا وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ صِفَةً، لَهُدًى كَمَا أَنَّ لِلْعَالَمِينَ كَذَلِكَ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ مُبْتَدَأُ وَالْخَبَرُ مَحْذُوفٌ أَيْ مِنْهَا مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ مَنْ دَخَلَهُ مَعْطُوفٌ عَلَيْهِ أَيْ وَمِنْهَا أَمِنْ مَنْ دَخَلَهُ وَقِيلَ هُوَ خَبَرُ تَقْدِيرِهِ، هِيَ مَقَامٌ، وَقِيلَ بَدَلٌ وَقِيلَ، مَنْ دَخَلَهُ، مُسْتَأْنَفٌ وَمَنْ، شَرْطِيَّةٌ حِجٌّ أَلْبَيْتُ مُصَدَّرٌ يَقْرَأُ بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ وَهُمَا لَفْتَانِ وَقِيلَ الْكَسْرُ لِلْمَصْدَرِ، وَهُوَ مُبْتَدَأٌ وَعَلَى النَّاسِ خَبَرُهُ، وَلِلَّهِ، يَتَعَلَّقُ بِالْإِسْتِقْرَارِ فِي، عَلَى، تَقْدِيرِهِ، إِسْتَقَرَّ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ، لِلَّهِ، وَ عَلَى النَّاسِ مُتَعَلِّقٌ بِهِ أَمَّا حَالًا وَأَمَّا مَفْعُولًا مَنْ اسْتَطَاعَ بَدَلٌ مِنَ النَّاسِ بَدَلُ بَعْضٍ مِنْ كُلِّ وَقِيلَ هُوَ فِي مَوْضِعِ رَفْعِ تَقْدِيرِهِ، هُمْ، مِنْ اسْتَطَاعَ وَالْوَاجِبُ عَلَيْهِ مِنْ اسْتَطَاعَ وَقِيلَ هُوَ مَرْفُوعٌ بِالْحِجِّ تَقْدِيرُهُ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَحِجَّ الْبَيْتَ مِنْ اسْتَطَاعَ، وَقِيلَ مَنْ، مُبْتَدَأُ وَشَرْطُ الْجَوَابِ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ مِنْ اسْتَطَاعَ فَلْيَحِجَّ وَذَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: وَمَنْ كَفَرَ، وَجَوَابُهَا

◀ التفسير

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَيْكَةِ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ أَنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضِعَ أَيْ أُثْبِتَ وَقِيلَ أَيْ أَوْجَدَ وَخَلَقَ، لِلَّذِي بِبَيْكَةِ، أَيْ الْبَيْتِ الَّذِي

في بَكَّةَ وهي مَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى وصفان للبيت لِلْعَالَمِينَ رُوي عن مجاهد أنه تفاخر المسلمون واليهود فقالت اليهود بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء وفي الأرض المقدسة وقال المسلمون بل الكعبة أفضل فنزلت الآية، وقيل لما حَوَّلَت القبله الى الكعبة طعنوا في نبوة رسول الله ﷺ وقالوا بيت المقدس أفضل وأحق بالإستقبال لأنه وُضع قبل الكعبة وهو أرض المحشر و قبله جميع الأنبياء فأكذبهم الله في ذلك بقوله: **أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ** كما أكذبهم في دعواهم قبل ذلك.

واختلفوا في معنى كونه **أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ** فقيل هو أول بيت ظهر على وجه الماء حين خلقت السموات والأرض، خلقه قبل الأرض بألفي عام وكان زبدة بيضاء على الماء فدحيت الأرض تحته، وقيل هو أول بيت بناه آدم في الأرض، وقيل لما أهبط آدم قالت له الملائكة طُفْ حَوْلَ هَذَا الْبَيْتِ فَلَقَدْ طَفْنَا قَبْلَكَ بِأَلْفِي عام وكان موضعه قبل آدم بيت يقال له الفراح فرفع في الطوفان الى السماء الرابعة يطوف به ملائكة السموات وقيل أن شيث بن آدم هو الذي بنى الكعبة بالطِّين والحجارة على موضع الخيمة التي كان الله وَضَعَهَا لِآدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ.

ثم وصف البيت بكونه مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ أما بركته فلما يحصل فيه من الثواب وتكفير السيئات لمن حجَّ وإعتمر وطاف به وعكف عنده وقيل أن بركته ما ذكر في قوله تعالى: **يُجْزَى إِلَيْهِ فُجْرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ** ^(١) وقيل بركته دوام العبادة فيه ولزومها، وقيل بركته تضعيف الثواب فيه، أو لأنه مغفرة للذنوب أو تطهيره منها، وأما كونه هُدًى فقيل أي قبله، وقيل رحمة، وقيل صلاح بيان ودلالة على الله بما فيه من الآيات التي لا يقدر عليها غيره تعالى هذا ما ذكره القوم في تفسير الآية وأنا أقول:

في تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

الحَقُّ أَنْ قَوْلُهُ: **أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ فِيهِ** يحتمل معان:
الأول: أن يكون المراد: **أَوَّلَ بَيْتٍ** أَوْجَدَ اللَّهُ مَكَانَهُ وَعَيْنَهُ وَمِيزَهُ وَشَخَصَهُ
 قبل إِتْخَاذِ الْأَرْضِ وَيَدَّلَ عَلَيْهِ.

ما رواه مُحَمَّدُ بْنُ عِمْرَانَ الْعَجَلِيُّ قَالَ سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَيُّ شَيْءٍ كَانَ
 مَوْضِعَ الْبَيْتِ حَيْثُ كَانَ الْمَاءُ فِي قَوْلِهِ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ
 قَالَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** كَانَ مِهَادَ بَيْضَاءَ يَعْنِي دَرَّةً.

و فِي الْكَافِيِّ عَنْ أَبِي خَدِيجَةَ قَالَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَ الْحَجَرَ
 لَأَدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَكَانَ الْبَيْتُ دَرَّةً بَيْضَاءَ فَرَفَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى
 السَّمَاءِ وَبَقِيَ أَشْهُهُ وَهُوَ بِحِيَالِ الْبَيْتِ يَدْخُلُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ
 مَلَكٍ لَا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ أَبَدًا فَأَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
 عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بَيْنَانِ الْبَيْتِ عَلَى الْقَوَاعِدِ انْتَهَى

الثاني: أن يكون المراد أنه أول موجود في الأرض ويدل عليه ما رواه
 فِي الْكَافِيِّ عَنْ أَبِي حَسَّانَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** قَالَ لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ
 وَجَلَّ أَنْ يَخْلُقَ الْأَرْضَ أَمَرَ الرِّيحَ فَضْرَبَتْ مَتْنِ الْمَاءِ حَتَّى صَارَ
 مَوْجًا ثُمَّ أَزْبَدَ فَصَارَ زَبَدًا وَاحِدًا فَجَمَعَهُ فِي مَوْضِعِ الْبَيْتِ ثُمَّ جَعَلَهُ
 جَبَلًا مِنْ زَبَدٍ ثُمَّ دَحَى الْأَرْضَ مِنْ تَحْتِهِ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: **إِنَّ
 أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَكَكَ مُبَارَكًا وَهُدًى**

و فِي تَفْسِيرِ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أَنَّهُ قَالَ:
 لِلْأَبْرِشِ يَا أَبْرِشْ هُوَ كَمَا وَصَفَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَالْمَاءُ عَلَى
 الْهَوَاءِ وَالْهَوَى لَا يَحْدُّ وَلَمْ يَكُنْ يَوْمئِذٍ خَلْقٌ غَيْرُهُمَا وَالْمَاءُ يَوْمئِذٍ
 عَذِبُ فِرَاتٍ فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ وَذَكَرَ إِلَى آخِرِ مَا نَقَلْنَا عَنْ
 الْكَافِيِّ.

و رَوَى فِي عَيُونِ الْأَخْبَارِ عَنِ الرِّضَا **عَلَيْهِ السَّلَامُ** فِي جَوَابِ مَسَائِلِ مُحَمَّدٍ

بن سنان علّة وضع البيت وسط الأرض أنّه لا موضع للذي من تحته دحيث الأرض وكلّ ريح تهبّ في الدنيا فأنّها تخرج من تحت الرّكن الشّامي وهي أوّل بقعة وضعت في الأرض لأنّها وسط ليكون الفرض لأهل المشرق والمغرب سواء انتهى.

وفي حديث آخر عن أبي عبد الله عليه السلام في جوابه لإبن أبي العوجاء خلق الله البيت قبل دحو الأرض بألفي عام.

الثالث: كونه أوّل بيت بُني على وجه الأرض ويدلّ عليه ما رواه في الفقيه قال أنّ الله تعالى أنزل البيت من السّماء وله أربعة أبواب على كلّ باب قنديل من الذهب معلّق.

وروي عن موسى ابن جعفر عليه السلام أنّه قال: في خمسة وعشرين من ذي القعدة أنزل الله الكعبة البيت الحرام فمن صام ذلك اليوم كان كفّارة سبعين سنة وهو أوّل يوم أنزل فيه الرّحمة من السّماء إلى آدم.

وفي الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام: أنّ أسماء مكّة خمسة: أمّ القرى، ومكّة، وبكّة، والبساسة، اذا ظلموا بها بستهم أي أخرجتهم وأهلكتهم، وأمّ رحم، اذا لزموها رجّموا وفي علل الشّرائع بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال أنّما سمّيت مكّة بكّة لأنّ النّاس يتباكون حولها، وقيل لبكاء النّاس حولها.

و عن أبي عبد الله عليه السلام قال: موضع البيت مكّة والقرية، مكّة، وأمّا كونه مباركا وهدى للعالمين فالمراد بالبركة كثرة المنافع الدنيوية والأخروية كما ورد في الأخبار من أنّ الحجّ يطيل العمر ويكثر المال ويحطّ الذّنوب ونحو ذلك من المنافع، وقوله آيات بيّنات، مفسّر لقوله هدى أي دلالة لما روي عن ابن سنان قال سألت أبا عبد

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ مَا هَذِهِ
الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ قَالَ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ حَيْثُ قَامَ عَلَى الْحَجَرِ فَأَثَرَتْ فِيهِ
قَدَمَاهُ وَالْحَجَرُ الْأَسْوَدُ وَمَنْزِلُ إِسْمَاعِيلَ.

أَقُولُ لَا يَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِكَوْنِهِ هُدًى لِلْعَالَمِينَ، هَدَايَةُ الْبَيْتِ إِلَيْهِمْ إِلَى
السَّعَادَةِ وَالْقُرْبَةِ وَالْإِلَافَةِ وَالْمُسَاعَدَةِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ وَذَلِكَ لِأَنَّ إِجْتِمَاعَ
النَّاسِ حَوْلَهُ وَهَكَذَا طَوَافُهُمْ وَدَعَاءُهُمْ وَاذْكَارُهُمْ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ يَدُلُّهُمْ عَلَى
الْإِلَافَةِ وَالْوَحْدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ بِمَنْزِلَةِ الْيَدِ الْوَاحِدَةِ عَلَى مَنْ سَوَاهُمْ
وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ فِيهِ عِنْدَ الْبَحْثِ فِي أَسْرَارِ الْحَجِّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا

اِخْتَلَفُوا فِي قِرَاءَةِ الْآيَةِ فَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ فِيهِ آيَةُ بَيِّنَةٌ عَلَى التَّوْحِيدِ
يَعْنِي مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَحَدَّهُ قَالُوا أَثَرُ قَدَمَيْهِ فِي الْمَقَامِ آيَةُ بَيِّنَةٌ وَفَسَّرَ مُجَاهِدٌ مَقَامَ
إِبْرَاهِيمَ بِالْحَرَمِ كُلِّهِ فَذَهَبَ إِلَى أَنَّ مِنْ آيَاتِهِ الصَّفا والمروة والركن والمقام و
الباقيون بالجمع أرادوه مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَالْحَجَرُ الْأَسْوَدُ وَالْحَطِيمُ وَزَمَزَمُ وَ
الْمَشَاعِرُ كُلُّهَا، قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ مَنْ قَرَأَ آيَاتُ بَيِّنَاتٍ، فَقَرَأَتْهُ أَبِينٌ لِأَنَّ
الصَّفا والمروة مِنَ الْآيَاتِ وَمِنْهَا أَنَّ الطَّائِرَ لَا يَعْلُو الْبَيْتَ صَحِيحًا، وَمِنْهَا أَنَّ
الْجَارِحَ يَطْلُبُ الصَّيْدَ فَإِذَا دَخَلَ الْحَرَمَ تَرَكَهُ، وَمِنْهَا أَنَّ الْغَيْثَ إِذَا كَانَ نَاحِيَةَ
الرَّكْنِ الْيَمَانِيِّ كَانَ الْخَصْبُ بِالْيَمِينِ وَإِذَا كَانَ نَاحِيَةَ الشَّامِيِّ كَانَ الْخَصْبُ
بِالشَّامِ وَإِذَا عَمَّ الْبَيْتَ كَانَ الْخَصْبُ فِي جَمِيعِ الْبُلْدَانِ وَمِنْهَا أَنَّ الْجَمَارَ مَا يَزِيدُ
عَلَيْهَا تَرَى عَلَى قَدَرٍ وَاحِدٍ، قَالَ الْأَخْفَشُ إِذَا رَفَعَ الْمَقَامَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَالنَّخِيرِ
مَحْذُوفٌ وَالتَّقْدِيرُ مِنْهَا مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَيْهِ فَقَوْلُهُ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْآيَاتِ
الْبَيِّنَاتِ وَحَكَى عَنْ بَعْضِ التَّحْوِيلِينَ أَنَّهُ قَالَ، مَقَامٌ بَدَلَ مِنْ آيَاتٍ كَأَنَّهُ قِيلَ وَمَا
الْآيَاتُ قِيلَ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَهَذَا قَوْلُ ثَالِثٍ وَهُوَ أَنَّ التَّقْدِيرَ هِيَ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ
صَاحِبُ الْكَشَافِ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ عَطَفَ عَلَى بَيَانِ لِقَوْلِهِ: آيَاتُ بَيِّنَاتٌ فَأَنْ قُلْتُ
كَيْفَ صَحَّ بَيَانُ الْجَمَاعَةِ بِالْوَاحِدِ قُلْتُ فِيهِ وَجْهَانِ:

أحدهما: أن يجعل وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالة على قدرة الله ونبوة إبراهيم من تأثير قدمه في حجر صلد كقوله تعالى: **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً**.

الثاني: إشتماله على الآيات لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية وغوصه الى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية وإبقاءه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية خاصة لإبراهيم، وحفظه مع كثرة أعداءه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف سنة آية انتهى كلامه وقال بعض المحققين أن الضمير في قوله: **فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ** يرجع الى البيت بالاتفاق ومعناه أن في البيت آيات بينات وهو كذلك إلا أن الذي تعرضت له الآية هو مقام إبراهيم ولم تتعرض لسائر الآيات الموجودة فيه لأنه أي مقام إبراهيم، آية باقية على مرّ الأعصار وذلك لأنه لما قام إبراهيم على حجر المقام وقت رفعه القواعد من البيت طال له البناء فكلما علا الجدار ارتفع الحجر في الهواء فما زال يبني قائم عليه وإسماعيل يناوله الحجارة والطين حتى كمل الجدار ثم أراد الله تعالى إبقاء ذلك آية للعالمين لين الحجر فعرفت فيه قدما إبراهيم كأنها في طين فذلك الأثر باق الى اليوم وقد نقلت كافة العرب ذلك في الجاهلية على مرور الأعصار وقال في ذلك أبو طالب:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبةً على قدميه حافياً غير فاعلٍ
ولم يناع في هذا القول أحد انتهى.

وقيل أن سبب أثر قدميه في هذا الحجر أنه وافى مكة زائراً من الشام فقالت له زوجة إسماعيل أنزل حتى أغسل رأسك فأبى أن ينزل فجاءت بهذا الحجر من جهة شقة الأيمن فوضع قدمه حتى غسّلت شق رأسه ثم حوّلت الى شقة الأيسر حتى غسّلت الشق الآخر فبقي أثر قدميه فيه انتهى.

أقول منشأ الاختلاف من حيث المعنى يرجع الى الاختلاف في القراءة كما

أشرنا اليه في صدر البحث و ذلك لأن من قرأها، فيه أية بيّنة فقد فسّرَها بأثر قدميه في المقام وهو واضح و أما على قراءة الجمهور فيه **أَيَاتُ بَيِّنَاتٍ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ** فلا محالة إبراهيم بدّل من الآيات بدّل كلّ من كلّ لأنّ التّقدير على هذا، هُنَّ مقام إبراهيم وحيث أنّهم أعربوا مقام إبراهيم على البدلية وهو الرّفع فيلزم أن يبدل المفرد من الجمع وقد أجابوا عنه بوجهين على ما نقلناه عن صاحب الكشّاف و نقلنا الوجهين اللّذين ذكرهما في الجواب هذا ما ذكره في الإعراب والمعنى و أما قوله: **وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا** الظّاهر أنّ الضّمير في قوله: **وَمَنْ دَخَلَهُ** عائذ إلى البيت أي ومن دخل البيت و ذلك لأن البيت هو المحدّث عنه في المقام وهو المقيد بتلك القيود من البركة والهدى و الآيات البيّنات من مقام إبراهيم وغيره ولا يمكن عوده على مقام إبراهيم اذا فسّرناه بالحجر قيل أنّ ظاهر الآية و سياق الكلام أنّ هذه الجملة هي مفسّرة لبعض آيات البيت و مذكرة العَرَب بما كانوا عليه في الجاهليّة من إحترام البيت و أمن من دخله من ذوي الجرائم وكانت العرب يغير بعضها على بعض و يتخطّف النّاس بالقتل.

ثمّ أنّ البحث يقع في مقامين.

الأول: من جهة الإعراب.

الثاني: من حيث المعنى.

أمّا الأول ففيه قولان:

أحدهما: أنّ الواو للإستئناف وكلمة مَنْ، مبتدأ وكان آمنا خبره.

الثاني: أنّ الواو للعطف وكلمة مَنْ، شرطيّة والجملة معطوفة على مقام إبراهيم أي و منها أمن من دخله فعلى هذا تكون هذه أية ثانية من الآيات و الأيتان جمع كما قيل فيصّح كون ذلك بياناً لقوله: **أَيَاتُ** قال صاحب الكشّاف و قرأ ابن عباس وأبّي ومجاهد وأبو جعفر المدني في رواية قُتيبة، أية بيّنة، بدّل

آيات بيّنات أي آية بيّنة على التّوحيد وفيها دليل على أن مقام إبراهيم وحده عطف بيان.

فأن قلت كيف أجزت أن يكون مقام إبراهيم والأمن عطف بيان للآيات و قوله: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا جملة مستأنفة ابتدائية وأما شرطية قلت أجزت ذلك من حيث المعنى لأنّ قوله: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا دلّ على من دخله فكأنه قيل فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم وأمن داخله ألا ترى أنك لو قلت فيه آية بيّنة من دخله كان آمناً صحّ لأنّه في معنى قولك فيه آية بيّنة أمن من دخله انتهى.

أقول محض كلامه هو أن من دخله كان آمناً معطوف على مقام إبراهيم من حيث المعنى لا من حيث اللفظ لأنّه في معنى أمن من دخله أي ومنها أمن من دخله. وأما من حيث المعنى فإنهم اختلفوا في معنى الأمن والمراد به فقال قوم معناه، آمناً من النّار يوم القيامة، وهو كما ترى كلام لا يساعده العقل ولا النّقل اذ كيف يقال من دخل الحرم كان آمناً من النّار يوم القيامة بقول مطلق اللهم إلا أن يقيد الدّخول بالإيمان والإخلاص ونحوهما أي أنّ المؤمن المخلص اذا دخله كان آمناً من النّار ولقائل أن يقول أنّ المؤمن المخلص يكون آمناً من النّار دخل الحرم أو لا فالتقييد لا يفيد أيضاً مضافاً الى عدم الدّليل عليه فهذا القول لا يعتمد عليه.

وقال قوم معناه، كان آمناً من الحدّ والقصاص وقطع اليد في صورة السرقة وأمثال ذلك مادام كونه عائداً لائذاً بالبيت وأما اذا خرج من الحرم فيقام عليه الحدّ ويقتص منه ولا يجوز إخراجه منه نعم يضيق عليه حتّى اضطرّ الى الخروج.

وقال قوم يجوز إخراجه منه لإقامة الحدود والقصاص، وقال أبو حنيفة أن كانت الجنابة في النّفس لم يقتص منه ولا يخالط فيما دون النّفس أقتص منه

في الحرم وقال مالك في رواية لا يقتص منه فيه لا بقتل ولا فيما دون النفس ولا يخالط هذا كله اذا كانت الجناية في غير الحرم ثم إلتجأ الجاني اليه. وأما اذا كانت الجناية في الحرم فيقام عليه الحدّ ويقتص منه فيه بلا كلام فإن قتل فيه قتل فيه وأن سرق فيه، قطع فيه، وهكذا ممّا إنفق عليه الكلّ وأنما الخلاف فيما اذا كانت الجناية في غير الحرم ثم إلتجأ اليه والحقّ في المقام أنّه اذا إلتجأ بالحرم لا يجوز إخراجه منه بل يضيق عليه الى أن خرج بنفسه ثم يقام عليه الحدّ قلنا يضيق عليه لأنّه لولا التضييق لن يخرج أبداً وهو أي عدم الخروج يوجب تعطيل الحدود وما أوجب تعطيل الحدّ لا يجوز فعدم التضييق ويجاد الرفاه له لا يجوز فالتضييق لازم لكونه مقدّمة لإجراء الحدود الواجبة وما لا يتم الواجب إلاّ به واجب فالتضييق واجب هذا مذهب الحقّ في المقام ووافقنا فيه كثير من علماء العامة لولا أكثرهم كما عرفت فقال أبو حنيفة اذا لجأ الى الحرم لا يطعم ولا يسقى ولا يعامل ولا يكلم حتّى يخرج وروي عنه أنّه قال يقع القصاص في الأطراف في الحرم ونقل القرطبي عن ابن عباس أنّه قال من أصاب حدّاً في الحرم أقيم عليه فيه وأن أصابه في الحلّ ولجأ الى الحرم لم يكلم ولم يبايع حتّى يخرج من الحرم فيقام عليه الحدّ وهو قول الشعبي.

وممن خالف هذا الحكم من علماء العامة الطبري فأنّه قلّد في المسألة عبد الله بن الزبير وهو يقول بوجوب الإخراج نقل الطبري في تفسيره الأقوال في المسألة ونقل عن ابن الزبير أنّه أخرج سعداً مولى معاوية من الحرم ثم قتله وصلبه ولم يصنع الي قول ابن عباس لمّا منعه عن إخراجه سعداً منه ثم قال الطبري في آخر كلامه وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول ابن الزبير. أقول العجب من الطبري كيف أخذ في المسألة بقول ابن الزبير وهو هو ثم نقول ما فعله ابن الزبير في إخراجه سعداً من الحرم ثم قتله وصلبه فقد فعل به

الحجاج بن يوسف الثقفي فإنه قتل ابن الزبير وكثيراً من أصحابه في الحرم ثم صلب ابن الزبير في خارج الحرم وابن الزبير هذا هو الذي هتك حرمة الحرم وتابعه فيه الحجاج والحاصل أن أعمال هذه الأراذل الذين يفعلون كل قبيح لِدوام حكومتهم وبقاء رئاستهم في كل عصر وزمان لا تصلح للذكر فضلاً عن كونها مستنداً في الأحكام الشرعية فمن ابن الزبير وعبد الملك ويزيد معاوية وأمثالهم حتى يستند بأقوالهم وأفعالهم في الإسلام وليس هذا أول قارورة كسرت في الإسلام هذا تمام الكلام في تفسير الآية من حيث ألفاظها على ما سلك إليه القوم بقي هنا شيء لا بد لنا من التنبيه عليه وهو أن الأمن في قوله: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا أن كان المراد به الأمن في الدنيا من الظالم وغيره فنحن نرى أنه لا يوجد بل ولم يوجد بعد رسول الله في الحرم وذلك لأن الخلفاء والحكام كانوا لا يراعون حرمة الحرم والأن أيضاً كذلك ألم يخرج ابن الزبير سعداً مولئ معاوية من الحرم وكان عانداً به ثم قتله وصلبه مع أصحابه كما نقله الطبري وجعله أصلاً ومأخذاً لمذهبة كما مر ثم بعد ابن الزبير ألم يقتل حجاج بن يوسف الثقفي لعنه الله بأمر عبد الملك بن مروان خلقاً كثيراً منهم ابن الزبير في المسجد على ما هو مذكور في التواريخ فقوله تعالى: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ما معناه.

والجواب عنه من وجهين:

أحدهما: أن الأحكام التشريعية قد يتخلف المراد فيها عن الإرادة وذلك لتوسط الاختيار من العبد بين الإرادة والمراد كما أن الله تعالى أمر بالصلاة والصوم والحج والزكاة وأمثالها مع أن العبد قد لا يصلي ولا يصوم وهكذا لأنه مختار في فعله ولإنتفاء الجبر في الإسلام وما نحن فيه من هذا القبيل فقوله: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا يدل على وجوب الأمن لمن لجأ إليه تشريعاً أي أن الله تعالى هكذا شاء وأراد ثم أمر العباد به إلا أنهم لم يمتثلوا أمره كسائر أوامره التشريعية وقد تكلمنا فيه سابقاً.

ثانيهما: أن يكون المراد بالأمن بالأمن من العذاب يوم القيامة لا الأمن في المال والنفس في الدنيا إلا أن الدخول في هذه الصورة لابد من تقييده بقيد إذا هو على الإطلاق لا يصح كما مر الكلام فيه و يظهر من الأخبار المأثورة عن أهل البيت أن القيد عبارة عن معرفة الداخل بحق أهل البيت عليهم والمراد بالمعرفة معرفتهم بالولاية وأنها أي الولاية بمنزلة الروح بالنسبة إلى البدن فالبيت أو المسجد و أمثالهما بمنزلة الجسم و ولاية أهل البيت بمنزلة الروح كذلك بقاء البيت و حياته المعنوية ببركة أهل البيت وهذا لا يختص بالبيت فقط بل جميع الأحكام من الصوم والصلاة وغيرهما وبالجمله الذين كلهم بمنزلة الجسم والولاية فيه بمنزلة الروح فأذن الله تعالى لا يقبل عملاً أى عمل كان و من أي شخص صدر إلا على أساس الولاية والأخبار به ناطقة و ما نحن فيه أيضاً من هذا القبيل فالمعنى و من دخل الحرم عارفاً بحق أهل البيت من حيث الولاية كان آمناً من العذاب غداً يوم القيامة والإخلاص والإيمان بدون الولاية محال والى هذا المعنى يشير.

ما رواه العياشي في تفسيره عن علي بن عبد العزيز قال قلت لأبي عبد الله جعلت فداك قول الله عز وجل: **فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا** وقد يدخل المرجئي والقُدري والحروري والزنديق الذي لا يؤمن بالله، قال **عليه السلام** لا ولا كرامة، قلت فمَنْ، جعلت فداك قال **عليه السلام** وَمَنْ دَخَلَهُ وهو عارف بحقنا كما هو عارف به خرج من ذنوبه وكفي هم الدنيا والآخرة انتهى.

و ما رواه في الكافي عن عبد الخالق الصيقل قال: سألت أبا عبد الله عن قول الله عز وجل: **وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا** قال **عليه السلام**: لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد إلا من شاء الله قال **عليه السلام** من أم هذا البيت وهو يعلم أنه البيت الذي أمره الله عز وجل به و عَرَفْنَا أهل البيت حق معرفتنا كان آمناً في الدنيا والآخرة انتهى.

وما رواه الصّدوق في أماليه في حديث طويل بأسناده عن
النبي ﷺ وفيه يقول جلّ جلاله في حقّ عليّ عليه السلام وجعلته العلم
الهادي من الضلالة وباب الذي أوتي منه وبيتي الذي من دخله كان
أمنًا انتهى.

و أمثال هذه الأحاديث كثيرة ولا يبعد أن يكون السرّ في ولادة عليّ في
الكعبة هو أنّ عليّاً عليه السلام أهلها والكعبة بيته وبيته بيت الله ومن دخل بيتاً بدون
أذن صاحبه فهو غاصب والأذن هنا الولاية فمن دخل الكعبة ولم يوال عليّاً و
المعصومين من ولده فقد دخل البيت بغير رضی صاحبه فكيف يكون أمناً من
عذاب الله وسخطه يوم القيامة وليس هذا ممّا انفردت به الامامية بل هو أمر
مسلم مقطوع عند من تجنّب عن التعصّب والعناد ألا ترى:

يا سائلي أين حلّ الجود والكرم عندي بيان اذ طلبه قدموا
هذا الذي أحمد المختار والده صلّى عليه إلهي ما جرى القلم
إلى أن قال:

هذا الذي تعرف البطحاء وطئته والبسيت يعرفه والحلّ والحرّم
يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم اذا ما جاء ليستلم
ينشق نور الهدى عن نور عزّته كالشمس تنجاب عن إشراقها الظلم
إلى أن قال:

ستدفع الشؤم والبلوى بحُبهم ويستربّ به الإحسان والنعم
مقدّم بعد ذكر الله ذكرهم في كلّ حالٍ ومختوم به الكلم
إلى آخر القصيدة، وكيف لا تكون ولا يتهم أماناً من النار وأمير
المؤمنين عليه السلام هو الذي طهر البيت عن الأصنام والأرجاس ولنعم ما قال
النجاشي:

إمامٌ علا من خاتم الرّسل كاهلاً وقد كان عبلاً يحمل الظّهر كاهله

ولكن رسول الله علاه عامداً
وذلك يوم الفتح والبيت قبله
فشرفه خير الأنام بحمله
فلما دحى الأصنام أوفى بكفه
أيعجز عنه من دحى باب خيبر
وقال الحميري:

ولدت في حرم الإله وأمنه
بيضاء طاهرة الثياب كريمة
في ليلة غابت نحوس نجومها
ما لفت في خرق القوابل مثله

فأشرف البقاع الحرم وأشرف المسجد وأشرف بقاع المسجد الكعبة و
أفضل جهات الكعبة جوفها ولم يولد فيه مولود سواه فالمولود فيه في غاية
الشرف والفضل وفضل الكعبة وشرفها به لا فضله وشرفه بها فاذا قلنا وقالوا
من دخل الحرم مالياً فهو آمن من سخط الله في الدنيا والآخرة فلا تعجب منه
وذلك لأنه:

نَطَقَتْ دَلَائِلُهُ بِفَضْلِ صِفَاتِهِ بَيْنَ الْقِبَائِلِ وَهُوَ طِفْلٌ يُرْضَعُ

وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ
غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

قيل اللآم في قوله: وَلِلَّهِ لام الإيجاب والإلزام أي يجب ويلزم من الله
تعالى على الناس حج البيت ويحتمل أن تكون اللآم للاختصاص أي أن الحج
مخصوص به قيل في هذا الكلام أنواع من التوكيد والتشديد منها قوله: وَلِلَّهِ
عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ يعني أنه حق واجب لله تعالى في رقاب الناس لا
ينفكون عن أدائه والخروج من عهده.

ومنها أنه ذكر النَّاسِ ثمَّ أبدل عنه من استطاع اليه سبيلاً وفيه ضربان من التأكيد.

أحدهما: أنَّ الإبدال تشنيةً للمراد وتكريراً له.

الثاني: أنَّ الإيضاح بعد الإيهام والتفصيل بعد الإجمال إيراداً له في صورتين مختلفتين.

ومنها قوله: **وَمَنْ كَفَرَ مَكَانَ وَمَنْ لَمْ يَحْجَّ تَغْلِيظاً عَلَى تَارِكِ الْحَجِّ.**
ومنها ذكر الإستغناء عنه وذلك ممَّا يدلُّ على المَقْتِ والسَّخَطِ والخِذْلَانِ.
ومنها قوله: **عَنِ الْعَالَمِينَ** وأنَّ لم يقل عنه، وما فيه من الدلالة على الإستغناء عنه ببرهانٍ لأنَّه إذا استغنى عن العالمين تناوله الإستغناء لا محالة و لأنَّه يدلُّ على الإستغناء الكامل فكان أدلُّ على عظم السَّخَطِ الَّذِي وقع عبارة عنه.

وأما الألف واللام في البيت فللعهد اذ قد تقدَّم **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ** فقوله **حِجُّ أَلْبَيْتِ** أي البيت المعهود المذكور هناك ثمَّ أنَّ في الآية مسائل ينبغي التنبيه عليها.

المسألة الأولى: في قوله: **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ أَلْبَيْتِ** لفظ النَّاسِ هنا ظاهر العموم فيشمل الذكر والأنثى ممَّنْ يَصَحُّ توجيه الخطاب اليه من المكلفين فيخرج به غير البالغ وغير العاقل لأنَّ من شرائط التكليف البلوغ والعقل ويدلُّ على ذلك مضافاً الى الإجماع قوله **ﷺ** رفع القلم عن الصَّبيِّ حتَّى يبلغ وعن المجنون حتَّى يفيق، وما رواه الشَّيْخُ عن شهاب قال سألتَه عن أبي عشر سنين يحجَّ قال **ﷺ** عليه حجة الإسلام اذا إحْتَلَمَ وكذا الجارية عليها حجة الإسلام اذا طَمِئَتْ

الثانية: قوله: **مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ** ويدخل في غير المستطيع المملوك و يدلُّ عليه مع الإجماع روايات كثيرة.

ما رواه عليّ ابن آدم بن عليّ عن أبي الحسن قال عليه السلام: ليس على المملوك حجّ ولا عمرته حتّى يعتق.

و صحيحة عليّ بن جعفر عن أخيه موسى عليه السلام قال: المملوك اذا حجّ ثمّ أعتق فإنّ عليه إعادة الحجّ ونحوهما من الأخبار ولأجل ذلك قالوا يدخل في غير المستطيع المملوك لأنّه غير مستطيع واقعاً وأن شئت قلت يخرج الصّبي والمجنون بقوله: وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ويخرج العبد بقوله: مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ولأجل ذلك قالوا من شرائط الحجّ البلوغ والعقل والحرية.

ثمّ أنّ الإستطاعة فالمراد بها الزّاد والراحلة، أمّا الزّاد فهو أن يملك ما يمونه من القوت والمشروب بقدر حاله الى الحجّ والى الإياب الى وطنه وأن لم يكن له أهل فاضلاً عن حاجته من المسكن وعبد الخدمة و ثياب البذلة والتّجمل ونفقة عياله الى الإياب.

و أمّا الراحلة فيعتبر في حقّ من يفتقر الى قطع المسافة وأن قصّرت عن مسافة القصر ويشترط راحلة مثله وان قدر على المشى ولو لم يجد الزاد والراحلة وامكنه الشّراء وجب وأن زاد عن ثمن المثل على رأي ولو منع من دينه غيره فعاجز وإلاّ فقاد والمديون يجب عليه الحجّ أن فضل ماله ممّا عليه كان مؤجلاً بقدر الإستطاعة وإلاّ فلا ثمّ أنّه يشترط مع ذلك كلّ إمكان المسير الى الحجّ للمتطيع وهو يتحقّق بأمر أربعة:

أحدها: الصّحة فلا يجب على المريض المتضرّر بالركوب والسفر ولو لم يتضرّر وجب.

الثاني: التّثبت على الراحلة فالمغضوب غير المستمسك عليها والمحتاج الى الزّميل مع فقدّه لا حجّ عليهما.

الثالث: أمن الطّريق في النفس والبضع والمال فيسقط الحجّ مع الخوف على النفس من عدوّ أو سبع.

الرابع: اتَّسَاع الوقت لقطع المسافة فلو إستطاع وقد بقي من الوقت ما لا يسع لإدراك المناسك سقط في عامه ولو مات حينئذٍ لم يقض عنه والمرأة كالرجل في الإستطاعة ولو خافت المكابرة أو إحتاجت الى مَحْرَمٍ وتعذّر سقط ولو تعذّر إلا بمالٍ مع الحاجة وجب مع المُكْنَة.

فاذا إجتمعت الشرائط وأهمل إثم واستقرّ الحجّ في ذمّته ويجب عليه قضاؤه متى تمكّن منه على الفور ولو مَشِياً فأن مات حينئذٍ وجب أن يحجّ عنه من صلب تركته و تفصيل الكلام في فروع الحجّ مسطورٌ في كتب الفقه هذا على مذهب الخاصّة.

وأما العامّة فذهب مالك الى أنّ الإستطاعة تحصل بالبدن فيجب الحجّ على من قدر على المشي والكسب في الطريق ولو بسؤال النَّاس إذا كان من عادته ذلك وقال الشافعي أنّها تحصل بالمال فقط ومن أوجب الإستنابة على الزّمن المقعد اذا وجد أجرة من ينوب عنه.

وقال أحمد بن حنبل الإستطاعة هي قدرة على الزّاد والراحلة الصّالحة لمثله ومن شروط وجوب الحجّ أَمْن الطريق بحيث لا يوجد مانع من خوفٍ على النفس أو المال أو العرض وأمّا المرأة فإنّه لا يجب عليها الحجّ إلا اذا كان معها زوجها أو أحدٌ من محارمها، كأخ أو ابنٍ أو عمٍّ أو أبٍ أو نحوهم ممّن لا تحلّ له ومن شروط وجوبه أن يكون مبصراً فأن كان أعمى فلا يجب عليه أداء الحجّ إلا اذا وجد قائداً يقوده وإلا فلا يجب عليه الحجّ لا بنفسه ولا بغيره.

وقال أبو حنيفة الإستطاعة هي القدرة على الزّاد والراحلة بشرط أن يكون زائدين على حاجاته الأصليّة كلابدين الذي عليه والمسكن والملبس و المواشي اللازمة له وأن يكونا زائدتين عن نفقة من تلزمه نفقتهم مدّة غيابه الى أن يعود و يعتبر في الرّاحلة ما يليق بالشّخص عادةً وعزماً و تفصيل كلامهم أيضاً موجود في كتبهم ومُحَصَّل الكلام هو أنّه لا خلاف بين المسلمين في

أصل وجوبه في العمر مَرَّةً واحدة وأيضاً لا خلاف بينهم في اشتراط وجوبه بالبلوغ والحرية والعقل والإستطاعة.

مسألة يجب الحج على المكلف مع الشرائط وهذا ممّا لا كلام فيه وأنما الكلام في أنّ وجوبه على الفور أو على التراخي فنحن نقول بالفور ولم يخالف فيه أحد من علماء الشيعة.

فقد روي زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام التاجر يسوف الحج قال: ليس له عذر فإن مات فقد ترك شريعة من شرائع الإسلام انتهى.

وصحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام: قال الله تعالى: وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حَلُّ الشَّعَثِ هَذِهِ لَمَنْ كَانَ عَنْده مال وصحة وأن كان سوفه للتجارة فلا يسعه وأن مات على ذلك فقد ترك شريعة من شرائع الإسلام اذا هو يجد ما يحج به انتهى

وفي رواية محمد بن الفضيل عن الكاظم عليه السلام في قوله: هَلْ تُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً أَنَّهُم الَّذِينَ يَتِمَادُونَ عَنِ الْحَجِّ وَيُسَوِّفُونَهُ انتهى.

والأخبار كثيرة والمراد بالفورية لزوم المبادرة اليه أول أعوام الإستطاعة مع الإمكان وإلا ف فيما يليه وهكذا.

وأما العامة فالمشهور عندهم أنّه واجب موسّع.

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية، الثانية، وذلك الكتاب والسنة على أنّ الحج على التراخي لا على الفور وهو تحصيل مذهب مالك وبه قال الشافعي أيضاً على ما نقل عنه، وأما أبو حنيفة وابن حنبل فقليل أنهما قالا بوجوبه على الفور.

وأما قوله: وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ فقليل في معناه، أي فعل فعل الكفرة وقيل المراد بالكفر هنا الترك لأنّه أحد معانيه، وقد روي عن

أبي عبد الله عليه السلام ذلك، وقيل معناه من كفر، بسبب إنكار الحج لأن وجوبه من ضروريات الدين والمنكر للضروري كافر وقيل معناه، ومن كفر بتركه الحج. ونقل عن ابن عباس أنه قال ومن كفر، أي كفر بفرض الحج ولم يره واجباً وعن الحسن البصري أن من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر. أقول الحق أن الكفر في الآية بمعنى الترك لا بمعنى الإرتداد عن الدين و يحتمل حمله على كفران النعمة أيضاً وعلى أي حال لا يحكم على تاركه أنه كافر مرتد عن الإسلام والسّر فيه هو أن هذه اللفظة، أعني بها الكفر تطلق على خمسة أوجه:

أحدها: الإنكار ومنه:

قال الله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ^(١) أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** الذين جحدوا أي أنكروا توحيد الله.

ثانيها: إنكار التوحيد مع العلم بكونه حقاً ومنه:

قال الله تعالى: **وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِخُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ^(٢)** والفرق بين المقامين واضح فأول الكفر في الأول منشأ الجهل وفي الثاني ليس كذلك لأنه يعلم أنه حق ومع ذلك أنكروه بلسانه.

الثالث: كفر النعمة ومنه:

قال الله تعالى: **وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ^(٣)**.

الرابع: ترك ما امر الله عز وجل به منه:

قال الله تعالى: **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ^(٤)**.

الخامس: كفر البراءة ومنه:

قال الله تعالى: كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ^(١) أي تَبَرَّأنا منكم اذا عرفت أقسام الكفر فقد علمت أن هذه اللفظة تُستعمل في هذه المعاني على حدٍّ سواء بعد كونه في الأصل بمعنى السَّتر وليس إستعماله في أحدها بأولوى منه في غيره نعم القرينة الحالية أو المقالية توجب إرادة إحدى المعاني فقوله تعالى: وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ليس المراد منه الإنكار والجحود قطعاً لأن تاركه كترك الصلاة والزكاة وغيرها من الضروريات فكما أنه لا يجوز لنا الحكم بكفر تارك الصلاة بمعنى إرتداده عن الدين لأن التَّرك أعم من الإنكار اذ قد يكون لأجل المسامحة وعدم المبالاة في الدين و لذلك اذا سُئل عنه لِمَ تَرَكْتَ الصَّلَاةَ أَوِ الْحَجَّ لا يقول أنا منكرٌ له أو لهما فكيف يمكن حمله على التَّرك الذي منشأه الإنكار بدون دليل يدل عليه وهكذا لا يمكن حمله على التَّبَرِّي وهو القسم الخامس لأن تركه الحج ليس معناه أنه تبرأ منه لعدم دليل يدل عليه فيبقى في المقام قسمان وهما الثالث والرابع أعني بهما كفر النعمة والكفر بترك ما أمر الله به فلا بد لنا من حمله في الآية على أحد هذين القسمين وكلاهما غير الإرتداد فقوله تعالى: وَمَنْ كَفَرَ أَي كَفَرَ بِالنَّعْمَةِ أَوْ كَفَرَ أَي تَرَكَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَكِلَاهُمَا مِمَّا لَا بَأْسَ بِهِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ فمعناه واضح اذ هو تعالى لا يحتاج الى عبادة العبد من حجٍّ وغيره لكونه غنياً على الإطلاق والمحتاج لا يكون إلا ممكناً، و الممكن مخلوق وهو تعالى ليس بمخلوق قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ^(٢) وفي الخاتمة نذكر بعض ما ورد في وجوب الحجِّ وفضله وشرفه وذم تاركه تيمناً وتبركاً ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون فنقول:

ما رواه في الحقائق عن الكافي والتّهذيب عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: أنّ الحاجّ اذا أخذ في جهازه لم يخط خطوة من شيء من جهازه إلا كتب الله له عشر حسنات ومحى عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات حتّى يفرغ من جهازه فلمّا فرغ فاذا إستقلت به راحلته لم يضع خفّاً ولم ترفعه إلا كتب الله له مثل ذلك حتّى يقضى نسكه فاذا قضى نسكه غفر الله له ذنوبه وكان ذو الحجة والمحرّم و صفر وشهر ربيع الأول أربعة أشهر يكتب الله الحسنات ولا يكتب عليه السيئات إلا أن يأتي بموجبه فاذا مضت الأربعة أشهر خلط بالنّاس انتهى.

ما رواه الشيخ في التّهذيب عن معاوية بن عمّار عن أبي عبد الله عليه السلام عن أباءه عليهم السّلام: أنّ رسول الله لقيه أعرابي فقال يا رسول الله أني خرجت أريد الحجّ ففاتني وأنا رجل لي مال أتأمرني ماذا أصنع في مالي ما أبلغ به مثل أجر الحجّ فقال فالتفت اليه رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال أنظر الى أبي قبيس فلو أنّ أبا قبيس لك ذهبة نفقته في سبيل الله ما بلغت به ما يبلغ الحاجّ ثمّ قال عليه السلام أنّ الحاجّ اذا أخذ في جهازه لم يرفع شيئاً ولم يضعه إلا كتب له الله عشر حسنات ومحى عشر سيئات ورفع له عشر درجات فاذا ركب بعيره لم يرفع خفّاً ولم يضعه إلا كتب الله له مثل ذلك فاذا طاف بالبيت خرج من ذنوبه فاذا رمى الجمار خرج من ذنوبه ثمّ قال عليه السلام أنّي لك ما يبلغ الحاجّ قال أبو عبد الله ولا تكتب الذنوب أربعة أشهر إلا أن يأتي بكبيرة.

ما رواه في الكافي عن خالد القلانسي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال عليّ بن الحسين، حجّوا وإعتمروا وصحّ أبدانكم وتّسع أرزاقكم

و تكفون مؤنة عيالكم وقال عليه السلام الحاج مغفور له وموجب له الجنة ومستأنف به العمل ومحفوظ في أهله وماله انتهى.
 مارواه فيه أيضاً عن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ الحاج ثلاثة فأفضلهم نصيباً رجل غفر له من ذنوبه ما تقدم منهأتاخر ووقاه عذاب القبر وأما الذي يليه فرجل غفر له من ذنبه ما تقدم منه ويستأنف العمل فيما بقى من عمره وأما الذي يليه فرجل حفظ في أهله وماله.

ما رواه في أيضاً عن معاوية بن عمار قال: أبو عبد الله عليه السلام الحاج يصدرون على ثلاثة أصناف، صنف يعتق من النار، وصنف يخرج من ذنوبه كهيئة يوم ولدته أمه، وصنف يحفظ في أهله وماله فذلك أدنى ما يرجع به الحاج انتهى.

والأحاديث في الباب كثيرة جداً وفيما نقلناه كفاية لأولي الأبواب.
 قال أمير المؤمنين عليه السلام في كتاب نهج البلاغة:

وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ، الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلْأَنَامِ، يَرْكُونُهُ وَرُودُ الْأَنْعَامِ، وَيَالَهُنَّ إِلَيْهِ وَلَوْهُ الْحَمَامِ، جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلَامَةً لَتَوَاضِعِهِمْ لِعِظَمَتِهِ، وَإِذْ عَانِيَهُمْ لِعِزَّتِهِ، وَاخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَاعاً أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ، وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ، وَوَقَفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ، وَتَشَبَّهُوا بِمَلَائِكَتِهِ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ، يُخْرِزُونَ الْأَرْبَاحَ فِي مَتَجَرِّ عِبَادَتِهِ، يَتَبَادَرُونَ عِنْدَ مَوْعِدِ مَغْفِرَتِهِ جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلإِسْلَامِ عِلْمًا، وَلِلْعَاقِدِينَ حَرَمًا، فَرَضَ حَجَّهُ، وَأَوْجَبَ حَقَّهُ، وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وَفَادَتَهُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: وَاللَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ
 اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ
 الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن أَمَنَ
 تَبَغُّوْنَهَا عِوَجًا وَ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ
 عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن
 تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم
 بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)

◀ اللغة

تَصُدُّونَ: الصَّدُّ والصَّدُود قد يكون إنصرافاً عن الشَّيْ وإمتناعاً ومنه قوله
 تعالى: يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا^(١) وقد يكون صرفاً ومنعاً ومنه قوله: وَ زَيْنٌ لَهُمْ
 الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ^(٢).
 تَبَغُّونَهَا: البَغْيُ الطَّلَب أي تطلبونها.

عِوَجًا: العِوَج بكسر العين المِيل والزَّيغ في الدين والقول والعمل وما خرج
 عن طريق الإستواء وبالفَتْح في الحائط والجدار وكلّ شخص قائم وقال عَوَّجَ:
 أَقَامَ وَوَقَفَ.

◀ الإعراب

لِمَ تَصُدُّونَ اللّام متعلّقة بالفعل مَن مفعوله تَبَغُّونَهَا يجوز أن يكون مستأنفاً،
 وأن يكون حالاً من الضمير في تَصُدُّونَ أو من السَّبِيلِ وعِوَجًا حال بعد
 إِيْمَانِكُمْ يجوز أن يكون ظرفاً، ليَرُدُّوكُم، وأن يكون ظرفاً لقوله: كَافِرِينَ وهو
 في المعنى مثل قوله كفروا بعد إيمانهم.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

◀ التفسير

قُلْ يَا مُحَمَّدٌ ﷺ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْ مُطْلَقَ أَهْلِ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ أَي لِمَ تَجْحَدُونَ وَتَنْكُرُونَ آيَاتَ اللَّهِ بِاللِّسَانِ أَوْ بِهِ وَالْقَلْبَ وَاللَّهُ شَهِيدٌ أَي شَاهِدٌ وَنَاطِرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، وَقِيلَ فِي سَبَبِ نَزُولِ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا إِلَى قَوْلِهِ: وَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(١) أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ إِسْمُهُ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ حَاوَلَ الْإِغْرَاءَ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ وَكَانَ أَعْمَى شَدِيدَ الضَّغْنِ وَالْحَسَدِ لِلْمُسْلِمِينَ فَرَأَى إِتْلَافَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فَقَالَ مَا لَنَا مِنْ قَرَارٍ بِهَذِهِ الْبِلَادِ مَعَ إِجْتِمَاعِ مَلَائِ بْنِ قَيْلَةَ فَأَمَرَ شَابًّا مِنَ الْيَهُودِ أَنْ يَذْكُرَهُمْ يَوْمَ بَعَاثَ وَمَا جَرَى فِيهِ مِنَ الْحَرْبِ وَمَا قَالُوهُ مِنَ الشُّعْرِ فَفَعَلَ فَتَكَلَّمُوا حَتَّى ثَارُوا إِلَى السَّلَاحِ بِالْحَرَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُبْدِعُوا الْجَاهِلِيَّةَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ وَعَظَمُهُمْ فَرَجَعُوا وَعَانَقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَقَالَ الْحَسَنُ وَقِتَادَةُ وَالسَّيِّدِي نَزَلَتْ فِي أَحْبَارِ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا يَصْدُقُونَ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْإِسْلَامِ بِأَنْ يَقُولُوا لَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَيْسَ بِالْمَوْصُوفِ فِي كِتَابِنَا، وَالظَّاهِرُ نَدَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَمُومًا وَالْعَامَّةُ وَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا فَالْحُجَّةُ قَائِمَةٌ عَلَيْهِمْ كَقِيَامِهَا عَلَى الْخَاصَّةِ وَكَأَنَّهُمْ بَتَرَكُوا الْإِسْتِدْلَالَ وَالْعُدُولَ إِلَى التَّقْلِيدِ بِمَنْزِلَةٍ مِنْ عِلْمٍ ثُمَّ أَنْكَرُوا، وَقِيلَ الْمُرَادُ عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ عِلْمُوا صَحَّةَ نُبُوَّتِهِ وَإِسْتَدَلُّ بِقَوْلِهِ: وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ.

ثُمَّ أَنَّ الْمُرَادَ بِآيَاتِ اللَّهِ فِي الْآيَةِ قِيلَ هِيَ مُعْجَزَاتُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي كَانَتْ لَهُ وَالْعَلَامَاتُ الَّتِي وَاظَفَتْ صِفَتَهُ مِمَّا تَقَدَّمَ بِهِ الْبَشَارَةُ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الَّتِي ثَبَّتَتْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ بِأَلْسِنَتِكُمْ مَعَ أَنْكُمْ تَعْتَقِدُونَ بِهَا فِي قُلُوبِكُمْ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

وَأَمَّا قَالَ هُنَا قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ^(١) بِدُونِ قُلْ، قِيلَ وَجْهَ التَّلَطُّفِ فِي إِسْتِدْعَائِهِمْ إِلَى الْحَقِّ وَتَوْجِيهِ الْخُطَابِ إِلَيْهِمْ وَأَمَّا هُنَاكَ فَالْمَقْصُودُ الْإِهَانَةُ لَهُمْ وَكَيْفَ كَانَ فَقَدْ خَاطَبَ رَسُولُهُ ثَانِيًا وَأَمْرُهُ بِأَنْ يَقُولُوا لَهُمْ لِمَ تَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَي لِمَ تَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْاِئْتِيَانِ أَنَّ الْآيَةَ الْأُولَى أَعْلَمَتْ بِإِنْكَارِهِمُ الْحَقَّ وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَقَدْ أَعْلَمَتْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ أَعْظَمُ ذَنْبًا مِمَّنْ لَيْسَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى أَنَّ الْآيَةَ الْأُولَى أَثْبَتَتْ نِفَاقَهُمْ أَوْ انْكَارَهُمْ وَالثَّانِيَةُ أَثْبَتَتْ إِفْسَادَهُمْ وَالمُفْسَدُ أَعْظَمُ مِنَ الْمُنْكَرِ وَالمُنَافِقِ وَأَمَّا قُلْنَا ذَلِكَ لِأَنَّ الصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَي مَنَعَ الْغَيْرَ عَنْ إِتِّبَاعِ الْحَقِّ مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُخَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا**^(٢) وَقِيلَ الْمَعْنَى، لِمَ تَصَدُّونَ بِالتَّكْذِيبِ بِالنَّبِيِّ وَأَنْ صِفَتُهُ لَيْسَتْ فِي كِتَابِهِمْ وَلَا تَقَدَّمَتِ الْبَشِيرَةُ بِهِ عِنْدَهُمْ مِمَّنْ أَمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا.

قوله: **مِمَّنْ أَمَنَ** مَوْضِعُهُ النِّصَبُ بِأَنَّهُ مَفْعُولُ تَصَدُّونَ وَقوله: **تَبْغُونَهَا عِوَجًا** الْكِنَايَةُ رَاجِعَةٌ إِلَى السَّبِيلِ وَمَعْنَاهُ تَطْلُبُونَ لَهَا عِوَجًا يَعْنِي عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ كَأَنَّهُ قَالَ تَبْغُونَهَا ضَلَالًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أَي وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ عَلَى بَطْلَانِ صَدِّكُمْ عَنْ دِينِ اللَّهِ فَتَكُونُ الْآيَةُ مَخْتَصَّةً بِقَوْمٍ مُعَانِدِينَ لِأَنَّهُمْ جَحَدُوا مَا عَلِمُوهُ وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ فِي الْجَمِيعِ لِإِقْرَارِهِمْ بِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ الصَّدُّ عَنْ دِينِ اللَّهِ فَلِذَلِكَ صَحَّ مَا الزَّمُوا، وَقِيلَ: وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ أَي عَقْلَاءُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** أَي وَهُوَ عَاقِلٌ وَذَلِكَ أَنَّهُ يَشْهَدُ الدَّلِيلُ الَّذِي يُمَيِّزُ بِهِ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْدِّينِ وَيُؤَدِّيهِ إِلَيْهِ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ أَنَّ فِي التَّوْرَةِ مَكْتُوبًا أَنَّ دِينَ اللَّهِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ غَيْرَهُ الْإِسْلَامُ إِذْ فِيهِ نَعْتُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَقَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ أَنَّهَا سَبِيلُ اللَّهِ الَّتِي لَا يَصَدُّ

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

عنها إِلَّا ضَالَّ مَضَلٌّ أَوْ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ بَيْنَ أَهْلِ دِينِكُمْ عَدُولٌ يَتَّقُونَ بِأَقْوَالِكُمْ وَ
يَسْتَشْهَدُونَ فِي عِظَامِ أُمُورِهِمْ وَهُمْ الْأَحْبَارُ، وَقِيلَ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ
شَهَادَةَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ جَائِزَةٌ لِأَنَّهُ تَعَالَى سَمَاهُمْ شُهَدَاءُ وَلَا يَصْدُقُ هَذَا
الْإِسْمُ إِلَّا عَلَى مَنْ يَكُونُ لَهُ شَهَادَةٌ وَشَهَادَتُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لَا تَجُوزُ بِإِجْمَاعِ
فَتَعَيَّنَ وَصْفُهُمْ بِأَنْ تَجُوزَ شَهَادَةُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَعَلَى قَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ وَ
الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ شَهَادَتَهُمْ لَا تُقْبَلُ بِحَالٍ وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَةِ وَمَا
أَلَلَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ وَعِيدٌ شَدِيدٌ لَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا فِي صَدَمِ
الْمُؤْمِنِينَ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِبُّوا قَرِيبًا مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ
بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ

لَمَّا أَنْكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ صَدَمَهُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ الْمُؤْمِنِينَ حَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ
إِغْوَاءِ الْكُفَّارِ وَاضْلَالِهِمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَنَادَاهُمْ بِوصفِ الْإِيمَانِ تَنْبِيهًا عَلَى تَبَايُنِ
مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ وَلَمْ يَأْتِ اللَّهُ بِلَفْظٍ، قُلْ، لِيَكُونَ ذَلِكَ خُطَابًا مِنْهُ تَعَالَى لَهُمْ
وَتَأْنِيسًا لَهُمْ وَنَهَاهُمْ عَنِ مَوَافَقَتِهِمْ فِي صُورَةِ الشَّرْطِيَّةِ فَقَالَ أَنْ تَطِيعُوا الْآيَةَ لِأَنَّهُ
لَمْ تَقَعْ طَاعَتُهُمْ قَالُوا الْمُشَارَ إِلَيْهِمْ بِالْآيَةِ الْأَوْسُ وَالْخُرُجُ بِسَبَبِ نَائِرَةِ شَاسِ بْنِ
قَيْسٍ عَلَى مَا مَرَّ وَقِيلَ نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي يَهُودِي أَرَادَ تَجْدِيدَ الْفِتْنَةِ بَيْنَ الْأَوْسِ وَ
الْخَزْرَجِ بَعْدَ انْقِطَاعِهَا بِالنَّبِيِّ ﷺ فَجَلَسَ الْيَهُودِي بَيْنَهُمْ وَأَنْشَدَ شِعْرًا قَالَهُ
أَحَدُ الْحَيِّينَ فِي حَرْبِهِمْ فَقَالَ الْحَيُّ الْآخَرُ قَدْ قَالَ شَاعِرُنَا فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا
فَكَأَنَّهُمْ دَخَلَهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ فَقَالُوا تَعَالَوْا نَرِدَّ الْحَرْبَ جَذَعَاءَ كَمَا كَانَتْ فَنَادَى
هَؤُلَاءِ يَا آلَ أَوْسٍ وَنَادَى هَؤُلَاءِ يَا آلَ خَزْرَجٍ فَأَجْتَمَعُوا وَأَخَذُوا السَّلَاحَ وَ
أَصْطَفَوْا لِلْقِتَالِ فَنَزَلَتِ هَذِهِ الْآيَةُ وَالْمَشْهُورُ بَيْنَ الْمَفْسِّرِينَ هُوَ أَنَّ الْآيَاتِ نَزَلَتْ
فِي شَاسِ بْنِ قَيْسٍ عَلَى مَا مَضَى شَرْحَهُ وَعَلَيْهِ فَالْقِصَّةُ وَاحِدَةٌ وَكَيْفَ كَانَ فَقَدْ

خاطب الله المؤمنين ونهاهم عن إطاعة هؤلاء المفسدين من أهل الكتاب على وجه الشرط وفي قوله: يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ إشارة الى عداوتهم وبغضهم للمؤمنين والمؤمن لا يعتمد على عدوه في قوله وفعله و من يعتمد فلا يلومن إلا نفسه.



وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ
وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا
تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ
أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ
إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ
مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ (١٠٣)

◀ اللغة

يَعْتَصِمُ: العَصَم الإمساك والإعتصام الإستمسك يقال إستعصم أي
إستمسك كأنه طلب ما يعتصم به من ركوب الفاحشة.
اتَّقُوا اللَّهَ: التقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف مأخوذ من الوقاية و
هي حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره.
بِحَبْلِ اللَّهِ: الحبل معروف ثم أنه إستعير للوصل ولكل ما يتوصل به الى
شيء.

فَأَلَّفَ: فعل ماضٍ مصدره التأليف وهو مأخوذ من الألف بكسر الألف و
الإلف إجتماع مع إلتئام بينهم يقال أَلَفْتُ بينهم ومنه الألفة.
شَفَا حُفْرَةٍ: أي مكان محذور ويقال لها حضيرة.
فَأَنْقَذَكُمْ: الإنقاذ الإخراج عن مواضع الحظر.

◀ الإعراب

وَلَا تَفَرَّقُوا الْأَصْلَ تَفَرَّقُوا فَحُذِفَ النَّاءُ الثَّانِيَةُ نِعْمَةً اللَّهِ هُوَ مُصَدَّرُ مُضَافٍ إِلَى الْفَاعِلِ عَلَيْكُمْ يَجُوزُ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِهِ كَمَا نَقُولُ أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ النِّعْمَةِ فَيَتَعَلَّقُ بِمَحذُوفٍ إِذْ كُنْتُمْ ظَرْفٌ لِلنِّعْمَةِ أَوْ لِلِاسْتِقْرَارِ فِي عَلَيْكُمْ إِذَا جَعَلْتَهُ حَالًا فَأَصْبَحْتُمْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ النَّاقِصَةُ فَعَلَى هَذَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ بِنِعْمَتِهِ وَالْمَعْنَى فَأَصْبَحْتُمْ فِي نِعْمَتِهِ أَوْ مُتَلَبِّسِينَ بِنِعْمَتِهِ أَوْ مُشْمُولِينَ وَإِخْوَانًا عَلَى هَذَا حَالٌ وَالْعَامِلُ فِيهَا أَصْبَحَ أَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْجَارُ الْأَخْوَانُ جَمْعٌ، أَخٌ، مِنَ الصَّدَاقَةِ لَا مِنَ النَّسَبِ وَالشَّافَا يَكْتُبُ بِالْأَلْفِ وَهِيَ مِنَ الْوَاوِ وَتَشْيِيتُهُ شَفَوَانٍ مِنَ النَّارِ صِفَةٌ لِحُفْرَةٍ وَمِنْ، لِلتَّبْعِيضِ وَالضَّمِيرُ فِي، مِنْهَا، لِلنَّارِ أَوْ لِلْحُفْرَةِ.

◀ التفسير

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ كَيْفَ لِلِاسْتِفْهَامِ وَمَعْنَى الْإِسْتِفْهَامِ فِيهِ الْإِنْكَارُ وَالتَّعَجُّبُ وَالْمَعْنَى مِنْ أَيْنَ يَنْطَرِقُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرُ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ أَيِ وَالْحَالُ أَنَّ آيَاتِ اللَّهِ وَهِيَ الْقُرْآنُ الْمَعْجَزُ تُتْلَى عَلَيْكُمْ عَلَى لِسَانِ الرَّسُولِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ أَيِ وَبَيْنَ أَظْهَرِكُمْ رَسُولَ اللَّهِ يَنْبَهِكُمْ وَيَعْظَمُكُمْ وَمَنْ يَعْتَصِمُ بِاللَّهِ أَيِ وَمَنْ يَتِمَسَّكْ بِدِينِهِ أَوْ مَنْ يَلْتَجِأَ إِلَيْهِ فِي دَفْعِ شُرُورِ الْكَفَّارِ وَمَكَايِدِهِمْ فَقَدْ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ أَيِ فَقَدْ حَصَلَ لَهُ الْهُدَى الَّذِي لَا عَوْجَ فِيهِ قَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عِلْمَانِ بَيَّنَّانِ كِتَابَ اللَّهِ وَنَبِيَّ اللَّهِ فَأَمَّا نَبِيُّ اللَّهِ فَقَدْ مَضَى وَأَمَّا كِتَابُ اللَّهِ فَأَبْقَاهُ اللَّهُ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ رَحْمَةً مِنْهُ فِيهِ حَلَالُهُ وَحَرَامُهُ وَطَاعَتُهُ وَمَعْصِيَتُهُ انْتَهَى.

أقول في الآية مسائل ينبغي لكل مسلم التوجه إليها:

الأولى: أَنَّ الظَّاهِرَ مِنْهَا أَنَّهَا خُطَابٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ وَ

فيكم رسوله، واليهود والنصارى كانوا غير معتقدين برسالته وهو واضح و عليه فلا وجه للتعجب المستفاد من قوله: **وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ** وَأَمَّا التَّعَجُّبُ مِمَّنْ أَمِنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ ثُمَّ كَفَرَ أَيْ كَفَرَ بِنِعْمَةِ الرِّسَالَةِ بَعْدَ مُتَابَعَةِ الرِّسُولِ قَوْلًا وَفِعْلًا وَأَمْرًا وَنَهْيًا فَالْكُفْرُ فِي الْآيَةِ لَيْسَ بِمَعْنَى الْإِرْتِدَادِ وَالرَّجُوعِ عَنِ الدِّينِ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ سَابِقًا وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْكُفْرُ فِيهَا بِمَعْنَى انْكَارِ التَّوْحِيدِ وَالنَّبُوَّةِ وَكَانَتِ الْآيَةُ خُطَابًا لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى **وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ** أَيْ كَيْفَ تَبْقُونَ عَلَى الْكُفْرِ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ أَيْ لَا يَنْبَغِي لَكُمْ الْبَقَاءُ عَلَى الْكُفْرِ مَعَ جُودِ الْآيَاتِ وَالرَّسُولِ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ.

الثَّانِيَّةُ: فالآيات تكوينية، المراد بالآيات في قوله: **تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ** قيل هي المعجزات التي جرت على يده ﷺ و عليه تكوينية وقيل المراد بها الآيات القرآنية و عليه فالآيات تشريعية والثاني هو الحق بقرينة قوله: **تُتْلَى عَلَيْكُمْ** فَأَنَّ الْآيَاتِ التَّكْوِينِيَّةَ لَا تُتْلَى، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ أَيْضًا مِنَ الْمُعْجَزَاتِ وَلِذَلِكَ قَالُوا أَنَّ الْقُرْآنَ مُعْجَزَةٌ بَاقِيَةٌ لِلرَّسُولِ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ: **وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ** هَذَا سُؤَالٌ إِسْتِبْعَادٌ وَقُوعُ الْكُفْرِ مِنْهُمْ مَعَ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ وَهُمَا تَلَاوَةُ كِتَابِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَهُوَ الْقُرْآنُ الظَّاهِرُ الْإِعْجَازُ وَكَيُونَةُ الرَّسُولِ فِيهِمُ الظَّاهِرُ عَلَى يَدَيْهِ الْخَوَارِقُ وَوُجُودُ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ تَنَافِي الْكُفْرِ وَلَا تَجَامُعُهُ فَلَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِمْ كُفْرٌ مَعَ ذَلِكَ وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّهُ وَقَعَ مِنْهُمْ الْكُفْرُ فَوَبَّخُوا عَلَى وَقُوعِهِ لَأَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ وَلِذَلِكَ نُوَدُّ بِقَوْلِهِ: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** إِنْتَهَى كَلَامُهُ.

أَقُولُ يظهر من كلامه أَنَّ الْآيَةَ خُطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ لَا لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَهُوَ أَحَدُ الْإِحْتِمَالَيْنِ وَأَمَّا الرَّسُولُ فَهُوَ هُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ بِلَا خِلَافٍ فِي الْمَخَاطَبِ بِهَا، قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ، وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، هِيَ ظَرْفِيَّةُ الْحُضُورِ وَالْمَشَاهِدَةِ لِشَخْصِهِ ﷺ وَهُوَ فِي أَمْتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِأَقْوَالِهِ وَأَثَارِهِ إِنْتَهَى.

وَأَنَا أَقُولُ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ لَيْسَ بِصَحِيحٍ بَلِ الْحَقُّ أَنْ يُقَالَ وَهُوَ فِي أُمَّتِهِ
 إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِسَبَبِ أَوْصِيَاءِهِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى أَنْ انْتَهَى الْأَمْرُ إِلَى الْحِجَّةِ
 بِنِ الْحَسَنِ الْمَهْدِيِّ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِتَلَاوَةِ الْآيَاتِ عَلَى النَّاسِ
 لَيْسَ تَلَاوَتُهَا مِنْ حَيْثُ الْأَلْفَاظِ وَالْحُرُوفِ بَلِ الْمُرَادُ مِنْهَا تَلَاوَتُهَا عَنْ فِهْمٍ وَعِلْمٍ
 وَالتَّلَاوَةُ بِهَذَا الْمَعْنَى فِي عَصْرِ الرَّسُولِ تُحْصَلُ بِوُجُودِ الرَّسُولِ وَأَمَّا بَعْدَهُ
 فَحُصُولُهَا بِوُجُودِ وَصِيِّهِ وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﷺ أَنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ
 كِتَابَ اللَّهِ وَعِزَّتِي أَهْلَ بَيْتِي مَا أَنْ تَمَسَّكُمْ بِهِمَا لَنْ تَضَلُّوا أَبَدًا لَنْ يَفْتَرِقَا
 حَتَّى يَرْدَا عَلَيَّ الْحَوْضُ، فَلَوْ كَانَتْ أَقْوَالُهُ وَأَثَرُهُ كَافِيَةً لِلنَّاسِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
 فَمَا مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَ عَلَى هَذَا فَأَنْ قُلْنَا أَنَّ
 الْمُخَاطَبَ بِهَا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى فَلَا بَحْثَ لَنَا فِيهِ لَوْضُوحِ الْأَمْرِ عَلَى مَا بَيْنَاهُ
 عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْمُخَاطَبَ بِهَا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ كَمَا يَقُولُونَ بِهِ فَبَعْدَ
 مَوْتِهِ ﷺ مِنَ الْمُخَاطَبِ بِهَا غَيْرُ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَالْمَفْرُوضُ أَنَّ
 الرَّسُولَ قَدْ مَاتَ فَمَنْ يَبَيِّنُ مَعْضَلَاتِهِ وَمُتَشَابِهَاتِهِ غَيْرَ خَلِيفَةِ الرَّسُولِ وَوَصِيِّهِ
 الَّذِي نَصَّ عَلَيْهِ الرَّسُولُ فِي حَيَاتِهِ وَهُوَ الْمَفْرُوضُ وَأَوْلَادُهُ الَّذِينَ أَذْهَبَ اللَّهُ
 عَنْهُمْ الرَّجْسَ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيرًا (الثَّالِثَةُ) وَمَنْ يَعْتَصِمُ بِاللَّهِ فَقَدْ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ، أَيْ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَقِيلَ يَسْتَمْسِكُ بِالْقُرْآنِ وَ
 قِيلَ يَلْتَجِئُ إِلَيْهِ فَيَكُونُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ حَقًّا عَلَى الْإِلْتِجَاءِ إِلَى اللَّهِ فِي دَفْعِ
 شُرُورِ الْكَافِرِ وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ أَيْ يَمْتَنِعُ وَيَتَمَسَّكُ بِدِينِهِ وَطَاعَتِهِ وَقِيلَ يَعْتَصِمُ
 بِاللَّهِ أَيْ يَتَمَسَّكُ بِحَبْلِ اللَّهِ وَهُوَ الْقُرْآنُ فَنَقُولُ: الْإِعْتَصَامُ هُوَ التَّرَقُّيُّ عَنْ كُلِّ
 تَرَدُّدٍ مَالِهِ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ عَنِ الْعُرْفَاءِ وَالْمُرَادُ بِالتَّرَقُّيِّ عَنْ كُلِّ قَوْمٍ الْإِعْرَاضُ عَنْ
 كُلِّ مَا سِوَى الْحَقِّ فَأَنَّ وَجُودَ الْغَيْرِ مُوْهُومٌ لَا تَحَقُّقَ لَهُ وَاقِعًا وَالتَّخْلُصُ عَنْ كُلِّ
 تَرَدُّدٍ بِالْيَقِينِ الْعَيَانِيِّ فَأَنَّ التَّرَدُّدَ مِنْ لَوَازِمِ الشَّكِّ وَمَنْ تَحَقَّقَ بِالْحَقِّ فِي مَقَامِ
 الشَّهُودِ لَا يَحُومُ الشَّكُّ حَوْلَ مَقَامِهِ ثُمَّ أَنَّ الْإِعْتَصَامَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ.

الأولى: إعتصام العامة بالخير إستسلاماً واذعاناً بتصديق الوعد والوعيد و تعظيم الأمر والنهي وتأسيس المعاهد على اليقين وهو الإنصاف الإعتصام بحبل الله.

الثانية: إعتصام الخاصة وهو يحصل بالإنقطاع وهو صون الإرادة قبضاً، و إسبال الخلق على الخلق بسطاً ورفض الخلاق عزماً وهو التمسك بالعروة الوثقى.

الثالثة: إعتصام خاصة الخاصة وهو يحصل بالإتصال وهو شهود الحق تفريداً بعد الإستحذاء له تعظيماً والإشتغال به قرباً وهو الإعتصام بالله إنتهى كلامه. أقول يظهر من كلامه أن الإعتصام مقول بالتشكيك بمعنى أن له شدة و ضعفاً وكمالاً ونقصاً فالمرتبة الضعيفة منه هي الإعتصام بحبل الله، وأقوى منها الإعتصام بالعروة الوثقى.

و المرتبة الأعلى الإعتصام بالله تعالى وقد أشير الى هذه المراتب في القرآن، قال الله تعالى: **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** وسيجىء البحث فيه قريباً فهو إشارة الى الأولى.

وقال الله تعالى: **فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**^(١) وقد مضى الكلام فيه وهو إشارة الى الثانية.

وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

وهو هذه الآية وبحثنا فيها وهو إشارة الى الثالثة وهي أعلى مراتب الإعتصام إذ المعتصم في هذا المقام لا يعرف غير الله ولا يتوجه الا اليه و نحن نصطلح في الاعتصام بهذا المعنى ونقول عبروا عن هذا المقام باعتصام خاصة الخاصة لأن المعتصم في هذا المقام لا بد له من الفراغ عن المرحلتين ولا يمكن العبور منهما والوصول الى هذا المقام إلا لخاصة الخاصة وهم

قليلون جداً لأنهم أهل الوصول أي الواصلون إلى الله وإعتصامهم بالله هو الإتصال الذي لا يحصل إلا بالإنقطاع المذكور الذي هو إعتصام الخاصة وأنما فسروه بشهود الحق تقيداً للإشارة إلى أن شهود الحق بالحق عند فناء الشاهد في المشهود فلا يكون في هذا الشهود لغير الحق عين ولا أثر وذلك بعد الفناء الله الإستكانة والخضوع بأن يحاذي العبد وجوبه تعالى بإمكانه ووجوده بعدمه وقدرته بعجزه وعزه بذله وغناه بفقره فيلتجئ إليه تعظيماً له وهو أول درجات القرب فيكون في غاية التذلل والخضوع معظماً له غاية التعظيم وقيل هو الإستحذاء بالحاء غير المعجمة وهو أن يجعل الحق حذاءه ونصب عينيه منزهاً عن الجهة فيرفع الوسائط بينه وبين الحق لأنه يرى جميع الممكنات كنفسه في الإندام فلا يشتغل إلا به حتى يبلغ غاية القرب بالفناء فيه فعلاً ووصفاً وعيناً وهو الوصول ومن كان كذلك فقد هُدي إلى صراطٍ مستقيم قال الله تعالى في سورة الحمد: **أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ** ففسر الصراط المستقيم بصراط المنعم عليهم وهم الأنبياء والأوصياء وذلك لأنه لا نعمة أفضل وأعلى من نعمة النبوة والرّسالة ثم بعدها نعمة الوصاية والخلافة للنبي ثم الأمثل فالأمثل وأنما قلنا ذلك لأن نعم الله تعالى على قسمين: مادية ومعنوية:

لا شك أن المعنوية أفضل وأشرف من المادية، المعنويات أفضلها نعمة الرّسالة والوصاية فثبت وتحقق أن الرّسالة أفضلها ثم الوصاية فعلى هذا صراط الذين أنعم الله عليهم صراط الأنبياء والأوصياء:

قال الله تعالى: **أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** أي إهنا إلى صراط الأنبياء.

قال الله تعالى: **وَمَا آتَيْنَاكَ الرُّسُولَ فَخُذْهُ وَمَا نَهَيْكُم عَنْهُ فَأَنْتَهُوا** (١).

فهذا هو الأصل في هذا الباب ثم أقرب الطرق إلى طريق الأنبياء بل هو بعينه، طريق الوصي بعده فمن تبع الوصي تبع النبي ومن تبع النبي فقد

اعتصم بالله حقاً فلا يمكن الإعتصام بالله واقعاً إلا من طريق رسوله ولا يمكن معرفة طريق الرسول إلا من طريق وصيه ولذلك ورد في الزيارة الجامعة، أنتم السبيل الأعظم والصراط الأقوم الخ فالصراط المستقيم في الإسلام منحصر بصراط أهل بيته المعصومين.

وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ معناه من إعتصم بالله تعالى وطلب منه الهداية فقد هدي الى طريق الرسول وأهل بيته وفيه إشارة الى أن معرفة الرسول والوصي بعده تطلب من الله تعالى كما ورد في الدعاء اللهم عرفني نفسك فأنت أن لم تعرفني نفسك لم أعرف نبيك اللهم عرفني نبيك فأنت أن لم تعرفني نبيك لم أعرف حجتك اللهم عرفني حجتك فأنت أن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني، وأما من زعم أن الطريق المستقيم في الآية وأمثالها غير طريق أهل البيت فقد ضل وأضل ضرورة أن أهل البيت أدرى بما في البيت ولنعم ما قيل فيهم:

مطهرون نقيات ثيابهم	تتلى الصلاة عليهم أين ما ذكروا
من لم يكن علوياً حين تنسبه	فما له من قديم الدهر مُفتخِرُ
والله لما يرى خلقاً فاتقنه	صفاكم وإصطفاكم أيها البشر
فأنتم الملاء الأعلى وعندكم	علم الكتاب وما جاءت به الشور

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ
خاطب الله تعالى المؤمنين فقال لهم يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بالله وبرسول و
بما جاء به من عند الله اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ قبل معناه إتقوا عذاب الله أي
احترسوا وامتنعوا بالطاعة من عذاب الله كما يحق فكما يجب أن يتقي ينبغي
أن يحترس منه وذكروا في قوله حَقَّ تُقَاتِهِ أن معناه أن يطاع فلا يعصى ويشكر
فلا يكفر ويذكر فلا ينسى، وقيل معناه إتقاء جميع معاصيه، وقيل المجاهدة
في الله وأن لا تأخذه فيه لومة لائم وأن يقام له بالقسط في الخوف والأمن

قال قتادة والسدي وابن زيد والزبيع هي منسوخة بقوله تعالى: **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ** أمروا أولاً بغاية التقوى حتى لا يقع إخلال بشئ ثم نسخ و قال ابن عباس هي محكمة و إتقوا الله ما استطعتم بيان لقوله: **اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ** فأن قلنا بأن التقاة مصدر بمعنى التقوى كما هو المشهور فالمعنى إتقوا الله حق التقوى و أن قلنا بأن التقاة جمع كرمات ورام وهداة وهاذ أو يكون جمع، تقي اذ فاعيل و فاعل بمنزلة فالمعنى على هذا اتقوا الله كما يحق أن يكون متقوه المختصون به ولذلك أضيفوا الى ضمير الله تعالى، و الحق هو الأول لأن الظاهر أن قوله: **حَقَّ تَقَاتِهِ** من إضافة الصفة الى الموصوف كما تقول ضربت ضرباً تشديد الضرب أي الضرب الشديد عليه حتى اذا ورد عليكم الموت صادفكم عليه فالتهي في قوله: **وَلَا تَمُوتُنَّ** في الحقيقة عن ترك الإسلام دخل ظاهراً على الموت إلا أنه وضع كلام موضع كلام على جهة التصرف والإبدال بحسن الاستعارة وزوال اللبس قاله في المجمع ثم قال: وروي عن أبي عبد الله عليه السلام **وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** بالتشديد ومعناه مستسلمون لما أتى به النبي ومنقادون له و قال بعض المفسرين و الجملة من قوله: **وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** حالية والإستثناء مفرغ من الأحوال والتقدير ولا تموتن على حال من الأحوال إلا حالة الإسلام و مجيئها اسمية أبلغ لتكرار الضمير وللمواجهة فيها بالخطاب **وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا** أي تمسكوا به وقيل إمتنعوا به من غيره قال الطبرسي **قِيلَ** قيل في معنى حبل الله أقوال:

أحدها: أنه القرآن عن أبي سعيد الخدري و عبد الله و قتادة والسدي.

ثانيها: أنه دين الله والإسلام عن ابن عباس و أبي زيد.

ثالثها: ما رواه أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد عليه السلام قال نحن حبل الله الذي قال: **وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا** والأولى حمله على الجميع والذي يؤيد ما رواه أبو سعيد الخدري عن النبي أنه قال أني قد تركت فيكم حبلين اذا أخذتم بهما لن تضلوا بعدي أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل

ممدود من السماء الى الأرض و عترتي أهل بيتي ألا و أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض انتهى كلام الطبرسي قال صاحب الكشف الحبل إستعارة لعهد والإعتصام لوثوقه بالعهد أو ترشيحاً لإستعارة الحبل بما يناسبه و المعنى و اجتمعوا على إستعانتكم بالله و وثوقكم به و لا تفرقوا عنه و قال الطبري يعني بذلك جلّ ثناؤه وتعلّقوا بأسباب الله جميعاً يريد بذلك و تمسّكوا بدين الله الذي أمركم به و عهده الذي عهده اليكم في كتابه من الألفة و الإجتماع على كلمة الحقّ و التسليم لأمر الله و قد دلّلنا فيما مضى قبل على معنى الإعتصام و أمّا الحبل فأنه السبب الذي يوصل به الى البغية والحاجة سمّي الأمان حبلاً لأنّه سبب يوصل به الى زوال الخوف و النجاة من الجزع و منه قول أعشي بن ثعلبة:

واذا تجوزها حبال قبيلة أخذت من الأخرى اليك حبالها
و منه قول الله عزّ وجلّ: **إِلَّا بِحَبْلِ مِنْ اللَّهِ وَ حَبْلِ مَنْ النَّاسِ** ^(١) و ينحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ثمّ.

روي بأسناده عن عبد الله بن مسعود أنّه قال: في قوله: **وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا** الجماعة.

و بأسناده أيضاً عنه أنّه قال: **حَبْلُ اللَّهِ** الجماعة.

و بأسناده عن قتادة أنّه قال: **حَبْلُ اللَّهِ** المتين الذي أمر أن يعتصم به هذا القرآن.

و بأسناده عنه أنّه قال معناه و **اعْتَصِمُوا** بعهد الله وأمره الى أن قال: و قال آخرون بل ذلك هو إخلاص التوحيد لله ثمّ روي بأسناده عن أبي العالية في قوله: **وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا** يقول **اعْتَصِمُوا** بالإخلاص لله وحده انتهى.

أقول المراد بحبل الله الذي أمرنا الله بالتمسك به هو عليّ أمير المؤمنين و المعصومون من ولده بلا كلام عقلاً ونقلاً.

أما العقل فلائ الحبل المعتصم به لا بد من أن يكون موجوداً ناطقاً ذا شعور وفهم حتى يكون الإعتصام به مُوجباً للتقرب إلى الله وذلك لأن معنى الإعتصام به في أوامره ونواياه وأقواله وأفعاله وهذا لا يعقل في شيء مما ذكره من القرآن والجماعة، والإخلاص في التوحيد وأمثالها، أما القرآن فأن أرادوا من الإعتصام به الإعتصام بألفاظه وحروفه من جهة التلاوة والقراءة والحفظ مثلاً فهو لا يفيد لأن هذه الحروف والألفاظ مع قطع النظر عن معانيها لا تصلح للإعتصام بها لعدم وجود الفرق بينها في القرآن وغيره من الكتب المدونة كان المراد من الإعتصام بها بإعتبار معانيها ومحتوياتها من الحقائق فهي تحتاج إلى مفسرٍ ومبينٍ آخر غيرها فهو المعتصم به فثبت أن القرآن الصامت لا يكون صالحاً للإعتصام به لعدم إطلاع المعتصم على معناه ولا سيما المتشابهات منه ولذلك ردّ على من قال حسبنا كتاب الله ولذلك ضمّ رسول الله قوله وعترتي في الحديث المتواتر بين الفريقين أتّي تارك فيكم الثقلين أو حبلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما أن تمسّكتم بهما لن تضلوا أبداً الحديث.

وهو دليل على عدم جواز الإكتفاء بالقرآن وحده اذ لو كان كافياً لقوله عليه السلام وعترتي لا محلّ له بل هو زائد في الحديث بل يظهر من قوله ما أن تمسّكتم بهما لن تضلوا أبداً، أن التمسك بالقرآن وحده بدون العترة موجب للضلالة والانحراف عن الدين وبالعكس يعني التمسك بالعترة بدون القرآن أيضاً كذلك فهما معاً يصلحان للإعتصام بهما وهو المطلوب.

وأما الجماعة كما ذكره الطبري فهو ممّا لا يقبله العقل السليم بعد قوله تعالى: وَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ، أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَأمثال ذلك من الآيات الواردة في الباب في ذمّ الأكثر والأغلب وقد قال تعالى: وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ

فَمَدَحَ الْقَلَّةَ وَ ذَمَّ الْكَثْرَةَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَلَكَ فِي الْبَابِ هُوَ الْحَقُّ الْحَقِيقُ بَانَ
تَبَاعٌ سَوْءٌ وَقَدْ فِي الْكَثْرَةِ امْ فِي الْقَلَّةِ وَبِعِبَارَةِ الْآخَرِ الْمُؤْمِنُ يَتَمَسَّكُ بِالْحَقِّ
إِنَّمَا وَحْدَهُ وَهُوَ وَاضِحٌ فَلَوْ كَانَ الْإِعْتَصَامُ بِحَبْلِ اللَّهِ مَعْنَاهُ الْإِعْتَصَامُ بِالْجَمَاعَةِ
كَمَا قَالَ الطَّبْرِيُّ فَمَنْ أَعَانَ عُمَرَ بْنَ سَعْدٍ وَابْنَ زِيَادٍ فِي قَتْلِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ
مِنَ الْمُعْتَصِمِينَ بِالْجَمَاعَةِ أَيْ بِحَبْلِ اللَّهِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ كَانَتْ مَعَ عُبَيْدِ
اللَّهِ وَابْنِ سَعْدٍ وَ لَزِمَ ذَلِكَ هُوَ أَنْ يَكُونَ قَاتِلُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ مِنْ مَعَهُ مِنْ
صُلَحَاءِ الْأُمَّةِ مِنَ الْمُعْتَصِمِينَ بِحَبْلِ اللَّهِ وَأَنْ يَكُونَ الْمُخَالَفُ لِعُمَرَ بْنِ سَعْدٍ مِنْ
غَيْرِ الْمُعْتَصِمِينَ بِهِ وَ لَا يَقُولُ هَذَا عَاقِلٌ فَضْلاً عَنْ مُسْلِمٍ، وَ أَمَّا قَوْلُهُ أَنَّ الْمُرَادَ
بِحَبْلِ اللَّهِ هُوَ الْإِخْلَاصُ فِي التَّوْحِيدِ أَيْ إِعْتَصَمُوا بِالْإِخْلَاصِ مِثْلًا فَلَا نَفْهَمُ
مَعْنَاهُ وَ أَظُنُّ أَنَّ الْقَائِلَ بِهِ أَيْضاً لَمْ يَفْهَمْ مَا قَالَ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الظَّاهِرَ مِنْ قَوْلِهِ: وَ
أَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ وَاسْطَةَ بَيْنِ الرَّبِّ وَالْعَبْدِ أَوْ هُوَ كُنَايَةٌ عَنْهَا وَ لَا يَعْقِلُ أَنَّ
يَكُونُ الْإِخْلَاصُ فِي التَّوْحِيدِ مِنَ الْوَسَائِطِ حَتَّى يَعْبرَ مِنْهُ بِالْحَبْلِ لِأَنَّ الْإِخْلَاصَ
فِي التَّوْحِيدِ أَمْرٌ إِعْتِقَادِي فَأَنْ وَجَدَ فِي الْقَلْبِ فَصَاحِبُهُ مُؤْمِنٌ وَأَنْ لَمْ يَوْجَدْ فَلَا
يَكُونُ مُؤْمِناً وَ عَلَى الْأَوَّلِ أَيْ عَلَى فَرْضِ وَجُودِهِ لَا يَدُلُّهُ مِنْ سَبَبٍ وَ بَاعِثٍ وَ
بِعِبَارَةٍ أُخْرَى لَا يَدُلُّ لِلْمُخْلِصِ الْمَوْحَدِ مِنْ مُعَلِّمٍ يَعْلَمُهُ التَّوْحِيدَ وَالْإِخْلَاصَ فِيهِ
مِنْ نَبِيِّ أَوْ وَصِيِّ أَوْ عَالِمٍ مِنْ عُلَمَاءِ الدِّينِ إِذْ لَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ مُخْلِصاً مُوَحِّداً
مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ فَقَدْ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ الَّذِي إِعْتَصَمَ بِهِ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الشَّخْصُ لَا مَا
إِسْتِفَادَهُ مِنْهُ وَ حَاصِلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ الْمَعْنَى لَا تَصْلُحُ لِلْإِعْتَصَامِ بِهَا بَلِ الَّذِي
يَصْلُحُ لَهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَفَادُ مِنْهُ الْمَعْنَى وَ عَلَيْهِ فَالْمُعْتَصِمُ بِهِ أَوَّلًا هُوَ الرَّسُولُ وَ
بَعْدَهُ الْوَصِيُّ وَ أَنْ شِئْتَ قُلْتَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَصِمَ بِهِ هُوَ الَّذِي عَصَمَهُ اللَّهُ
مِنَ الزَّلَلِ وَ الْخَطَأِ وَ السَّهْوِ وَ النَّسْيَانِ وَ هُوَ لَا يَكُونُ غَيْرَ النَّبِيِّ وَ الْوَصِيِّ فَالْمُرَادُ
بِالْحَبْلِ فِي الْآيَةِ هُوَ النَّبِيُّ وَ بَعْدَهُ الْوَصِيُّ وَ لِأَجْلِ ذَلِكَ قَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَوْلَا
الْحِجَّةُ لَسَاخَتْ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا، وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْحِجَّةُ قَبْلُ الْخَلْقِ وَمَعَ الْخَلْقِ
وَبَعْدُ الْخَلْقِ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ مَاتَ وَ لَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ

مَيِّتة الجاهلية كل ذلك لأن الخلق لا بد له من حبلٍ يعتصم به ويتقرب به الى معبوده وهو الحجة وهذا أي لزوم الحجة لأن يعتصم به مما يحكم به العقل السليم والنقل الصحيح أما العقل فقد علمت وأما النقل فالأحاديث الواردة في الباب الدالة على أن المراد بحبل الله بعد الرسول هو أهل بيته المعصومين فكثيرة جداً من العامة والخاصة ونحن نشير الى شطرٍ منها تكميلاً للبحث و توضيحاً لما دلت الآية عليه فنقول:

أما الأخبار من طريق العامة.

ما رواه الحاكم الحسكاني وهو من أكابر علماءهم ومحدثيهم في كتابه المسمى بشواهد التنزيل لقواعد التفضيل بأسناده عن الحسين بن خالد عن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن أبائه عن علي عليه السلام قال قال رسول الله من أحب أن يركب سفينة النجاة و يستمسك بالعروة الوثقى ويعتصم بحبل الله المتين فليوال علياً وليأتم بالهداة من ولده انتهى.

و بأسناده عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد قال عليه السلام: نحن حبل الله الذي قال الله: **أَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا** فالمستمسك بولاية علي ابن أبي طالب المستمسك بالبر فمن تمسك به كان مؤمناً و من تركه كان خارجاً من الإيمان انتهى.

و بأسناده عن جعفر بن محمد عليه السلام في قوله: **وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** قال عليه السلام: نحن حبل الله انتهى.

ما رواه الثعلبي في تفسيره بأسناده عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: نحن حبل الله الذي قال الله تعالى: **وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** انتهى.

ما رواه محمد بن إبراهيم النعماني في الغيبة من طريق النصاب قال حدثنا محمد بن عبد الله بن المعمر الطبراني بطبرية سنة ست

و ثلاثين و ثلاث مائة وكان هذا الرجل موالي يزيد بن معاوية ومن
النُّصَاب قال حَدَّثَنَا أَبِي قال حَدَّثَنَا عَلِيٌّ بن هاشم وساق الحديث مع
الإِسْنَاد عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وفد على رسول
الله ﷺ أهل اليمن الى أن قال فقالوا يا رسول الله ﷺ ومن
وصيك فقال هو الذي أمركم الله بالإعتصام به فقال عز وجل: وَ
أَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا فقالوا يا رسول الله ﷺ
بيّن لنا ما هذا الحبل فقال ﷺ هو قول الله ﷻ إلّا بحبل من الله وحبل
من الناس فالحبل من الله كتابه والحبل من الناس وصيي الحديث
بطوله^(١).

ومنه، اما رواه صاحب كتاب المناقب الفاخرة في العترة الطاهرة
بأسناده عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس قال: كنّا عند
رسول الله ﷺ اذ جاء أعْرَابِي فقال يا رسول الله سمعتك تقول: وَ
أَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ فما حبل الله الذي نعتصم به فضرب النبي يده
في يد عليّ وقال تَمَسَّكُوا بهذا فهذا هو الحبل المتين انتهى.

ما رواه ابن شهر آشوب من طريق العامة بأسناده عن النبي ﷺ
أنّه سأل أعْرَابِي عن هذه الآية: وَ أَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا فأخذ
رسول الله بيد عليّ وقال: يا أعْرَابِي هذا حبل الله فإعتصم به فدار
الأعْرَابِي من خلف عليّ وقال اللهم أنّي أشهدك قد إعتصمت فقال
رسول الله ﷺ من سرّه أن ينظر الى رجل من أهل الجَنَّةِ فليُنظر
الى هذا انتهى^(٢).

أقول وروى هذه الأحاديث الشيخ سليمان الحنفي البلخي في كتاب ينابيع
المؤدة أيضاً.

وَأَمَّا مِنْ طَرِيقِ الْخَاصَّةِ:

ما رواه السيد الرضوي رحمته الله في الخصائص بأسناده عن أبي الحسن عليه السلام والحديث طويل إلى أن قال: وكان من خطبة الرسول صلوات الله عليه وآله قول أنه قال يا معاشر المهاجرين من الإنس والجن ليبلغ شاهدكم غائبكم من حضر في يومى هذا وساعته ألا وأني قد خَلَفْتُ فيكم كتاب الله فيه النور والهدى والبيان لما فرض الله تبارك وتعالى من شيء حجة عليكم وحُجَّتِي وَلِيي وخَلَفْتُ فيكم العلم الأكبر علم الدين ونور الهدى وضياءه وهو علي بن أبي طالب وهو حبل الله وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا الحديث ^(١).

ما رواه العياشي بأسناده عن جابر عن أبي جعفر قال عليه السلام: آل محمد هم حبل الله الذي أمر بالاعتصام به فقال: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ^(٢).

أقول لما كان الموضوع عند الشيعة من المسلمات فلانحتاج إلى ذكر الأحاديث أكثر مما نقلناه فيه كفاية والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله فثبت وتحقق أن حبل الله الذي أمرنا بالاعتصام به هو أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وفي قوله: وَلَا تَفَرَّقُوا أيضاً إشارة إلى ما ذكرناه في معنى حبل الله وذلك لأن الله تعالى نهى عن التفرق والتشتت وقد حصل التفرق في المسلمين أكثر مما حصل لليهود والنصارى وقد أخبر به رسول الله حيث قال صلوات الله عليه وآله: لِيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذُو النَّعْلِ بِالنَّعْلِ حَتَّىٰ لَوْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَأْتِي أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ وَأَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ أَثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِائَةً وَتَفَرَّقَتْ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِائَةً كُلَّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِائَةً وَاحِدَةً رواه القرطبي

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

في تفسيره عن ابن عمر ثم زاد هو أو غيره في آخر الحديث ما هذا لفظه قالوا من هي يا رسول الله قال ما أنا عليه وأصحابي فهذه الزيادة ليست من الحديث.

و روي أيضاً عن أبي هريرة عنه ﷺ قال: تَفَرَّقَت اليهود على أحدي و سبعين فرقة أو أثنيتين وسبعين فرقة و النَّصارى مثل ذلك و تفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة انتهى ثم قال، قال الترمذي هذا حديث صحيح

أقول هذا الحديث نقلته العامة والخاصة وهو من معجزاته ﷺ حيث أخبر بما وقع بعده ونحن نقول ونسأل عنهم من الفرقة الناجية منها فإن كل واحدة منها تدعي أنها على الحق وغيرها على الباطل، فإن قالوا أن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة، يقال لهم كل الفرق من أهل السنة والجماعة غير الشيعة الأثني عشرية فإنها فرقة مستقلة تابعة لأهل البيت عليهم السلام وعلى ذلك يلزم أن تكون الفرق غير الشيعة في الجنة.

والشيعة الأثني عشرية في النار وهذا خلاف قول رسول الله ﷺ:
لأنه ﷺ قال كلهم في النار إلا فرقة أو ملة واحدة وأن قالوا أن الفرقة الناجية هي الأثني عشرية فهو المطلوب وأيضاً نقول من أين تفرقت الأمة الإسلامية على ثلاث وسبعين ملة أو فرقة وقد كان المسلمون في عهد الرسول أمة واحدة وأى شيء كان سبب هذا التفرق بعد رسول الله ﷺ غير أنهم لم يعتصموا بحبل الله وهو أمير المؤمنين وصي رسول رب العالمين بل إعتصموا بحبل الشيطان ومن المعلوم أن الإعتصام بحبله يوجب التفرق، والتشتت والنفاق والإختلاف وهذا ظاهر على غير المكابر والمعاند فقلوه تفرقوا، بعد قوله: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا معناه لا تعتصموا بحبل الشيطان لأنه يوجب التفرق كما أن الإعتصام بحبل الله يوجب عدمه قلنا في

صدر البحث أن قوله ولا تفرّقوا، أيضاً إشارة إلى ما ذكرناه أي ما ذكرناه من الإعتصام بحبل الله ومحصل الكلام هو أن التمسك بأهل البيت في أمر الدين والدنيا يوجب الإلفة والوحدة وسعادة الدارين كما أن التمسك بغيرهم في أمر الدين والدنيا كائناً من كان يوجب التفرّق والإختلاف ولنعم ما قيل:

إذا شئت أن تبغي لنفسك مذهباً

يُنجيك يوم البعث من لهب النار
فدع عنك قول الشافعي ومالك
وأحمد والمروزي عن كعب الأحبار
ووال أناساً قولهم وحديثهم

روى جَدْنَا عن جبرئيل عن الباري

وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا أي وأذكروا أيها المسلمون نعمة الله عليكم، والمراد
بها نعمة الإسلام أو نعمة وجود الرسول إِذْ كُنْتُمْ في عهد الجاهلية قبل البعثة
أَعْدَاءً فَأَلَّفَ الله تعالى بَيْنَ قُلُوبِكُمْ أي أوجد الإلفة والمحبة في قلوبكم
فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا أي صرتم بنعمة الإسلام إخواناً في الدين وزالت
العداوة والفرقة ببركة الإسلام وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ أي كنتم قبل
طلوع الإسلام على شفير جهنم فَأَنْقَذَكُمْ الله مِنْهَا أي من النار كَذَلِكَ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ إلى أمر الله ونهيهِ إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا
وَأَمَّا كَافِرًا وفيها إشارة إلى أن حفظ النعمة ولا سيما نعمة الدين لازم واجب
على كل مسلم بل نقول أن حفظها أصعب على المكلف من وجدانها كما نرى
أن المسلمين وجدوا النعمة فأخذوا بها ولكنهم لم يراعوا على حفظها بعد
موت نبيهم فارتدوا على أعقابهم وأدبارهم كما كانوا عليه قبل الإسلام فتفرّقوا
تفرّق أبادي صبا وأصبح كل طائفة منهم لعنت أختها كأنهم ليسوا أمة واحدة.

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُقْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا
وَأَخْتَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ
تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ
أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ
فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)

◀ اللغة

أُمَّةٌ: الأُمَّة بضم الألف وفتح الميم المشددة كل جماعة يجمعهم أمر ما إما
دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً
أو اختياراً وجمعها أمم.

إِلَى الْخَيْرِ: الخير ما يرغب فيه الكل كالعقل والعدل والفضل والشئ النافع
وضده الشر.

بِالْمَعْرُوفِ: المعروف إسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشرع حسنه و
المنكر ما ينكر بهما.

تَبْيَضُّ: البياض في الألوان ضد السواد.

◀ الإعراب

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يجوز أن تكون، كان، هنا تامة فتكون، أُمَّة، فاعلاً، و
يَدْعُونَ صفته، ومنكم مُتعلقة، يتكُنْ، أو بمحذوف على أن تكون صفة لأُمَّة

قدّم عليها فصار حالاً ويجوز أن تكون ناقصة و، أمة، إسمها ويدعون، الخبر و منكم أما حال من أمة أو متعلق بكان، الناقصة ويجوز أن يكون يدعون صفة و منكم الخبر جاءهمُ الْبَيِّنَاتُ أما حذف التاء لأن تأنيث البينة غير حقيقي و لأنها بمعنى الدليل يَوْمَ تَبْيَضُّ هو ظرف لعظيم، أو للإستقرار في، لهم وفي تَبْيَضُ، أربع لغات، فتح التاء وكسرها من غير ألف وتَبْيَاضُ بالألف مع فتح التاء وكسرها كذلك تسودُ أَكْفَرْتُمْ تقديره فقال لهم كفرتم، فالمحذوف هو الخبر.

◀ التفسير

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

الظاهر أن كلمة، من، في قوله: مِنْكُمْ للتبعض فيكون الأمر متوجّهاً ببعض الأمة وهم الذين يصلحون لذلك وقال الزجاج، هي لبيان الجنس وعليه فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون متوجّهاً إلى جميع الأمة فعلى الأول يكون الواجب كفايياً وعلى الثاني عينيّاً والمشهور بين المسلمين هو الأول هكذا قرّره بعض المفسرين من العامة والحق في المقام أن يقال أن وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس عينيّاً بل هو كفايى لكن لا بالمعنى الذي ذكره بمعنى أن الأمر بهما في الآية متعلق ببعض الأمة بل بمعنى أن الأمر بالجميع أي أن المخاطب به جميع المسلمين وهو واجب على جميعهم إلا أنه يسقط بفعل البعض عن غيره وهذا معنى واجب الكفايى وهو لا ينافي كون كلمة، من، للتبعض وذلك لأن الأمر يستفاد من قوله: وَلْتَكُنْ والتبعض في، من، معناه إسقاط الواجب بفعل البعض كما هو معنى الواجب الكفايى حيث أن المطلوب فيه وجود الماهية في الخارج وأما أن الأمر تعلق بالبعض فليس كذلك، ثم أن الخبر وضده الشر على ضربين مطلق ومقيّد فالخير المطلق ما يكون مرغوباً بكل حال وعند كل أحد وضده الشر المطلق وهو ما

لا يكون مرغوباً بكلِّ حالٍ وعند كلِّ أحدٍ وذلك مثل قوله ﷺ: لا خير بخيرٍ بعده النَّار ولا شرٍّ بشئٍ بعده الجنة.

أما المقيدُ منهما فهو أن تكون الخيرية والشرية بالنسبة لا مطلقاً كالمال مثلاً فإنه خير لواحِدٍ وشرٌّ لآخر ولذلك وصفه الله تعالى بالأمرين فقال في موضعٍ وأن تركَ خيراً، وقال في موضعٍ آخر: **أَيُحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ، تُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ** ^(١).

وقوله: **وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** أي أولئك الذين يدعون إلى الخير هم المفلحون شرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فستجئ قريباً إن شاء الله **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا فِي دِينِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ** قال ابن عباس هم الأمم السالفة التي إفتقرت في الدين، وقال الحسن هم اليهود والنصارى إختلفوا وصاروا فِرَقاً وقال قتادة هم أصحاب البدع من هذه الأمة الزمخشري وهم المشبهة والمجبرة والحشوية وأشباههم هذا ما قالوه في تفسير الآية ولم يعلموا أن مبتدعة هذه الأمة لم يكونوا إلا بعد موت النبي ﷺ بزمانٍ فكيف نهى الله المؤمنين أن يكونوا كمثل قوم ما ظهر تفرقهم بدعهم إلا بعد إقطاع الوحي وموت النبي فإن الظاهر من الآية أنه تعالى نهى المسلمين عن التفرق الذي قد حصل في الأمم السالفة من اليهود والنصارى على ما مضى الكلام فيه فكأنه قال لا تكونوا مثلهم في التفرق بعد وجود البينات وتامية الحجة والمراد بالبينات المعجزات الجارية على يدي الأنبياء في كلِّ عصرٍ وزمانٍ وقيل أن المراد بها الكتب السماوية من التوراة كان نهى الله تعالى المسلمين منه ولكنهم أوقعوا نفوسهم فيه فأختلفوا بعد نبئهم إختلافاً شديداً بعد ما جاءهم البينات بأحسن وجهٍ وأوضح بيانٍ وأنما قلنا أوقعوا نفوسهم فيه ولم نقل وقعوا فيه للإشارة إلى أن هذا الإختلاف أنما نشأ عن أهوائهم وأميلهم لا عن إبهامٍ أو إعصاءٍ في الدين أو لقصورٍ أو تقصيرٍ في

تبليغ الرسالة من جهة النبي كل ذلك لم يكن بل الذي دعاهم إلى الاختلاف بعد الرسول حب الجاه والمقام والوصول إلى زخارف الدنيا الدنية، أو البغض والعناد والحسد وأمثال ذلك من الدواعي الفاسدة بالنسبة إلى من نصبه الرسول في غدير خم وغيره من الموارد بالإمامة والخلافة بعد موته ﷺ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أليس قول الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ^(١) من البينات، أليس قوله ﷺ في غدير خم أَلَسْتُ أَوْلَىٰ بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ قالوا بلى يا رسول الله قال من كنتُ مولا فهذا عليّ مولاة إلى آخر كلامه من البينات، أليس قوله ﷺ يا علي أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، من البينات فإن لم تكن هذه الأمور من البينات فما المراد بها، وأما إختلافهم بعد النبي فأول الإختلاف هو إيجاد السقيفة وقولهم فيها، منّا أميرٌ، ومنكم أميرٌ، قالتة الأنصار للمهاجرين حتّى أن عمر قال هذا أول الوهن، ثمّ بعده تعيين أبي بكر للخلافة من عند أنفسهم، ثمّ بعده تعيين أبي بكر عمر بن الخطاب بعده ثمّ بعده الشورى بأمر عمر وتفويضه الأمر إلى عبد الرحمن بن عوف وتعيين عبد الرحمن عثمان بن عفان للخلافة، ثمّ بعده تسليط عثمان بني أمية على رقاب الناس ومعاوية على الشام وإدعاء معاوية الخلافة بعد عثمان متمسكاً بقميصه من جانبٍ وعائشة وطلحة والزبير من جانبٍ وهكذا حتّى انتهى الأمر إلى بني أمية وبني المروان وبني العباس فلعبوا بالدين كما أوصاهم أبو سفيان حيث قال في مجلس عثمان بعدبيعة ابن عوف وغيره له، يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة إلى آخر ما قال ثمّ أنّ خلفاء الناس أوجدوا المذهب في الإسلام تضعيفاً لمذهب أهل البيت حتّى وجدت في الإسلام ثلاث وسبعون فرقة وهذا ممّا لا ينكره إلا معاند أو جاهل بالتاريخ وهذا معنى قولنا أوقعوا نفوسهم فيه بعد موت نبيهم.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

فقله تعالى: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا فِي الْحَقِيقَةِ إِذَا ذُرِّلَهُمْ وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ مِنْ مَعْجَزَاتِ الْقُرْآنِ لِأَنَّهُ تَعَالَى نَهَاہُمْ عَنْ شَيْءٍ عَلِمَ بِوُقُوعِهِ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ وَ أَمَّا قَوْلُهُ: أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ يَعْنِي الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى فِي قَوْلِ جَمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ هُمْ الْمُتَبَدِّعَةُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَقَالَ أَبُوامَامَةِ هُمْ الْحَزْرَوِيَّةُ وَقَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: الَّذِينَ تَفَرَّقُوا اخْتَلَفُوا فِي الْأَيَّةِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى انْتَهَى.

أقول ما ذكره أو نقله من غيره لا دليل عليه وذلك لأن الآية قد دلت على النهي عن التفرق والإختلاف بعد مجيئ البينات ثم قال وأولئك لهم عذاب عظيم، والمشار إليهم بقوله: أُولَئِكَ هُوَ كُلٌّ مِنْ تَفَرَّقَ وَ اخْتَلَفَ فِي أَمْرِ الدِّينِ بَعْدَ مَا جَاءَهُ الدَّلِيلُ وَ الْبَيِّنَةُ وَ بَعَارَةٌ أُخْرَى بَعْدَ الْعِلْمِ سِوَاهُ كَانَ مِنَ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى أَمْ كَانَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَ أَمَّا إِيخْتِصَاصُ الْخُطَابِ بِطَائِفَةٍ خَاصَّةٍ أَوْ أُمَّةٍ خَاصَّةٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ كَيْفَ وَ لَيْسَ فِي الْآيَةِ ذِكْرٌ مِنَ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ بِالضَّرَاحَةِ وَ حَكَمَ الْأَمْثَالَ وَاحِدًا فَالْمَلَائِكَةُ فِي الْعَذَابِ هُوَ التَّفَرُّقُ بَعْدَ الْعِلْمِ أَيْنَمَا وَجَدَ وَالتَّخْصِصُ يَحْتَاجُ إِلَى الدَّلِيلِ وَ إِذَا لَيْسَ فَلَيْسَ يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وَجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وَجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَبْعَثُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ تَكُونُ وَجُوهُ الْمُؤْمِنِينَ مَبْيَضَّةً وَ وَجُوهُ الْكَافِرِينَ مَسْوَدَّةً وَ قِيلَ أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ إِذَا قَرَأَ الْمُؤْمِنُ كِتَابَهُ فَرَأَى فِي كِتَابِهِ حَسَنَاتِهِ اسْتَبَشَرَ وَابْيَضَّ وَجْهَهُ وَ إِذَا قَرَأَ الْكَافِرُ كِتَابَهُ فَرَأَى فِيهِ سَيِّئَاتِهِ اسْوَدَّ وَجْهَهُ، وَ قَوْلُ ثَالِثٍ هُوَ عِنْدَ الْمِيزَانِ إِذَا رَجَّحَتْ حَسَنَاتُهُ ابْيَضَّ وَجْهَهُ وَ إِذَا رَجَّحَتْ سَيِّئَاتُهُ اسْوَدَّ وَجْهَهُ.

وقول رابع وهو أَنَّ ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ أَمَّا تَزُوا الْيَوْمَ أُيُّهَا الْمُجْرِمُونَ^(١) الزَّمْخَشَرِيُّ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ نَوْرِ الدِّينِ وَسُمِّ بِبَيَاضِ اللَّوْنِ وَ أَسْفَارِهِ وَ أَشْرَاقِهِ وَ

إِيَّضَتْ صَحِيفَتَهُ وَأَشْرَقَتْ وَسَعَى النُّورِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَبِيَمِينِهِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ ظِلْمَةِ الْبَاطِلِ وَسُمِّ بِسَوَادِ اللَّوْنِ وَكُسُوفِهِ وَاسْوَدَّتْ صَحِيفَتَهُ وَاضْلَمَتْ وَاحْطَاظَتْ بِهِ الظُّلْمَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَقَالَ الرَّجَاجُ بِيَاضِ الْوُجُوهِ عِبَارَةً عَنْ إِشْرَاقِهَا وَإِسْتِنَارَتِهَا وَيَشْرَاهَا بِوَجْهِ اللَّهِ وَسَوَادِهَا بِالْعَكْسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ وَفِي قَوْلِهِ: **أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ** أَيْضاً أَقْوَالٌ:

أحدها: أَنَّهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِظْهَارِ الْإِيْمَانِ بِالتَّفَاقُ.

ثانيها: أَنَّهُمْ جَمِيعُ الْكُفَّارِ لِإِعْرَاضِهِمْ عَمَّا وَجَبَ عَلَيْهِمُ الْإِقْرَارُ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ حِينَ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى، فَيَقُولُ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ يَوْمَ الْمِيثَاقِ قَالَهُ أَتَبَى بْنِ كَعْبٍ.

ثالثها: أَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ كَفَرُوا بِالنَّبِيِّ بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ بِهِ بِنَعْتِهِ وَصِفَتِهِ قَبْلَ مَبْعَثِهِ قَالَهُ عِكْرَمَةُ وَتَبِعَهُ عَلَيْهِ الرَّجَاجُ وَالْجَبَائِثُ.

رابعها: أَنَّهُمْ أَهْلُ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمِثْلَهُ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْإِرْتِدَادِ قَالَ الطَّبْرَسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْدَ نَقْلِهِ الْأَقْوَالِ الْمَذْكُورَةَ وَيُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَرِدَنَّ عَلَى الْحَوْضِ مِمَّنْ صَحْبَنِي أَقْوَامٌ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَهُمْ إِخْتَلَجُوا دُونِي فَلَا قَوْلَ لْأَصْحَابِي فَيَقَالُ أَنْكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ إِرْتَدَوْا عَلَى أَعْقَابِهِمُ الْقَهْقَرِيُّ ذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ فَقَالَ أَبُو إِمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ هُمُ الْخَوَارِجُ وَيُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرِّمِيَةِ انْتَهَى مَا ذَكَرَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

بَابُ
النُّورِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٤

الجلد الرابع

أَقُولُ قَوْلَهُ: **فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُُهُمْ** كَلِمَةٌ، أَمَّا، حَرْفُ شَرْطٍ وَهُوَ يَقْتَضِي جَوَاباً وَلِذَلِكَ دَخَلَ الْفَاءُ فِي خَبَرِ الْمَبْتَدَأِ بَعْدَهَا وَالتَّقْدِيرُ، فَيَقَالُ لَهُمْ: **أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ** وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، سَلَامٌ عَلَيْهِمْ** ^(١) أَي يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَأَمَّا مَعْنَى الْآيَةِ.

ففي روضة الكافي في خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام وهي خطبة الوسيلة يقول فيها عليه السلام و عن يسار الوسيلة عن يسار رسول الله ظلمة يأتي منها النداء يا أهل الموقف طوبى لمن أحبّ الوصي و آمن بالنبي الأمي الذي له الملك الاعلى لا فاز أحد ولا نال الروح و الجنة إلا من لقى خالقه بالإخلاص لهما والإفتداء بنجومهما، فأيقنوا يا أهل ولاية الله ببياض وجوهكم وشرف مقصدكم وكرم مآبكم و بفوزكم اليوم على سرر متقابلين ويا أهل الإنحراف والصدود عن الله عزّ ذكره ورسوله وصراطه وإعلام الأزمنة أيقنوا بسواد وجوهكم وغضب ربكم جزاء بما كنتم تعملون

و في كتاب علل الشرائع بأسناده الى أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله حديث طويل يذكر فيه الوسيلة و منزلة عليّ يقول فيه صلى الله عليه وآله فيأتي النداء من عند الله عزّ وجلّ يسمع النبيين و جميع الخلق هذا حبيبي محمد صلى الله عليه وآله وهذا وليي عليّ عليه السلام طوبى لمن أحبه وويل لمن أبغضه و كذب عليه قال النبي صلى الله عليه وآله لعليّ يا عليّ فلا يبقى يومئذ في مشهد القيامة أحد يحبك إلا إستروح هذا الكلام و أبيض وجهه و فرح قلبه ولا يبقى أحد ممّن عاداك أو نصّب لك حرباً أو جحد لك حقاً إلا أسود وجهه واضطربت قدماه.

و في تفسير عليّ بن إبراهيم بأسناده عن أبي ذر قال لما نزلت هذه الآية: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ قال رسول الله صلى الله عليه وآله يرد على أمتي يوم القيامة على خمس رايات، فراية مع عجل هذه الأمة فأسألهم ما فعلتم بالثقلين من بعدي فيقولون أمّا الأكبر فحرّفناه و نبذناه وراء ظهورنا وأمّا الأصغر فعادينا و أبغضناه و ظلمناه فأقول ردّوا النار ظماء مظمئين مسودة وجوهكم - ثم يرد عليّ

راية مع فرعون هذه الأمة فأقول لهم ما فعلتم بالثقلين من بعدي فيقولون أمّا الأكبر فحرفناه ومزّقناه وخالفناه وأمّا الأصغر فعاديناه وقاتلناه فأقول ردّوا النّار ظماء مظمئين مسودة وجوهكم - ثمّ تردّ عليّ راية مع سامريّ هذه الأمة فأقول لهم ما فعلتكم بالثقلين من بعدي فيقولون أمّا الأكبر فعصيناه وانكرناه وأمّا الأصغر فخذلناه وضيّعناه فأقول لهم ردّوا النّار ظماء مظمئين مسودة وجوهكم - ثمّ تردّ عليّ راية ذي النّديّة مع أوّل الخوارج وآخرهم فأسألهم ما فعلتم بالثقلين بعدي فيقولون أمّا الأكبر فمزّقناه وبرئنا منه وأمّا الأصغر فقاتلناه وقتلناه فأقول ردّوا النّار ظماء مظمئين مسودة وجوهكم - ثمّ تردّ عليّ راية مع إمام الثقلين وسيد الوصيين وقائد الغر المحجلين ووصي رسول ربّ العالمين فأقول لهم ماذا فعلتم بالثقلين من بعدي فيقولون أمّا الأكبر فأتبعناه وأطعناه وأمّا الأصغر فأحييناه واليناه وازرناه و نصرناه حتّى أهرقت فيهم دماءنا فأقول ردّوا إلى الجنّة رؤاء مرويين مبيضة وجوهكم ثمّ تلا رسول الله ﷺ انتهى تفسير نور الثقلين^(١).

أقول والى هذا الحديث الشريف أشار السيّد الحميري في قصيدته حيث

قال:

لأم عمرو باللّوي مريع	طامسة أعلامها بلقع
لما وقفت العيس في رسمه	والعين من عرفانه تدمع
ذكرت من قد كنت أهوى به	فبث والقلب شجيّ موجع
عجبت من قوم أتوا أحمداً	في لحظة ليس لها مدفع

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

قالوا له لو كنت أخبرتنا
إذا تَوَفَّيْتُ و فارقتنا
فقال لو أخبرتكم مفزعاً
صنيع اهل العجل اذ فارقوا
فالناس يوم البعث ربايتهم
قائدها العجل و فرعونها
ومجدع من دينه مارق
وراية قائدها وجهه (حيدر)
أربعة في سقر اودعوا
غداً يلاقي المصطفى حيدر
مولي له الجنة مأمورة
إمام صدق وله شيعة
بذاك جاء الوحي من ربنا
الى آخر القصيدة بطولها ولا يبعد أن يكون المراد بقوله: يَوْمَ تَبْيَضُّ
وُجُوهُ و تَسْوَدُّ وُجُوهُ يوم الموت أيضاً لما رواه المفيد رحمته الله وغيره أن السيد
الحميري قبل وفاته بساعة أغمى عليه واسود لونه ثم أفاق وقد إبيض وجهه و
هو يقول.

أحب الذي من مات من أهل وده
ومن مات يهوي غيره من عدوه
أبا حسن نفديك نفسي وأسرتي
أبا حسن آتي بفضلك عارف
وأنت وصي المصطفى وابن عمه
موالك ناج مؤمن بين الهدى
تلقاه بالبشرى لدى الموت يضحك
فليس له إلا إلى النار مسلك
ومالي وما أصبحت في الأرض أملك
وآتي بحبل من هواك لئلا تمسك
وإننا نعادي مبغضيك ونترك
وقالك معروف الضلالة مشرك

هذا تمام الكلام في قوله: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ.

فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ

اختلفوا في معنى الكفر بعد الإيمان، فقالوا المراد بالإيمان، هو الميثاق حين قال الله تعالى: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى واختار هذا القول الطبري وقيل هذا لليهود للمنافقين وقد نقلنا بعض أقوالهم في صدر البحث والحق أن هذه الوجوه علية ضعيفة لا يمكن الإعتماد عليها لعدم دليل من العقل والنقل على صحتها والذي نقول به هو أن المراد بهم المسلمون والخطاب في كل الآية لهم والمراد بكفرهم بعد إيمانهم إرتداداً أي رجوعهم إلى القهقري بعد موت نبيهم وذلك لأنهم آمنوا بالله وبرسوله ثم كفروا بعد موته أي جحدوا ما قاله النبي لهم في أمر الولاية بعده فالكفر هنا الجحود فيقال لهم يوم القيامة أكفرتم بالله وبرسوله بعد إيمانكم بهما في حياته فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون كما:

قال الله تعالى: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَأَنْ مَاتَ
أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ
شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ^(١)

وسياتى البحث فيها هناك ومن المعلوم أن من يبذل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب، وهذا الإرتداد والإنقلاب على أعقابهم هو الذي صار باعثاً لإسوداد وجوههم يوم القيامة لا معنى لصرف الآيات النازلة في الكتاب إلى اليهود والنصارى والكفار والمفروض أن المخاطب بالآيات الرسول ظاهراً والمسلمون واقعاً، ومحصل الكلام أن الآية نزلت فيمن آمن بالرسول في حياته ثم كفر بنعمة الولاية بعد قبولها في غدير خُمر والعجب من

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

الطَّبْرِي حيث قال أَنَّ المراد بالكفر بعد الإيمان كفرهم في الدُّنْيَا بعد إيمانهم بالله يوم الميثاق حين قال: **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ** وهو الَّذِي يُعَبِّرُ عنه بعالم الدُّر مع أَنَّ يوم الميثاق أو عالم الدُّر محلّ كلام، وبحثِّ عند المحققين كما ستعرف الحقَّ فيه في موضعه إن شاء الله ولا يقول أَنَّ المراد بالكفر بعد الإيمان هو إنكار الولاية بعد الإقرار بها يوم الغدير حين قال رسول الله أَلَسْتُ أَوَّلَىٰ بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ قَالُوا بَلَىٰ، ثُمَّ بعد موته ﷺ أنكروا ما كانوا أقروا به و هذا معنى صرف الآيات عما هي عليه، أَلَمْ يَعْلَمْ الطَّبْرِي أَنَّ الكفر في الآية ليس بمعناه المصطلح وهو ترك الإسلام بل معناه الإنكاري وبعبارة أخرى ليس معنى قوله: **أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ** أي تركتم الدِّين وأنكرتم الله ورسوله بعد إيمانكم بل معناه أنكروا ما أقررتهم، أي أنكروا حكماً أو أحكاماً مما جاء به الرِّسُول وكنتم أقررتهم به في حياته، وإذا كان الأمر على هذا المنوال فكيف يحكم عقل الطَّبْرِي و أمثاله بأن يقولوا أَنَّ المراد بالكفر بعد الإيمان الكفر بعد الإيمان بالله يوم الميثاق في عالم الدُّر وأن شئت قلت في عالم الوهم والخيال و يعدّون الكفر بهذا المعنى من الكفر بعد الإيمان مع أَنَّهُ لم يكن هناك إيمان إلا بحسب الفرض والوهم و أمَّا الكفر بعد الإيمان في عالم الحسّ وفي حالة اليَقَظَة وهو كفرهم بالولاية بعد الرِّسُول وهو كالشَّمْس في رابعة النَّهَار فهو ليس من الكفر بعد الإيمان وبعبارة أخرى، قالوا بَلَىٰ، في عالم الخيال والوهم يعدّ من الإيمان وإنكاره يعدّ من الكفر، و أمَّا قالوا بَلَىٰ، في عالم الحسّ يوم الغدير ليس من الإيمان وإنكاره ليس من الكفر أَنَّ هذا لشيء عجاب وتفصيل الكلام فيه سيأتي إن شاء الله في موضعه ونعم الحكم الله يوم القيامة.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ
يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
الْأُمُورُ (١٠٩)

◀ اللغة

آيَاتُ اللَّهِ: الآيات جمع الآية وهي العلامة والباقي واضح.

◀ الإعراب

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ إِبْتِدَاءٌ وخبر يعنى القرآن بِالْحَقِّ الباء للمصاحبة فهي في موضع الحال من ضمير المفعول أي ملتبسة بالحق.

◀ التفسير

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ الإشارة، بتلك، قيل إلى القرآن كله أي أن هذا القرآن آيات الله، وقيل أن الإشارة إلى الآيات التي قد جرى ذكرها نَتْلُوهَا أي نتلوا الآيات عَلَيْكَ بِالْحَقِّ أي ملتبسة به وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ أي أن الله تعالى لا يريد ظُلْمًا عليهم بأن يحملهم من العقاب ما لم يستحقوه أو ينقصهم من الثواب عما إستحقوه وإذا لم يرد الظلم لم يقع منه لأحد قطعاً وذلك لأن الظلم وضع الشيء في غير محله وهو مما يستقل العقل بقبحه والله تعالى منزّه عن القبائح وفي قوله: لِلْعَالَمِينَ إشارة إلى أنه لا يظلم أحد من الموجودات فضلاً عن المؤمنين لأنه يُعْطَى كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يمكن أن تكون الواو للحال أي كيف يظلم أو كيف يريد ظُلْمًا والحال أنه مالك السموات والأرض، وقيل أن

الواو للإستئناف فهو إبتداء كلام بيّن لعباده فيه أنّ جميع ما في السّموات وما في الأرض له حتّى يسألوه ويعبدوه ولا يعبدوا غيره وفي قوله: **وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ** قولان.

أحدهما: أنّ الأمور يذهب بالفناء ثمّ يعيدها الله للمجازاة.

ثانيهما: أنّ الله قد ملّك عباده في الدّنيا أموراً وجعل لهم تصرفاً ويزول جميع ذلك في الآخرة ويرجع اليه كلّ كما قال لمن الملك اليوم ويحتمل أن يكون المعنى أنّ أمور النّاس ترجع اليه غداً يوم القيامة.



كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَلَوْ أَمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ
الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)

◀ اللغة

كُنْتُمْ: قيل، كان، تامة، وقيل هي ناقصة فعلى الأول معناها وجد أي وجدتم.
أُمَّة: الأمة الجماعة وباقي اللغات واضح.

◀ الإعراب

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ قيل كنتم في علمي وقيل، كان زائدة وقيل غير ذلك على ما
يأتي بيانه تأمرون خبر ثان أو تفسير لخير أو مستأنف لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ أي لكان
الإيمان خيرا لهم لفظ، الفعل على إرادة المصدر مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ هو مستأنف.

◀ التفسير

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ قيل أن معناه، أنتم خير أمة وإنما قال كنتم
لتقدم البشارة لهم في الكتب الماضية وعلى هذا، فكان، زائدة وقيل معناه
وجدتم خير أمة أو خلفتم خير أمة، وعليه فخير أمة نصب على الحال، وكان،
تامة بمعنى وجد.

وثالث الأقوال أن المراد كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ عند الله في اللوح المحفوظ،
ورابعها أن، كان بمعنى، صار، أي صرتم خير أمة بسبب الأمر بالمعروف و
النهي عن المنكر والإيمان بالله فيصير هذه الخصال على هذا القول شرطاً في
كونهم خيراً، وقال القرطبي روي الترمذي عن ابن حكيم عن جدّه أنه سمع

رسول الله ﷺ يقول: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ أَنْتُمْ تَتَمَوْنَ سَبْعِينَ أُمَّةٍ أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَحْنُ خَيْرُ النَّاسِ لِلنَّاسِ نَسُوقُهُمُ بِالسَّلَاسِلِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ هُمُ الَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَشَهِدُوا بِدْرًا وَالْحُدَيْبِيَّةَ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مَنْ فَعَلَ فَعَلَهُمْ كَانَ مِثْلَهُمْ، وَقِيلَ هُمْ أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ ﷺ يَعْنِي الصَّالِحِينَ مِنْهُمْ وَأَهْلُ الْفَضْلِ وَهُمْ الشَّهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ عِكْرَمَةُ وَمَقَاتِلُ نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي بَنْ كَعْبٍ وَسَلَامٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَقَدْ قَالَ لَهُمْ بَعْضُ الْيَهُودِ دِينُنَا خَيْرٌ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَنَحْنُ خَيْرٌ أَفْضَلُ فَنَزَلَتْ رَدًّا عَلَيْهِمْ وَقَالَ الْحَسَنُ وَمَجَاهِدٌ جَمَاعَةُ الْخَطَّابِ لَجَمِيعِ الْأُمَّةِ بِأَنَّهُمْ خَيْرُ الْأُمَمِ وَيُؤَيِّدُ هَذَا التَّأْوِيلُ كَوْنُهُمْ شُهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ وَقَوْلُهُ نَحْنُ الْآخَرُونَ السَّابِقُونَ، وَقَوْلُهُ نَحْنُ نَكْمَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعِينَ أُمَّةٍ نَحْنُ آخِرُهَا وَخَيْرُهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْوَالِ قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِبَعْضِ الْأَشْيَاءِ وَنَهَاهُمْ عَنْ بَعْضِهَا وَحَذَّرَهُمْ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مِثْلَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي التَّمَرُّدِ وَالْعَصْيَانِ وَذَكَرَ عَقِيبَهُ ثَوَابَ الْمُطِيعِينَ وَعِقَابَ الْكَافِرِينَ وَالْغُرُضُ مِنْ كُلِّهَا حَمْلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُكَلَّفِينَ عَلَى الْإِنْقِيَادِ وَالطَّاعَةِ ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى أَرَدَفَ ذَلِكَ بِطَرِيقٍ آخَرَ فَقَالَ: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ وَالْمَعْنَى أَنْكُمْ كُنْتُمْ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ خَيْرَ الْأُمَمِ وَأَفْضَلُهُمْ فَالْإِتِّقَ بِهِذَا أَنْ لَا تَبْطَلُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ وَأَنْ لَا تَزِيلُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ هَذِهِ الْخُصْلَةَ الْمَحْمُودَةَ وَأَنْ تَكُونُوا مُطِيعِينَ مُنْقَادِينَ فِي كُلِّ مَا يَتَوَجَّهَ عَلَيْكُمْ مِنَ التَّكْلِيفِ إِنْتَهَى.

وَقِيلَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ كِمَالَ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ بِقَوْلِهِ: فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ^(١) وَكِمَالَ حَالِ السَّعْدَاءِ بِقَوْلِهِ: وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ^(٢) نَبَهَ عَلَى مَا هُوَ السَّبَبُ لَوْعِيدِ الْأَشْقِيَاءِ بِقَوْلِهِ: وَمَا لِلَّهِ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ^(٣) يَعْنِي

أَنَّهُمْ اسْتَحَقُّوا ذَلِكَ بِأَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ ثُمَّ نَبَّهَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى مَا هُوَ السَّبَبُ لَوْعَدِ السَّعْدَاءِ بِقَوْلِهِ: **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** أَيِ تِلْكَ السَّعَادَاتِ وَ الْكَمَالَاتِ وَ الْكَرَامَاتِ أَمَّا فَازُوا بِهَا فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ النَّاسِ انْتَهَى مَا ذَكَرَهُ وَأَنَا أَقُولُ الْحَقُّ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ لِلْحَثِّ عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تَرْغِيبِ النَّاسِ إِلَى هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ فِي الشَّرِيعَةِ الْمُقَدَّسَةِ اللَّذَيْنِ بَنِيَ عَلَيْهِمَا اسْلَامُ بَلْ جَمِيعِ الْأَدْيَانِ وَ كَانَ فِيهَا يَعْهَدُ الْأَزْمَنَةُ غَيْرَ مُتَخَصِّصٍ بِالْمَاضِي كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا** وَقَوْلِهِ: **أُخْرِجْتُ لِلنَّاسِ** أَيِ أَظْهَرْتُ لَهُمْ وَقَوْلِهِ:

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ بَيَّنَّ فِيهِ كَوْنُهُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ، وَعَلَيْهِ، فَكَانَ، تَامَّةً بِمَعْنَى وَجَدَ وَظَهَرَ فَيَكُونُ قَوْلُهُ خَيْرَ أُمَّةٍ، بِمَعْنَى الْحَالِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ، كَانَ بِمَعْنَى صَارَ، أَيِ صَرَّمْتَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ بِسَبَبِ كَوْنِكُمْ أَمْرَيْنِ بِالْمَعْرُوفِ وَ نَاهَيْنِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ هَذَا مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي تَعْيِينِ الْمُرَادِ فَلَوْ قُلْنَا بِأَنَّ الْمُخَاطَبَ فِي قَوْلِهِ: **كُنْتُمْ** جَمِيعُ الْأُمَّةِ فَمَعْنَى الْأُمَّةِ وَاضِحٌ وَأَنْ قُلْنَا أَنَّ الْمُخَاطَبَ بَعْضُ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ أَوْ صَنْفٍ خَاصٍّ فِيهَا فَمَعْنَى الْأُمَّةِ جَمَاعَةُ خَاصَّةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَا جَمِيعُهُمْ وَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْمَفْسَّرِينَ عَلَى الْأَوَّلِ كَمَا عَرَفْتَ فِي نَقْلِ الْأَقْوَالِ وَ الَّذِي يَقْوِي فِي النَّفْسِ هُوَ الثَّانِي وَ نَحْنُ نَذْكُرُ أَوَّلًا مَا ذَكَرَهُ الْجُمْهُورُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ وَ مَا فِيهِ مِنَ الْإِشْكَالِ، ثُمَّ نَذْكُرُ مَا هُوَ الْمُخْتَارُ عِنْدَنَا فِي تَفْسِيرِهَا فَنَقُولُ: أَقْوَالُهُمْ فِي الْمَقَامِ سَبْعَةٌ أَوْ أَكْثَرُ.

أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ قَالُوا مَعْنَاهُ، كُنْتُمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ خَيْرَ أُمَّةٍ، وَفِيهِ أَنَّهُ مُسْتَلَزِمٌ لِتَخَلُّفِ الْعِلْمِ عَنِ الْمَعْلُومِ فِي الْخَارِجِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْعِلْمَ عِبَارَةٌ عَنِ الْإِنْكَشَافِ الْوَاقِعِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ فَمَعْنَى كَوْنِهِمْ خَيْرَ أُمَّةٍ فِي عِلْمِ اللَّهِ هُوَ إِتِّصَافُهُم بِالْخَيْرِيَّةِ وَاقِعًا وَ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فِي عِلْمِ اللَّهِ فَلَا يَدَّ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ فِي الْخَارِجِ بَعْدَ وَجُودِهِ وَ ظُهُورِهِ وَ الْمَفْرُوضِ خِلَافِهِ.

ثانيها: قالوا معنا كنتم في الأمم الذين كانوا قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة. وهو أيضاً لا يستقيم وذلك لأن الأمم السالفة من أين علموا أن هذه الأمة خير أمة فأن علموا ذلك من كتبهم المنزلة على أنبيائهم فالإشكال فيه هو الإشكال في سابقه بعينه لأن التوراة والإنجيل وغيرهما كلام الله وكيف يخبر الله تعالى بشيء لا يكون مطابقاً لما أخبر به وأن كانوا قد علموا ذلك من غير كتبهم فهو خارج عن البحث لأن البحث في كلام الله لا في اعتقاد الناس مضافاً إلى أن قول المستدل، (مذكورين) صريح في الفرض الأول أي مذكورين، في كتبهم.

ثالثها: قالوا معنا كنتم في اللوح المحفوظ موصوفين بأنكم خير أمة، وفيه أن من كان في اللوح المحفوظ موصوفاً بالخير وفي عالم الوجود غير موصوفٍ به فمن غيره ونقله من الخير إلى الشر فإن كان المُعَيَّر هو الله تعالى فهو جبرٌ مَحْضٌ وأن كان غيره فَمِنْ ذَلِكَ الْغَيْرِ الَّذِي غَيَّرَ وَبَدَّلَ لَوْحَ الْمَحْفُوظِ.

رابعها: قالوا معنا كنتم منذ أمتم خير أمة أخرجت للناس.

وهذا أيضاً لا معنى له بعد الإيمان بالله وبرسوله ظاهراً فعلموا ما فعلوا واتصفوا، بالشّر لا قبله فأما الإنسان قبل الإيمان لا يكون على خير وهو معلوم.

خامسها: قالوا معنا كنتم خير أمة تابع لقوله: **وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ** والتقدير أنه يقال لهم في الجنة كنتم في دنياكم خير أمة وبذلك صرتم مستحقين للرحمة وبياض الوجه وهذا أيضاً لا معنى له لأن المفروض أن الأمة في الدنيا ليست كذلك نعم من كان في الآخرة مبيض الوجه فهو كاشف عن كونه في الدنيا على صفة الخير ومن أين ثبت لهذا القائل أن جميع الأمة تابع لقوله: **وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ** اذ لو ثبت هذا ثبت كونهم خير أمة بلا كلام مضافاً إلى أن قوله هذا مستلزم للدور لأنه أثبت كون الأمة على خير بكونهم مصاديقاً لقوله: **أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ** في الآخرة ثم أثبت بياض الوجه بكونهم خير أمة في الدنيا.

سادسها: قالوا معنا لو شاء الله تعالى يقال أنتم وكان هذا التشريف

حاصلاً لكننا ولكن قوله كنتم مخصوص بقوم معينين من أصحاب الرسول، و هم السابقون الأولون وفيه أن السابقين الأولين من أصحاب الرسول أيضاً ما بقوا على صفة الخير بعد الرسول إلا ما شذ منهم ونذر، أليس الزبير وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص وأمثالهم من السابقين الأولين أليس المسلمون من السابقين الأولين واللاحقين الآخرين أحدثوا بعد النبي ما أحدثوا حتى قيل أن الناس إرتدوا بعد النبي إلا ثلاث أو سبعة و سيأتي الكلام فيه فمن السابقين الأولين الذين عبّر الله تعالى عنهم في كتابه بقوله: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ و هل الأمة تصدق على ثلاث أو سبعة، مع أن الثلاث أو السبعة. أيضاً لم يكونوا من السابقين الأولين أعني بهم المهاجرين بل كانوا من اللاحقين.

سابعها: قالوا معناه كنتم مذ أمتكم خير أمة تنبيهاً على أنهم كانوا موصوفين بهذه الصفة مذ كانوا وفيه أن هذا أول الكلام لأننا نقول لم يكونوا موصوفين بهذه الصفة مذ كانوا فهو من قبيل المصادرة فهذا الوجه الذي ذكرها الزاوي في تفسيره ليعتمد عليها في حل الاشكال وقس عليها سائر الوجوه التي لم نذكرها حذراً من الإطالة وأنت تقدر على جوابها بعد ما ذكرناه ولا فرق في ذلك بين أن تكون، كان، تامة أو ناقصة فإن الإشكال باقي بحاله على كلا التقديرين وذلك لأن قوله: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ على فرض كون، كان، تامة معناه وجدتكم خير أمة أخرجت للناس أو أظهرتم مثلاً وعلى تقدير كونها، ناقصة، معناه كنتم فيما مضى خير أمة أخرجت للناس، وأما قلنا لا فرق بينهما لأن الإشكال في المقام هو أن الأمة ليست بهذه الصفة لا فيما مضى ولا في زماننا هذا وأيضاً لم توجد بهذه الصفة من أول الأمر بشهادة التاريخ والوجدان والجس لا في عهد الرسول ولا بعد موته هذا أن أردنا من الأمة جميع المسلمين أو أكثرهم، والدليل على ما ذكرناه أما من الخاصة فمعلوم لأنهم اعتقدوا أن الأمة بعد نبيها رجعت إلى القهقري إلا ثالث أو سبعة وأما من

العامة فلما رواه الطبري في تفسيره في قوله تعالى: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ بأسناده عن قتادة أَنَّهُ قَالَ لَقَدْ كَفَرَ أَقْوَامٌ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَمَا تَسْمَعُونَ وَلَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ الْحَوْضَ مِمَّنْ صَحْبَنِي أَقْوَامٌ حَتَّى إِذَا رَفَعُوا إِلَيَّ وَرَأَيْتَهُمْ إِخْتَلَجُوا دُونِي فَلَأَقُولَنَّ رَبِّ أَصْحَابِي أَصْحَابِي فَلْيُقَالَنَّ أَنْكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدَثُوا بَعْدَكَ انْتَهَى.

وفي حديث القرطبي أَنَّهُمْ ارْتَدَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرِي وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ بَعْدَ قَوْلِهِ أَنْكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدَثُوكَ بَعْدَكَ، فَأَقُولُ مُسْتَحَقًّا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ مِنْهُمْ وَمَنَا تَدَلَّنَا عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ بِالْأُمَّةِ لَيْسَ جَمِيعُ الْأُمَّةِ بِإِتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ فَقَوْلُهُ: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ عَلَى إِطْلَاقِهِ بِحَيْثُ يَشْمَلُ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أَحَادِ الْأُمَّةِ لَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ بِهِ وَإِذَا انْتَفَى الْجَمِيعُ بَقِيَ فِي الْمَقَامِ، الْأَكْثَرُ، وَالْأَقْلُ، بَأَنْ نَقُولُ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ، أَيْ أَكْثَرَكُمْ كَذَلِكَ، أَوْ الْأَقْلُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ، لَا سَبِيلَ إِلَى الْأَكْثَرِ أَيْضًا بِالإِتِّفَاقِ مَنَا وَمِنْهُمْ أَمَّا مِنَا فَوَاضِحٌ وَأَمَّا مِنْهُمْ فَلَمَّا رَوَاهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذُو النَّعْلِ بِالنَّعْلِ حَتَّى لَوْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَأْتِي أُمَّةً عَلَانِيَةً لَكَانَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ وَأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَتَفَتَّرَقَ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلَّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً انْتَهَى ذِكْرُهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ ابْنِ عُثْمَرَ.

وَالطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَالسَّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمُنْتَوَّرِ أَيْضًا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَغَيْرِهِمَا فِي غَيْرِهَا وَرَوَاهُ أَصْحَابُنَا أَيْضًا فِي كُتُبِ الْخَاصَّةِ فَإِنَّ الزَّوَايَةَ مَشْهُورَةٌ مُتَوَاتِرَةٌ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ وَهَذِهِ الزَّوَايَةُ وَأَمْثَالُهَا تَنْفِي الْقَوْلَ بِالْأَكْثَرِ لِدَلَالَتِهَا عَلَى ضَلَالَتِهَا أَكْثَرُ الْأُمَّةِ وَهَدَايَةُ الْأَقْلِ مِنْهَا لِقَوْلِهِ ﷺ كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ مِنَ الْأُمَّةِ لَا يَتَصَفُّونَ بِالْخَيْرِ إِذْ لَوْ كَانُوا مُتَصَفِّينَ بِهِ فَكَيْفَ دَخَلُوا النَّارَ فَيَبْقَى فِي الْمَقَامِ إِحْتِمَالُ الْأَقْلِ وَأَنَّهُ الْمَرَادُ

من الأمة في قوله: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ وَالْآنَ نَتَكَلَّمُ فِيهِ فَنَقُولُ الْمُرَادُ مِنَ الْأُمَّةِ فِي الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ هُوَ جَمَاعَةٌ خَاصَّةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَوَّلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَخْرَهُمُ حُجَّةُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيُّ وَتَدَخَّلَ فِيهِمْ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ أَيْضاً لَكُونَهَا مِنَ الْمَعْصُومِينَ عِنْدَنَا وَهُمْ أَرْبَعَةٌ عَشَرَ مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَالحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر وعلي بن موسى الرضا ومحمد بن علي الجواد وعلي بن محمد الهادي والحسن العسكري والحجة بن الحسن الذي يملأ الله الأرض به قسطاً وعدلاً بعد ما ملأت ظلماً وجوراً فهذه الأنوار المقدسة مخاطبون بهذه الآية في قوله: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ لَا غَيْرَهُمْ نَعَمْ مِنْ تَبِعِهِمْ فِي هَذِهِ الْأَوْصَافِ فَهُوَ مِنْهُمْ وَإِذَا كَانَ مِنْهُمْ فَيَشْمَلُهُ الْخُطَابُ تَبَعاً لَا إِصَالَةً. أَنْ قُلْتُ لَوْ صَحَّ مَا ذَكَرْتُ مِنْ حَمْلِ الْآيَةِ عَلَيْهِ فَلَمْ لَمْ يَقُلْ: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ وَقَالَ: خَيْرَ أُمَّةٍ.

قُلْتُ أَمَّا أَوَّلًا: فَلَأَنَّ الْأُمَّةَ عَلَى مَا فَسَّرُوهَا عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّ جَمَاعَةٍ يَجْمَعُهُمْ أَمْرٌ مَا أَمَّا دِينٌ وَاحِدٌ أَوْ زَمَانٌ وَاحِدٌ أَوْ مَكَانٌ وَاحِدٌ قَالَهُ الرَّائِبِيُّ فِي الْمَفْرَدَاتِ وَلِذَلِكَ قَالُوا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً أَيْ صِنْفًا وَاحِدًا وَعَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الضَّلَالِ وَالْكَفْرِ فَعَلَى هَذَا لَا اشْكَالَ فِي إِطْلَاقِ الْأُمَّةِ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ أَعْنَى بِهِمُ الْمَعْصُومِينَ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ صِنْفٌ وَاحِدٌ مِنْ جِهَةِ الْعَصْمَةِ وَعَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ جِهَةِ الْإِيمَانِ وَالذِّينِ مِنْ غَيْرِ وَجُودِ اخْتِلَافٍ بَيْنَهُمْ فِي الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ بَحِثْ أَنَّ مَا قَالَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فَهُوَ بَعِينُهُ مَا قَالَهُ غَيْرُهُ وَمَا نَفَاهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فَقَدْ نَفَاهُ غَيْرُهُ فَالْأُمَّةُ لَا تَصْدُقُ حَقِيقَتًا إِلَّا عَلَيْهِمْ وَأَمَّا صَدَقُهَا عَلَى غَيْرِهِمْ مَجَازٌ إِذْ لَا يَوْجَدُ صِنْفٌ فِي الْإِسْلَامِ كَانَ كَذَلِكَ غَيْرُ الْمَعْصُومِينَ. ثَانِيًا: قَدْ وَرَدَتْ الْأَخْبَارُ بِمَا ذَكَرْنَاهُ.

في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

مَا رَوَاهُ الْعِيَّاشِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ عَلِيٍّ (أَي عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ) قَالَ عَلِيٌّ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِ وَ

فِي الْأَوْصِيَاءِ خَاصَّةً فَقَالَ أَنْتُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ قَالَ، يَعْنِي الْأُمَّةَ الَّتِي وَجِبَتْ لَهَا دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ فَهَمِ الْأُمَّةَ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ فِيهَا وَمِنْهَا وَبِهَا وَهُمْ الْأُمَّةُ الْوُسطَى وَهُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ انْتَهَى.

مَا رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ فِي تَفْسِيرِهِ بِأَسْنَادِهِ عَنْ ابْنِ سَنَانٍ صَحِّحَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَرَأْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كُنْتُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ الْآيَةَ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَيْرُ أُمَّةٍ تَقْتُلُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ ابْنِي عَلِيٍّ فَقَالَ الْقَارِئُ جَعَلْتُ فِدَاكَ كَيْفَ نَزَلَتْ فَقَالَ نَزَلَتْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ أَلَا تَرَى مَدَحَ اللَّهِ لَهُمْ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ انْتَهَى.

مَا رَوَاهُ الْعِيَّاشِيُّ عَنْ أَبِي عَمْرِو الزَّبِيرِيِّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسَاقَ الْحَدِيثَ كَمَا مَرَّ.

مَارَوَاهُ صَاحِبُ الْمَنَاقِبِ عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ قَرَأَ كُنْتُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ بِالْأَلْفِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ قَالَ نَزَلَ بِهَا جَبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا عَنِي بِهَا إِلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ وَعَلِيٌّ وَالْأَوْصِيَاءُ مِنْ وَلَدِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ انْتَهَى.

ثَالِثًا: أَنَّهُ يَظْهَرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ خَيْرِيَّةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنَّمَا هِيَ مِنْ جِهَةِ الْإِتِّصَافِ بِالصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ وَهِيَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْأَوْصَافَ لَا تَخْتَصُّ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ بَلْ كَانَتْ حَاصِلَةً لِسَائِرِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ أَيْضًا فَلَوْ قُلْنَا أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْأُمَّةِ فِي الْآيَةِ غَيْرُ أَهْلِ بَيْتِ كَائِنًا مَنْ كَانَ فَمَا وَجْهَ التَّفْضِيلِ وَأَمَّا إِذَا قُلْنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأُمَّةِ هُنَا النَّبِيُّ ﷺ وَعَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَوْلَادُهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فَوَجْهَ التَّفْضِيلِ ظَاهِرٌ إِذْ لَا رَبَّ أَتَمُّ الْأَفْضَلِ وَالْأَشْرَفِ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ فَضْلًا عَنْ أَمَمِهِمْ بَلْ وَلَوْ قِيلَ بِأَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْأُمَّةِ فِي الْآيَةِ أُمَّةُ النَّبِيِّ كَمَا قَالُوا بِهِ فَأَفْضَلِيَّتُهَا بِإِعْتِبَارِهِمْ لِأَتَمِّ أَهْلِ الْبَيْتِ رُؤَسَاءِ الْأُمَّةِ وَمَرْكَزَهَا وَعِمَادُهَا وَلَنَرْجِعَ إِلَى تَفْسِيرِ أَلْفَاظِ الْآيَةِ:

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ أَثَبَّتَ اللَّهُ تَعَالَى
لِلْأُمَّةِ ثَلَاثَ صِفَاتٍ:

أحداها: أنهم يأمرُونَ بالمعروف.

الثانية: أنهم ينهون عن المنكر.

الثالثة: أنهم يؤمنون بالله، قلنا سابقاً أَنَّ المعروف إِسْمٌ لكلِّ فعلٍ يعرف
بالعقل أو الشرع حسنه والمنكر ما ينكر بهما وأما الإيمان فهو عبارة عن الإقرار
باللسان والإعتقاد بالقلب والعمل بالجوارح والأركان إذا عرفت معاني
الصفات الثلاثة فأعلم أَنَّ هذه الأوصاف لا توجد على وجه التمام والكمال إلا
في من عصمه الله وأما في غير المعصوم بحسب القدرة والطاقة ولذلك نقول
أَنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهكذا الإيمان بالله ممَّا بُنِيَ عليه
أساس الدين ولا يقدر أحد من الناس أَنْ يَأْتِيَ بها مثل النبي والوصي واضح.

وَلَوْ أَمَّنْ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ أَيُّ لَوْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
بِالنَّبِيِّ ﷺ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ عَدَمِ إِيمَانِهِمْ بِهِ وَبِقَائِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ
مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ مِنَ اللَّتَبْعِيضِ أَيُّ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِالرَّسُولِ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ لِعَدَمِ إِيمَانِهِمْ بِهِ وَيَحْتَمِلُ
أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى بَعْضُ أَهْلِ الْكِتَابِ مُؤْمِنٌ فِي دِينِهِ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ فِيهِ فَمَنْ
كَانَ مُؤْمِنًا فِي دِينِهِ آمَنَ بِالنَّبِيِّ وَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ وَالحَقُّ أَنَّ الْأَمْرَ فِي
الْإِسْلَامِ أَيْضًا كَذَلِكَ لَغَلْبَةِ الْفَسَادِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَزَمَانٍ قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى: وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ وَأَمَّا شُرَاطُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ
الْمُنْكَرِ فَقَدْ مَضَى شَطْرًا مِنْهَا وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ فِيهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
بِوَجْهِ أَبْسَطٍ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الْبَابِ.

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ
 الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١) ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ
 الدِّلَّةَ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ
 النَّاسِ وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ
 الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بَاتِهِمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ
 وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ
 كَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ
 الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ
 وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
 الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
 الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ
 الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ
 يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)

◀ اللغة

أَذًى: الأذى ما يصل الى الحيوان من الضرر أما في نفسه أو تبعاته دنيوياً
 كان أو آخروياً قال الله تعالى: لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى^(١).
 الْأَذْبَارُ: الأدبار جمع الدبر وهو خلاف القبل وهو كناية عن الخلف.
 الدِّلَّةُ: الحقارة.

تُقِفُوا: الثقف الحذق في إدراك الشيء يقال ثقفت كذا اذا أدركته ببصرك
 لحذق في النظر ثم يتجاوز به فيستعمل في الإدراك وأن لم تكن معه ثقافة.

بَاءٌ وَ: يُقَالُ بَاءَ يَبُوءُ بَوًّا، إِذَا رَجَعَ، بَاءَ بِهِ، أَرْجَعَهُ.
الْمَسْكَنَةُ: الْفَقْرُ وَالذَّلُّ وَالضَّعْفُ.

يَعْتَدُونَ: الْإِعْتِدَاءُ التَّجَاوُزُ عَنِ الْحَقِّ مِثْلَ الظُّلْمِ.
أَنَاءَ اللَّيْلِ: الْأَنَاءُ جَمْعُ إِنَاءٍ وَأَنَى وَأَنَاءُ وَهُوَ الْوَقْتُ.

◀ الاعراب

إِلَّا أَذَى إِذَى مُصَدَّرٌ مِنْ مَعْنَى يَضُرُّوكم لِأَنَّ إِذَى وَ الضَّرَرُ مُتَقَارِبَانِ فِي الْمَعْنَى فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْإِسْتِثْنَاءُ مُتَصِلًا وَقِيلَ هُوَ مُنْقَطِعٌ لِأَنَّ الْمَعْنَى لَنْ يَضُرُّوكم بِالْهَزِيمَةِ لَكِنْ يُؤْذُونُكُمْ بِتَصَدِّيقِكُمْ لِقِتَالِهِمْ يُؤْلُوْكُمْ أَلَاذِبَارَ الْأَدْبَارِ مَفْعُولٌ ثَانٍ وَالْمَعْنَى يَجْعَلُونَ ظَهْرَكُمْ تَلِيَكُمْ ثُمَّ لَا يُنْصَرُّونَ مُسْتَأْنَفٌ إِلَّا بِحَبْلِ فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ عَلَى الْحَالِ أَيِ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ فِي كُلِّ حَالٍ فَالْبَاءُ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ إِلَّا مَتَمَسِّكِينَ بِحَبْلِ لِيَسُوْا الْوَاوِ إِسْمٌ لَيْسَ وَسَوَاءٌ خَبَرَهَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ فَأُمَّةٌ مُبْتَدَأٌ وَقَائِمَةٌ نَعَتْ لَهُ وَالْجَارُ قَبْلَهُ خَبَرَهُ وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ، أُمَّةٌ، فاعِلُ الْجَارِ يَتَلَوْنَ صِفَةً أُخْرَى، لِأُمَّةٍ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي قَائِمَةٍ أَوْ مِنَ الْأُمَّةِ لِأَنَّهَا قَدْ وَصِفَتْ وَالْعَامِلُ هَذَا الْإِسْتِقْرَارُ أَنَاءَ اللَّيْلِ ظَرْفٌ، لِيَتَلَوْنَ لَا لِقَائِمَةٍ لِأَنَّ قَائِمَةً قَدْ وَصِفَتْ فَلَا تَعْمَلُ فِيمَا بَعْدَ الصِّفَةِ هُمْ يَسْجُدُونَ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي، يَتَلَوْنَ، أَوْ فِي، قَائِمَةٍ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَأْنَفًا وَكَذَلِكَ يُؤْمِنُونَ وَيَأْمُرُونَ وَنَهَوْنَ أَنْ شَتَّ جَعَلْتُهَا أَحْوَالًا وَأَنْ شَتَّ إِسْتَأْنَفْتُهَا.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

◀ التفسير

لَنْ يَضُرُّوْكُمْ إِلَّا أَذَى لَنْ لَنَفِي الْأَبَدِ أَيِ لَنْ يَضُرُّوكم الْكَفَّارُ أَبَدًا إِلَّا أَذَى
اِخْتَلَفُوا فِي هَذَا الْإِسْتِثْنَاءِ أَهْوُ مُتَّصِلٌ أَوْ مُنْقَطِعٌ فَعَلَى الْإِتِّصَالِ مَعْنَاهُ لَنْ

يَضْرُوكُمْ إِلَّا ضَرْباً يَسِيراً فَوْقَ الْأَذَى مَوْعِدِ الْمَصْدَرِ وَأَمَّا فَسْرُنَا الْأَذَى بِالضَّرَرِ
 الْيَسِيرِ لِأَنَّ الْمُسْتَشْنَى دَاخِلٌ فِي الْمُسْتَشْنَى مِنْهُ فِي الْمُشْتَنَى الْمُتَّصِلِ .
 وَأَمَّا عَلَى الْقَوْلِ بِالْإِنْفَصَالِ فَالْمَعْنَى لَنْ يَضْرُوكُمْ إِلَّا أَذَى بِاللِّسَانِ أَوْ سَمَاعِ
 كَلِمَةِ الْكُفْرِ وَكَيْفَ كَانَ فَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ أَنََّّهُمْ
 مَنْصُورُونَ وَأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا يَغْلِبُونَ عَلَيْهِمْ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ دَلَّتْ هَذِهِ
 الْجُمْلَةُ عَلَى تَرْغِيبِ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَصَلُّبِهِمْ فِي دِينِهِمْ وَتَشْتِهَمِ عَلَيْهِ وَعَلَى
 تَحْقِيرِ شَأْنِ الْكُفَّارِ إِذَا صَارُوا لَيْسَ لَهُمْ مِنْ ضَرَرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْءٌ إِلَّا مَا يَصِلُونَ إِلَيْهِ
 مِنْ إِسْمَاعِ كَلِمَةٍ بِسُوءٍ وَقَوْلِهِ: وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمْ الْأَدْبَارَ مَبَالِغَةٌ فِي عَدَمِ
 مَكَافَحَةِ الْكُفَّارِ لِلْمُؤْمِنِينَ إِذَا رَادُوا قِتَالَهُمْ بِنَفْسٍ مَا تَقَعُ الْمَقَابِلَةُ وَلَوْ الْأَدْبَارَ
 فَلَيْسُوا بِمَنْ يَغْلِبُ وَفِي التَّعْبِيرِ بِالْأَدْبَارِ دُونَ الظُّهُورِ إِشَارَةٌ إِلَى حَقَارَةِ الْكُفَّارِ وَ
 ذَلَّتْهُمْ لَمَّا فِي لَفْظِ الْأَدْبَارِ مِنَ الْإِهَانَةِ مَا لَيْسَ فِي لَفْظِ الظُّهْرِ وَالظُّهُورِ وَلِأَنَّ الْأَدْبَارَ
 أَبْلَغُ فِي الْإِنْهَازِ وَالْهَرَبِ وَلِذَلِكَ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ مُسْتَعْمَلًا:
 قَوْلُهُ تَعَالَى: سَيُهْزَمُ الْجَنْعُ وَيُوْلَوْنَ الدُّبُرَ^(١).
 قَوْلُهُ تَعَالَى: وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ^(٢).

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا

أَيَّ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا وَجَدُوا وَالْمُرَادُ بِهِمُ الْيَهُودُ لِأَنَّ الْآيَاتِ نَزَلَتْ
 فِيهِمْ فَامْتَنَحُوا أُنْ رُؤُوسَ الْيَهُودِ مِثْلَ كَعْبِ الْأَحْبَارِ وَأَبِي رَافِعٍ وَأَبِي يَاسَرَ وَابْنِ
 صَوْرِيٍّ عَمِدُوا إِلَى مُؤْمِنِيهِمْ كَعْبُ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابُهُ فَعَابَوْهُمْ لِأَسْلَامِهِمْ أَوْ
 هَدَّوْهُمْ بِالْقَتْلِ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ: لَنْ يَضْرُوكُمْ الْخ... ثُمَّ اتَّبَعَ كَلَامَهُ بِقَوْلِهِ: ضُرِبَتْ
 عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيَّ ضُرِبَتْ عَلَى الْيَهُودِ الذِّلَّةُ وَالْحَقَارَةُ وَمَعْنَى ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ
 جَعَلَتْ مُحِيطَةً بِهِمْ وَهُوَ إِسْتِعَارَةٌ فِي ضَرْبِ الْقَبَابِ وَالْخِيَامِ وَالْيَاقِ هَذَا أَشَارَ
 الشَّاعِرُ بِقَوْلِهِ:

أَنَّ السَّمَاةَ وَالْمَرْوَةَ وَالتَّنْدِي فِي قَبَةِ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرِجِ
 أَي جَعَلَتْ، ثُمَّ أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي الْمَرَادِ مِنَ الذَّلَّةِ الْمَضْرُوبَةِ عَلَى الْيَهُودِ عَلَى أَقْوَالٍ:
أَحَدُهَا: أَنَّ الْمَرَادَ بِهَا أَنْ يَحَارِبُوا وَيَقْتُلُوا وَتَغْنَمَ أَمْوَالَهُمْ وَتَسْبَى ذُرَارِيَهُمْ وَ
 تَمْلِكَ أَرْضِيَهُمْ.

الثَّانِي: أَنَّ الْمَرَادَ بِهَا الْجَزِيَّةَ وَذَلِكَ لِأَنَّ ضَرْبَ الْجَزِيَّةِ عَلَيْهِمْ يُوْجِبُ الذَّلَّةَ
 وَالصَّغَارَ.

الثَّالِث: أَنَّ الْمَرَادَ بِهَا أَنَّكَ لَا تَرَى فِيهِمْ مَلِكًا قَاهِرًا وَلَا رَئِيسًا مُعْتَبَرًا بَلْ هُمْ
 مُسْتَخَفُونَ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ ذَلِيلُونَ مَهِيْفُونَ وَأَمَّا قَوْلُهُ: **أَيِّنَ مَا تُقْفَوْنَ**، فَمَعْنَاهُ
 أَنَّ الذَّلَّةَ الْمَضْرُوبَةَ عَلَيْهِمْ لَا تَخْتَصُّ بِمَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ وَلَا بِزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ بَلْ
 هِيَ لَهُمْ ثَابِتَةٌ أَيْنَمَا وَجَدُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَقُولُ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ مُعْجَزَاتِ
 الْقُرْآنِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا فَأَنَا نَرَى الْيَهُودَ فِي زَمَانِنَا هَذَا كَمَا أَخْبَرَ بِهِ الْقُرْآنُ
 حَذَّ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ: **إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ** هَذَا إِسْتِثْنَاءٌ مِنَ الذَّلَّةِ
 وَالْحَقَارَةِ فَهَذَا بَحْثَانِ:

الأَوَّل: أَنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ مُتَّصِلٌ أَوْ مُنْقَطِعٌ.

الثَّانِي: فَالْمَرَادُ بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ.

أَمَّا الْبَحْثُ الْأَوَّلُ: فَالْمَشْهُورُ بَيْنَ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ مُتَّصِلٌ فَالْمَعْنَى
 أَنَّ الذَّلَّةَ ثَابِتَةً لَهُمْ إِلَّا أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ فَإِذَا كَانُوا
 كَذَلِكَ تَرَفَعَتِ الذَّلَّةُ عَنْهُمْ وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ وَذَهَبَ الطَّبْرِيُّ وَالزَّجَّاجُ وَ
 أَمْثَالُهُمَا أَنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ مُنْقَطِعٌ لَيْسَ مِنَ الْأَوَّلِ وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى أَنَّ الذَّلَّةَ ثَابِتَةً لَهُمْ
 سِوَا مَا كَانُوا عَلَى عَهْدِ مِنَ اللَّهِ أَمْ لَمْ يَكُونُوا فَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا وَضَعَفُوا هَذَا
 الْقَوْلَ بِأَنَّهُ خِلَافُ الظَّاهِرِ فَأَنَّ الطَّبْرِيَّ قَالَ، إِلَّا، بِمَعْنَى، لَكِنْ، أَي لَكِنْ قَدْ
 يَعْتَصِمُونَ بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ، قَالَ الرَّازِيُّ بَعْدَ نَقْلِهِ مَا نَقَلْنَاهُ عَنْ
 الطَّبْرِيِّ أَنَّ حَمْلَ لَفْظِ، إِلَّا عَلَى، لَكِنْ، خِلَافُ الظَّاهِرِ وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ، أَنَّهُ حَقٌّ وَ
 الْإِسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ لَيْسَ مِنَ الْأَوَّلِ أَي لَكِنَّهُمْ يَعْتَصِمُونَ بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ انْتَهَى.

وَأَنَا أَقُولُ مَا ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ لِابْنِ عَبَّاسٍ بِهِ لَاحِظٌ عَلَى إِطْلَاقِهِ.

البحث الثاني: اختلفوا في معنى حَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ فقال بعضهم المراد بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ هو الإسلام وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ هو العهد والذمة، وقال قوم المراد بكلا الحبلين العهد والذمة والأمان لأنَّ الأمان المأخوذ من المؤمنين هو الأمان المأخوذ بأذن الله.

ثالث الأقوال أنَّ المراد بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ عهده وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ عهد الرسول وعهد المؤمنين، وقال الرازي قولاً رابعاً وهو أنَّ الأمان الحاصل للذمي قسمان:

أحدهما: مانص عليه وهو أخذ الجزية.

الثاني: فوضَّح إلى رأي الإمام فيزيد فيه تارة وينقص تارة أخرى بحسب الاجتهاد فالأول أعني بها الجزية هو حبل الله.

الثاني: هو المسمَّى بحبلٍ مِنَ النَّاسِ انتهى، هذا ما ذكره في المقام

أقول يحتمل أن يكون المراد بقوله: بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ ذِمَّةُ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ أي لا عزَّ لهم قطَّ إلا هذه الواحدة وهي إتجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية وَبَاءَ وَبَغَضَ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ أي رجعوا وقيل إحتملوا وأصله في اللغة أنه لزمهم وضربت عليهم المسكنة أي جعلت لهم الفقر والإستئصال والحقارة ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ هذا الكلام بمنزلة التعليل كأنه قيل ولم ضربت عليهم المسكنة والذلة ولم لزمهم غضب الله فقال تعالى في الجواب ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ إلى آخر الآية، وقد مضى الكلام فيها في سورة البقرة ولا نحتاج إلى إعادته لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ الواو في ليسوا، هي لأهل الكتاب السابق ذكرهم في قوله: وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْيُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا

أَنفَاسِقُونَ^(١) وقيل أَنَّ الواو ضمير عائد إلى أهل الكتاب و، سواء، خبر ليس والمعنى ليس أهل الكتاب مستوين بل منهم من آمن بكتابه وبالقرآن مِمَّنْ أدرك شريعة الإسلام أو كان على إستقامة فمات قبل أن يدرك الإسلام ومنهم من كفر بكتابه وبالقرآن أولم يكن على إستقامة في دينه أيضاً فمات على الكفر والإلحاد، قيل في سبب نزول الآية أَنَّ عبد الله بن سلام وغيره من اليهود لما أسلموا قال الكفار من أحبارهم ما آمن بمحمدٍ إلا أشرارنا ولو كانوا خياراً ما تركوا دين آبائهم قاله ابن عباس وقتادة قال بعض المفسرين في قوله: **مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ** أزيد به أربعون رجلاً من أهل نجران من العرب وأثنين وثلاثين من الجنة وثمانية من الرّوم كانوا على دين عيسى وصدّقوا محمداً ﷺ انتهى كلامه والله أعلم ثمَّ أَنَّ المراد بأناء الليل ساعاته وقيل جوف الليل وقيل صلاة العتمة، ثمَّ وصفهم ثانياً بقوله: **يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ** وصفهم الله بالإيمان بالله وبرسوله أولاً وبالأمْر بالمعروف والنهي عن المنكر ثانياً وبالمسارعة في الخيرات ثالثاً ثمَّ عدّهم من الصالحين قال بعض أهل التحقيق أَنَّ كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته، والخير لأجل العمل به وأفضل الأعمال الصلاة وأفضل الإذكار ذكر الله وأفضل المعارف معرفة المبدأ والمعاد، فقوله تعالى: **يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ** إشارة إلى الأعمال الصالحة الصادرة عنهم.

وقوله: **يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** إشارة إلى فضل المعارف الحاصلة في قلوبهم فكان هذا إشارة إلى كمال حالهم في القوة العمليّة والنظرية وذلك أكمل أحوال الإنسان وهي المرتبة التي يقال أنها آخر درجات الإنسانية وأول درجات الملكيّة، وقوله: **يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ** إشارة إلى فوق التّمام وذلك أَنَّ الإنسان يكون تاماً بكمال قوّتي العمليّة والنظرية كما

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

مَرَّ وَأَمَّا كونه فوق التَّمَام فهو لا يحصل إلا بسعيه في تكميل النّاقصين من الخلق وهو أي بتكميل النّاقص يتحقّق بأمرين:

أحدهما: إرشاده إلى ما ينبغي له من فعل الخيرات وهو الأمر بالمعروف.

ثانيهما: نهيهِ عمّا لا ينبغي وهو التّهي عن المنكر فالإنسان الكامل عبارة عمّن كان كاملاً في العقل العملي والنّظري وفوق الكامل هو الذي يتصدّى لأصلاح الخلق وإيقاظهم عن نوم الغفلة، وأمّا قوله: **وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ** فهو إشارة إلى أنّ الإنسان إذا وصل إلى حدّ الكمال ثمّ إلى فوق الكمال على ما مرّ تحقيقه ينبغي له أن يسارع في العمل والقول على غيره حتّى لا يكون مصداقاً لقوله تعالى: **لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ** فالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر إذا لم يصلح نفسه قبل إصلاح غيره فلا يؤثّر كلامه في الغير فمن أراد الدّعوة إلى الخيرات يجب عليه أن يسبق غيره في القول والعمل كما أنّ الأنبياء والأوصياء كانوا كذلك ومن المعلوم أنّ المسارعة إلى الخير غير العمل بالخير والله تعالى قال: **وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ** ولم يقل و يعملون بها، فمن قال أو يقول، أنّ هذا الكلام مفسّر لقوله: **يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ** أو توضيح له فقد أخطأ وذلك لأنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وإن كان عن أفعال الخير إلا أنّ المسارعة فيه بحث آخر وبعبارة أخرى ربما يكون الشخص أمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر ولا يكون هو بنفسه مسارعاً في الخيرات بل لا يكون من أهلها أصلاً لا اعتقاداً ولا عملاً وكثير من الأمرين والنّاهين من هذا القبيل وربما يكون أمراً وناهياً وهو معتقداً بما يقول عاملاً به إجمالاً إلا أنّه مسامح في العمل بمعنى أنّه قد يعمل وقد لا يعمل.

ثالثاً: يكون عاملاً ثمّ أمراً وناهياً فهذا هو المراد من الآية ولأجل هذه الدّقيقة لم يقنع بقوله: **يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ** بل قال: **وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ** هذا إذا قلنا أنّ المراد بالخيرات المعروف الذي يأمر به وأن قلنا أنّ المراد بهما مطلق الخيرات أمر بها أو لم يأمر فالمعنى أنّ

الأميرين والنّاهيين يسبقون غيرهم في أعمال الخير أينما وجد كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته للحسن والحسين (ع):

قال عليه السلام: واللّٰهُ اللّٰهُ في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم

قال عليه السلام: وإنهؤ عن المنكر وتناهوا عنه، فإنما أمرتُم بالنهي بغد التّناهي^(١)

قال عليه السلام: لَعَنَ اللّٰهُ الأميرين بالمعروفِ التّاركين له والنّاهيين عن المنكرِ العالمين به^(٢)

وقال عليه السلام: ولا خير في الدنيا إلا لرجلين رجل أذنب ذنباً فهو يتداركها بالتوبة ورجل يسارع في الخيرات^(٣)

ثم أنّ المسارعة في الخير أمّا لأجل خوف القوت بسبب الموت وأمّا أنّها توجب عدم التّشاغل في فعل الخير وكيف كان فهي ممدوحة عقلاً وشرعاً وفي قوله إشارة وأولئك من الصّالحين إلى أنّ العبد لا يصل إلى مقام الصّلاح عند الله إلا بعد كونه موصوفاً بالأوصاف المذكورة قال بعض المحققين أعلم أنّ الوصف بذلك، أي الوصف بالصّلاح، غاية المدح ويدل عليه النّقل والعقل.

أمّا النّقل فهو أنّ الله تعالى مدح بهذا الوصف الأنبياء عليهم السّلام فقال بعد ذكر إسماعيل وادريس وذو الكفل وغيرهم:

أنّه قال الله تعالى: وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصّٰلِحِينَ^(٤).

وقال حكاية عن سليمان:

قال الله تعالى: وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصّٰلِحِينَ^(٥) وهكذا.

أمّا العقل فلأنّ الصّلاح ضدّ الفساد والفساد عبارة عن كلّ ما لا ينبغي أن

١- خطبة ١٢٩

٢- الانبياء = ٨٦

١- خطبة ١٠٥

٣- قصاص الحكم ٩٤

٥- النمل = ١٩

يكون سواء كان في العقائد أم في الأعمال.
وَأَمَّا الصَّلَاحُ فهو عبارة عن كُلِّ ما ينبغي أن يكون، فإذا كان كُلُّ ما حصل من باب ما ينبغي أن يكون فقد حصل الصَّلَاحُ فهو من أعلى الدَّرَجَاتِ والعقل السَّليم يحكم بتحصيله وتَرْك ما يخالفه.

وَأَمَّا قوله: **وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ** قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم، و ما يفعلوا من خير فلن يكفروه بالياء الباقون فأنهم قرأوا بالتاء على سبيل المخاطبة أي و ما تفعلوا من خير فلن تكفروه الآية فعلى الأولى معناه ما يفعلوا هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب الذين يتلون ويسجدون ويؤمنون وأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر إلى آخر الآية فلن يكفروه والله عليمٌ بالمتقين وعلى القراءة الثانية فالمعنى ما تفعلوا أنتم أيها المؤمنون لأنه على هذه القراءة ابتداء خطاب لجميع المؤمنين من أهل الكتاب وغيرهم، و أما قوله **فَلَنْ تَكْفُرُوهُ** أي لن يمنعوا ثوابه و جزاءه قالوا أنما سُمِّيَ منع الجزاء كفراً لوجهين:

أحدهما: أنه تعالى سَمَّى إيصال الثواب شكراً حيث أن الله شاكرٌ عليم، **فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا**^(١) فلما سَمَّى إيصال الجزاء شكراً فلا محالة منعه يكون كفراً.

ثانيهما: أن الكفر في اللغة السَّتر فسمي منع الجزاء كفراً لأنه بمنزلة الجحد و السَّتر و عليه فالمعنى و ما يفعلوا من خير فلن يستروه بشئ من المعاصي والقبايح التي تستر الحسنات، والله عليمٌ بالمتقين، بشارة لهم وفيه إشعار بأن التقوى مبدأ الخير و حسن العمل وأنما يتقبل الله من المتقين اللهم إجعلنا منهم و أحشرنا معهم في الدنيا والآخرة آمين.



إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا
 أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
 هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ
 حَرَّتِ قَوْمَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ
 اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)

◀ اللغة

صِرٌّ: الصَّرُّ بسكر الصاد البرد.

حَرَّتْ: حَرَّتْ حَرَّتًا، الأرض شَقَّقَهَا لِلزَّرَاعَةِ وهو مصدر قال بعضهم الحرث الأرض التي تستنبت بالبذر والتوى والغرس.

◀ الإعراب

كَمَثَلِ رِيحٍ فيه حذف مضاف تقديره كمثل مهلك ريح فيها صِرٌّ مبتدأ وخبر في موضع صفة الرِّيح ويجوز أن تُرفع، صِرٌّ بالظرف لأنه إعتد على ما قبله أَصَابَتْ في موضع جرٍّ أيضاً صفة لريح ولا يجوز أن تكون صفة، لصِرٌّ، لأنه مذكر والضمير في أَصَابَتْ، مؤنث ظَلَمُوا صفة لقوم.

◀ التفسير

نقل عن ابن عباس أنَّ المراد بالكُفَّار في هذه الآية هو بنو قريظة وبنو النضير وذلك لأنَّ مقصود رؤساء اليهود في معاندة الرسول ما كان إلا المال والدليل عليه قوله تعالى في سورة البقرة: وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا^(١) وقيل

ضياء القرآن: في تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

نَزَلَتْ فِي مُشْرِكِي قَرِيشَ فَإِنَّ أَبَا جَهْلٍ كَانَ كَثِيرَ الْإِفْتِخَارِ بِمَالِهِ وَلِهَذَا السَّبَبُ نَزَلَ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِعْيًا^(١) قَوْلُهُ تَعَالَى: سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ^(٢).

و ثَالِثُ الْأَقْوَالِ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي سَفْيَانَ فَإِنَّهُ أَنْفَقَ مَا لَمْ يَكُنْ عَلَى الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَحَدٌ فِي عِدَاوَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَفِي الْمَقَامِ قَوْلُ رَابِعٍ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي حَقِّ جَمِيعِ الْكَفَّارِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَعَزَّوْنَ بِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَكَانُوا يَعْبَرُونَ الرَّسُولَ وَاتَّبَاعَهُ بِالْفَقْرِ وَكَانَ مِنْ جَمَلَةٍ شَبَّهَهُمْ أَنْ قَالُوا كَانَ مُحَمَّدٌ عَلَى الْحَقِّ لَمَّا تَرَكَهُ رَبُّهُ فِي هَذَا الْفَقْرِ وَالشَّدَةِ، وَلِأَنَّ اللَّفْظَ عَامٌّ وَلَا دَلِيلَ عَلَى التَّخْصِيسِ فَوَجِبَ حَمْلُهُ عَلَى عُمُومِهِ.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أَلَمَّْا خَصَّ اللَّهُ تَعَالَى الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّ نَفْعَ الْجِمَادَاتِ هُوَ الْأَمْوَالُ وَانْفَعُ الْحَيَوَانَاتِ هُوَ الْوَلَدُ فَإِذَا كَانَ الْكَافِرُ لَا يَنْتَفِعُ بِالْمَالِ وَالْأَوْلَادِ فِي الْآخِرَةِ فَعَدَمَ انْتِفَاعَهُ بغيرهما بطريق أولى ونظيره:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ^(٣).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى^(٤). وَلَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى عَدَمَ انْتِفَاعِهِ بِهِمَا قَالَ:

أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ وَاحْتَجَّ أَصْحَابُنَا بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ فَسَّاقَ أَهْلِ الصَّلَاةِ لَا يَبْقَوْنَ فِي النَّارِ أَبَدًا فَقَالُوا، قَوْلُهُ: أُولَئِكَ أَصْحَابُ

النَّارِ كلمة تفيد الحصر فأنه يقال أولئك أصحاب زيد لا غيرهم ولمّا أفادت هذه الكلمة معنى الحصر ثبت أنّ الخلود في النار ليس إلّا للكافر انتهى.

أقول العجب كلّ العجب من الرّازي فأنه مع سعة علمه وكثرة تحقيقه و إطلاعه قد يتفوه بكلمات توجب الشك في كونه عالماً فضلاً عن كونه محققاً و كلامه في المقام من هذا القبيل وذلك أمّا أولاً فلاّن الخلود في النار وعدمه هو ممّا لا يعلمه الله تعالى فلا بحث فيه خارج عن فهمنا و علمنا قطعاً لأنّه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم الله ما يريد و مع ذلك لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

ثانياً: ليس في الآية شيء يفيد الحصر وقوله (يقال أولئك أصحاب زيد لا غيرهم وهم المنتفعون به ولا غيرهم) لا يفيد الحصر لأن قولنا أولئك أصحاب زيد، يدل على كونهم أصحاب زيد ولا يدل على الحصر بمعنى أنّه ليس لزيد غير هؤلاء أصحاباً فإن إثبات شيء لا ينفي ما عداه وهكذا ما نحن فيه فإن قوله تعالى: **أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** يدل على كون الكفار مخلّدين في النار و أمّا الحصر يعني أنّ المخلّدين في النار منحصرون في الكفار فلا يستفاد من الآية وبعبارة أخرى قوله تعالى: **أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** معناه كلّ كافر مخلّد في النار وهذا ممّا لا كلام فيه إلّا أنّ هذه قضية موجبة كلّية وهي لا تنعكس كلّية بل تنعكس جزئية فاذا قلنا كلّ إنسان حيوان، نقول في العكس بعض الحيوان إنسان وبعضه ليس بإنسان ولا يصح أن يقال كلّ حيوان إنسان وهذا معنى قولهم والموجبة الكلّية لا تنعكس إلّا جزئية اذا عرفت هذا فقوله تعالى كالـموجبة الكلّية، أي كلّ كافر فهو مخلّد في النار وهذه القضية تنعكس بقولنا بعض المخلّد في النار كافر وبعضه ليس بكافر فقول الرّازي وأصحابه غلط بيّن لا تساعده اللّغة والنحو لعدم وجود أداة الحصر في الآية ولا تساعده القاعدة المسلّمة عند الكل لأن الموجبة الكلّية لا تنعكس كنفسها بل عكسها لا محالة جزئي فهذا الكلام من الرّازي و هو من

أهل المنطق والفلسفة والعَرَبِيَّة على ما كان يدعيه عجيبٌ وأمثاله في كلماته كثيرة وإذا كان الرّازي وهو من أعلم علماء العامة وأدقهم في العلوم العقلية والعقلية على ما زعموا قال في تفسير الآية ما قال وحمل الآية على خلاف الواقع فما ظنك بغيره من المفسرين منهم، ألم يعلم الرّازي وأمثاله أن من هذه الأمة رجالاً ونساءً هم أخبث من الكفار بمراتب كثيرة ومن هذه الأمة أهل التّأبوت من هذه الأمة قرناء فرعون وهامان ونمرود في العذاب وهكذا فكيف يقول ثبت أن الخلود في النار ليس إلا للكافر، وسيأتي البحث في هذه المسائل في تفسير الآيات، ثم أن المقصود من الآية أن الأموال والأولاد لا يدفع بهما صاحبهما وهو واضح إذا لم يكن هناك إيمان وعمل وبعبارة أخرى وجودهما وعدمهما بالنسبة إلى الكافر سيان وأما بالنسبة إلى المؤمن فليس الأمر كذلك لا إنتفاء المؤمن بهما ولذلك خصّ الله عدم الإنتفاع بهما بالكافر فقال أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم.

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ
أي مثل ما يُنْفِقُونَ هؤلاء الكفار في الدنيا كمثل الريح الباردة التي تهلك الزرع.

أعلم أن الله تعالى شبه إنفاق الكفار في الدنيا بالريح الباردة التي أصابت حرث قوم ظالمين فأهلكتهم الريح الحرث والزرع أي أفنت ثمر الزرع بحيث أن الزارع لم ينتفع بحرثه وزرعه ولم يبق له إلا الخسران والحرمان، فالإنفاق من الكافر في الآية هو المشبه والريح الباردة المهلكة هي المشبه به والإفناء والإهلاك وجه الشبه والكاف في قوله، كَمَثَلِ، أداة التشبيه فالتشبيه تام كامل لا نقص فيه لوجود الأركان الأربعة فيه وهي، المشبه، والمشبه به، ووجه الشبه، وأداة التشبيه.

أَنْ قَلْتُ كَيْفَ يَكُونُ إِتْفَاقُ الْكَافِرِ مِثْلَ الرِّيحِ الَّتِي فِيهَا صَرٌّ، وَبِعِبَارَةِ أُخْرَى وَجْهَ الشَّبْهِ فِي الْمَشَبِّهِ بِهِ ظَاهِرٌ وَهُوَ الْبُرُودَةُ الْمَوْجُودَةُ فِي الرِّيحِ وَأَمَّا فِي الْمَشَبِّهِ فَلَيْسَ بِمَعْلُومٍ إِذَا لَا مَعْنَى لِقَوْلِنَا أَنَّ الْإِتْفَاقَ مِثْلَ الرِّيحِ الْبَارِدَةِ.

قُلْتُ لَمْ يَشَبَّهِ الْإِتْفَاقُ بِالرِّيحِ الْبَارِدَةِ بَلْ شَبَّهِهُ الْإِتْفَاقُ الْكَافِرُ بِهَا فَالْكَفَرُ فِي الْمُنْفَقِ بِمَنْزِلَةِ الصَّرِّ وَالْبَرْدِ فِي الرِّيحِ فَكَمَا أَنَّ الرِّيحَ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا صَرٌّ لَا تَضُرُّ بِالْحَرِّ بَلْ تَنْفَعُهُ كَذَلِكَ الْإِتْفَاقُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْكَافِرِ لَا يَضُرُّ بَلْ يَنْفَعُ وَلِذَلِكَ وَرَدَتِ الْآيَاتُ وَالْأَخْبَارُ فِي مَدْحِهِ وَأَمَّا فِي الْمَقَامِ فَلِكُونُهُ صَدَرَ عَنِ الْكَافِرِ فَهُوَ مِمَّا لَا نَفْعَ فِيهِ وَفِي قَوْلِهِ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ هَذَا الْخُسْرَانُ وَالْحَرَمَانُ لِلْكَافِرِ لَيْسَ إِلَّا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ فَعَدَمُ إِيْمَانِهِ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ لَا أَنَّهُ ظَلَمَ عَلَى اللَّهِ أَوْ عَلَى غَيْرِهِ، فَإِنَّ الظُّلْمَ عَلَى أَقْسَامٍ:

ظَلَمَ عَلَى اللَّهِ وَظَلَمَ عَلَى الْخَلْقِ وَظَلَمَ عَلَى النَّفْسِ، وَاللَّهُ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنِ الْخَلْقِ وَأَعْمَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ لِقَوْلِهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ^(١) فَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ مِنْ أَطَاعِهِ وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ مِنْ عَصَاهُ.

وَلَيْسَ كَفَرُهُ ظُلْمًا عَلَى الْخَلْقِ لِأَنَّهُ بِمَا هِيَ هِيَ لَا ضَرَّ فِيهِ وَأَمَّا الرِّيحُ الَّتِي تَضُرُّ فَهُوَ الرِّيحُ الْبَارِدَةُ فَالْبُرُودَةُ الْمَوْجُودَةُ فِيهِ هِيَ الَّتِي أَهْلَكَتِ الْحَرَّ، وَقِيلَ أَنَّ مَعْنَى الصَّرِّ، فِي الْآيَةِ السَّمُومُ الْحَارَّةُ، وَالنَّارُ الَّتِي تَغْلِي وَهُوَ إِخْتِيَارُ أَبِي بَكْرٍ الْأَصْمِ، نَقَلُوا عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ الرِّيحُ الَّتِي فِيهَا صَرٌّ، أَيُّ فِيهَا نَارٌ.

أَقُولُ وَكَيْفَ كَانَ فَالتَّشْبِيهُ حَاصِلٌ لِأَنَّهُ سَوَاءٌ كَانَ بَرْدًا مَهْلِكًا أَوْ حَرًّا مُحْرِقًا فَإِنَّهُ يَصِيرُ مَبْطَلًا لِلْحَرِّ وَالزَّرْعُ فَيَصِحُّ التَّشْبِيهُ بِهِ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ معناه قد ظهر ممَّا ذكرناه ومع ذلك فنقول أمَّا قوله: وَمَا

ظَلَمَهُمُ اللَّهُ فففيه نفى الظلم عنه تعالى أَنَّ الظلم قبيح وهو تعالى منزّه عنه، و
ثانياً، أَنَّ الظلم على ما قيل هو الشّي في غير محلّه والله تعالى حكيم على
الإطلاق فلا يضع شيئاً في غير محلّه وقد مرّ الكلام في نفى الظلم عنه عقلاً و
نقلاً غير مرّة، قوله: وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ فلا تهم إختاروا الكفر على
الإيمان بإختيارهم أيضاً عليهم لا محالة، فأن قلت أَنَّ الكافر في حال كفره
يتمتع عليه أن يقصد القربة في سبيل الله والله تعالى: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا
وُسْعَهَا قلت الإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار ومع ذلك يمكن للكافر رفعه
بسبب الإيمان بالله وأما مسألة الإحباط فسيأتي الكلام فيه والمقام ليس من
الإحباط فأنّ الإحباط إفناء الشّي بعد ثبوته أولاً وفي المقام لم يثبت شّي
أصلاً.



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ
 دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ
 الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ
 أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تُعْقِلُونَ (١١٨)
 هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَ
 تُوْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَ
 إِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ
 مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ
 (١١٩) إِنْ تَمَسَسْنَكُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ
 سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا
 يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ
 مُحِيطٌ (١٢٠)

◀ اللغة

بَطَانَةٌ: البطانة بكسر الباء مصدر يُسَمَّى به الواحد والجمع وبطانة الرجل
 خاصته الذين يستنبطون أمره وأصله من البطن وهو خلاف الظهر، يقال بطن
 فلان يبطن بطوناً وبطانة إذا كان خاصاً به قال الشاعر:

أولئك خلصائي نعم وبطانتى وهم عييتي من دون كل قريب
 لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا: يقال ألا في الأمر يألوا إذا قصر فيه ثم استعمل مُعَدِّي
 إلى مفعولين في قولهم لا آلوك نصحاً ولا آلوك مهداً وقال الراغب في
 المفردات وما ألوته جهداً أي ما أوليته تقصيراً بحسب الجهد وكذلك ما ألوته
 نصحاً، والخبال الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه إضطراباً كالجنون و
 المرض المؤثر في العقل والفكر يقال خبله وخبله فهو خابلٌ.

وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ: الْوَدُّ مَحَبَّةُ الشَّيْءِ وَتَمَنَّى كَوْنَهُ وَيَسْتَعْمَلُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَعْنِيِّينَ عَلَى أَنَّ التَّمَنَّى يَتَضَمَّنُ مَعْنَى الْوَدِّ وَ مَا عَنِتُّمْ، مَا مُصَدَّرَةٌ، قَالَ الرَّجَاجُ أَيَّ مُشَقَّتِكُمْ وَقِيلَ الْمَعَانِدَةُ وَالْمَعَانَتَةُ يَتَقَارِبَانِ لَكِنِ الْمَعَانِدَةُ هِيَ الْمُخَالَفَةُ وَالْمَعَانَتَةُ أَنْ تَتَحَرَّى مَعَ الْمَمَانَعَةِ الْمَشَقَّةَ انْتَهَى.

وَأَصْلُهُ أَنْهِيَاضٌ مِنَ الْعَظَمِ بَعْدَ جَبِيرِهِ.

قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ: الْبَغْضُ نَقَارُ النَّفْسِ عَنِ الشَّيْءِ الَّيْذِ تَرُغِبُ عَنْهُ وَهُوَ ضِدُّ الْحَبِّ وَالْبَغْضَاءِ وَالْبَغْضَةُ وَالْبَغَاضَةُ الْبَغْضُ الشَّدِيدُ.

عَصُوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ: الْعَصُ أَزَمٌ بِالْأَسْنَانِ وَ ذَلِكَ عِبَارَةٌ عَنِ النَّدَمِ لَمَّا جَرَى بِهِ عَادَةُ النَّاسِ أَنْ يَفْعَلُوهُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَالْأَنَامِلُ وَمُفْرَدُهَا الْأَنْمَلَةُ، رَأْسُ الْأَصْبَعِ الْمَفْصَلِ الْأَعْلَى الَّذِي فِيهِ الظُّفْرُ.

مِنْ الْغَيْظِ: الْغَيْظُ أَشَدُّ غَضَبٍ وَهُوَ الْحَرَارَةُ الَّتِي يَجدهَا الْإِنْسَانُ مِنْ فُورَانِ دَمِ قَلْبِهِ وَالباقى واضح.

◀ الإعراب

مِنْ دُونِكُمْ صفة لبطانة وقيل، من، زائدة لَا يَأْتُونَكُمْ فِي مَوْضِعٍ نَعْتَ لِبَطَانَةٍ أَوْ حَالٍ مِمَّا تَعَلَّقَتْ بِهِ، مِنْ، خَبَرًا عَلَى التَّمْيِيزِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُصَدَّرًا فِي مَوْضِعِ الْحَالِ وَدُّوا مُسْتَأْنَفٌ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي يَأْتُونَكُمْ وَتَدْفَعُهُ مُرَادَةً، مَا، مُصَدَّرَةٌ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ حَالٌ أَيْضًا وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَأْنَفًا مِنْ أَفْوَاهِهِمْ مَفْعُولٌ، بَدَتِ وَمِنْ، لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا هَذَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ أَوْلَاءُ خَبَرٌ عَنْ، أَنْتُمْ وَتُحِبُّونَهُمْ، مُسْتَأْنَفٌ أَوْ حَالٌ أَوْ صِلَةٌ عَلَى أَنْ يَكُونَ، أَوْلَاءُ، مَوْصُولًا أَوْ خَبَرٌ لِأَنْتُمْ، وَأَوْلَاءُ، مُنَادَى أَوْ يَكُونَ، أَوْلَاءُ، مُبْتَدَأٌ ثَانِيًا، وَتُحِبُّونَهُمْ خَبَرٌ عَنْهُ وَالْجُمْلَةُ خَبَرٌ عَنِ الْأَوَّلِ أَوْ يَكُونَ أَوْلَاءُ، فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ نَحْوِ، أَنْ زِيدًا ضَرْبَتُهُ فَيَكُونُ مِنَ الْإِسْتِقَالِ وَإِسْمُ الْإِشَارَةِ فِي

هذين الوجهين واقع على غير ما وقع عليه، أنتم، خطاب للمؤمنين، و، أولاً، إشارة الى الكفار عَضُوا عَلَيْكُمْ، عليكم مفعول عَضُوا ويجوز أن يكون حالاً مِنْ أَلْغِظَ مَتَّعِلَق، بعضوا أيضاً بِغِظِكُمْ أن يكون مفعولاً به أي بسبب غيظكم وأن يكون حالاً أي موتوا مغتاضين لَا يَضُرُّكُمْ مصدر أي ضراراً مُحِطٌ خبر إن.

◀ التفسير

قيل أَنَّ قومًا من المؤمنين خافوا بعض المشركين من اليهود والمنافقين المؤدّة لما كلن بينهم في الجاهليّة فنّهاهم الله تعالى عن ذلك بهذه الآية فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ أي لا تتخذوا الكافرين أولياء وخواص من دون المؤمنين فأن البطانة معناها هي هنا خاصّة الرّجل الذين يستنبطون أمره ويُسمّون دخلاء أي لا تجعلوا من هذه صفته من غير المؤمنين و قوله: مِنْ دُونِكُمْ أي من دُونِ مِلَّتِكُمْ و دينكم ثم بيّن الله تعالى العلة في المنع من مواصلتهم فقال: لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا أي أَنَّ الكافرين لا يقصرون فيما يؤدّي الى فساد أمركم ولا يدعون جهدهم في مضرتكم (وَمِنْ) في قوله: مِنْ دُونِكُمْ تحتمل وجهين:

أحدهما: أن تكون للتبعية و عليه فالتقدير لا تتخذوا بعض المخالفين في الدين بطانة

الثاني: ان تكون لتبيين الصفة كأنه قيل لا تتخذوا بطانة من المشركين كأننا من كان وهو اعم و اولى لانه لايجوز ان يتخذ مؤمنٌ كافرٌ بطانة على حالٍ و قيل، من، زائدة ولا وجه له بعد إمكان صحّة حملها على الفائدة، ففي قوله: لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً نهي عن الرّكون الى الكفار وفي قوله لا يألونكم خبالاً، نهي عن إتخاذ المؤمنين الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم دخلاء وولجاء بمعنى تفويض أمورهم اليهم، ولذلك يقال كلّ من كان على خلاف مذهبك ودينك فلا ينبغي لك أن تحدّثه قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي
 روي أبو داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال المرء على دين خليله
 فلينظر أحدكم من يخالل، وزوي عن ابن مسعود أنه قال إعتبروا الناس
 بإخوانهم، روي القرطبي عن أبي إمامة عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى:
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى قَوْلِهِ: حَبَالًا قال هو الخوارج.

ثم روي أن أبا موسى الأشعري إستكتب ذمياً فكتب اليه عمر يعنفه وتلا
 عليه هذه الآية قال وقدم أبو موسى الأشعري على عمر بحساب فرفعه إلى
 عمر فأعجبه وجاء عمر كتاب فقال لأبي موسى أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب
 على الناس فقال أنه لا يدخل المسجد فقال عمر، لم أجنب هو، قال أنه
 نصراني فأنتهره وقال، لا تدنهم وقد أقصاهم الله ولا تكرمهم وقد أهانهم الله
 ولا تأمنهم وقد خونهم الله ونقل عن عمر أيضاً أنه قال لا تستعملوا أهل
 الكتاب فأنهم يستحلون الرشاء واستعينوا على أموركم وعلى رعيتم بالذين
 يخشون الله، وقيل لعمر، أن هيهنا رجلاً من نصارى الجيرة لا أحد أكتب منه و
 لا أخط بقلم أفلا يكتب عنك فقال لا أخذ بطانة من دون المؤمنين ثم قال
 القرطبي فلا يجوز إستكتاب أهل الذمة ولا غير ذلك من تصرفاتهم في البيع و
 الشراء والإستئابة اليهم قال وقد إنقلبت الأحوال في هذه الأزمان بإتخاذ أهل
 الكتاب كتبة وأمناء وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء
 ودؤوا ما عنتهم أي ودؤوا إضلالكم وقال الزجاج مشقتكم وقال الراغب
 المعاندة والمعاشة يتقاربان لكن المعاندة هي الممانعة والمعاينة أن تتحرى
 مع الممانعة المشقة، وما، في قوله: ما عنتهم مصدرية والمعنى، ودؤوا عنتكم،
 وهو دليل ثان على عدم جواز إتخاذ الكفار بطانة فكأنه قيل لم لا نتخذهم
 بطانة فقال تعالى لأمرين.

أحدهما: أنهم لا يألونكم خبالاً، أي أنهم لا يتركون الجهد في فسادكم
 لأنهم إن لم يُقاتلوكم في الظاهر فأنهم لا يتركون الجهد في المكر والخديعة.

ثانيهما: أَنَّهُمْ أَيِ الْكَفَّارِ وَدَوَّا عَنَتَكُمْ أَيِ مَشَقَّتْكُمْ أَيِ إِضْلَالِكُمْ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ أَيِ أَنَّهُمْ لَا يَكْتَفُونَ بِبَغْضِكُمْ بِقُلُوبِهِمْ حَتَّى يَفْرَحُوا بِذَلِكَ بِأَفْوَاهِهِمْ وَفِي ذِكْرِ الْأَفْوَاهِ دُونَ الْأَلْسِنَةِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ مَا تَلْفَظُوا بِهِ يَمْلَأُ أَفْوَاهَهُمْ كَمَا يَقَالُ:

قَالَ كَلِمَةً تَمْلَأُ الْفَمَ إِذَا تَشَدَّقَ بِهَا، وَقِيلَ الْمَعْنَى لَا يَتِمَّا لَكُنْ مَعَ ضَبْطِهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَتَحَامَلَهُمْ عَلَيْهَا أَنْ يَنْفَلَتْ مِنْ أَلْسِنَتِهِمْ مَا يَعْلَمُ بِهِ بَغْضٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ تَعَالَى مَا أَنْطَوُوا عَلَيْهِ مِنْ وَدَادِهِمْ عَنَتِ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ إِخْبَارٌ عَنِ فِعْلِ قَلْبِي ذَكَرَ مَا أُنتَجَ ذَلِكَ الْفِعْلُ الْقَلْبِي مِنَ الْفِعْلِ الْبَدَنِيِّ وَهُوَ ظَهُورُ الْبَغْضِ مِنْهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْبَغْضُ بِقُلُوبِهِمْ لَهُمْ أَعْظَمُ مِمَّا ظَهَرَ مِنْهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ قَالَ: وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ أَيِ أَكْثَرَ مِمَّا ظَهَرَ مِنْهَا أَوْ شَدَّ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ أَيِ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، الْآيَاتِ وَالْعَلَامَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى وَجُوبِ الْإِخْلَاصِ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَعَادَاةِ الْكَفَّارِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ، مَا بَيَّنَّاهُ لَكُمْ فَعَمِلْتُمْ بِهِ أَوْ أَنْ كُنْتُمْ عَقْلَاءَ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ عَقْلَاءَ لَكِنْ عَلَّقَهُ عَلَى هَذَا الشَّرْطِ عَلَى سَبِيلِ النَّبِيِّ لِلنَّفُوسِ كَقَوْلِكَ أَنْ كُنْتَ رَجُلًا فَأَفْعَلْ كَذَا، وَقَالَ إِبْنُ جَرِيرٍ أَنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ عَنْ اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَقِيلَ أَنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ فَلَا تَصَافَوْهُمْ بَلْ عَامَلَوْهُمْ مَعَامِلَةَ الْأَعْدَاءِ يَقَالُ لِلْقُوَّةِ الْمُتَهَيِّئَةِ بِقَبُولِ الْعِلْمِ وَيُقَالُ لِلْعِلْمِ الَّذِي يَسْتَفِيدُهُ الْإِنْسَانُ بِتِلْكَ الْقُوَّةِ، عَقْلٌ، وَلِذَلِكَ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْعِلْمُ عِلْمَانِ مَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ وَلَا يَنْفَعُ الْمَسْمُوعُ إِذَا لَمْ يَكُنْ الْمَطْبُوعُ كَمَا لَا يَنْفَعُ ضَوْءُ الشَّمْسِ وَضَوْءُ الْعَيْنِ مَسْمُوعٌ، وَالْيَاقِلُ بِالْمَعْنَى الْأَوَّلِ وَهُوَ الْعَقْلُ الْمَطْبُوعُ أَشَارَ النَّبِيُّ بِقَوْلِهِ مَا خَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَقْلِ، أَيِ مِنَ الْقُوَّةِ الْمُتَهَيِّئَةِ بِقَبُولِ الْعِلْمِ وَالْيَاقِلِ الثَّانِي وَهُوَ الْعَقْلُ الْمَسْمُوعُ أَشَارَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: مَا كَسَبَ أَحَدٌ شَيْئًا أَفْضَلَ مِنْ عَقْلٍ يَهْدِيهِ إِلَى هُدًى أَوْ يَرُدُّهُ عَنْ رَدًى وَهَذَا الْعَقْلُ هُوَ الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ تَعَالَى وَ

ما يعقلها إلا العالمون، وكل موضع ذم الله فيه الكفار بعدم العقل فأشارة الى الثاني وهو العقل المسموع الذي يهدي صاحبه الى الهداية أو يمنعه عن الردي والضلالة، لا الى الأول وهو القوة المتهينة أعني بها العقل المطبوع فإنه موجود في الكافر والمسلم والرجل والمرأة والصغير والكبير قل أوكثر إذا عرفت هذا، فقوله تعالى: **إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ** إشارة الى المعنى الثاني أعني به العقل المسموع بالمعنى الذي ذكرناه وقد علمت أنه كسبي بخلاف الأول فإنه طبعي، وفي عدم العقل بهذا المعنى أو وجوده لا فرق بين الكافر والمسلم لأن الكافر قادر على كسبه كالمؤمن ولذلك ترى أن الله تعالى قد يصف المؤمن المسلم بأنه لا يعقل كما أنه يصف الكافر أيضاً به أي بعدم العقل: قوله تعالى: **صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**^(١).

قوله تعالى: **أَتَخَذُوا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ**^(٢).

قوله تعالى: **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**^(٣).

قوله تعالى: **أُولَئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**^(٤).

والآيات كثيرة.

هَآ أَنتُمْ أَوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ قيل أنها نزلت في المنافقين يعني أنتم تحبون المنافقين وأنهم لا يحبونكم ودليلهم هو قوله: **وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا** وهو شأن المنافق **وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ** وهو القرآن كله أي تؤمنون بكل القرآن وقيل المراد بالكتاب جنسه يعني تؤمنون بجميع الكتب السماوية، واليهود يؤمنون ببعض كما قال تعالى حكاية عنهم: **قَالُوا تَوْفِينُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ**^(٥) وتؤمنون بالكتاب كله واليهود يؤمنون ببعض هكذا قال بعض المفسرين من العامة، ولقائل أن يقول أن كانت الآية

بناءً القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

٢- المائدة = ٥٨

٣- البقرة = ١٧٠

١- البقرة = ١٧١

٢- يوسف = ٢

٥- البقرة = ٩١

نزلت في المنافقين بدليل قوله: **وَإِذَا لَقُّوكُمْ قَالُوا آمَنَّا** فينبغي أن يكون قوله: **وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ** أي أنتم تؤمنون كذلك دون غيركم والمراد بالغير على هذا المنافقون أي أن المنافقين يؤمنون ببعض لا اليهود وأن كان يؤمنون ببعض المراد بهم اليهود فالحق أن يقال أن الآية نزلت في ذم اليهود، اللهم إلا أن يقال أن الآية نزلت في الكفار وأما قوله: **وَإِذَا لَقُّوكُمْ قَالُوا آمَنَّا** أيضاً المراد به الكفار دون المنافقين والمعنى أن الكفار إذا لقوكم قالوا آمنا، أي آمنا بموسى وعيسى وغيرهما من أنبياء السلف أي إنا مؤمنون كما أنتم مؤمنون وعلى هذا فهذه الآية مثل الآية السابقة نزلت في الكفار وذمهم ونهى الله المؤمنين عن الزكون اليهم وإتخاذهم دُخلاء ولجاء وأن تحبّونهم وهكذا ولا يبعد أن يكون قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ** إلى قوله: **بِمَا يَعْمَلُونَ** محيط في المنافقين دون الكفار كما هو أحد الأقوال في المسألة وكيف كان فقوله: **وَإِذَا لَقُّوكُمْ قَالُوا آمَنَّا** دليل على نفاقهم وهو ظاهر وإذا **خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ** أي وإذا خلوا إلى أهل دينهم وملتئم، عَضُّوا عليكم الأنامل والعَضُّ عبارة عن شدة الغيظ مع عدم القدرة على إنفاذه ومنه قول أبي طالب **عَلَيْهِلَا يَعْضُونَ غِيظًا خَلَفْنَا بِالْأَنَامِلِ**.

قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أي قل لهم يا محمد كذلك أو المعنى قل لهم أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا، وقيل أن المعنى أنه تعالى أخبرهم أنهم لا يدركون ما يؤملون فأَنَّ الموت دون ذلك فعلى هذا المعنى زال معنى الدَّعاء وبقي معنى التَّقرُّيع والإغَاظة والمراد بذات الصُّدور الخواطر النَّفسانية القائمة بالقلب والدَّواعي والصُّوراف الموجودة فيه وهى لكونها حالة في القلب مُتَنَسِّبة إليه فكانت ذات الصُّدور والمعنى أنه تعالى عالم بكل ما يحصل في قلوبكم من الخواطر والبواعث والصُّوراف إنَّ

تَمَسْسُكُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبُكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا كَمَا هُوَ شَأْنُ
 الْمُنَافِقِ وَالْمُعَانِدِ وَالْمَعْنَى أَنْ تُصِيبَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَوْجِبُ
 مُؤَالَفَةً أَوْ إِجْتِمَاعَ كَلِمَةٍ أَوْ ظَفَرَ بِالْأَعْدَاءِ تَسْؤُهُمْ وَتَحْزَنُهُمْ وَأَنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ
 أَيُّ مُحَنَةٍ وَ مُصِيبَةٍ بِإِصَابَةِ الْعَدُوِّ مِنْكُمْ لِإِخْتِلَافِ الْكَلِمَةِ أَوْ مَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنَ
 الْفَرْقَةِ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُكُمْ أَعْلَى أَذَاهُمْ وَعَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَ طَاعَةِ رَسُولِهِ
 وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ وَ تَتَّقُوا أَيُّ تَتَّقُوا اللَّهَ بِالْإِمْتِنَاعِ مِنْ مَعَاصِيهِ وَفِعْلِ طَاعَتِهِ لَا
 يَضُرُّكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُؤَحِّدُونَ كَيْدُهُمْ أَيُّ كَيْدِ الْمُنَافِقِينَ وَ مَكْرَهُمْ شَيْئًا
 أَيُّ لَا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدْفَعُ عَنْكُمْ شَرَّهُمْ وَفَسَادَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا
 يَعْمَلُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ خَبِيرٌ وَشَرُّهَا مُحِيطٌ أَيُّ عَالَمٌ بِذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ
 لِأَنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا.



وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ
لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ
طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى
اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)

◀ اللّٰغَة

غَدَوْتَ: غَدَا الرَّجُلُ خَرَجَ غَدْوَةً وَالْغَدُو يَكُونُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ يَعْنِي إِذَا خَرَجْتَ بِالصَّبَاحِ.

تُبَوِّئُ: هُوَ مُضَارِعٌ وَمَاضِيهِ، بَوَّأَ، يُقَالُ بَوَّأَهُ وَبَوَّأَ لَهُ مَنَزَلًا، هَيَّأَ لَهُ.

مَقَاعِدَ: جَمْعٌ مَقْعَدٌ وَهُوَ مَكَانُ الْقُعُودِ وَالْمَقْصُودِ مِنْهُ هُنَا الْمَوَاطِنُ.

هَمَّتْ: الْهَمُّ دُونَ الْعَزْمِ وَالْفِعْلُ مِنْهُ، هَمٌّ، يَهْمُ وَمَعْنَاهُ تَرْجِيحُ الْفِعْلِ فِي النَّفْسِ يُقَالُ هَمَّ بِهِ، إِذَا رَجَحَ فَعْلَهُ عَلَى تَرْكِهِ.

تَفْشَلَا: الْفَشْلُ فِي الْبَدَنِ الْإِعْيَاءُ وَفِي الْحَرْبِ الْجَبْنُ وَالْخُورُ وَفِي الرَّأْيِ الْعَجْزُ وَالْفَسَادُ وَفَعْلُهُ، فَشَلَّ، بِكَسْرِ الشَّيْنِ.

◀ الإعراب

وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ أَيِ وَإِذْ كَرِيَّا مُحَمَّدٌ وَ، مِنْ، لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ وَالتَّقْدِيرِ مِنْ بَيْنِ أَهْلِكَ وَ مَوْضِعُهُ نَصَبٌ تَقْدِيرُهُ فَارَقْتَ أَهْلَكَ وَتُبَوِّئُ حَالٌ وَهُوَ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ بِنَفْسِهِ وَالْيَ آخِرُ تَارَةً بِنَفْسِهِ وَتَارَةً بِحَرْفِ الْجَرِّ فَمِنْ الْأَوَّلِ هَذِهِ الْآيَةُ فَلِأَوَّلِ، الْمُؤْمِنِينَ، وَالثَّانِي، مَقَاعِدَ.

وَمِنِ الثَّانِي قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ (١) وَقِيلَ اللَّامُ فِيهِ زَائِدَةٌ لِلْقِتَالِ يَتَعَلَّقُ بِتُبَوِّئِ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِمَحذُوفٍ عَلَى أَنْ يَكُونَ صِفَةً،

لمقاعد، إِذْ هَمَّتْ إِذْ، ظرف، يعلم، ويجوز أن يكون ظرفاً، لتبوي، و، لغدوت،
أَنْ تَفْشَلَا أَي بَأَنْ تَفْشَلَا فموضعه نصب أو جرّ.

﴿التفسير﴾

وَإِذْ غَدَوْتَ أَي واذكر يا محمد ﷺ إِذْ غَدَوْتَ يعني خرجت بالصباح
مِنْ أَهْلِكَ أَي من بين أهلك تَبَوَّيَ الْمُؤْمِنِينَ أَي تَهَيَّأُوا مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ أَي
مواطن للقتال وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَي هو يسمع ويعلم إِذْ هَمَّتْ أَي قصدت و
عزمت طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَي فرقان من المسلمين أَنْ تَفْشَلَا أَي تَجْنِبْنَا قِيل
هما بنو مسلمة وبنو حارثة حَيَّان من الأنصار وقيل نزلت في طائفة من
المهاجرين وطائفة من الأنصار.

وكان سبب هَمَّهُم بالقتل أَنَّ عبد الله بن أبي سلول دعاهما إلى الرجوع إلى
المدينة عن لقاء المشركين يوم أحد فهَمَّهما به ولم يفعلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا؛
يعني حافظ قلوبهما عن تحقيق هذا الهم فنصرهما بذلك وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ في جميع أحوالهم وأمورهم ثُمَّ أَنَّهُمْ اِخْتَلَفُوا في نزولها
فقيل أَنَّهَا نَزَلَتْ في غزوة الخندق وقيل نَزَلَتْ في غزوة بدر وقيل في أحد و
هو الأشهر بين المفسرين وأُستدلوا على المدعي بقوله: إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ
مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا قالوا وهذا إِنَّمَا كان يوم أُحُد نَزَلَتْ في عبد الله بن أبي

وقوم من أصحابه إِنَّبَعُوا رأيَه في ترك الخروج والقيود عن نصرة رسول
الله ﷺ وفي تفسير القمّي كان سبب غزوة أُحُد أَنَّ قريشاً لَمَّا رجعت من بدر
إلى مكة وقد أصابهم ما أصابهم من القتل والأسر لَأَنَّهُ قتل منهم سبعون وأسر
منهم سبعون فلَمَّا رجعوا إلى مكة قال أبو سفيان يا معشر قريش لا تدعوا
النساء تبكي على قتلاكم فَأَنَّ البكاء والدمعة إِذَا خرجت أَذهبت الحزن و
الحرقة والعداوة لمحمدٍ ويشمت بنا محمدٌ وأصحابه فلَمَّا غزوا رسول الله

يوم أحد أدنوا النساءهم بعد ذلك في البكاء والنوح فلمّا أرادوا أن يغزوا رسول الله إلى أحد ساروا في حلفاءهم من كنانة وغيرها فجمعوا الجموع والسلاح وخرجوا من مكة في ثلاثة آلاف فارس والقي راجل وأخرجوا معهم النساء يذكّرهنهم ويحثّهنهم على حرب رسول الله ﷺ وأخرج أبو سفيان هند بنت عتبة وخرجت معهم عمرة بنت علقمة الحارثية، فلمّا بلغ رسول الله ذلك جمع أصحابه وأخبرهم أنّ الله أخبره أنّ قريشاً قد تجمعت تريد المدينة وحثّ أصحابه على الجهاد والخروج فقال عبد الله بن أبي سلول وقومه يا رسول الله لا تخرج من المدينة حتّى نقاتل في أزقتها فيقاتل الرجل الضعيف والمرأة والعبد والأمة على أفواه السكك وعلى السطوح فما أرادنا قوم قطّ فظفروا بنا ونحن في حصوننا ودورنا وما خرجنا إلى أعداءنا قطّ إلّا كان الظفر لهم فقام سعد بن معاذرة وغيره من الأوس فقالوا يا رسول الله ما طمع فينا أحد من العرب ونحن مشركون نعبد الأصنام فكيف يطعمون فينا وأنت فينا لا، حتّى نخرج اليهم فنقاتلهم فمن قتل منّا كان شهيداً ومن نجى منّا كان قد جاهد في سبيل الله فقبل رسول الله ﷺ قوله وخرج معه نفر من أصحابه يبتغون موضع القتال كما قال الله وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْ قَوْلِهِ: إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا؛ يعني عبد الله ابن أبي وأصحابه فضرب رسول الله معسكره ممّا يلي من طريق العراق وقعد عبد الله بن أبي وقومه من الخزرج إتبعوا رأيَه وافت قريش إلى أحد وكان رسول الله ﷺ عدّ أصحابه وكانوا سبع مائة رجلاً، فوضع عبد الله بن جبير في خمسين من الرماة على باب الشعب وأشفق أن يأتي كمينهم في ذلك المكان فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن جبير وأصحابه إن رأيتمونا قد هزمناهم حتّى أدخلناهم مكة فلا تخرجوا من هذا المكان وأن رأيتموهم قد هزمونا حتّى أدخلونا المدينة فلا تبرحوا وألزموا مراكزكم ووضع أبو سفيان خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً وقال لهم إذا رأيتمونا قد إختلطنا بهم فأخرجوا عليهم من هذا الشعب

حَتَّى تَكُونُوا مِنْ وُرَائِهِمْ فَلَمَّا أَقْبَلَتِ الْخَيْلُ لِإِسْطَفْوَا وَ عِبَاءَ رَسُولِ اللَّهِ أَصْحَابَهُ، دَفَعَ الرَّايَةَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَحَمَلَتِ الْأَنْصَارُ عَلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ فَأَنْهَزُوا هَزِيمَةً فِيْبِحَةٍ وَ وَقَعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَوَادِهِمْ وَ انْحَطَّ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي مَائَتِي فَارِسٍ فَلَقِيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ فِاسْتَقْبَلُوهُمْ بِالسَّهَامِ فَرَجَعُوا وَنَظَرَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ يَنْهَوْنَ سَوَادَ الْقَوْمِ قَالُوا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ نَقِيمٍ (تُقِيمُنَا) هِيَهْنَا وَ قَدْ غَنِمَ أَصْحَابُنَا وَبَقِيَ نَحْنُ بِلَا غَنِيمَةٍ فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ إِنَّقُوا اللَّهَ فَأَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَقَدَّمَ الْيَنَا أَنْ لَا نَبْرَحَ فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ وَأَقْبَلَ يَنْسِلُ رَجُلٌ فَرَجُلٌ حَتَّى أَخْلَوْا مِنْ مَرْكَزِهِمْ وَبَقِيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ فِي إِثْنِي عَشَرَ رَجُلًا وَ قَدْ كَانَتْ رَايَةُ قُرَيْشٍ مَعَ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الْعَدَوِيِّ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ فَبَرَزُوا وَنَادَى يَا مُحَمَّدُ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ تَجْهَظُونَ بِأَسْيَافِكُمْ إِلَى النَّارِ وَ نَجْهَظُكُمْ بِأَسْيَافِنَا إِلَى الْجَنَّةِ فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَلْحَقَ بِجَنَّتِيهِ فَلْيَبْرِزْ إِلَيَّ، فَبَرَزَ إِلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَقُولُ:

يَا طَلْحُ أَنْ كُنْتَ كَمَا تَقُولُ لَنَا خِيُولٌ وَلَكُمْ نُصُولُ
فَأُثْبِتْ لِنَنْظُرَ أَيُّنَا الْمَقْتُولُ وَأَيُّنَا أُولَى بِمَا تَقُولُ
فَقَدْ أَتَاكَ الْأَسَدُ الصُّوُولُ بِصَارِمٍ لَيْسَ بِهِ فُلُولُ

ينصرة القاهر والرسول

فَقَالَ طَلْحَةُ مَنْ أَنْتَ يَا غَلَامُ قَالَ أَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ قَالَ قَدْ عَلِمْتَ يَا قُضَيْمُ، أَنَّهُ لَا يَجْسُرُ عَلَى أَحَدٍ غَيْرِكَ مَشَدَّ عَلَيْهِ طَلْحَةُ فَإِنْتَقَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَحْفَةِ ثُمَّ ضَرَبَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى فَخْذَيْهِ فَقَطَعَهُمَا جَمِيعًا فَسَقَطَ عَلَى ظَهْرِهِ وَسَقَطَتِ الرَّايَةُ فَذَهَبَ عَلِيُّ لِيَجْهَظَ عَلَيْهِ فَحَلَفَهُ بِالرَّحِمِ فَإِنْصَرَفَ عَنْهُ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: الْآ أَجْهَظَتْ عَلَيْهِ قَالَ أَجْهَظَتْ عَلَيْهِ قَالَ قَدْ ضَرَبْتَهُ ضَرْبَةً لَا يَعْيِشُ مِنْهُمَا أَبَدًا أَخَذَ الرَّايَةَ أَبُو سَعِيدٍ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ فَقَتَلَهُ عَلِيُّ وَ سَقَطَتِ الْآيَةُ عَلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَهَا شَافِعُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ فَقَتَلَهُ عَلِيُّ فَسَقَطَتِ الرَّايَةُ عَلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَهَا الْحَارِثُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ فَقَتَلَهُ عَلِيُّ فَسَقَطَتِ الرَّايَةُ عَلَى الْأَرْضِ

فأخذها أبو غدير بن عثمان فقتله عليّ وسقطت الرّاية على الأرض فأخذها بن أبي جميلة بن زهير فقتله عليّ وسقطت الرّاية على الأرض فقتل عليّ عليه السلام التاسع من بني عبد الدّار وهو إرطاة بن شرحبيل مبارزةً وسقطت الرّاية على الأرض فأخذها مولاهم صواب فضربه أمير المؤمنين عليه السلام على يمينه فقطعها وسقطت الرّاية على الأرض فأخذها بشماله فضربه أمير المؤمنين على شماله فقطعها فسقطت الرّاية على الأرض فأحتضنها بيديه المقطوعتين ثم قال يا بني عبد الدّار هل أعذرتُ فيما بيني وبينكم فضربه أمير المؤمنين على رأسه فقتله وسقطت الرّاية على الأرض فأخذتها عمرة بنت علقمة الحارثيّة فقبضها، و إنحط خالد بن الوليد على عبد الله جبير وقد فرّ أصحابه وبقي في نفر قليل فقتلوهم على باب شعب وإستعقبوا المسلمين فوضعوا فيهم السّيف ونظرت قريش في هزيمتها إلى الرّاية قد رفعت فلاذوا بها وأقبل خالد بن الوليد يقتلهم فأنهزم أصحاب رسول الله ﷺ هزيمةً قبيحةً وأقبلوا يصعدون في الجبال وفي كلّ وجهٍ فلماً رأى رسول الله ﷺ الهزيمة كشف البيضة عن رأسه وقال أتني أنا رسول الله إلى أين تفرون عن الله وعن رسوله قال وحدثني أبي عن ابن أبي عمير عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سأل عن معنى قول طلحة بن أبي طلحة لما بارزه عليّ، يا قضيم، قال عليه السلام أنّ رسول الله كان بمكة لم يجسر عليه أحد لموضع أبي طالب وأغروا به الصّبيان وكانوا إذا خرج رسول الله ﷺ يرمونه بالحجارة والتّراب فشكى ذلك إلى عليّ عليه السلام فقال بأبي أنت وأمي يا رسول الله إذا خرجت فأخرجني معك فخرج رسول الله ﷺ ومعه أمير المؤمنين فتعرّض الصّبيان لرسول الله ﷺ كعادتهم فحمل عليهم أمير المؤمنين وكان يقضمهم في وجوههم وأنافهم وأذنانهم فكانوا يرجعون باكين إلى آبائهم ويقولون قضمنا عليّ قضمنا عليّ فسمّي، القضيم، وساق الحديث إلى أن قال ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا أبو دجانة الأنصاري و سماك بن خرشة و أمير المؤمنين عليه السلام فكلّما حملت طائفة على رسول الله ﷺ

إستقبلهم أمير المؤمنين فيدفعهم عن رسول الله و يقتلهم حتّى إنقطع سيفه و بقيت مع رسول الله نسيبة بنت كعب المازنية وكانت تخرج مع رسول الله في غزواته تداوي الجرحى وكان ابنها معها فأراد أن ينهزم و يتراجع فحملت عليه و قالت يابني الى أين تفرّ عن الله و عن رسوله فرّدته فحمل عليه رجل فقتله فأخذت سيف ابنها فحملت على الرجل فضربت على فخذه فقتلته فقال رسول الله ﷺ بارك الله عليك يا نسيبة وكانت تقي رسول الله ﷺ بصدرها و ثدييها و يديها حتّى أصابتها جراحات كثيرة و حمل ابن قميسة على رسول الله ﷺ فقال أروني محمّداً لا نجوت أن نجى محمّد فضربه على حبل عاتقه و نادى قتلّ محمّداً واللأت و العزى و نظر رسول الله الى رجل من المهاجرين قد ألقى ترسه خلف ظهره و هو في الهزيمة فناداه يا صاحب الترس ألق ترسك و مرّ على النّار فرمى بترسه فقال رسول الله ﷺ يا نسيبة خذي الترس وكانت تقاتل المشركين فقال رسول الله ﷺ لمقام نسيبة أفضل من مقام فلان و فلان، فلمّا إنقطع سيف أمير المؤمنين ﷺ جاء الى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أن الرجل يقاتل بالسّلاح و قد إنقطع سيفي فدفع اليه رسول الله سيفه ذا الفقار، و قال ﷺ قاتل بهذا و لم يكن يحمل على رسول الله أحد إلّا يستقبله أمير المؤمنين فاذا رأوه رجعوا فإنحاز رسول الله الى ناحية أحد فوقف و كان القتال من وجه واحد و قد إنهزم أصحابه فلم يزل أمير المؤمنين يقاتلهم حتّى أصابه في وجهه و رأسه و صدره و بطنه و يديه و رجله تسعون جراحة فتحاموه و سمعوا منادياً ينادي من السماء (لا سيف إلّا ذو الفقار و لا فتى إلّا عليّ) فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال هذه والله المواساة يا محمّد، فقال رسول الله ﷺ لأنّا منه و هو منّي، فقال جبرئيل و أنا منكما وكانت هند بنت عتبة في وسط العسكر فكلّما انهزم رجل من قريش رفعت اليه ميلاً و مكحلة و قالت أنما أنت امرأة فإكتحل بهذا، و كان حمزة بن عبد المطلب يحمل على القوم فاذا رأوه إنهزموا و لم يثبت له واحد

وكانت هند بنت عتبة قد أعطت وحشياً عهداً لأن قتلت محمداً أو علياً أو حمزة لأعطيتك رضاك وكان وحشي عبداً لجبير بن مطعم فقال وحشي أما محمد فلا أقدر عليه و أما علي فرأيت رجلاً حذراً كثير الالتفات فلم أطمع فيه قال فكمنت لحمزة فرأيت يهد الناس هداً فمر بي فوطي جلى جرف نهر فسقط فأخذت حربتي فhezزتها ورميتها فوقعت في خاصرته و خرجت من مثانته مغمسة بالدم فسقط فأتيته فشقت بطنه وأخذت كبده وأتيت بها الى هند فقلت لها هذه كبد حمزة اخذتهما في فهنا فاكثها فجعله الله في فيها الداغصة فلفظتها ورمت بها فبعث الله فحملها وردّها الى موضعها فقال أبو عبد الله ﷺ يا بى الله أن يدخل شيئاً من بدن حمزة النار فجاءت اليه هند فقطعت مذاكيره وقطعت أذنيه وجعلتهما خرصين وشدتهما في عنقها وقطعت يديه ورجليه وتراجعت الناس فصارت قريش على الجبل فقال أبو سفيان وهو على الجبل أعلاهبل، فقال رسول الله لأمير المؤمنين قل له (الله أعلا وأجل) فقال يا علي أنه قد أنعم علينا فقال علي ﷺ بل الله أنعم علينا ثم قال أبو سفيان يا علي أسألك باللات والعزى هل قُتل محمد فقال له أمير المؤمنين ﷺ لعنك الله ولعن اللات والعزى معك والله ما قتل محمد وهو يسمع كلامك فقال أنت أصدق لعن الله ابن قتيمة زعم أنه قتل محمداً.

أقول ما ذكرناه في المقام إجمال من التفصيل فمن أراد الإطلاع على غزوة أحد تفصيلاً فعليه بالتواريخ المفصلة، ثم أن القرطبي أشار الى غزوة أحد في تفسيره إجمالاً إلا أنه لم يذكر فيما ذكره عن علي أمير المؤمنين ﷺ شيئاً حتى كأنه لم يكن علي في أحد في نقله أو أن كان لم يظهر منه شيئاً أعادنا الله من التعصب والعناد ليس هذا أول قارورة كسرت في الإسلام.

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ
يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ
الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا
وَيَأْتِيَكُمُ مِنَ قَوْمِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ
بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَ
مَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ
بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ
(١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَقًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ
فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ
أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ
(١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ (١٢٩)

◀ اللغة

نَصَرَكُمُ اللَّهُ: النَّصْر والنُّصْرَة، العون.

بَدْرٌ: بدر بسكون الدال المهملة، ماء هنالك وبه سَمِيَ المَوْضِع وقيل كان ذلك الماء لرجلٍ من جهينة يسمَّى بَدْرًا وبه سَمِيَ المَوْضِع والمشهور الأول و قال الواقدي وغيره، بدر إسم لموضع غير منقول.
أَذِلَّةٌ: ذَلْ ذُلًا وَذِلَّةٌ وَذِلَالَةٌ وَمَذَلَّةٌ ضِدُّ عَزَّ أَي هَانٌ، فهو ذليل وذُلَّان جمع أذلاء وأذلة وذلال.

أَنْ يُمَدَّ كُمْ: أصل المَدَّ الجَزَ ومنه المَدَّة للوقت المُتَمَدَّ يقال أمدت الجيش بمدد والإنسان بطعام قال تعالى وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون. مُسَوِّمِينَ: السَّوْم، أصله الذَّهَاب في إبتغاء الشَّيْ فهو لفظٌ لمعنى مَرَكَب من الذَّهَاب والإبتغاء يقال سَوِّمته، أي أعلمته، ومعنى، مسوِّمين، معلِّمين لأنفسهم أو لخيولهم أو مرسلين لها وروى عنه ﷺ تَسَوَّموا فَأَنَّ الملائكة قد تَسَوَّمت انتهى قاله الرَّاعِب في المفردات. طَرَفًا: طَرَفُ الشَّيْ جانبه ويستعمل في الأجسام والأوقات وغيرهما قال تعالى: فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ.

◀ الإعراب

يَبْدُرُ ظَرْفُ والباء بمعنى، في، ويجوز أن يكون حالاً و أَذِلَّةٌ جمع ذليل و هي خبر والمبتدأ أنت، والجملة حال إِذْ تَقُولُ ظَرْفُ لنصركم أَنْ يُمَدَّ كُمْ فاعل، يكفيكم إِلَّا بُشْرَى مفعول ثانٍ لِجَعَلْ، ويجوز أن يكون مفعولاً له لِنَظْمَيْنَّ معطوف على بُشْرَى لِيَقْطَعَ طَرَفًا اللَّامُ متعلِّقة بمحذوف تقديره ليقطع طرفاً أمدكم بالملائكة أو نصركم أَوْ يَكْتِبُهُمْ قِيلَ، أو، بمعنى الواو وقيل هي للتفصيل أي كان، القطع لبعضهم والكتب لبعضهم، والتاء في يكتبهم، قيل أَنَّهَا أصل وقيل هي بدل من الدال وهو من كبده أصبت كبده فَيَقْبَلُوا معطوف على يقطع أو يكتبهم لَيْسَ لَكَ والأصل ليس شيء لك قدَّم الخبر وهو، لك، على الإسم وهو، شيء مِنْ أَلَمَرِ حَالٍ مِنْ شَيْءٍ لأنها صفة مقدَّمة أَوْ يَتُوبَ، أَوْ يُعَذِّبُهُمْ معطوفان على، يقطع، وقيل، أو، بمعنى، إلا أن، أي إلا أن يتوب.

◀ التفسير

هذه الآيات نزلت في غزوة بدر ونحن نذكرها أولاً ثم تُفسَّر الآيات فنقول: قال ابن الأثير في الكامل: وفي السنة الثانية من الهجرة كانت وقعة بدر

الكبرى في شهر رمضان في سابع عشرة وقيل تاسع عشرة وكانت يوم الجمعة وكان سببها قتل عمرو بن الحَضْرَمي وإقبال أبي سفيان بن حرب في غير لقريش عظيمة من الشَّام وفيها أموال كثيرة ومعها ثلاثون رجلاً أو أربعون وقيل قريباً من سبعين رجلاً من قريش منهم محزمة بن نوفل الزَّهْرِي وعمرو بن العاص فلما سمع بهم رسول الله ﷺ ندب المسلمين اليهم وقال هذه غير قريش فيها أموالهم فأخرجوا إليها لعلَّ الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فحَفَّ بعضهم وثقل بعضهم وذلك لأنهم لن يظنوا أن رسول الله يلقى حرباً وكان أبو سفيان قد سمع أن النبي يريد فحذر وإستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة يستنفر قريشاً ويخبرهم الخبر فخرج ضمضم إلى مكة وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رؤيا أفزعها فقصتها على أخيه العباس وإستكتمته خبرها قالت رأيت راکباً على بعير له واقفاً بالأبطح ثم صرَّح بأعلى صوته أن أنفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث قالت فأرئى الناس قد اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد فمثل لعبرة على الكعبة ثم خرج مثلها ثم مثل بعيرة على راس أبي قيس وخرج مثلها ثم اخذ صخرة عظيمة وارسلها فلما كانت بأسفل الوادي ارفعت فما بقيت مكة إلا دخله فلقت منها فخرج العباس فلقي الوليد بن عُتبة بن ربيعة وكان صديقه فذكرها له وإستكتمه ذلك فذكرها الوليد لأبيه عُتبة ففَسَّأ الخبر فلقي أبو جهل العباس فقال له يا أبا الفضل أقبل إلينا قال فلما فرغت من طوافي أقبلت إليه فقال متى حدثت فيكم هذه النبوة وذكر رؤيا عاتكة ثم قال ما رضيت أن تتنبأ نساءكم فستترص بكم هذه الثلاث فإن يكن حقاً والأكتبنا عليكم أنكم أكذب أهل بيت في العرب قال العباس فما كان مني إليه إلا أتني جحدت وأنكرته فلما أمسيت أتاني نساء بني عبد المطلب وقلن لي أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم وقد تناول نساءكم ولم تنكر عليه ذلك قال قلت

والله كان ذلك ولا تعرضن له فإن عاد كفيتكموه فغدوت اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا مُغضب أحب أن أدركه فرأيته في المسجد فمشيت نحوه أنعرض له ليعود فأوقع به فخرج نحو باب المسجد لشيئت قال قلت ما باله قاتله الله أكل هذا فرقاً من أن أشاتمته وإذا هو سَمِع ما لم أسمع صوت ضمضم بن عمرو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره وقد جدَّعه وحول رحله وشق قميصه وهو يقول يا معشر اللطيمة اللطيمة أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه لا ندري أن تدركوها الغوث الغوث فشغله عني وشغلني عنه قال فتجهز الناس سراعاً ولم يتخلف من أشرافهم أحد إلا أبو لهب وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وعزم أمية بن خلف الجهمي على القعود فإنه كان شيخاً ثقيلاً بطيئاً فأتاه عقبة بن أبي معيط بجمرة فيها نار وما يتجمر به فقال يا أبا علي إستجمر فأنما أنت من النساء فقال قبحك الله وقبح ما جئت به وتجهز وخرج معهم وعزم عقبة بن أبي ربيعة على القعود فقال له أخوه شيبة إن فارقنا قومنا كان ذلك سبة علينا فأمض مع قومك فمشى معهم فلما أجمعوا على المسير ذكروا ما بينهم وبين بكر بن عبد مناة بن كنانة بن الحرث فخافوا أن يؤتوا من خلفهم فجاءهم إبليس في صورة سراقه بن جعشم المدلجي وكان من أشراف كنانة فقال أنا جار لكم فأسرعوا سراعاً، وكانوا تسع مائة وخمسين رجلاً وقيل كانوا ألف رجل وكان خيلهم مائة فرس فنجا منها سبعون فرساً وغنم المسلمون ثلاثين فرساً وكان مع المشركين سبع مائة بعير وكان مسير رسول الله ﷺ لثلاث ليالٍ خلون من شهر رمضان في ثلاث مائة وثلاث عشر رجلاً وقيل أربعة عشر وقيل بضعة عشر وقيل ثمانية عشر وقيل كانوا سبعة وسبعين من المهاجرين وقيل ثلاثة وثمانون والباقيون من الأنصار وقيل جميع من ضرب له رسول الله ﷺ من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلاً ومن الأوس أحد وسبعون رجلاً ومن الخزرج مائة وسبعون رجلاً ولم يكن فيهم غير فارسين أحدهما المقداد بن عمرو والكندي ولا خلاف فيه.

والتَّانِي قِيلَ كَانَ الزَّيْبِرُ بْنُ الْعَوَامِ وَقِيلَ مَرْتَدُ بْنُ أَبِي مَرْتَدٍ وَقِيلَ الْمَقْدَادُ وَحَدَّثَهُ، وَكَانَتْ الْإِبِلُ سَبْعِينَ بَعِيرًا فَكَانُوا يَتَعَاقَبُونَ عَلَيْهَا الْبَعِيرُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ وَالْأَرْبَعَةِ فَكَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ وَعَلِيِّ وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ بَعِيرٌ، وَبَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ بَعِيرٌ وَعَلَى مِثْلُ هَذَا، وَكَانَ فَرَسُ الْمَقْدَادِ إِسْمُهُ سَبْحَةُ وَفَرَسُ الزَّيْبِرِ إِسْمُهُ السَّيْلُ وَكَانَ لَوَاءَهُ مَعَ مَصْعَبِ بْنِ عُمَيْرِ بْنِ عَبْدِ الدَّارِ وَرَأَيْتُهُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَعَلَى السَّاقَةِ قَيْسُ بْنُ أَبِي صَعْصَعَةَ الْأَنْصَارِيِّ فَلَمَّا كَانَ قَرِيبًا مِنَ الصَّفَرَاءِ بَعَثَ سَبْسَبُ بْنُ عَمْرٍو وَعَدْدِيُّ بْنُ أَبِي الزَّغْبَاءِ يَتَجَسَّسَانِ الْأَخْبَارَ عَنْ أَبِي سَفْيَانَ ثُمَّ إِرْتَحَلَ رَسُولُ اللَّهِ وَتَرَكَ الصَّفَرَاءَ يَسَارًا وَعَادَ إِلَيْهِ سَبْسَبُ بْنُ عَمْرٍو وَيُخْبِرُهُ أَنَّ الْعَبْرَ قَدْ قَارَبَتْ بَدْرًا وَكَانَ قَدْ بَعَثَ عَلِيًّا وَالزَّيْبِرَ وَسَعْدًا يَلْتَمِسُونَ لَهُ الْخَبَرَ بِيَدَرٍ فَأَصَابُوا رَاوِيَةَ لَقْرِيشَ فِيهِمْ أَسْلَمُ غَلَامُ بَنِي الْحِجَاكِ وَأَبُو يَسَارٍ غَلَامُ بَنِي الْعَاصِ فَأَتَوْا بِهِمَا النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يَصَلِّي فَسَأَلُوهُمَا فَقَالَا نَحْنُ سَقَاةُ قَرِيشَ بَعَثْنَا نُسْقِيهِمْ مِنَ الْمَاءِ فَكَرِهَ الْقَوْمُ خَبَرَهُمَا وَضَرَبُوهُمَا لِيُخْبِرُوهُمَا عَنْ أَبِي سَفْيَانَ فَقَالَا نَحْنُ لِأَبِي سَفْيَانَ فَتَرَكُوهُمَا وَفَرَّغَ رَسُولُ اللَّهِ مِنَ الصَّلَاةِ فَقَالَ إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا صَدَقَا أَتَّهُمَا لَقْرِيشَ أَخْبَرَانِي أَيْنَ قَرِيشُ قَالَا هُمْ وَرَاءَ هَذَا الْكُثَيْبِ الَّذِي تَرَى بِالْعُدْوَةِ الْقَصْوَى فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمْ الْقَوْمُ قَالَا كَثِيرٌ قَالَ كَمْ عِدَّتُهُمْ قَالَا لَا نَدْرِي قَالَ ﷺ كَمْ يَنْحَرُونَ قَالُوا يَوْمًا تِسْعًا وَيَوْمًا عَشْرًا قَالَ الْقَوْمُ بَيْنَ تِسْعِ مِائَةٍ إِلَى أَلْفٍ ثُمَّ قَالَ لَهُمَا فَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَشْرَافِ قَرِيشَ قَالَا عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ بْنُ هِشَامٍ وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ وَالْحَرِثُ بْنُ عَامِرٍ وَطُعَيْمَةُ بْنُ عَدْدِيٍّ وَالنَّضْرُ بْنُ الْحَرِثِ وَزَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ وَأَبُو جَهْلٍ وَأُمَيَّةُ بْنُ خُلْفٍ وَبَنِيهِ وَمِنْهُ الْحِجَاكِ وَسَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو وَعَمْرُو بْنُ عَبْدِ وَدَّاقِبِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ وَقَالَ هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ أَلَقْتُ إِلَيْكُمْ أَفْلَاحَ كَبَدَهَا ثُمَّ اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ فَأَحْسِنْ وَقَالَ عُمَرُ فَأَحْسِنْ ثُمَّ قَالَ الْمَقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْضُ لِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ فَنَحْنُ مَعَكَ وَاللَّهِ لَا نَقُولُ كَمَا قَالَتْ بَنُو

إسرائيل لموسى أذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكن أذهب أنت وربك فقاتلا إنا معك مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سيرت بنا الى برک الغمام يعنى مدينة الحبشة لجادلنا معك من دونه حتى تبلغه فدعاه بخير ثم قال رسول الله اشير على ايها الناس واما يرير الانصار لانهم كانوا عدته للناس وخاف ان لا تكون الانصار ترى عليهما الا ممن دعه بالمدينة وليس عليهم أن يسير بهم فقال له ﷺ سعد بن معاذ لكأنتك تريدنا يا رسول الله قال أجل قال قد آمنا بك وأعطيناك عهدونا فأمض يا رسول الله لما أمرت فوالذي بعثك بالحق أن استعرضت بنا هذا النخوضته لغو ضنه معك وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غداً إنا نصبر عند الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله فصار رسول الله ﷺ فقال أبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين لكأني أنظر الى مصارع القوم، ثم إنحط على بدر فنزل قريباً منها، وكان أبو سفيان قد ساحل وترك بدرأ يساراً ثم أسرع فنجاً فلما رأى أنه قد أحرز غيره أرسل الى قريش وهم بالجحفة أن الله قد نجى عيركم وأموالكم فأرجعوا فقال أبو جهل بن هشام والله لا ترجع حتى نرد بدرأ بدر موسمأ من مواسم العرب تجتمع لهم بها سوق كل عام فنقيم بها ثلاثاً فننخر الجزر ونطعم ونسقي الخمر ونسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً فقال الأخنس بن شريق الثقفي وكان حليفاً لبني زهرة وهم بالجحفة يا بني زهرة قد نجى الله أموالكم وصاحبكم فأرجعوا فلم يشهدا زهري ولا عدوي و شهدا سائر بطون قريش ولما كانت قريش بالجحفة رأى جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف رؤيا فقال أني رأيت فيما يرى النائم رجلاً أقبل على فرس ومعه بعير له فقال قتل عتبة وأبو جهل وغيرهم ممن قتل يومئذ ورأيت ضرب لبنة بعيره ثم أرسله في العسكر فما بقى خباء إلا أصابه من دمه فقال أبو جهل وهذا أيضاً نبي بن عبد المطلب سيعلم غداً من المقتول و كان بين طالب بن أبي طالب وهو في القوم وبين بعض قريش محاورة فقالوا و

اللَّهُ قَدْ عَرَفْنَا أَنَّ هَؤُلَاءِ مَعَ مُحَمَّدٍ فَرَجَعَ طَالِبٌ إِلَى مَكَّةَ فَيَمْنُ رَجَعَ وَقِيلَ إِنَّمَا كَانَ خَرَجَ كَرِهًا فَلَمْ يَجِدْ فِي الْأَسْرَى وَلَا فِي الْقَتْلِ وَلَا فِي مَكَّةَ وَامْضَتْ قَرِيشٌ حَتَّى نَزَلَتْ بِالْعُدْوَةِ الْقَصْوَى مِنَ الْوَادِي وَبَعَثَ اللَّهُ السَّمَاءَ وَكَانَ الْوَادِي دَهْسًا فَأَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ مِنْهُ مَا بَعْدَ لَهُمْ الْأَرْضَ وَلَمْ يَمْنَعَهُمُ الْمَسِيرَ وَأَصَابَ قُرَيْشًا مِنْهُ مَا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يَرْحَلُوا مَعَهُ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَبَادِرُهُمْ إِلَى الْمَاءِ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَدْنَى مَاءٍ مِنْ بَدْرِ نَزَلَهُ فَقَالَ الْحَبَابُ بْنُ الْمُثَدَّرِ بْنِ الْجَمُوحِ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا مَنْزِلُ اللَّهِ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَهُ أَوْ نَتَأَخَّرَهُ أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ قَالَ ﷺ بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَنْ هَذَا لَيْسَ لَكَ بِمَنْزِلٍ فَانْهَضَ بِالنَّاسِ حَتَّى نَأْتِيَ أَدْنَى مَاءٍ سِوَاهُ مِنَ الْقَوْمِ فَنَنْزِلَهُ ثُمَّ نَعُورُ مَا وَرَاءَهُ مِنَ الْقَلْبِ ثُمَّ نَبْنِي لَهُ حَوْضًا وَنَمْلَأُهُ مَاءً فَنَشْرِبُ مَاءً وَلَا يَشْرِبُونَ ثُمَّ نَقَاتِلُهُمْ ففَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ فَلَمَّا نَزَلَ جَاءَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَنَيْ لَكَ عَرِيشًا مِنْ جَرِيدٍ فَتَكُونُ فِيهِ وَنَتْرِكَ عِنْدَكَ رَكَائِبَكَ ثُمَّ نَلْقَى عَدُوَّنَا فَأَنْ أَعَزَّنَا اللَّهُ وَأَظْهَرَنَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا أَجْبَنَاهُ وَأَنْ كَانَتْ الْأُخْرَى جَلَسْتَ عَلَى رَكَائِبِكَ فَلَحَقَتْ بِمَنْ وَرَائِنَا مِنْ قَوْمِنَا فَقَدْ تَخَلَّفَ عَنْكَ أَقْوَامٌ مَا نَحْنُ بِأَشَدَّ حُبًّا لَكَ مِنْهُمْ وَلَوْ ظَنُّوا أَنَّكَ تَلْقَى حَرْبًا مَا تَخَلَّفُوا عَنْكَ يَمْنَعُكَ اللَّهُ بِهِمْ يَنَاصِحُونَكَ وَيَحَارِبُونَ مَعَكَ فَأَتْنِي عَلَيْهِ خَيْرًا ثُمَّ بَنِي لِرَسُولِ اللَّهِ عَرِيشًا وَأَقْبَلَتْ قُرَيْشٌ بِخَيْلِهَا وَفَخَرَهَا فَلَمَّا رَأَاهَا قَالَ اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِخَيْلِهَا وَفَخَرَهَا تَحَادَّكَ وَتَكْذِبُ رَسُولَكَ اللَّهُمَّ فَنَصْرِكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ أَحْنَهُمُ الْغَدَاةَ وَرَأَى عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ فَقَالَ ﷺ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ الْقَوْمِ خَبْرٌ فَعِنْدَ صَاحِبِ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ أَنْ يُطِيعُوهُ يَرْشُدُوا فَلَمَّا نَزَلَتْ قُرَيْشٌ أَقْبَلَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ حَتَّى وَرَدُوا حَوْضَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَتَرْكُوهُمْ فَمَا شَرِبَ مِنْهُ رَجُلٌ إِلَّا قَتَلَ يَوْمَئِذٍ إِلَّا حَكِيمُ نَجَا عَلَى فَرَسٍ لَهُ يَقَالُ لَهُ الْوَحِيدُ وَاسْلَمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَحَسَنَ إِسْلَامُهُ وَكَانَ يَقُولُ إِذَا اجْتَهَدَ فِي يَمِينِهِ لَا وَالَّذِي نَجَّانِي

يوم بدر و لما إطمأنت قريش بعثوا عمرو بن وهب ليحذر المسلمين فجل
بفرسه حولهم ثم عاد فقال هم ثلاث مائة يزيدون قليلاً أو ينقصونه ولقد رأيت
الولاياء تحمل المنايا نواضح يثرب تحمل الموت النافع ليس لهم منعة إلا
سيوفهم والله لا يقتل رجلٌ منهم إلا يقتل رجلاً منكم فاذا أصابوا أعدادهم فما
خير العيش بعد ذلك فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في القوم فأثنى عتبة
بن ربيعة فقال يا أبا الوليد أأنك كبير قريش وسيدها هل لك أن لا تزال تذكر
فيهما بخراً إلى آخر الدهر قال وما ذاك قال ترجع بالناس وتحمل دم خليفك
عمرو بن الحضرمي قال قد فعلت على دفة وما أجيب من ماله فات ابن
الحنظلة يعني أبا جهل فلا أخشى أن يفسد أمر الناس غيره فقام عتبة في الناس
فأعلمته ما قال عتبة فقال إنتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه والله
لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وما بعتبة ما قال ولكن رأى ابنه أبا
حذيفة فيهم وقد خانكم عليه فلما بلغ عتبة قول أبي جهل إنتفخ سحره
سيعلم المصفر سته من إنتفخ سحره أنا أم هو ثم التمس بيضة يدخلها رأسه
فما وجد من عظم هامته فأعتجر ببرد له و خرج الأسود بن عبد الأسد
المخزومي وكان سبي الخلق فقال أعاهد الله لأشربن من حوضهم ولأهد منه
أو لأموئن دونه فخرج اليه حمزة فضربه فاطن قدمه بنصف ساقه فوقع على
الأرض ثم حبا الى الحوض فأقتحم فيه ليبر يمينه و تبعه حمزة فضربه حتى
قتله في الحوض ثم خرج عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ودعوا الى
المبارزة فخرج اليهم عوف معود ابنا عفراء و عبد الله بن رواحة كلهم من
الأنصار فقالوا من أنتم قالوا من الأنصار فقالوا أكفاء كرام ومالنا بكم من حاجة
ليخرج إلينا أكفأونا من قومنا فقال النبي ﷺ قم يا حمزة قم يا عبيدة بن
الحرث قم يا علي فقاموا ودنا بعضهم من بعض فبارز عبيدة عتبة و بارز حمزة
شيبه و بارز علي الوليد فقتل حمزة شيبه و قتل علي الوليد و اختلف عبيدة و
عتبة بينهما ضربتين كلاهما قد أثبت صاحبه و كر حمزة و علي على عتبة

فقتلاه وإحتملاً عبدة إلى أصحابه وقد قطعت رجله ثم مات وتراحف القوم ودنا بعضهم من بعض، وساق الحديث إلى أن قال وإقتل النَّاسَ قتالاً شديداً فأخذ رسول الله ﷺ حفنةً من التراب ورمى بها قريشاً وقال شأهت الوجوه وقال لأصحابه شدوا عليهم فكانت الهزيمة فقتل الله من قتل من المشركين وأسّر من أسّر منهم إلى أن قال وكان جميع من قُتل من المسلمين ببدر أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار الأسرى سبعين والمقتولين من الكفار أكثر من ذلك و تفصيل ذلك في التواريخ من شاء الإطلاع عليه فليراجع إليها إذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى:

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ أَي أَنْتُمْ قَلِيلُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَعْدَاءِكُمْ فإِسْمُ الذَّلِّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مُسْتَعَارٌ إِذْ لَمْ يَكُونُوا فِي أَنْفُسِهِمْ إِلَّا أَعْزَةً أَوْ الْمَعْنَى أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ بِزَعْمِكُمْ لِقَلَّةِ عِدَدِكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَي اجْتَنِبُوا مَعَاصِيَهُ وَأَعْمَلُوا بِطَاعَتِهِ لِتَقِيمُوا بِشُكْرِ نِعْمَتِهِ إِذْ تَقُولُ يَا مُحَمَّدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَصْحَابِكَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَي أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ جَعَلَ رَبُّكُمْ الْمَلَائِكَةَ مَدَدًا وَمَعِينًا لَكُمْ وَقِيلَ أَنَّ الْوَعْدَ بِالْإِمْدَادِ بِالْمَلَائِكَةِ كَانَ يَوْمَ أَحَدٍ وَالْأَوَّلِ أَشْهُرَ مُنْزَلَيْنِ أَنْزَلَهُمُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ لِنَصْرَتِكُمْ بَلَى تَصْدِيقٌ لِلْوَعْدِ أَي يَفْعَلُ كَمَا وَعَدَكُمْ إِنَّ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا أَي بِشَرِّطِ أَنْ تَصْبِرُوا عَلَى الْجِهَادِ وَتَتَّقُوا مَعَاصِيَ اللَّهِ وَيَأْتُوَكُمْ يَعْنِي الْمَشْرُكِينَ إِنْ رَجَعُوا إِلَيْكُمْ مِنْ قُورِهِمْ أَي مِنْ جِهَتِهِمْ أَوْ مِنْ جِهَتِهِمْ مِنْ غَضَبِهِمْ يُعِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ إِيَّاكُمْ فِي كَيْفِيَةِ نُصْرَةِ الْمَلَائِكَةِ فَقِيلَ بِالْقِتَالِ وَقِيلَ بِتَقْوِيَةِ نَفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ وَإِلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْكُفَّارِ وَالظَّاهِرُ فِي الْمَدَدِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَشْرُكُونَ الْجَيْشَ فِي الْقِتَالِ وَأَنْ يَكُونَ مَجْرَدَ وَجُودِهِمْ وَحُضُورِهِمْ كَافِيًا ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى رَبُّهُمُ إِمْدَادُهُ إِيَّاَهُمْ بِالْمَلَائِكَةِ عَلَى الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى لِمَا فِيهِ مِنَ التَّحْرِيزِ عَلَى التَّوَكُّلِ وَالثَّبَاتِ لِلْقِتَالِ:

قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ^(١).

قال الله تعالى: وَ أَلُو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا^(٢).

ثم أنهم إختلفوا في نزول الملائكة هل هو في أحد أو في بدر فمنهم من ذهب الى أن نزول الملائكة كان في غزوة أحد وهو ضعيف وذلك لأن النصر ببدر هو المشهور الذي قتل فيه صناديد قريش قال الزمخشري فأن قلت كيف يصح أن يقوله لهم يوم أحد ولم ينزل فيه الملائكة قلت قاله لهم مع إشتراط الصبر والتقوى عليهم فلم يصبروا عن الغنائم ولم يتقوا حيث جالفوا أمر رسول الله ﷺ فلذلك لم تنزل الملائكة ولو تموا على ما شرط عليهم لنزلت، وأجابوا عنه بأن المشروط بالصبر والتقوى هو الإمداد بخمسة آلاف و أما الإمداد الأول وهو بثلاثة آلاف فليس بمشروط ولا يلزم من عدم إنزال خمسة آلاف لفوات شرطه أن لا ينزل ثلاثة آلاف ولا شيء منها وقال بعض المفسرين لم تتعرض الآية الكريمة لنزول الملائكة ولا تقاتلهم المشركين و قتلهم بل هو أمر مسكوت عنه في الآية وقد تظاهرت الروايات وتظافرت على أن الملائكة حضرت بدرًا وقاتلت.

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ

الظاهر ان الهاء في جعله عائدة على المصدر المفهوم يُمَدِّدُكُمْ وهو الامداد اى جعله الله الامداد إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ و قيل انها تعود على التسويم المستفاد من قوله: مُسَوِّمِينَ اى وما جعل الله التسويم في الملائكة إلا بشري لكم و قيل عائدة على النصر أو على العدد أو الوعد ولكل وجه، وقوله: إِلَّا

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

بُشْرَى مستثنى من المفعول له أي ما جعله الله لشيء إلا بشري لكم وعليه فهو استثناء فرغ له العامل وبشري، مفعول لأجله، وقيل، بشري، مفعول ثانٍ، لجعله الله، وكيف كان ففي الآية دلالة على أن للإمداد فائدتين:

أحدهما: إدخال السرور في قلوبهم وهو المراد بقوله، إلا بشري.

الثاني: حصول الطمأنينة بالنصر وهو المراد بقوله: **وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمُ** و أمّا قوله وما النصر إلا من عند الله الخ.

ففيه إشعار على حصر النصر من عند الله تعالى وأن غيره لا يقدر عليه واقعاً لأن الله هو القادر الغالب على كل شيء وما سواه محتاج إليه في جميع أموره وهو واضح.

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَبُوا خَائِبِينَ

طرف الشيء جانبه والمقصود منه في الآية الجماعة وهو كناية عنها وفيه أقوال:

أحدها: أن المقصود من قتل بيدر وهم سبعون من رؤساء قريش أو من قتل بأحد وهم إثنان وعشرون رجلاً على الصحيح.

الثاني: قال السدي ثمانية عشر أو مجموع المقتولين في الوقعتين.

الثالث: أن يكون المعنى ليقطع آخراً وعليه فاطرف بمعنى الآخر لأن آخر الشيء طرف منه، وقوله: **أَوْ يَكْبِتُهُمْ** أي يخزيهم ويغيظهم فيرجعوا خائبين خاسرين وحاصل المعنى في طرفاً من الذين كفروا، أي جانباً من الكفار بقتل أو أسر أو فرار وقال ابن عباس، أو يكبتهم، أي يهزمهم ومن المعلوم أن القتل أو الأسر أو الفرار يوجب الخسران والحرمان واليأس **لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ** قيل هو متصل بقوله: **وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ** فيكون معناه نصركم الله ليقطع طرفاً منهما أو يكبتهم وليس لك ولا لغيرك من هذا النصر شيء نقله الطبرسي عن أبي مسلم وقيل أنه اعتراض بين الكلامين وقوله: **أَوْ يَنْتُوبَ**

عَلَيْهِمْ مَتَّصِل بِقَوْلِهِ: لِيَقْطَعَ طَرَفًا ثُمَّ أَنَّهُمْ اِخْتَلَفُوا فِي سَبَبِ نَزُولِهِ فَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَسَرَتْ رِبَاعِيَّتَهُ يَوْمَ أَحَدٍ وَشَجَّ فِي رَأْسِهِ فَجَعَلَ لَسَلِيَتِ الدَّمِّ عَنْهُ وَيَقُولُ كَيْفَ يَفْلَحُ قَوْمٌ شَجَّوْا رَأْسَ نَبِيِّهِمْ وَكَسَرُوا رِبَاعِيَّتَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَنَزَلَ اللَّهُ: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَنَقَلَ عَنِ الضَّحَّاكِ أَنَّ النَّبِيَّ قَدْ هَمَّ أَنْ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ، لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَقِيلَ إِسْتَأْذَنَ فِي أَنْ يَدْعُو لِإِسْتِثْنَائِهِمْ فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلِمَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ سَيَسْلَمُ وَقَدْ آمَنَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَعُكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرُهُمْ وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عُمرٍ أَنَّ النَّبِيَّ كَانَ يَدْعُو عَلَى أَرْبَعَةِ نَفَرٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ، لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، فَهَذَا هُمُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ انْتَهَى مَا ذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ.

أَقُولُ الْحَقُّ أَنَّ قَوْلَهُ: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِيَدِ اللَّهِ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ تَعَالَى كَائِنًا مَنْ كَانَ تَأْثِيرٌ وَتَدْبِيرٌ فِي الْأُمُورِ عَلَى نَحْوِ الْإِسْتِقْلَالِ كَمَا قِيلَ:

أَرْزَمَةُ الْأُمُورِ طَرًّا بِيَدِهِ وَالْكُلُّ مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ مَدَدِهِ

وَتَوْضِيحُ ذَلِكَ أَنَّ الْأَمْرَ عَلَى قَسْمَيْنِ تَكْوِينِيٍّ وَتَشْرِيعِيٍّ وَالْمُرَادُ الْأَوَّلُ، الْإِبْجَادِيُّ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ وَأَنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(١).

بِالثَّانِي: الْأَوَامِرُ التَّكْلِيفِيَّةُ نَحْوُ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَّا الْهِمَا مِمَّا وَرَدَ فِي الشَّرِيعَةِ الْمُقَدَّسَةِ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ كِلَا الْأَمْرَيْنِ مُخْتَصَّ بِهِ تَعَالَى وَحَيْثُ أَنَّ جَمِيعَ الْأُمُورِ يَرْجِعُ إِلَيْهِمَا بِالْآخِرَةِ فَالْأُمُورُ كُلُّهَا بِيَدِهِ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى أَنَّ حَقَّ التَّشْرِيعِ مُخْتَصَّ بِهِ وَلَا كَلَامَ فِيهِ لِأَحَدٍ، فَالْأَمْرُ التَّشْرِيعِيُّ لَيْسَ إِلَّا لَهُ وَأَمَّا غَيْرُ التَّشْرِيعِيِّ فَمِنْ أَيِّ شَخْصٍ صَدَرَ فَهُوَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْحَقِيقَةِ وَذَلِكَ لِأَنَّ

ضِيَاءُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جُزْءٌ ٤

الْجُلْدُ الرَّابِعُ

العبد وما في يده كان لمولاه فثبت وتحقق أنه ليس لأحد من الامر شيء المطلوب وأما قوله: **أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** فقبل هو معطوف على قوله: **لِيَقْطَعَ طَرَفًا** والمعنى ليقتل طائفة منهم أو يخزيهم بالهزيمة أو يتوب عليهم أو يعذبهم، وقيل أن، أو، في المقام بمعنى، حتى، وإلا أن، أي حتى يتوب عليهم، وإلا أن يتوب عليهم وعلل ذلك بأنهم ظالمون، أي أنهم كانوا ظالمين على أنفسهم والظالم على النفس أن تاب ورجع عما كان فيه بينه وبين الله فإن الله يغفر الذنوب جميعاً ولذلك قال:

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

أي أن الله تعالى خالق الموجودات بأسرها وكل خالق فهو مالك لا محالة لمخلوقه والخالق المالك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد في خلقه وهذا حكم يستقل به العقل السليم وفي قوله: **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** إشارة إلى سبق رحمته على غضبه وغفرانه على عذابه وهو تعالى كذلك قال صاحب الكشف في هذا المقام ما هذا لفظه:

وعن الحسن **يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ** بالتوبة ولا يشاء أن يغفر إلا للتابين و**يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ** ولا يشاء أن يغفر إلا للتابين و**يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ** ولا يشاء أن يعذب إلا المستوحشين للعذاب وعن عطاء يغفر لمن يتوب إليه ويعذب الظالم واتباعه قوله: **أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** تفسير لمن يشاء وأنهم التوب عليهم الظالمون ولكن اهل الاهواء والبدع يتعامون عن الآيات الله فيخطئون خطب عشواو يطيعون انفسهم بما يفترون و عدل ابن عباس من قولهم، يهب الذنب الكبير لمن يشاء ويعذب من يشاء على الذنب الصغير قال أبو حيان في تفسيره بعد نقله ما نقلناه عن صاحب الكشف ما هذا لفظه مذهب المعتزلة وذلك أن من مات مُصْرّاً على كبيرة لا يغفر الله له ذكره

عن الحسن لا يصح البتّة ومذهب أهل السُنّة أنّ الله تعالى يغفر لمن يشاء وأن مات مصرّاً على كبيرةٍ غير تائبٍ منها انتهى كلام أبي حيّان أقول هذا بحث لا طائل تحته فعدم الخوض فيه أولى.



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ أَضْغَافًا
مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَ
اتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَ
أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَ
سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)
الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَ
الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا
فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ
يُبْصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)
أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتُ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ
أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ
فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَ
مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا
أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ
يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ
الْآيَاتُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ

أَمِنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ
 الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ
 يَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا
 الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَ
 يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ
 مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ
 تَنْظُرُونَ (١٤٣)

◀ اللغة

الرَّبَوَا: بكسر الراء الزيادة على رأس المال و بفتحها، الفضل، المنة يقال
 لفلان علي رباء، أي فضل و منة، ثم خُصَّ في الشرع بالزيادة على وجه دون
 وجه.

أَضْعَافًا: الأضعاف جمع الضَّعْف بكسر الضاد و هو مثل الشيء في
 المقدار يقال لك، ضعفه أي مثلاه.

الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ: الكَظَم في الأصل مخرج النفس يقال أخذ بكَظمه
 وَكَظَم الغيظ حبسه و منه كظم البعير اذا ترك الإجتراح.
 وَالْعَافِينَ: العَفْو هو التجافي عن الذنب.

فَاحِشَةً: الفُحْش و الفحشاء ما عَظُم قبحه من الافعال و الاقوال قال تعالى:
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ (١).

وَ لَا تَهْنُؤُوا: ماضيه وَهَنَ يقال وَهَنَ يهن و هناً و الوهن ضعف من حيث
 الخلق أو الخلق: قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي (٢).

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

قَرْحٌ: القَرْح الأثر من الجراحة من شيء يصيبه من خارج والقَرْح بضم القاف أثرها من داخل.

تَدَاوُلُهَا: يقال تَدَاوَل القوم كذا أي تناولوه من حيث الدولة، و دَاوَل الله كذا بينهم.

وَلِيُثْمِحَصَّ: مَحَصَّ تَمَحِصاً أصل المَحَص تَخْلِص الشيء مما فيه عيب كالفحص ويقال محصت الذهب ومحصته اذا أزلت عنه ما يشوبه من خبث. يَمَحَقُ: المَحَق التَّقْصَان ومنه المَحَاق لآخر الشهر اذا إنمَحَق الهلال قال تعالى: يَفْحَقُ اللَّهُ الْكُفْرَ وَيُزَيِّبُ الصِّدْقَ (١).

◀ الإعراب

أَضْعَافًا نَصَبَ عَلَى الْحَالِ مُضَاعَفَةً نَعْتَهُ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ الْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعٍ جَرٍّ وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ عَرْضُهَا مِثْلَ عَرْضِ السَّمَوَاتِ أُعِدَّتْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ جَرِّ صِفَةٍ لِلجَنَّةِ وَأَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْهَا وَأَنْ يَكُونَ مُسْتَأْنَفًا الَّذِينَ يُنْفِقُونَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً، لِلْمُتَّقِينَ، وَأَنْ يَكُونَ نَصْبًا عَلَى إِضْمَارِ أَعْنِي وَأَنْ يَكُونَ رَفْعًا عَلَى إِضْمَارِ هُمْ، وَالْكَاطِبِينَ أَلْفِظَ فَعَلَى الْجَزْرِ وَالنَّصْبِ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي أَوَجْهِهِ الثَّلَاثَةِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُبْتَدَأً وَيَكُونَ، أَوْلَئِكَ مُبْتَدَأٌ ثَانِيًا وَجَزَاءُ هُمْ، ثَالِثًا مَغْفِرَةٌ خَبَرُ الثَّالِثِ وَالْجَمْعُ خَبَرُ الَّذِينَ، وَذَكَرُوا جَوَابَ إِذَا (مَنْ) مُبْتَدَأٌ وَيَغْفِرُ خَبَرَهُ، إِلَّا اللَّهُ فَاعِلٌ يَغْفِرُ، أَوْ بَدَلَ مِنَ الْمَضْمَرِ فِيهِ وَهُوَ الْوَجْهَ هُمْ يَعْلَمُونَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي، يَصْرُوا، أَوْ فِي اسْتَغْفَرُوا وَمَفْعُولٌ يَعْلَمُونَ، مُحذُوفٌ أَيْ يَعْلَمُونَ الْمُؤَاخَذَةَ بِهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْمُخْصُوصِ بِالْمَدْحِ مُحذُوفٌ أَيْ وَنِعْمَ الْأَجْرُ الْجَنَّةُ مِنْ قِيلَ لَكُمْ سَنُنَّ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقًا، بِخَلَّتْ،

وأن يكون حالاً من، سنن كيف خبر كان وعاقبة إسمها تلك الأيتام مبتدأ وخبر نداءؤها جملة في موضع الحال والعامل فيها معنى الإشارة ويجوز أن تكون الأيتام بدلاً أو عطف بيان، ونداولها، الخبر بين الناس ظرف ويجوز أن يكون حالاً من الهاء وليعلم اللام متعلقة بمحذوف تقديره وليعلم دوالها منكم يجوز أن يتعلق ببيتخذ ويجوز أن يكون حالاً من شهداء وليمحص معطوف على، وليعلم أم حسبتم أم هنا منقطعة أي بل حسبتم أن تدخلوا أن والفعل يسد مسد المفعولين.

◀ التفسير

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

قال ابن عطية هذا النهي عن أكل الربا إعتراض بين إثناء قصة أحد أحفظ شيئاً في ذلك مروياً وقيل في وجه مناسبة هذه الآية لما قبلها ومجيئها بين أثناء القصة أنه لما نهى المؤمنين عن إتخاذ بطانة من غيرهم واستطرد لذكر قصة أحد وكان الكفار أكثر معاملاتهم بالربا مع أمثالهم ومع المؤمنين وهذه المعاملة مؤدية الى مخالطة الكفار تنمو هذه المعاملة التي هي الربا قطعاً لمخالفة الكفار ومودتهم واتخاذ اخلاء منهم لاسيما المؤمنون في صدر الاسلام كانوا في عسرة بخلاف الكفار فانهم كانوا في يسار وكان كل الحرام له قد ضل عظيم في عدم قبول الاعمال. فناسب ذكر الآية هنا.

أقول هذه الأبحاث لا فائدة فيها بعد الإتفاق على أن ترتيب الآيات في القرآن ليس على ترتيب النزول وعليه فالبحث في وجه الإتصال بما قبلها لا أساس له نعم لو كان ترتيب الآيات موافقاً لترتيب النزول كان له وجه وإذا كان الأمر على هذا المنوال فما ذكره في وجه إتصالها بما قبلها من أن هذه

المعاملة توجب مخالطة الكفار ومودتهم على ما مرّ نقله عنهم لا محلّ له و ذلك لأنّ هذه المعاملة محرّمة في الشريعة المقدّسة سواء كانت مع الكفار أم مع المسلمين و سواء أوجبت مخالطة الكفار ومودتهم أم لم توجب فإنّ المعاملة الرّبوي قد نهى عنها الشّارع بقول مطلق عدا ما إستثنى منها فالحقّ أنّ الله تعالى بيّن في هذه الآيات أحكاماً ونهى فيها عن أشياء ينبغي للمؤمن أن يراعيها ولذلك وقع الخطاب للمؤمنين بقوله: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا** فإنهاهم عن أكل الرّبا ثمّ أمرهم بفعل الخيرات فقال: **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ** ثمّ مدح المتّقين في السّراء والضّراء الخ وكلّ هذه الأمور ممّا يجب على المؤمن مراعاتها وأمّا الكافر فهو بمعزلٍ عن هذه الأمور ما دام كافراً إذا عرفت هذا فنقول نهى الله تعالى في الآية عن أكل الرّبا فقال: **لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا** وهو في الأصل الزّيادة على رأس المال ولكن خُصّ في الشّرع بالزيادة على وجهه، وباعتبار الزّيادة:

قال الله تعالى: **وَمَا أَنتِمْ مِنْ رِبَا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ** (١).

ومنه قال الله تعالى: **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ** (٢).

على أنّ الزّيادة المعقولة المعبّر عنها بالبركة مرتفعة عن الرّبا وقد مرّ البحث فيه هناك وقلنا أنّه لا إشكال فيها:

قال الله تعالى: **وَمَا أَنتِمْ مِنْ زَكْوَةٍ تَرْبُدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ** (٣).

فنقول، قال العلامة **مَنْذُورٌ** في القواعد الفصل الثالث في الرّبا وفيه مطلبان، الأوّل في محلّه، وله شرطان:

الأول: التماثل في الجنس أعني به الثمن و المثلثن فهما أن إختلفا جنساً جاز إختلافهما قدراً نقداً و نسيئةً إلا الصَّرف فأنه لا يصح فيه النسيئة، و أن إتَّفقا و جب إتَّفاقهما قدراً نقداً أن دخلهما الكيل أو الوزن إجماعاً و إلا فلا، الى أن قال ﷺ ولا يثبت الرِّبَاء في غير البيع و ضابط الإتِّفاق في الجنس شمول اللَّفْظ الخاصَّ لهما كالحنطة و الأرز لا كالمطعموم المختلفة أفراده، و الحنطة و الشعير هنا جنس واحد على رأي.

الثاني: الكيل و الوزن فلا ربا إلا فيما يكال أو يوزن مع التَّفاوت ولو تساويَا قدراً صحَّ البيع نقداً ولو إنتفى الكيل و الوزن معاً جاز التفاضل نقداً و نسيئةً كتوب بثوبين و ببضةٍ ببضتين و الحوالة في التقدير على عادة الشَّرع فما ثَبَت أنه مكيل أو موزون في زمانه عَلَيْهِ السَّلَامُ حكم بدخولهما فيه فأن لم تعلم العادة الشَّرعية فعادة البلد فأن إختلف البلدان فلكلِّ بلدٍ حكم نفسه على رأي.

المطلب الثاني: في الأحكام كل ماله حالاً رطوبةً و جفافٍ يجوز بيع بعضه ببعض مع تساوي الحاليتين، فيباع الرُّطب بمثله و العنب بمثله و الفواكه الرُّطبة بمثلها و اللَّحم الطَّري بمثله الى أن قال ولا يجوز مع الإختلاف في الحاليتين فلا يباع الرُّطب بالتَّمَر و لا العنب بالزَّيْب و كذا كلُّ رطبٍ مع يابسه سواء قضت العادة بضبط النَّاقص أو لا و هكذا الى أن قال ﷺ و لا ربا بين الوالد و ولده فلكلُّ منهما أخذ الفضل و لا بين السيِّد و مملوكه المختص، و لا بين الزَّوج و زوجته و لا بين المسلم و أهل الحرب للمسلم أخذ الفضل في دار الحرب أو الإسلام دون العكس و يثبت الرِّبَاء بين المسلم و الذَّمي على رأي الى أن قال و يجب على كلِّ من أخذ الرِّبَاء ردَّه الى مالكة أن عرفه أو الى ورثته أن فقد و يتصدَّق به عنه أن جهله سواء إستعمله مع علم التحريم أو جهله على رأي انتهى ما ذكره ﷺ و هو يكفي في المقام و أمَّا الأخبار الواردة من الطَّرفين في ذمِّ الرِّبَاء و حرمة فهي كثيرة و قد ذكرنا شطراً منها في سورة البقرة و كفكاف في

ذَمَّ الرِّبَاءَ وَتَحْرِيْمَهُ حُرْمَتُهُ بِالْأَدَلَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَلَمْ يَخَالَفْ فِيهَا أَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ وَيَأْتِي الْكَلَامُ فِيهَا أَيْضاً وَأَمَّا قَوْلُهُ: **أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً** فَقِيلَ فِي مَعْنَاهُ كَانَ الرَّجُلُ إِذَا حَلَّ لَهُ الدِّينُ زَادَ فِيهِ وَآخَرُهُ الَّتِي جَلَّيْ أَوْ خَرَّتْ إِذَا حَلَّ زَادَ فِيهِ أَيْضاً وَآخَرُهُ وَهَكَذَا فَكَانَ يَسْتَعْرِقُ بِالشَّيْءِ الْقَلِيلِ مَالُ الْمَدْيُونِ فَتَهْلِكُ لَهُمُ الْإِثْمُ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ قَوْمٌ أَنَّ مَعْنَى الْأَضْعَافِ الْمُضَاعَفَةِ، لَا تَزِيدُوا بِهِ أَمْوَالَكُمْ فَتَصِيرُ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً.

فَقَدْ رَوَى فِي الْكَافِي عَنْ سَمَاعَةَ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ اللَّهَ ذَكَرَ الرِّبَا فِي غَيْرِ آيَةٍ وَكَرَّرَهُ فَقَالَ عليه السلام أَوْ تَدْرِي لِمَ ذَكَرَ قُلْتُ لَا قَالَ عليه السلام لِئَلَّا يَمْتَنِعَ النَّاسُ مِنْ إِصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ وَفِي حَسَنَةِ هِشَامٍ عَنْهُ عليه السلام نَحْوُهُ.

وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ

أَيِ وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي تَرْكِ الرِّبَا وَنَحْوِهِ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ الَّتِي تَوْجِبُ دُخُولَ النَّارِ لِيَفُودُوا ذُو الْفَلَاحِ وَإِذَا نَأَى بِأَنْ فَعَلَهُ يَسْتَلْزِمُ دُخُولَ النَّارِ الْمَعْدَّةَ لِلْكَفَّارِ وَوَصَفَهُ هُنَا بِذَلِكَ أَمَّا لِلتَّنْبِيهِ عَلَى شِدَّةِ الْعَذَابِ أَوْ لِأَنَّ أَكْلَهُ يَسْتَلْزِمُ الْخُلُودَ عَلَى مَا مَرَّ.

وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

أَيِ تَرْحَمُونَ قِيلَ أَطِيعُوا اللَّهَ فِي الْفَرَائِضِ وَالرَّسُولَ فِي السُّنَنِ وَقِيلَ أَطِيعُوا اللَّهَ فِي تَحْرِيمِ الرِّبَا وَ الرَّسُولَ فِيمَا بَلَغَكُمْ مِنَ التَّحْرِيمِ وَلَا شَكَّ أَنَّ سَعَادَتَ الدَّارِينَ فِي اطِّعَاةِ اللَّهِ وَرِسُولِهِ انَّ الدِّينَ لَيْسَ إِلَّا طَّاعَةٌ وَالْإِتْقَانُ.

وَ سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ.

قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَ نَافِعٌ، سَارِعُوا بِغَيْرِ وَاءٍ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ وَ قَرَأَ الْبَاقُونَ بِالْوَاوِ عَلَى الْعَطْفِ لِمَا أَمَرُوا بِتَقْوَى النَّارِ أَمَرُوا بِالْمُبَادَرَةِ وَ الْمَسَارَعَةِ إِلَى أَسْبَابِ

المغفرة و الجنة و المسارعة مفاعلة إذا الناس كل واحد منهم ليصل قبل غيرهم فبينهم في ذلك مفاعلة ألا ترى الى قوله: **فَأَسْتَبْقُوا الْخَيْرَاتِ**، ثم أنهم اختلفوا في سبب المغفرة ف قيل هو الإخلاص و قيل إداء الفرائض و قيل الإسلام التكبيرة الأولى من الصلاة مع الإمام و قيل، التوبة و قيل الهجرة الجهاد الى غير ذلك من الأقوال التي ينبغي أن تحمل على التمثيل لا على الحصر و اليقين، قال صاحب الكشف معنى المسارعة الى المغفرة و الجنة الإقبال على ما يستحقان به.

أقول ما ذكره حق فأن حمل الآية على العموم أولى من حملها على الخصوص من غير دليل فالمعنى و سارعوا أي سابقوا الى ما هو السبب في المغفرة من ربكم و الدخول في الجنة بعد ذلك، فذكر المسبب المغفرة و أراد السبب و هو العمل الصالح الناشئ عن الاعتقاد الصحيح إذ ليس كل عمل من أي شخص صدر يوجب ذلك فأن أصل العمل و أساسه الاعتقاد و في تقديم ذكر المغفرة على الجنة إشعار بأن المغفرة هي السبب الموصل اليها و في قوله: **عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَ الْأَرْضُ** إشارة الى سعة الجنة و تقدير الكلام و جنة عرضها كعرض السموات و الأرض فحذفت المضاف من السموات و من المعلوم أن هذا التشبيه ليس على سبيل الحقيقة لأن الجنة أوسع من ذلك قطعاً و إنما أراد بذلك تفهيم المقصود و هو سعة الجنة و حيث لم يكن في عالم الحسن شيئاً أكبر من السموات و الأرض إذ كل كبير فهو داخل فيهما شبه تعالى سعة الجنة بسعة السموات و الأرض فالحق أن عرض الجنة و طولها لا يعلمه إلا الله تعالى و أما قوله: **أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ففيه دلالة على أن الجنة هيأت لهم فمن لم يكن منهم لا نصيب له منها، قال ابن بحر، العرض في الآية ليس العرض المقابل بل المراد به العرضة من عرض المتاع على البيع قال الكلبي، الجنان أربع، جنة عدن، و جنة الفردوس، و جنة النعيم و جنة الخلد إنتهى.

وَأَمَّا أَنْ الْجَنَّةُ أَخْلَقَتْ وَهُوَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ وَمَقْتَضَى النَّصُوصِ الصَّحِيحَةِ، أَمْ لَمْ تُخْلَقْ بَعْدَ وَهُوَ قَوْلُ الْمَعْتَزِلَةِ فَلِلْكَلامِ فِيهِ مَوْضِعٌ آخَرُ.

أَنْ قُلْتُ كَيْفَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ** وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **الْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ** وَلَيْسَتْ **الْعَجَلَةُ** إِلَّا **السَّرْعَةُ** فِي الْعَمَلِ، قُلْتُ قَدْ أَجَابُوا عَنْهُ بِأَنَّهُ إِسْتَشْنَى النَّبِيَّ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ (الْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالتَّانِي مِنَ الرَّحْمَنِ) خَمْسَةَ مَوَاضِعَ:

أَحَدُهَا: التَّوْبَةُ مِنَ الذَّنْبِ.

ثَانِيهَا: قَضَاءُ الدَّيْنِ الْحَالِ.

ثَالِثُهَا: تَزْوِيجُ الْبَكَرِ الْبَالِغِ.

رَابِعُهَا: دَفْنُ الْمَيِّتِ.

خَامِسُهَا: إِكْرَامُ الضَّيْفِ إِذَا نَزَلَ.

أَقُولُ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ مَوَارِدِ الْإِسْتِثْنَاءِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي نَقَلَهُ الْعَامَّةُ لَا يَصِحُّ فِي بَعْضِهَا مِثْلُ، تَزْوِيجِ الْبَكَرِ الْبَالِغِ، وَدَفْنِ الْمَيِّتِ وَإِكْرَامِ الضَّيْفِ مَعَهُ هُوَ يَصِحُّ فِي التَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ وَقَضَاءِ الدَّيْنِ الْحَالِ وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّزْوِيجَ أَمْرٌ لَا يَحْسُنُ فِيهِ التَّعْجِيلُ سِوَاهُ كَانَ فِي الْبَكَرِ أَمْ كَانَ فِي الثَّيِّبِ بَلْ يَحْتَاجُ إِلَى التَّحْقِيقِ وَالتَّفْتِيشِ فِي حَالِ الْمَرْأَةِ وَبَيْتِهَا حَتَّى الْإِمْكَانَ وَهَكَذَا دَفْنُ الْمَيِّتِ لَا تَصَحُّ فِيهِ الْمَسَارَعَةُ بِقَوْلٍ مُطْلَقٍ كَمَا إِذَا كَانَ الْمَوْتُ مُشْكُوكًا فِيهِ أَوْ مَاتَ الْمَيِّتُ فِي وَقْتٍ لَا يُمْكِنُ الْإِعْلَامُ بِهِ كَمَا إِذَا مَاتَ بِاللَّيْلِ مِثْلًا فَأَنَّهُ يَسْتَحَبُّ التَّأْخِيرُ فِي دَفْنِهِ إِلَى الصُّبْحِ لِأَجْلِ التَّشْيِيعِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فَالْحَقُّ فِي الْجَوَابِ هُوَ أَنْ يُقَالَ أَنَّ الْعَجَلَةَ الْمَذْمُومَةَ أَنَّمَا هِيَ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَأَمَّا الْأُخْرَوِيَّةُ فَالتَّعْجِيلُ فِيهَا مَدْمُوحٌ مَأْمُورٌ بِهِ مُطْلَقًا وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ فِي مَعْرِضِ الْمَوْتِ أَنَا فَأَنَّا فَالْعَقْلُ يَحْكُمُ بِتَدَارِكِهِ مَا فَاتَ مِنْهُ فِي أَسْرَعِ الْأَوْقَاتِ وَلَنْعَمَ مَا قِيلَ:

اعْمَلْ وَأَنْتَ صَاحِبُ مُطْلَقٍ فَرِحْ مَا دَمْتَ وَيَحْكُ يَا مَغْرُورٍ فِي مَهْلِ
يَرْجُو الْحَيَاةَ صَاحِبِي رَبِّمَا كَمَنْتَ لَهُ الْمُنِيَّةُ بَيْنَ الزَّيْدِ وَالْعَسَلِ

ولذلك قال تعالى: وَ سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَقَالَ: فَاسْتَبِقُوا
الْخَيْرَات.

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

ولا خير في الدنيا إلا لرجلين رجل أدنّب دُوباً فهو يتداركها بالتوبة ورجل يسارع
في الخيرات... (١)

وقال عليه السلام:

وَمَنْ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ (٢)

وقال عليه السلام:

فَسَابِقُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَى مَنَازِلِكُمْ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا وَالَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا
وَدُعِيتُمْ إِلَيْهَا وَاسْتَبِقُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ وَالْمُجَانِبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ
فَإِنَّ غَدًا مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ وَأَسْرَعَ الْأَيَّامِ فِي الشَّهْرِ
وَأَسْرَعَ الشُّهُورِ فِي السَّنَةِ وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمُرِ. (٣)

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ
النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ في هذه الآية ثلاث مسائل.

الاولى: الانفاق في اسراء والظراء.

الثانية: كظم الغيظ.

الثالثة: العفو عن الناس.

اما الاول: مر البحث في حسن الانفاق وأنه رغب فيه وقد وردت الايات
والاخبار في مدح كظم الغيظ بما لا مزيد عليه فلانحتاج الى تكرار واسباب و

أَمَّا السَّرَّاءُ وَالضَّرَّاءُ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ السَّرَّاءُ وَالضَّرَّاءُ الْعُسْرُ، وَقِيلَ السَّرَّاءُ الرِّخَاءُ وَالضَّرَّاءُ الشَّدَّةُ وَقِيلَ الْمَرَادُ بِالسَّرَّاءِ الْحَيَاةِ وَبِالضَّرَّاءِ الْمَوْتَ أَنَّ يَوْصِي وَ الْحَقُّ مَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَلَنُنْزِلْهُ أَذِقْنَاهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَّاءٍ^(١) أَيِ أَذِقْنَاهُ الْيَسَرَ بَعْدَ الْعُسْرِ وَالثَّانِيَةُ كَظَمَ الْغَيْظَ وَهُوَ أَيْضاً مَمْدُوحٌ عَقْلاً وَشَرْعاً وَهُوَ مِنْ صِفَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ.

فَعَنْ أَصُولِ الْكَافِي بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: مَا مِنْ عَبْدٍ كَظَمَ غَيْظاً إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِزًّا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَأَشَابَهُ وَ الْكَاطِمِينَ أَلْغَيْظَ وَ أَلْغَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ اللَّهُ مَكَانَ ذَلِكَ انْتَهَى.

وَأَيْضاً عَنْهُ عليه السلام قَالَ: مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَمْضِيهِ أَمْضَاهُ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رِضَاهُ، وَفِي كِتَابِ الْخَصَالِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ قَالَ ثَلَاثُ خَصَالٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلَ خَصَالَ الْإِيمَانِ، مَنْ صَبَرَ عَلَى الظُّلْمِ وَكَظَمَ غَيْظَهُ، وَاحْتَسَبَ وَغَفَى وَغَفَرَ كَانَ مِمَّنْ يَدْخُلُهُ اللَّهُ تَعَالَى الْجَنَّةَ بَغِيرِ حِسَابٍ وَيُشَفِّعُهُ مِثْلَ رُبْعَةِ وَمُضَرٍ انْتَهَى.

وَعَنْ أَبِي حَمْزَةَ الثَّمَالِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ قَالَ: مَا تَجَرَّعَتْ جُرْعَةٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظَةٍ لَا أَكْافِي بِهَا صَاحِبَهَا انْتَهَى.

وَمِنْ طَرِيقِ الْعَامَّةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى إِنْفَازِهِ مَلَأَهُ اللَّهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا، وَعَنْهُ صلى الله عليه وآله مَا مِنْ جُرْعَةٍ يَتَجَرَّعُهَا الْعَبْدُ خَيْرَ لَهْ وَأَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٍ فِي اللَّهِ.

وَلَنَعْمَ مَا قِيلَ فِيهِ:

وَإِذَا غَضِبْتَ فَكُنْ وَقُورًا كَاطِمًا لِلْغَيْظِ تَبْصِرُ مَا تَقُولُ وَتَسْمَعُ
فَكُفِّي بِهِ شَرَفًا تَصْبِرُ سَاعَةً يَرْضَى بِهَا عَنْكَ الْإِلَهُ وَيُدْفَعُ

الثالثة: والعافين عن النَّاسِ، أعلم أَنَّ الْعَفْوَ هُوَ التَّجَافِي عَنْ الذَّنْبِ وَ قَدْ وردت بحسنه الآيات والأخبار:

قال الله تعالى: **وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** (١).

قال الله تعالى: **وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** (٢).

قال الله تعالى: **وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ** (٣).

قال الله تعالى: **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** (٤).

والآيات فيه كثيرة جداً.

روي أَنَّ جارية لعلي بن الحسين عليه السلام جعلت تسكب عليه الماء ليتَّهياً للصَّلاة فسقط الإبريق من يدها فرفع رأسه إليها فقالت له الجارية أَنَّ اللَّهَ تعالى يقول: **وَالْكَاطِمِينَ أَلْغَيْظَ** فقال لها قد كظمتُ غَيْظِي قالت والعافين عن النَّاسِ قال قد عفى الله عنك قالت والله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ قال إذهبي فأنت حرّة لوجه الله انتهى وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله رأيت قصوراً مشرفة على الجنة فقلت يا جبرائيل لمن هذه قال للكاظمين الغَيْظِ والعافين عن النَّاسِ انتهى.

وقال معاذ بن جبل لما بعثني رسول الله الى اليمَن قال: ما زال جبرائيل يوصيني بالعفو فلولا علمي بالله لظننتُ أَنَّهُ يوصيني بترك الحدود.

وقال الحسن بن الحسن إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مِنْ كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ أَجْرٌ فَلْيَقُمْ فَلَا يَقُومُ إِلَّا الْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أُولَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ، وعنه عليه السلام إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَأَجْعَلِ الْعَفْوَ مِنْهُ شُكْرًا لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ.

و عنه عليه السلام أنه قال: أقبلوا ذوي المَروءات عثراتهم فما يَعثر منهم عاثر إلاّ ويده بيد الله يرفعه.

قال بعض الحكماء من عادة الكريم إذا قَدَّرَ غفر وإذا رأى زَلَّةً ستر، ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام، وقيل من إنتقم فقد شفى غِيظه وأخذ حَقّه فلم يجب شكره ولم يحمد في العالمين ذكره ولنعم ما قيل في المقام:

إذا ما طاش علمك من عَدُوِّ وهان عليك هجران الصديق
فلست إذا أخا عفوَ وصَفح ولا لأخٍ على عهدٍ وثيق
إذا زَلَّ الرَّفِيقُ وأنت مِمَّنْ بلا رفقٍ بقيت بلا رفيق
إذا أنت إتخذت أخاً جديداً لما أنكرت من خلقٍ عتيق
فما تدري لعلك مستجيرٌ من الرَّمضاء فرّ إلى الحريق
فكم من سالكٍ لطريق آمِنٍ أتاه ما يحاذر في الطريق

قيل لمعن بن زائدة المؤاخذه بالذنب من السُّودد قال ولكن أحسن ما يكون الصَّفح عَمَّنْ عظم جرمه وقل شفعاءه ولم يجد ناصراً وفي هذا المعنى قيل:

سألزمت نفسي الصَّفح عن كلِّ مُذنبٍ وأن عظمت منه عليّ الجرائم
فما الناس إلاّ واحد من ثلاثة شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذي فوقى فأعرف قدره وأتبع فيه الحقّ والحقّ لازم
وأما الذي دوني فأن قال حفت عن إجابته نفسي وأن لأم لا يُم
وأما الذي مثلي فأن زَلَّ أو هَفَا تَفَضَّلْتُ أن الحَرَّ بالفضل حاكم
وأما قوله: **وَٱللّٰهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ** ففيه دلالة على أن المتَّصف بالأوصاف الثلاثة أعني بها الإنفاق في السَّراء والضَّراء، والكاظمين الغيظ، والعافين عن النَّاس، فهو من المُحْسِنِينَ، ومن كان فيهم فهو محبوب لله تعالى لا محالة لأنّه تعالى محسنٌ والمحسن يحبّ المحسن وهو المطلوب.

اللّٰهم اجعلنا من المحسنين برحمتك يا أرحم الرّاحمين.

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ

قيل أنها انزلت في فيقال التمار امراه تشتري منه تمر وضمها الى نفسها قبلهما ثم بدم على ذلك فأتى النبي و ذكر ذلك له فتنزلت الآية وقيل ان سبب نزولها ان ثقيف في غزاة و خلف صاحباه الضاريا على أهله فخانها فيها بان إقتحم عليها فدفعته عن نفسها فقبل يدها فندم على ذلك فخرج يسبح في الأرض نادماً تائباً فجاء الثقيفي فأخبرته زوجته بفعل صاحبه فخرج في طلبه فأتى به الى أبي بكر و عمر رجاء أن يجد عندهما فرجاً فوبخاه فأتى النبي ﷺ فأخبره بفعله فنزلت هذه الآية قاله القرطبي في تفسيره ثم قال و العموم أولى للحديث انتهى.

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِيخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الفاحشة، و ظلم النفس، فقال ابن عباس الفاحشة الزنا و ظلم النفس ما دونه من النظر واللمسة، و قال مقاتل الفاحشة الزنا و ظلم النفس سائر المعاصي، و قال النخعي الفاحشة القبايح و ظلم النفس منها و هو لزيادة البيان، و قيل الفاحشة الكبيرة و ظلم النفس الصغيرة وأمثال ذلك من الأقوال، والحق أن الفاحشة الذنب الذي يسري الى الغير المعبر عنه بالظلم على الغير و أمّا ظلم النفس فهو الذنب الذي يكون بين العبد و بين ربه و عليه فالزنا و الرباء و اللواط و أمثالها من الفواحش و ترك الصلاة و الصوم و أمثالها من ظلم النفس و ذلك لأن الظلم على أقسام ثلاثة ظلم على الله تعالى و هو الشرك به قال الله تعالى حكاية عن لقمان: يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
التفسير القرآن

جزء ٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

و ظلم على الغير وهو عبارة عن الخروج عن الحدّ والتّجاوز الى حدّ الغير كالغيبة والتّهمة والزّنا والربّاء وأمثالها ممّا أخذ في مفهومه التّعديّ الى الغير. وظلم على النفس وهو الذي لا يكون إلاّ على نفسه كترك الصّلاة والصّوم والحجّ وأمثالها ممّا هو ذنب بينه وبين الله تعالى، والأوّل منها لا يغفر، وأمّا الثاني والثّالث فإنّ الله تعالى يغفر لصاحبهما بسبب التّوبة وما نحن فيه من هذا القبيل فإنّ الفاحشة وهى الظلم على الغير يغفر لها بعد التّوبة وهكذا الظلم على النفس ولذلك عقب الله تعالى كلامه بقوله: **ذَكِّرُوا اللَّهَ** فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ أي طلبوا الغفران لأجل ذنوبهم التي ارتكبوها ومن المعلوم أنّ الذنوب لا يغفرها إلاّ الله تعالى لأنّه غافر الذنب وقابل التوب قال بعض المفسّرين وصف ذاته بسعة الرّحمة وقرب المغفرة وأنّ التائب من الذنب كمن لا ذنب له وأنّه لا مفرّج للمذنبين إلاّ فضله وكرمه وأنّ عدله يوجب المغفرة للتائب لأنّ العبد إذا جاء في الاعتذار فأبقى ما يقدر عليه وجب العفو والتّجاوز وفيه تطييبٌ لنفوس العباد وتنشيط للتّوبة وبعث عليها وردع عن اليأس والقنوط وأن الذنوب وأن جلّت فإنّ عفوّه أجلّ وكرمه أعظم والمعنى أنّه وحده معه مصحّحات المغفرة انتهى.

وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أي ولم يصروا على ما فعلوا من الذنب مع علمهم به وفي هذا الكلام إشارة الى أمرين في تحقّق التّوبة وقبولها. **أحدهما:** عدم الإصرار على الذنب بمعنى أنّ التائب ينبغي له ترك ما فعل من الذنب لأنّ التائب مع الإصرار عليه كالمستهزء بالله تعالى.

ثانيهما: العلم بأنّ الله يعاقب على الإصرار وقيل معناه العلم بأنّهم أن تابوا تاب الله عليهم وقيل العلم بما حرّمت عليهم أو أن إستغفروا غفر لهم. أقول حقّ المعنى أن يقال ولم يصروا على الذنب مع العلم بكون الإصرار ضاراً مع عدم العلم به فلا لقوله رفع عن أمّتي تسعة وعدّها منها ما لا يعلمون.

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ.

أولئك إشارة إلى من تقدّم وصفهم في الآيات السابقة من المتقين الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللّه والتائبين جَزَاؤُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ أي سترٌ لذنوبهم وَ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ في الدنيا بالأعمال الصالحة أو نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ذلك أي المغفرة والجنة فأنَّ المخصوص بالمدح محذوف.

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ.

قيل أَنَّ الخطاب لأصحاب مُحَمَّد ﷺ وقيل لمن إنهمز يوم أحد من المنافقين والمعنى قد مضت مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ من الله في الأمم السَّالِفَةِ الَّتِي كَذَبُوا رُسُلَهُمْ وَ جحدوا بنبوتهم و سلكوا معهم مسلك النِّفَاق والعناد بأن استأصلهم و عَذَّبهم و أهلكهم في الدُّنْيَا وأبقى آثارهم في الدِّيار لِلإِعتبار و الالفاظ فهذه سَنَةٌ لله و لن تجد لسنة الله تبديلاً مع حكم الأمثال واحد فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ففي هذه الآية حَثٌّ عَلَى الْإِتِّعَاضِ بِالْأَثَارِ التَّكْوِينِيَةِ المحسوسة الباقية عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الظَّالِمِينَ الْمُكْذِبِينَ، عاقبة الظُّلْمِ ليست إِلَّا الخسران والوبال في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، و قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا أَقَلَّ الْعِبَرِ وَأَكْثَرُ الْإِعْتِبَارِ، والمراد بالسَّيْرِ في قوله: فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ يمكن أن يكون السَّيْرُ بمعنى السَّيَاحَةِ لِمُشَاهَدَةِ الْأَثَارِ الْبَاقِيَةِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ السَّيْرُ الْفِكْرِي بِمَعْنَى تَتَبُعِ آثَارِهِمْ فِي كُتُبِ التَّوَارِيخِ وَالسَّيْرِ لِمُشَاهَدَةِ الْأَثَارِ بَعَيْنِ الْبَصِيرَةِ وَ حَمَلَ اللَّفْظَ عَلَى الْعُمُومِ أَوْ الْإِطْلَاقِ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي وَصِيَّتِهِ لِابْنِهِ الْحَسَنِ:

يَا بَنِيَّ إِنِّي وَالْإِسْلَامُ الْأَبَدِيُّ لَمْ أَكُنْ عَمِرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ
وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ. وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ بَلْ كَأَنِّي بِمَا
انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عَمِرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ
كَدَرِهِمْ.. إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ. ^(١)

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

عِبَادَ اللَّهِ، أَيُّنَ الَّذِينَ عُمِرُوا فَتَعَمُّوا؟ وَعَلِّمُوا فَفَهِّمُوا، وَأَنْظِرُوا فَالْهَبُوا، وَسَلِّمُوا
فَنَسُوا! أُمِّهِلُوا طَوِيلًا، وَمُنِحُوا جَمِيلًا، وَخُذُّوا أَلِيمًا، وَوَعِدُوا جَسِيمًا، اخْذَرُوا الدُّنُوبَ
الْمُورِطَةَ، وَالْعُيُوبَ الْمُسْخِطَةَ، أُولَى الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ، وَالْعَافِيَةِ وَالْمَتَاعِ،

هَلْ مِنْ مَنَاصٍ أَوْ خَلَاصٍ أَوْ مَعَادٍ أَوْ مَلَادٍ، أَوْ فِرَارٍ أَوْ مَحَارٍ! أَمْ لَا؟ فَأَنَّى تَوْفِكُونَ أَمْ
أَيُّنَ تُصْرِفُونَ أَمْ بِمَادَاتُ تَعْتَرُونَ! وَإِنَّمَا حَظُّ أَحَدِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ
قِيْدُ قِدَّةٍ، مَتَعَفَرًا عَلَى خَدِّهِ!

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وَأَيُّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةٌ!

أَيُّنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ! أَيُّنَ الْفَرَاعِيَّةِ وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِيَّةِ أَيُّنَ أَصْحَابِ مَدَائِنِ
الرُّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ وَأَطْفَأُوا سُنْنَ الْمُرْسَلِينَ وَأَخْيَا سُنْنَ الْجَبَّارِينَ أَوْ أَيُّنَ
الَّذِينَ سَارُوا بِالْجَيْشِ وَهَزَمُوا بِالْأُلُوفِ وَعَسَكُرُوا الْعَسَاكِرَ وَمَدَّنُوا الْمَدَائِنَ.

صدق ولي الله وخليفة رسول الله و أما شرح هذه الكلمات فليطلب من
شرحنا الكبير على نهج البلاغة.

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَ مَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ إشارة الى قوله: قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِكُمْ سُنَنٌ.

و المعنى أَنَّ فيما ذكرناه من النظر و العبرة بيانٌ للنَّاس و هُدى و موعظةٌ للمُتَّقِينَ و أَمَّا حَصَصَ البَيانَ بالنَّاس و الهداية و الموعظة بالمُتَّقِينَ لِأَنَّ المُتَّقِينَ هم المتعظِّونَ بالآيات كما قال الله تعالى: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ^(١) و قد مرَّ الوجه في علَّةِ التَّخْصِيسِ في أوَّلِ سُورَةِ البَقَرَةِ: وَلَا تَهْنُؤُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قِيلَ أَنَّ اللهَ تعالى عَزَاهُمْ و سَلَّاهُمْ بِمَا نَالَهُمْ يَوْمَ أَحَدٍ مِنَ الْقَتْلِ و الْجَرْحِ و حَثَّهم عَلَى قِتَالِ عَدُوِّهم و نَهَاهم عَنِ الْعِجْزِ و الْفَشْلِ فقال: وَلَا تَهْنُؤُوا أَي لَا تَضَعُفُوا و لَا تَجْبَنُوا أَيَّهَا الْمُسْلِمُونَ عَنِ جِهَادِ عَدُوِّكُمْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مِنْهُ لَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْهَزِيمَةِ و الْمَصِيبَةِ وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ أَوْ عَلَى الْأَعْدَاءِ بِالنَّصْرِ و الظَّفَرِ عَلَيْهِمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أَي بِشَرَطِ بَقَاءِكُمْ عَلَى الْإِيمَانِ إِعْتِقَاداً عَمَلًا وَقِيلَ، أَنَّ، بِمَعْنَى، إِذْ، أَي إِذْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، و لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ بَلِ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ حَقًّا لَمَّا دَحَجُوا الْفِرَارَ عَلَى الْبَقَاءِ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ مِنْ أَعْظَمِ الْكِبَائِرِ سَيِّئًا فِي مَوْرِدِ وَقَعِ نَفْسُ الرَّسُولِ فِي مَعْرِضِ الْخَطَرِ كَمَا كَانَ فِي أَحَدٍ فَأَيَّ إِيْمَانٍ كَانَ لَهُمْ حَتَّى يُقَالَ إِذْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَ أَمَّا الشَّرْطُ فَصَحِيحٌ لِأَنَّ الْمَعْنَى أَنْكُمْ تَغْلِبُونَ وَ تَظْفَرُونَ عَلَى الْأَعْدَاءِ بِشَرَطِ الْإِيمَانِ وَ إِلَّا فَلَا وَ هَذَا حُكْمٌ عَامٌّ فِي حَقِّ الْمُسْلِمِينَ فِي جَمِيعِ الْأَعْصَارِ وَ الْأَزْمَنَةِ وَ أَنْ كَانَ مُورَدُهُ خَاصًّا فِي أَحَدٍ لِأَنَّ خُصُوصِيَّةَ الْمَوْرِدِ لَا تَنَافِي عُمُومِيَّةَ الْحُكْمِ أَلَا تَرَى أَنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي زَمَانِنَا هَذَا مَغْلُوبُونَ مَقْهُورُونَ مَظْلُومُونَ مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ مِنْ حَيْثُ النُّفُوسُ وَ هُوَ أَمْرٌ مُشَاهَدٌ مُحَسُّوسٌ ذَلِكَ إِلَّا لِفَقْدَانِ الشَّرْطِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ وَ هُوَ الْإِيمَانُ وَ قَدْ ثَبِتَ أَنَّ الْمَشْرُوطَ يَنْتَفِي بِإِنْتِفَاءِ شَرْطِهِ فَإِذَا زَالَ الْإِيمَانُ ثَبِتَ الضَّعْفُ وَ الْحُزْنُ، وَ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى قَوْلِ الشَّيْعَةِ وَ هُوَ أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِسَبَبِ الْعَمَلِ وَ مُجَرَّدُ الْإِعْتِقَادِ لَا يَكْفِي فِي تَحَقُّقِهِ إِذْ لَوْ كَانَ كَافِيًّا فِي

في تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد
نہ

أحد و غير أحد لما كان المسلمون مغلوبين أبداً لوجود الإيمان على الفرض و أن الله تعالى صادق في قوله: وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا وَهُوَ الْقَائِلُ: وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فكيف هزموا في أحد و صاروا مغلوبين مع وجود الإيمان لهم أليس هذا مخالفاً لوعد الله تعالى، فقول القرطبي و أمثاله في قوله: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أي بصدق وَعدي، لا معنى له لأنهم كانوا مؤمنين بهذا المعنى و من كان شاكاً منهم بصدق وعد الله، إلا أنه لا يكفي إذا لم يتقن بالعمل وهذا هو الأصل في الباب، قال القرطبي و في هذه الآية بيان فضل هذه الأمة لأنه تعالى خاطبهم بما خاطب به أنبياءه لأنه قال لموسى، أنك أنت الأعلى، و قال لهذه الأمة، أنتم الأعلون إلى آخر ما قال، و لم يعلم القرطبي أن القياس مع الفارق لا يجوز و ذلك لأنه تعالى قال لموسى أنك أنت الأعلى، و لم يقيد بشرط و أما في المقام فقال: وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ثُمَّ قَيَّده بالإيمان أي أنتم الأعلون بشرط كونكم مؤمنين والفرق بين المقامين من الثرى إلى الثريا:

قل للذي يدعي في العلم فلسفةً حَفِظْتَ شيئاً و غابت عنك أشياء نعم من كان في هذه الأمة مؤمناً حقاً اعتقاداً و عملاً فهو كما ذكره وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ و أما الذين فَرَّوْا من الجهاد في سبيل الله و تركوا الرسول بين الأعداء في أحد فليسوا من هذه الآية قطعاً لفقد الشرط فيهم و مجرد أن هذه اللفظة مشتقة من إسمه الأعلى لا يكفيهم و هو واضح و أعجب منه ما ذكره أيضاً و هو قوله: وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ بعد أحد فلم يخرجوا بعد ذلك عسكرياً إلا ظفروا في كل عسكري كان في عدد و في كل عسكري كان بعد و لو تم يكن فيه إلا واحد من الصحابة و ذاك لأن ما ذكروه هو مجرد الوهم او عدم اللامة على التواريخ الأقوى أن المسلمين في فتح خيبر كانوا عاجزين قبل امير المؤمنين فلهذا على و خلع باب الخيبر و قتل قرصا صاروا فاتحين ببركة وجود

عَلَيْهِ السَّلَامُ و قَلِيلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَوْلُهُ وَكَانَ الظُّفَرُ لَهُمْ وَفِيهِ
وَاحِدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ لَا أَصْلَ لَهُ وَمَحْصَلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّا لَا نُنْكِرُ الْغَلْبَةَ وَالظُّفَرَ فِي
غَزَوَاتِ الْأَسْلَامِ مَعَ الْكُفْرِ وَلَكِنَّا نُنْكِرُ مَا ذَكَرَهُ مِنْ أَنَّ الظُّفَرَ كَانَ لَهُمْ وَلَوْ كَانَ فِيهِ
وَاحِدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَلِلْبَحْثِ فِيهِ مَقَامٌ آخَرٌ إِنْ يَمَسُّسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ
الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ الْقَرْحُ الْجَرْحُ وَالضَّمُّ وَالْفَتْحُ فِيهِ لَعَتَانِ عَنِ الْكِسَائِيِّ وَ
الْأَخْفَشِ مِثْلُ عَقْرِ وَعَقْرٌ وَقَالَ الْقَرَاءُ هُوَ بِالْفَتْحِ، الْجَرْحُ وَبِالضَّمِّ أَلْمَهُ وَالْمَعْنَى
أَنْ يَمَسُّسْكُمْ يَوْمَ أَحَدٍ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ يَوْمَ بَدْرٍ قَرْحٌ مِثْلُهُ فَكَمَا أَنَّ
الْمَشْرِكِينَ لَمْ يَضْعَفُوا أَنْ قَاتَلُوَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَا تَضَعُفُوا أَنْتُمْ فِي قِتَالِهِمْ بَعْدَ أَحَدٍ
وَقِيلَ الْمَعْنَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ أَصَابَهُمْ يَوْمَ أَحَدٍ مِثْلُ مَا أَصَابَ الْمَشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ
مِنْ حَيْثُ الْقِتْلَى فَقَدْ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْمَشْرِكِينَ سَبْعُونَ وَاسْتَشْهَدَ يَوْمَ أَحَدٍ مِنْ
الْمُسْلِمِينَ أَيْضاً سَبْعُونَ وَ عَلَيْهِ فَالْمُرَادُ بِالْقَرْحِ عَدَدُ الْمَقْتُولِينَ فِيهِمَا وَهُوَ
السَّبْعُونَ.

أَقُولُ الْإِنْصَافُ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ فِي بَاطِلِهِمْ كَانُوا أَثْبَتَ قَدَمًا وَأَقْوَى عِزْمًا مِنَ
الْمُسْلِمِينَ فِي حَقِّهِمْ وَفِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ فِرَارُ
الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أَحَدٍ وَعَدَمُ فِرَارِ الْمَشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ إِيْمَانِ
أَكْثَرِهِمْ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَنْتَهُمْ كَانُوا عَلَى نِفَاقٍ وَخِلَافٍ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَاوِلُهَا
بَيْنَ النَّاسِ أَخْبَرَ تَعَالَى عَلَى سَبِيلِ التَّسْلِيَةِ لِلْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْآيَاتِ عَلَى قَدِيمِ
الدَّهْرِ لَا تَبْقَى لِنَاسٍ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ وَالْمُرَادُ بِهَا أَيَّامُ أَوْقَاتِ الْغَلْبَةِ وَالظُّفَرِ
يَصْرِفُهَا اللَّهُ عَلَى مَا أَرَادَ تَارَةً لِهَؤُلَاءِ وَتَارَةً لِهَؤُلَاءِ كَمَا قِيلَ:

فِيَوْمٍ عَلَيْنَا وَيَوْمٍ لَنَا وَيَوْمٍ نَسَاءً وَيَوْمٍ نَسَّرَ

أَقُولُ الْحَقُّ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْآيَاتِ لَا يَنْحَصِرُ بِمَا ذَكَرُوهُ وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا أَوْقَاتُ
الْغَلْبَةِ وَالظُّفَرِ بَلِ الْمُرَادُ مَعْنَاهَا الْعَامَّ الشَّامِلَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ وَأَنْ كَانَ مُورِدَ التَّزْوِلِ
فِيهَا خَاصًّا لَمَّا ذَكَرْنَاهُ سَابِقًا مِنْ أَنْ خُصَّصَ الْمُرَادُ لَا يَنَافِي عُمُومَ الْحُكْمِ

فالمقصود أنَّ ما في الأَيَّام متجدِّدة متغيِّرة تبعاً للأَيَّام فكما أنَّ الأَيَّام لا تبقى على حالها فكذلك ما فيها من الصَّحة و المرض و الفقر و الغنى و القدرة و الضَّعف و هكذا و ذلك لأنَّ الزَّمانى تابع للزَّمان فقوله: وَ تِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا يَبَيِّنُ النَّاسُ إشارَةَ الى عدم بقاء الزَّمانيات كائناً ما كان فألَّ التَّغير و الحدوث موجود في جميع ذرات العالم سارٍ في جميع أنحاء و شئونه هو السَّر في عدم الإعتماد على الدُّنيا و ما فيها فأنتها في معرض الزَّوال و الفناء أنا فانا و إذا كان الأمر على هذا المنوال فقد ثَبَّت المطلوب حكى عن شيخ من قبيلة همدان أنَّه قال بعثني أهلي في الجاهليَّة الى ذي الكلاع الحميري بهدايا فمكثت شهراً لا أصل اليه ثمَّ بعد ذلك أشرف إشرافَةً من كُوة له فخر له من حول القصر سُجِّداً ثمَّ رأيته بعد ذلك و قد هاجر الى حمص و اشتري بدرهم لحماً و سمطه خلف دابَّته و هو القائل:

أَفْ لَدُنِّيَا إِذَا كَانَتْ كَذَا أَنَا مِنْهَا فِي بَلَاءٍ وَأَدَّى
أَنْ صَفَا عَيْشَ إِمْرٍ فِي صُبْحِهَا جَرَّعْتَهُ مَمْسِياً كَأْسَ الرَّدَى
وَلَقَدْ كُنْتُ إِذَا مَا قِيلَ مِنْ أَنْعَمَ الْعَالَمَ عَيْشاً قِيلَ ذَا
قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ لَا يَأْتِي عَلَيْنَا زَمَانٌ إِلَّا بِكَيْنَا مِنْهُ، وَلَا يَتَوَلَّى عَنَّا زَمَانٌ إِلَّا بِكَيْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ الْقَائِلُ:

رَبِّ يَوْمٍ بِكَيْتٍ مِنْهُ فَلَمَّا صرْتُ فِي غَيْرِهِ بِكَيْتٍ عَلَيْهِ
وَقَالَ الْآخَرُ:

وَمَا مَرَّ يَوْمٌ أَرْتَجِي فِيهِ رَاحَةً فَأَخْبِرْهُ إِلَّا بِكَيْتٍ عَلَى أَمْسِي
وَقَالَ الْآخَرُ:

فَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَهْدْتَهُمْ وَلَا الدَّارَ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتُ أَعْهَدُ
كَانَ الْقَاهِرُ الْعَبَّاسِيُّ أَحَدَ الْخُلَفَاءِ ثُمَّ قَلَعُوهُ عَنِ الْمَلِكِ فَخَرَجَ إِلَى الْجَامِعِ فِي بَطَانَةٍ جَبَّةٍ بَغِيرَ ظَهَارَةٍ وَمَدَّ يَدَهُ يَسْأَلُ النَّاسَ بَعْدَ أَنْ كَانَ مَلِكُهُ لِأَقْطَارِ الْأَرْضِ،

دخل مسلمة بن زيد بن وهب على عبد الملك بن مردان فقال له عبد الملك أي الزمان أدركته أفضل وأي الملوك أكمل فقال أما الملوك فلم أر منهم إلا حامداً و ذاماً و أما الزمان فيرفع أقواماً و يضع آخرين وكلهم يذكر أنه يبلى جديدهم و يفرق عديدهم و يهلك كبيرهم، والقضايا كثيرة و كفاك في المقام ما تراه في كل يوم من عمرك من الحوادث الواقعة.

وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ.

واللام في قوله: وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لام كي قبلها حرف العطف فتعلق بمحذوف متأخر أي فعلنا ذلك المداولة أو نيل الكفار منكم أو هو معطوف على سبب محذوف هو وعامله أي فعلنا ذلك ليكون كيت وكيت و ليعلم، هكذا قدره الزمخشري وغيره و لم يعينوا فاعل العلة المحذوفة و أنما كنوا عنه بكيت وكيت و قيل أن المفعول الثاني، ليعلم، محذوف تقديره وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ لوجوه من المصالح وضروب من الحكمة و ليعلم الله الذين آمنوا متميزين بالإيمان من غيرهم وعلى هذا لا يكون، ليعلم، بمعنى يعرف لأنه ليس المعنى أن يعرف الذوات بل المعنى أنه ليعلم تميزها بالإيمان و قيل المعنى ليعلم الله الذين آمنوا بما تطهير من صبرهم على جهد عدوهم أي يعاملهم معاملة من فهم بهذه الحال و اذ كان الله يعلم قبل اظهارهم الايمان كما يعلم بعده و أنما يعلم قبل الاظهار سيميزون فاذا اظهرهم عليهم فيميزين و يكون التغير حاصلاً في المعلوم لا في العالم كما أن أحدنا يعلم الغد قبل مجيئه على معنى أنه سيجي فاذا جاء علمه جائياً و علمه يوماً لا غداً فاذا انقضى فأنما يعلمه الأمس يوماً و لا غداً فيكون التميز والتغير في المعلوم لا في العالم.

وقيل معناه وليعلم أولياء الله الذين آمنوا وأنما أضاف الى نفسه تفخيماً، معناه ليظهر المعلوم من صبر من يصبر وجزع من يجزع وإيمان من يؤمن.

وقيل ليظهر المعلوم من الإخلاص والتفاني ومعناه ليعلم الله المؤمن من المنافق فإستغنى بذكر أحدهما عن الآخر وهذه الوجوه ذكرها الطبرسي في المجمع والزازي في تفسيره وغيرهما من المفسرين فنقول أصل الإشكال هو أن ظاهر قوله تعالى: **وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا** مشعر بأنه تعالى أنما فعل تلك المداولة ليكتسب هذا العلم لأنه تعالى قال: **وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا يَبَيِّنُ الْنَّاسَ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا** ومعلوم أن ذلك محال على الله تعالى لأنه يلزم أن يكون عالماً بإيمانهم قبل المداولة وأنما جعل المداولة بينهم ليحصل له العلم بالإيمان وهو كما ترى مخالف للقواعد اذ قد ثبت أنه تعالى عالم بالأشياء قبل حدوثها وظاهر الآية ينافية ونظير ذلك في القرآن كثير.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ.

قال الله تعالى: **وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** (١)

قال الله تعالى: **لِيَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا** (٢)

قال الله تعالى: **وَلَنَنْبِؤَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ** (٣)

قال الله تعالى: **إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ** (٤).

وأمثالها من الآيات فينبغي أن نحسم مادة الإشكال في المقام بعون الله وتوفيقه اذ لم نر بعد الفحص فيما بأيدينا من التفاسير إلا ما نقلناه عنهم أقل أو

أكثر وهو ممّا لا يشفي المريض أصلاً كما هو واضح على المتأمل.
إعلم أنّ العلم هو حصول مهية الشيء لأمرٍ مستقّل في الوجود بنفسه أو بصورته حصولاً حقيقياً أو حكماً فالعلم على ثلاثة أقسام:

الأول: حصول الشيء بنفس هويته العينية لأمرٍ مستقّل الوجود حصولاً حقيقياً وذلك كعلم الشيء بنفس هوية معلوله العينية فأوّ وجود المعلول هو بعينه وجوده للعلّة الفاعليّة الحقيقيّة.

الثاني: حصول شيءٍ لأمرٍ مستقّل الوجود حصولاً حكماً كعلم الذات المجردة بذاته وكلّ من هذين العلمين علمٌ حضوري بمعنى أنّ وجود المعلول في نفسه عبارة عن معقوليته للجوهر العاقل وبهذا الاعتبار قيل العلم حضور الشيء لمجرّد أو عدم غيبته عن مجرّد.

الثالث: حصول شيءٍ بصورته لا بنفس هويته العينية لأمرٍ مستقّل الوجود حصولاً حقيقياً كعلم النفوس الإنسانية بما يحصل في ذاتها أو ألاتها من صور الموجودات الخارجيّة أو الصور التي اخترعها بل نقول أنّ حقيقة العلم نفس الحصول والوجود مطلقاً فكلّ ما هو موجود بأيّ نحوٍ من الأنحاء فهو معلوم لما هو موجود له هكذا قرّره الصّدر الشّيرازي رحمته الله في بعض تحقيقاته، ثمّ أنّ العلم تارةً يتحقّق بحضور المدرك والمعلوم لدى المدرك العالم ويسمّى بالحضوري وذلك كعلم المجرد بذاته، وتارةً يكون بحصول المدرك لدى المدرك بمعنى حصول الصّورة المرتسمة من المعلوم لدى العالم وذلك كعلمنا بالموجودات الخارجيّة وقد ثبت أنّ العلم في الواجب تعالى حضوري كلّه ومعناه أنّ الموجودات حاضرة عنده أي عند ذاته حضور المعلول عند العلّة التامة بل يقال أنّ علمه تعالى بذاته المجردة هو العلم بما سواه بعينه لأنّ العلم بالعلّة يستلزم العلم بالمعلول ولذلك نقول أنّه تعالى بكلّ شيءٍ عليم لأنّ كلّ ما يصدّق عليه الشيء فهو معلول له والعلم بالعلّة مستلزمٌ له كما بيّناه فعلى

هذا لا يخفى عليه شيء في عالم الوجود سواء كان الموجود موجوداً في الخارج أو لم يكن لأن وجوده العقلي يكفي في تحقق العلم نعم في العلم الحصولي لابد من وجود الصورة المرتسمة لدى العاقل ولا بحث لنا فيه فالواجب تعالى عالم بالأشياء قبل وجودها في الخارج كما أنه عالم بها بعده، ثم أن العلم الذي هو إدراك الشيء بحقيقته على ضربين: **أحدهما**: إدراك ذات الشيء.

الثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له أو نفي شيء هو منفي عنه.

فالأول منهما يتعدى الى مفعول واحد والثاني يتعدى الى مفعولين إستعمل العلم بكلا المعنيين في القرآن.

فَمِنَ الْأَوَّلِ: قوله تعالى: **لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ**^(١).

مِنَ الثَّانِي: قوله تعالى: **فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ**^(٢).

فالمعنى في الأول لا تعلمون ذواتهم، الله يعلمهم كذلك.

وفي الثاني حكم عليهن بوجود الإيمان وهو موجود لهن فالمعنى فإن وجدتموهن مؤمنات اذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير الآية فنقول قوله تعالى: **وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا** من قبيل الثاني لا الأول، بمعنى أن العلم فيه ليس بمعنى إدراك ذات الشيء، حتى يصير ظهوره في الخارج فإن الآثار الخارجية مترتبة على الوجود الخارجي ألا ترى أن المكلف اذا كان مؤمناً بقلبه فاسقاً بعمله لا يثاب على إيمانه القلبي وأتما يثاب عليه اذا أظهره في قالب القول والعمل ولذلك قال رسول الله قولوا **لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلَحُوا**، ولم يقل اعتقدوا **لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلَحُوا**، لأن التقول به إظهاره باللسان كما أن العمل إظهاره بالجوارح

والأركان وحيث أنَّ الظهور والإظهار محتاج إلى السبب الداعي إليه جعل الله الإختبار والإمتحان سبباً له ومن ذلك مداولة الأيَّام بين النَّاس وعلى هذا فيصير معنى الآية تلك الأيَّام نداولها بين النَّاس ليظهر الله إيمان المؤمنين في أعمالهم بسبب مداولة الأيَّام بينهم أو ليحكم الله لهم بالإيمان لأنَّ الجزاء أو الثَّواب مترتَّب على وجود الإيمان في الخارج في قالب الألفاظ والأعمال لا على ما هو موجود في علم الله في الواقع ونفس الأمر، وعليه يحمل قول من قال أنَّ العلم بمعنى الإعلام لأنَّ الإعلام الإظهار هذا ما فهمناه من كلامه تعالى وهو تعالى أعلم بما قال وحيث إنَّجر الكلام إلى هنا فلا بأس بالإشارة إلى بعض ما قاله أهل التَّحقيق في تفسير كلامه تعالى.

قال صاحب تفسير الميزان أمَّا قوله: **وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا** فالمراد به ظهور إيمان المؤمنين بعد بطونه وخفائه فأَنَّ علمه تعالى بالحوادث والأشياء في الخارج عين وجودها فيه إلى أن قال ولازم ذلك أن يكون إرادته تعالى العلم بشيْء هي إرادة تحقُّقه وظهوره حيث قال: **وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا** فأخذ وجودهم محققاً أفاد ذلك إرادة ظهور إيمانهم إلى آخر كلامه.

أقول قوله ولازم ذلك أن يكون إرادته تعالى العلم بشيْء هي إرادة تحقُّقه وظهوره ليس على ما ينبغي للزُّومه أن يكون علمه بالشَّيْء هو تحقُّقه وظهوره في الخارج وليس كذلك إذ يمكن أن يكون الشَّيْء معلوماً له تعالى ولا يكون موجوداً فأَنَّ المعلوم أعم من الموجود وللبحث فيه مقام آخر.

ونقل صاحب تفسير المنار عن إستاذه الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدَه أَنَّهُ قال والنَّكتة بيان العلم إذا لم يصدِّقه العمل لا يعتدَّ به وبيان ذلك أنَّ الإنسان كثيراً ما يتصوَّر الشَّيْء ويحكم بصَّحته فيرى أَنَّهُ يعتقده ولكن إذا عرض العمل كذبه في اعتقاده وتبيَّن أَنَّهُ لم يَكُن متحقِّقاً به وأنما كانت صورة إنطبعَت في مخِّه مع الغفلة عمَّا يعارضها إلى آخر ما قال توضيحاً لكلامه الَّذي زَعَم أَنَّهُ قابل

للتَّوْضِيحِ إِلَى أَنْ قَالَ فَأَرَادَ تَعَالَى أَنْ يَرشِدَنَا بِقَوْلِهِ: **لِيَعْلَمَ** إِلَى أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَكُونُ عِلْماً وَالْإِيمَانَ لَا يَكُونُ إِيْمَاناً إِلَّا إِذَا صَدَّقَهُمَا الْعَمَلُ وَظَهَرَ أَثَرُهُمَا بِالْفِعْلِ فَكَأَنَّهُ قَالَ، لِيَتَبَيَّنَ الَّذِينَ آمَنُوا، عَلَى طَرِيقِ التَّمَثِيلِ انْتَهَى.

ثُمَّ قَالَ تَلْمِيْذُهُ صَاحِبُ الْمَنَارِ بَعْدَ نَقْلِهِ مَا نَقَلْنَاهُ عَنْهُ، وَأَظْهَرَ مِنْ هَذَا فِي تَقْرِيرِ هَذَا الْوَجْهِ أَنْ يُقَالَ أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَكُونُ إِلَّا مُطَابِقاً لِلْوَاقِعِ فَمَا لَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي لَيْسَ لَهُ حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ فَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مَعْلُوماً لَهُ تَعَالَى فَيَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ: **لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا** لِيُثَبِّتَ وَيَتَحَقَّقَ بِالْفِعْلِ إِيْمَانُ الَّذِينَ آمَنُوا أَوْ صَدَقَهُمْ فِي إِيْمَانِهِمْ فَإِنَّهُ مَتَى ثَبَّتَ وَتَحَقَّقَ كَانَ اللَّهُ عَالِماً بِهِ عَلَى أَنَّهُ حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ فَأُطْلِقَ أَحَدَ الْمُتَلَازِمِينَ وَأَرَادَ بِهِ الْآخَرَ عَلَى طَرِيقِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ انْتَهَى كَلَامُهُ ^(١).

أَقُولُ وَفِي كَلَامِ الْقَوْلَيْنِ نَظَرُ أَمَّا مَا نَقَلَهُ عَنْ إِسْتَاذِهِ مِنْ أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَكُونُ عِلْماً إِلَّا إِذَا صَدَّقَ الْعَمَلُ فَفِيهِ أَنَّهُ يُلْزَمُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ تَابِعاً لِلْعَمَلِ وَجُوداً وَ عِدْماً كَلَامٍ لَمْ نَسْمَعْهُ إِلَى الْآنَ وَلَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ فَأَنَّ الْعِلْمَ عِبَارَةٌ عَنْ إِنْكَشَافِ الْوَاقِعِ وَأَنْ شَتَّ قَلْتَ الْعِلْمَ الْإِدْرَاكَ عَلَى مَا مَرَّ الْبَحْثُ فِيهِ وَلَا رِبْطَ لَهُ بِالْعَمَلِ هَذَا أَوَّلًا وَأَمَّا ثَانِيًا أَنَّ مَا ذَكَرَهُ لَوْ تَمَّ فَهُوَ فِي عِلْمِنَا بِالْأَشْيَاءِ وَلَا بَحْثَ لَنَا فِيهِ وَأَتَمَّا الْبَحْثُ فِي عِلْمِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ: **لِيَعْلَمَ اللَّهُ** وَكَيْفَ يَكُونُ عِلْمُهُ تَعَالَى بِالْأَشْيَاءِ تَابِعاً لِلْعَمَلِ أَوْ لَا يَكُونُ عِلْماً إِلَّا إِذَا صَدَّقَهُ الْعَمَلُ، اذْ لِقَائِلَ أَنْ يَقُولَ أَنْ كَانَ مُرَادُهُ مِنَ الْعَمَلِ عَمَلُ الْعَبْدِ فَيُلْزَمُ أَنْ يَكُونَ عِلْمُهُ تَعَالَى تَابِعاً لِعَمَلِ الْعَبْدِ كَانَ مُرَادُهُ عَمَلُ اللَّهِ فَلَا نَفْهَمَهُ، وَأَمَّا قَوْلُ صَاحِبِ التَّفْسِيرِ حَيْثُ قَالَ فَإِنَّهُ مَتَى ثَبَّتَ وَتَحَقَّقَ كَانَ اللَّهُ عَالِماً بِهِ عَلَى أَنَّهُ حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ، فَفِيهِ أَنَّ مَفْهُومَ هَذَا الْكَلَامِ هُوَ أَنَّهُ مَتَى لَمْ يُثَبِّتْ وَلَمْ يَتَحَقَّقْ الْإِيْمَانُ بِالْفِعْلِ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ عَالِماً بِهِ بَلْ كَانَ عِلْمُهُ جَهْلًا وَلَمْ يَعْلَمْ هَذَا الْقَائِلُ أَنَّ بَيْنَ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَحَقُّقِ الْإِيْمَانِ وَظُهُورِهِ لِلْعَبْدِ لَيْسَ رَابِطَةُ الْعِلَّةِ وَالْمَعْلُولِ.

وثانياً متى تحقّق وثبت الإيمان مثلاً كان الله عالمًا بتحقيقه وثبوته ومتى لم يثبت ولم يتحقّق كان عالمًا بعدمه لا أنّه ليس عالمًا به كما زعم القائل و الفرق موجود بين العلم بعدم الشّي وعدم العلم به فعلى قوله يلزم عدم علم الله في صورة عدم تحقّق الإيمان وجوده في صورة وجوده وهو بعينه كلام إستاذة إلا أنّه غير العبارة فيلزم أن يكون علم الله تابعاً لمعلومه وقد بيّنا فسادة نقول لهما:

إذا لم تستطع أمراً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع
ولنختم الكلام في هذا المقام فأبّ بحث العلم ولا سيّما في حقّه تعالى من اغمض المسائل واصعبها الأهمّام وقد تحيّرت فيه عقول الفلاسّة فضلاً عن المتفلسفين وسيأتى البحث فيه في ذيل الآيات النازعة في علمه تعالى في المستقبل انشاء الله وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ الْوَاوِ لِلْعَطْفِ أَي تِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ليظهر إيمانهم ويتّخذ منهم شهداء وقيل الواو زائدة، و قوله: مِنْكُمْ يجوز أن يتعلّق بـيَتَّخِذَ أي ويتّخذ منهم شهداء ويجوز أن يكون حالاً من، شهداء أي ويتّخذ الشّهداء حال كونهم منهم، ثمّ أنّ قوله: شُهَدَاءَ جمع شهيد والمراد به الشّهادة في القتال وهي أن يقتل المؤمن في سبيل الله مدافعاً عن الحقّ قاصداً إعلاء كلمته وقيل أنّ المراد بها الشّهادة على النّاس يوم القيامة كقوله تعالى: لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ والأوّل انصب بالمقام و أسبق الى الذّهن من الثّاني وذلك لأنّ الآية نزّلت في مقام التسلية للمؤمنين في غزوة أحد على المشهور وقد شهد فيها من شهد من المسلمين وإنّما سُمّي من قتل بسيف الكفّار شهيداً لوجوه:

أحدهما: أنّ الشّهداء أحياء لقوله تعالى: بَلْ أَحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ^(١)
فأرواحهم حيّة وقد حضرت دار السّلام وأرواح غيرهم لا تشهدوا.

الثاني: أن الله والملائكة شهدوا لهم بالجنة فالشَّهيد، فاعِل، بمعنى مفعول أي أنهم المشهود لهم بالجنة.

الثالث: لأنهم كما قتلوا أدخلوا الجنة بدليل أن الكفار كما قالوا أدخلوا النار قال الرازي في تفسيره لهذه الآية.

المسئلة الثانية: أصبح أصحابنا بهذه الآية على أن جميع الحوادث بإرادة الله تعالى فقالوا منصب الشهادة على ما ذكرتم فإن كان يمكن تحصيلها بدون تسليط الكفار على المؤمنين بم يبق لحسن التعليل وجه وأن كان لا يمكن فحينئذ يكون قتل الكفار للمؤمنين من لوازم تلك الشهادة فإذا كان تحصيل الشهادة مطلوباً لله تعالى وجب أن يكون ذلك القتل مطلوباً لله تعالى وأيضاً فقلوه: وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ تخصيص على أن ما به حصلت تلك الشهادة هو من الله تعالى وذلك يدل على أن فعل العبد خلق الله تعالى إنتهى كلامه. والجواب عنه أن الإرادة منه تعالى على قسمين تكويني وتشريعي فقلوه أن جميع الحوادث بإرادة الله صح في التكوينات وهي التي يعبر عنها أحياناً بالأمر الإيجادي فإذا أراد الله شيئاً أن يقول: لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فالحوادث الموجودة بأمر الله تعالى مسبوقة بإرادته إذ لو لم يرد لم يأمر وهو واضح وأما في التشريعات فليس كذلك لأن بين الأمر التشريعي وفعل العبد واسطة إختيار العبد أن شاء فعل وأن لم يشاء لم يفعل والأمر بالجهاد تشريعي لا تكويني ألا ترى أن العبد قد يتخلف عن الجهاد كما يتخلف عن الصلاة والصوم والحج وغيرها وإذا كان الأمر على هذا المنوال فكون الشهادة مطلوباً لله تعالى ليس على إطلاقه بل هي مطلوبة له تعالى إذا إختاره العبد بطيب نفسه قرابة إلى الله وأما إذا حصلت بداع آخر فهي لا تسمى بها بل تسمى قتلاً، ولذلك لو قتل في المعركة بداع آخر من الدواعي لا يكون شهيداً هذا في جانب النهي التشريعي فإن الله نهى الكفار عن قتل المؤمنين ولم يجبرهم عليه تكويناً حتى لا يقدرُوا على ترك القتل بل جعلهم مختارين في قتل المؤمن وعدمه فمن إختار القتل

إنما إختاره بإرادته وميله و من إختار عَدَمه فلذلك و محصّل الكلام هو أن الرّازي و أمثاله من الأشاعرة خلطوا بين الإرادتين فحيث رأوا قوله تعالى: إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(١) زعموا أن الأمر في التّشريعات أيضاً كذلك فقالوا بالجبر مضافاً إلى أن قولهم هذا لو صحّ يلزم أن لا يكون العبد مريداً في شيء إذ المفروض أن جميع الحوادث بإرادة الله، فأين إرادة العبد ثم كيف يعاقب العبد على فعل صدر عنه بالإجبار وهكذا في جانب الثّواب فإذا يلزم منه بطلان الثّواب والعقاب جميعاً وهو كما ترى، و أمّا قوله فأن كان يمكن تحصيلها بدون تسلّط الكفّار على المؤمنين لم يبق لحسن التعليل وجه، فهو غريب جداً، وذلك لأنّ أفعال العباد في هذه الدّنيا ناشئة من أسبابها التكوينية فقد يكون الكافر مسلّطاً على المؤمن وقد يكون بالعكس لقوله تعالى: تِلْكَ الْآيَاتُ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ أي نداولها بينهم على أساس الأسباب والمسببات لا على أساس الجبر والإضطرار ففي غزوة بدر كان المسلمون مسلّطين على الكفّار وفي غزوة أُحُد بالعكس مثلاً والوجه فيهما معلوم لا خفاء فيه فكيف يعقل إستيناده إلى إرادة الله فقط ثم كيف يمكن أن يقال أن الله سلّط الكفّار على المسلمين في أحد ومن المعلوم أنّهم أنفسهم سلّطوا الكفّار حيث خالفوا أمر النبي ﷺ وهو أمر الله تعالى فمن آمن بالله وباليوم الآخر لا يقول أن الله سلّط الكفّار على المسلمين جبراً وكرهاً مضافاً إلى أن الكفّار أيضاً مكلفون بالفروع أي الأوامر والنّواهي وليسوا مجبورين في أفعالهم لثبوت الإختيار لهم أيضاً فالأوامر والنّواهي من الله تعالى والعمل من العبد المختار سواء كان مؤمناً أو كافراً و اذا كانت إرادة العبد واسطة بين إرادة الله وفعل العبد فهو مختار وهو المطلوب.

وقال القرطبي في قوله: وَ يَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ دليل على أن الإرادة غير الأمر كما يقوله أهل السنّة فإنّ الله تعالى نهى الكفّار عن قتل المؤمنين حمزة و

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

أصحابه وأراد قتلهم ونهى آدم عن أكل الشجرة وأراد فواقعه آدم وعكسه أنه أمر إبليس بالسجود ولم يرده فأمتنع منه وعنه وقعت الإشارة بقوله تعالى: **وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ**^(١) وأن كان قد أمر جميعهم بالجهاد ولكنه خلق الكسل والأسباب القاطعة عن المسير فقعوا إنتهى.

أقول لم يعلم القرطبي أن الإرادة غير العلم فقال أن الإرادة غير الأمر ولو علم يقال أن العلم غير الأمر وذلك لأنه تعالى علم أن حمزة يقتل مثلاً بأيدي الكفار لأنه أراد قتله وكذلك نهى الكفار عن قتل المؤمنين مع العلم بأنهم لا ينتهون بسوء إختيارهم إذ كانوا قادرين على الإنتهاء وعلمه تعالى ليس علّة لوجود الفعل من العبد وهكذا في قصة آدم وإبليس فإن الله تعالى نهى آدم عن أكل الشجرة مع علمه بأنه يأكل منها بإختياره لا على أساس علمه تعالى و أمر إبليس بالسجود مع علمه بأنه لا يسجد بإختياره، إن قلت فما فائدة الأمر و التّهي مع علمه بمخالفة العبد إياه، قلت فائدته الإختبار لأنه تعالى لم يسلب عن العبد القدرة على المخالفة ثم أمره بل أمره أو نهاه مع وجود القدرة على الفعل و التّرك في العبد إذ لو أراد الله شيئاً ثم أمر العبد لا يمكن تخلف الإرادة عن المراد في التكوينيةات و أما في التشريعيةات فلا إشكال فيه كما مرّ فقوله تعالى: **وَيَتَّخِذْ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ** بإختياركم وإنتخابكم الشّهادة والجهاد في سبيل الله وهو واضح **وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** قالوا أي المشركون، ولا دليل عليه إذ الظالم مبعوض له تعالى أينما وجد وخصوص المورد لا ينافي عموم الحكم كما مرّ مراراً أنه تعالى لا يحب الظالمين فلا الظالم لا يحبه إلا الظالم، و حيث أن الله تعالى منزه عن الظلم فلا يحبه وإذا لا يحب الظلم فلا محالة لا يحب المتّصف به أيضاً وهو المطلوب.

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ فيه أقوال:

أحدها: معنى يمحصّ، يختبر.

الثاني: معناه، يطهر أي من ذنوبهم فهو على حذف المضاف أي وليمحصّ الله ذنوب الذين آمنوا قاله القراء.

الثالث: أي يخلص ومنه، اللهم محصّ عنا ذنوبنا، أي خلصنا من عقوباتها قاله الخليل وأما قوله: **وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ** أي يستأصلهم بالهلاك، أقول أصل المحصّ تخلص الشيء ممّا فيه عيب كالفحص لكنّ الفحص يقال في إبراز شيء من أثناء ما يختلط به وهو منفصل عنه، والمحصّ يقال في إبرازه عمّا هو متّصل به يقال محصّت الذهب ومحصّته اذا أزلت عنه ما يشوبه من خبث فالتمحيص هاهنا كالتركية والتطهير ونحو ذلك من الألفاظ، وأما المحقّ فهو النقصان ومنه المحاق لأخر الشهر ومعنى الآية ليخلصّ الله المؤمنين و ينقصّ الكافرين وقيل في تمحيص المؤمنين بالمداولة قولان:

أحدهما: لما في تخليتهم مع تمكين الكافرين منهم من التعريض للصبر الذي يستحقّون به عظيم الأجر ويحطّ كثيراً من الذنوب

الثاني: لما في ذلك من اللطف الذي يعصم من إقتراف المعصية.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ.

أم بمعنى بل وقيل، الميم زائدة والمعنى أحسبتم يا من إنهزم يوم أحد أن تدخلوا الجنة كما دخل الذين قتلوا وصبروا على ألم الجراح والقتل من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم، لا يكون كذلك حتّى يعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ أي حتّى، يظهر المجاهد عن غيره وقد تكلمنا في معنى العلم في قوله: **لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا** بما لا مزيد عليه فالكلام هنا كالكلام هناك وذلك لأنّ الله تعالى كان عالماً بمن يجاهد ومن لا يجاهد من الأزل إلا أنّ هذا المعلوم لا بدّ له من الوجود في الخارج بإختيار المكلف ليتربّب عليه الجزاء

لأنه لا يترتب على ما لا يوجد فيه و أن كان موجوداً في علم الله، وقال صاحب الكشاف، أم، منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ بمعنى، ولَمَّا تجاهدوا، لأن العلم متعلق بالمعلوم فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه لأنه منتفٍ بانتفاءه يقول الرجل ما علم الله في فلان خيراً، يريد ما فيه خير حتى يعلمه، ولَمَّا، بمعنى، لم، إلا أن فيها ضرباً من التوقع فدل على نفي الجهاد فيما مضى وعلى تَوَقُّعه فيما يستقبل، وتقول وعدني أن يفعل كذا ولما تريد ولم يفعل وأنا أتَوَقَّع فعله انتهى كلامه.

أقول ما ذكره صاحب الكشاف من أن نفي العلم بمنزلة نفي متعلقه المعلوم، لا معنى له لأنه تعالى لم ينف العلم بالكلية بل نفاه عن بعض وأثبته لبعض آخر إذ من الواضح أن بعضهم جاهدوا، والبحث في المقام يتعلق بهم أيضاً وظاهر أن متعلق العلم في حقهم مثبت لا منفي فكيف يقول نزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه لأنه منتفٍ بانتفاءه والمفروض أن بعض الذي يتعلق به العلم قد وجد والحق أن صاحب الكشاف رجل بصير بالأدب خبيرٌ باللغة ومحاسن الكلام من حيث الفصاحة والبلاغة ولكنه ليس اهلاً لهذه المباحث الدقيقة العقلية لكونه اجنبياً عنها والآ لم يعقل ما قال من أن نفي العلم نزل منزلة نفي متعلقه وإي ربط بين العلم ومتعلقه وجوداً أو عدماً وقال صاحب تفسير المنار بعد نقله عن صاحب الكشاف ما نقلناه ما هذا لفظه وقد اعترضه من لم يفهمه حق الفهم ثم قال وقد تقدّم أن النقطة في إثبات ذكر العلم وإرادة المعلوم هي الإشعار بأن العلم أنما يكون علماً صحيحاً بظهور متعلقه بالعمل وهاهنا نكتته أخرى خطرت بالبال وهي أن التعبير عن نفي ذلك بنفي علم الله به عبارة عن دعوى مقرونة بالدليل والبرهان كأنه قال أن كلاً من الجهاد والصبر اللذين هما وسيلة إلى دخول الجنة لما يقع منكم أي لم يقع إلى الآن من مجموعكم أو أكثركم بحيث صار يعدّ من شأن الأمة فلا ينافي ذلك وقوعه من

بعض الأفراد الذين ثبتوا مع النبي فلم يخالفوا ولم يهنؤوا اذ لو وقع لعلمه الله تعالى الذي لا يخفى عليه شيء ولكنه لما لم يعلمه فهو لم يتحقق قطعاً انتهى.

أقول ما ذكره صاحب المنار على ما خطر ببالي لا يرفع الإشكال عن الآية أيضاً بالتقريب الذي مر ذكره عند قوله: **وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا** فلا تُعِيد الكلام بذكره ثانياً فالمعنى ليظهر الله الذين آمنوا وفي المقام ولما يظهر الذين جاهدوا منكم جهادهم ويظهر الصابرين صبرهم فالعلم في الجميع بمعنى الظهور أي ظهور الواقع في عالم الخارج وذلك لأن العلم في الحقيقة بمعنى الظهور أي ظهور المدرك لدى المدرك إلا أن هذا الظهور تارة يكون واقعياً و تارة يكون خارجياً فكأنه قيل أيها المسلمون لا تصلون الى أعلى المقامات ولا تدخلون الجنة إلا أن يظهر منكم في الخارج ما هو موجود في علم الله بالطوع والرغبة والإختيار والإخلاص وذلك لأن علم الله تعالى في الأزل بجهاذكُم وإيمانكم وصبركم وشهادتكم ليس علة تامة لوجود هذه الأشياء في الخارج و صدورهما منكم لوجود الوسطة بين علم الله في الأزل وبين وجودها في الخارج والوسطة هي الإختيار فالكلام يدل على نفي الجبر وثبوت الإختيار.

أن قلت أليس الله عالماً بصدور الفعل عن العبد في الخارج وعدمه ولو كان الصدور على أساس الإختيار، فأن كان كذلك فما فائدة الكلام.

قلت نعم أن الله لا يخفى عليه شيء وأما فائدة الكلام فهي إرشادهم الى الصلاح في دار التكليف إتماماً للحجة والله أعلم.

وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ.

فسرّوا الموت في الآية بالشهادة أي لقد كنتم تمنّون الشهادة قالوا والوجه فيه أن كثيراً ممن لم يحضروا بداراً كانوا يتمنون يوماً يكون فيه قتال فلما كان

وقيل تنظرون في فعلكم الآن بعد إنقضاء الحرب هل وقيتم أو خالفتم، و
على هذا فلا تكون الجملة حالية بل هي مستأنفة فالأخبار أتت بها على سبيل
التوبيخ فكأنه قيل وأنتم حسباء أنفسكم فتأملوا قبح فعلكم فهذه الآية كانت
صيغتها صيغة الخبر فمعناها العتب والإنكار على من إنهزم يوم أحد وهم
الأكثر.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ
 أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ
 يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَ
 سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ
 أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُوَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ
 ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ
 نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّنْ
 مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا
 أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا
 اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا
 كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
 وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى
 الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَاتِيهِمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا
 وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ
 الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)

◀ اللغة

خَلَتْ: أى مصت واصل الخلاء المكان الفرى لاساترفيه من بناء و مساكن
 و غيرهما و الخلو يستعمل فى الزمان و المكان لكن كنى لمالصور فى الزمان
 الضى فسر اهل اللغة خلا الزمان بقولهم مظى .
 انْقَلَبْتُمْ: قلب الشئ تصريفه و صرفه عن وجه الى وجه كقلب الثوب و قلب
 الإنسان، و الانقلاب، الإنصراف، و هو مصدر من انْقَلَبَ إنقلاباً.

أَعْقَابِكُمْ: الْعَقَبُ مؤَخَّرُ الرَّجُلِ وقيل عقب بسكون القاف وجمعه أعقاب يقال ويلٌ للأعقاب من النار، قال الزاغب وإنقلب على عقبه نحو رجع على حافرتة.

مُؤَجَّلًا: إسم مفعول من أَجَلَ ومصدره التَّأجيل وهو مأخوذ من الأجل وهو المدة المضروبة للشئ.

رَبِّيُّونَ: بكسر الراء جمع ربِّي وهو عابد الرب وكسر الراء من تغيير النسب كما قالوا، امسي بكسر الألف في النسبة إلى الأمس وقيل هو منسوب إلى الربة الجماعة ثم جمع بالواو والتون قاله الزجاج وقيل الجماعة الكثيرة قاله يونس بن حبيب وقال الضحاك الرَبِّيُّون جمع الرَبِيَّة وقيل الزاغب في المفردات الرَّبِّي كالرَّبَّاني والرَّبَوِيَّة مصدر يقال في الله عز وجل والرَّبَايَة يقال في غيره

فَمَا وَهَنُوا: الوهن الضعف والباقي واضح.

◀ الإعراب

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ في موضع رفع صفة لرَسُول ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في رسول، ومن، متعلقة بخلت، ويجوز أن يكون حالاً من الرُّسُل أَفَإِنْ الهمزة في موضعها والفاء تدل على تعلق الشرط بما قبله عَلَيَّ أَعْقَابِكُمْ حال أي راجعين وما كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ أَنْ تَمُوتَ إسم كان إلا بِإِذْنِ اللَّهِ خبره واللام للتبيين متعلقة بكان، كتاباً، مصدر كَأَيِّنْ قالوا وهي أصل الكلمة اذ هي، أي، دخل عليها كان التشبيه وكتبت، بنون في المصحف معَهُ رَبِّيُّونَ في موضع الحال من الضمير في، قتل.

◀ التفسير

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ إلى قوله: وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ

قيل أنها نزلت بسبب إنهمام المسلمين يوم أحد حين صاح الشيطان قد قتل محمد وذلك لما رمى عبد الله بن قمئة الحارثي رسول الله ﷺ بحجر فكسر ربايعته وشج وجهه أقبل يريد قتله فذّب عنه ﷺ مصعب بن عمير وهو صاحب الزاية يوم بدر ويوم أحد حتى قتله ابن قمئة وهو يرى أنه رسول الله فقال قد قتلت محمدًا وصرخ صارخ ألا أن محمدًا ﷺ قد قتل وقيل كان الصارخ الشيطان ففشا في الناس خبر قتله فإتكفوا فجعل رسول الله ﷺ يدعو، إلي عباد الله حتى إنحازت اليه طائفة من أصحابه فلامهم على هربهم فقالوا يا رسول الله فديناك به آبائنا وأمّهاتنا أتانا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين فنزلت الآية.

وروي أنه لما صرخ الصارخ قال بعض المسلمين ليت عبد الله بن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين لو كان نبياً لما قُتل أرجعوا الى أخوانكم والى دينكم فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك يا قوم أن كان قتل محمد فأَنْ رَبَّ محمد حي لا يموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه ثم قال اللهم أني أعتذر اليك ممّا يقول هؤلاء وأبرأ اليك ممّا جاء به هؤلاء ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل وعن بعض المهاجرين أنه مرّ بأنصاري يتشطح في دمه فقال يا فلان أشعرت أن محمدًا قد قتل فقال أن كان قتل فقد بلغ قاتلوا على دينكم هذا ما قالوه في سبب نزول الآية ونقل عن ابن القيم في بيان حكم هذه الواقعة هذه الآية كانت مقدمة وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله ﷺ وذكر أن التوبيخ للذين إرتدوا على أعقابهم بهذه الآية قد ظهر أثره يوم وفاة النبي فقد إرتد من إرتد على عقبه وثبت الصادقون على دينه حتى كانت العاقبة لهم قال بعض المفسرين بعد نقله ما نقلناه عنه، ولا ينافي هذه الحكمة كون الواقعة قبل وفاته ببضع سنين لأن غزوة أحد كانت في السنة الثالثة من الهجرة فأَنْ توطين

نفس الأمة الكبير على الشئ وإعدادها له لا يكون قبل وقوعه بيوم أو أيام أو شهر بل لابد فيه من يكفي لتعميمه فيها وصيرورته من الأمور المسلمة المشهورة عندها حتى لا يغيب عن الأذهان انتهى كلامه.

و أنا أقول لا شك أن الآية نزلت في غزوة أحد و أما شمولها لما وقع يوم وفاته ﷺ من عمر بن الخطاب وأمثاله فلا ينافي خصوص مورده كما هو شأن الآيات كلها بل هو من معجزات القرآن فإنه لم ينزل لزمان خاص أو جماعة خاصة بل نزل لجميع الأزمنة والأمكنة والأشخاص الى يوم القيامة و أما قصة عمر يوم وفاته ﷺ فسيأتي الكلام فيها فأنها ليست من الوقائع بل هي كانت نزعة سياسية مرتبطة بالسقيفة اذا عرفت هذا سبب النزول فلنرجع الى تفسير الآية فنقول في الآية مسائل:

الأولى: قوله: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ كَلِمَةً مَا، للنفي بمعنى ليس قدمت على المبتدأ ونفت عنه جميع الأوصاف ثم إستثنى من المنفي أعني به أوصاف الرسول الرسالة فصار المستثنى مثبتاً لأن الإستثناء من المنفي يفيد الإثبات على وجه الحصر وهو من حصر الموصوف على الصفة والمعنى ليس محمد ﷺ إلا رسول و أنما قلنا بالحصر لأنك اذا قلت ما زيد إلا عالم فقد حصرت زيدا في العلم بخلاف ما اذا قلت زيد عالم فلا حصر فيه ولذلك لم يقل محمد رسول الله، مثلاً وأنما ذكر في الآية الرسالة دون غيرها من الصفات وحصره فيها لأن الرسالة فوق جميع الصفات بل كل الصفات داخله تحتها فأمر الرسول جامع لكل الصفات الكمالية ثم أن هذه الآية مرحت برسالة كغيرها من الآيات.

قال الله تعالى: مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ^(١).

قال الله تعالى: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ
رُحَفَاءُ بَيْنَهُمْ^(١).

قال الشاعر:

يا خاتم النبأ أنك مُرسلٌ بالخير كلُّ هُدى السبيل هُداكا
أنَّ الإلهَ بَنى عليك محبةً في خلقه ومُحمداً أسماكا
وقال غيره:

لقد طابت الدنيا بطيب محمدٍ وزيدت به الأيام حسناً على حُسنٍ
لقد فكَّ أغلال العتاة محمدَ وأنزل أهل الخوف في كنف الأمن
وقال ابن رزيك:

محمد خاتم الرُّسل الذي سبقت به بشارة قسٍ وابن ذي يزنٍ
وأنذر النُّطقاء الصادقون بما يكون من أمره والطُّهر لم يكن
الكامل الوصف في حلم وفي كرم والطَّاهر الأصل من دأَم ومن درنٍ
ظَلَّ الالاه ومفتاح التَّجاة وينبوع الحياة وغيث الغارض الهتن
فأجعله ذخرك في الدارين مُعتصماً به وبالمرتضى الهادي أبي الحسن

الثانية قوله: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وفيه إشارة الى أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ

رسول كمن مضى من الرسل بلَغ عن الله كما بلَغوا وليس بقاء الرسل شرطاً في بقاء شرائعهم بل هم يموتون وتبقى شرائعهم وأيضاً الى أنه لم يكن أول الرسل الرسالة منحصرة فيه وفي قوله: قَدْ خَلَتْ إشارة الى أنَّ الأنبياء قبله كانوا مبعوثين الى الخلق من قبل الله تعالى فيجب الإيمان بهم كما يجب الإيمان به ﷺ فأنَّ حكم الأمثال واحد في الخلق والموت.

الثالثة قوله: أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ أي أفإن مات مُحَمَّدٌ بالموت الطَّبِيعِي أو قتل في الحرب وغيرها كغيره ممَّن قتل إنقلبتم

في آيات القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

على أعقابكم، أي تنقلبون على أعقابكم فهو ماضٍ معناه الإستقبال لأنه مُقيد بالموت أو القتل قال يونس همزة الإستفهام دخلت في التقدير على، إنقلبتم وحيث أنَّ الماضي بمعنى المضارع فالتقدير، أتقلبون على أعقابكم أن مات محمد وبقول يونس قال كثير من المفسرين في الآية وذلك لأنَّ ألف الإستفهام دخلت في غير موضعها لأنَّ الغرض إنما هو، أتقلبون على أعقابكم أن مات محمد ودخلت (إن) هنا على المحقق وليس من مظانها لأنه أورد مورد المشكوك فيه للتردد بين الموت والقتل وتجوز قتله ﷺ عند أكثر المخاطبين ألا ترى اليهم حين سمعوا أنه قتل اضطربوا وفرّوا وأنقسموا إلى ثلاث فرق، فرقة قالت ما نضع بالحياة بعد رسول الله ﷺ قاتلوا على ما قاتل عليه فقاتلوا حتّى قتلوا وفرقة قالوا لنقي اليهم بأيدينا فأنهم قومنا وبنو عمنا، وفرقة أظهرت التفاف وقالوا إرجعوا إلى دينكم الأول فلو كان محمد نبياً ما قُتل وظاهر الانقلاب على العقبين هو الإرتداد وقيل هو بالفرار وقال الراغب في المفردات الانقلاب الإنصراف ومنه قوله: **أَنْتَقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ** وقوله: **إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ**، وإذا انقلبوا إلى أهلهم إنقلبوا فاكهين، وأمثال ذلك من الآيات، ثم أنَّ في الآية توبيخ وإنكار على من ينقلب على عقبيه وذلك لأنَّ الهمزة هي همزة الإستفهام الذي معناه الإنكار أي لا تنقلبوا على أعقابكم أن مات أو قُتل الرسول والسرّ العقلي في هذا الحكم هو أنَّ المؤمن بالرسول مؤمن به من حيث أنَّه رسول الله ومبلغ أحكامه إلى الخلق وأن شئت قلت من حيث أنَّه واسطة بين الخالق وخلقه فإذا مات الرسول فقد مات مبلغ الحكم ولا يلزم منه موت الحكم عقلاً وإذا كان الحكم باقياً بالإيمان به أيضاً باق على حاله وهو المطلوب.

الرابعة: قوله: **وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنَ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** أي أنَّ المنقلب على عقبيه لن يضر الله شيئاً بل يضر نفسه

لأنَّ الله تعالى غير محتاج الى عبادة العبد لكونه غنياً على الإطلاق فلو كان محتاجاً كان ممكناً لأنَّ الاحتياج من لوازم الممكن قال أمير المؤمنين عليه السلام أنَّ الله تبارك وتعالى خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم لأنَّه لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه الخ وسيجزي الله الشَّاكِرِينَ لنعمة الدين يوم القيامة بأحسن الجزاء والمقصود من الشَّاكرين الذين بقوا على الدِّين بعد موت النبي صلى الله عليه وآله ولم ينقلبوا على أعقابهم وهم الأفلون من أصحابه صلى الله عليه وآله قال الله تعالى: **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ** قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية.

الثانية هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصديق وجرأته فإنَّ الشَّجاعة والجرأة حدَّهما بثبوت القلب عند حلول المصائب ولا مصيبة أعظم من موت النبي صلى الله عليه وآله كما تقدَّم بيانه في سورة البقرة فظهرت عنده شجاعته وعلمه، قال النَّاسُ لم يمت رسول الله صلى الله عليه وآله منهم عُمر، وفرس عثمان، وإستخفى عليٌّ وإضطرب الأمر فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسَّنج الحديث كذا في البخاري ثمَّ قال وفي سنن ابن ماجة عن عائشة قالت لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وأبو بكر عند إمرأته إبنة خارجة بالعوالي فجعلوا يقولون لم يمت النبي صلى الله عليه وآله أنما هو بعض ما كان يأخذه الوحي فجاء أبو بكر فكشف عن وجهه وقبل بين عينيه وقال أنت أكرم على الله من أن يميته مرتين قد والله مات رسول الله: **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ** الآية قال عُمر فكأنِّي لم أقرأ هذه الآية إلا يومئذٍ ورجع عن مقالته التي قالها ثمَّ نقل عن أبي نصر الوائلي أنَّه قال: المقالة التي قالها ثمَّ رجع عنها هي أنَّ النبي صلى الله عليه وآله لم يمت ولن يموت حتَّى يقطع أيدي رجال وأرجلهم، وكان عمر قال ذلك يعظم ما ورد عليه وخشى الفتنة وظهور المنافقين فلما شاهد قوَّة يقين الصديق الأكبر أبي بكر وتفوهه بقول الله كلَّ نفس ذائقة الموت، وقوله:

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ^(١) وما قاله ذلك اليوم تنبه و تثبت وقال كَأَنِّي لَمْ أَسْمَعْ بِالْآيَةِ إِلَّا مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَخَرَجَ النَّاسُ يَتَوَلَّوْنَ فِي سَكِّكَ الْمَدِينَةَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا ذَلِكَ الْيَوْمَ انْتَهَى كَلَامُ الْقُرْطُبِيِّ.

وَأَنَا أَقُولُ قَوْلَهُ هَذِهِ الْآيَةُ أَذِلُّ دَلِيلٌ عَلَى شَجَاعَةِ الصَّدِيقِ وَجَرَائِهِ ثُمَّ تَفْسِيرُهُ الشَّجَاعَةُ بَشُوتِ الْقَلْبِ عِنْدَ حُلُولِ الْمَصَائِبِ كَلَامٌ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ.

أَمَّا أَوَّلًا: فَلَأَنَّ تِلَاوَةَ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لَا تَعْدُ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَإِلَّا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنْ يَتْلُو آيَةً مِنْهُ مَوْصُوفًا بِالشَّجَاعَةِ وَلَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ وَالْعَجَبُ مِنَ الْقُرْطُبِيِّ حَيْثُ تَمَسَّكَ فِي إِثْبَاتِ شَجَاعَةِ أَبِي بَكْرٍ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ شَجَاعَةَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ أَظْهَرُ مِنَ الشَّمْسِ وَأَبِينِ مِنَ الْأَمْسِ وَهِيَ مِمَّا يَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلَ فِي التَّوَارِيخِ أَلَمْ يَعْلَمْ الْقُرْطُبِيُّ أَنَّ الْإِسْلَامَ قَامَ بِسُيُوفِهِمْ وَهُوَ وَاضِحٌ لَا خِيفَةَ فِيهِ فَالْأَحْسَنُ فِي الْإِسْتِدْلَالِ عَلَى شَجَاعَةِ أَبِي بَكْرٍ وَأَخْوِيهِ بَيَانُ مَا أَظْهَرَ مِنْهُمْ فِي الْحُرُوبِ وَالْغَزَوَاتِ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ وَقَبْلَهُ وَبَعْدَهُ وَقَتْلُهُمُ الْمُشْرِكِينَ فِيهَا أَمْثَالُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِودِ وَالْوَلِيدِ وَمَرْحَبٍ وَغَيْرِهِمْ مِمَّا هُوَ مَسْطُورٌ فِي تَارِيخِ الْقُرْطُبِيِّ وَأَمْثَالُهُ وَلَا سَيِّمًا فِرَارِهِمْ فِي أَحَدٍ وَالتَّجَاوُهِمُ بِالْجَبَلِ وَاسْتِخْفَاؤُهُمْ وَإِضْطِرَابُهُمْ فِي زَوَايَا الْخُمُولِ وَقَوْلُهُمْ نَلْقَى إِلَيْهِمْ بِأَيْدِينَا فَأَتَتْهُمْ قَوْمَنَا وَبَنُوا عَمَّنَا وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي نَطَقُوا بِهَا وَعَلَى فَرَضِ أَنََّّهُمْ لَمْ يَنْطَقُوا بِهَا لَا شَكَّ أَنََّّهُمْ كَانُوا مِمَّنْ قَدَّمَ الْفِرَارَ عَلَى الْقَرَارِ وَقَدْ ذَكَرَهُ الْمُؤَرِّخُونَ وَرَسُولُ اللَّهِ بَيْنَ أَيْدِي الْمَشْرِكِينَ وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَلَا حَاجَةَ فِي إِثْبَاتِ شَجَاعَتِهِ بِتِلَاوَةِ الْآيَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى مَوْتِ الرَّسُولِ وَهُوَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ.

ثَانِيًا: أَنَّ تَفْسِيرَهُ الشَّجَاعَةُ بِبُشُوتِ الْقَلْبِ عِنْدَ حُلُولِ الْمَصَائِبِ لَمْ نَسْمَعْهُ مِنْ أَحَدٍ وَلَا يَسَاعِدُهُ الْعَقْلُ وَلَا الثَّقَلُ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَفْرُقْ بَيْنَ الصَّبْرِ وَالشَّجَاعَةِ وَهُوَ

دليل على قلة فهمه وبعده عن درك الحقائق وعدم إطلاعه على ما ذكره في كتب الأخلاق و من كان كذلك فكيف يخوض فيما ليس من أهله فأنا كان بثبوت القلب عند حلول المصائب، تفسير الشجاعة كما ذهب إليه الرجل فما معنى الصبر وما تفسيره أليس الصبر على ما ذكره علماء الأخلاق حبس النفس لمصيبة أن كان الصبر على المصيبة أو لطاعة أن كان الصبر على الطاعة أو لمعصية أن كان الصبر على المعصية وما نحن فيه من الصبر على المصيبة فالصبر عليها هو حبس النفس أو ثبوتها على المصيبة.

وأما الشجاعة فهي شدة القلب عند البأس ولذلك ربما يكون الرجل شجاعاً وليس بصبور وربما يكون صبوراً عند المصائب ولا يكون شجاعاً في الحروب وقد يكون شجاعاً في الحروب صبوراً في المصائب معاً كأمر المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وأما أبو بكر فلم يكن شجاعاً وهو معلوم أما كونه صبوراً فالله أعلم.

وأما قوله (قال الناس لم يمت رسول الله ومنهم عمر) وخرس عثمان، واستخفى علي وإضطرب الأمر فكشف الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسّج، فنقول أما قوله قال الناس لم يمت رسول الله ومنهم عمر، فكذب محض، وذلك لأن القائل علي ما نقلوه أنما كان عمر لا غيره فنسبة هذا القول إلى غير عمر لا دليل عليها إلا نقل القرطبي والبخاري أن صح نقله عنه قوله و فرس عثمان فهو حق لأنه كان كذلك في حياته أن كان حاضراً في المعركة، قوله واستخفى علي، فلم نسمعه إلى الآن إلا من القرطبي ولم يقل لم استخفى علي في تلك المعركة السياسية ولم يستخف في أحد حيث أحاط المشركون برسول الله وفرز المنافقون بل جاهد بين يدي الرسول حتى قال جبرائيل من الله تعالى «لا فتى إلا علي لا سيف إلا ذو الفقار» وقال لرسول الله، هي المواساة، فقال رسول الله أنا منه وهو مني فقال جبرائيل وأنا منكما،

فلو كان عليّ ممّن يستخفي لاستخفي في أحد فاراً من الجهاد والتجأ بالجبل و
 اضطرب و تزعزعت قدماء كغيره من المسلمين وحيث أنّه كان ثابتاً في مكانه
 ذاباً عن الرّسول و الإسلام كالجبل الرّاسخ علمنا أنّه ليس ممّن يستخفي كان
 هذا شأنه في الحروب كيف إستخفي عند تلاوة آية تلاها عمر و لأيّ شيء
 إستخفي أيّها الرّجل المعاند لأهل البيت الجاهل بالتّاريخ و السّير، أتقول أنّه
 إستخفي خوفاً من عمر، أو خوفاً من النّاس و ليس الموضع موضع خوفٍ نعم
 على فرض كونه عليّاً في المعركة لا يبعد قوله أيّاها بعد ماسمِع و علم أنّها
 نزعة سياسته تضحك بها الثكلى حياءٍ منه و هذا لا يقدر استخضاء و أمّا ما نقله
 عن ابي لفرأ الوائلي في المقالة التي قالهما عمر من محمداً لم يمّت و لن يموت
 الى آخر كلامه بأنّه كان قال ذلك لعظيم ما ورد عليه و خشى الفتنه و ظهور
 المنافقين الى آخر كلام الوائلي، ففيه أنّ هذا الاعتذار أقيح من الفعل و آية فتنه
 كان هناك خشى منها عمر و المفروض أنّه أي عمر أوجد الفتنه بمقالته يوافقه
 على هذا القول أحد فيما نعلم لأنّهم لم يعلموا غرضه من هذه المقالة و أفصح
 منه قوله خرج النّاس يتلونها في سكك المدينة كأنّها لم تنزل قطّ إلا ذلك اليوم،
 ألم يكن المسلمون يقرأون القرآن قبل ذلك حتّى خرجوا يتلونها في سكك
 المدينة كأنّها لم تنزل قطّ إلا ذلك اليوم، ما هذه الأراجيف، في تفسير كلام الله
 صدق رسول الله ﷺ حيث قال: من لا حيّاء له لا دين له، ثمّ نقول للقرطبي
 و أمثاله ممّن نقل مقالة عمر و عدها من معجزات أبي بكر و عمر، أمّا عمر
 فلخوفه على الإسلام و أمّا ابوبكر فلشجاعته بتلاوة آية من كتاب الله، لا يخلو
 حال القائل بها من أمرين، إمّا صادقاً و أمّا كاذباً.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

فإن كان عمر صادقاً في قوله هذا معتقداً بأنّ رسول الله ﷺ لم يمّت و لن
 يموت، فهو كان من أجهل النّاس في المحسوسات فضلاً عن المعقولات و
 ذلك لأنّ الموت أمرٌ محسوس لكلّ أحد حتّى سكّان البوادي في طول التّاريخ

وأي إنسانٍ عاقلٍ كان شاكاً فيه فضلاً عن إنكاره ولا يحتاج في ثبوته الى الآيات أحد من أحاد الناس كيف وهو من البديهيّات فمن كان جاهلاً بالموت فهو أجهل الناس ومن كان في هذه المرتبة من الجهل فكيف يصلح للتصدّي لأمر المسلمين، وخلافة رسول رب العالمين، وأن كان كاذباً في قوله هذا فهو فاسق لأنّ الكذب فسق والفاسق لا يصلح للإمامة والخلافة فعلى التقديرين يلزم عدم صلاحية عمر للخلافة والإمامة للمسلمين أن صحّ النقل هذا كلّهُ على مسلك القوم قالوا وقلنا.

وأما نحن فنقول لم يكن عمر جاهلاً بموت النبي قطعاً بل كان عالماً بموته ﷺ كما كان عالماً بحياة أبي بكر أو حياة نفسه وأما المقالة التي قال بها كانت نزعةً سياسية خفيت على أكثر العلماء فضلاً عن الجهال في صدر الإسلام فاذا كان القرطبي والطبري وأمثالهما من أعيان العامة لم يعلموا سرّ مقالة عمر وسرّ قول أبي بكر في تسكيت عمر فما ظنّك بالعوام في صدر الإسلام وبعده الى زماننا هذا ألا ترى أنّهم ينقلون هذه القصّة في كتبهم وتفسيرهم ويعدونها من كرامات الشيخين فهو دليل على أنّهما تلقوها بالقبول اللهم إلا أن يقال أن تلقّيهما إيّاها بالقبول من باب تجاهل العارف لمصلحة إقتضتها الدنيا وزخارفها وكيف كان فنحن نشير الى ما هو الحقّ في المقام وعلى الله التوكّل وبه الإعتصام فنقول إنكار عمر موته ﷺ لا يخلو من وجهين:

أحدهما: إنكار الموت على كلّ حالٍ بمعنى أنّ الرسول لا ينبغي أن يموت أبداً.

ثانيهما: إنكاره في تلك الحال من حيث أنّه لم يظهر على الدّين كلّهُ وما أشبه ذلك كما قال صاحب المغنّي أنّها كانت شبهته في تأخّر موته عن تلك الحال لمّا روي عنه أنّه قال كيف يموت وقد قال الله تعالى ليظهره على الدّين

كَلَهُ الْآيَةُ وَقَالَ تَعَالَى وَ لِيُبَيِّنَنَّ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا^(١) فَحَمَلَ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهَا خَبْرٌ عَنْ ذَلِكَ فِي حَالِ حَيَاتِهِ حَتَّى قَالَ أَبُو بَكْرٍ أَنَّ اللَّهَ وَعَدَ بِذَلِكَ سَيَفْعَلُهُ وَ تَلَى عَلَيْهِ مَا تَلَى فَأَيَقِنَ عِنْدَ ذَلِكَ بِمَوْتِهِ ﷺ لَا أَنَّهُ مَنَعَ مِنْ مَوْتِهِ رَأْسًا أَنْتَهَى مَا قَالَهُ صَاحِبُ الْمَغْنِيِّ.

ونحن نقول أما الوجه الأول: وهو إنكار الموت على كل حال فهو مما لا يجوز الخلاف فيه فضلاً عن إنكاره وهو واضح لا يحتاج إلى دليل في كونه من المحسوسات.

الثاني: أعني به تأخر الموت فهو أيضاً غير معقول لأن التقدم والتأخر من صفات الموت فالمعتقد به معتقدهما لا محالة فمن اعتقد بأن الموت حق لا ريب فيه وأنه بيد الله تعالى فكيف يشتهه عليه الأمر في تقدم الموت أو تأخره هذا أولاً.

و أما ثانياً فلأن قول أبي بكر فيما احتج به على عمر، إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ^(٢) وقوله: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وقول عمر، أَنِّي لَمْ أَسْمَعْ هَذِهِ الْآيَةَ، مِنْ أَذَلِّ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ عُمَرَ كَانَ مُنْكَرًا لِأَصْلِ الْمَوْتِ لَا لِتَأْخُرِهِ وَهُوَ وَاضِحٌ وَعَلَيْهِ فَمَا ذَكَرَهُ صَاحِبُ الْمَغْنِيِّ لَا يَغْنِيهِ فَاِنْ قُلْتُ فَمَا مَعْنَى قَوْلِ عُمَرَ، وَاللَّهُ مَا مَاتَ مُحَمَّدٌ وَلَا يَمُوتُ حَتَّى يَقْطَعَ أَيْدِي رِجَالٍ وَ أَرْجُلُهُمْ إِلَى آخِرِهِ ثُمَّ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكَلَامِهِ هَذَا، قُلْتُ أَمَّا مَعْنَى كَلَامِهِ فَوَاضِحٌ وَهُوَ إِنْكَارُ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَمَّا الْمُرَادُ بِهَذَا الْكَلَامِ فَهُوَ شَيْءٌ آخَرُ غَيْرَ مَدْلُولِ اللَّفْظِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ عَالِمًا بِمَوْتِ النَّبِيِّ قَطْعًا وَأَمَّا أَرَادَ بِذَلِكَ إِيجَادَ الْإِخْتِلَافِ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَوْتِ النَّبِيِّ لِيَصْرَفَ بِذَلِكَ أَذْهَانَ النَّاسِ وَأَفْكَارَهُمْ عَنْ مَسْأَلَةِ الْخِلَافَةِ حَتَّى يَجِيءَ أَبُو بَكْرٍ وَيَشُدَّ عَضُدَهُ بِهِ وَلِذَلِكَ لَمَّا جَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ لَهُ مَا قَالَ مِنْ قَوْلِهِ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ سَكَنَ قَلْبَ عُمَرَ وَقَالَ كَأَنِّي لَمْ

اسمع بهذه الآية بلى واللّه قد سمعها وعلمها وكان عالماً بها الان مصلحة الملك اقتضت التّفوه بهذا الكلام وقد يسمى هذا بتجاهل العارف فالذى اسكت عمر هو ابوبكر نفسه الآية الشريفة فلو كان القائل بهذه الآية غير ابى بكر لم يقبل عمر قطعاً واما قبل من أبى بكر لا بمعنى أنّه كان أجهل من أبى بكر بموت النّبي أو بوجود الآية بل بمعنى أنّ المصلحة إقتضت سكوته بمجيئ أبى بكر حيث أنّه وصل الى مقصده وبلغ الى أمّله وكان فيه سرٌّ خفي على أكثر النّاس وذلك لأنّ عُمر كان من رجال السّياسة في صدر الإسلام وهو الذي شيّد أركان الخلافة لأبى بكر وأن شئت قلت لنفسه ثمّ بعد موته لغيره من الخلفاء فلو لا عمر في هذه المعركة لم يذقها أبو بكر ولا غيره من الأمويين و المروانيين والعباسيين وهكذا وهو الذي ولا همّ على النّاس في الحقيقة وهذا ممّا لا يخفى على المنصف الخبير وأما المتعصّب العنيد فلا كلام لنا معه، لقوله تعالى: **ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**^(١) ثمّ نقول من كان هذا شأنه كيف يعقل خفاء الموت عليه وهو من أجلى المحسوسات وأبده البدييات ألا ترى لمّا جاء أبو بكر سكت عُمر وسكن قلبه وذهب الى سقيفة بني ساعدة وفعلا ما فعلا فيها فهذا هو السرّ في هذه المعركة وسيأتى البحث في هذا الموضوع في محلّه بوجه أبسط إنشاء الله تعالى هذا تمام الكلام في تفسير هذه الآية والحمد لله ربّ العالمين.

في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّوجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ.

إعلم أنّ هذه الآية مرتبطة بما قبلها من وجوه.

أحدها: أنّ المنافقين أرجفوا أنّ محمّداً ﷺ قد قتل فقال الله تعالى: **وَمَا**

كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَمَا أُنْزِلَ مَوْتُهُ لَا يَجُوبُ فساد دينه
فكذلك قتله

ثانياً: أَنْ فِيهَا تَحْرِيطٌ عَلَى الْجِهَادِ وَإِعْلَامٌ بِأَنَّ الْحَذَرَ لَا يَدْفَعُ الْقَدَرَ وَأَنَّ
أَحَدًا لَا يَمُوتُ قَبْلَ الْأَجْلِ وَإِذَا جَاءَ الْأَجْلُ لَا يَنْدَفِعُ الْمَوْتُ بِشَيْءٍ.

ثالثها: أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ حِفْظَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ وَتَخْلِيصِهِ مِنْ تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ
وَذَلِكَ لِأَنَّ سَبَابَ الْهَلَاكِ كَانَتْ فِيهَا مَوْجُودَةٌ وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى حَافِظًا وَ
نَاصِرًا مَا ضَرَّ الرَّسُولَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَفِي الْآيَةِ تَنْبِيهٌُ عَلَى أَنَّ أَصْحَابَهُ قَدْ قَصَرُوا
فِي الذَّبِّ عَنْهُ.

رابعها: الْإِشْعَارُ بِأَنَّهُ لَيْسَ فِي إِرْجَافٍ مِنْ أَرْجَفِ مَمُوتِ النَّبِيِّ مَا يَحَقِّقُ
ذَلِكَ أَوْ يُعِينُ فِي تَقْوِيَةِ الْكُفْرِ بِلِيقِيهِ اللَّهُ تَعَالَى: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّبْنِ كُلِّهِ وَلَوْ
كَرِهَ الْمُفْشِرُونَ^(١).

خامسها: أَنَّ الْمَقْصُودَ الْجَوَابَ عَمَّا قَالَهُ الْمُنَافِقُونَ فَأَنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا
رَجَعُوا وَقَدْ قُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ، قَالُوا لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا فَأَخْبَرَ اللَّهُ
تَعَالَى أَنَّ الْمَوْتَ وَالْقَتْلَ كِلَاهُمَا لَا يَكُونَانِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَحُضُورِ الْأَجْلِ، وَهَذِهِ
الْوُجُوهُ ذَكَرَهَا الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ.

وَقَالَ الطَّبْرَسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْمَجْمَعِ، فِي الْآيَةِ إِخْبَارٌ بِأَنَّ الْوَيْتَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِإِذْنِ
اللَّهِ وَهَذَا تَسْلِيَةٌ عَمَّا لَحِقَ النَّفْسُ بِمَوْتِ النَّبِيِّ مِنْ جِهَةٍ أَنَّهُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَعْنَاهُ
أَنَّهُ إِنْ مَاتَ فَإِنَّمَا يَمُوتُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ، كَغَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ فَلَا عَذْرَ لِأَحَدٍ فِي
تَرْكِ دِينِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَقِيلَ أَنَّ فِيهِ حِصًّا عَلَى الْجِهَادِ وَمِنْ حَيْثُ لَا يَمُوتُ أَحَدٌ
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أَيْ فَلَا تَتْرَكُوا الْجِهَادَ مِنْ خَشْيَتِهِ الْقَتْلَ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُؤَخِّرُ أَجَلًا وَقَدْ
حَضَرَ وَلَا تَقْدِّمُ الْجِهَادَ أَجَلًا وَلَمْ يَحْضُرْ فَلَا مَعْنَى لِلْإِهْزَامِ إِنْتَهَى كَلَامُهُ.

أقول ما ذكروه في المقام لا بأس به إذ لا شك أَنَّ الْآيَةَ تَشْمَلُ مَا ذَكَرُوهُ إِلَّا أَنَّ
الْحَقَّ فِيهَا أَنْ يُقَالَ أَنَّهَا بِصَدَدِ بَيَانِ أَحْكَامِ خَاصَّةٍ عَلَى سَبِيلِ الْعُمُومِ وَهِيَ أَرْبَعَةٌ.

أحدها: أَنْ كُلَّ نَفْسٍ تَمُوتُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ يَبْدُو اللَّهُ تَعَالَى كَمَا قَالَ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى^(٣)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^(٤).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا^(٥).

وغيرها من الآيات والمراد بالإذن في الآية قيل هو النّحية والإطلاق وترك المنع بالقهر والإجبار وعليه فيكون المعنى ما كان لنفس أن تموت بإذن الله أي تبحلي الله بين القاتل والمقتول، وقيل المراد به هو الأمر وهو قول أبي مسلم والمعنى أن الله يأمر ملك الموت بقبض الأرواح فلا يموت أحد إلا بهذا الأمر، وفي المقام قول ثالث وهو أن المراد به التكوين والتخليق والإيجاد لأنه لا يقدر على الموت والحياة أحد إلا الله بإذن المراد أن نفساً لا تموت إلا بما أماتها الله تعالى ترى أن هذا القول لا يرجع إلى محصل ذلك لأن الموت أمر عديمي لأنه عدم الحياة أو قطعها فكيف يقال أن الإيجاد والتخليق والتكوين تعلق به وبعبارة أخرى لم يوجد هناك شيء بل قطع الوجود وعدم، وقيل أن المراد بالإذن العلم وقيل الإذن هو قضاء الله وقدره ولكل وجه ثم أن الكتاب في قوله: وَكِتَابًا مَنْصُوبٌ بِفَعْلٍ دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ وَالتقدير كتب الله كتاباً مؤجلاً ومحصل الكلام أن الله تعالى خلق النفس، وهذا ممّا لا كلام فيه فهو يحكم عليها وعلى غيرها كيف يشاء وهذا ما صدّقه العقل

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

٢- الأعراف = ٣٤

٤- نوح = ٤

١- الملوك = ٢

٣- الأنعام = ٢

٥- المنافقون = ١١

و الشَّرْع و المراد بالكتاب المُؤَجَّل الَّذِي يَشْتَمِل عَلَيْهِ الْأَجَال و قد يقال أَنَّهُ عبارة عن اللُّوحِ الْمُحْفُوظِ لما ورد في الاخبار أَنَّهُ لَمَّا خَلَقَ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ اكْتُسِبْ فَكُتِبَ مَا هُوَ كَاتِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ انْتَهَى.

و اعلم أَنَّ الْكِتَابَ جَاءَ فِي الْكِتَابِ عَلَى أَقْسَامٍ مِنْهَا بِمَعْنَى الْمَكْتُوبِ وَمِنْهُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا^(١) أَي مَكْتُوبًا فِي اللُّوحِ الْمُحْفُوظِ.

و منها الفرض والوجوب:

قال الله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ^(٢) أَي فُرِضَ.

قال الله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ^(٣) أَي فُرِضَ.

قال الله تعالى: إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا^(٤) يعني مفروضاً.

و قال الله تعالى: فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ^(٥) أَي فُرِضَ.

و أمثالها كثيرة في القرآن.

و منها القضاء والحكم:

قال الله تعالى: لَبِزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ^(٦) أَي لَقِضِي.

قال الله تعالى: قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا^(٧) أَي اللهُ لَنَا.

قال الله تعالى: كُتِبَ اللَّهُ لِلَّهِ الْأَعْلَيْنِ أَنَا وَرُسُلِي^(٨) أَي قَضَى اللَّهُ وَحْكَمَ.

و منها الجعل:

قال الله تعالى: فَاتَّخِذْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ^(٩) أَي فَأَجْعَلْنَا مَعَهُمَ.

قال الله تعالى أي جعل: **أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ** ^(١) في قلوبهم الإيمان الأمر.

قال الله تعالى: **يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ** ^(٢).

أي أمركم أن تدخلوها والحق أن يحمل الكتاب في المقام على الأول أعني به كونه بمعنى المكتوب المسطور في اللوح المحفوظ.

ثانيها قوله: **وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا** أي ومن يرد في أعماله وأقواله ثواب الدنيا دون الآخرة نؤته منها أي من الدنيا وفيه إشارة الى أن الله تعالى لا يضيع عمل عامل كما هو مقتضى العدل والى هذا المعنى أشار بقوله: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ^(٣)

تقريب الاستدلال بها على المدعى هو أن الله تعالى لم يقل، يره في الآخرة بل أطلق الرؤية وهو دليل على أن جزاء العمل قد يرى في الآخرة فالجزاء تابع للقصد فمن قصد بعمله الدنيا يؤتى منها ومن قصد به الآخرة أيضاً كذلك

ثالثها قوله: **وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا** وظاهر أن ثواب الآخرة أكمل وأدوم من ثواب الدنيا لأن الدنيا فانية والآخرة وباقية خير من الفانية.

قال الله تعالى: **مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ** ^(٤)

قال الله تعالى: **إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ** ^(٥)

قال الله تعالى: **أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ^(٦)

قال الله تعالى: **فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ** ^(٧) والآيات كثيرة جداً.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

٢- المجادلة = ٢٠

٤- النحل = ٩٦

٦- القصص = ٦١

١- المجادلة = ٢٢

٣- الزلزال = ٧ و ٨

٥- ص = ٥٤

٧- التوبة = ٣٨

ومن المعلوم أن المؤمن لا يريد بعمله إلا الآخرة كما أن الكافر والمنافق لا يريد إلا الدنيا، قل كل يعمل على شاكلته وسيأتي الكلام في هذه المباحث في المستقبل إن شاء الله تعالى.

رابعها قوله: وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ فِي الآخِرَةِ والمراد بالشَّاكرين من يرد ثواب الآخرة والظاهر أن كلمة، من، في المقامين للتبعية أي نؤته بعض ثواب الدنيا وبعض ثواب الآخرة وذلك لأن من طلب الدنيا أو الآخرة لا يَدَّ يصل بعض مقصوده لا كله وهو ظاهر ولعل الوجه فيه هو أن الإرادة ربما لا توافق تمام الأسباب المؤدية إلى تمام مراده فلا يرزق تمام ما أراده ولكنها لا تخلو من موافقة بالأسباب في الجملة دائماً فأن وافق الجميع رزق الجميع وافق البعض رزق البعض فحسب هكذا قيل والحق أن الجزاء بيد الله تعالى وهو لا يكون إلا مطابقاً للمصلحة التي رآها الله في الفعل لا مطابقاً لما أراده العبد:

قال الله تعالى: وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ^(١).

قال الله تعالى: وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ^(٢).

كَآيِنٍ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ.

قرأ ابن كثير كآيِنَ على وزن كاعن والباقون كآيِنَ مشددة على وزن كعين ومعناها واحد وهو بمعنى كم.

فمن الأول: قول جرير:

وكائن بالأباطح من صديقي
يراني لو أصبت هو المصابي

من الثَّانِي: قول الشَّاعر:

كَأَيِّن فِي الْمَعَاشِرِ مِنْ أَنَاسٍ أَخُوهُمْ فَوْقَهُمْ وَهُوَ كِرَامٌ
 قِيلَ أَصْلُ كَأَيِّنَ (أَي) دَخَلَتْ عَلَيْهَا كَافُ التَّشْبِيهِ كَمَا أَنَّ أَصْلَ (كَذَا)،
 (ذَا) دَخَلَتْ عَلَيْهَا كَافُ التَّشْبِيهِ وَأَتَمَّا غَيَّرَتْ فِي اللَّفْظِ لِتَغْيِيرِهَا فِي الْمَعْنَى
 لِأَنَّهَا نَقَلَتْ إِلَى مَعْنَى، كَمْ، فِي التَّكْثِيرِ وَ مِنْ خَفَّفَ فَلِكِرَاهِيَةِ التَّضْعِيفِ كَمَا
 خَفَّفَ، لَا سَيِّمًا، وَ فِي قَوْلِهِ: رِيَّيُونَ أَقْوَالَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ الْحَسَنُ فَفَهَاءٌ وَ
 قَالَ مُجَاهِدٌ جَمُوعٌ كَثِيرَةٌ وَ قَالَ الْأَخْفَشُ هُمْ مَنْسُبُونَ إِلَى الرَّبِّ وَ قَالَ الزَّجَاجُ الرَّبُّ
 الْمَتَمَسِّكُونَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَ قَالَ غَيْرُهُ مَنْسُبُونَ إِلَى عِلْمِ الرَّبِّ وَ قَالَ الزَّجَاجُ الرَّبُّ
 عَشْرَةُ آلَافٍ وَ هُوَ الْمُرُوي عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ نَقَلَ هَذِهِ الْأَقْوَالَ فِي التَّبْيَانِ وَ قَالَ
 صَاحِبُ الْكَشَافِ الرَّيُّونَ الرَّبَّانِيُّونَ وَ قُرِئَ بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ وَ الْفَتْحِ عَلَى
 الْقِيَاسِ وَالضَّمِّ وَ الْكُسْرِ مِنْ تَغْيِيرَاتِ النَّسَبِ وَ حَكَى الْوَاحِدِيُّ عَنْ الْفَرَّاءِ أَنَّهُ
 قَالَ، الرَّيُّونَ، الْأَوَّلُونَ، وَ قَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ أَصْلُهُ مِنَ الرَّبَّةِ وَ هِيَ الْجَمَاعَةُ يُقَالُ رَبِّي
 كَأَنَّهُ نَسَبَ إِلَى الرَّبَّةِ وَ قِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ.

قال المفسرون لما كان من المسلمين ما كان يوم أحد و عتب الله عليهم ما
 صدر منهم في الآيات التي تقدّمت أخبرهم بأن الأمم السالفة تأمل معهم كثير
 من المؤمنين بهم المنتسبين الى الرب في وجه قلوبهم و في اعمالهم
 المتقدمين ان النبيّن والمرسلين هداة و تعلمون لارباب تعبدون فما وهنوا لما
 اصابهم في سبيل الله اى ضعف مجموعهم بما اصاب بعضهم من الجرح و
 القتل و ان كان المقتول هو النبي نفسه و ذلك لأنهم كانوا يقاتلون في سبيل الله
 و هو ربهم لا في سبيل شخص نبّيهم و أنما حظهم من نبّيهم تبليغه عن ربهم و
 بيانه لهديته و أحكامه، و ما ضعفوا عن جهادهم و لا إستكانوا و لا ولّوا
 بالإنقلاب على أعقابهم بل ثبتوا بعد قتل نبّيهم كما ثبتوا معه في حياته لأنّ
 العلة فيهما واحدة و هي كون الجهاد في سبيل الله فاذا كان الأمر على هذا

المنوال ينبغي لكم أيها المسلمون التأسي بمن مضى من صالحى الأمم السابقة هذا وأنتم خير الأمم ونبىكم خير الأنبياء ففي هذه الآية من العتب والتشنيع لمن فر عن الجهاد في سبيل الله يوم أحد وغيره ما لا يخفى وقد ذكر المؤرخون أن أكثر المسلمين فروا عن الجهاد يوم أحد ومنهم أبو بكر وعثمان وعمر وبقي مع رسول الله أمير المؤمنين عليه السلام وأبو دجانة الأنصاري وشرذمة قليلة من المؤمنين كما قال تعالى: **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ** ولذلك مدحهم الله بقوله: **وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** أي الصابرين على الشدة والمصيبة في جنسه في إمتثال أوامره والقيام بواجباته التي من جملةتها الجهاد في سبيل الله، إعلم أن أهل الكوفة وابن عامر قرأوا (قاتل) بصيغة الفاعل وقرأ الباقر (قُتِلَ) بصيغة المجهول فمن قرأ قاتل، نفاه عمن ذكروا من قرأ قتل، نفى الوهن عمن بقى.

وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.

ثم حكى الله تعالى عن الرّبيّن الذين ذكرهم في الآية بأنهم كانوا يقولون **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا** أي أسترها علينا بترك عقابنا ومجازاتنا عليها **وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا** الإسراف هو مجازاة المقدار الذي تقتضيه الحكمة وهو مذموم كما أن الإقتار أيضاً مذموم:

قال الله تعالى: **وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا^(١)**

قالوا في الإسراف والإفراط بمعنى وضدهما التّقصير والتّقيير:

قال الله تعالى: **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ^(٢)**

وَتَبَيَّنَتْ أَقْدَامُنَا عَنْ الْوَهْنِ وَالِاسْتِكَانَةِ فِي الْجِهَادِ أَوْ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ وَ
ثَبَاتِ الْقَدَمِ كُنَايَةً عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ فِي الْأُمُورِ وَعَدَمِ الْإِضْطِرَابِ فِيهَا:
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ
عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ
تُوعَدُونَ^(١).

وحيث أن الإستقامة والثبات لا تحصل إلا بعد زوال الخوف عن القلب و
وصوله الى مقام الإطمئنان سألوا ربهم أن يثبت أقدامهم بإزالة الخوف عن
قلوبهم وإزالة الخواطر الفاسدة عن صدورهم مشعراً بأن الله تعالى مقلب
القلوب والأبصار فهو الذي يصرف في قلب العبد كيف يشاء وَانْصَرْنَا عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ أنما سألوا النصرة بعد التثبيت لأن النصرة على العدو لابد
فيها من أمور زائدة على ثبات الأقدام وأن شئت قلت الإستقامة وثبات
الأقدام بمنزلة المقتضي وهو ظاهر وقد ثبت في المعقول أن وجود المقتضي
وحده لا يكفي المعلول ووجوده بل لابد فيه من رفع المانع أيضاً فكما أن
وجود المقتضي أعني به الإستقامة في الأمور لا يحصل للإنسان إلا بتوفيق منه
تعالى ولذلك يقال، ثبت أقدامنا، كذلك رفع المانع أيضاً بيده تعالى شأنه و
لذلك نقول، وأنصرنا على القوم الكافرين، فإن النصرة لا تتحقق إلا برفع مانع
للمؤمن في الغلبة على الأعداء وإيجاده في العدو كالرعب الذي يلقيه في
قلوبهم وأحداث أحوال سماوية أو أرضية توجب إنهزامهم مثل هبوب الرياح
تثير الغبار في وجوههم ومثل جريان سيل في موضع وقوفهم وأمثال ذلك من
الموانع ومحصل الكلام هو أن النصرة والغلبة على العدو تحصل برفع المانع
في المسلمين وإيجاده في الكافرين ولذلك:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٤

الجلد الرابع

فَاتِيهِمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ
 حيث أتى بكلمة الغاء مشعراً بأن الثواب متفرع على ما سبق أي لما قالوا
 كذلك فَاتِيهِمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ قيل المراد بثواب
 الدنيا النصرة والغنيمة وقهر العدو والثناء الجميل وإنشراح الصدر بنور الإيمان
 وزوال ظلمات الشبهات وكفارة المعاصي والسيئات وأما ثواب الآخرة فهو
 الجنة فيها من المنافع واللذات وأنواع السرور وأما حصص الله تعالى ثواب
 الآخرة بالحسن تنبيهاً على جلالة وشفه بخلاف ثواب الدنيا هكذا قيل
 والحق في الفرق بينهما هو أن ثواب الدنيا قليل وثواب الآخرة كثير فاعندكم
 يَنْقُذُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ^(١) ومن المعلوم أن الكثير الباقي خير من القليل الفاني و
 في قوله والله يُحِبُّ المحسنين إشعار بأن من جمع بين الثوابين فهو محسن
 قطعاً وكل محسن محبوب له تعالى لأنه قديم الإحسان.

إِعلم أن الله تعالى قال فيما تقدم وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ فَذكر لفظة، من،
 الدالة على التبعض حيث قال (منها) وأما في هذه الآية قال فَاتِيهِمُ اللَّهُ
 ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ولم يذكر كلمة، من، الدالة على
 التبعض لوجود الفرق بين المقامين، وهو أن الذين يريدون ثواب الآخرة في
 الآية السابقة إنما اشتغلوا بالعبودية لطلب الثواب فكانت مرتبتهم فيها نازلة و
 أما المذكور في هذه الآية فليس كذلك لأنهم لم يذكروا في أنفسهم إلا الذنب و
 القصور المراد بقولهم أغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ولم يروا التدبير
 والنصرة والإعانة إلا من ربهم ولذلك قالوا: وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى
 الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فكان مقام هؤلاء في العبودية في غاية الكمال فلا جرم

أولئك فازوا ببعض الثواب وهؤلاء فازوا بالكلّ وأيضاً أولئك أرادوا الثواب و
هؤلاء ما أرادوه وأنما أرادوا خدمة مولاهم فلا جرم أولئك حرموا وهؤلاء
أعطوا ليعلم أنّ كلّ من أقبل على خدمة الله أقبل على خدمته كلّ ما سوى الله
هكذا قال بعض المحققين والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٢٩)
بَلِ اللَّهُ مَوْلِيكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)
سَنَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا
أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوِيهِمُ
النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)

◀ اللغة

سَنَلْقَى: بضم النون من، ألقى، يلقي إلقاء، والإلقاء يستعمل حقيقة في
الأجسام قال الله تعالى (واللقى الألواح) وقال: (فألقي موسى عصاه) وقال
الشاعر:

فألقت عصاها وإستقر بها النوى

ثم أنه قد يستعمل مجازاً في غير الأجسام كما في هذه الآية

الرُّعْبُ: بضم الراء والعين وسكون الباء في قراءة ابن عامر والكسائي و
سكون العين في قراءة غيرهما وهما لغتان فيه ومعناه الخوف يقال رعبته
رُعْباً ورُعْباً فهو مرعوب ويجوز أن يكون الرُّعْب بسكون العين مصدراً و
بضمها الاسم منه وأصله من القَل، يقال سبَل راعب يملأ الوادي، ورعبت
الحوض ملأته والمعنى ستملاً قلوب المشركين خوفاً وفرعاً.

مَأْوِيهِمُ المأوى المكان.

مَثْوَى: المَثْوَى أيضاً المكان وقيل في الفرق أن المَثْوَى المكان الذي يقام
فيه يقال، ثوى، يثوى، ثواءً، والمأوى كل مكان يرجع إليه شيء ليلاً ونهاراً.

أولئك فازوا ببعض الثواب وهؤلاء فازوا بالكلّ وأيضاً أولئك أرادوا الثواب و
هؤلاء ما أرادوه وأنما أرادوا خدمة مولاهم فلا جرم أولئك حرموا وهؤلاء
أعطوا ليعلم أن كلّ من أقبل على خدمة الله أقبل على خدمته كلّ ما سوى الله
هكذا قال بعض المحققين والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
بَلِ اللَّهُ مَوْلِيكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾
سَنَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا
أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوِيهِمُ
النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾

◀ اللغة

سَنَلْقَى: بضم النون من، ألقى، يلقي إلقاء، والإلقاء يستعمل حقيقة في
الأجسام قال الله تعالى (وَأَلْقَى الْأُلُوح) وقال: (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ) وقال
الشاعر:

فَأَلَقْتُ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى

ثم أنه قد يستعمل مجازاً في غير الأجسام كما في هذه الآية

الرُّعْبُ: بضم الراء والعين وسكون الباء في قراءة ابن عامر والكسائي و
سكون العين في قراءة غيرهما وهما لغتان فيه ومعناه الخوف يقال رَعِبَتْهُ
رُعباً ورُعباً فهو مرعوب ويجوز أن يكون الرُّعب بسكون العين مصدراً و
بضمها الإسم منه وأصله من المَل، يقال سبَل راعب يملأ الوادي، ورعبت
الحوض ملأته والمعنى ستملاً لقلوب المشركين خوفاً وفرعاً.

مَأْوِيهِمُ: المأوى المكان.

مَثْوَى: المَثْوَى أيضاً المكان وقيل في الفرق أن المَثْوَى المكان الذي يقام
فيه يقال، ثَوَى، يَتَوَى، ثَوَاءً، والمأوى كل مكان يرجع إليه شيء ليلاً ونهاراً.

◀ الإعراب

يَرْدُّوْكُمْ جَزَمَ لِأَنَّهُ جَوَابُ الشَّرْطِ أَعْنَى بِهِ إِنَّ تُطِيعُوا عَظَفَ عَلَيْهِ خَاسِرِينَ
نَصَبَ عَلَى الْحَالِ وَكَلِمَةً بَلَّ حَقِيقَتَهَا الْإِضْرَابَ عَنِ الْأَوَّلِ إِلَى الثَّانِي أَلَلَّهُ
مَوْلَاكُمْ مَبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ وَأَجَازَ الْقَرَأَ النَّصَبَ وَالتَّقْدِيرَ بَلْ أَطِيعُوا اللَّهَ أَلَرُّعْبَ
بِكُسُونِ الْعَيْنِ وَضَمَّهَا الْغَتَانِ نَصَبَ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ لِقَوْلِهِ، سَنَلْقَى، بِمَاءٍ أَشْرَكُوا
الْبَاءُ تَتَعَلَّقُ بِنَلْقَى كَمَا أَنَّ فِي، أَيْضاً تَتَعَلَّقُ بِهِ وَلَا إِشْكَالَ فِيهِ لِأَنَّ، فِي، ظَرْفٌ، وَ
الْبَاءُ بِمَعْنَى السَّبَبِ مَخْتَلِفَتَانِ وَ، مَا، مُصَدَّرِيَّةٌ وَ الثَّانِيَّةُ، نَكْرَةٌ مُوصُوفَةٌ أَوْ
بِمَعْنَى، الَّذِي، وَلَيْسَتْ مُصَدَّرِيَّةٌ بِشَيْءٍ مَثْوَى الظَّالِمِينَ أَيِ النَّارِ فَالْمَخْصُوصُ
بِالذَّمِّ مُحذُوفٌ وَ الْمَثْوَى، مَفْعَلٌ مِنْ ثَوِيَتْ وَ لَامُهُ يَاءٌ.

◀ التفسير

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قِيلَ الْخَطَابُ خَاصٌّ بِمَنْ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أَحَدٍ وَقِيلَ عَامٌّ يَتَنَاوَلُ أَهْلَ أَحَدٍ وَغَيْرِهِمْ إِنَّ تُطِيعُوا الَّذِينَ
كَفَرُوا يَرْدُّوْكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ.

فَعَلَى الْأَوَّلِ: أعني به خصوص الخطاب فالمراد بقوله: إِنَّ تُطِيعُوا
الَّذِينَ كَفَرُوا أبو سفيان ومن كان معه من المشركين في أحد.

عَلَى الثَّانِي: أعني به عموم الخطاب فالمراد مطلق الكفار والمشركين
فيدخل فيهم أبو سفيان ومن كان معه في أحد وغير أحد في كل عصر وزمانٍ و
من المعلوم أَنَّ حَمْلَ اللَّفْظِ عَلَى الْعُمُومِ أَوْلَى لِكَوْنِهِ أَشْمَلُ وَأَفِيدَ وَأَوْفَقُ
بِالْقَوَاعِدِ الْعَقْلِيَّةِ بَلْ هُوَ مُقْتَضِي الْأَصْلِ أَنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَلِيلٌ عَلَى التَّخْصِصِ
وَمَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً^(١).

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

قال الله تعالى: وَ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَ وَدُّوا أَنْ
تَكْفُرُوا^(١).

قال الله تعالى: مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ لَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ
يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ^(٢).

و الآيات كثيرة. تقريب الاستدلال بها أَنَّ الله تعالى علّق الرّد على العقب و
الإنقلاب بالخسران على مطلق طاعتهم و هذا غاية في التحرز منهم و المجانية
لهم فلا يطاعون في شيء و لا يشاورون لأنّ ذلك يوجب موافقتهم و قال بعض
المفسّرين أنّ المراد بالكفّار في الآية أهل النّفاق حيث قالوا للمؤمنين لمّا
رجعوا من أحد لو كان محمّد نبينا ما أصابه الذي أصابه فأرجعوا الى أخوانكم،
نقلوا هذا القول عن ابن عبّاس و عن ابن جريح هم اليهود و النصارى أي إن
تستنصحو اليهود و النصارى و تقبلوا منهم يردّوكم على أعقابكم و ذلك لأنهم
كانوا يستغفونهم و يوقعون لهم الشبه و يقولون لو كان لكم نبياً حقّاً لما غلب و
لما أصابه و أصحابه ما أصابهم و أنّما هو رجل حاله كحال غيره من النّاس يوماً
له و يوماً عليه و غير ذلك من الأقوال، و الحقّ ما ذكرناه قال أبو بكر الرّازي في
الآية دلالة على النّهي عن طاعة الكفّار مطلقاً لكن أجمع المسلمون على أنّه لا
يندرج تحته من وثقنا بنصحه منهم كالجاسوس، و الخريت الذي يهدي الى
الطّريق و صاحب الرّأي ذي المصلحة الظّاهرة و الزّوجة تشير بصواب و الرّدة
هنا على العقب كناية عن الرجوع الى الكفر و خاسرين، أي مغبونين يبيعكم
الأخرة انتهى ما ذكره.

أقول ما قاله الرّازي لا يرجع الى محصلٍ أمّا أولاً فلا لأنّ النّهي في الآية عن
طاعة الكفّار راجع الى الدّين و الإعتقادات بدليل قوله تعالى: يَرُدُّوكُمْ عَلَى
أَعْقَابِكُمْ و أمّا في غيره من الأمور الدنيويّة فلا و عليه فخرج الجاسوس

والخريت وأمثالهما لا يحتاج الى اجماع المسلمين لأنّ المورد ليس من موارد الإجماع بل الخروج تخصّصي لا تخصّصي.

ثانياً: أنّه ليس في الآية ما يدلّ على النهي عن طاعة الكفّار مطلقاً بل علّق الكفر والردّ على الأعقاب على إطاعتهم في مورد كانت توجهه و هو واضح الخسران في الآية فالظاهر أنّه عامّ يشمل خسران الدنيا والأخرة كذلك فإنّ الطّاعة والإتيان لكفّار في الإعتقادات توجب الدّلة والحقارة في الدّنيا خسران فيها أعظم منهما، والعذاب في الآخرة ولا خسران أشدّ منه فيها ثمّ قال تعالى:

بَلِ اللَّهِ مَوْلِيكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ كلمة بل لترك الكلام الأوّل من غير إبطالٍ وأخذ في كلام غيره والمعنى ليس الكفّار أولياء ليطاعوا في شيء من الإعتقاد والذين بل الله مولاكم وهو خير الناصرين، أي أنّ الله تعالى خير ناصر لا يحتاج معه الإنسان الى نصره أحد.

قال الله تعالى: **إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ^(١).

قال الله تعالى: **بِئْسَ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ^(٢).

قال الله تعالى: **إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ** ^(٣) والآيات كثيرة.

قال بعض المفسّرين في المقام أي لا ينبغي أن تفكروا في ولاية أبي سفيان وحزبه ولا عبد الله بن أبي وشيعته ولا أن تصنعوا لإغواء من يدعوكم الى موالاتهم فإنهم لا يستطيعون لكم نصراً ولا أنفسهم ينصرون وأتما الله هو الموفي القادر على نصركم:

قال الله تعالى: **فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلِيكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ^(٤).

قال الله تعالى: **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ** ^(٥).

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

١- محمد = ٥

٢- الزوم = ٥

٣- آل عمران = ١٦٠

٤- الأنفال = ٤٠

٥- محمد = ١١

أقول ما ذكره أنما يتم بناء على معنى الخصوص و أما على العموم كما
أيدناه فليس لها اختصاص بما ذكره من ولاية أبي سفيان وابن أبي وأمثالهما
بل تشملهما وغيرهما الى يوم القيامة:

قال الله تعالى: **وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ
الَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ^(١).

وإعلم أن المولى في الآية بمعنى الولي فهو من قبيل قوله تعالى وأن
الكافرين لا مولى لهم، أي لا ولي لهم وقوله: **وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ
مَوْلَاهُ** ^(٢) أي وليه بالنصرة.

أن قلت أن كلمة، خير، إسم التفضيل وهو في المقام على غير بابيه لأنه لا
خير في أولئك الناصرين من الكفار الذين يعرض بهم.
قلت التفضيل أنما هو بالنسبة الى النصر لا الى الكفار يعني أن نصر الله
عباده المؤمنين خير من نصر الكافرين لمن ينصرونهم من أولياءهم.

**سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ
سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ.**

قرأ الجمهور سنلقي بالنون وهو مشعر بعظم ما يلقي اذا أسنده الى المتكلم
بنون العظمة، وقرأ أيوب السخيتاني، سيلقي، بالباء جرياً على الغيبة السابقة
في قوله وهو غير النابزين ثم أنهم ذكروا في القاء الرعب في قلوب الكفار يوم
احد قصته طويلة مخلصها ان علياً اخبر الرسول بان اباسفيان واهما حين
ارتحلوا ركباً الابل و جنبوا الخيل فسر بذلك رسول الله ثم رجع رسول الله
الى المدينة فتجهز وأتبع المشركين الى حمراء الأسد معبد الخزاعي جاء الى
الرسول ﷺ وهو كافر ممتعض مما حل بالمسلمين خزاعة تميل الى

الرَّسُولَ ﷺ وَأَنَّ الْمَشْرِكِينَ هَمُّوا بِالرَّجُوعِ إِلَى الْقِتَالِ فَخَذَلَهُمْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ وَمَعْبُدٌ وَقَالَ مَعْبُدٌ خَرَجُوا يَتَحَرَّقُونَ عَلَيْكُمْ فِي جَمْعٍ لَمْ أَرْ مِثْلَهُ وَلَمْ أَرْ إِلَّا نَوَاصِي خَيْلِهِمْ قَدْ جَاءَتْكُمْ وَحَمَلَنِي مَا رَأَيْتُ أَنِّي قُلْتُ فِي ذَلِكَ شِعْراً وَأُنْشَدَ:

كَادَتْ تَهْدُ مِنْ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي إِذَا سَأَلْتُ الْأَرْضَ بِالْجَرْدِ الْأَبَابِيلِ
تُرْدِي بِأَسَدٍ كَرَامٍ لَا تَنَابِلُهُ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلَ مَهَازِيلِ
فَظَلَّتْ أَعْدَاؤُهَا وَأَظُنُّ الْأَرْضَ مَائِلَةً لَمَّا سَمَوْا بِرُئَيْسٍ غَيْرِ مَخْذُولِ

فَوَقَعَ الرَّعْبُ فِي قُلُوبِ الْكُفَّارِ، فَقَوْلُهُ: سَنَلْقَى وَعَدُّ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ بَعْدَ أَحَدٍ وَقَالَ ﷺ نَصَرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى صِدْقِ نَبَوْتِهِ إِذَا أَخْبَرَ عَنِ اللَّهِ بِأَنَّهُ يَلْقَى الرُّعْبَ فَكَانَ كَمَا أَخْبَرَهُ وَأَمَّا قَوْلُهُ: بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا فَلَبَاءَ لِلْسَّبَبِ وَمَا مَصْدَرِيَّةٌ أَيْ بِسَبَبِ إِشْرَاكِهِمْ بِاللَّهِ أَلْهَةً لَمْ يَنْزَلْ بِإِشْرَاكِهَا حُجَّةً وَلَا بَرَهَانًا وَتَسْلِيطُ النَّفْيِ عَلَى الْإِنْزَالِ وَالْمَقْصُودُ نَفْيُ السُّلْطَانِ أَيْ أَلْهَةٍ لَا سُلْطَانَ فِي إِشْرَاكِهَا فَيَنْزِلُ نَحْوُ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

عَلَى لَا حُبَّ لَا يَهْتَدِي بِمَنَارِهِ، أَيْ لَا مَنَارَ لَهُ فَيَهْتَدِي بِهِ وَقَوْلُهُ، وَلَا تَرَى النَّصْبَ بِهَا يَنْحَجِرُ، أَيْ لَا يَنْحَجِرُ النَّصْبُ فَيَرَى بِهَا وَالْمَرَادُ نَفْيُ السُّلْطَانِ وَالنَّزُولُ مَعًا فَكَانَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ سَبَبًا لِإِلْقَاءِ الرُّعْبِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْرَهُونَ الْمَوْتَ وَيُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَلَا مُحَالَةَ يَكُونُ مَأْوَاهُ النَّارُ لِذَلِكَ قَالَ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبُشْسُ مَثْوَى الظَّالِمِينَ أَيْ وَبُشْسُ مَثْوَى الظَّالِمِينَ النَّارُ فَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ مُحَذَوْفٌ وَالْمَأْوَى هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ وَنَبِيهِ عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي اسْتَحَقُّوا بِهِ النَّارَ وَهُوَ الظُّلْمُ وَمَجَاوِزَةُ الْحَدِّ إِذَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ غَيْرُهُ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ.

إِعْلَمُ أَنَّ فِي آيَةِ مَسَائِلَ لَا بَأْسَ بِالْإِشَارَةِ إِلَيْهَا.

المسألة الأولى: الرُّعْبُ الْخَوْفُ الَّذِي يَحْصُلُ فِي الْقَلْبِ وَأَصْلُ الرُّعْبِ الْمَلْ يُقَالُ سِيلٌ رَاعِبٌ إِذَا مَلَأَ الْأَوْدِيَةَ وَالْأَنْهَارَ وَأَنْمَا سُمِّيَ الْفَزَعُ رُعْبًا لِأَنَّهُ يَمْلَأُ الْقَلْبَ خَوْفًا هَكَذَا قَرَّرَهُ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ أَقُولُ مَا ذَكَرَهُ فِي مَعْنَى الرُّعْبِ وَأَنَّ

أصله المِلْ لا إشكال فيه وأما قوله وأنما سُمِّيَ الفِرْعَ رعباً الخ ففيه أن الفِرْعَ لا يسمَّى رعباً بل الفِرْعَ ينشأ من الرُّعب ويتولَّد منه فهو من فروع وأثاره في الخارج لا أنه هو بعينه أو يُسمَّى به.

المسألة الثانية: قالوا أن الظاهر من قوله: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ أن وقوع الرُّعب في جميع الكفار لأنه لا أحد يخالف دين الإسلام إلا وفي قلبه ضربٌ من الرُّعب من المسلمين إما في الحرب وأما عند المحاجة ولكنه لا يقتضي وقوع جميع أنواع الرُّعب في قلوبهم نعم وقوع هذه الحقيقة ثابت في قلوبهم من بعض الوجوه أقول ما ذكروه لا دليل عليه وأنما هو مجرد استحسانٍ من ظاهر الآية مع أن مورد الآية خاص به أحد وقد مرَّ منا مراراً أن خصوص المورد لا ينافي عموم المراد وكيف كان فهو أمرٌ لا يعلمه إلا الله تعالى.

المسألة الثالثة: يظهر من الآية أن السبب في إلقاء الرُّعب في قلوب الكفار ليس إلا إشراكهم بالله بغير حجة وبرهان، وذلك لأن الباء في قوله، بما أشركوا، للسبب أي بسبب ما أشركوا وكلمة، ما، مصدرية والمعنى بسبب إشراكهم بالله.

أن قلت كيف يكون الإشراك سبباً للرُّعب، قلت قد ذكرنا وجوهاً فيه:

أحدها: ما ذكره الرّازي في تفسيره قال وأعلم أن تقرير هذا بالوجه المعقول هو أن الدّعاء أنما يصير في محلّ الإجابة عند الإضرطار كما قال أمّن يجيب المضطر إذا دعاه، ومن اعتقد أن لله شريكاً لم يحصل له الإضرطار لأنه يقول أن كان هذا المعبود لا ينصرني فذاك الآخر ينصرني وأن لم يحصل في قلبه الإضرطار لم تحصل الإجابة ولا النُّصرة وإذا لم يحصل ذلك وجب أن يحصل الرُّعب والخوف في قلبه فثبت أن الإشراك بالله يوجب الرُّعب انتهى.

أقول ما ذكره الرّازي وسمّاه بالوجه المعقول غير معقول وذلك لأن الآية تدلّ على أن الإشراك سبب لإلقاء الرُّعب في قلوب الكفار من الله تعالى

فالإشراك سبب للإلقاء لا للرعب نفسه ومن المعلوم أن الملقى هو الله تعالى فالإلقاء مسبب عن الإشراك لا الرعب هذا أولاً.

ثانياً: قوله أن الدعاء أتما يصير في محل الإجابة عنه الضطرار كما لا قائل سخته اذ كثيراً ما يصير الدعاء في محل الإجابة من غير اضطرار كما اذا كان الدعاء لطلب زيادة النعمة تقول رب زدني مالاً او علماً فإى اظطرار فى امثال هذه الموارد والسير فيه هو أنه لو قلنا بأن كل مضطر اذا دعاه فهو تعالى يجيبه ويكشف السوء عنه كما هو مفاد الآية: **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ** الخ... ليس معناه أن كلما يجيبه ويكشف السوء عنه فهو مضطر لأن الموجبة الكلية لا تنعكس بنفسها فاذا قلنا كل إنسان حيوان كما هو كذلك لا يلزم من صدقه صدق عكسه و هو كل حيوان إنسان بل نقول بعض الحيوان إنسان وبعضه ليس بانسان ولذلك قالوا والموجبة الكلية تنعكس جزئية فقوله تعالى: **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**^(١) في قوة الموجبة الكلية لأن الهمزة للإستفهام الإنكاري أى لا يجيب المضطر إلا الله ولا يكشف السوء عنه إلا هو فكأنه قيل، كل مضطر اذا دعاه فهو يجيبه ويكشف السوء عنه وهذه القضية موجبة كلية لا كلام في صدقها وهى تنعكس جزئية أى بعض من يجيبه الله و يكشف عنه السوء مضطر وبعضه ليس بمضطر والعجب من الرّازي كيف غفل عن هذه الدّقيقة وبنى كلامه على أن العكس في القضية أيضاً يصدق كلياً و قال وأن لم يحصل في قلبه الإضطرار لم تحصل الإجابة ولا النّصرة ولم يعلم أنّه لا ملازمة بين الإضطرار والإجابة من الطرفين بل هي من طرف واحد لو قلنا به والحاصل أن الإشراك بالله يوجب إلقاء الرعب في قلوبهم من قبل الله تعالى كما أن التوحيد بالعكس فما ذكره الرّازي شيء آخر غير ما يستفاد من الآية وهو ظاهر.

ثانيها: ما ذكره بعض المفسرين وهو أنه لما نال المسلمون ما نالهم يوم أحد بمخالفة الرّماة أمر نبيهم ﷺ وكان من ظهور المشركين عليهم ما كان عزّهم الله عزّ وجلّ الحال في ذلك ثمّ وعدهم بالنّصر لهم والخذلان لأعداءهم بالرّعب.

ثالثها: ما نقل عن السّدي قال أنّ أبا سفيان وأصحابه همّوا بالرجوع بعد أحد لإستئصال المسلمين عند أنفسهم، فألقى الله الرّعب في قلوبهم حتّى إنقلبوا خائبين عقوبةً على شركهم.

رابعها: ما نقلوه عنه أيضاً أنّه لما إرتحل أبا سفيان وغيره من المشركين يوم أحد متوجّهين الى مكّة قالوا بشّ ما صنعنا قتلناهم حتّى اذا لم يبق منهم إلّا الشّريد تركناهم أرجعوا فإستصلوهم فلما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرّعب حتّى رجعوا عمّا همّوا به وقال في تفسير المنار نقلاً عن إستاذه ما حاصله أنّ في الآية وجهان:

أحدهما: أنّ إلقاء الرّعب خاصّ بتلك الواقعة ولو كان عامّاً لشمل غزوة حنين وليس كذلك مضافاً الى أنّا نرى كثيراً من الكافرين قد حاربوا ولم يصيبهم الرّعب.

ثانيهما: أنّ الآية بيان لسنة إلهيّة عامّة وهو الحقّ فإنّ المؤمنين حيث كانوا في مرتبة من الإذعان واليقين قد صدقهما العمل الذي كان منه بذل الأنفس والأموال في سبيل الإيمان وأما الكافرون الذين دعوا الى الإيمان وأقيم لهم على الدّعوة الدليل والبرهان فجاهدوا وعاندوا وكابروا الحقّ وآثروا مقارعة الدّاعي ومن إستجاب له بالسيف فإذا نظرنا في شرك هؤلاء الكفّار نجد أنّ شأنهم مع المؤمنين كشأن من يرى نور الحقّ مع خصمه فيحمله البغي والعدوان على مجاحدته من غير حجّة ولا دليل وهذا هو الذي صار باعثاً على الرّعب ثمّ قال وبهذا يندفع قول من يقول ما بالنّا نجد الرّعب كثيراً ما يقع في قلوب المسلمين ولا يقع في قلوب الكافرين فإنّ الذين يسمّون أنفسهم

مسلمين قد يكونون على غير ما كان عليه أولئك الذين خطبوا بهذا الوعد من قوة اليقين والإذعان والثبات والصبر وبذل النفس والمال في سبيل الله فمعنى المؤمنين غير متحقق فيهم وأنما رعب المشركين مرتبط بإيمان المؤمنين يكون له من الآثار وساق الكلام الى أن قال وعلى هذا يكون الإشراف سبباً للرعب كسائر الأسباب العادية التي ربط الله بها المسببات كالشرب للزوي والأكل للشبع فمن وصل اليه الحق تزلزل الباطل في نفسه لا محالة ومن تمام التشبيه أن تكون بعض الوقائع التي لا يقع فيها الرعب في قلوب المشركين كالوقائع التي يشرب فيها المرء ولا يروي لعارض مريض فسنن الاجتماع كسائر الأجسام الطبيعية لها عوارض وشروط وموانع انتهى كلامه.

قال صاحب الكشف، قيل قذف الله في قلوب المشركين الخوف يوم أحد فإنهم لما لم يكونوا في مكة من غير سبب ولهم القوة والغلبة انتهى.

أقول ما ذكره في تفسير الآية لا بأس به إلا أنهم قد غفلوا في المقام عن نكتة لطيفة وهي أن الرسول ﷺ كان منصوراً بالرعب وهو إحدى معجزاته لقوله ﷺ (نصرت بالرعب) والله تعالى قد حصنته بين الأنبياء بذلك فعلى هذا لا يكون الرعب معلولاً للشرك لوجوده مع عدمه فلياً فلو كان الشرك علّة للرعب يلزم منه أن يكون المشرك مرعوباً أينما وجد لأنّ العلّة يستلزم وجود المعلول وليس كذلك وهو ظاهر هذا أولاً

وثانياً، أن الآية صريحة في أن الملقى للرعب في قلوب المشركين هو الله تعالى لقوله: **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ** فلو كان الأمر على ما ذكره لكان ينبغي أن يقال، سيوجد في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا، وحيث لم يقل ذلك وأسند الإلقاء الى نفسه وقال: **سَنُلْقِي** علمنا أن العلّة لوجود الرعب في قلوب الكفار هي إلقاء الله تعالى أيّاه في قلوبهم ليكون معجزة للنبي ﷺ فالشرك علّة للإلقاء لا للرعب في المقام والله أعلم بكلامه.

يَمَّا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا قَالَ صَاحِبُ الْكُشَافِ فِي تَفْسِيرِ
الآيَةِ مَا لَفْظُهُ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا إِلَهَةً لَمْ يَنْزِلِ اللَّهُ بِإِشْرَاقِهَا حُجَّةً، فَأَنْ قُلْتُ
كَانَ هُنَاكَ حُجَّةٌ حَتَّى يَنْزِلَهَا اللَّهُ فَيَصِحَّ لَهُمُ الْإِشْتِرَاكُ، قُلْتُ لَمْ يَعْزْ أَنْ هُنَاكَ
حُجَّةٌ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَنْزَلْ عَلَيْهِمْ لِأَنَّ الشَّرْكَ لَا يَسْتَقِيمُ أَنْ يَقُومَ عَلَيْهِ حُجَّةٌ وَأَمَّا
الْمُرَادُ نَفْيَ الْحُجَّةِ وَنَزُولِهَا جَمِيعاً كَقَوْلِهِ، وَلَا تَرَى الضُّبَّ بِهَا يَنْحَجِرُ انْتَهَى
كَلَامُهُ.

وَقَالَ صَاحِبُ تَفْسِيرِ الْمِيزَانِ مَعْنَاهُ إِتَّخَذُوا لَهُ مَا لَيْسَ مَعَهُ بَرَهَانٌ شَرِيكاً
يَكْرِزُهُ الْقُرْآنُ أَنْ لَيْسَ لِإِثْبَاتِ الشَّرِيكِ لِلَّهِ سُلْطَانٌ وَمِنْ إِثْبَاتِ الشَّرِيكِ نَفْيُ
الصَّانِعِ وَإِسْنَادُ التَّأثيرِ وَالتَّدْيِيرِ إِلَى غَيْرِهِ كَالذَّهْرِ وَالْمَادَةِ وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ
مِنَ الْعَامَّةِ، أَيُّ لَمْ يَقُمْ بَرَهَاناً مِنَ الْعَقْلِ وَلَا مِنَ الْوَحْيِ عَلَى مَا زَعَمُوا مِنْ
أُلُوهِيَّتِهَا وَاسْطَةِ بَيْنِ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ وَأَمَّا قُلْدُوا فِي إِتَّخَاذِهَا وَاعْتِقَادِهَا آبَاءَهُمْ
الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلِ انْتَهَى.

وَقَالَ الطَّبْرَسِيُّ رحمته أَيُّ بَرَهَاناً وَحُجَّةً يَعْنِي لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ حُجَّةً انْتَهَى.
وَنَظِيرُ ذَلِكَ مَا ذَكَرُوهُ سَائِرُ الْمُفَسِّرِينَ فِي الْمَقَامِ وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ هَذِهِ الْأَقْوَالَ
لَا تَرْجِعُ إِلَى مُحْصَلٍ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْآيَةَ تَدَلُّ بِمَفْهُومِهَا عَلَى أَنَّ الشَّرْكَ بِاللَّهِ إِذَا
نَزَلَ بِهِ سُلْطَانٌ لَا إِشْكَالَ فِيهِ فَلَا يُوْجِبُ الرُّعْبَ وَهُوَ كَمَا تَرَى وَالْعَجَبُ مِنْ
الْمُفَسِّرِينَ حَيْثُ لَمْ يَتَفَتَّحُوا لِهَذَا الْإِشْكَالِ فِي تَفْسِيرِهِمْ غَيْرُ صَاحِبِ الْكُشَافِ
حَيْثُ قَالَ، فَأَنْ قُلْتُ كَانَ هُنَاكَ حُجَّةٌ حَتَّى يَنْزِلَهَا اللَّهُ فَيَصِحَّ لَهُمُ الْإِشْتِرَاكُ،
قُلْتُ لَمْ يَعْزْ أَنَّ هُنَاكَ حُجَّةٌ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَنْزَلْ عَلَيْهِمْ إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ وَقَدْ نَقَلْنَاهُ إِذَا
عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ، لَا شَكَّ فِي أَنَّ، مَا، فِي قَوْلِهِ: يَمَّا أَشْرَكُوا مَصْدَرِيَّةٌ وَالبَاءُ
لِلسَّبَبِ أَيُّ بِسَبَبِ إِشْرَاكِهِمْ وَهَذَا مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ وَأَمَّا الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ: مَا لَمْ
يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا فَهِيَ نَكْرَةٌ مَوْصُوفَةٌ أَوْ بِمَعْنَى، الَّذِي، وَعَلَيْهِ فَتَكُونُ مَوْصُولَةً
فَعَلَى الْأَوَّلِ يَصِيرُ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ الشَّرْكَ يُوْجِبُ الرُّعْبَ فِي قَلْبِ الْمُشْرِكِ إِذَا

وصف بعدم نزول السُّلطان لا مطلقاً وأما إذا لم يوصف به وكان هناك حجة فليس كذلك وعلى الثاني فمعنى الآية الشُّرك الذي لم ينزل به سلطاناً يصير سبباً وداعياً إلى وجود الرُّعب وأما الشُّرك الذي لا يكون كذلك فلا وعلى التقديرين فالإشكال باق على حاله وهو أنَّ الشُّرك الذي نزل به السُّلطان لا يكون موجباً للرُّعب ولا يكون صاحبه ظالماً ولا يكون مأواه النَّار وهذا هو الإشكال المستفاد من مفهوم الآية فقول صاحب الكشاف أنَّ الشُّرك لا يستقيم أن يقوم عليه حجة إلى آخر كلامه، لا يقوم عليه حجة وإنما هو مجرد إدعاء لا ينبغي أن يُسمع على إطلاقه، نعم هو كذلك ما لم ينزل به سلطاناً أي حجة وبرهاناً من العقل والنقل على ما يستفاد من الآية ولتوضيح الكلام نقول السُّلطان معناه في المقام الحجة والبرهان وأصله القوة فسلطان الملك قوته والسلطان البرهان لقوته على دفع الباطل قاله الشيخ الطوسي رحمته في التبيان و به قال الطبرسي في تفسيره وقال القرطبي من العامة في تفسيره في قوله تعالى: مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا أي حجة وبياناً و عذراً وبرهاناً ومن هذا قيل للوالي سلطان لأنه حجة الله في الأرض ويقال أنه مأخوذ من السَّليط وهو ما يضاء به السراج وهو دهن السَّمسم إلى أن قال فأصل السُّلطان القوة فإنه يقهر بها كما يقهر بالسُّلطان انتهى.

قال بعض المفسرين أنَّ المتبادر من الآية أنها تعليل أو تصوير لكونه تعالى خير النَّاصرين للمؤمنين الموحدين وبيانه أنه سيحكم في أعداءهم المُشركين سنة العادلة وهي أنه يلقي في قلوبهم الرُّعب وهو بضَمِّ العين في قراءة الكسائي ويعقوب وبسكونها في قراءة الباقي ومعناه شدة الخوف الذي يملأ القلب بسبب إشراكهم بالله أصناماً ومعبودات لم ينزل بهما سلطاناً أي لم يقم برهاناً من العقل ولا من الوحي على ما زعموا من ألوهيتها واسطة بين الله وبين خلقه إلى أن قال والإشراك قد يكون سبباً طبيعياً لوقوع الرُّعب في القلب وما كان كذلك فأَنَّ الله يسنده إلى نفسه وأن لم يذكر السَّبب لأنه هو واضع

الأسباب والسُنن ولكنّه قد صرّح لنا هنا ليكون برهاناً على بطلان الشّرك و
سوء أثره وهذا الوجه المختار في تفسير الآية يوافق قول من جعل الوعيد فيها
عاماً وليس كلّ الكفر يثير الرّعب بطبيعته وأنّما تلك طبيعة الشّرك وهو اعتقاد
أنّ لبعض المخلوقات تأثيراً غيبياً وراء السّنن الإلهية والأسباب انتهى كلامه.
وقيل في الآية وجهان:

أحدهما: أنّ إلقاء الرّعب خاصّ بتلك الواقعة ولو كان عاماً ليشمل غزوة
حنين ولم يكن الكفّار فيها مرعوبين وكذلك نرى أنّ كثيراً من الكافرين قد
حاربوا ولم يصبهم الرّعب.

ثانيهما: أنّ الآية بيان لسنة إلهية عامّة وهو الحقّ وبيانه يتوقّف على فهم
المعنى المراد من لفظ المؤمنين ولفظ الكافرين وما كان عليه المؤمنون
والكافرون في الوقت الذي نزلت فيه هذه الآيات قال الرّازي في تفسيره،
المسألة الثانية، قوله: **مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا** يوهّم أنّ فيه سلطاناً إلا أنّ الله
تعالى ما أنزله وما أظهره، إلا أنّ الجواب عنه أنّه لو كان لأنزل الله به سلطاناً
فلمّا لم ينزل به سلطاناً وجب عدمه انتهى كلامه.

ولقائل أن يقول عدم النزول لا يدلّ على عدم وجوده في علم الله إذ من
المحتمل وجوده فيه إلا أنّ المصلحة اقتضت عدم نزوله من الله تعالى في
بعض الموارد وما نحن فيه من هذا القبيل قال بعض المُفسّرين من الصّوفية في
المقام كلاماً لا بأس بذكره قال: **مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا** الباء في، به، ظرفية أو
سببية أو للإلتصاق والمعنى بما أشركوا بالله شريكاً لم ينزل بسببه من حيث
شركته برهاناً أو حجة دالة على جواز الإشراك به في الطّاعة وعلى جواز
التوجّه والنّظر اليه ثمّ قال، أعلم أنّ الإنسان سوى المعصومين من أوّل الصبا
كافرٌ محض حالاً و اعتقاداً إلى أوّان المراهقة والبلوغ فإن ساعده التّوفيق و
إنجذب إلى الانقياد لبني وقته على الاعتقاد بالتّوحيد صار مسلماً موحداً
إعتقاداً و أن كان كافراً حالاً لأنّه في دار الكثرة و مقام النّفس التي لا ترى إلا

الكثيرات ولا تتذكر في الفاعلين فاعلاً وحدانياً بل تعتقد فاعلاً وحدانياً فأن ساعده التوفيق وإنجذب من دار الكثرة الى دار الوحدة التي هي دار القلب و دار الإيمان وساق الكلام، الى أن قال فهو قد يجد وجداناً وحالاً فاعلاً إلهياً في الفاعلين فيخرج من الكفر الحالي الى الشرك الحالي ثم الشهودي ثم العياني حتى يخرج من دار الشرك الى دار التوحيد بحيث لا يرى في الوجود إلا الله وحصل معنى لا حول ولا قوة إلا بالله ثم معنى لا إله إلا الله وهناك يخرج من الشرك ويصير موحداً فالإنسان ما دام في دار الكفر والشرك لا يخرج من الإشراك بالله في الوجود ولا في الطاعة لأنه أن لم يطع إنساناً يطع هواه و شيطانياً فأن كان ما أشرك به لله أنزل الله تعالى حجة وبرهاناً في صحة إشراكه حتى كان المشرك موحداً من طريق الإشراك وكان إشراكه مأذوناً فيه ومأجوراً فيه وأن لم ينزل في إشراكه برهاناً و سلطاناً كان إشراكه برهاناً و سلطاناً كان إشراكه كفراً ومهيماً عنه ومورثاً لعقوبة الآخرة فقوله: **يَمَّا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا** يفيد بمفهوم مخالفته أنه أن أشرك بالله من نزل به سلطاناً لم يكن مذموماً وقد فسر الإشراك في الأخبار بالإشراك بالولاية انتهى كلامه هذا تمام الكلام في نقل كلمات المفسرين في تفسير الآية الشريفة والذي يقوي في النظر في المقام هو أن الإشراك بالله قد يكون مقروناً بالحجة والبرهان وقد لا يكون مقروناً بهما والمراد بالحجة هو المعدورية للمكلف من قبيل الله تعالى كما في صورة التقية كما إذا كان الإنسان أسيراً أو مهجوراً أو مغلوباً أو مضطراً للمشرك ففي هذه الموارد يدور الامر بين الحياة والموت فان اظهر الشرك يسلم ولا يقتل ومن المعلوم وجوب حفظ النفس في الشريعة وهذا هو الحجة والبرهان المنزل من عند الله وذلك كما في قصة عمار بن ياسر حيث اظهر الشرك والبطن التوحيد في قلة حفظاً للنفس وخوفاً من القتل وقد ورد في قوله تعالى: **إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ** ^(١) ولا شك أن نزول

الآية في مدحه بمنزلة الأمضاء للشارع وهذا حكم عام في جميع الموارد وما بالنسبة الى جميع الناس فإن خصوص المورد لا ينافي عموم الآية نعم يستفاد من الآية أن الحجة قد تكون في الإشراك الظاهري وأما الواقعي القلبي فلا كما ذكره الزمخشري في الكشف وتبعه غير واحد من المفسرين من أن الشرك لا يستقيم أن يقوم عليه حجة على إطلاقه لا يصح اللهم إلا أن يقال أن مراده بالشرك، الإعتقادي الواقعي وظاهر كلامه بأباه وعليه فمعنى الآية هو أن إلقاء الرعب كان في قلوب المشركين في أحد وغيره لأنهم لم يكونوا في إشراكهم على حجة والله أعلم بكلامه وأما قوله تعالى: **وَمَا أَوْيَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى الظَّالِمِينَ** فقد أخبر الله تعالى بأن مصير هؤلاء إلى النار فهم في الدنيا مرعوبون وفي الآخرة معذبون والفرق بين المأوى والمثوى أن المأوى مكان الرجوع لأنه اسم مكان من أوى إذا رجع، والمثوى اسم مكان من ثوى يثوى إذا قام فالمأوى مكان الرجوع والمثوى مكان الإقامة جمع الله تعالى بين اللفظين في الآية، للتأكيد والمبالغة في الذم والمخصوص بالذم محذوف أي وبئس مثنوى الظالمين النار:

قال الله تعالى: **فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْئَسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ** (١)

قال الله تعالى: **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوِيَكُمْ** (٢).

فقد نبه الله تعالى على الوصف الذي استحقوا به النار وهو الظلم ومجاوزة الحد إذ أشركوا بالله غيره وأي ظلم أعظم من الشرك قال الله تعالى حكاية عن لقمان **وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** (٣).



وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ
 حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ
 مِنْ بَعْدِ مَا أُرْيَكُمُ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ
 الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ
 عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ
 عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنِ
 عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرِيكُمْ
 فَأُثَابِكُمْ عَمَّا بَغِمَ لَكُمْ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَ
 لَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)

◀ اللغة

تَحُسُونَهُمْ: المحس هو القتل على وجه الاستتصال قال جرير:
 تَحَسَّبَهُم السُّيُوفُ كَمَا تَسَامَى حَرِيقُ النَّارِ فِي أَجْمِ الْحَصِيدِ
 وَأَصْلُهُ الْإِحْسَاسُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ^(١).
 فَشِلْتُمْ: الْفِشْلُ الْجُبْنُ يُقَالُ رَجُلٌ فَشِلٌ أَيْ جَبَانٌ وَالْجَمْعُ إِفْشَالٌ.
 صَرَفَكُمْ: يُقَالُ صَرَفْتُهُ عَنْ وَجْهِهِ أَيْ حَوَلْتُهُ.

تُصْعِدُونَ: بَضْمُ النَّاءِ مِنَ الْإِصْعَادِ وَبِفَتْحِهَا مِنَ الصُّعُودِ، قِيلَ الْإِصْعَادُ فِي
 مَسْتَوِي الْأَرْضِ وَالصُّعُودُ فِي إِرْتِفَاعٍ قَالَ أَصْعَدْنَا مِنَ الْكَوْفَةِ إِلَى الْبَصْرَةِ وَقَالَ
 الْقَرَاءُ الْإِصْعَادُ إِبْتِدَاءُ السَّفَرِ وَالْمَخْرَجِ وَالصُّعُودُ مَصْدَرُ صَعَدَ رَقِيٍّ مِنْ سَفَلٍ
 إِلَى عَلَوٍ وَقَالَ الْقَتَبِيُّ أَصْعَدَ أَبْعَدَ فِي الذَّهَابِ فَكَأَنَّهُ إِبْعَادُ كِبَاعِدِ الْإِرْتِفَاعِ وَقَالَ
 الْمِفْضَلُ صَعَدَ وَأَصْعَدَ وَصَعَدَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ وَالصَّعِيدُ وَجْهُ الْأَرْضِ، وَصَعْدَةُ
 إِسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَرْضِ وَأَصْعَدَ مَعْنَاهُ دَخَلَ فِي الصَّعِيدِ.

لَا تَلُونَهُمْ لِأَنَّ الشَّيْءَ يَلِينُ فَهَوَلِينُ وَالْمَصْدَرُ لِيْنٌ يَفْتَحُ اللَّامُ وَأَصْلُهُ فِي الْجَرَمِ نَعُومَتُهُ وَإِنْتِفَاءُ خَشُونَتِهِ وَلَا يَدْرِكُ إِلَّا بِاللَّمْسِ ثُمَّ تَوَسَّعُوا وَنَقَلُوهُ إِلَى الْمَعَانِي.

◀ الإعراب

صَدَقَ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ فِي مِثْلِ هَذَا النَّمُو وَقَدْ يَتَعَدَّى إِلَى الثَّانِي بِحَرْفِ الْجَزْرِ يُقَالُ صَدَقْتَ زَيْدًا فِي الْحَدِيثِ إِذْ تَحْشُونَهُمْ إِذْ ظَرَفَ لَصَدَقَ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا لِلْوَعْدِ حَتَّى يَتَعَلَّقَ بِفِعْلِ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ دَامَ ذَلِكَ إِلَى وَقْتٍ فَشَلَكُمْ، إِذَا فُشِلْتُمْ جَوَابُ إِذَا مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ بَأَنْ أَمْرَكُمْ وَنَحْوَ ذَلِكَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ مَعْطُوفٌ عَلَى الْفِعْلِ الْمَحْذُوفِ إِذْ تُصْعِدُونَ أَيِ إِذْ كَرُوا إِذْ تَصْعَدُونَ لَا تَلُونَهُ الْجُمْهُورُ عَلَى فَتْحِ التَّاءِ وَيَقْرَأُ بَضْمَ التَّاءِ وَمَاضِيهِ، الْوَى وَهِيَ لَغَةٌ عَلَى أَحَدٍ يَفْتَحُ الْحَاءَ وَيَقْرَأُ بَضْمَهَا وَهُوَ الْجَبَلُ وَالرَّسُولُ يَدْعُوَكُمْ الْوَاوُ لِلْحَالِ بِغَمٍّ تَقْدِيرُهُ بَعْدَ غَمٍّ فَعَلَى هَذَا يَكُونُ فِي مَوْضِعِ نَصَبِ صِفَةِ لَغَمٍ وَقِيلَ الْمَعْنَى بِسَبَبِ الْغَمِّ فَيَكُونُ مَفْعُولًا بِهِ التَّقْدِيرُ، بَدَلُ غَمٍّ، فَيَكُونُ صِفَةً لَغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا قِيلَ، لَا زَائِدَةٌ وَقِيلَ لَيْسَتْ زَائِدَةٌ وَالْمَعْنَى عَلَى نَفْيِ الْحُزَنِ عَنْهُمْ بِالتَّوْبَةِ وَكَيْ فِي الْمَقَامِ عَامِلَةٌ بِنَفْسِهَا لِأَجْلِ اللَّامِ قَبْلَهَا.

◀ التفسير

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ مَعْنَاهُ قَدْ وَفَى اللَّهُ لَكُمْ بِمَا وَعَدَكُمْ مِنَ النَّصْرِ وَالْغَلْبَةِ عَلَى عَدُوِّكُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ^(١) وَقِيلَ الْمُرَادُ بِالْوَعْدِ فِي الْآيَةِ هُوَ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِلرَّمَا لَا تَبْرَحُوا هَذَا الْمَكَانَ فَإِنَّا لَنَنْزِلُ غَالِبِينَ مَا ثَبَّتُمْ مَكَانَكُمْ فَكَانَ الْوَعْدُ مَعْلَقًا عَلَى الثَّبَاتِ وَالِاسْتِقَامَةِ إِذْ

تَحْشُونَهُمْ أَي تَقْتُلُونَهُمْ فَأَنَّ الْحَسَّ هُوَ الْقَتْلُ عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِصَالِ وَأَصْلُهُ الْإِحْسَاسُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ^(١).

وَحَسَّهُ، يَحْسُهُ إِذَا قَتَلَهُ لِأَنَّهُ أَبْطَلَ حَسَّهُ بِالْقَتْلِ وَقَدْ جَاءَ التَّحَسُّسُ بِمَعْنَى طَلَبِ الْأَخْبَارِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ^(٢) وَذَلِكَ لِأَنَّهُ طَلَبَ لِهَمَا بِحَاسَةِ السَّمْعِ، قَالَ أَبُو عَلِيٍّ إِذْ تَحْشُونَهُمْ يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى قِيلَ أَي يَعْلَمُهُ وَقِيلَ بِلُطْفِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ أَي جَبَنْتُمْ عَنْ عَدُوِّكُمْ وَضَعَفْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ أَي إِخْتَلَفْتُمْ وَعَصَيْتُمْ الرَّسُولَ ﷺ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَيْكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنَ النَّصْرَةِ عَلَى الْكُفَّارِ وَالظُّفَرِ بِهِمْ، أَكْثَرُ الْمَفْسَّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْجَمِيعِ يَوْمَ أَحَدٍ خِلَافًا لِأَبِي عَلِيٍّ الْجَبَائِي حَيْثُ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: إِذْ تَحْشُونَهُمْ أَي تَقْتُلُونَهُمْ هُوَ يَوْمَ بَدْرٍ وَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ هُوَ يَوْمَ أَحَدٍ وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَ تَنَازَعْتُمْ وَ عَصَيْتُمْ يَوْمَ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَيْكُمْ اللَّهُ مَا تُحِبُّونَ مِنَ النَّصْرِ وَالْغَلْبَةِ يَوْمَ بَدْرٍ

قَالَ الطَّبْرَسِيُّ رحمته بَعْدَ نَقْلِهِ مَا نَقَلْنَاهُ وَالْأُولَى أَنْ يَكُونَ حِكَايَةً عَنْ يَوْمٍ أَحَدٍ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا يَعْنِي الْغَنِيمَةَ أَوْ الْبَقَاءَ فِيهَا وَهُمْ الَّذِينَ أَخْلَوْا الْمَكَانَ الَّذِي رَتَّبَهُ النَّبِيُّ فِيهِ وَأَمَرَهُمْ بِلُزُومِهِ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ أَمِيرُ الْقَوْمِ وَمَنْ أَطَاعَهُ فِي الثَّبَاتِ وَالْإِسْتِقَامَةِ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ قَالَ الشَّيْخُ فِي التَّبْيَانِ قِيلَ فِي إِضَافَةِ إِنْصَرَفَهُمْ إِلَى اللَّهِ مَعَ أَنَّهُ مَعْصِيَةٌ قَوْلَانِ:

أحدهما: أَنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقَيْنِ مِنْهُمْ مَنْ عَصَى بِإِنْصَرَفِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَعِصْ لِأَنَّهُمْ قَلُّوا بَعْدَ إِنْهَازِ تِلْكَ الْفَرَقَةِ فَأَنْصَرَفُوا بِإِذْنِ اللَّهِ بِأَنْ إِنْتَجَبُوا إِلَى أَحَدٍ لِأَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَوْجَبَ ثَبَاتَ الْمَائَةِ لِلْمُتَتِّينِ فَإِذَا نَقَصُوا لَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَجَازُ أَنْ يَذَكَرَ الْفَرِيقَيْنِ فِي الْجُمْلَةِ بِأَنَّهُ صَرَفَهُمْ وَبِأَنَّهُ عَفَا عَنْهُمْ وَيَكُونُ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي التَّفْصِيلِ هَذَا قَوْلُ أَبِي عَلِيٍّ.

ثانيها: قال البلخي **ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ** معناه لم يأمركم بمعاودتهم من فورهم لئيبثليكم بالمظاهرة في الأنعام عليكم والتخفيف عنكم، ونقل بعض المفسرين عن جعفر بن حرب قولاً ثالثاً وهو أن معناه رفع النصرة وكلكم أي أنفسكم بخلافكم النبي ﷺ فأنهزمتكم لئيبثليكم أي ليختبركم أي يعاملكم معاملة المختبر مظاهرة في العدل وذلك أنه تعالى إنما يجازي عباده على ما يفعلونه دون ما قد علمه منهم قاله الطبرسي وقال في التبيان لئيبثليكم، بالمظاهرة في الأنعام عليكم والتخفيف عنكم **وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ** قيل أن العفو خاص لمن لم يعص بإنصرافه، وقيل عام في جميعهم إذ لا يمتنع أن يكون الله عفا لهم عن هذه المعصية وقال البلخي معناه **وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ** تتبعهم بعد أن كان أمرهم بالتتابع لهم فلما بلغوا حمراء الأسد أعفاهم من ذلك ولا يجوز أن يكون صرفهم فعل الله لأنه قبيح وهو تعالى منزلة عن فعله **وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** بنعم الدنيا والدين أو بغفران ذنوبهم وقيل بعدم استيصالهم كما فعل بمن كان قبلهم.

قال الرَّاغِب في المفردات، الفضل الزيادة عن الاقتصار، أقول قد ثبت أن الفضل في اللغة الزيادة ومنه قوله ﷺ **(عَوِّدُوا بِالْفَضْلِ عَلَى مَنْ حَرَمَكُمْ)** هذا تمام الكلام في تفسير الألفاظ وأعلم أن في هذه الآية أموراً لابد من التنبيه عليها، منها أنه لما رجع رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة وقد أصابهم ما أصابهم بأحد قال ناس من أصحابه من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فأنزل الله تعالى هذه الآية ثم اختلفوا في النصر الموعود فقال بعضهم كان النبي رأى في المنام أنه يذبح كبشاً فصَدَّقَ الله رؤياه بقتل طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين يوم أحد وقتل بعده تسعة نفر على اللواء فذاك قوله لقد صدقكم الله وعده يريد تصديق رؤيا الرسول ﷺ، وقال بعض آخر المراد بالوعد ما ذكره في قوله تعالى أن نصبر وتتقوا الآية وقد ذكرناها إلا أن هذا كان مشروطاً بشرط الصبر والتقوى.

و ثالث الأقوال هو أن المراد بالوعد قوله تعالى: **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ**^(١) وهو أيضاً مشروط ورابعها أن يكون الوعد هو قوله تعالى: **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ** وخامس الأقوال هو أن الوعد أن النبي ﷺ قال للرماة لا تبرحوا من هذا المكان فإننا لا نزال غالبين مادمتم في هذا المكان إذا عرفت هذا فنقول لما وعدهم الله النصر بشرط أن يتقوا ويصبروا فحين أتوا بذلك الشرط لاجرم وفي الله بالمشروط وأعطاهم النصر فلما تركوا الشرط لاجرم فأتهم المشروط فأَنْ وجود المشروط قد توقف على وجود شرط وأن شئت قلت المشروط يدور مدار الشرط وجوداً وعدمًا ولما كان التخلف عن الشرط في اخذ منهم فلاجرم اصابهم ما اصابهم فصح قوله تعالى: **لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ** فإنه تعالى لا يخلف الميعاد الا ترى أنه تعالى يقول: **إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ** ثبت أن المسلمين غلبوا على الكفار في أول الأمر ووضعوا فيهم السيوف وشرعوا في نهب أموالهم حتى إذا خلى الرماة مكانهم حمل خالد بن الوليد وأصحابه على عبد الله بن جبير ومن بقى معه فقتلوه وحملوا على المؤمنين من ورائهم ورجع المشركون عن هزيمتهم ووضعوا السيوف في المسلمين وقتلوا منهم سبعين.

الأمر الثاني: يستفاد من الآية أن الاختلاف والتنازع في المسلمين يوجب غلبة الكفار عليهم كما قال الله تعالى: **وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا**^(٢).

و خصوص المورد لا ينافي عموم الآية ألا ترى أن المسلمين بعد الرسول لما تفرقوا وتشبوا وافترقوا الى ثلاث وسبعين فرقة صاروا مقهورين مغلوبين ومع ذلك محتاجين الى الكفار في جميع الشئون ومن المعلوم الثابت عند العقل والنقل أن الإسلام يعلو ولا يُعلَى عليه وقال الله تعالى: **وَلَا تَهِنُوا وَلَا**

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

تَخْزَنُوا وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ^(١) صدق الله في وعده وكذب المسلمون في إدعائهم الإيمان فلا محالة وقعوا فيما وقعوا من الخسران في الدارين.

الأمر الثالث: ما المراد بقوله: مِنْ بَعْدِ مَا أُرِيكُمْ مَا تُحِبُّونَ قال المفسرون أي من النصرة على الكفار وهزيمتهم والظفر بهم والغنيمة وقال أبو علي الجبائي ومن تابعه، أي يوم بدر، والحق أن المراد بقوله: مَا تُحِبُّونَ متاع الدنيا أي تنازعتم وعصيتم الله ورسوله من بعد ما أريكهم الله الغنائم وفيه إيحاء إلى أن أكثر المسلمين في صدر الإسلام كان هدفهم الدنيا والوصول إلى زخارفها ولأجل ذلك أن القوم لما رأوا هزيمة الكفار وطمعوا في الغنيمة فشلوا في أنفسهم عن الثبات طمعاً فيها ثم إشتغلوا بطلبها.

الأمر الرابع: ما المراد بقوله: ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وكيف أضاف الله تعالى صرفهم إلى نفسه ومن المعلوم أن صرفهم عن الكفار معصية قال الرازي في تفسيره لهذا الكلام ما هذا لفظه، أما أصحابنا (أي الأشاعرة) فهذا الإشكال غير وارد عليهم لأن مذهبهم أن الخير والشر بإرادة الله وخلقهم فعلى هذا قالوا معنى هذا الصّرف أن الله ردّ المسلمين عن الكفار وألقى الهزيمة عليهم وسلط الكفار عليهم وهذا قول جمهور المفسرين وقالت المعتزلة هذا التأويل غير جائز ويدل عليه القرآن والعقل، أما القرآن فهو قوله تعالى: إِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا^(٢) فأضاف ما كان منهم إلى فعل الشيطان فكيف يضيفه بعد هذا إلى نفسه، وأما المعقول فهو أنه تعالى عاقبهم على ذلك الإنصراف ولو كان ذلك بفعل الله لم يجز معاقبته القوم عليه كما لا يجوز معاقبتهم على طولهم وقصرهم وصحتهم ومرضهم ثم عند هذا ذكروا وجوهاً من التأويل انتهى.

أقول ثم ذكر الرّازي الوجوه وأحسنها الوجه الثّاني وحاصله أنّ المراد من قوله: ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ أَنَّهُ تَعَالَى أَزَالَ الرُّعْبَ عَنْ قُلُوبِ الْكَفَّارِ بِسَبَبِ عَصِيَانِ الْمُسْلِمِينَ عَقُوبَةً مِنْهُ عَلَى عَصِيَانِهِمْ وَفَشْلِهِمْ ثُمَّ قَالَ: لِيُبَيِّنَ لَكُمْ أَيُّ لِيَجْعَلَ ذَلِكَ الصَّرْفَ مُحَنَةً عَلَيْكُمْ لِتَتُوبُوا إِلَيَّ وَتَرْجِعُوا إِلَيْهِ وَتَسْتَغْفِرُوهُ فِيمَا خَالَفْتُمْ فِيهِ أَمْرَهُ وَمَلْتُمْ فِيهِ إِلَى الْغَنِيمَةِ ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ قَدْ عَفَا عَنْهُمْ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِكَلَامِهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

اذْ تَصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرِيكُمْ فَأُثَابِكُمْ غَمًّا بَعْمَ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

اذ متعلق بقوله: وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَقِيلَ متعلق بمحذوف أي، أذكروا اذ تصعدون، والمشهور في القراءة، ضَمُّ التَّاءِ وكسر العين من الإصعاد والسَّير في مستوٍ من الأرض و بطون الأودية والشَّعَابِ وعليه فالمعنى لقد عفا عنكم، أو أذكروا اذ تذهبون في وادي أحد للإِهْزَامِ فراراً من العدو، وقرأ الحَسَنُ وقتادة وغيرهما بفتح التَّاءِ والعين من صَعَدَ يَصْعَدُ صُعُوداً والصُّعُودُ والإِرتِفَاعُ على الجبال والسطوح والسَّلاطِمِ والدَّرَجِ فالمعنى أذكروا، أو لقد عفا عنكم اذ صعدتم الجبل فراراً من العدو وقرأ بعض آخر بالياء فيهما أي في تصعدون تلون، قوله: وَلَا تَلْوُونَ فَقَدْ قرأ الحَسَنُ بواوٍ واحدة والباقي واضح بواوين ومعناه التَّوَجُّهُ والالتفات اى كنتم لا تلتفتون الى احد من الهرب والهزيمة قيل و اصله انّ المعرج على الشئى يلوى الله عنصة او عنان دابته فاذا مطى ولم يعرج قيل لم يلوى ثم استعمل يلوى فى ترك على الشئى وترك الالتفات اليه يقال فلان لا يلوي على شئى أي لا يعطف عليه ولا يبالي به اذا عرفت هذا فنقول فيه إشارة الى عدم مبالاهم بما فعلوا من الفرار من الرّحف ومخالفة الرّسول وهو دليل على عدم رسوخ الإيمان في قلوبهم اذ المؤمن بالله و

برسوله لا يفرّ من الجهاد ولا يترك الرّسول في معركة القتال فإنّ الفرار بهذا المعنى فرار من الدّين في الحقيقة ومن كان كذلك فلا كلام لنا معه وَالرّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيْ أَخْرِيْكُمْ أَي كيف تفرّون وتصدّون الجبل ولا تلتفتون الى وراءكم والرّسول يدعوكم، الى الجهاد ويقول أي عباد الله أرجعوا الى جهاد عدّوكم قال بعض المفسّرين، في تفسير الآية، الأخرى مقابل الأولى وكون الرّسول يدعوهم وهو في أخريهم يدلّ على أنّهم تفرّقوا عنه ﷺ وهم سواد ممتدّ على طوائف أوليهم مبتعدون عنه وأخراهم يقرب منه وهو يدعوهم من غير أن يلتفت اليه لا أوليهم ولا أخريهم فتركوه بين جموع المشركين وهم يصعدون فراراً من القتل وقال الرّازي يحتمل أن يكون المراد أنّه ﷺ كان يدعوهم الى نفسه حتّى يجتمعوا عنده ولا يفرّقوا ويحتمل أن يكون المراد أنّه ﷺ كان يدعوهم الى المحاربة مع العدوّ ثمّ قال، في أخريكم يقال جئت في آخر النّاس وأخريهم كما يقال في أولهم وأولاهم والمعنى أنّه ﷺ كان يدعوهم وهو واقف في آخرهم لأنّ القوم بسبب الهزيمة قد تقدّموه فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ الْغَمِّ بفتح الغين المعجمة وتشديد الميم في اللّغة، التغطية يقال غممت الشّيء، غطيته والمعنى فجازاكم الله غمّاً بغمّ، قال القرطبي، الغمّ الأوّل القتل والجراح، والغمّ الثّاني الإرجاف بقتل النّبي ﷺ اذ صاح به الشّيطان، وقيل الغمّ الأوّل ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والثّاني، ما أصابهم من القتل والهزيمة.

وقيل الغمّ الأوّل الهزيمة والثّاني إشراف أبي سفيان وخالد عليهم في الجبل، الحسن فَأَثَابَكُمْ غَمًّا يوم أحد يَغْمُّ يوم بدر للمشركين، وقال الرّازي نقلاً عن الرّجاج، أي أنكم أدقتم الرّسول غمّاً بسبب إن عصيتم أمره فالله تعالى أذاقكم هذا الغمّ وهو الغمّ الّذي حصل لهم بسبب الإنهزام وقتل الأحباب والمعنى جازاكم من ذلك الغمّ بهذا الغمّ، وقال الفيض ﷻ في الصّافي فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ أَي فجازاكم عن فشلكم وعصيانكم غمّاً متّصلاً

بِغَمٍّ، الْقَمِي عَنْ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَمَّا الْغَمُّ الْأَوَّلُ فَالْهَزِيمَةُ وَالْقَتْلُ، وَ الْغَمُّ الْآخِرُ إِشْرَافُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ عَلَيْهِمْ إِنَّتَهَى.

أَقُولُ وَ عَلَيْهِ فَالْبَاءُ بِمَعْنَى، عَلَى، أَيْ غَمًّا عَلَى غَمٍّ أَوْ بِمَعْنَى، مَعَ، أَيْ غَمًّا مَعَ غَمٍّ.

إِنْ قُلْتَ لِمَ سُمِّيَ الْغَمُّ ثَوَابًا وَالْمَشْهُورُ أَنَّ الثَّوَابَ يَسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ قُلْتَ قَدْ أَجَابُوا عَنْهُ بِوَجْهَيْنِ.

أحدهما: أَنَّ الثَّوَابَ كَمَا يَسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ كَذَلِكَ يَجُوزُ اسْتِعْمَالُهُ فِي الشَّرِّ لِأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ ثَابَ إِلَيْهِ عَقْلُهُ أَيْ رَجَعَ إِلَيْهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَإِذْ جَعَلْنَا أَلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ^(١) أَيْ مَرْجَعًا لَهُمْ وَأَصْلُ الثَّوَابِ كُلُّ مَا يَعُودُ إِلَى الْفَاعِلِ مِنْ جِزَاءِ فَعْلِهِ سِوَاءِ كَانَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا إِلَّا أَنَّهُ بِحَسَبِ الْعَرَفِ اخْتَصَّ لَفْظُ الثَّوَابِ بِالْخَيْرِ أَيْ النَّعِيمِ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْجِزَاءُ ثَوَابًا وَ مَثُوبَةً لِأَنَّ الْمُحْسِنَ يَثُوبُ إِلَيْهِ أَيْ يَرْجِعُ وَ أَثَابَهُمْ أَيْ جَازَاهُمْ وَأَثَابَهُ اللَّهُ مِثْلَهُ.

ثانيهما: أَنَّ يَكُونُ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ كَمَا يُقَالُ تَحَيَّتِكَ الضَّرْبُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ^(٢).

وَقِيلَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا أَرَادَ بِقَوْلِهِ: غَمًّا بِغَمٍّ ائْتِنِينَ وَإِنَّمَا أَرَادَ مُوَاصِلَةَ الْغَمُوضِ وَ طُولُهَا أَيْ أَنَّ اللَّهَ عَاقَبَكُمْ بِغَمُومٍ كَثِيرَةٍ مِثْلَ قَتْلِ إِخْوَانِكُمْ وَأَقَارِبِكُمْ وَ نَزُولِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ فَوْقِ الْجَبَلِ عَلَيْكُمْ بِحَيْثُ لَمْ تَأْمَنُوا أَنَّ يَهْلِكُ أَكْثَرُكُمْ وَ مِثْلَ إِقْدَامِكُمْ عَلَى الْمَعْصِيَةِ فَكَأَنَّهُ قَالَ، أَتُنَابِكُمْ هَذِهِ الْغُمُومُ الْمُتَعَاقِبَةُ لِيَصِيرَ ذَلِكَ زَاجِرًا لَكُمْ عَنْ الْإِقْدَامِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَالِإِشْتَغَالِ بِمَا يُخَالِفُ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى، ذَكَرَهُ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ وَالْحَقُّ أَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ عَلَى خِلَافِهِ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ اإِخْتَلَفُوا فِي مَتَعَلَقِ اللَّامِ فِي قَوْلِهِ: لِكَيْلَا عَلَى قَوْلَيْنِ.

في تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

أحدهما: أنها متعلقة بقوله: **وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ** أي ولقد عفا عنكم لكيلا تحزنوا الآية **ثانيها:** أنها متعلقة بقوله: **فَأَثَابَكُمْ غَمًّا** أي كان هذا الغم بعد الغم لكيلا تحزنوا على ما فات من الغنime ولا ما أصابكم من الهزيمة، وكلمة ما في قوله: **مَا أَصَابَكُمْ** في موضع خفض وقيل، لا، صلة أي لكي تحزنوا على ما فاتكم وما أصابكم عقوبة على مخالفتكم رسول الله ﷺ وهو مثل قوله: **مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ** ^(١) أي أن تسجد وقوله تعالى لنلا يعلم اهل الكتاب اى لعلم وهذا قول المفضل واما قوله: **اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** قيل فيه معنى التحذير والوعيد وقيل فيه ترغيب للطاعة وترهيب للمعصية ومعنى الخبير العالم بما كان وما يكون لا يغرب عنه شىء ولا يفوته شىء الله اعلم.



ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)

◀ اللغة

أَمَنَةً: بفتح الميم و سكنونها مصدر كالأمن و قيل إسمٌ للأمن، نقل عن الجبائي أنه قال، الأمانة مصدر كالأمن يقال أَمِنَ فلان يأمن أَمْنًا و أَمَنَةً و أَمَانًا؛ و قال صاحب الكشاف أنها مرّة من الأمن والميم ساكنة.

نُعَاسًا: النعاس بالضم النون أول النوم و هي ريح لطيفة تأتي من قبل الدماغ تغطي العين ولا تصل إلى القلب فاذا وصلت إليه كان نومًا.
يَغْشَى، غَشَى يَغْشَى غَشْيًا: و غشاية غَطَاه و حلَّ به.
يُبْدُونَ: أي يظهرون.

لَبَّرَ: يُقَالُ بَرَزَ بُرُوزاً خَرَجَ إِلَى الْبَرَزِ أَيْ الْفُضَاءِ.
وَلْيُمَحِّصْ: مَحَّصٌ يُمَحِّصُ تَحْيِصاً يُقَالُ مَحَّصَ اللَّهُ عَنْ فُلَانٍ ذَنْبَهُ أَيْ
نَقَضَهَا وَطَهَّرَهَا مِنْهَا.
تَوَلَّوْا: التَّوَلَّى الْإِعْرَاضَ وَالْبَاقِيَ وَاضِحٌ.

◀ الإعراب

أَمَنَةً نُّعَاسًا الْأَمَنَةُ مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ وَنُعَاسًا، بَدَلٌ مِنْهَا وَقِيلَ أَنَّ
النُّعَاسَ نَصَبٌ عَلَى الْمَفْعُولِ لَهُ كَأَنَّهُ قَالَ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ لِلْأَمَنَةِ نُعَاسًا وَقِيلَ أَنَّهُ
عُطِفَ بَيَانٌ لِلْأَمَنَةِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نُعَاسًا هُوَ الْمَفْعُولُ وَأَمَنَةٌ، حَالٌ مِنْهُ وَ
الْأَصْلُ، أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ نُعَاسًا ذَا أَمَنَةٍ لِأَنَّ النُّعَاسَ لَيْسَ هُوَ الْأَمْنُ بَلْ هُوَ الَّذِي
حَصَلَ الْأَمْنُ بِهِ يَغْشَى قَرَأَ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ الْيَاءَ لِلنُّعَاسِ، وَالتَّاءُ لِلْأَمَنَةِ وَهُوَ فِي
مَوْضِعِ نَصَبٍ لَمَّا قَبْلَهُ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ مَبْتَدَأُ وَخَبَرٌ يَظُنُّونَ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ
فِي أَهَمَّتْهُمْ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ، أَهَمَّتْهُمْ، صِفَةٌ، وَيَظُنُّونَ الْخَبَرُ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ وَ
الْعَامِلُ، يَغْشَى وَتَسْمَى هَذِهِ الْوَاوُ وَآوُ الْحَالِ غَيْرَ الْحَقِّ الْمَفْعُولِ الْأَوَّلِ أَيْ أَمْرًا
غَيْرَ الْحَقِّ بِاللَّهِ الثَّانِي ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ مُصَدَّرٌ تَقْدِيرُهُ ظَنًّا مِثْلَ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ
شَيْءٍ مِنْ زَائِدَةٍ وَمَوْضِعُهُ رَفَعٌ بِالْإِبْتِدَاءِ وَفِي الْخَبَرِ وَجْهَانِ:
أَحَدُهُمَا: لَنَا، فَمِنْ الْأَمْرِ عَلَى هَذَا حَالٌ إِذَا الْأَصْلُ هَلْ شَيْءٌ مِنَ الْأَمْرِ.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَمْرِ هُوَ الْخَبَرُ، لَنَا تَبْيِينٌ وَتَمُّ الْفَائِدَةِ كَقَوْلِهِ: وَلَمْ يَكُنْ
لَهُ كُفُوءٌ أَحَدٌ، كُلُّهُ لِلَّهِ يَقْرَأُ بِالنَّصْبِ عَلَى التَّوَكِيدِ أَوْ الْبَدَلِ، وَلِلَّهِ الْخَبَرُ، وَبِالرَّفْعِ
عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَلِلَّهِ الْخَبَرُ وَالْجُمْلَةُ خَبَرٌ، أَنْ يَقُولُونَ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي،
يَخْفُونَ، وَشَيْءٌ إِسْمٌ كَانَ، وَالْخَبَرُ، لَنَا، أَوْ مِنَ الْأَمْرِ مِثْلَ هَلْ لَنَا، لَبَّرَ الَّذِينَ
بِالْفَتْحِ وَالتَّخْفِيفِ وَيُقْرَأُ بِالتَّشْدِيدِ عَلَى مَا لَمْ يَسْمَ فَاعِلُهُ أَيْ أَخْرَجُوا بِأَمْرِ اللَّهِ
إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ النَّعْيِ الْجَمْعَانِ مَبْتَدَأُ وَإِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ
بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا خَبَرُهُ.

◀ التفسير

ثم ذكر الله تعالى ما أنعم به عليهم بعد هذه العموم في يوم أحد بالنعاس حتى نام أكثرهم فقال: ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَاعَسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ أَي وَهَبَ اللَّهُ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ نَعَسًا أَي نَوْمًا قِيلَ وَهُوَ بَدَلُ الإِشْتِمَالِ عَنْ، أَمْنَةٍ، لِأَنَّ النَّوْمَ يَشْتَمِلُ عَلَى الْأَمْنِ فَأَنَّ الْخَائِفَ لَا يَنَامُ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَالَ غَشِينَا النَّعَاسَ وَنَحْنُ فِي مَصَافِنَا يَوْمَ أُحُدٍ فَجَعَلَ سِيفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي وَأَخَذَهُ وَيَسْقُطُ وَأَخَذَهُ ثُمَّ أَتَاهُمْ إِخْتَلَفُوا فِي الْوَقْتِ الَّذِي غَشِيَهُمْ فِيهِ النَّعَاسُ فَقَالَ الْجُمْهُورُ حِينَ إِرْتَحَلَ أَبُو سَفْيَانَ مِنْ مَوْضِعِ الْحَرْبِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِّي وَكَانَ مِنَ الْمُتَحِيزِينَ إِلَيْهِ أَذْهَبَ فَأَنْظِرْ إِلَى الْقَوْمِ فَإِنْ كَانُوا جَنَّبُوا الْخَيْلَ فَهُمْ نَاهِضُونَ إِلَى مَكَّةَ وَأَنْ كَانُوا عَلَى خَيْلِهِمْ فَهُمْ عَائِدُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْبِرُوا وَوَطَّنْهُمْ عَلَى الْقِتَالِ فَمَضَى عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ رَجَعَ فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ جَنَّبُوا الْخَيْلَ وَقَعَدُوا عَلَى أَثْقَالِهِمْ عَجَالًا فَأَمَّنَ الْمُؤْمِنُونَ الْمَصْدُقُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَأَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّعَاسَ وَبَقِيَ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ لَا يَصْدُقُونَ بَلْ كَانُوا ظَنُّهُمْ أَنَّ أَبَا سَفْيَانَ يَوْمَ الْمَدِينَةِ فَلَمْ يَقَعْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ النَّوْمُ وَأَتَمَّاكَانَ هَمَّهُمْ فِي أَحْوَالِ الدَّنْيَا وَالْإِيَّاهُ هَذَا أَشَارَ بِقَوْلِهِ: يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَطَائِفَةً قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ مِثْلَ مَعْتَبِ بْنِ قَتِيرٍ وَأَصْحَابِهِ وَكَانُوا خَرَجُوا طَمَعًا فِي الْغَنِيمَةِ فَلَمْ يَغْشِهِمُ النَّعَاسُ وَجَعَلُوا يَتَأَسَّفُونَ عَلَى الْحُضُورِ وَيَقُولُونَ الْأَقْوِيلُ وَمَعْنَى قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ حَمَلَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ عَلَى الْهَمِّ، وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ الْمَعْنَى أَنَّ نَفْسَهُمُ الْمَرِيضَةُ وَظَنُّونَهُمُ السَّيِّئَةُ قَدْ جَلَبَتْ إِلَيْهِمْ خَوْفَ الْقَتْلِ، وَ قَالَ بَعْضُهُمْ هُوَ مَنْ هَمَّ بِالشَّيْءِ أَرَادَ فَعَلَهُ وَالْمَعْنَى أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمُ الْمَكَاشِفَةُ وَ نَبَذَ الدِّينَ وَهَذَا لِقَوْلِ لِمَنْ قَالَ قَتَلَ مُحَمَّدٌ فَلَنَرْجِعَ إِلَى دِينِنَا الْأَوَّلِ وَقِيلَ مَعْنَاهُ مَا بِهِمُ إِلَّا هُمْ أَنْفُسُهُمْ لَا هَمَّ الدِّينَ وَلَا هَمَّ رَسُولَ اللَّهِ وَالْمُسْلِمِينَ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ

غَيْرَ الْحَقِّ ظَنُّ الْجَاهِلِيَّةِ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمَنَافِقِ مِثْلَ ظَنِّهِمْ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَيْسَ بِحَقٍّ وَأَنَّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ يَذْهَبُ وَيَزُولُ وَمَعْنَى ظَنُّ الْجَاهِلِيَّةِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ الْمُدَّةُ الْجَاهِلِيَّةُ الْقَدِيمَةُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ كَمَا قَالَ حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ، وَقَالَ وَلَاتَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ الْمَعْنَى ظَنُّ الْفِرْقَةِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِشَارَةُ إِلَى أَبِي سَفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ وَمَالَ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ الطَّبْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَقَالَ مُقَاتِلٌ، ظَنُّوا أَنَّ أَمْرَهُ مَضْمُوحٌ، وَقَالَ الرَّجَاجُ أَنَّ مَدَّتَهُ قَدْ انْقَضَتْ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ وَقِيلَ ظَنُّ الْجَاهِلِيَّةِ بِإِبْطَالِ الشَّرَائِعِ وَالنَّبَوَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْحَقُّ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ الظَّنِّ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ مُحَقَّقًا فِي دَعْوَاهُ لَمَا سَلَطَ الْكُفَّارُ عَلَيْهِ أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْكُرُونَ إِلَهَ الْعَالَمِ بِكُلِّ الْمَعْلُومَاتِ وَالْقَادِرَ عَلَى كُلِّ الْمَقْدُورَاتِ وَيَنْكُرُونَ النَّبُوَّةَ وَالْبَعْثَ فَلَا جَرَمَ مَا وَقَعُوا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَنَّ اللَّهَ يَقْوِيهِمْ وَيَنْصُرُهُمْ وَالْإِحْتِمَالَاتِ كَثِيرَةٌ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قِيلَ هَذَا تَفْسِيرٌ لظَنِّهِمْ يَعْنِي يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ هَلْ لَنَا مِنَ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ وَالظَّفَرِ نَصِيبٌ وَأَمَّا قَالُوا ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّعَجُّبِ وَالْإِنْكَارِ وَقِيلَ أَنَّ مَعْنَاهُ إِنَّا أَخْرَجْنَا كُرْهًا وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ لَنَا مَا أَخْرَجْنَا قَالَ الزَّبِيرُ أَرْسَلَ عَلَيْنَا النَّوْمُ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَأَنْتِي لِأَسْمَعَ قَوْلَ مُعْتَبِّ بْنِ قُتَيْبٍ وَالنَّعَّاسِ يَغْشَانِي يَقُولُ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَتَلْنَا هُمَا هُنَا وَقِيلَ الْمَعْنَى يَقُولُ لَيْسَ لَنَا مِنَ الظَّفَرِ الَّذِي وَعَدْنَا بِهِ مُحَمَّدٌ شَيْءٌ وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ وَالْأَمْرُ سَهْلٌ بَعْدَ وَضُوحِ الْمُرَادِ، ثُمَّ أَنَّ الْإِسْتِفْهَامَ مَعْنَاهُ الْجَحْدُ، أَيُ لَيْسَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَأَمَّا أَخْرَجْنَا كُرْهًا قُلْ: إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ أَيُ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمَنَافِقِينَ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ لَا لَكُمْ وَلَا لِعَٰلِمٍ غَيْرِكُمْ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يَرِيدُ وَلَيْسَ لغيرِهِ ذَلِكَ قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ، كُلَّهُ، بِالرَّفْعِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَخَبْرُهُ، لِلَّهِ، وَالْجُمْلَةُ خَبَرٌ أَنَّ وَالْباقُونَ بِالنَّصْبِ أَمَّا الرَّفْعُ فَوَاضِحٌ وَأَمَّا عَلَى الْقَوْلِ بِالنَّصْبِ فَهُوَ تَوْكِيدٌ لِلأَمْرِ وَالْمَعْنَى أَنَّ الْأَمْرَ أَجْمَعَ لِلَّهِ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ، أَجْمَعَ،

لا يكون إلا توكيداً وقيل، نعتٌ للأمر وقال الأخفش، بدل أي النصر بيد الله ينصر من يشاء ويخذل من يشاء والمراد أعم من التكويني والتشريعي يعني فكما أن الإيجاد بأمره تعالى كذلك التشريع ولا خلاف فيه بين المسلمين و أنما الخلاف في جواز تخلف المراد عن الإرادة وعدمه في التشريعات. وأما الأمر التكويني الإيجادي فلا خلاف في عدم تخلف المراد عن الإرادة.

قال الله تعالى: أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ^(١).

قال الله تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٢).

قال الله تعالى: وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ^(٣).

قال الله تعالى: إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٤).

قال الله تعالى: فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٥) والآيات كثيرة.

إذا عرفت هذا فنقول، قال الرّازي في تفسيره في هذا المقام:

المسألة الثالثة: إحتج أصحابنا بهذه الآية على أن جميع المحدثات بقضاء الله وقدره وذلك لأن المنافقين قالوا أن محمداً لو قبل منا رأينا ونصحننا لما وقع في هذه المحنة فأجاب الله عنه، بأن الأمر كله لله، وهذا الجواب أنما ينتظم لو كانت أفعال العباد بقضاء الله وقدره ومشيتته اذ لو كانت خارجة عن مشيتته لم يكن هذا الجواب دافعاً لشبهة المنافقين فثبت أن هذه الآية دالة على ما ذكرنا وأيضاً فظاهر هذه الآية مطابق للبرهان العقلي وذلك لأن الموجود أمّا واجب لذاته أو ممكن لذاته والممكن لذاته لا يترجح وجوده على عدمه إلا عند الانتهاء الى الواجب لذاته فثبت أن كل ما سوى الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ٤

الجلد الرابع

٢- يس = ٨٢

٤- مريم = ٣٥

١- الأعراف = ٥٤

٣- يوسف = ٢١

٥- غافر = ٦٨

مستند الى ايجاده وتكوينه وهذه القاعدة لا إختصاص لها بمحدثٍ دون محدثٍ أو ممكن دون ممكن فتدخل فيه أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم وذلك هو المراد بقوله: قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ وهذا كلام في غاية الظهور لمن وفقه الله للإبصار انتهى كلامه بألفاظه وعباراته.

أقول أما قوله أَنَّ جميع المحدثات بقضاء الله وقدره، فلا كلام لأحد فيه و يؤيده العقل والنقل وستكلم في القضاء والقدر في موضعه إن شاء الله تعالى مفصلاً والذي نقول في المقام هو أَنَّ القضاء في الأصل بمعنى فصل الأمر قولاً كان ذلك أو فعلاً وكل واحدٍ منهما على وجهين:

إلهي وبشري، فمن القول الإلهي قوله:

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ^(١).

أي أمر بذلك وقوله:

وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ.

أي اعلما و اوحينا اليهم و حياً جزماً و على هذا قوله:

وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ^(٢).

ومن العقل التي قوله:

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ^(٣).

وقوله: فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ^(٤).

وهو اشارة الى ايجاده والابداعي والفراغ منه و على هذا قوله:

فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٥).

إذا عرفت هذا فنقول، قضاء الله وقدره ليس في جميع الموارد من القسم الثاني وهو الإيجادي الإبداعي حتى كان جميع ما سوى الله تعالى مستنداً

الى إيجاده و تكوينه كما زعمه الرّازي و أصحابه بل قد يكون من القسم الأوّل و هو الأمر التّشريعي أو الإعلام و الفصل في الحكم و ما نحن فيه من هذا القبيل و في هذا القسم من القضاء قد يتحقّق المراد و قد لا يتحقّق لأنّ إرادة العبد و إختياره في فعله واسطة بين تحقّق المراد و عدمه ألا ترى أنّ قوله: وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ^(١) يدلّ على المدعى حيث إنّنا نرى أكثر النّاس يعبدون غيره و يشركون به فلو كان الشّرك و الكفر بقضاء الله بهذا المعنى يلزم التّناقض في الآية من حيث المعنى و أن شئت قلت لو كان القضاء بمعنى الإيجاد و الإبداع في هذه الآية و أمثالها يلزم إيجاد الكفر و الإيمان في قلوب النّاس و من المعلوم أنّ الإيجاد فرع الإرادة و المشيئة و كيف يعقل إرادتهما و هل هذا إلّا إجتماع التّقيضين.

ثانياً: إيجاد الكفر في قلب العبد و إلزامه عليه ثمّ بعد ذلك عقابه و عتابه من الظلم الفاحش الذي لا يقبل العقل السليم إنتسابه اليه تعالى.

و أمّا قول المستدلّ الموجود أمّا واجب أو ممكن و الممكن لذاته لا يترجّح وجوده على عدمه إلّا عند الإنتهاء الى الواجب.

فجوابه أنّ هذا ممّا لا كلام فيه عند الكلّ لأنّ الممكن في حدّ ذاته متساوي الطرفين أي نسبته الى الوجود و العدم على حدّ سواء بمعنى أنّه لا يقتضي أحدهما في حدّ ذاته فإنّ الممكن من ذاته أن يكون ليسا و من علته أن يكون أيضاً فلا محالة يحتاج الى مرّجح خارج من ذاته دفعاً للتّسلسل و لزوم التّرجيح بلا مرّجح اذ لو كان المرّجح ممكناً يلزم التّسلسل و أن خرج عن حدّ الإستواء من غير مرّجح يلزم التّرجيح بلا مرّجح و كلاهما محال فلا بدّ في خروجه عن حدّ الإستواء من وجود مرّجح خارج عن ذاته و هو لا يكون إلّا واجباً لإنحصار الموجود في الممكن و الواجب فثبت و تحقّق أنّ الممكن في خروجه عن

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

الإستواء محتاج الى الواجب وهو المطلوب وهذا ممّا لا كلام فيه وقد أشار اليه المستدلّ إجمالاً وإغتربه وزعم أنّ كلّ مرجّح خارج عن ذات الممكن فهو واجب لذاته ولذلك قال فثبت أنّ كلّ ما سوى الله مستندٌ الى إيجاده و تكوينه، ولم يعلم أنّ هذا يتمّ في أفعال الله تعالى أي إيجاده الممكنات وإخراجها عن حدّ الإستواء وأمّا أفعال العباد فليس الأمر فيها كذلك لأنّ المرجّح فيها هو إرادة العبد ولذلك يسند الفعل اليه وأن شئت قلت إرادة العبد واسطة بين الفعل وإرادة الله وقد يعبر عنها بالواجب الغيري ألا ترى أنّ الله تعالى يقول في كتابه:

قال الله تعالى: **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ** ^(١).

قال الله تعالى: **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ** ^(٢).

قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ** ^(٣).

وأمثال ذلك من الأوامر الشرعية والعبد المخاطب بها لا يصلي ولا يزكي ولا يعبد الله يصوم بإختيارٍ منه وكذلك في التّواهي فإنّ الله تعالى نهى عن القتل والزّنا والشّرك وأمثال ذلك والعبد يقتل ويَزني ويشرك ومن المعلوم أنّ القتل مثلاً في حدّ ذاته ممكن من الممكنات ونسبته الى الوجود والعدم على السّواء في حدّ ذاته فلو كان المخرج هو الواجب بالذّات وهو الله تعالى كما زعم المستدلّ وأصحابه لزم أن يكون القاتل هو الله تعالى وإذا كان كذلك يجب القصاص عليه لا على العبد وهذا ممّا لا يقبله العقل السّليم مضافاً الى أنّه مخالف للحسّ أيضاً بل يوجب تعطيل الشّرائع والأديان والنبوة وذلك لأنّ المفروض أنّ العبد غير مختار في أفعاله وأقواله فأبى نفع في النبوة وجعل الأحكام وإرشاد الخلق وغيرها ثمّ ما معنى قوله تعالى: **إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِنَّمَا**

شَاخِرًا وَإِمَّا كَفُورًا^(١) وبذلك ظهر لك بطلان قوله حيث قال وهذه القاعدة لا اختصاص لها بمحدثٍ دون مُحدث أو ممكن دون ممكن فتدخل فيه أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم وذلك هو المراد بقوله: قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ وذلك لأنَّ المحدث إن كان فعل الله تعالى كالأوامر الإيجابية في التكوينات فالمرجح هو الواجب لذاته وأن كان فعل العبد فالمرجح هو إرادة العبد وبعبارة أخرى المَرَّح في الأول هو الواجب لذاته وفي الثاني الواجب بغيره فتدخّل فيه أفعال العباد وكانهم عاطل باطل فان موجود ستند الى فعله ولنعم ما قيل غيري جنى وانا المعاقب فيكم فكأنني سبابة المتندّم، وأما قوله في آخر كلامه، وهذا كلامٌ في غاية الظهور لمن وفقّه الله للإبصار، فيقال له و أيّ ظهورٍ في هذا الكلام فيما أنت بصدد إثباته اللهم إلا أن يراد بالظهور الظهور في البطلان وبالإبصار، الإعوجاج والانحراف وإلا فمن وفقّه الله للإبصار لا يسند فعل العبد الى الله هذا كله مع خروج الآية عن طور البحث وذلك لأنَّ الآية بصدد بيان أنَّ الأمر كله لله وهذا مسلمٌ مقطوع به عقلاً ونقلاً وذلك لأنَّ الأمر الحقيقي سواء كان في الإيجاد أم في التشريع مختصّ به تعالى فلا أمر في الحقيقة لما سواه.

قال الله تعالى: وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ^(٢).

قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي يُبُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ

قال الله تعالى: أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ^(٣).

قال الله تعالى: وَمَنْ يُدْبِرِ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ^(٤).

قال الله تعالى: بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا^(٥).

٢- البقرة = ٢١٠

٤- يونس = ٣١

١- الانسان = ٣

٣- الأعراف = ٥٤

٥- الرعد = ٣١

و الآيات كثيرة وكلّ هذه الآيات يدّل على أنّ الأمر الحقيقي له تعالى أولاً وبالذات ولغيره ثانياً وبالعرض وأي ربط بينه وبين ما ذكره المستدلّ في تفسير الآية من أنّها تدلّ على أنّ أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم مستندة اليه تعالى فلو كانت الآية بصدد إثبات ما ذكره الرّازي كان حقّ الكلام أن يقال قل أنّ الفعل كلّّه لله وحيث لم يقل ذلك فما إستنبطه منها ليس في محلّه وللبحث فيه مقام آخر ولكيّ أسففت إذ أسقوا وطرت حيث طاروا والحمد لله.

يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ففيه إشارة الى نفاقهم وذلك لأنّ المنافق يقول بلسانه ما ليس في قلبه، ولذلك ذمهم الله تعالى في كثير من الآيات كما قال.

قال الله تعالى: **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا**^(١).

قال الله تعالى: **إِذَا نَقَّوْا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ**^(٢).

و النفاق أشدّ من الكفر ولذلك ترى الآيات النّازلة فيهم أكثر وأغلظ من الآيات في حقّ الكفار يقولون لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُتِلنا ههنا أي ما قتل عشائرنّا وأخواننا، وقيل أنّهم قالوا لو كان لنا فعل ما خرجنا الى قتال أهل مكة ولما قتل رؤساءنا، إن قلت، كلامهم هذا يدّل على صحّة ما ذهبت اليه الأشاعرة من أنّ العبد لا يقدر على شيء، قلت كلامهم ليس بحجّة في الإعتقادات حتّى يؤخذ به في مقام الإستدلال هذا أولاً.

ثانياً: أنّهم نفوا عن أنفسهم الأمر وهو كذلك فإنّ الأمر كلّّه لله وقد مرّ الكلام فيه وأما قولهم: **مَا قُتِلْنَا ههنا** فمعناه لو علمنا الغيب ما قُتِلنا هاهنا وهو كذلك إذ لا يعلم الغيب إلّا هو وأما أنّهم مجبورون في خروجهم الى القتال فلا يستفاد من الآية أصلاً.

قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَغِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ فِي الْمَقَامِ أَبْحَاثَ:

أحدها: قوله: قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ إِلَى قوله: مَضَاجِعِهِمْ.

ثانيها: قوله: وَلِيَبْتَغِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ.

ثالثها: قوله: وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ.

رابعها: قوله: وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

أما البحث الأول: فللمفسرين فيه قولان:

الأول: معناه، لو جلستم في بيوتكم وأعرضتم عن الخروج إلى القتال لخرج منكم من كتب الله عليهم القتال إلى مضاجعهم ومصارعهم حتى يوجد ما علم الله أنه يوجد.

الثاني: معناه لو تخلفتم عن الجهاد وجلستم في بيوتكم لخرج المؤمنون الذين كتب عليهم القتال إلى مضاجعهم ولم يتخلفوا عن هذه الطاعة بسبب تخلفكم عنها وعلى هذين القولين فحاصل المعنى هو أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَتَبَ عَلَى بَعْضِهِمُ الْقِتَالَ وَالْبَرَازَ وَهُوَ وَاقِعٌ لَا مُحَالَةً فَتَخَلَّفَ بَعْضُ النَّاسِ عَنْهُ لَا يَجِبُ تَخَلُّفَ الْكُلِّ حَتَّى لَا يَقَعَ مَا كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْقِتْلَ، قَالَ الرَّازِي وَالْمَعْنَى أَنَّ الْحَذَرَ لَا يَدْفَعُ الْقَدْرَ وَالتَّدْبِيرَ لَا يَقَاوِمُ التَّقْدِيرَ فَالَّذِينَ قَدَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقِتْلَ لَا بَدَّ وَأَنْ يَقْتُلُوا عَلَى جَمِيعِ التَّقْدِيرَاتِ لِأَنَّ اللَّهَ لَمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ يَقْتُلُ فُلُوهُ لَمْ يَقْتُلْ لِإِنْقِلَابِ عِلْمِهِ جَهْلًا وَقَدْ بَيَّنَّا أَيْضًا أَنَّهُ مُمْكِنٌ فَلَا بَدَّ مِنْ إِنْتِهَاءِهِ إِلَى إِيجَادِ اللَّهِ تَعَالَى فُلُوهُ لَمْ يَوْجَدْ، لِإِنْقِلَابِ قُدْرَتِهِ عَجْزًا وَكُلُّ ذَلِكَ مُحَالٌ وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى تَحْقِيقِ الْوُجُوبِ كَمَا قَرَّرْنَا، قَوْلُهُ: الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتْلَ وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ تَفِيدُ الْوُجُوبَ فَأَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ فِي قَوْلِهِ: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الضِّيَاقُ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصَ تَفِيدُ وَجُوبَ الْفِعْلِ وَهَاهُنَا لَا يُمْكِنُ حَمْلُهَا عَلَى وَجُوبِ الْفِعْلِ فَوَجِبَ حَمْلُهَا

على وجوب الوجود وهذا كلام في غاية الظهور لمن أيده الله بالتوفيق انتهى كلامه.

قال بعضهم في حل الاشكال وليس في ذلك ان المشركين غير قادرين على ترك القتال من حيث علم الله ذالك منهم وكتبه لانه كما علم انهم لا تختارون ذالك علم انهم قادرون ولو وجب ان لا يكون تعالى على ما علم انه لا يفعل والقول بذلك كفر انتهى والحق في الجواب هو ان العلم الأزلي ليس علة لفعل العبد لأن إرادة العبد الناشئ عن إختياره واسطة بين الفعل والعلم الأزلي اللهم إلا أن يقال أن المراد بالعلم الأزلي هو العلم بوجود الفعل أو عدمه بإختيار المكلف وإنتخابه وبعبارة أخرى أن الله تعلم يعلم ما يختاره العبد و يفعله بارادته لا أن العلم علة لصدور الفعل و عليه فقوله تعالى: **لَبَّرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ** معناه كُتِبَ عليهم القتل في اللوح المحفوظ لعلمه تعالى بأنهم يقتلون.

وأما أن العلم سبب و علة للقتل فهو أول الكلام و على المدعي الإثبات مضافاً الى أن الموت والحياة بيد الله و لا إختيار للعبد فيهما وبعبارة أخرى الإمامة فعل الله كما أن الإيجاد فعله سواء كان الموت طبيعياً أو قتلاً فقوله تعالى: **لَبَّرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ** معناه كُتِبَ عليهم الموت بسبب القتل والجهاد في سبيله كما كتب على بعض آخر الموت بطريق آخر فقياس هذه الآية بأية الصوم والقصاص قياس مع الفارق ألا ترى أن المكلف قد يصوم وقد لا يصوم لأنه قادر على الفعل والتترك وهذا بخلاف الموت والحياة فإنه لا يقدر على دفع الموت عن نفسه فلو قلنا بعدم الإختيار في الموت والحياة كان في محلّه و أعجب من ذلك كله قوله في كتب عليكم الصيام والقصاص بأن الآية تفيد وجوب الفعل وفيما نحن فيه تفيد وجوب الوجود ولم يعلم أن قوله تعالى: **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ** وأمثاله لو كان مفيداً لوجوب الفعل أي وجوب

وجوده من العبد لما كان قادراً على ترك الصّوم والصّلاة وحيث نرى قدرته على التّرك بالحسّ والعيان نعلم أنّ الآية لا تدلّ على وجوب وجود الفعل أية القتل فقد دلّت على وجود القتل ووجوبه لأنّه ليس من فعل المكلف فقد ظهر الفرق ومحصل الكلام هو أنّ إثبات الجبر في فعل الله تعالى من تحصيل الحاصل وتوضيح الواضحات اذ لا خلاف فيه عقلاً ونقلاً وأما إثباته في أفعال العباد كما هو المدّعى ففي حيز المنع.

البحث الثّاني: في قوله: **وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ** أي ليختبر الله ما في صدوركم وفيه أقوال:

أحدها: معناه ليعاملكم معاملة المبتلي المختبر لكم مظاهره في العدل عليكم وإخراج مخرج كلام المُختبر لهذه العلّة لأنّه تعالى عالم بالأشياء قبل كونها فال يبتلي ليستفيد علماً.

الثّاني: معناه، ليبتلي أولياء الله ما في صدوركم إلاّ أنّه أضيف الإبتلاء إلى الله عزّ وجلّ تفخيماً لشأنه.

الثّالث: أنّه تعالى قد علمه غيباً فيعلمه شهادة لأنّ المجازاة أنّما تقع على ما علم مشاهدة لا على ما هو معلوم منهم غير معمول نقله الطّبرسي عن الزّجاج.

الرّابع: أنّه عطف على قوله: **ثمّ صرفكم عنهم** ليبتليكم و يبتلي ما في صدوركم.

الخامس: أي يقع ذلك لأجل أن يكون القتل عاقبة من جاء أجله منكم و لأجل أن يمتحن الله نفوسكم فيظهر لكم ما إنطوت عليه من ضعف وقوّة في الإيمان ويطهرها حتّى تصل إلى الدّرجات العلى من الايقان هذا ما وصل اليه من الأقوال.

أن قلت قد ثبت أنّ الله تعالى عالم بالأشياء ظاهرها وباطنها قبل كونها و

بعد كونها ولا يخفى عليه شيء حتى يحتاج الى الإمتحان والاختبار في حق العبد فما الوجه في هذه الآية وأمثالها في القرآن.

قلت قد مرّ البحث فيه مراراً وقلنا أنّ الإمتحان من الله تعالى ليس ليستفيد علماً بل ليفيد علماً للمختبر لأنّ الإنسان ما لم يختبر لا يعرف نفسه ويمكن أن يكون الوجه فيه أنّ الآثار مترتبة على الوجود الخارجي فالثواب والعقاب أيضاً عليها اذا وجدت في عالم الخارج وفائدة الإمتحان إخراج ما في القلب بواسطة الأعضاء والجوارح وأن شئت قلت بواسطة العمل ليترتب الثواب أو العقاب عليه، ووجه آخر وهو معرفة الناس إياه بعد الإختبار لا قبله لعدم إطلاعهم على ما في قلبه وباطنه ولذلك ترى الناس يعدّون بعض الأشخاص في عداد الصّالحاء والأخيار قبل الإمتحان و أمّا بعده فلا والوجوه المحتملة كثيرة.

الثالث: قوله: **وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمُ التَّمْحِصَ التَّخْلِصَ** أي ليخلص ما في قلوبكم قيل هذا خطاب للمنافقين أي يأمركم بالخروج فلا تخرجون فيظهر للمسلمين معاداتكم لهم وينكشف أسراركم فلا يعدّكم المسلمون من جملتهم وقيل معناه ليبتلي أولياء الله ما في صدوركم كما في قوله: **الَّذِينَ يُخَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** وقيل أنّه عطف على قوله: **أَمَنَةً تُعَاسَا** أي ليظهر عند هذه الأحوال موافقة باطنكم ظاهرهم ولیمحص ما في قلوبكم أي يطهرها من الشك بما يريكم من عجائب صنعوا وصنعه ويخلص كلامه نياتكم وهذا التخصيص خاص للمؤمنين دون المنافقين قال الطبرسي في تفسيره وبه قال جميع المفسرين اقول قال الرّاغب في المفردات اصل المحص تخلص الشيء ممّا فيه من عيب كالمحص يقال محصت الذّهب ومحصته الى ان قال فالمحيص هاهنا كالتزكية والتطهير ونحو ذلك من الألفاظ ويقال في الدّعاء **اللّهم محّص عَنَّا ذُنُوبَنَا** أي أزل ما علق بنا من الذنوب ومحّص الثّواب اذا

ذهب زئيره ومَحْص الحبل يمحّص أخلق حتّى يذهب عنه وبره انتهى.
وعليه فالمعنى ولنخلّص ما في قلوبكم من الغلّ والغش وبعبارة أخرى
ليزيل ما في قلوبكم من الأخبار والأرجاس.
أن قلت لم حصّ الابتلاء بالصّدر والتمحيص بالقلب أليس الصّدر والقلب
بمعنى واحد.

قلت الصّدر في الأصل الجارحة وجمعه صدور قاله الرّاعب في المفردات،
والقلب على ما قاله الرّاعب في الأصل التّصريف والتغيّير قال قلب الشّيء
تصريفه وصرفه عن وجهه إلى وجهه كقلب الثّوب وقلب الإنسان أي صرفه عن
طريقته إلى أن قال وقلب الإنسان، قيل سُمّي به لكثرة تقلّبه انتهى هذا بحسب
اللّغة.

وأما في الإصطلاح فهو يطلق على معنيين أحدهما اللحم الصّنوبري
المتشكّل المودع في الجانب الأيسر من الصّدر وهو لحم مخصوص باطنه
تجويف وفي ذلك التّجويف دمّ أسود وهو منبع الرّوح ومعدنه والقلب بهذا
المعنى موجود للبهائم أيضاً بل للميت.

والمعنى الثّاني، لطيفة ربّانية روحانيّة لها بهذا القلب تعلّق وتلك اللّطيفة
هي المعبر عنها بالقلب تارة وبالنّفس والرّوح والإنسان تارة أخرى وهو
المدرّك العالم العارف وهو المخاطب والمطالب والمعاقب وله علاقة مع
القلب الجسدي وقد تحيّرُوا في إدراك وجه علاقته وأن تعلّقه يُضاهي تعلّق
الأعراض بالأجسام والوصف بالموصوف أو تعلّق المستعمل للآلة بالآلة أو
تعلّق المتمكنّ بالمكان وشبه ذلك وقد يتّحيرُوا في درك حقيقته وذاته أيضاً
قال تعالى وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي^(١) والذي هو مذكور في
الآيات والأخبار هو القلب بالمعنى الثّاني إذا عرفت هذا فنقول قال بعض

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

الفلاسفة حيثما ذكر الله تعالى القلب فإشارة الى العقل والعلم كما قال أن في ذلك ذكرى لمن كان له قلب، أي عقل وعلم وحيثما ذكر الصدر فإشارة الى ذلك والى سائر القوى من الشهوة والغضب والهوى ونحوها فقوله: رَبِّ أَسْرُحْ لِي صَدْرِي^(١) فسؤال لإصلاح قواه وكذلك قوله: وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ^(٢) إشارة الى إشتغالهم إنتهى.

وقال بعض آخر النفس الناطقة الإنسانية لها جهتان جهة علو وجهة سفلى فباعتبار جهتها السفلية يُقال لها الصدر وباعتبار جهتها العلوية يُقال لها القلب والروح والعقل وأمثالها إنتهى.

أقول قد ورد في الحديث، الفروض على الجوارح وأما فرض الله على القلب من الإيمان فالإقرار والمعرفة والعقل والرضا والتسليم، فقوله تعالى: وَ لِيُبَيِّنَ لَّاهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ إشارة الى الاعضاء والجوارح اذ العمل لا يكون الا بها اي ان الله تعالى يختبر بأعمالكم التي تظهر بسبب الأعضاء والجوارح فأن العمل ما لم يوجد في الخارج لم يتحقق الإختبار، وأما قوله: وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ فهو إشارة الى تخليص القلب عن الخبائث وتطهيره عن الرجس والدنس فكأنه قال تعالى أن الله يختبركم بالأعمال والنيات والإخلاص فأن العمل الذي يقرب العبد الى ربه العمل الذي يصدر عن القلب السالم عن الآفات والصالح بالنية والإخلاص هذا ما فهمنا من الآية الشريفة والله تعالى أعلم بكلامه قوله: وَ لَّاهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ فهو إشارة الى أن الله تعالى عالم بكل الأشياء فلا يخفى عليه شيء والمعنى أن الله تعالى.

عالم بما في الصدور من الخير والشر وقيل المراد بذات الصدور هو الصدور نفسها لأن ذات الشيء نفسه فعلى الأول معنى الجملة أنه عليم بما أخفوه في صدورهم وعلى الثاني أنه علم بنفس الصدور وحقيقتها فضلاً عما فيها من الأسرار ومن المعلوم أن خالق الشيء أعلم به منه نفسه.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ.

إِعلم أَنَّ المقصود من الآية بيان حال القوم الَّذِينَ تَوَلَّوْا أي أعرضوا عن الجهاد وفرَّوا وأنهمزوا فبعضهم ورد المدينة وبعضهم صعد الجبل والمراد باللقاء الجمع بين المؤمنين وجمع المشركين وكيف كان لاشك في هزيمتهم بصريح الآية وإتفاق المؤرخين إلا أَنَّ الخلاف وقع بينهم في تعيين المنهزمين نقل الرّازي في تفسيره لهذه الآية عن محمد بن إسحاق أَنَّهُ قال، أَنَّ ثلث النَّاس كانوا مجروحين وثلثهم إنهمزوا وثلثهم قتلوا ثُمَّ قال وأختلفوا في المنهزمين فقليل أَنَّ بعضهم ورد المدينة وأخبر أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قتل وهو سعد بن عثمان ثُمَّ ورد بعده رجال وخلوا على نِسائهم وجعل النَّساء يقلن عن رسول الله تفرون وَكُن يبيحثن التراب في وجوههم ويقلن هاك المعزول اعزل به ومنهم من قال أَنَّ المسلمين لم يعدوا الجبل والذي تدل عليه الاخبار في الجملة أَنَّ نفراً منهم تَوَلَّوْا والعدوا فمنهم من دخل المدينة ومنهم من ذهب الى سارو بجوانب فاما الاكثرون فأنهم نزلوا عند الجبل واجتمعوا هناك ومن المنهزمين عمر فأنه انهزم مع رجلين من الأنصار يقال لهما سعد وعقبة إنهمزوا حتَّى بلغوا موضعاً بعيداً ثُمَّ رجعوا بعد ثلاثة أَيام فقال لهم النَّبِيُّ ﷺ لقد ذهبتم فيها عريضة وقالت فاطمة لعلي ما فعل عثمان فنقصه فقال النَّبِيُّ يا علي أعياني أزواج الأخوات أن يتحاثوا وَأَمَّا الَّذِينَ بقوا مع الرسول ﷺ فكانوا أربعة عشر رجلاً سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار فمن المهاجرين أبو بكر وعلي وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجراح والزبير بن العوام، ومن الأنصار الحباب بن المنذر وأبو دجانة وعاصم بن ثابت والحريث بن أصفه وسهل بن حنيف وأسيد بن حضير وسعد بن معاذ وذكر أَنَّ ثمانية من هؤلاء كانوا بايعوه يومئذ علي

الموت ثلاثة من المهاجرين، علي، وطلحة، والزبير وخمسة من الأنصار أبو دجانة والحرث بن أصمة وخباب بن المُنذر وعاصم بن ثابت وسهل بن حنيف ثم لم يقتل منهم أحد إنتهى ما ذكره الزاوي.

وقال الطبري في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، يعني بذلك جل ثناؤه أن الذين ولّوا عن المشركين من أصحاب رسول الله ﷺ يوم أحد وأنهم كانوا عنهم وقوله: **تَوَلَّوْا تَفْعَلُوا** من قولهم ولّى فلان ظهره وقوله: **يَوْمَ التَّقَى** **الْجَمْعَانِ** يعني يوم التقى جمع المشركين والمسلمين بأحد، إنما إستزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا يعني ببعض ما عملوا من الذنوب، ولقد عفا الله عنهم يقول ولقد تجاوز الله عن عقوبة ذنوبهم فيصفح لهم عنه أن الله غفور يعني به مغطٍ على ذنوب من آمن به و أتبع رسوله بعفوه عن عقوبته إيائهم عليها، حليم، يعني أنه ذو أناة لا يعجل على من عصاه وخالف أمره بالثقة ثم إختلف أهل التأويل في أعيان القوم الذين عنوا بهذه الآية فقال بعضهم عنى بها كل من ولّى الدبر عن المشركين بأحد، حدثنا أبو هشام الرفاعي قال حدثنا أبو بكر بن عياش قال حدثنا عاصم بن كليب عن أبيه قال خطب عمر يوم الجمعة فقرأ آل عمران وكان يعجبه إذا خطب أن يقرأها فلما إنتهى إلى قوله: **إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقَى** **الْجَمْعَانِ** قال لما كان يوم أحد هزمنا ففرت حتى صعدت الجبل فلقد رأيتني أنزو كأنتي أروي والناس يقولون قتل محمد فقلت لا أجد أحداً يقول قتل محمد إلا قتلته حتى إجتمعنا على الجبل فنزلت أن الذين تولّوا منكم الآية وساق الكلام إلى أن قال حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن ابن إسحاق قال فرّ عثمان بن عفان وعقبة بن عثمان وسعد بن عثمان رجلان من الأنصار حتى بلغوا الجبل جبل بناحية المدينة مما يلي الأعوص فأقاموا به ثلاثة أيام ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فقال لهم لقد ذهبتم عريضة حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، قوله: **إِنَّ**

الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ آتَتْهُمُ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا الْآيَةُ وَالَّذِينَ اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ عَثَمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَ سَعْدُ بْنُ عَثْمَانَ وَ عَقْبَةُ بْنُ عَثْمَانَ الْأَنْصَارِيَّانِ ثُمَّ الزَّرَقِيَّانِ الْحَدِيثُ إِنْتَهَى كَلَامُ الطَّبْرِيِّ.

وَالْعَجَبُ مِنَ الْقُرْطَبِيِّ حَيْثُ نَقَلَ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الْإِنْهَازُ مَعْصِيَةً لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا التَّحَصُّنَ بِالْمَدِينَةِ فَيَقْطَعُ الْعَدُوَّ وَطَمَعَهُ فِيهِمْ لَمَّا سَمِعُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ قُتِلَ قَالَ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَقَالَ لَمْ يَسْمَعُوا دَعَاءَ النَّبِيِّ ﷺ لِلْهَوْلِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ وَ يَجُوزُ أَنْ يَقَالَ زَادَ عَدَدُ الْعَدُوِّ عَلَى الضَّعْفِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا سَبْعَ مِائَةٍ وَالْعَدُوُّ ثَلَاثَةُ أَلْفٍ وَ عِنْدَ هَذَا يَجُوزُ الْإِنْهَازُ وَلَكِنْ الْإِنْهَازُ عَنِ النَّبِيِّ خَطَأٌ لَا يَجُوزُ وَلَعَلَّهُمْ تَوَهَّمُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنْ حَازَ إِلَى الْجَبَلِ أَيْضاً أَنْتَهَى كَلَامُهُ.

وَأَنَا أَقُولُ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرَهُ الْقُرْطَبِيُّ فَمَا كَانُوا مَذْنِبِينَ بَلْ كَانُوا مُصِيبِينَ فِي فِرَارِهِمْ، وَ عَلَيْهِ فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ثُمَّ مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: وَلَقَدْ عَفَا عَنْهُمْ، وَ هَلْ يَجُوزُ الْعَفْوُ عَمَّنْ لَمْ يَذْنِبْ فَلَوْ قَالَ الْقُرْطَبِيُّ الْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ لَيْسَ بِذَنْبٍ أَصْلًا كَانَ أَوْلَى لَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَعْذَارِ السَّخِيفَةِ وَ أَعْجَبُ مِنْ كَلَامِهِ هَذَا فِي السَّخَافَةِ قَوْلُهُ فِي آخِرِ الْبَحْثِ قَالَ، قُلْتُ وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَحَجَّ مُوسَى، أَيِ غُلِبَهُ بِالْحِجَّةِ وَ ذَلِكَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرَادَ تَوْبِيخَ آدَمَ وَلَوْ مَه فِي إِخْرَاجِ نَفْسِهِ وَ ذَرْبَتِهِ مِنَ الْجَنَّةِ بِسَبَبِ أَكْلِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ فَقَالَ لَهُ آدَمُ أَفْتَلَوْا مِنِّي عَلَى أَمْرِ قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً تَابَ عَلَيَّ مِنْهُ وَ مِنْ تَابَ عَلَيْهِ فَلَا ذَنْبَ لَهُ وَ مِنْ لَا ذَنْبَ لَهُ لَا يَتَوَجَّهَ عَلَيْهِ لَوْمٌ، وَ كَذَلِكَ مِنْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ أَنْتَهَى كَلَامُهُ.

أَقُولُ قِيَاسَهُ هَذِهِ الْقِصَّةُ أَيِ قِصَّةِ فِرَارِ عَمْرِ وَ عَثْمَانَ وَ أَبُو بَكْرٍ وَ غَيْرِهِمْ فِي أَحَدٍ وَ ثُبُوتِ الذَّنْبِ لَهُمْ بِذَلِكَ بِقِصَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ خُرُوجِهِ مِنَ الْجَنَّةِ وَ قَبُولِ تَوْبَتِهِ ذَنْبٌ لَا يَقَاسُ بِهِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ مَا صَدَرَ مِنْهُ لَا أَكْلَهُ مِنَ الشَّجَرَةِ هُوَ تَرَكَ الْأَوَّلَى وَ لَمْ يَكُنْ حَرَاماً وَ لِذَلِكَ قَالُوا إِنَّ النَّهْيَ تَنْزِيهِي لَاتَحْرِيْمِي لِعَصْمَةِ

الانبياء وهو ثابتٌ عقلاً وشرعاً وهذا بخلاف ما صدر من هؤلاء في احد من الفرار عن الزحف فهو من أشدّ الذنوب فكيف يقاس هذا بذاك مضافاً الى أنّ أصل القصة أي حاجة آدم وموسى من الإسرائيليات التي وضعها أبو هريرة وسمرة بن جندب وكعب الأحبار وأمثالهم من الكذابين الوضّاعين فلا يصح تفسير كلام الله بهذه الأخبار الموضوعة لِمَن آمن بالله واليوم الآخر ونحن نعلم أنّ القرطبي وأمثاله أراد بنقل هذه الأحاديث في تفسير الآيات تصحيح أعمال أئمتهم وخلفائهم وأن كان فيه تخطئة الأنبياء والأوصياء بل وتخطئة الله تعالى والى الله عاقبة الأمور.



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ
 قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا
 غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ
 اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَ
 يُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ
 قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ
 رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ
 قُتِلْتُمْ لَأِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ
 اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ
 لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ
 وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى
 اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)

◀ اللغة

ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ: الضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ السَّيْرُ فِيهَا.
 غُزًى: بَضْمُ الْغَيْنِ جَمْعُ غَازٍ نَحْوُ ضَرْبِ جَمْعِ ضَارِبٍ وَ طَلَبُ جَمْعِ طَالِبٍ.
 حَسْرَةً: الْحَسْرَةُ الدَّامَةُ.
 لِنْتَ: اللَّيْنُ ضِدُّ الْغَلْظَةِ.

فَظًّا: الْفَظُّ الْغَيْظُ الْجَافِي الْقَاسِي الْقَلْبَ وَقَالَ الرَّاعِبُ، الْفَظُّ الْكَرِيهَ الْخَلْقُ
 مُسْتَعَارٌ مِنَ الْفَظِّ أَيِ مَاءِ الْكَرْشِ وَذَلِكَ مَكْرُوهٌ شَرِبَهُ لَا يَتَنَاوَلُ إِلَّا فِي أَشَدِّ ضَرُورَةٍ.
 لَانْفَضُّوا: الْإِنْفِضَاضُ التَّفَرُّقُ مِنَ الْفَضِّ بِمَعْنَى التَّفَرِيقِ.
 شَاوِرْهُمْ: أَمْرٌ مِنَ الْمَشُورَةِ يُقَالُ شَاوَرْتُ الرَّجُلَ مُشَاوَرَةً وَشَاوَرًا وَالْإِسْمُ
 الْمَشُورَةُ.

فَتَوَكَّلْ: التَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ تَفْوِيضُ الْأَمْرِ إِلَيْهِ وَأَصْلُهُ الْإِتِّكَالُ وَهُوَ الْإِكْتِفَاءُ فِي فِعْلٍ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِمَّنْ يَسْتَنْدُ إِلَيْهِ وَمِنْهُ الْوَكَالَةُ.

◀ الإعراب

إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ، إِذَا، هُنَا تَحْكِي بِهَا حَالَهُمْ فَلَا يَرَادُ بِهَا الْمُسْتَقْبَلُ وَ عَلَيْهِ فَالْعَامِلُ فِيهَا، قَالُوا، وَ هُوَ لِلْمَاضِي وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ بِهَا الْمُسْتَقْبَلُ الْمَحْكِي بِهِ الْحَالُ وَ عَلَيْهِ فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ يَكْفُرُونَ وَيَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ لِيَجْعَلَ اللَّهُ اللَّامَ تَتَعَلَّقُ بِمَحذُوفٍ أَيْ نَدَمُهُمْ، أَوْ أَوْقَعَ فِي قُلُوبِهِمْ ذَلِكَ لِيَجْعَلَهُ حَسْرَةً وَ جَعَلَ هُنَا بِمَعْنَى، صَيَّرَ وَقِيلَ اللَّامُ هُنَا لَامُ الْعَاقِبَةِ أَيْ صَارَ أَمْرُهُمْ إِلَى ذَلِكَ مَثْمُ الْجُمْهُورِ عَلَى ضَمِّ الْمِيمِ وَ هُوَ الْأَصْلُ لِأَنَّ الْفِعْلَ مِنْهُ يَمُوتُ، وَيَقْرَأُ بِالْكَسْرِ وَ هُوَ لُغَةٌ يَقَالُ مَاتَ پَمَاتَ مِثْلُ خَافَ يَخَافُ فَكَمَا تَقُولُ، خَفْتُ تَقُولُ مَتَّ لِمَغْفِرَةٍ مُبْتَدَأُ مِنْ آلِلَهُ صِفَةً وَ رَحْمَةً مُعْطُوفٌ عَلَيْهِ وَالتَّقْدِيرُ وَرَحْمَةً لَهُمْ وَخَيْرُ الْخَبَرِ مِمَّا بِمَعْنَى الَّذِي أَوْ نَكْرَةٌ مُوصُوفَةٌ وَالْعَائِدُ مَحذُوفٌ وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُصَدِّرَةٌ وَ يَكُونُ الْمَفْعُولُ مَحذُوفًا أَيْ مِنْ جَمْعِهِمُ الْمَالُ لِأَلِي آلِلَهُ اللَّامُ جَوَابُ قَسَمٍ مَحذُوفٍ فِيمَا رَحْمَةً مَا زَائِدَةٌ وَقَالَ الْأَخْفَشُ نَكْرَةٌ بِمَعْنَى شَيْءٍ وَرَحْمَةً بَدَلٍ مِنْهُ وَ الْبَاءُ تَتَعَلَّقُ، بَلَنْتَ وَ شَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ الْأَمْرُ هُنَا جِنْسٌ وَ هُوَ عَامٌّ يَرَادُ بِهِ الْخَاصُّ لِأَنَّهُ ﷺ لَمْ يُؤْمَرْ بِمَشَاوَرَتِهِمْ فِي الْفَرَائِضِ وَ الْأَحْكَامِ وَلِذَلِكَ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ، فِي بَعْضِ الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ الْجُمْهُورُ عَلَيَّ فَتَحَ الزَّيَّ أَيْ إِذَا تَخَيَّرْتَ أَمْرًا بِالمُشَاوَرَةِ وَ عَزَمْتَ عَلَيَّ فَعَلَهُ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَيَقْرَأُ بِضَمِّ النَّاءِ أَيْ إِذَا أَمَرْتُكَ بِفِعْلٍ شَيْءٍ فَتَوَكَّلْ عَلَيَّ فَوْضِعَ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمَضْمَرِ.

◀ التفسير

خَاطَبَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ أَيْ لَا تَكُونُوا مِثْلَ الْكُفَّارِ الْمُنْكَرِينَ

لِلْإِيمَانِ الَّذِينَ وَ قَالُوا لِأَخْوَانِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ بِالسَّيْرِ فِيهَا أَوْ كَانُوا غَزَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا بَلْ كَانُوا أَحْيَاءَ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ أَي لِيَجْعَلَ ظَنَّهُمْ أَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَخْرُجُوا مَا قَتَلُوا، حَسْرَةً وَ نَدَامَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَحْيِيَ مَنْ يَخْرُجُ إِلَى الْقِتَالِ وَ يُمِيتُ مَنْ أَقَامَ فِي أَهْلِهِ وَ حَاصِلُ مَا أَفَادَتِهِ الْآيَةُ هُوَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ يَعْلَمُ أَنَّ الْحَيَاةَ وَ الْمَوْتَ بِيَدِ اللَّهِ بِخِلَافِ الْكَافِرِ فَلَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقُولَ بِمَقَالَةِ الْكَافِرِ فِي بَابِ الْمَوْتِ فَإِنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يَقُولُونَ لِأَخْوَانِهِمْ مَنْ أَهْلُ الْكُفْرِ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ فَخَرَجُوا مِنْ بِلَادِهِمْ سَفَرًا فِي تِجَارَةٍ أَوْ كَانُوا غَزَى إِي كَانَ خُرُوجُهُمْ مِنْ بِلَادِهِمْ غَزَاً فَهَلَلُوا وَ مَاتُوا فِي سَفَرٍ هُمْ أَوْ قَتَلُوا فِي غَزْوِهِمْ وَ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَ مَاقَتَلُوا وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ كَمَا قَالَ:

قال الله تعالى: قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ أَلْفَرَأْسُ إِنْ فَرَزْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ^(١).

قال الله تعالى: فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ^(٢).

قال الله تعالى: إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^(٣).

قال الله تعالى: وَ لَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ^(٤).

وَ لَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةً مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ.

لَمَّا أَشَارَ اللَّهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ الْحَيَاةَ وَ الْمَوْتَ بِيَدِهِ وَ لَا سَبِيلَ لِلخَلْقِ إِلَيْهِ أَفَادَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْمَوْتَ أَوْ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَي فِي طَرِيقِ مَرْضَاتِهِ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً مِنْهُ وَ هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ مِنْ حَطَامِ الدُّنْيَا وَ رَغِيدِ عَيْشِهَا الَّذِي

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

من أجله يتشاقلون عن الجهاد في سبيل الله ويتأخرون عن لقاء العدو وأنما قال الله عز وجل لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون، وابتدأ الكلام ولأن متم أو قتلتم بحذف جزاء لأن، لأن في قوله: لَمَغْفِرَةٌ معنى الجزاء وذلك أنه وعد خرج مخرج الخبر فتأويل الكلام وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَيَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَيَرْحَمَنَّكُمْ فدل على ذلك بقوله: لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ قال بعض المحققين في هذا المقام أعلم أن هذا الموت لا بد واقع ولا محيص للإنسان من أن يُقتل أو يموت فاذا وقع هذا الموت أو القتل في سبيل الله وفي طلب رضوانه فهو خير من أن يجعل ذلك في طلب الدنيا ولذاتها التي لا ينتفع الإنسان بها بعد الموت البتة وذلك لأن الإنسان اذا توجه الى الجهاد أعرض قلبه عن الدنيا وأقبل على الآخرة فاذا مات فكأنه تخلص عن العدو ووصل الى المحبوب وإذا جلس في بيته خائفاً من الموت حريصاً على جمع الدنيا فاذا مات في هذه الحالة فكأنه حجب عن المعشوق وألقي في دار الغربة ولا شك في كمال سعادة الأول وكمال شقاوة الثاني انتهى كلامه.

وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ.

لما قال تعالى في الآية السابقة وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ أفاد في هذه الآية أن الموت أو القتل في سبيل الله يوجب الحشر اليه تعالى وهو من أعظم البركات وأرفع الغايات قال بعض المفسرين، وإعلم أنه سبحانه وتعالى رغب المجاهدين في الآية الأولى بالحشر الى مغفرة الله وفي هذه الآية زاد في إعلاء الدرجات فرغبهم بالحشر الى الله يروي أن عيسى بن مريم عليه السلام مرَّ بأقوام نحفت أبدانهم وإصفرَّت وجوههم ورأى عليهم آثار العبادَةِ فقال لهم ماذا تطلبون قالوا نخشى عذاب الله فقال هو أكرم من أن لا يخلصكم من عذابه ثم مرَّ بأقوام آخرين فرأى عليهم تلك الآثار فسألهم فقالوا

نطلب الجنة والرحمة فقال هو أكرم من أن يمنعكم رحمته ثم مرّ بقوم ثالث و رأى آثار العبودية عليهم أكثر فسألهم فقالوا نعبده لأنه إلهنا ونحن عبده لا لرغبة ولا لرهبة فقال أنتم العبيد المخلصون فأنظر في هذه الآيات و ترتيبها فأنه قال في الآية الأولى، لمغفرة من الله وهو إشارة الى من يعبد خوفاً من عقابه ثم قال ورحمة وهو إشارة الى من يعبد بطلب ثوابه ثم قال في خاتمة الآية **لِإِلَهِ اللَّهِ تُخْشَرُونَ** وهو إشارة الى من يعبد الله لمجرد الربوبية و العبودية وهذا أعلى المقامات وابتعد النهايات في العبودية ألا ترى أنه تعالى لما شرف الملائكة قال: **وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ** وقال: للمؤمنين من أهل الثواب، عند مليك مقتدر فيبين أن هؤلاء بذلوا أنفسهم وأبدانهم في طاعته ومجاهدة عدوه يكون حشرهم اليه وإستئناسهم بكرمه وتمتعهم بشرروق نور ربوبيته وهذا مقام فيه إطناب والمستبصر يرشده القدر الذي أوردناه انتهى كلامه.

إذا عرفت هذا فنقول في الأيتين نكات خفية ومسائل مهمة لا بأس بالإشارة إليها إجمالاً:

الأولى: أنه تعالى قيد القتل والموت بقوله في سبيل الله فقال: **وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ** أي متم كذلك والمراد منه أن يكون الموت أو القتل في طاعته فإذا كان كذلك فله المغفرة والرحمة من الله تعالى جمع بين المغفرة والرحمة ثم قدّم المغفرة على الرحمة لنكتته وهي أن المغفرة والغفران من الله تعالى هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب وقد يقال غفرله إذا تجافى عنه في الظاهر وأن لم يتجاف عنه في الباطن نحو قوله تعالى: **قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ** (١).

و الإستغفار طلب ذلك بالمقال والفعال وأما الرحمة فهي رقة تقتضي الإحسان الى المرحوم وقد تستعمل في الرقة المجردة كما تستعمل في

الإحسان المجرد عنها وإذا وُصف البارئُ بها فالمراد الإحسان المجرد دون الرقة وعلى هذا رُوي أنَّ الرِّحمة من الله إنعام وإفضال ومن الأذميين رقة وتعطف إلى ما تقدّم من أنَّ الرِّحمة منظوية على معنيين الرقة، والإحسان، فركز الله تعالى في طبائع النَّاس الرِّقة وتفرّد بالإحسان فصار كما أنَّ لفظ الرَّحْم من الرِّحمة فمعناه الموجود في النَّاس من المعنى الموجود لله تعالى فتناسب معناه تناسباً لفظيها وحيث أنَّها في الله تعالى بمعنى الإحسان المجرد وقد ثبت أنَّه تعالى محسنٌ إلى كلِّ الموجودات فلا محالة هي عامّة في الدُّنيا للمؤمنين والكافرين وفي الآخرة مختصّة بالمؤمنين فقط فقلوه تعالى: وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ^(١) معناه وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ فِي الْآخِرَةِ أَيْضاً كَمَا قِيلَ:

وَأَخْرُفَازَ بِكَلِمَتِهِمَا قَدْ جَمَعَ الدُّنْيَا مَعَ الْآخِرَةِ

فقلوه تعالى: لمغفرةً ورحمةً إشارة إلى دفع العذاب عنهم أولاً وإدخالهم في بحر رحمته في الآخرة وحيث أنَّ الدَّخُولَ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ مَتَفَرِّعٌ عَلَى دَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُ إِذْ لَوْ كَانَ مُعَذَّباً بِعَذَابِ اللَّهِ لَا يَكُونُ مَرْحُوماً، قَدْ مَغْفِرَةً عَلَى الرَّحْمَةِ.

الثانية: أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ أَيَّ أَنَّ الْمَوْتَ أَوْ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَيْثُ يَنْتَهِي إِلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَهُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْإِنْهَمَاكِ فِي الشَّهَوَاتِ وَكَسْبِ الْجَاهِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِذِهِ الدُّنْيَا الدُّنْيَا الَّتِي لَا بَقَاءَ لَهَا.

أَمَّا أَوَّلًا: فَلَأَنَّ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا وَالْوُصُولِ إِلَيْهَا تَعَبٌ وَمَشَقَّةٌ وَلَا يَدْرِي الطَّالِبُ أَنَّهُ يَنْتَفِعُ بِهَا أَمْ لَا لِإِحْتِمَالِ الْمَوْتِ وَالْمَرَضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَأَمَّا طَلَبُ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَأَنْ كَانَ فِيهِ أَيْضاً تَعَبٌ وَمَشَقَّةٌ إِلَّا أَنَّ الطَّالِبَ يَعْلَمُ قَطْعاً بِالْإِنْتِفَاعِ بِهِمَا بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِمَا لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَخْلِفُ وَعْدَهُ كَيْفَ وَقَدْ قَالَ.

قال الله تعالى: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**^(١).

قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ**^(٢).

قال الله تعالى: **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا**.

ثانياً: أَنَّ الدُّنْيَا وزخارفها فانية دائرة لا بقاء لها وغفران الله ورحمته باقية لا زوال لها.

قال الله تعالى: **مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ**^(٣).

قال الله تعالى: **وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ**^(٤) ومن المعلوم أَنَّ الباقي خير من الفاني.

ثالثاً: أَنَّ نعم الدُّنْيَا مادية ونعم الآخرة معنوية وأن شئت قلت المال وما ضاهاه من زخارف الدُّنْيَا أنما ينتفع بها الجسم والبدن والغفران والرحمة وأمثالهما ينتفع بها الرُّوح وحيث أَنَّ الرُّوح أَفْضَلُ وَأَشْرَفُ مِنَ الْبَدَنِ فما ينتفع به الروح افضل مما ينتفع به البدن.

رابعها: أَنَّ الدُّنْيَا وما فيها مشوبة بالآلام مخلوطة بالمصَّار قال عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الدُّنْيَا دار بالبلاء مَحْفُوفَةٌ وبالغدر مَعْرُوفَةٌ، وَأَمَّا الآخرة وما فيها فليست كذلك.

خامسها: أَنَّ فِي الموت أو القتل فِي سبيل الله الحشر الى الله لقوله: **وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ أُوْكُمْ أَوْ قَتَلْتُمْ لَأَكَلِي اللَّهِ تَحْشَرُونَ** ولزم ذلك أَنَّ الموت أو القتل فِي سبيل الله الحشر معها لقوله ﷺ: **مَنْ أَحَبَّ حَجْرًا حَشَرَهُ اللَّهُ مَعَهُ**.

سادسها: أَنَّ الموت فِي سبيل الله دليل على أَنَّ المطلوب هو الله و الموت فِي سبيل الوصول الى الدُّنْيَا وجمع المال فيها دليل على أَنَّ المطلوب هو المال والفرق واضح.

الثالثة: لم ذكر الله تعالى القتل و الموت معاً فقال: وَلَيْسَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَأَنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ، أليس في ذكر أحدهما كفاية عن الآخر نقول في الجواب أصل القتل إزالة الروح عن الجسد و الموت كذلك فلا فرق بينهما من حيث المعنى و أما الفرق بالإعتبار فإذا أُعتبر بفعل المتوَلَّى لذلك يقال قتل و إذا أُعتبر بفوت الحياة يقال موت ثم أن كان المتوَلَّى للموت من الكفار في معركة القتال يقال أن القتل في سبيل الله المعبر عنه بالشَّهيد في لسان الشريعة و أن كان القتل بداعٍ آخر من الدواعي فهو و أن كان مقتولاً إلا أنه ليس من القتل في سبيل الله إذا علمت ذلك فقوله تعالى لمغفرة و رحمة، و قوله: لَأِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ليس ممَّا يتفرَّع على القتل في سبيل الله فحسب بل الآثار المذكورة متفرعة على إزالة الروح عن الجسد سواء كانت بصورة القتل أم بصورة الموت و بعبارة أخرى سواء كانت بفعل المتوَلَّى أم بفوت الحياة و لأجل هذه الدققة ذكر الموت بعد القتل في سبيل الله فهو في الحقيقة من قبيل ذكر العام بعد الخاص فكأنه قال تعالى المغفرة و الرحمة من الله تعالى ثابتان لمن أزيل روحه عن جسده في سبيل الله طلباً لمرضاته سواء كانت الإزالة بصورة القتل أو الموت و فائدة هذا التعميم إلقاء الخصوصيات و التوجه الى الأصل و عليه فلو مات الإنسان في سبيل طاعة الله و مرضاته حتف أنفه من غير قتل فله مغفرة و الرحمة لوجود الملاك فيه و هو كونه في سبيل الله كن مات في طلب الغلم أو سفر الحج و الزيار و امثالها ممَّا يطلب فيه رضى الله و طاعته و هذا هو الفائدة في ذكر الموت بعد القتل في الآية و لعمري أنه احسن الفوائد.

الرابعة: لم قدَّم القتل على الموت في الآية الأولى و بالعكس في الثانية فقال في الاولى لأن قتلتم في سبيل الله أَوْ مِتُّمْ، و قال في الثانية ولأن مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَأِلَى اللَّهِ تَحْشَرُونَ، قال بعض المفسرين من المعاصرين في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، و قد قدَّم القتل هاهنا على الموت لأن القتل في سبيل الله أقرب من المغفرة بالنسبة الى الموت فهذه النكتة هي الموجبة لتقديم القتل على

الموت ولذلك عاد في الآية التالية، وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ الى الترتيب الطبيعي بتقديم الموت على القتل بفقده هذه النكتة الزائدة انتهى كلامه رفع مقامه ولقائل أن يقول أن كان القتل في سبيل الله أقرب الى المغفرة بالنسبة الى الموت فليكن في جميع الموارد كذلك وبعبارة أخرى أن كان سبب تقديم القتل على الموت هو ما ذكره تَعَلَّقُ فهذا الملاك بعينه موجود في الآية التالية وفي جميع الموارد فينبغي أن يقدم القتل على الموت فيها وفي غيرها أيضاً هذا أولاً.

ثانياً: أن الموت المعطوف على القتل في سبيل الله في الآية ليس مطلق الموت كيف إتفق بل المراد الموت الذي وَقَعَ في سبيل الله كما اذا مات المجاهد في معركة القتال حتف أنفه وأما قلنا ذلك قضاءً لحكم العطف و عليه فكون القتل أقرب الى المغفرة من هذا الموت يحتاج الى دليل نعم القتل يكون أقرب الى المغفرة من مطلق الموت وأما الموت بهذه الخصوصية فلا و هذا الملاك بعينه موجود في الآية التالية وغيرها، والذي يختلج بالبال في حل الإشكال والله أعلم بحقيقة الحال هو أنه لما قَدِّمَ القتل على الموت في الآية السابقة قَدِّمَ الموت على القتل في الآية التالية حذراً من تكرار الترتيب في اللفظ كما هو مقتضى فنَّ البلاغة، قال الرازي في تفسيره و تَمَسَّكَ القاضي بهذه الآية على أن المقتول ليس بمَيِّتٍ قال لأنَّ قوله: وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ يقتضي عطف المقتول على المَيِّتِ و عطف الشَّيْءِ على نفسه ممتنع انتهى.

أقول مل ذكره ليس بشي فأنَّ التَّغَايِرَ بينهما بحسب الكيفية وأما في الأصل فلا و هو يكفي في صحَّة العطف فلا يكون من عطف الشَّيْءِ على نفسه من جميع الجهات و قد مرَّ البحث فيه هذا تمام الكلام في هذا المقام و عليه التوكُّل وبه الإعتصام.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ** قيل لما إنهمزوا عن النبي يوم أحد ثم عادوا بعد ثلاثة أيام أو أقل أو أكثر لم يخاطبهم الرسول بالتغليظ والتشديد وأما مخاطبهم بالكلام اللين ولذلك مدح الله رسوله على عفوه عنهم وتركه التغليظ عليهم فقال فيما رحمة من الله لنت لهم، إختلفوا في كلمة، ما، في قوله: **فَبِمَا** على قولين:

أحدهما: أنها زائدة وعليه أكثر المفسرين جي بها للتأكيد، قالوا وزيادتها بين الباء وعن ومن، والكاف، وبين مجروراتها شيء معروف في اللسان مقرر في علم العربية.

ثانيهما: أنها نكرة تامة ورحمة، بدل منها كأنه قيل فبشيء أبهم، ثم أبدل على سبيل التوضيح فقال رحمة وكان قائل هذا يقر من الإطلاق عليها أنها زائدة.

قال الرازي قال المحققون دخول اللفظ المهمل في كلام الله غير جائز وهنا يجوز أن تكون، ما، إستفهاماً للتعجب تقديره فبأي رحمة من الله لنت لهم، وذلك بأن جنایاتهم لما كانت عظيمة ثم أنه ما ظهر منه ﷺ البتة تغليظاً في القول ولا خشونة في الكلام علموا أن هذا لا يتأتى إلا بتأييد رباني قبل ذلك انتهى ثم أن متعلق الرحمة المؤمنون، أو الرسول ﷺ.

فعلى الأول: معنى الكلام فبرحمة من الله عليهم لنت لهم فتكون الرحمة أمتن بها عليهم.

على الثاني: معنى الكلام برحمة الله إياك جعلك لين الجانب موطأ الأكناف فرحمتهم ولنت لهم ولم تواخذهم بالعصيان والفرار وأفرادك للأعداء فيكون ذلك إمتناناً على الرسول ﷺ، أما قوله: **لِنْتَ لَهُمْ**، اللين ضد الخشونة ويستعمل ذلك في الأجسام ثم يستعار للخلق وغيره من المعاني فيقال فلان لين وفلان خشن وكل واحد منهما يمدح به طوعاً ويذم بها طوعاً بحسب إختلاف المواقع قاله الراغب في المفردات وكيف كان لا شك أن

الآية في مدح النَّبِيِّ ﷺ وفيها إشارة الى أنَّ هذه السَّجِيَّة الكريمة في الطاف الله فأنه تعالى إذا أراد بعد خيراً تهيتاً أسبابه وحيث ان النَّبِيَّ ﷺ مخاطب لقوله لو لآك لما خلقت الافلاك فلا محالة يكون أشرف الخلائق وأفضلهم وأحبهم الى الله تعالى ولازم ذلك أن يكون مظهراً كاملاً لصفاته من العلم والقدرة والإرادة وغيرها وقد ثبت أنَّ التخلُّق بأخلاق الله هو الغاية والمقصد الأسنى في العبودية لقوله: ﷺ تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ، فهو ﷺ كان مظهراً كاملاً لأخلاقه وجميع صفاته ولذلك صار مخاطباً بقوله تعالى: وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ^(١).

المسألة الثانية: وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا أَلْقَبُ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ قال الراغب في المفردات الفظ الكريه الخلق والمعنى لو كنت كريه الخلق لتفرقوا وتشتتوا من حولك وفيه إشارة الى أنَّ الخلق السيِّ الكريه يوجب تفرق الناس وتشتتهم وهو يدل مفهومًا على أنَّ الخلق الحسن يوجب جمع الناس وجذبهم، وقيل أنَّ الخلق والخلق في الأصل واحد كالشرب والشرب والصَّرم والصُّرم لكن خصَّ الخلق بالهيئات والأشكال والصُّور المدركة بالبصر وخصَّ الخلق بالقوى والسَّجاياء المدركة بالبصيرة قال بعض المحققين من علماء الأخلاق الغليظة والفظاظة من نتائج الغضب وضده الرِّفق أي اللين فيهما وهو من نتائج الحلم ولا ريب في أنَّ الغلظة في القول والفعل ينفر الطَّبَاع ويؤدِّي الى إختلاف أمر المعاش والمعاد ولذلك نهى الله سبحانه نبيه عنه في مقام الإرشاد قال: وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا أَلْقَبُ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ وروي عن سلمان أنه قال إذا أراد الله تعالى هلاك عبد نزع منه الحياء فاذا نزع منه الحياء لم يلقه إلا خائناً مخوناً وإذا كان خائناً مخوناً نزعته من الأمانة فاذا نزعته من الأمانة لم يلقه إلا فظًّا غليظاً فاذا كان فظًّا غليظاً نزعته من ريقه الإيمان فاذا نزعته من ريقه الإيمان لم يلقه إلا شيطاناً ملعوناً، ويظهر من هذا الكلام أنَّ من

كان من أهل الغلظة والفظاظة فهو الشيطان حقيقةً فيجب على كل عاقل أن يجتنب عن ذلك كل الإجتنب و ضد الغلظة الرفق واللين ولذلك.

قال رسول الله ﷺ: لو كان الرفق خلقاً يرى ما كان فيما خلق الله شيء أحسن منه.

وقال ﷺ: أن الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه وقال ﷺ: لكل شيء قفل وقفل الإيمان الرفق.

وقال ﷺ: أن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف.

وقال ﷺ: ما إصطحب أثنان إلا كان أعظمهما أجراً وأحبهما إلى الله تعالى أرفقهما بصاحبه.

وقال ﷺ: الرفق يمن والخرق شؤم.

وقال ﷺ: إذا أحبب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق.

وقال ﷺ: من أعطي حظاً من الرفق أعطي حظاً من خير الدنيا والأخرة ومن حرم حظاً من الرفق حرم حظاً من الدنيا والأخرة.

وقال ﷺ: إذا أحبب الله عبداً أعطاه الرفق ومن يحرم الرفق يحرم الخير كله.

وقال ﷺ: أتدرون من يحرم على النار كل هين لين سهل قريب.

والأخبار كثيرة وفيما ذكرناه كفاية لآلي الدراية^(١).

أقول حيث ذكرنا بعض الأخبار الواردة في ذم الغلظة ومدح اللين فقد عرفت الوجه في ذم الغلظة ومدح اللين وقد ثبت بالتجربة أن إمضاء الأمور وإنجاح المقاصد موقوف على الرفق واللين مع الخلائق فكل ملك كان رفيقاً بجنده ورعيته انتظم أمره ودام ملكه وأن كان فظاً غليظ اختل أمره وانفض

النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ وَزَالَ مَلِكُهُ وَسُلْطَانُهُ فِي أَسْرَعِ زَمَانٍ وَقَسَّ عَلَيْهِ غَيْرُهُ مِنْ طَبَقَاتِ النَّاسِ وَلَا سِيَّمَا الْعُلَمَاءَ فَأَنْتَهُمْ لِمَكَانٍ وَرِاثَتَهُمْ لِلْأَنْبِيَاءِ مِنْ جِهَةِ الْعِلْمِ وَالْإِشْرَادِ لَا بَدَّ لَهُمْ مِنَ الْإِتِّصَافِ بِحَسَنِ الْخَلْقِ وَاللَّيْنِ وَالرَّفَقِ وَالتَّجَنُّبِ مِنَ الْغَلْظَةِ وَالْفِظَاطَةِ مَعَ النَّاسِ لِثَلَاثٍ يَنْفُضُوا مِنْ حَوْلِهِمْ وَأَنْمَا قَلْنَا أَنْتَهُمْ أَوْلَىٰ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِهِمْ لِأَنَّ مِيلَ النَّاسِ إِلَيْهِمْ فِي الْحَقِيقَةِ مِثْلُهُمْ إِلَى الدِّينِ كَمَا أَنَّ تَجَنُّبَهُمْ عَنْهُمْ وَتَفَرُّقُهُمْ مِنْ حَوْلِ الْعُلَمَاءِ أَيْضًا يَرْجِعُ إِلَى التَّجَنُّبِ عَنِ الدِّينِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **أُذِغْ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ^(١).

المسألة الثالثة: قوله تعالى: **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ الْفَاءَ لِلتَّفْرِيعِ** لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ مَتَفَرِّعَةٌ عَلَى اللَّيْنِ وَالرَّفَقِ، أَمْرٌ نَبِيَّهُ بِأُمُورٍ ثَلَاثَةٌ:

العفو، والإستغفار لِلنَّاسِ، وَالمشورة، فَلِأَبْحَاثِ ثَلَاثَةٌ:

البحث الأول: فِي الْعَفْوِ قَالَ الرَّاعِبُ الْعَفْوُ هُوَ التَّجَافِي عَنْ الذَّنْبِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** ^(٢)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ^(٣)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ** ^(٤).

وَالْآيَاتُ وَالْإِخْبَارُ فِي مَدْحِهِ كَثِيرَةٌ ثُمَّ إِنَّ الْعَفْوَ عَلَى مَا عَرَفُوهُ فِي كُتُبِ الْإِخْلَاقِ هُوَ اسْقَاطُ مَالِيَةِ حَقِّهِ مِنْ قِصَاصٍ أَوْ غَرَامَةٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثٌ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ كُنْتَ مَالِفًا لِحَلْفَتِ عَلِيٍّ مَانَقَفْتَ صَدَقَةً مِنْ مَالٍ فَتَصَدَّقُوا وَلَا عَفَاَ رَجُلٌ مِنْ مَظْلَمَةٍ يَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ بِهَا عِزًّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَتَحَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ انْتَهَى.

و قال ﷺ: العفو لا يزيد العبد إلا عزاً فأعفوا يعزكم الله انتهي.
 و قال ﷺ: ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والأخرة، تصل من قطعك وتُعطي من حرَمك وتَعفو عمن ظلمك.
 و قال الباقر (عليه السلام): الندامة على العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة.

ولقد جاء ابن الزبيري حيث قال:

فالأُن أخضع للنبي محمد	بيد مطاوعة وقلب تائب
ومحمد أوفى البرية ذمّة	وأعزّ مطلوب وأظفر طالب
هادي العباد إلى الرّشاد وقائد	للمؤمنين بضوء نور ثاقب
أنّي رأيتك يا محمد عصمة	للعالمين من العذاب الواصب

و يدلّك على كونه ﷺ مظهراً لعفو الرّحمن ما صدر عنه ﷺ بعد فتح مكّة و عفوّه عن المشركين الظّالمين بقوله أذهبوا أنتم الطّلقات، ولعمري هو يكفي لإثبات المدعى مضافاً إلى كثرة الموارد التي ضبطها متون التّواريخ فمن أراد الإطلاع عليها فعليه بالمراجعة إليها.

البحث الثّاني: قوله: وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ الإِسْتِغْفَار طلب المغفرة من الله تعالى.

قال الله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً^(١).

إعلم أنّ الله تعالى أمر رسوله بالإستغفار لهم لأنّه ﷺ كان مُظهرًا لرحمة الله تعالى وأقرب الخلق إليه ولذلك دعاه كان مستجاباً وقد ثبت في علم الكلام أنّ أصل البعثة على أساس اللطف منه تعالى بالنسبة إلى عباده، قال المفيد (رحمه الله) لما أحسّ رسول الله ﷺ بالمرض أخذ بيد عليّ وتبعه جماعة و

توجّه الى البقيع فقال أني قد أمرت بالإستغفار لأهل البقيع فإنطلقوا معه حتّى وقف بين أظهرهم وقال السّلام عليكم أهل القبور ليهنّكم ما أصبحتم فيه ممّا فيه النّاس أقبلت الفتن كقطع اللّيل المظلم يتبع أولها آخرها ثمّ إستغفر لأهل البقيع طويلاً الحديث.

البحث الثالث: قوله: **وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** أمر الله تعالى نبيّه بالمشورة بعد العفو والإستغفار، قال الرّاعب والتّشاور والمشاورة والمشورة إستخراج الرّأي بمراجعة البعض الى البعض من قولهم شرّ العسل اذا إتّخذته من موضعه وإستخرجته منه انتهى.

ثمّ أنّ الظّاهر من قوله: **وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** أي أمر الحرب وبه قال الكلبي وكثير من العلماء وإستدلّوا عليه بأنّ الألف واللام في لفظ الأمر للإستغراق لما بيّن أنّ الذي نزل فيه الوحي لا تجوز المشاورة فيه فوجب حمل الألف واللام هاهنا على المعهود السّابق وهو في هذه الآية يتعلّق بالحرب و لقاء العدو فكان قوله: **وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** مختصّاً بذلك ثمّ ذكروا له نظائر منها ما أشار الحباب بن منذر يوم بدر على النبي ﷺ بالنزول على الماء فقبل منه. ومنها ما أشار عليه السّعدان سعد بن معاذ وسعد بن عباد يوم الخندق بترك مصالحة غطفان على بعض ثمار المدينة لينصرفوا فقبل منهما وخرق الصّحيفة.

ومنها من قال اللفظ عامّ خصّ عنه ما نزل فيه وحي فتبقي حجّته في الباقي الفخر الرّازي بعد نقله ما نقلناه والتّحقيق في القول أنّه تعالى أمر أولي الأبصار بالإعتبار فقال: **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ** وكان ﷺ سيّد أولي الأبصار ومدح المستنبطين فقال لعلمه الذين يستنبطونه منهم، وكان أكثر النّاس عقلاً وذكاءً وهذا يدلّ على أنّه ﷺ كان مأموراً بالإجتهد اذا لم ينزل عليه الوحي والإجتهد يتقوى بالمناظرة والمباحثة فهذا كان مأموراً بالمشاورة

قد شاورهم يوم بدر في الأسارى وكان من أمور الدين والدليل على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس أن النص كان لعامة الملائكة في سجود آدم ثم أن إبليس خص نفسه بالقياس وهو قوله: **خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ^(١) فثار ملعوناً فلو كان تخصيص النص بالقياس جائزاً لما استحق اللعن بهذا السبب ثم قال الرازي ظاهر الأمر للوجوب فقوله: **وَشَاوَرَهُمْ** يقتضي الوجوب وحمل الشافعي ذلك على الندب انتهى.

أقول ما ذكره الكلبي ومن وافقه من العلماء لا بأس به وهو الظاهر من الآية وأما ما ذكره الرازي فلا يرجع إلى محصل ذلك لأنه جعل النبي ﷺ أحد المجتهدين للأحكام الشرعية ثم قوى إجهاده بالمناظرة والمباحثة فكان مأموراً بالمشاورة مع غيره ليكون في اجتهاده أقل خطأ كما هو كذلك في حق غيره من العلماء وهو الاطل مخالف لنص الكتاب:

قال الله تعالى: **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ^(٢).

دلت الآية على أن النبي لا ينطق عن الهوى بل كل ما يقول فهو مستند إلى الوحي فهذا حكم عام في جميع الأمور والتخصيص يحتاج إلى الدليل واذ ليس فليس، وأيضاً:

قال الله تعالى: **وَمَا آتَيْكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** ^(٣).

دلت الآية على وجوب الأخذ بقوله ﷺ كأننا ما كان فلو لم يكن كلامه مستنداً إلى الوحي لزم الإغراء بالجهل كما ترى، إذ لا يبعد أن يكون كلامه من إجهاده على قول الخصم والمجتهد قد يصيب وقد يخطي فيلزم وجوب الأخذ ولو في صورة الخطأ وهذا هو المراد بالإغراء فيما مر وأيضاً:

قال الله تعالى: **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ** ^(٤).

و تقريب الإستدلال بها واضح لأن الإطاعة بقول مطلق لا يعقل إلا مَن عصمه الله من الخطأ والمجتهد لا يكون معصوماً عن الخطأ والآيات كثيرة و يعضدها العقل السليم وذلك لأن النبي أمين الله في أرضه و الناس مأمورون بمتابعته بقول مطلق فلا بد من أن يكون معصوماً عن الذنب والخطأ والنسيان و غير ذلك لأن المفروض أن إطاعته إطاعة الله و معصيته معصية الله و الرد عليه الرد على الله و هكذا فلو فرضنا أنه كان يستنبط بعض الأمور بإجتهاده و مشاورته للغير فالمستنبط كلام نفسه لا كلام الله فلو كان في إجتهد مخطئاً و قلنا بوجوب الإطاعة يلزم منه إضلال الناس لا إرشادهم الى الحق هف و أما قوله لا يجوز تخصيص النص بالقياس فهو حق لأن القياس من الشيطان لا من الإنسان و أول من قاس بعده فقد تابعه و هذا هو الوجه في عدم جواز تخصيص النص بالقياس لا ما ذكره من أن النص في سجود آدم كان لعامة الملائكة ثم أن إبليس خص نفسه بالقياس و ذلك لأن كونه إبليس من الملائكة أم من الجن فيه خلاف و قد مرَّ تحقيقه سابقاً هذا، ولقائل أن يقول لو صار إبليس ملعوناً بسبب القياس كما إعترفت به فلم تقول به، و أما ما ذكره من أن الأمر للوجوب أو التدب فسيأتي الكلام فيه.

نقل الرّازي في آخر البحث قصة عجيبة قال روي الواحدي في الوسيط عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أنه قال، الذي أمر النبي بمشاورته في هذه الآية أبو بكر و عمر ثم قال و عندي فيه إشكال لأن الذين أمر الله رسوله بمشاورتهم في هذه الآية هم الذين أمره بأن يعفو عنهم و يستغفر لهم وهم المنهزمون فأَنَّ عمر كان من المنهزمين فدخل تحت الآية إلا أن أبا بكر ما كان منهم فكيف يدخل تحت هذه الآية والله أعلم انتهى.

أقول العجب من الرّازي مع أنه كان يعد نفسه من العقلاء كيف إستشكل و لم يقل لو كان الأمر كما ذكره الناقل فحق الآية كان، أن يقال و شاورهما في الأمر.

ثانياً: من أين ثَبِتَ له فرار عُمر دون أبي بكر.

ثالثاً: نسى عثمان في الحديث مع أنه كان من المنهزمين.

رابعاً: يلزم حذف أبي بكر وهو رأسهم ورئيسهم عن هذه المنقبة ولا أدري كيف رضي الرّازي بذلك، ألا أن نقول ومن يُضلل الله فما له من هادٍ ومن قال بهذه المقالة أعني جواز الاجتهاد للنبي في الأمور، القرطبي في تفسيره حيث قال: **وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ** يدل على جواز الاجتهاد في الأمور والأخذ بالظنون مع إمكان الوحي فإن الله أذن لرسوله ﷺ في ذلك انتهى كلامه.

أقول زاد القرطبي في الطنبور نعمة أخرى وهي الأخذ بالظن مع إمكان الوحي وهو أعجب من مقالة الرّازي فما هو ظاهر على الناظر في المقاليتين والجواب الجواب اذا عرفت هذا فنقول، الحق أن يقال أن الله تعالى أمر نبيه بالمشاورة في غير ما يرتبط بالدين وذلك لأن الدين مما شرعه الله ولا سبيل للمخلوق كائناً من كان في جعل أحكامه وهو أمر قد فرغنا من البحث فيه فلا يجوز جعل حكم من الأحكام الدينية بواسطة المشاورة نعم في الأمور الدنيوية لا بأس بها والآية ناظرة إليها، ثم أنه لاشك لأحد أن المشاورة في الأمور مما يحكم به العقل السليم ويؤيده الشرع القويم ولذلك وردت الآيات والأخبار في حُسْنِها والترغيب إليها وفائدتها استخراج الرأي الأصح من بين الآراء واختابه وذلك لأن الأفكار مختلفة والآراء متفاوتة اذ لا يبعد أن يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح ما لا يخطر ببال غيره وان كان الغير اعلم منه في سائر الامور ربما يفهم الانسان العامي ما لا يعلمه العالم من امور الدنيا وذلك لأن العقول تقاته واذا كان كذلك فلا يمكن لأحد الوصول الى ما هو الاصلح الا بالمشاورة مع غير قال امير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة:

من استبدَّ برأيه هلكَ ومن شاورَ الرجالَ شاركهما في عقولهما.

وعن النبي ﷺ: لا وَحْدَةَ أَوْحَشَ من العُجْب ولا مَظَاهِرَةَ أَوْثَقَ من المُشَاوَرَةِ انتهى.

وأمثال ذلك من الأحاديث كثيرة جداً ولا كلام لنا ولا لأحدٍ من الناس في حسنها وأما الكلام فيها بالنسبة إلى النبي ﷺ حيث أمره الله تعالى في كتابه وهذا هو الذي تحيرت العقول فيه وإختلفت آراء المفسرين في تفسير كلامه وقد ذكروا في ذلك وجوهاً.

أحدها: أنه تعالى أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون وأن كان غنى عن مشورتهم.

ثانيها: أنه كان تعليمياً منه لأمته ليشاور الرجل الناس وأن كان عالماً.

ثالثها: أن مشاورة الرسول أيّاهم توجب علو شأنهم ورفع درجة درجتهم يقتضي شدة محبتهم له وخلصهم في طاعته كما أن تركها إهانة بهم فيحصل لهم سوء الخلق والفظاظة.

رابعها: قالوا وشاورهم في الأمر ليستفيد منهم رأياً وعلماً لكي تعلم مقادير عقولهم وأفهامهم ومقادير حبهم لك وإخلاصهم في طاعتك فحينئذ يميز لك الفاضل من المفضول فبين لهم على قدر منازلهم.

خامسها: أن المشاورة لهم دلت على أن لهم عند الله قدراً وقيمةً فهذا يفيد أن لهم قدراً عند الله وعند الرسول وعند الخلق والوجوه المحتملة كثيرة جداً وأحسن الأقوال هو القول الأول وذلك لإستغناء النبي ﷺ بالوحي عن يعرف صواب الرأي من العباد وأما الغرض منها أن تكون سنته راجحة بين الأمة بعده ﷺ وذلك لأن الرسول لا يخفى عليه شيء حتى يحتاج في فهمه إلى المشورة كما هو الشأن في العلم الدني الحضوري وللبحث فيه مقام آخر.

البحث الرابع: فإذا عزم فتوكل على الله أن الله يحب المتوكلين، العزم هو الأمر المرؤى المتفح وقال الراغب العزم والعزيمة عقد القلب على إمضاء

الأمر والتوكل على الله تفويض الأمر اليه، والمعنى فإذا عازمت على الفعل أي عقدت قلبك على إمضاء فتوكل على الله أي فوض أمرك اليه تعالى تعتمد على سبب من الأسباب ولا رأي من الآراء فَأَنْ الأُمُور بيده وهو على كل شيء قدير، التوكل على ما عرّفوه هو إعتداد القلب في جميع الأمور على الله وعبارة أخرى حوالة العبد جميع أموره على الله وقيل هو التبرّي من كل حول وقوة والإعتداد على حول الله وقوته وهو موقوف على أن يعتقد العبد إعتقاداً جازماً بأنه لا فاعل إلا الله وأن لا حول ولا قوة إلا بالله وأن له تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجلمة العباد والآحاد وأنه ليس وراء قدرته قدرة ولا وراء علمه علم ولا وراء عنايته عناية فمن إعتقد ذلك إتكل قلبه لا محالة على الله وحده ولم يلتفت الى غيره الى نفسه أصلاً فالتوكل لا يتم إلا بقوة اليقين وقوة القلب جميعاً إذ بهما يحصل سكون القلب وطمانينته فالسكون في القلب شيء واليقين فيه شيء آخر فكم من يقين لا طمانينة فيه قال تعالى: **أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالِ بَلَىٰ وَلَكِنْ لَا يُقِينُ قَلْبِي** ^(١) **حَتَّىٰ أَتَىٰ** الكافر ربما يكون مطمئن القلب في كفره ولكن لا يقين له لإتباعه الظن وما تهوي الأنفس، فإذا توقّف التوكل على اليقين وقوة القلب وارتفع بضعف أحدهما يظهر أن التوكل من الفضائل المتعلقة بقوتي العاقلة والغضبية معاً، وضده أعني عدم التوكل من رذائل أحدهما أو كليهما، وكيف كان هو منزل من منازل السالكين ومقام من مقامات الموحّدين بل هو أفضل درجات الموقنين ولذا ورد في مدحه وفضله والترغيب فيه ما ورد من الكتاب والسنة.

قال الله تعالى: **وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ^(٢).

قال الله تعالى: **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ^(٣).

قال الله تعالى: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ^(١).

قال الله تعالى: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(٢).

أي عزيز لا يذل من إستجار به فلا يضع من لاذ بجناحه وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره ومن الأخبار.

قال رسول الله ﷺ من إنقطع الى الله كفاه الله كل مؤونة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن إنقطع الى الدنيا وكله الله اليها، و قال ﷺ من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده، وقال الصادق عليه السلام اوحل الله داود ما اعتصم به عبد من عبادي دون احد من خلقي عرفت ذلك من بيته ثم تأكيد السموات والارض ومن فيهن الآجعت له المخرج من بينهن وقال عليه السلام من اعطى ثلاثاً لم يمنع ثلاثاً من اعطى الدعاء اعطى الاجابة ومن اعطى الشكر اعطى الزيادة ومن اعطى التوكل لعطى الكفاية والخبار فيه كثيرة^(٣).

قال بعض المحققين من علماء الأخلاق للتوكل في الضعف والقوة ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن يكون حاله في حق الله والثقة بعنايته وكفالاته كحاله بالوكيل في الثقة وهذه أضعف الدرجات.

الثانية: أن يكون حاله مع الله كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها يفزع إلا إليها ولا يعتمد إلا عليها والفرق بين هذا وسابقه أن هذا متوكل قد فنى في موكله عن توكله أي ليس يلتفت قلبه الى التوكل بل إلتفاتة الى المتوكل عليه فقط فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه وأما الأول فتكلف في

٢- الأنفال = ٤٩

١- الطلاق = ٣

٣- جامع السادات، ج ٣، ص ٢١٦.

توكّله بالكسب والتكلف وليس فانياً عن توكّله أي له إلتفات اليه وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكّل عليه.

الثالثة: وهى أعلى الدّرجات أن يكون بين يدي الله في حركاته وسكناته مثل الميّت بين يدي الغاسل بأن يرى نفسه ميّتاً و تحرّكه القدرة الأزليّة كما يحرك الغاسل الميّت وهو الذي قويت نفسه ونال الدّرجة الثالثة من التّوحيد هذا القسم توكّل إبراهيم الخليل لما وضع في المنجنيق ليُرمى به الى النار و أشار اليه روح الأمين بسؤال النّجاة والإستخلاص من الله سبحانه فقال حسبي من سؤالي علمه بحالي وهذا القسم نادر الوقوع عزيز الوجود إذ هو مرتبة الصّدّيقين وهو ينافي التدبيرات ما دام باقياً إذ يكون صاحبه كالمبهوت ثم أنّ التوكّل على الله قد يكون في جميع الأمور وقد يكون في بعضها وتختلف درجات ذلك بحسب كثرة الأمور المتوكّل فيها وقلّتها انتهى كلامه.

أقول الآيات والأخبار في مدح التوكّل كثيرة مذكورة في المطوّلات فمن أراد الإطّلاع عليها فعليه بالمراجعة إليها وسنتكلّم فيه خلال الآيات زيادة على ما ذكرناه في المقام ولنعم ما قال الشّاعر فيه:

وما ثمّ إلاّ الله في كلّ حالة فلا تتكلّ يوماً على غير لطفه
فكم حالة تأتي ويكرهها الفتى وخيرته فيها على رغم أنفه
وقال الآخر:

توكّل على الرّحمن في الأمر كلّه فما خاب حقّاً من عليه توكّلا
وكن وثاقاً بالله وأصبر لحكمه تفز بالذي ترجوه منه تفضلاً

والذي ينبغي أن يُذكر في المقام هو أنّ التوكّل على الله لا ينافي التوصل و التمسك بالأسباب المقطوعة أو المظنونة مع أنّ الله قادر على إعطاء المطلوب بدون ذلك لأنّ الله سبحانه قد ربط المسببات بالأسباب في دار الدّنيا وأبى أن يجري الأشياء إلاّ بأسبابها ولذلك لمّا أحمل الإعرابي بعيره و قال توكّلت على الله قال له النّبي ﷺ إعتقلها وتوكّل.

و قال الصّادق عليه السلام: أَوْجَبَ اللَّهُ لِعِبَادِهِ أَنْ يَطْلُبُوا مِنْهُ مَقاصِدَهُمْ
بِالْأسبابِ الَّتِي سَبَّبَهَا لَذَلِكَ وَأَمَرَهُمْ بِذَلِكَ.

قال الله تعالى: خُذُوا حِذْرَكُمْ.

وقال في كَيْفِيَّةِ صَلَاةِ الْخَوْفِ:

قال الله تعالى: وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ.

قال الله تعالى: وَاعْبُدُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ^(١).

روي أنّ زاهداً من الزّهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل فقال لا أسأل
أحدًا شيئاً حتّى يأتيني ربّي برزقي فقعد سبعةً فمات ولم يأتِه رزق فقال
يا ربّ إن أحيتني فأتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فأقبضني اليك فأوحى
الله تعالى اليه وعزّتي وجلالي لا أرزقك حتّى تدخل الأمصار وتقعّد بين
النّاس فدخل مصر فأقام فجاء هذا بطعام وهذا بشرابٍ فأكل وشرب فأوجس
في نفسه ذلك فأوحى الله اليه أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدّنيا أما
علمت أنّي أرزق عبادي بأيدي عبادي أحبّ إليّ من أن أرزقه بيد قدرتي
انتهى.



إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ
فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ
قَلِيلَوَكُلُّ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ
وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى
كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١)
أَفَمِنْ أَتَّعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ
اللَّهِ وَمَأْوِيهِ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ
دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣)

◀ اللغة

يَخْذُلْكُمْ: الخذلان: ترك من يظنّ به أن ينصر نصرته ولذلك قيل خذلت
الوَحْشِيَّة ولدها وتخاذلت رجلا فلان ومنه قول الأعشى:

بين مغلوبٍ قليلٍ خدّه وخذول الرّجل من غير كسح
ورجل خذلة كثيراً ما يخذل.

يَغْلُ: اللغْلُ أصله تدرع الشئ وتوسطه ومنه الغلل للماء الجاري بين
الشجر فالغلّ مخصّ بما يقيد به فيجعل الأعضاء وسطه وجمعه أغلال و
غلّ: فلان قيد به قال تعالى: خذوه فغلّوه.

بِسَخَطٍ: السخط والغضب الشديد المقتضى للعقوبة.

مَأْوِيَهُ: المأوى مصدر ياوى اوىاً قال الله تعالى: مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وقال
جَنَّةُ الْمَأْوَى وكيف كان هو اسم المكان الذي ياوى اليه.

◀ الاعراب

أَنْ يَغْلُ بفتح الياء وضمّ الغين على نسبة الفعل الى شئى اى ذالك غير
جائز عليه ومفعوله محذوف أى يغلّ الغنيمة أو المال، ويقرأ بضمّ الياء وفتح

الغين على ما لم يسم فاعله وفي فمعناه ثلاثة أوجه:
أحدها: أن يكون ماضيه أغلته أي نسبته إلى الغلول كما تقول أكذبت أي
نسبته إلى الكذب أي لا يقال عنه أنه يغل، أي يخون.
الثاني: هو من أغلته إذا وجدته غالا كقولك أحمدت الرجل إذا أصبته
محموداً.

الثالث: معناه أن يغله غيره أي ما كان لنبي أن يخان ومن يغلل مستأنفة و
يجوز أن يكون حالاً ويكون التقدير في حال علم الغال بعقوبة المغلول أفمن
أتبع من بمعنى الذي في موضع رفع بالإبتداء وكمن الخبر ولا يكون شرطاً
لعدم صلاحيته للجواب وبسخط حال هم درجات مبتدأ وخبر والتقدير ذو
درجات فحذف المضاف وعند الله ظرف لمعنى درجات كأنه قال هم
متفاضلون عند الله ويجوز أن يكون صفة لدرجات.

◀ التفسير

إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ قَالَ الزّمخشري في الكشف قوله: إِنْ
يَنْصُرْكُمْ إشارة إلى يوم بدر وقوله: إِنْ يَخْذُلْكُمْ إشارة إلى يوم أحد ثم قال
فهذا تنبيه على أن الأمر كله لله وعلى وجوب التوكل عليه انتهى.

أقول لا دليل على تخصيص الآية بيوم بدر وأحد بل هي باقية على
عمومها وخصوصية المورد لا توجب خصوصية المعنى وعليه فقوله تعالى:
إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ والمعنى أن ينصركم الله في أي مورد كان فلا غالب
لكم، وذلك لأنه لو كان هناك غالب فهو غالب على الله في الحقيقة ولازم
ذلك مغلوبيته تعالى وكل مغلوب عاجز والعجز من شؤون المخلوق الممكن
المحتاج وأما الواجب فهو على كل شيء قدير وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي
يَنْصُرْكُمْ أي أن يخذلكم الله فليس لكم ناصر، وهو كذلك إذ لو كان هناك
ناصر نصره مع خذلان الله أي أنه فهو إما خالق أو مخلوق ليس الأول لأن الخالق

خذه فلا محالة هو مخلوق لعدم الوساطة بين الخالق والمخلوق وإذا كان كذلك فهو أي المخلوق أقوى من الخالق والخالق أضعف منه، وكل ضعيف مخلوق هف و عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ قيل وجه التخصيص علمه تعالى بأنه لا ناصر لهم سواه ولأن إيمانهم يوجب ذلك و يقتضيه قاله الزمخشري في الكشاف، والحق أنه لا ناصر للمخلوق غيره تعالى سواء كان مؤمناً أم لا وذلك لأن القدرة بيده لا بيد غيره فمن توكل على غير الله فقد توكل على ضعيف مثله وهو من قبيل ضمّ المعدوم الى معدوم آخر فلا بد للمخلوق كائناً من كان من التوكل على خالقه للوصول الى مقصده إلا أن أكثر المخلوقين لا يتوجهون الى هذه النكة لعدم معرفتهم أو قلّتها وأما المؤمن بالله فلا يغفل عن معبوده لمعرفة آياته وعلمه بأن غير الخالق لا يقدر على شيء فلا محالة يتوكل عليه في جميع أموره ويفوض أمره الى الله وهذا هو السر في تخصيص المؤمنين بالتوكل على الله لا علمه تعالى بأنه لا ناصر لهم أي للمؤمنين سواه كما زعمه الزمخشري وذلك لعلمه تعالى بأنه لا ناصر لكل المخلوق سواه هذا ما فهمناه من الآية في بادي النظر ثم بعد الدقة وإمعان النظر فيها خطر ببالي نكتة أخرى وهى أن تقديم الجار والمجرور أعني قوله و على الله، يفيد الحصر كما يقال في الدار زيد، يفيد الحصر ومعناه ليس في الدار إلا زيداً، بخلاف قولنا زيد في الدار، فإن معناه أن زيداً في الدار ولا ينفي وجود غيره فيها إذا عرفت هذا فقال الله تعالى و على الله فليتكمل المؤمنون بتقديم الجار والمجرور ولم يقل فليتكمل المؤمنون على الله، فالمعنى أن المؤمن لا يتوكل إلا على الله وأما غيره يتوكل على كل شيء فأفهم.

و أما أن التوكل ما هو فقد تكلمنا فيه في الآية السابقة فلا نطيل الكلام بذكره ثانياً وسيأتي الكلام فيه في تفسير الآيات في المستقبل إن شاء الله بقى في المقام شيء لا بد من التعرض له وهو أنه ما المراد بالخذلان في الآية وهل يصح أن يخذل الله عبده والله هو الرؤوف الرحيم قلت معنى الخذلان من الله

تعالى في المقام وفي كل مقام سلب التوفيق عنه كما أن معنى النصرة شموله آياه ويدل عليه ما رواه في كتاب التوحيد بأسناده عن الصادق عليه السلام في حديث طويل في قوله تعالى: وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ.

إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ

قال عليه السلام إذا فعل العبد ما أقره الله من الطاعة كان فعله موافقاً لأمر الله وسمى العبد به موفقاً وإذا أراد العبد أن يدخل في معاصيه فحال الله تعالى بينهما ويتركها كان تركه بتوفيق منه ومتى خلى بينه وبين المعصية ولم يحل بينه وبينها حتى يرتكبها فقد خذله ولم ينصره ولم يوفقه انتهى تفسير نور الثقلين^(١).

وَمَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَغْلَّ تقديره ما كان لنبي الغلول لأن، أن مع الفعل بمعنى المصدر أي لا تجتمع النبوة والخيانة وذلك لما روي عن ابن عباس و سعيد بن جببر أنها نزلت في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر من المغنم فقال بعضهم لعل النبي أخذها فنزلت وقيل أنها نزلت في أداء الوحي ومعناها ما كان له أي للنبي أن يكتسب شيئاً من الوحي قالوا كان رسول الله ﷺ يقرأ القرآن وفيه عيب دينهم وسب آلهتهم فسألوه أن يترك ذلك فنزلت هذه الآية، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أن أشراف الناس طمعوا أن يخصهم النبي ﷺ من الغنائم بشئ فأنزلت الآية وعن الكلبي ومقاتل نزلت هذه الآية حين ترك الرماة المركز يوم أحد طلباً للغنيمة وقالوا نخشى أن يقول النبي ﷺ من أخذ شيئاً فهو له وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر فقال ﷺ ظننتم إننا نغل فلا نقسم لكم فنزلت هذه الآية وكيف كان فقد نزه الله ساحة نبيه من الغل والخيانة فقال: وَمَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَغْلَّ قال بعض المفسرين والوجه فيه هو أن الخيانة سبب للعار في الدنيا والآخرة فالتنفس الرغبة فيها في نهاية الدانة، ثم أن النبوة أعلى المناصب الإنسانية فلا تليق إلا بالنفس التي تكون في

غاية الجلالة والشرف والجمع بين الصفتين في النفس الواحدة ممتنع فنبت أن النبوة والخيانة لا يجتمعان ونظير هذه الآية قوله تعالى: مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ^(١) يعني أن الإلهية وإتخاذ الولد لا يجتمعان انتهى كلامه.

وأنا أقول لنا في المقام وجه آخر وهو أن الآية تدل على عصمة النبي، لأن الإنسان بحسب فطرته الأصلية وطبعه البشري لا يخلو من الغل والخيانة قل أوكثر فلو كان الإنسان بريئاً من الغل بالكلية فهو معصوم أي عصمه الله من الزلل والخطأ وحيث شهد الله تعالى في كلامه بأن النبي لا يغفل، فهو معصوم لا محالة وهو المطلوب.

وأيضاً فلسفة النبوة والتشريع إرشاد الناس إلى التخلق بأخلاق الله المعلوم أن معطي الشيء لا يكون فاقداً له فلو كان النبي خائناً كيف يدعو الناس إلى تركها مضافاً إلى أن الخيانة من أخلاق الشيطان وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ قيل في معناه قولان:

أحدهما: حمل الكلام على ظاهره من غير تأويل فيه وهو أن من يغفل في الدنيا يأت بما غل بعينه يوم القيامة حاملاً آياته على ظهره كما.

روي عن النبي ﷺ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا غَنِمَ مَغْنَمًا بَعَثَ مُنَادِيًا أَلَا لَا يَغْلُنْ أَحَدٌ مَخِيطًا فَمَا دُونَهُ أَلَا لَا يَغْلُنْ أَحَدٌ بَعِيرًا فَيَأْتِي بِهِ عَلَى ظَهْرِهِ رِغَاءً أَلَا لَا يَغْلُنْ أَحَدٌ فَرَسًا فَيَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى ظَهْرِهِ لَهُ حِمَمَةٌ قَالَ قَتَادَةُ وَذَلِكَ لِيَفْضَحَ بِهِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ.

ثانيهما: أن يقال ليس المقصود منه ظاهره بل المقصود تشديد الوعيد على سبيل التمثيل والتصوير ونظيره قوله تعالى: إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ^(٢)

فأنه ليس المقصود نفي هذا الظاهر بل المقصود إثبات أن الله تعالى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء فكذا ها هنا المقصود

منه تشديد الوعيد هذا وقد ذكر القرطبي في تفسيره ما لفظه أي يأتي به حاملاً له على ظهره ورقبته معذباً بحمله وثقله ومرعوباً بصوته وموبحاً بإظهار خيائته على رؤوس الأشهاد وساق الكلام إلى أن قال وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال، قام فينا رسول الله ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال، لا ألفين أحد منكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرساً له حمحمة، فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول يا رسول الله ﷺ أغثنى فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رواق تخفق فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك شيئاً قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة وعلى رقبته صامت فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك شيئاً قد أبلغتك انتهى.

اقول الفاظ هذه الرواية منادى باعلى صوتها يبسط أنها مجعولتهما وأنها من الموضوعات ولذلك عبر بعض المتأخرين من العامة عنها بهذه العبارة ولكن اخرج الشيطان عن ابى هريرة والحق ما ذكروا بعض المفسرين وهو أن المراد بحمل غلوله يوم القيامة أن في عنقه أمانة يعرف بها أنه غل في الدنيا **حكم** الله في كل من وافى القيامة بمعصية لم يتب منها أو أراد الله أن يعامله بالعدل أظهر عليه من معصيته علاقة يلتى بها ليعلمه أهل القيامة بها وليعلموا سبب إستحقاقه العقوبة كما قال تعالى: **فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ** ^(١) وهكذا حكمه في جانب الطاعة أيضاً إنتهى.

في الفرقان في تفسير القرآن

جزء ٤

العبد المذنب

ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ أَيُّ ثُمَّ أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ يَأْتِيَ
الْغَالُ بِمَا غَلَّ،، كَمَا يَأْتِي كُلَّ عَامِلٍ بِمَا عَمِلَ فَيَتَمَثَّلُ لَدَيْهِ كَأَنَّهُ حَاضِرٌ بَيْنَ يَدَيْهِ
يَنْظُرُ إِلَيْهِ بَعِينِيهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا^(١) وَ
مِثْقَالَ الذَّرَّةِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَرْتَبًا مُبْصَرًا بَعْدَ هَذَا تَنَالُ جَزَاءَ مَا كَسَبَتْ مُسْتَوْفَى
تَامًا لَا تَنْغُصُ مِنْهُ شَيْئًا قَالَ الطَّبْرَسِيُّ وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى بَطْلَانِ قَوْلِ
الْمُجْبِرَةِ حَيْثُ يَقُولُونَ أَنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَوْلِيَائِهِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُ ظُلْمًا، وَجِهَ
الدَّلَالَةِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ بَيَّنَّ فِيهَا أَنَّهُ لَوْلَمْ يَوْفُهَا مَا كَسَبَتْ لَكَانَ ظُلْمًا إِنْتَهَى.

وَنَقَلَ الْفَخْرُ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ الْقَاضِي أَنَّهُ قَالَ هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ
الظُّلْمَ مُمْكِنٌ فِي أَفْعَالِ اللَّهِ وَذَلِكَ بِأَنْ يَنْقُصَ مِنَ الثَّوَابِ أَوْ يَرِيدَ فِي
الْعِقَابِ يَتَنَاتِي ذَلِكَ إِلَّا عَلَى قَوْلِنَا دُونَ قَوْلٍ مِنْ يَقُولُ مِنَ الْمَجْبِرَةِ أَنَّ أَيُّ شَيْءٍ
فَعَلَهُ تَعَالَى فَهُوَ عَدْلٌ وَحُكْمَةٌ لِأَنَّهُ الْمَالِكُ إِنْتَهَى مَا نَقَلَهُ عَنِ الْقَاضِي ثُمَّ أَجَابَ
الرَّازِي عَنْهُ بِأَنَّ نَفْيَ الظُّلْمِ عَنْهُ لَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّتِهِ عَلَيْهِ كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ لَا تَأْخُذْهُ
سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّتِهَا عَلَيْهِ إِنْتَهَى.

أَقُولُ مَا ذَكَرَهُ الرَّازِي فِي الْجَوَابِ لَا يَرْجِعُ إِلَى مُحْصَلِّ لَأَنَّهُ بِالسَّفْسُطَةِ أَشْبَهَ
وَذَلِكَ لِأَنَّ قِيَاسَ الظُّلْمِ عَلَى النَّوْمِ فِي حَقِّهِ تَعَالَى قِيَاسٌ مَعَ الْفَارَقِ وَذَلِكَ لِأَنَّ
النَّوْمَ مِنْ لَوَازِمِ الْجِسْمِ وَاللَّهُ تَعَالَى مَنْزَهُ عَنِ الْجَسَمِيَّةِ فَهُوَ مَنْزَهُ عَنِ النَّوْمِ شُبْتُ
قُلْتُ النَّوْمَ عَلَى الْمَوْجُودِ الْمَجْرَدِ الْبَسِيطِ الْمَنْزَهُ عَنِ الْمَادَّةِ وَلَوْ أَحَقَّهَا أَمْرٌ
مُسْتَحِيلٌ عَقْلًا وَلَيْسَ كَذَلِكَ الظُّلْمُ لِأَنَّهُ وَضَعَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ مِثْلَ تَعَذِيبِ
الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ وَبِالْجُمْلَةِ وَضَعَ الْعَذَابَ مَكَانَ الثَّوَابِ وَلَا شَكَّ أَنَّ الظُّلْمَ
بِهَذَا الْمَعْنَى مُمْكِنٌ فِي حَدِّ ذَاتِهِ فَاتَّهَ لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يَسْأَلُونَ، إِلَّا أَنَّهُ لَا
يُظْلَمُ لِأَنَّهُ أَيُّ الظُّلْمِ قَبِيحٌ عَقْلًا بَلْ يُقَالُ قُبْحُهُ مِنَ الْمُسْتَقْلَاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْحَكِيمِ
لَا يَفْعَلُ الْقَبِيحَ عَقْلًا وَبِعِبَارَةِ أُخْرَى النَّوْمُ مَحَالٌّ عَلَيْهِ تَعَالَى وَالظُّلْمُ قَبِيحٌ مِنْهُ وَ

الفرق بين المحال والقبيح لا يخفى على أحد من المُحَصِّلِينَ فكيف خفى على الرَّازِي وهو هو أعاذنا الله من الزَّلَلِ قوله:

أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوِيهِ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

الهمزة في قوله: **أَفَمَنْ أَتَّبَعَ** لِلِإِسْتِفْهَامِ الإنكاري أي ليس كذلك، اختلفوا في المراد بِالرِّضْوَانِ والسَّخَطِ فقال الكلبي المراد بقوله: **رِضْوَانُ اللَّهِ** ترك الغلول ويقول: **بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ** فعل الغلول و عليه فالمعنى ليس من ترك الغلول كمن فعله الذي مأواه جهنم وبئس المصير وقال بعض المفسرين، رضوان الله الإيمان بالله والعمل بطاعته كما أن سخطه الكفر به و عليه فالمعنى ليس المؤمن العامل بطاعة الله كالكافر العمل بمعصية الذي مأواه جهنم.

قول ثالث أن المراد بقوله: **رِضْوَانُ اللَّهِ** المهاجرون و بقوله: **بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ**، المنافقون ونقل عن الزجاج قولاً رابعاً وهو أنه لما حمل المشركون على المسلمين دعا النبي ﷺ أصحابه إلى أن يحملوا على المشركين ففعله بعضهم وتركه آخرون فقال تعالى أفمن أتبع رضوان الله وهم الذين إمتثلوا أمره كمن باء بسخط من الله وهم الذين لم يقبلوا قوله هذا ما ذكره المفسرون في معنى الآية و الحق ما ذكره القاضي وهو أن كل هذه الوجوه و أن كان صحيحاً إلا أن حمل اللفظ عليه قصراً وحسراً لا يجوز لأن اللفظ عام فوجب أن يتناول الكل فإن كل من أقدم على الطاعة فهو داخل تحت قوله: **أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ** وكل من أخلد إلى متابعة النفس و الشهوة فهو داخل تحت قوله: **كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ** أقصى ما في الباب أن الآية نازلة في واقعة معينة لكنك تعلم أن عموم اللفظ لا يبطل لأجل خصوص السبب، وقال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

ثم ذكر أن رمي النبي بالخيانة قياس جائر مع الفارق فإنه متبع رضوان الله لا يعدو رضی ربه والخائن باء بسخطٍ عظيم من الله ومأواه جهنم وبئس المصير وهذا هو المراد لقول: أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ و يمكن ان يكون المراد التعريض للمؤمنين بان هذا الاقوال من التعرض بسخط الله والله يدهوكم بهذه الموائظ الى رضوانه وما هما سواء انتهى كلامه قال الرَّاغب في المفردات الرِّضْوَان الرِّضَا الكثير ولَمَّا كَانَ أَعْظَمُ الرِّضَا رِضَا اللَّهِ تعالى خُصَّ لَفْظُ الرِّضْوَانِ فِي الْقُرْآنِ بِمَا كَانَ مِنَ اللَّهِ:

قال الله تعالى: يَنْتَقُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا^(١).

قال الله تعالى: يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ^(٢).

عن تفسير العياشي عن عمار بن مروان قال: سألت أبا عبد الله عن قول الله: أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هم والله ياعمّار درجات المؤمنين عند الله وبموالاتهم وبمعرفتهم إيانا يضاعف الله للمؤمنين حسناتهم ويرفع لهم الدرجات العلى وأما قوله يا عمار: كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ الى قوله: الْمَصِيرُ فهُمْ وَاللَّهُ الَّذِينَ جحدوا حق علي بن أبي طالب وحق الأئمة من أهل البيت فباؤوا بذلك بسخط من الله انتهت.

وفي أصول الكافي بأسناده عن عمار الساباطي قال: سألت أبا عبد الله عن قول الله عز وجل: أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ هم درجات عند الله، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رِضْوَانُ اللَّهِ هم الأئمة عليهم السلام وهم والله يا عمار درجات للمؤمنين وبولايتهم ومعرفتهم إيانا يضاعف الله لهم أعمالهم ويرفع الله لهم الدرجات العلى انتهت.

وفي تفسير علي بن ابراهيم بأسناده عن أبي عبد الله في حديث

طويل يذكر فيه لقمان ووعظه لابنه، وفيه من إتبع أمره إستوجب جنته ومَرْضاته و من لم يتَّبِع رضوان الله فقد هان عليه سخطه نعوذ بالله من سخطه انتهى.

وفي كتاب الخصال عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث خصال من كُنَّ فيه أو واحدةٍ منهنَّ كان في ظل عرش الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله رجل أعطى الناس ما هو سائلهم لها من نفسه، ورجل لم يقدم رجلاً ولم يؤخر أخرى حتَّى يعلم أنَّ ذلك لله فيه رضى أو سخط انتهى نقلنا الروايات عن نور الثقلين^(١).

أقول كان الراوي نسي الثالث، أو أسقط عن القلم في الطبع والله أعلم هم درجات عند الله و الله بصير بما يعملون قال بعض المفسرين من العامة أي هم مختلفوا المنازل عند الله فلمن إتبع رضوانه الكرامة والثواب العظيم و لمن باء بسخط منه المهانة و العذاب الأليم قال ومعنى هم درجات أي ذوو درجات أو على درجات أو في درجات أو لهم درجات وأهل النار أيضاً ذوو درجات انتهى.

و قال البيضاوي شَبَّهوا بالدرجات لما بينهم من لا تفاوت في الثواب و العقاب أو هم ذوو درجات انتهى.

و قال الطبرسي وصاحب التبيان أي هم ذوو درجات، و قال الرّازي تقدير الكلام لهم درجات عند الله إلا أنه حسن هذا الحذف لأنَّ إختلاف أعمالهم قد صيرتهم بمنزلة الأشياء المختلفة في ذواتها فكان هذا المجاز أبْلغ من الحقيقة والحكماء يقولون أنَّ النفوس الإنسانية مختلفة بالماهية والحقيقة فبعضها ذكية وبعضها بليدة وبعضها مشرقة نورانية وبعضها كدرة ظلمانية و إختلاف هذه

الصفات ليس لإختلاف الأمزجة البدنية بل لإختلاف ماهيات النفوس قال عليه السلام الناس معادن كمعادن الذهب والفضة وقال عليه السلام الأرواح جنود مجتدة وإذا كان كذلك ثبت أن أنفسهم مختلفة فهم في أنفسهم درجات لا أن لهم درجات انتهى كلامه.

قال أبو حيان في تفسيره بعد نقله عن الرّازي، تقديره لهم درجات، ما لفظه قال بعض المصنفين راداً عليه إتبع الرّازي في ذلك أكثر المفسرين بجهله و جهلهم بلسان العرب لأن حذف لام الجر هنا لا مساغ له لأنه أنما تحذف في مواضع الضرورة أو لكثرة الإستعمال وهذا ليس من تلك المواضع على أن المعنى دون حذفها حسن ممكن جداً لأنه لما قال أفمن إتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله وكأنه منتظر للجواب قيل له في الجواب لا، ليسوا سواء بل هم درجات انتهى.

ثم قال أبو حيان والظاهر من قولهم هم درجات أن الضمير عائد على الجميع فهم متفاوتون في الثواب والعقاب وقد جاء التفاوت في العذاب كما جاء في الثواب ومعنى عند الله على هذا القول في حكم الله وقيل الضمير يعود على أهل الرضوان فيكون عند الله معناها التّشريف والمكانة لا المكان، كقوله عند مليك مقتدر فالدرجات إذ ذاك مخصوصة بالجنة وهذا معنى قول ابن جبير وإلى صالح ومقاتل و ظاهر ما قاله مجاهد والسّدي حيث قالوا، الدرجات المنازل بعضها أعلى من بعض في المسافة أو في التّكرمة انتهى كلامه.

أقول هذا ما ذكره في تفسير الآية والإنصاف أنهم لم يأتوا بشئ مقنع، أما ما قاله الرّازي من أن التقدير، لهم درجات، فقد عرفت الكلام فيه وأنه مخالف لقواعد الأدب إذ لا مجوز لحذف اللّام في المقام، وأما ما لّفقه من كلمات الفلاسفة فهو خارج عن البحث لا ربط له بالموضوع أصلاً مضافاً إلى أن ما ذكره من إختلاف الماهيات في أنفسها وبحسب ذواتها لم يقل به أحد من الفلاسفة لأنهم اتفق على عدم جواز التشكيك في الماهية وأنما هو شأن

الوجود نعم لازم القول بالجبر هو اختلاف الماهيات بحسب الجعل بناء على القول باصالة الماهية وكلامه يناسب سلوكه واعتقاده وللبحث فيه مقام آخر وأما ما ذكره سائر المفسرين من أن التقدير ذوو درجات وأمثال ذلك فهو أيضاً لا يرجع إلى محصل إذ لقائل أن يقول أي مجوز أو حسن لهذا الحذف وبعبارة أخرى لم لم يقل لهم درجات، أو هم ذو درجات وقال هم درجات مضافاً إلى أن الأصل خلاف الحذف أو عدمه إلا أن يدل عليه دليل وإذ ليس فليس، قال بعض المفسرين، هم، عائد على الموصولين باعتبار المعنى وهو مبتدأ وقوله تعالى درجات خبره والمراد هم متفاوتون إطلاقاً للملزوم على اللازم، أو شبههم بالدرج في تفاوتهم علواً وسفلاً على سبيل الاستعارة أو جعلهم نفس الدرجات مبالغة في التفاوت فيكون تشبيهاً بليغاً بحذف الأداة انتهى.

أقول و عليه فتقدير الكلام، هم كالدرجات حذفت الكاف لدلالة الكلام عليه أو الإفادة المبالغة نحو زيد عدلٌ وزيد أسد أي أنه من كثرة عدالته صار نفس العدل ومن شدة شجاعته صار نفس الأسد وهذا الوجه أيضاً ليس بمعتمد ومع ذلك هو أحسن الأقوال في الباب والأحسن من الكل ردّ علمه إلى قائله فالله أعلم بمراده وأما قوله: **وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** فمعناه أنه لا يغيب عنه شيء من أعمالهم ومالها من التأثير في تزكية نفوسهم التي يترتب عليها الفلاح في إرتقاء الدرجات وذلك لأن هذه الدرجات لا يمكن أن يعلمها إلا من أحاط بكل شيء علماً ولا يخفى عليه أثر ما من آثار الأعمال في النفس ولا عاطفة من عواطف الإيمان في القلب ولا حقيقة من حقائق العلم في العقل ولا يعزب عنه شيء من تفاوت الناس في ذلك وإلى هذا أشار بقوله: **وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ**^(١) صدق الله العلي العظيم.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا
مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ
يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ
لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)

◀ اللّغة

مَنَّ: يقال مَنَّ مَنَّاً وَمَنَّةً وَأَمْتَنَ إِمْتِنَاناً، عليه بما صنع ذكر و عدد له ما فعّله
له من الخير مثل أن يقول أعطيتك كذا و فعلت لك كذا و هو تكدير و تعيير
تنكر منه القلوب انتهى قاله في المُنجد.

بَعَثَ: أصل البعث إثارة الشئ و توجيهه قاله الرّاعب.

ضَلَالٍ: الضلال العدول عن الطّريق المستقيم وضدّه الهداية ويقال
الضلال لكلّ عدولٍ عن المنهج عمداً كان أو سهواً يسيراً كان أو كثيراً.

◀ الإعراب

مِّنْ أَنفُسِهِمْ في موضع نصب صفة لرسول و يجوز أن يتعلّق ببعث و الباقي واضح.

◀ التفسير

قيل في وجه ربط هذه الآية بما قبلها أنّه تعالى لَمَّا بَيَّنَّ خطأ من نسبّه ﷺ
على الغلول أكّد ذلك بهذه الآية و ذلك لأنّ هذا الرّسول ولد في بلدهم ونشأ
فيما بينهم و لم يظهر منه طول عمره إلّا الصّدق والأمانة والدّعوة الى الله
والإعراض عن الدّنيا فكيف يليق بمن هذا حاله الخيانة بل وجوده منهم من
أعظم النّعم لأنّه يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة انتهى
كلامه ملخصاً.

أقول لا نحتاج الى بيان وجه الرّبط و ذلك لأنّ الآية بصدد بيان أصل النبوّة من أعظم نعم الإلهية وبيان وظائفه المقرّرة له من عند الله والآثار المترتبة على وجوده وبعثه وهذا أمر آخر

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ قَالَ الرَّاعِبُ المنة النعمة الثّقلية، ويقال ذلك على وجهين:
أحدهما: أن يكون ذلك بالفعل فيقال من فلان على فلان إذ أثقله بالنعمة و ذلك على الحقيقة لا يكون إلّا لله تعالى.

الثاني: أن يكون بالقول و ذلك مستقبح فيما بين الناس إلّا عند كفران النعمة ولقبح ذلك قيل المنة تهدم الصنعة ولحسن ذكرها بعد الكفران قيل إذا كفرت النعمة حسنت المنة إذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ من قبيل الأوّل وهو المنة بالفعل ومنه.

قال الله تعالى: كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ^(١).

قال الله تعالى: وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ^(٢).

قال الله تعالى: يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ^(٣).

قال الله تعالى: وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ^(٤).

قال الله تعالى: وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى^(٥) وأمثالها من الآيات.

من الثاني: أي المنة بالقول.

قال الله تعالى: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَلَّ لَا تُمْنُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ^(٦)

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ^(٧)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

١- النساء = ٩٤

٢- القصص = ٥

٣- إبراهيم = ١١

٤- طه = ٣٧

٥- البقرة = ٢٦٤

قال الله تعالى: **وَلَا تَمُنُّنَ تَسْتَكْبِرُ** ^(١).

وغيرها منها وأما خصص الله تعالى المنة بالمؤمنين ولم يقل لقد من الله على الناس مثلاً مع أن الرسول بُعث إلى العالمين فنعمة وجوده احسان الى الكل. قال الله تعالى: **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ^(٢) وقال: **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ^(٣).

هذا مضافاً الى وجه الانسان في بعثته وكونه داعياً الى ما تحصيلهم من عقاب الله ويوصلهم الى ثوابه وهذا عام في حق العالمين لأنه لا ينتفع بهذا الانعام والاحسان الا المومن وذلك كما قال في القرآن: **هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**، وقال: **هُدًى لِّلنَّاسِ**، مع أن القرآن هدى لكل وقد مر الكلام في هذا المعنى في أول البقرة ومحصل الكلام هو أن الفيض من الفيض المطلق لا ينقطع دائماً كما ورد في الدعاء يادائم الفضل على البرية، يا باسط اليدين بالعطية، ثم أن الإفاضات منه تعالى الى الخلق كثيرة مختلفة، قال تعالى: **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا** ^(٤) ومن أشرف الإفاضات والنعم وأكملها وأحسنها بعد نعمة الوجود والإيجاد نعمة الدين ولا شك أن النبي هو الذي بعثه الله في كل عصر وزمان لإرشاد الناس وهدايتهم الى الدين وهذا مما لا كلام فيه إلا أن بعض الناس بل أكثرهم أعرضوا عن الانبياء وخالفوهم وأذوهم بل قتلوهم وهذا أمر لا يقبل الإنكار لشهادة العقل والنقل به نعم قليل من الناس يتبعوهم ويستضاءوا بنور هدايتهم وذلك لأنهم آمنوا واعتقدوا أن النبي لا يقول إلا الحق ولا ينكر إلا الباطل فمن أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله ما ينطق عن الهوى أن هو إلا وحي يوحى، وبالجملة هو خليفة الله في أرضه وأمينه على وحيه وسفيره الى خلقه وهم الذين أشار الله تعالى اليهم **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** وأما المخالفون المعاندون المنكرون لأصل النبوة فكيف

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

يَصَحُّ مِنْهُ تَعَالَى أَنْ يَمُنَ عَلَيْهِمْ بِالْبَيْعَةِ وَالْمَفْرُوضِ أَنَّهُمْ أَنْكَرُوهَا رَأْسًا بِسُوءِ سَرِيرَتِهِمْ وَخَبْثِ طَبِيعَتِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْمَعَاصِي وَعِنَادِهِمْ لِلْحَقِّ وَهَذَا دَاءٌ لَا دَوَاءَ لَهُ وَأَمَّا قَوْلُهُ: **مِنْ أَنْفُسِهِمْ** قَالَ الطَّبْرَسِيُّ فِيهِ أَقْوَالُ:

أحدها: أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ رَهْطِهِمْ يَعْرِفُونَ مَنَشَأَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَكَوْنَهُ أُمِّيًّا لَمْ يَكْتُبْ كِتَابًا وَلَمْ يَقْرَأْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا يَأْتِي بِهِ وَحْيٍ مَنَزَلٌ وَيَكُونُ ذَلِكَ شَرْفًا لَهُمْ. **ثانيها:** أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِهِمْ فَيَسْهَلُ عَلَيْهِمْ تَعَلُّمُ الْحِكْمَةِ مِنْهُ فَيَكُونُ خَاصًّا بِالْعَرَبِ.

الثالث: أَنَّهُ عَامٌّ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُرَادُ بِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُ مِنْ جِنْسِهِمْ لَمْ يَبْعَثْ مُلْكًا وَلَا جَنِيًّا وَمَوْضِعُ الْمَنَّةِ فِيهِ أَنَّهُ بَعَثَ فِيهِمْ مَنْ عَرَفُوا أَمْرَهُ وَخَبَرُوا شَأْنَهُ **إِنْتَهَى.**

وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْمَعْنَى مِنْ جِنْسِ بَنِي آدَمَ، وَقَالَ بَعْضُ آخَرِ أَيٍّ مِنْ جِنْسِ الْعَرَبِ، وَقِيلَ أَيٍّ مِنْ نَسَبِهِمْ وَأُمَثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ وَنَقَلَ عَنِ النَّقَاشِ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي الْآيَةِ الْعَرَبِ وَعَلَيْهِ فَالْمُرَادُ بِأَنْفُسِهِمْ أَيُّ أَنْفُسِ الْعَرَبِ لِأَنَّ الضَّمِيرَ فِي أَنْفُسِهِمْ يَرْجِعُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآيَةِ وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَا يَخْلُو عَنْ سَفَاهَةٍ وَعِنَادٍ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ فِي غَيْرِ الْعَرَبِ أَكْثَرُ مِنْهُمْ فِي الْعَرَبِ كَمَا وَكَيْفًا فِي أَصْنَافِ النَّاسِ وَطَبَقَاتِهِمْ وَالْآنَ أَيْضًا كَذَلِكَ فَكَيْفَ يَعْقلُ تَخْصِيصُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآيَةِ بِالْعَرَبِ بِدُونِ مَخْصَصٍ وَمَجُوزٍ مِنَ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ وَهَلْ هَذَا إِلَّا تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِالرَّأْيِ وَقَدْ تَبِعَهُ فِي ذَلِكَ صَاحِبُ تَفْسِيرِ الْمَنَارِ فِي عَصْرِنَا هَذَا وَلَا عَجَبَ لِأَنَّهُ كَلَامٌ صَدَرَ مِنْ أَهْلِهِ وَقَعَ فِي مَوْضِعِهِ وَلَيْسَ هَذَا أَوَّلَ قَارِوَةٍ كُسِّرَتْ فِي الْإِسْلَامِ وَنَسَبَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ مِنَ الْعَامَّةِ إِلَى فَاطِمَةَ وَعَائِشَةَ وَالضُّحَاكِ قِرَاءَةَ فَتَحِ الْفَاءِ فِي أَنْفُسِهِمْ، مِنَ النَّقَاسَةِ وَالشَّيْءِ النَّفِيسِ ذَكَرَهُ أَبُو حَيَّانَ فِي تَفْسِيرِهِ ثُمَّ رَوَى عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ، أَنَا أَنْفُسُكُمْ نَسَبًا وَحَسَبًا وَصَهْرًا وَلَا فِي آبَائِي مِنْ آدَمَ إِلَى يَوْمِ وُلِدْتُ سَفَاحَ، كُلُّهَا نِكَاحَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ،

أقول كون رسول الله ﷺ من أنفس المؤمنين بل الناس من الأولين والآخرين ممّا لا كلام فيه وأما قراءة الآية بفتح الفاء فالله أعلم وكيف قرء فاطمة كذلك و ليس منها في تفاسيرنا عين ولا أثر.

يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. أي يتلوا النبي على المؤمنين الذين بعث اليهم آيات الله والمراد بها القرآن وفيه الآيات التكوينية وغيرها ممّا هو متعلّق بالأحكام والأخلاق والقيامة وأمثالها تخصيص الآيات في المقام بالآيات الكونية الدالة على قدرته وحكمته كما في تفسير المنار لا وجه له ولا دليل على التخصيص واللفظ عام وهكذا قوله في تعليم الكتاب حيث زعم أنّ المراد بالكتاب فقال كان أوّل حاجتهم الى تعلّم الكتابة وجوب كتابة القرآن وساق الكلام الى أن قال وكان يأمرهم بتعلّم الكتابة إنتهى.

و ذلك لأنّ تعليم الكتاب غير تعليم الكتابة والله تعالى قال ويعلمهم الكتاب ولم يقل الكتابة وهو واضح لا خفاء فيه، وأما الحكمة فقالوا هي الأسرار وفقه الأحكام وبيان المصلحة فيها، أو طرق الاستدلال ومعرفة الحقائق وأمثال ذلك من الأقوال التي لا طائل تحتها لأنّها من التفسير بالرأي مضافاً الى عدم تأييد العقل إياها والحق أنّ المراد بها الإعتقاد الصحيح والأخلاق الحسنة والعلم بالأحكام وأمثالها ممّا قال الله تعالى فيه ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وأن شئت قلت القرآن والسنة وأما قوله: وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فهو واضح لا خفاء فيه (وأنّ) هنا هي المخففة من الثقلية واللام في لفى هي الفارقة بينها وبين النافية وتقديره وأنّ الشأن والحديث كانوا من قبل لفى ضلال مبين قاله الكشاف وقال سيبويه اسم أنّ مضمر والتقدير أنّهم كانوا كذلك وأما بيان ضلالهم قبل البعثة فلاّهم كانوا كفاراً وكفرهم هو ضلالهم اقبل منه فاتقد هم الله بالنبي.

قال أمير المؤمنين في وصف العرب قبل البعثة:

إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِينًا عَلَى التَّنْزِيلِ وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَشَرِّ دَارٍ مُنِخُونَ بَيْنَ جِبَارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَاتٍ صُمٍّ تَشْرَبُونَ الْكَدِيرَ، وَتَأْكُلُونَ الْجَشَبَ وَتَسْفِكُونَ دِمَائَكُمْ وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ وَالْأَنَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ^(١) انتهى

وقال عليه السلام:

حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَثْبِتًا، وَأَعَزَّ الْأَرْوَاحَ مَغْرَسًا، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءُهُ،

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُولِ إِلَى أَنْ قَالَ عليه السلام وَهَفُوءَةٍ عَنِ الْعَمَلِ، وَعَبَاوَةٍ مِنَ الْأَمَمِ^(٢).

وقال عليه السلام:

بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضَلَالٌ فِي حَيْرَةٍ، وَخَابِطُونَ فِي فِتْنَةٍ، قَدْ اسْتَهْوَتْهُمْ الْأَهْوَاءُ، وَاسْتَرَلَتْهُمْ الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَحَفَّتْهُمْ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ، حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ، وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ، فَبَالَغَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ الْمُوَعِظَةِ الْحَسَنَةِ^(٣) انتهى كلامه عليه السلام.

وفيه كفاية لما نحن بصدد من إثبات الضلالة والحيرة قبل البعثة للعرب في عصر الجاهلية وهذا معنى قوله: وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ صدق الله العظيم.

في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ
 أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى
 الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهِ وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَ
 لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا
 لَا تَبْغَيْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ
 يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
 وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ
 أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَلَا
 تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ
 أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا
 آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ
 يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
 يَحْزَنُونَ (١٧٠)

◀ اللغة

مُصِيبَةٌ: بَضْم الميم أصلها في الرَّمِيَةِ ثُمَّ اخْتَصَّتْ بِالنَّائِبَةِ.

أَصَبْتُمْ: الإِصَابَةُ مِنْ أَصَابَ السَّهْمَ إِذَا وَصَلَ إِلَى الْمَرْمَى بِالصَّوَابِ.

نَافَقُوا: النِّفَاقُ سَتَرُ الْكُفْرِ بَقَلْبِهِ وَإِظْهَارُ الْإِيمَانِ بِلسَانِهِ.

فَادْرَءُوا: الدَّرَاءُ الْمِيلُ إِلَى أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ يُقَالُ دَرَأْتُ عَنْهُ أَيِ دَفَعْتُ عَنْ

جَانِبِهِ، وَدَرَأْتُهُ، دَافَعْتُهُ.

◀ الإعراب

قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا فِي مَوْضِعِ رَفْعِ صِفَةِ لِمُصِيبَةٍ مَا أَصَابَكُمْ مَا، بِمَعْنَى الَّذِي وَهُوَ مُبْتَدَأٌ فَيُؤَدِّنُ إِلَهَ الْخَبَرِ وَلَيَعْلَمُ اللَّامُ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحذُوفٍ أَيْ وَلَيَعْلَمُ اللَّهُ أَصَابَكُمْ هَذَا هُمْ لِلْكَفْرِ اللَّامُ فِيهِ وَفِي قَوْلِهِ لِلْإِيمَانِ مُتَعَلِّقَةٌ، بِأَقْرَبِ يَقُولُونَ مُسْتَأْنَفٌ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي أَقْرَبِ الَّذِينَ قَالُوا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ، أَوْ صِفَةٍ، لِلَّذِينَ نَافَقُوا، أَوْ بَدَلًا مِنْهُ، وَفِي مَوْضِعِ جَرٍّ بَدَلًا مِنَ الْمَجْرُورِ فِي أَفْوَاهِهِمْ أَوْ قُلُوبِهِمْ بَلْ أَحْيَاءٌ بَلْ هُمْ أَحْيَاءٌ وَيَقْرَأُ بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى أَمَوَاتًا يُرْزَقُونَ صِفَةٌ لِأَحْيَاءٍ أَوْ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي أَحْيَاءٍ فَرِحِينَ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي يُرْزَقُونَ، أَوْ صِفَةٌ لِأَحْيَاءٍ إِذَا نَصَبَ مِنْ فَضْلِهِ حَالٌ مِنَ الْعَائِدِ الْمَحذُوفِ فِي الظَّرْفِ يَسْتَبْشِرُونَ مَعْطُوفٌ عَلَى فَرِحِينَ مِنْ خَلْفِهِمْ مُتَعَلِّقٌ، يَبْلَحِقُوا وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ أَيْ بَأَنَّ لَ اخَوْفَ عَلَيْهِمْ، فَانْ مَصْدَرِيَّةٌ وَ مَوْضِعُ الْجُمْلَةِ بَدَلٌ، مِنَ، الَّذِينَ، بَدَلُ الْإِشْتِمَالِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ لَأَنَّهُمْ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ، فَيَكُونُ مَفْعُولًا لِأَجْلِهِ.

◀ التفسير

أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ الْهَمْزَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِي وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ، وَ لَمَّا، نَصَبَ بِقِلْتَمَ، وَأَصَابَتْكُمْ فِي مَحَلِّ الْجَرِّ بِإِضَافَةٍ، لَمَّا، إِلَيْهِ وَتَقْدِيرُهُ، أَقْلَتُمْ حِينَ أَصَابَتْكُمْ وَأَتَى هَذَا، نَصَبَ لِأَنَّهُ مَفْعُولٌ وَالْهَمْزَةُ لِلتَّقْرِيرِ وَالتَّقْرِيعِ، وَالْمُرَادُ بِالْمُصِيبَةِ هُوَ مَا نَزَلَ بِالْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ مِنْ قَتْلِ سَبْعِينَ مِنْهُمْ وَكُفِّهِمْ عَنِ الثَّبَاتِ لِلْقِتَالِ وَإِسْنَادُ الْإِصَابَةِ إِلَى الْمُصِيبَةِ مَجَازٌ كِاسْنَادُ الْإِرَادَةِ إِلَى الْجِدَارِ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَتَى هَذَا الْمَثَلَانِ الَّذِينَ أَصَابَهُمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَتَنَادَى وَالزَّبِيعُ وَالضُّحَاكُ وَجَمَاعَةٌ أُخْرَى قَتَلَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْكُفَّارِ سَبْعِينَ وَأَسْرَهُمْ سَبْعِينَ فَالْمَثَلِيَّةُ وَقَعَتْ فِي الْعِدَدِ مِنْ إِصَابَةِ الرِّجَالِ وَقَالَ الزَّجَاجُ قَتَلَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ

سبعين وقتلهم يوم أحد اثنين وعشرين فهو قتل بقتل ولا مدخل للأسرى في الآية لأنهم قُتِلوا فلا مُماثلة بين حالهم وبين قتل سبعين من المؤمنين و قتل المثلية في الإنهزام، هزم المسلمون الكفار يوم بدر وهزمهم أولاً يوم أحد و هزمهم المشركون في آخر يوم أحد و ملخص ذلك هل المثلية في الإصابة من قتل وأسر أو من قتل أو من هزيمة ثلاثة أقوال والأظهر الأول لأن قوله: **قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا** هو على طريق التفضل منه تعالى على المؤمنين والتسلية له على ما أصابهم فيكون ذلك أبلغ في التسلية وتنبية على أنهم قتلوا منهم سبعين واسوا سبعين ابلغ في المنية والتسلية واما قوله: **قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا** فقد قالوا ذلك على سبيل التعجب والانكار لما أصابهم يوم احد والمعنى كيف أصابنا هذا ونحن نقاتل اعداء الله وقد وعدنا بالنصر و امداد الملائكة فاستفهموا على سبيل التعجب عن ذلك وأننى، سؤال عن الحال هنا ولا يناسب أن يكون هنا بمعنى أين، أو متى لأن الإستفهام لم يقع عن المكان ولا عن الزمان هنا وإنما وقع عن الحالة التي إقتضت لهم ذلك سألوا عنها على سبيل التعجب الرّمخسري، أننى، هذا، من أين هذا كقوله تعالى في قصة مريم، **أَنَّى لَكَ هَذَا**، لقوله: **مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ** وقوله: من عند الله انتهى.

قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ أي أن سبب هذه المصيبة صدر من عند أنفسكم وإختلفوا في السبب على أقوال:

أحدها: عصيان الزّماة وتسبيهم الهزيمة على المؤمنين قاله ابن عباس و مقاتل وغيرهما.

ثانيها: مخالفتهم الرسول في الرأي حين رأى رسول الله أن يقيم بالمدينة و يترك الكفار فقد أخرج ابن جرير عن قتادة أنه قال ذكر لنا أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم أحد حين قدم أبو سفيان والمشركون، أننا في جنة حصينة، يعني ذلك المدينة فدعوا القوم يدخلوا علينا نقاتلهم فقال ناس من الأنصار أننا نكره

أن نقتل في طرق المدينة وقد كنّا نمتنع من ذلك في الجاهلية فبالإسلام أحقّ أن نمتنع فأبرز بنا إلى القوم فأطلق فلبس لأمته فتلاوم القوم فقالوا عرض نبي الله بأمرٍ و عرضتم بغيره أذهب يا حمزة فقل له أمرنا لأمرك تبع فأتى حمزة فقال له أنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتّى يناجز وأنّه سيكون فيكم مصيبة قالوا يانبي الله خاصّة أو عامّة قال ﷺ سترونها، فوقع ما وقع.

الثالث: أنّ السبب هو الفداء الذي أثروه على القتل يوم بدر من غير إذن الله فقد روي الجمهور عن عليّ عليه السلام أنّه قال جاء جبرئيل إلى النبي ﷺ فقال يا محمد أنّ الله تعالى قد كره ما فعل قومك في أخذهم الأسارى وقد أمرك أن تُخيرهم بين أمرين، أمّا أن يقدموا فتضرب أعناقهم، وأمّا أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدّتهم فدعا رسول الله الناس فذكر لهم ذلك فقالوا يا رسول الله عشائرنّا وأخواننا فأخذ فداءهم نتقوى به على قتال عدونا و يستشهد منا عدّتهم فليس ذلك ما نكره فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلاً عدّه أسارى أهل بدر فهذه هي الوجوه التي ذكروها في المقام إنّ الله على كلّ شيء قديرٌ وقد دلّ على ثبوت هذا في حقّه تعالى العقل والنقل وقد مرّ الكلام فيه وفي أمثاله غير مرّة، قال الرّازي واحتج أصحابنا على أنّ فعل العبد مخلوق لله تعالى قالوا أنّ فعل العبد شيء فيكون مخلوقاً لله تعالى قادراً عليه و إذا كان الله قادراً على إيجادهم فلو أوجده العبد إمّتنع كونه قادراً على إيجادهم لأنّه لمّا أوجده إمّتنع من الله إيجادهم لأنّ إيجاد الموجود محال فلمّا كان كون العبد موجداً له يُفضي إلى هذا المحال وجب أن لا يكون العبد موجداً له انتهى كلامه.

أقول هذا البيان منه عجيب و ذلك لأنّ من يقول أنّ فعل العبد مخلوق للعبد لا له تعالى، لا يقول أنّ الله غير قادرٍ عليه كيف و هو تعالى قادر على إيجاد العبد نفسه فهو على إيجاد فعله أولى و أقدر، ولكن يقول أنّ الله لا

يوجد له ثلثا يلزم الجبر فعدم الإيجاد لا يدل على عدم القدرة في الفاعل المختار وهو واضح لا خفاء فيه.

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ.

أي ما أصابكم يوم أحد والمراد بالجمعان، جمع المسلمين وأجمع المشركين الذين كانوا مع أبي سفيان فَبِإِذْنِ اللَّهِ قيل أي بعلم الله وقيل بإرادته ومشيئته لمصلحة رآها في القتل والهزيمة، وقيل المراد من الأذن الأمر بدليل قوله: ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ قالوا أَلَا اللَّهُ تَعَالَى لِمَا أَمَرَ بِالْمُحَارَبَةِ ثُمَّ صَارَتْ تِلْكَ الْمُحَارَبَةُ مُؤَدِيَةً إِلَى ذَلِكَ الْإِنْهَازِ صَحَّ أَنْ يَقَالَ حَصَلَ ذَلِكَ بِأَمْرِهِ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ.

ووجه آخر، وهو أَنَّ أذن الله عبارة عن التخليه وترك المدافعة إستعار الأذن لتخليه الكفار فإنه لم يمنعهم منهم لِيَبْتَلِيَهُمْ لَأَنَّ الأذن في الشئ لا يدفع المأذون عن مراده فلَمَّا كَانَ تَرَكَ الْمُدَافَعَةَ مِنْ لَوَازِمِ الأذن أطلق لفظ الأذن على ترك المدافعة مجازاً و أمّا قوله: وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ قيل معناه ليعلم إيمان المؤمنين فهو على حذف مضاف أوليمييز أعيان المؤمنين عن أعيان المنافقين و عليه فقوله.

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَاقَضُوا أَخْلَاقَهُمْ أَفِئَّةً عَلَى الْكُفْرِ وَ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا الْقَاتِلَ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ وَقِيلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَرَامٍ الْأَنْصَارِيُّ أَبُو جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَ ذَلِكَ لَمَّا انْخَذَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي فِي نَحْوِ ثَلَاثِ مِائَةٍ تَبِعَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ لَهُمْ إِنِّتَقُوا اللَّهَ وَ لَا تَتْرَكُوا نَبِيَّكُمْ وَ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا وَ نَحْوُ هَذَا مِنَ الْقَوْلِ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي مَا أَرَى أَنْ يَكُونَ قِتَالٌ وَلَوْ عَلِمْنَا هَذَا مَعَكُمْ فَلَمَّا يَأْسُ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ قَالَ أَذْهَبُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ فَسَيُغْنِي اللَّهُ عَنْكُمْ وَ مَضَى حَتَّى اسْتَشْهَدَهُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ

لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ
 أَيُّ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا فِي يَوْمٍ أَحَدٍ أَقْرَبَ إِلَى الْكُفْرِ مِنْهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَ ذَلِكَ
 لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ، أَيُّ يَظْهَرُونَ الْإِيمَانَ وَيَبْطِنُونَ الْكُفْرَ
 كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمُنَافِقِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَقِيلَ هُوَ
 عَلَى حَذْفٍ مُضَافٍ أَيُّ هُمُ الْأَهْلُ الْكُفْرَ أَقْرَبَ نَصْرَةً مِنْهُمْ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ لِأَنَّ
 تَقْلِيلَهُمْ سِوَادَ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِنْخِذَالِ تَقْوِيَةً لِلْمُشْرِكِينَ.

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا

حكاية عن حال المنافقين ايضاً حيث قالوا لآخوانهم فى النسب و
 المجاورة لافى الدين اى قالوا لهؤلاء الشّهداء لو قعدوا اى بالمدينة ما قتلوا و
 قيل، قال عبد الله بن أبى و أصحابه لآخوانهم أى لأشكالهم من المنافقين لو
 أطاعونا هؤلاء الذين قتلوا لما قتلوا كما لم نقتل نحن قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ
 أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أى قُلْ يَا مُحَمَّدُ لهؤلاء المافقين لو
 صدقتم فادفعوا الموت عن أنفسكم قيل مات يوم قيل هذا سبعون منافقاً
 وحاصل الكلام أَنَّ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ بِيَدِ اللَّهِ.

قال الله تعالى: قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُفَرِّقُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ^(١).

قال الله تعالى: وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ^(٢).

قال الله تعالى: أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ
 مُشِيدَةٍ^(٣).

و غير ذلك من الآيات قال أمير المؤمنين عليه السلام:

وَلَوْ أَنَّ أَحَدًا يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلْمًا أَوْ لِدَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلًا لَكَانَ ذَلِكَ سُلَيْمَانُ ابْنُ
 دَاوُودَ عليه السلام الَّذِي سَحَّرَ لَهُ مَلِكُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَعَ النَّبُوءَةِ وَعَظِيمِ الرُّلْفَةِ. فَلَمَّا

اسْتَوْفَىٰ طُعْمَتَهُ وَاسْتَكْمَلَ مِدَّتَهُ رَمَنَهُ قِسَىٰ الْقَنَاءِ بِنَبَالِ الْمَوْتِ وَأَضْبَحَتِ الدِّيَارُ
مِنْهُ خَالِيَةً وَالْمَسَاكِينُ مُعْطَلَةٌ وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ. ^(١) الخ ولنعم ما قيل:

و تَجَلَّدِي لِلشَّامَتَيْنِ أُرِيهَمَ أَنِّي لَرِيبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُضُ
وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظَافِرَهَا أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
وَقَالَ الْآخَرُ:

هُوَ الْمَوْتُ لَا مَنَجِي مِنَ الْمَوْتِ وَالَّذِي نُحَازِرُ بَعْدَ الْمَوْتِ أَدهَى وَأَفْظَعَ

وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يُرْزَقُونَ.

أكثر المفسرين على أن الآية مختصة بقتلى أحد وقال أبو جعفر وكثير من
المفسرين أنها تتناول قتلى بدر وأحد معاً، وقال الطبرسي رحمته الله قيل نزلت في
شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلاً ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين و
قيل نزلت في شهداء أحد وكانوا سبعين رجلاً أربعة من المهاجرين، حمزة بن
عبد المطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شماس وعبد الله بن جحش و
سائرهم من الأنصار عن ابن مسعود والزبيح و قتادة ثم قال وكان سبب ذلك
على مارواه محمد بن إسحاق بن يسار بأسناده عن أنس بن مالك وغيره قالوا
قدم أبو برا عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة وكان سيد بني عامر بن
صعصة على رسول الله المدينة وأهدى إليه هدية فابى رسول الله ﷺ أن
يقبلها وقال يا أبا بر لا أقبل هدية مشرك فأسلم أن أردت أن أقبل هديتك وقرأ
عليه القرآن فلم يسلم وقال يا محمد أن أمرك هذا الذي تدعو إليه حسن
جميل فلو بعثت رجلاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوتهم إلى أمرك أرجو
أن يستجيبوا لك فقال رسول الله ﷺ أني أخشى عليهم أهل نجد فقال أبو برا

في القرآن تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

أنا لهم جار فأبعثهم فليدعوا النَّاسَ الى أمرِك فبعث رسول الله المنذر بن عمرو أخابني ساعدة في سبعين رجلاً من خيار المسلمين منهم الحارث بن الصمة و حزام بن بلحان وعروة بن سمان و نافع بن بديل و عامر بن فهيرة مولى أبي بكر و ذلك في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد فساروا حتّى نزلوا بئر معونة فلمّا نزلوا قال بعضهم لبعض أيكم يبلغ رسالة رسول الله أهل هذه الماء فقال حزام بن بلحان نا فخرج بكتاب رسول الله الى عامر بن الطفيل فلمّا أتتهم لم ينظر في كتاب رسول الله فقال خرام يا أهل بئر معونة أنّي رسول الله اليكم و أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أنّ محمداً رسول الله فآمنوا بالله تعالى ورسوله فخرج اليه رجل من كسر البيت برمح فضرب في جنبه حتّى خرج من الشّق الآخر فقال الله أكبر فزت وربّ الكعبة ثمّ إستصرخ عامر بن الطفيل بني عامر على المسلمين فأبوا أن يجيبوه على ما دعاهم اليه أنّ أبابرا قد عقد لهم عقداً وجواراً فأستصرخ عليهم قاتل من بني سليم فأجابوه الى ذلك فخرجوا حتّى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم فلمّا رأوهم أخذوا السيوف فقاتلوهم حتّى قتلوا عن آخرهم إلاّ كعب بن زيد فأنّهم تركوه و به رمق فأرثت بين القتلى فعاش حتّى قتل يوم الخندق و كان في شرح القوم عمرو بن أمّية الضمري ورجل من الأنصار أحد بني عمرو بن عوف فلم ينهّما بمصاب أصحابهما إلاّ الطير يحوم حول العسكر فقالوا والله أنّ لهذا الطير لَشَأناً فأقبلا لينظر اليه فإذا القوم في دمائهم و إذا أنجعل التي أصابتهم واقفة فقال الأنصاري لعمرو بن أمّية ماذا ترى قال أرى أن نلحق برسول الله فنخبر الخبر فقال الأنصاري لكّني ما كنت لأرعب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ثمّ قاتل القوم حتّى قُتل و أخذ عمرو بن أمّية أسيراً فلمّا أخبرهم أنّه من مضر أطلقه، عامر بن الطفيل و خر ناصيته و أعتقه عن رقبته زعم أنّها كانت على أبيه فقدم عمرو بن أمّية على رسول الله و أخبره الخبر فقال رسول الله

هذا عمل أبي براء وقد كنت لهذا كارهاً متخوفاً فبلغ ذلك أبا براء فشق عليه أخفاء عامر إياه وما أصاب رسول الله بسببه فقال حسان بن ثابت يخرص أبا براء على عامر بن الطفيل:

بني أم البنين ألم يرعكم وأنتم من ذوائب أهل نجد ألخ
وقال كعب بن مالك:

بني أم البنين أما سمعتم دُعاء المُستغيث مع النساء ألخ
قال فأنزل الله في شهداء بئر معونة قرناً بلغو قومنا عما أنا قد لقينا ربنا
فرضي ورضينا عنه ثم نسخت ورفعت بعد قرانها وانزل الله ولا تحسبن
الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ انْتَهَى.

ما ذكره الطبرسي ونقل القرطبي عن بعض المفسرين قالوا ان اولياء
الشهداء كانوا اذا اصابتهم لغة و سرور تحشروا وقالوا نحن كذا لك و ابائنا و
ابنائنا و اخواننا في القبور فأنزل الله تعالى هذه الآية تنفيساً عنهم و أخباراً عن
قتلاهم، أقول الأراء في شأن نزول الآية مختلفة و الكل محتمل إلا أنه لا يهمننا
البحث حول النزول فيها و في غيرها و إنما نذكره تبعاً لفهم الآية فنقول قد
أخبر الله تعالى فيها عن الشهداء وهم الذين قتلوا في سبيل الله بأنهم أحياء
عند ربهم يرزقون مع أن الظاهر أنهم ماتوا كسائر الأموات و أجسادهم في
التراب و قد اختلف المفسرون في هذا المعنى فمنهم من ذهب الى أن حياة
الشهداء محققة و فضلوا بالرزق في الجنة من وقت القتل حتى كان حياة الدنيا
دائمة لهم و منهم من يقول ترد اليهم الأرواح في قبورهم فينعمون كما يحي
الكفار في قبورهم فيعذبون، و قال مجاهد يرزقون من ثمر الجنة أي يجدون
ريحها و ليسوا فيها و صار قوم الى أن هذا مجاز و المعنى أنهم في حكم الله
مستحقون للتنعم في الجنة وهو كما يقال ما مات فلان أي ذكره حي كما قيل:
موت التقي حياة لا فناء لها قد مات قوم وهم في الناس أحياء

فالمعنى أنهم يرزقون الثناء الجميل، وقال قوم أرواحهم في أجواف طير خضرٍ وأنهم يرزقون في الجنة ويأكلون ويتنعمون قال القرطبي بعد نقله الأقوال المذكورة وهذا هو الصحيح من الأقوال لأن ما صح به النقل فهو الواقع انتهى كلامه.

أقول أكثر علماء العامة قبل القرطبي وبعده إختار وما إختاره القرطبي من أن المعنى أن أرواحهم في أجواف طير خضرٍ الحديث واليك ما ذكره الطبري في تفسيره قال:

حدثني يونس بن عبد الأعلى قال أخبرنا ابن وهب قال حدثنا إسماعيل بن عياش عن ابن إسحاق عن إسماعيل بن أمية عن أبي الزبير المكي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ لما أصيب أخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم قالوا يا ليت أخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا يتكلموا عن الحرب فقال الله عز وجل أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات انتهى.

ثم أن الطبري روي عن ابن عباس أيضاً أنه قال قال رسول الله ﷺ الشهداء على بارق نهرٍ بباب الجنة في قبة خضراء وقال عبدة في روضة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً انتهى. ومن أراد الإطلاع على تفصيل ما ذكره الطبري من الأخبار في المقام فعليه بمراجعة كتابه وهكذا غيره من مفسري العامة مثل الألوسي، والسيوطي وأبوحيان وصاحب الكشاف وأمثالهم، فأنهم لم يأتوا بشيء في الباب يعتمد عليه وحمل القول أن بعضهم يقول أن هذه الحياة مجازية وبعضهم يقول أنها

حَقِيقَةٌ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَنَّهَا دُنْيَوِيَّةٌ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَنَّهَا أُخْرَوِيَّةٌ وَلَكِنْ لَهَا مِيزَةٌ خَاصَّةٌ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَنَّهَا حَيَاةٌ بَيْنَ الْحَيَاتَيْنِ وَأَكْثَرُ إِعْتِمَادِهِمْ عَلَى حَدِيثِ الطَّبْرَانِ أَرْوَاحُ الشَّهَدَاءِ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضِرَ كَمَا مَرَّ، وَقَالَ الرَّازِي الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ أَعْلَمُ أَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ تَدُلُّ عَلَى كَوْنِ هَؤُلَاءِ الْمَقْتُولِينَ أَحْيَاءَ فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ مِنْهُ حَقِيقَةً أَوْ مَجَازًا فَإِنْ كَانَ الْمَرَادُ مِنْهُ هُوَ الْحَقِيقَةُ فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ أَنَّهُمْ سَيَصِيرُونَ فِي الْآخِرَةِ أَحْيَاءَ فِي الْحَالِ وَبِتَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ الْمَرَادُ فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ إِثْبَاتُ الْحَيَاةِ الرُّوحَانِيَّةِ أَوْ إِثْبَاتُ الْحَيَاةِ الْجَسْمَانِيَّةِ فَهَذَا أَضْبَطُ الْوُجُوهِ الَّتِي يُمْكِنُ ذِكْرُهَا فِي الْآيَةِ ثُمَّ قَالَ الْإِحْتِمَالُ الْأَوَّلُ أَنَّ تَفْسِيرَ الْآيَةِ بِأَنَّهُمْ سَيَصِيرُونَ فِي الْآخِرَةِ أَحْيَاءَ قَدْ ذَهَبَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ مُتَكَلِّمِي الْمَعْتَزَلَةِ مِنْهُمْ أَبُو الْقَاسِمِ الْكَعْبِيُّ حَيْثُ قَالَ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ مَا حَكَى كَانُوا يَقُولُونَ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَعْضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلْقَتْلِ فَيَقْتُلُونَ وَ يَخْسِرُونَ الْحَيَاةَ وَلَا يَصِلُونَ إِلَى خَيْرٍ وَأَمَّا كَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ لَجَحْدِهِمُ الْبَعْثَ وَالْمَعَادَ فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ وَبَيَّنَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ يَبْعَثُونَ وَيَرْزُقُونَ وَيُوصَلُ إِلَيْهِمْ أَنْوَاعُ الْفَرْحِ وَالسُّرُورِ وَالْبَشَارَةِ.

قَالَ الرَّازِي بَعْدَ نَقْلِهِ مَا نَقَلْنَاهُ، وَإِعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ عِنْدَنَا بَاطِلٌ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وَجْهُ ثُمَّ أَطَالَ الْكَلَامَ فِي رَدِّهِ بِمَا حَاصِلُهُ أَنَّ حَمْلَ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُمْ سَيَصِيرُونَ أَحْيَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ عَدْوُلٌ عَنِ ظَاهِرِ اللَّفْظِ وَذَلِكَ لِأَنَّ ظَاهِرَ الْحَيَاةِ حَالُ نَزُولِ الْآيَةِ.

ثَانِيًا: أَنَّ جَانِبَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ فِيهِ تَعَالَى أَرْجَحُ مِنْ جَانِبِ الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ وَحَيْثُ أَنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ فِي أَهْلِ الْعَذَابِ أَنَّهُ أَحْيَاهُمْ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَجْلِ التَّعْذِيبِ حَيْثُ قَالَ يَعْضُونَ عَلَيْهَا غَدَاً وَ عَشِيًّا فَلَأَنْ يَجْعَلَ أَهْلَ الثَّوَابِ أَحْيَاءَ قَبْلَ الْقِيَامَةِ لِأَجْلِ الْإِحْسَانِ وَالْإِثَابَةِ كَانَ أَوْلَى.

ثَالِثًا: لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرُوهُ لَمَا قَالَ لِلرَّسُولِ ﷺ: **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ** الْآيَةُ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ.

رابعاً: قوله تعالى: **وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ** والقوم الذين لم يلحقوا بهم لابد وأن يكونوا في الدنيا فاستبشارهم بمن يكون في الدنيا لا محالة يكون قبل القيامة.

خامساً: ما روى عن ابن عباس أنّ النبي قال في صفة الشهداء أنّ ارواحهم في اجوف طيراً خفر و أنّها ترد انهار الجنة و تاكل من ثمارها حيث شئت و ماوى الى قناديل من ذهب الحديث و قد مر الكلام الرّازى في الإحتمال الأول و جوابه عنه و هو أنّهم سيصبرون في الآخرة أحياء ثم شرّع في تقرير الإحتمال الثاني و هو أن يكون المراد أنّ الشهداء أحياء في الحال فقال، القائلون بهذا القول منهم من أثبت هذه الحياة للروح فقط و منهم من أثبتها للبدن و قبل الخوض فيه يجب تقديم مقدّمة و هى أنّ الإنسان ليس عبارة عن مجموع هذه البنية و يدّل عليه أمران:

أحدهما: أنّ أجزاء هذه البنية في الدّوبان و الإنحلال و التّبدل و الإنسان المخصوص شيء باق من أول عمره الى آخره و الباقي مغاير للمتبدّل و الذي يؤكّد ما قلناه أنّه تارة يصير سميناً و أخرى هزبلاً و أنّه يكون في أول الأمر صغير الجثة ثم أنّه يكبر و ينمو و لا شك أنّ كلّ إنسان يجد من نفسه أنّه شيء واحد من أول عمره الى آخره فصّح ما قلناه.

الثاني: أنّ الإنسان قد يكون عالماً بنفسه حال ما يكون غافلاً عن جميع أجزاءه و أعضائه و المعلوم مغاير لما ليس بمعلوم فثبت بهذين الوجهين أنّ الإنسان شيء مغاير لهذا البدن المحسوس ثم بعد ذلك يحتمل أن يكون جسماً مخصوصاً سارياً في هذه الجثة سريان النّار في الفحم و الدّهن في السّمسم و ماء الورد، و يحتمل أن يكون جوهرأ قائماً بنفسه ليس بجسم و لا حال في الجسم و على كلا المذهبين لا يبعد أنّه لمّا مات البدن انفصل ذلك الشّيء حيّاً و أن قلنا أنّه أماته الله إلا أنّه تعالى يعيد الحياة اليه و على هذا التقدير تزول

الشبهات بالكلية عن ثواب القبر كما في هذه الآية و عن عذاب القبر كما في قوله: **أَعْرِضُوا فَأَدْخِلُونَا** فثبت بما ذكرناه أنه لا إمتناع في ذلك وظاهر الآية دلّ عليه فوجب المصير اليه، ثم إستدل الرازي على هذه الحياة بالعقل والنقل أن شئت الإطلاع عليه فراجع كتابه فإنه قد ذكر في المقام أدلة الفلاسفة التي أقاموها على تجرّد النفس وبقاءها بعد موت البدن وهو من المسلّمات عندهم لأنهم قالوا النفس جسمانية الحدوث وروحانية البقاء قال السبزواري في منظومته:

النفس في الحدوث جسمانية وفي البقاء تكون روحانية
و معنى روحانيتها بقاءها بعد موت البدن ودثوره وعدم فناءها بموته و
فناءها كما هو شأن المجرّد ثم ذكر الرازي وجهين آخرين في تفسير الآية:
أحدهما: أن يكون المراد بالحياة حياة الأجساد.

ثانيهما: أن يكون الحياة فيهم على سبيل المجاز دون الحقيقة كما يقال فلان حيّ وليس بميت، إذا كان صالحاً، قال الشاعر:

موت التقي حياة لا فناء له قد مات قوم وهم في النأي أحياء
أقول هذا ما ذكروه في تفسير الآية و أنت ترى أنّ هذه الوجوه لا يمكن
الإعتماد عليها في تفسير كلام الله.

وقال الطبرسي **مَنْزُومٌ** وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ الْخَطَابَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَوْ يَكُونُ
على معنى لا تحسبن أيها السامع أو أيها الإنسان الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أي في الجهاد أو في نصرة دين الله أَمْوَاتًا أي موتى كما مات من لم يقتل في
سبيل الله أي في الجهاد بَلْ أَحْيَاءُ أي بل هم أحياء وقد مرّ تفسيره في سورة
البقرة عند قوله: **وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءُ** ^(١) وقوله:
عِنْدَ رَبِّهِمْ فِيهِ وَجْهَان:

أحدهما: أنهم بحيث لا يملك أحد نفعاً ولا ضرراً إلا ربهم وليس المراد بذلك قرب المسافة لأن ذلك من صفة الأجسام وهو مستحيل على الله تعالى والآخر، أنهم عند ربهم أحياء من حيث يعلمهم كذلك دون الناس عن أبي علي الجبائي، ثم ذكر حديث الطير عن ابن عباس وابن مسعود وجابر عن النبي و ذكر بعده حديث النبي ف جعفر الطيار وأن له جناحين يطير مع الملائكة في الجنة ثم قال عنه وأنكر بعضهم حديث الأرواح وقال أن الروح عرض لا يجوز أن يتنعم وهذا لا يصح لأن الروح جسم رقيق هوائي مأخوذ من الريح ويدل على ذلك أنه يخرج من البدن ويعود اليه وهي الحساسة الفعالة دون البدن وليست من الحياة في شيء لأن ضد الحياة الموت وليس كذلك الروح وهو قول علي بن عيسى **عند ربهم** من نعيم الجنة غدواً وعشياً يرزقون النعيم في قبورهم انتهى كلامه.

وقال الطباطبائي في تفسيره الميزان، المراد بالموت بطلان الشعور والفعل ولذا ذكرهما في قوله بل أحياء، وحيث ذكر الإرتزاق وهو فعل والفرح والاستبشار ومعهما شعور، انتهى كلامه.

أقول إذا عرفت كلمات المفسرين من العامة والخاصة في معنى قوله: **بل أحياء** فنقول أما ما ذكره من حديث النبي أنه قال لما أصاب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها الخ.

فهو مما لا يقبله العقل السليم والذوق المستقيم وكفاك شاهداً على ما ذكرناه مضافاً إلى إنكار العقل أيّاه أنه لم ينقل في كتب المعتمدة وأظن أنه من الإسرائيليات أو من موضوعات أبي هريرة الدوسي وأمثاله وذلك لأنه لا معنى لجعل أرواح الشهداء في حواصل طير خضر مع أن الروح لعلو مقامه و شرف رتبته ومكانته عند الله أضافه إلى نفسه تشريفاً وتعظيماً له فقال: **وَنَفَخْتُ**

فِيهِ مِنْ رُوحِي فَكَيْفَ يَعْقِلُ أَنْ يَجْعَلَهُ فِي حَوْصَلَةِ طَيْرٍ وَأَنَّهُ ضَرُورَةٌ اقْتَضَتْ ذَلِكَ أَلَمْ يَجِدْ هُنَاكَ ظَرْفَ أَوْسَعٍ وَاحْسَنَ مِنْهُ مِثْلَ مَا أَنَّ الْإِنْسَانَ أَفْضَلَ وَاشْرَفَ مِنَ الْحَيَوَانِ الْيَسِيرِ ذَلِكَ سِيرَ نَزُولِيًّا لَهُ ثُمَّ أَنَّهُ آيَةٌ خُصُوصِيَّةٌ فِي التَّصَافِ الطَّيْرِ بِالْخُضْرُوبَةِ الْيَسِيرِ اللَّهُ بِقَادِرٍ عَلَى حِفْظِ الْأَرْوَاحِ الَّتِي خَلَقَهَا بِدُونِ أَنْ يَجْعَلَهَا فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ وَنَحْنُ نَشِيرُ إِلَى بَعْضِ مَا وَرَدَ فِي الْبَابِ مِنْ طَرِيقِ أَهْلِ الْبَيْتِ الَّذِينَ طَهَّرَهُمُ اللَّهُ تَطْهِيرًا وَجَعَلَهُمْ عَدْلًا لِكِتَابِهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ حَيْثُ قَالَ أَنِّي تَارَكْتُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِترتي الْحَدِيثِ.

روى في البحار بأسناده عن أبي ولاد الحنّاط عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له جُعِلَتْ فداك يروون أنَّ أرواحَ المؤمنين في حواصل طيور خضرٍ حول العرش فقال عليه السلام لا، المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طيرٍ لكن في أبدانٍ كأبدانهم إنتهى.

و بأسناده عن يونس بن ظبيان قال: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فقال: مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي أَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ فَقُلْتُ يَقُولُونَ تَكُونُ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خَضِرٍ فِي قَنَادِيلِ تَحْتَ الْعَرْشِ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام سُبْحَانَ اللَّهِ الْمُؤْمِنُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يَجْعَلَ رُوحَهُ فِي حَوْصَلَةِ طَيْرٍ يَا يُونُسَ إِذَا كَانَ ذَلِكَ أَتَاهُ مُحَمَّدٌ ﷺ وَعَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَالْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَإِذَا قَبِضَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صَيَّرَ تِلْكَ الرُّوحَ فِي قَالِبٍ كَقَالِبِهِ فِي الدُّنْيَا فَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ فَإِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمُ الْقَادِمُ عَرَفُوهُ بِتِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا انْتَهَى.

و بأسناده عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله نَا نَتَحَدَّثُ عَنْ أَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُنْهَى فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خَضِرٍ تَرَعَى فِي الْجَنَّةِ وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلِ تَحْتَ الْعَرْشِ فَقَالَ عليه السلام لا، إِذَا مَا هِيَ فِي حَوَاصِلِ

طير، قلت فأين هي قال في روضة كهيئة الأجساد في الجنة انتهى^(١).

أقول يظهر من هذه الروايات أنَّ الأرواح في أبدان كأبدانهم في الدنيا كما في الرواية الأولى وهي المعبر عنها بالأبدان المثالية، وإلى هذا المعنى أشارت الثانية أيضاً أو أنها في روضة كهيئة الأجساد في الجنة كما هو ظاهر الحديث الثالث وقد ورد في بعض الأخبار أنها في حجرات في الجنة وهكذا وأما قوله: **عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** فهو كناية عن القرب المعنوي أي أنَّ الأرواح تتقرب إلى ربهم بالإرتزاق بحسب النشأة الآخرة وأما كيفية الحياة والرزق فلا نعلم معناهما والعلم عند الله والذي يجب علينا الاعتقاد بمفاد الآية وأمثالها من المتشابهات في الكتاب وردَّ علمها إلى الله والراسخين في العلم وهم أهل بيت النبوة فما وصل إلينا منهم نقول به وما لم يصل نسكت عنه لقولهم أسكتوا عما سكت الله عنه هذا ما عندي في المقام وأما حكم الشهيد من حيث الغسل والصلاة والكفن وأمثالها من الأحكام فقد أجمع الفقهاء منّا على أنَّ الشهيد لا يغسل ولا يكفن بل يصلّى عليه ويُدفن بشيابه، وقال القرطبي من العامة في هذا المقام.

الثانية: إذا كان الشهيد حياً حكماً فلا يصلّي عليه كالحى حساً وقد اختلف العلماء في غسل الشهداء والصلاة عليهم فذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة والثوري إلى غسل جميع الشهداء والصلاة عليهم إلا قتل المعترك في قتال العدو خاصة لحديث جابر قال النبي، أدفنوهم بدمائهم، إلى آخر ما قال، وقوله إذا كان الشهيد حياً حكماً فلا يصلّي عليه كالحى حساً، كلام لا طائل تحته أما أولاً فلاّته قياس وهو باطل في الشريعة.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

ثانياً: أَنَّ الصَّلَاةَ عَلَى جَسَدِ الْمَيِّتِ لَا عَلَى رُوحِهِ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى الصَّلَاةُ تَجِبُ عَلَى الْمَيِّتِ وَالْمَرَادُ بِالْمَيِّتِ مَنْ فَارَقَ رُوحَهُ جَسَدَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ فِي الْمَقَامِ فَتَجِبُ الصَّلَاةُ عَلَيْهِ وَأَمَّا حَدِيثُ جَابِرٍ عَلَى فَرْضِ صَحْتِهِ فَهُوَ لَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ وَجُوبِ الصَّلَاةِ لِأَنَّ الْمَرَادَ بِقَوْلِهِ أَدْفَنُوهُمْ بِدُمَائِهِمْ، لَا تَغْسِلُوهُمْ كَيْفَ وَقَدْ صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ عَلَى حِمْزَةٍ فِي أَحَدٍ مَعَ أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَأْمُرْ بِغَسْلِهِ وَهَكَذَا صَلَّى عَلَى جَمِيعِ الشَّهَدَاءِ فِي جَمِيعِ الْغَزَوَاتِ وَأَعْجَبَ مِنْهُ مَا نَقَلَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهُ قَالَ كُلُّ مَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا لَمْ يُغْسَلْ وَلِلْبَحْثِ فِيهِ مَقَامٌ آخَرُ.

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ أَيَّ أَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَرَحُونَ مَسْرُورُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ مِنْ ضُرُوبِ نِعَمِهِ فِي الْجَنَّةِ أَوْ فِي قُبُورِهِمْ وَقِيلَ مَعْنَاهُ فَرِحِينَ بِمَا نَالُوا مِنَ الشَّهَادَةِ وَجَزَاءِهَا وَفِي قَوْلِهِ: **وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ** أقوال:

أحدها: ما نقل عن ابن جريح وقتادة قالا، أي أَنَّهُمْ يَسْرُونَ بِأَخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فَارَقُوهُمْ وَهُمْ أَحْيَاءُ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَنَاجِهِمُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ لَعَلَّهِمْ بِأَنَّهُمْ أَنْ إِسْتَشْهَدُوا لِحَقِّهِمْ وَصَارُوا مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ مِثْلَ مَا صَارُوا إِلَيْهِ يَقُولُونَ أَخْوَانُنَا يَقْتُلُونَ كَمَا قَتَلْنَا فَيُصِيبُونَ مِنَ النَّعِيمِ مِثْلَ مَا أَصَبْنَا.

ثانيها: ما نقل عن السَّدي وَهُوَ أَنَّهُ يُؤْتِي الشَّهِيدَ بَكْتَابِهِ فِيهِ ذِكْرٌ مِنْ تَقَدَّمَ عَلَيْهِ مِنْ أَخْوَانِهِ فَيَسَّرُ بِذَلِكَ وَيَسْتَبْشِرُ كَمَا يَسْتَبْشِرُ أَهْلُ الْعَائِبِ بِقُدُومِهِ فِي الدُّنْيَا.

ثالثها: ما عن الرَّجَاجِ وَهُوَ أَنَّ مَعْنَاهُ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ فِي الْفِعْلِ إِلَّا أَنَّ لَهُمْ فَضْلًا عَظِيمًا بِتَصَدِّقِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ انْتَهَى ذِكْرُ هَذِهِ الْوُجُوهِ الطَّبْرَسِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ. **رابعها:** ما نقله الْقُرْطُبِيُّ وَهُوَ أَنَّهُ إِشَارَةٌ بِأَنَّ الْإِسْتَبْشَارَ لِلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ إِلَى جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْ لَمْ يَقْتُلْ وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا عَاينُوا ثَوَابَ اللَّهِ وَقَعَ الْيَقِينُ بِأَنَّ

دين الإسلام هو الحقّ الَّذِي يثيب الله عليه فهم فرحون لأنفسهم بما أتاهم الله من فضله و مستبشرون للمؤمنين بأنّه لافوت عليهم ولاهم يحزنون.

اقول ما ذكروه لأبأس به لأنّ في المقام احتمال آخر وهو أنّ قوله: **فَرِحِينَ بِمَا أُتِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ** بعد قوله: **عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** إشارة الى أنّ الفرح الحاصل لهم إنّما حصل لسبب ارتزاقهم في المقام احتمال آخر وهو أنّ في مقام العنّدية أي عند ربّهم وهو كذلك فإنّ الفرح يحصل بعد الوصول الى النعمة والى هذا أشار بعض المتكلّمين حيث قال أنّ الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتّعظيم و عليه فقوله: **يُرْزَقُونَ** إشارة الى أصل المنفعة الحاصلة لهم أعني بها الثواب وقوله: **فَرِحِينَ** إشارة الى الفرح الحاصل لهم بسبب ذلك التّعظيم، بعض العرفاء أنّ جواهر الأرواح القدسيّة اذا أشرقت بالأنوار الإلهيّة تصير مسرورة مبتهجة من وجهين:

أحدهما: صيرورة ذواتها منيرة مشرقة بتلك المعارف الإلهيّة.

ثانيهما: أنّها ناظرة الى ينبوع النور ومصدر الرحمة والجلالة ومن المعلوم أنّ إبتهاجها بالقسم الثاني أعلى و أتمّ منه بالأوّل فقوله: **يُرْزَقُونَ** إشارة الى الأوّل، وقوله: **فَرِحِينَ** الى الثاني ولعلّه الى هذه الدقّيقة أشار الله تعالى بقوله: **مِنْ فَضْلِهِ** أي أنّ الَّذِي أتاهم الله نشأ من فضله وكرمه ورحمته وذلك لأنّ المشغول بالرزق محجوب عن الله وبعبارة أخرى يكون الفرح لأجل كونهم مشمولين لفضله لا لأجل الارتزاق وأن كان الفرح ناشئاً منه، و عليه فقوله: **وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ** معناه يطلبون البشارة من الله تعالى لأخوانهم الَّذِينَ كانوا معهم في الدنيا بأن لا يكون لهم خوف ولا حزن فقوله **أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**، في محلّ الخفض وهو بدل، من الَّذِينَ، وحينئذ يستقيم المعنى والله أعلم.

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا
يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ
وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ
أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ (١٧٢) الَّذِينَ
قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ
فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ
نِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ
فَضْلٍ لَمْ يَمَسْسْنَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَ
اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ
يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

◀ اللغة

الْقَرْحُ: بفتح القاف وسكون الراء مصدر وهو الأثر من الجراحة من شيء يصيبه من خارج والقَرْح أثرها من داخل وقد يقال القرَح بالفتح للجراحة وبالضم لِلألم.
لَمْ يَمَسْسْنَهُمْ: المَسَّ كاللَّمَس لكن اللَّمَس قد يقال لطلب الشيء وأن لم يوجد، والمَسَّ يقال فيما يكون معه إدراك بحاسة اللَّمَس وكُنِيَ به عن النِّكَاح فقبل مَسَّهَا وَمَاسَّهَا.

◀ الإعراب

يَسْتَبْشِرُونَ هو مستأنف مكرر للتوكيد وَأَنَّ اللَّهَ بالفتح عطف على بنعمة من الله أي وبأنَّ الله، وبالكسر على الإستئناف الَّذِينَ اسْتَجَابُوا، فيه موضع

جَزَ صفة للمؤمنين أو نصب على إضمار، أعني، أو رفع، على إضمارهم، أو مبتدأ وخبره، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا ومنهم، حال من الضمير في، أحسنوا، والذين قال لهم الناس، بدل من الذين إستجابوا، أو صفة فزادهم إيماناً الفاعل مضمَر تقديره زادهم القول حَسْبًا اللَّهُ مبتدأ وخبر وحسب، مصدر في موضع إسم الفاعل تقديره فحسبنا الله بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ في موضع الحال ويجوز أن يكون مفعولاً به لَمْ يَمْسَسْهُمْ حال من الضمير في، إنقلبوا ويجوز أن يكون العامل فيها، بنعمة، وصاحب الحال الضمير في الحال تقديره فإنقلبوا منعمين برأيين من سوء وَاتَّبَعُوا معطوف على، إنقلبوا ويجوز أن يكون حالاً أي وقد إتبعوا ذَلِكُمْ مبتدأ والشيطان، خبره يُخَوِّفُ يجوز أن يكون حالاً من الشيطان والعامل الإشارة ويجوز أن يكون الشيطان بدلاً أو عطف بيان، و يخوف، الخبر، والتقدير يخوفكم بأولياءه فَلَا تَخَافُوهُمْ أَنَّمَا جَمَعَ الضمير لأنَّ الشيطان جنس ويجوز أن يكون الضمير للأولياء.

◀ التفسير

لما قال الله تعالى في الآية السابقة وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ فكأنه قيل وبم يستبشرون فقال تعالى: يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ أي يطلبون البشارة من الله تعالى بشيئين أحدهما النعمة من الله و ثانيهما الفضل منه و قد يقال أَنَّ النعمة والفضل لفظان يعبر بهما عن معنى واحد و قيل في تكراره قولان:

أحدهما: أَنَّ المراد أَنَّها ليست نعمة على قدر الكفاية من غير مضاعفة السُرور واللذة، فالنعمة ما إستحقوا بطاعتهم، والفضل ما زادهم من المضاعفة في لأجر.

ثانيهما: أَنَّهُ للتأكيد و تمكين المعنى في النفس قاله الطبرسي رحمته في المجمع و الحق أَنَّ فيهما الفرق فَأَنَّ النعمة عبارة عن الحالة الحسنة و الفضل

الزَّيَادَةَ عَنِ الْإِقْتَصَارِ وَقَالَ بَعْضُ أَرْبَابِ التَّحْقِيقِ النِّعْمَةُ بِكسر التَّوْنِ مَا يَنْتَعِمُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنَ الْمَالِ وَنَحْوِهِ وَبِالْفَتْحِ هِيَ النَّفْسُ الْمُتَنَعِّمَةُ قَالَ وَلَعَلَّ الثَّانِي أَوْلَى فَقَدْ قِيلَ، كَمْ ذِي نِعْمَةٍ نِعْمَةٌ لَهُ، ثُمَّ أَنَا أَنْ قُلْنَا بِأَنَّ الثَّوَابَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الطَّاعَةِ يَكُونُ مِنْ جِهَةٍ إِسْتِحْقَاقِ الْعَبْدِ فَالْفَرْقُ ظَاهِرٌ وَأَنْ قُلْنَا مِنْ جِهَةِ الْفَضْلِ وَالْعَبْدُ لَا يَسْتَحِقُّ شَيْئاً لَأَنَّ الطَّاعَةَ مِنْ وَظَائِفِهِ الْمَقْرَّرَةِ لَهُ عَقْلاً وَنَقْلاً فَهُمَا وَاحِدٌ وَكَيْفَ كَانَ فَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّهُمْ كَمَا يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ عَلَى مَا ذَكَرَ فَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ أَيِ يَطْلُبُونَ الْبَشَارَةَ مِنَ اللَّهِ ثَانِياً لِأَنفُسِهِمْ بِمَا رَزَقُوا مِنَ النِّعَمِ وَ عَلَيْهِ فَتَكَرَّرَ الْاسْتِشْارُ فِي الْآيَتَيْنِ لَيْسَ لِلتَّأْكِيدِ بَلْ لِإِفَادَةِ الْاسْتِشْارِ الْأَوَّلِ كَانَ بِأَقْوَالِ الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ وَالثَّانِي كَانَ بِأَحْوَالِ أَنْفُسِهِمْ خَاصَةً هَكَذَا قِيلَ فِي مَقَامِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْاسْتِشْارَيْنِ وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَا مِنْ سِنَخٍ وَاحِدٍ وَيَكُونُ التَّكَرُّارُ لِإِفَادَةِ التَّأْكِيدِ وَ عَلَيْهِ فَاْلْمَعْنَى أَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَطْلُبُونَ الْبَشَارَةَ لِأَخْوَانِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ تَارَةً بِأَنْ لَا خَوْفٌ وَلَا حُزْنٌ عَلَيْهِمْ وَ أُخْرَى بِشُمُولِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَهُمْ كَمَا لِلْمُسْتَبْشِرِينَ، فَالْآيَةُ الْأُولَى لِلدُّنْيَا وَ الثَّانِيَةُ لِلْآخِرَةِ أَيِ يَسْتَبْشِرُونَ بِمَا أَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ أَنْ يَسْلُبَ الْخَوْفَ وَ الْحُزْنَ مِنْ أَخْوَانِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ، فِي الدُّنْيَا، وَيُعْطِيهِمُ النِّعْمَةَ وَ الْفَضْلَ فِي الْآخِرَةِ وَلِذَلِكَ قَالَ: **أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ** أَيِ لَا يَضِيعُ أَجْرَهُمْ فِي الدَّارَيْنِ هَذَا عَلَى قِرَاءَةِ الْكَسَائِي حَيْثُ أَنَّهُ قَرَأَ بِكسر الْأَلْفِ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ وَ أَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ الْفَتْحِ فَالْمَعْنَى يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَبِأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ وَ عَلَيْهِ فَكَأَنَّ الشَّهَدَاءَ أَعْلَمُوا وَ أَخْبَرُوا فِي طَلِبِهِمُ الْبَشَارَةَ بِأَنَّ اللَّهَ يُعْطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَهُوَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ بِطَرِيقٍ أَوْلَى.

بُيِّنَ الْقُرْآنُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٤

المجلد الرابع

قَالَ الرَّازِي الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: الْآيَةُ عِنْدَنَا دَالَّةٌ عَلَى الْعَفْوِ عَنْ فَسَاقِ أَهْلِ الصَّلَاةِ لِأَنَّهُ بِإِيمَانِهِ إِسْتَحَقَّ الْجَنَّةَ فَلَوْ بَقِيَ بِسَبَبِ فَسَقِهِ فِي النَّارِ مُؤَبَّداً لَمَا وَصَلَ إِلَيْهِ أَجْرُ إِيْمَانِهِ فَحِينَئِذٍ يَضِيعُ أَجْرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَ ذَلِكَ خِلَافُ الْآيَةِ انْتَهَى كَلَامُهُ.

أقول ما ذكره الرّازي لا تدلّ عليه الآية أصلاً وذلك لأنّ الآية تدلّ على أنّ الله تعالى لا يضيع أجر المؤمنين والمؤمن لا يكون مؤمناً بمجرد الاعتقاد القلبي وبعبارة أخرى ليس الإيمان عبارة عن مجرد الاعتقاد بالقلب بل هو مع الإقرار باللسان والعمل بالأركان فمن كان كذلك مؤمناً حقّاً وإلا فلا هذا بالنسبة الى الإيمان واما أنّ فساق أهل الصّلاة يشملهم العفو من الله تعالى أو لا فهو أمر آخر خارج عن مفاد الآية اذ الآية ليست بصدد بيان هذا بل هي بصدد بيان أنّ الله لا يضيع أجر المؤمنين ومن المعلوم أنّ العفو ليس من الأجر بشيء بل مضافاً الى أنّ العفو لم يذكر في الآية أصلاً فكيف يقول الرّازي أنّ الآية دالة على العفو عن فساق أهل الصّلاة.

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ.

اختلفوا في نزول هذه الآية والذي يقوّي في النّظر هو ما رواه عليّ بن إبراهيم في تفسيره وهو أنّ النّبي لما دخل المدينة في وقعة أحد نزل عليه جبرئيل فقال يا محمّد أنّ الله يأمرك أن تخرج في أثر القوم ولا يخرج معك إلا من به جراحة فأمر رسول الله ﷺ منادياً يُنادي يا معشر المهاجرين والأنصار من كانت به جراحة فليخرج ومن لم يكن به جراحة فليقيم فأقبلوا يضمّدون جراحاتهم ويداوونها فخرجوا على ما بهم من الألم والجرح فلمّا خرجوا بلغ رسول الله حمراء الأسد وقريش قد نزلت الرّوحاء قال عكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد نرجع ونغير على المدينة فقد قتلنا سراتهم وكبشهم، يعنون خَمزة فوافاهم رجل خرج من المدينة فسألوه الخبر فقال تركت محمّداً وأصحابه بحمراء الأسد يطلبونكم جدّ الطلب فقال أبو سفيان هذا النّكد والبغي فقد ظفرنا بالقوم وبقينا والله ما أفلح قوم قطّ بغوا، فوافاهم نعيم بن مسعود الأشجعي فقال أبو سفيان أين تُريد

قال المدينة لأمتار أهلي طعاماً قال هل لك أن تمرّ بحمراء الأسد وتلقى أصحاب محمد ﷺ وتعلمهم أن حلفائنا وموالينا قد وافونا من الأحابيش حتى يرجعوا عنا ولك عندي عشرة قلائص أملأها تمرّاً وزبيباً قال نعم فوافى عن غد ذلك اليوم حمراء الأسد فقال لأصحاب رسول الله ﷺ أين تريدون قالوا قريشا قال أرجعوا أن قريشا قد اجتمعت اليهم حلفاؤهم ومن كان تخلف عنهم وما أظن إلا وأاثل خيلهم يطلعون عليكم الساعة وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فنزل جبرئيل على رسول الله فقال أرجع يا محمد فإن الله قد أربع قريشاً فرجع رسول الله إلى المدينة وأنزل الله، الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ إلى قوله: أَجْرٌ عَظِيمٌ قال صاحب الكشف، من، في قوله: أَحْسَنُوا مِنْهُمْ للتبيين لأن الذين استجابوا لله، والرسول قد أحسنوا وإتقوا كلهم لا بعضهم، أقول مراده أن كلمة من بيّنته لا تبعية يلزم خروج بعضهم من وصف التقوى والإحسان ولقائل أن يقول أي دليل دل على كونها للتبيين بل الحق بقرينة الحال والمقام كونها للتبعض وذلك لأن أصحاب النبي أكثرهم كانوا من المنافقين في الغزوات وغير الغزوات وأما الذين كانوا من المتقين المحسنين منهم فقد قال الله في كتابه: وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ثم أن قوله: أَحْسَنُوا أي جميع الافعال واتقوا في ترك المنهيات وقيل احسنوا في القول والعقل واتفقوا في اخلاصهم العمل لله والامر سهل بعد وضوح المعنى.

بني القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

كأنه قيل، للذين أحسنوا واتقوا، من هم، فقال الله تعالى: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ أي نعيم بن مسعود الأشجعي، أن الناس، يعني أبو سفيان وأصحابه قد جمعوا لكم، حلفاؤهم ومن كان تخلف عنهم، فأخشوهم، أي فأخشوا

أباسفيان وأصحابه فزادهم، أي فزاد هذا القول في أصحاب محمد الإيمان بالله بدل الخوف والرعب وقالوا في جواب نعيم بن مسعود **حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** أي أنا لا نخاف من المشركين بل نتوكل على الله ومن يتوكل على الله فه وحسبه، وقد مرّت القصّة نقلاً عن تفسير علي بن إبراهيم آنفاً، فعلى ما ذكرناه في تفسير الآية هي بدلٌ من قوله: **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا**.

أَنْ قُلْتُ أَنْ كَانَ الْمَرَاد بِقَوْلِهِ: **النَّاسُ** هُوَ نَعِيمُ بْنُ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِيِّ كَمَا فَسَّرْتُمُ الْكَلَامَ بِهِ تَبَعاً لِأَكْثَرِ الْمَفْسِّرِينَ فَكَانَ حَقُّ الْكَلَامِ أَنْ يُقَالَ، الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ رَجُلٌ الْآيَةُ، فَلَمْ قَالَ، النَّاسُ، وَهُوَ لَفْظٌ عَامٌّ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْأَفْرَادِ أَوْ بَعْضَهُمْ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى مَا وَجَّهَ الْعَدُولُ مِنَ الشَّخْصِ إِلَى لَفْظٍ يَشْمَلُ الْعُمُومَ.

قُلْتُ قَدْ أَجَابُوا عَنْهُ بِوَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنَّ تَقْدِيرَ الْكَلَامِ جَاءَ الْقَوْلُ مِنْ قَبْلِ النَّاسِ فَوَضَعَ كَلَامَ مَوْضِعَ كَلَامٍ ذَكَرَهُ الرَّمَانِيُّ.

الثاني: أَنَّ الْوَاحِدَ يَقُومُ مَقَامَ النَّاسِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا إِنْتَظَرَ قَوْمًا فَجَاءَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ قَدْ يُقَالُ جَاءَ النَّاسُ أَمَّا لِتَفْخِيمِ الشَّأْنِ وَأَمَّا لِإِبْتِدَاءِ الْإِتْيَانِ وَقَوْلُهُ: **فَاخْشَوْهُمْ** حِكَايَةٌ عَنْ قَوْلِ نَعِيمِ بْنِ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِيِّ لِلْمُسْلِمِينَ يَعْنِي أَخْشَوْا أَبَاسْفِيَانَ وَأَصْحَابَهُ ذَكَرَهُمَا الشَّيْخُ فِي التَّبْيَانِ، وَقَدْ يَجَابُ عَنْهُ بِوَجْهِ آخَرَ وَهُوَ أَنَّ الْوَاحِدَ إِذَا قَالَ قَوْلًا وَلَهُ أَتْبَاعٌ يَقُولُونَ مِثْلَ قَوْلِهِ أَوْ يَرْضُونَ بِقَوْلِهِ حِينَئِذٍ إِضَافَةٌ ذَلِكَ الْفِعْلَ إِلَى الْكُلِّ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً^(١)**.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذَارُكُمْ فِيهَا^(٢)**.

وَهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ وَأَمَّا فَعَلَهُ أَسْلَافُهُمْ إِلَّا أَنَّهُ أَضِيفَ إِلَيْهِمْ لِمَتَابَعَتِهِمْ لَهُمْ

على تصويبهم في تلك الأفعال فكذا هاهنا يجوز أن يضاف القول إلى الجماعة الراضين بقول ذلك الواحد انتهى ذكره الرّازي في تفسيره.

أقول الحقّ أنّ القائل لم يكن شخصاً واحداً وهو نعيم بن مسعود الأشجعي على ما قيل بل ركّب من عبد القيس مَرّوا على أبي سفيان يريدون المدينة للميرة فجعل لهم جعلاً وهو حمل إبلهم زيباً على أن يخبروا أنّه جمع ليستأصل بقية المؤمنين فأخبروا بذلك فقال الرسول وأصحابه وهم اذ ذاك بحمراء الأسد **حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** وأما الناس الثاني في الآية فلا شك أنّ المراد بهم أبو سفيان وأصحابه، وأنّ ترى أنّ هذا القول أقرب إلى الصواب وإلى مدلول اللفظ والله أعلم ثمّ أنّ في قوله: **فَزَادَهُمْ إِيمَانًا** دلالة على أنّ الإيمان قابل للزيادة والنقص وهو كذلك لأنّ صدقه على مصاديقه يختلف شدةً ونقصاً وكمالاً وضعفاً ومقدماً ومؤخراً ألا ترى أنّ صدق المؤمن على الرسول أشدّ وأكمل وأقدم من صدقه على غيره من أحاد الأمة ثمّ صدقه على أمير المؤمنين كذلك بعد الرسول لأنّه أول من آمن بالله بعده فلا يسمع إلى قول من قال أنّه لا يقبل الزيادة والنقص كأبي حنيفة والشافعي على ما حكى عنهما، وكيف كان فالبحث فيه قليل الجدوى.

فَاتَّقِلُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ.

الإقلاّب، والرّجوع والمصير واحد وقد فرّق بينهما بأنّ الإقلاّب هو المصير إلى ضدّ ما كان قبل ذلك كإقلاّب الطّين خرفاً ولم يكن قبل ذلك خرفاً وأما الرّجوع فهو المصير إلى ما كان قبل ذلك قاله الشّيخ في التّبيان وأما قوله: **بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ** فعن السّدي ومجاهد، أنّ النّعمة العافية والفضل التّجارة، والسّوء القتل، وقال الرّجاج النّعمة هاهنا الثّبوت على الإيمان في طاعة الله، والفضل، الرّيح في تجارتهم لأنّه روي أنّهم أقاموا في الموضع ثلاثة

أَيَّامَ فَاشْتَرَوْا أَدَمًا وَزَيْبَاءَ رَبِحُوا فِيهِ، وَقَالَ قَوْمٌ أَنْ أَقَلَّ مَا يَفْعَلُهُ اللَّهُ بِالْخَلْقِ فَهُوَ نِعْمَةٌ وَمَا زَادَ عَلَيْهِ فَهُوَ الْمَوْصُوفُ بِأَنَّهُ فَضْلٌ، وَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّهُمْ عَادُوا وَرَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ إِلَى لِقَاءِ الْكَفَّارِ وَمَنَاجَزَتِهِمُ الْقِتَالَ مَتَمَتِّعِينَ أَوْ مُصْحَبِينَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَهِيَ السَّلَامَةُ أَوِ الْعَافِيَةُ.

روي البيهقي عن ابن عباس أَنَّ عِيرَاتٍ مَرَّتْ فِي أَيَّامِ الْمَوْسَمِ، فَاشْتَرَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرِيحٌ مَالًا فَقَسَّمَهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ فَذَلِكَ الْفَضْلُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْمَوْسَمَ هُوَ مَوْسَمُ بَدَارِ الصَّغْرَى، وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ حَتَّى وَافَى بِدَرِ الصَّغْرَى وَهُوَ مَاءُ لَبْنِي كِنَانَةَ وَكَانَتْ مَوْضِعَ سَوْقٍ لَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهَا فِي كُلِّ عَامٍ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ فَاقَامَ بِبَدَرٍ يَنْتَظِرُ ابْنِ أَبِي سَفْيَانَ وَقَدْ صَرَفَ أَبُو سَفْيَانَ مِنْ مَجَنَّتِهِ إِلَى كُلِّهِ فَمَسَّاهُمْ أَهْلُ كُلِّهِ جَيْشُ السَّوْقِ وَيَقُولُونَ أَنَّمَا خَرَجْتُمْ تَشْرَبُونَ السَّوْقَ وَلَمْ يَلْقَ رَسُولُ اللَّهِ وَ أَصْحَابُهُ أَحَدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِبَدَرٍ وَافُوا السَّوْقَ وَكَانَتْ لَهُمْ تِجَارَاتٌ فَبَاعُوا وَأَصَابُوا الدَّرَاهِمَ دَرَاهِمِينَ وَإِنْصَرَفُوا إِلَى الْمَدِينَةِ سَالِمِينَ غَانِمِينَ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: فَانْقَلِبُوا أَيَّامَ فَرَجَعُوا مِنْ بَدَرٍ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ أَيَّامَ عَافِيَةٍ وَثَبَاتٍ عَلَى الْإِيمَانِ وَ زِيَادَةٍ فِيهِ وَ فَضْلٌ أَيَّامَ رَيْحٍ فِي التَّجَارَةِ لَمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ مِنْ جَرَاخَةٍ وَكَيْدٍ عَدُوٍّ أَوْ قَتْلِ وَ اتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ بِجَرَاتِهِمْ وَخُرُوجِهِمْ مِنَ الْمَدِينَةِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ فَإِنَّ تَعَالَى قَدْ تَفَضَّلَ عَلَيْهِمُ بِالْثَّبِيتِ وَزِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَالتَّوْفِيقِ لِلْمُبَادَرَةِ إِلَى الْجِهَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

قالوا المراد بالشيطان نعيم بن مسعود يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ الْقَاعِدِينَ مِنَ الْخُرُوجِ مَعَ الرَّسُولِ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُوا فِي مَخَالَفَةِ أَمْرِي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنَّ الْإِيمَانَ يَقْتَضِي إِثَارَ خَوْفِ اللَّهِ عَلَى خَوْفِ النَّاسِ هَكَذَا فَسَّرَ

الفيض عَلَيْهِ السَّلَام الآية في الصّافي قال الرّازي في المقام أمّا قوله تعالى فيه سؤال و هو أنّ الذين سمّاهم الله بالشّيطان أنّما خوفوا المؤمنين فما معنى قوله: **الشّيطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** والمفسّرون ذكروا فيه ثلاثة أوجه:

الأول: تقدير الكلام ذلكم الشّيطان يخوِّفكم بأوليائه فحذف المفعول الثاني وحذف الجار ومثال حذف المفعول الثاني قوله تعالى: **فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ** ^(١) أي فاذا خفت عليه فرعون، ومثال حذف الجار في قوله تعالى: **لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا** ^(٢) معناه لينذركم ببأس وقوله: **لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ** ^(٣) أي لينذركم بيوم التّلاق وهذا القراء والزّجاج وأبي عليّ قالوا ويدلّ عليه قراءة أبي بن كعب، يخوِّفكم بأوليائه.

الثاني: أنّ هذا على قول القائل خوفٌ زیداً عمرواً وتقدير الآية، يخوِّفكم أوليائه فحذف المفعول الأوّل كما تقول أعطيت الأموال أي أعطيت القوم الأموال قال ابن الأنباري هذا أولى من إدعاء جارٍ لا دليل عليه، وقوله لينذر بأساً، أي لينذركم بأساً وقوله: **لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ** والتخويف يتعدى إلى مفعولين من غير حرف جرّ تقول خاف زيد القتال وخوفته القتال وهذا الوجه يدلّ عليه قراءة ابن مسعود يخوِّفكم أوليائه.

الثالث: أنّ معنى الآية يخوِّف أوليائه المنافقين ليقعدوا عن قتال المشركين والمعنى **الشّيطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** ويؤثرون أمره فأما أوليائه الله فإنّهم لا يخافونه اذا خوَّفهم ولا ينقادون لأمره ومراده منهم وهذا قول الحسن والسّدي ثم قال الرّازي بعد نقله ما نقلناه، فالقول الأوّل فيه محذوفان والثاني فيه محذوف واحد والثالث لا حذف فيه وأمّا الأوليائه فهم المشركون والكفّار، وقال الطّبرسي عَلَيْهِ السَّلَام (كُم) من (ذلكم) للخطاب لا للضمير فلا موضع لها من

الإعراب وقوله يخوف يتعدى الى مفعولين والمعنى أن ذلك التخويف و التثبيط عن الجهاد من عمل الشيطان المحض فقال: إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ والمعنى أنما ذلك التخويف الذي كان من نعيم بن مسعود من فعل الشيطان الى آخر ما قال فهذا ما قالوه في تفسير الآية.

أقول أما قوله: ذَلِكَ فهو إشارة الى الركب المثبط ويمكن أن يكون إشارة الى جميع ما جرى من أخبار الركب و عليه فلا بد من تقدير مضاف محذوف تقديره أنما ذلكم فعل الشيطان وقيل قول الشيطان والباقي واضح لا خفاء فيه قوله: فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ففيه نهى عن الخوف وأمر به، أما النهي فبالنسبة الى الشيطان وأوليائه وأما الأمر فمن الله تعالى وأنما علّق الخوف منه تعالى على الشرط وهو الإيمان لأن غير المؤمن بالله لا يخاف منه مع أنه يخاف من الشيطان وأوليائه هذا أن قلنا بأن قوله: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قيد وشرط لقوله: وَ خَافُونَ فقط وأما إِنْ قلنا بأنه قيد لقوله: فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُونَ معاً فالمعنى أن المؤمن بإيمانه يخاف من الله ولا يخاف من غيره فمن كان على غير ذلك فهو ليس بمؤمن حقاً،

أن قلت قال الله تعالى سابقاً فَاحْشَوْهُمْ^(١) وفى المقام، فلا تخافوهم.

قلت ما ذكره سابقاً فهو حكاية عن قول القائل أعنى به نعيم بن مسعود أو الركب على اختلاف فيه، والمذكور في المقام أمر ونهي من الله تعالى حكاية عن غيره ولا فرق بين الخشية والخوف إلا بالاعتبار وقد تكلمنا في الخوف والرجاء والخشية سابقاً وسنتكلم فيها في المستقبل إن شاء الله تعالى وقيل أن الخوف لا يكون إلا من الله والخشية تكون منه ومن غيره فظهر الفرق.



وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُسَارِعُونَ يُرِيدُ اللَّهُ الْأَلَّا
يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ
(١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ أَشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلَا
يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ
لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨)

◀ اللغة

وَلَا يَحْزُنُكَ: الحَزْنُ والحَزَنُ خشونة في الأرض وخشونة في النفس لما يحصل فيها من الغم و يضاذه الفرح.
حِطًّا: الحِطُّ النَّصِيب، المقدَّر وقيل في جمعه، أحاط وأحظ.
نُملِّي: الإملاء الإمهال.
إِثْمًا: الإثام والآثام إسم للأفعال المبטنة عن الثواب و جمعه آثام.

◀ الإعراب

شَيْئًا في موضع المصدر أي ضراراً وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْرَأُ بِالْيَاءِ و فاعله الَّذِينَ كَفَرُوا و أَمَّا المفعولان فالقائم تصامهما قوله: أَنَّمَا نُملِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ و ما بمعنى الذي او مصدرية و لا يجوز ان تكون زائدة.

◀ التفسير

قيل في نزول الآية أَنَّ قومًا أسلموا ثم إرتدوا خوفاً من المشركين فاعتمَّ النَّبِيُّ ﷺ فنزلت، وقيل يعني به المنافقين ورؤساء اليهود كتموا صفة

النَّبِيِّ ﷺ فِي التَّوْرَةِ فَنَزَلَتْ، وَقَدْ يُقَالُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَمَّا لَمْ يُؤْمِنُوا شَقَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ وَيَقُولُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ فَلَوْ كَانَ قَوْلُهُ حَقًّا لَاتَّبَعُوهُ، فَنَزَلَتْ وَقَالَ الضَّحَّاكُ هُمْ كَفَّارُ قَرِيشٍ، أَقُولُ الْأَوَّلَى حَمْلُ الْآيَةِ عَلَى الْعُمُومِ وَكَيْفَ كَانَ فِي الْآيَةِ مَسَائِلُ:

الأولى: قوله: وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ الْخَطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ إِغْتَمَّ بِكَفَرِهِمْ وَإِرْتِدَادِهِمْ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ تَسْلِيَةً لَهُ ﷺ إِيخْتَارَهُمُ الْكُفْرَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ أَمَّا كَانَ بِإِرَادَتِهِمْ وَإِيخْتَارَهُمْ بَعْدَ وَضُوحِ الْحَقِّ وَإِتْمَامِ الْحُجَّةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ الْعَقْلِ وَالرَّسُولِ وَفِي قَوْلِهِ: يُسَارِعُونَ إِيضًا إِلَى الْكُفْرِ بِسُرْعَةٍ مِنْ غَيْرِ تَأَمُّلٍ وَتَدَبُّرٍ فِيمَا إِيخْتَارُوهُ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَوْ تَأَمَّلُوا بَعَلِمُوا أَنَّ الْإِسْلَامَ حَقٌّ أَلَّا أَنَّهُمْ بَخِثَ طَبِئَتُهُمْ وَسُوءُ سَرِيرَتِهِمْ وَقَعُوا فِيمَا وَقَعُوا وَمِنْ كَانَ كَذَلِكَ لَا يَنْبَغِي الْحُزْنَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ فَعَلَ مَا فَعَلَ بِمِثْلِهِ وَإِيخْتَارَهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَافِرًا.

الثانية: قوله: إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا أَيَّ أَنَّ وَبَالَ ذَلِكَ عَائِدٌ عَلَيْهِمْ يَضُرُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَأَمَّا أَتَى بِكَلِمَةٍ، لَنْ، دُونَ غَيْرِهَا مِنْ صُرُوفِ النَّفْيِ لِأَنَّهَا لِنَفْيِ الْأَبَدِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَنْ تَرَانِي يَا مُوسَى أَيْ لَنْ تَرَانِي أَبَدًا فَقَوْلُهُ: لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا مَعْنَاهُ لَنْ يَضُرُّوه أَبَدًا وَالْوَجْهُ فِيهِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَنِيٌّ بِالذَّاتِ عَمَّا سِوَاهُ وَمَا سِوَاهُ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ أَنْفِقُوا إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَفِيُّ الْخَمِيدُ^(١) وَلَا زَمَ ذَلِكَ عَدَمُ الْإِنْتِفَاعِ بِالطَّاعَةِ وَعَدَمُ الْإِسْتِزْوَارِ بِالْمَعْصِيَةِ إِذْ فِي صُورَةِ الْإِنْتِفَاعِ وَالْإِسْتِزْوَارِ لَا يَكُونُ غَنِيًّا بِقَوْلٍ مُطْلَقٍ بَلْ هُوَ مُحْتَاجٌ وَالْمَفْرُوضُ خِلَافُهُ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ:

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ أَمِنًا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ مِنْ عَصَاةِ الْح....

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

و عليه فلو كانت المعصية و الكفر و أمثالهما مضرّة به تعالى لكان محتاجاً الى دفع الضرر عن ذاته و كلّ محتاج ممكن فهو ممكن و قد فرضناه واجباً هف فلا يكون المعصية مضرّة به تعالى و هو المطلوب.

الثالثة: قوله: يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ أي يريد الله تعالى أن لا يجعل حظاً لهؤلاء المرتدين الكافرين في الآخرة ولهم عذاب عظيم، فيها بكفرهم و إرتدادهم، قال الرّازي أنّه ردّ على المعتزلة و تنصيص على أنّ الخير و الشرّ بإرادة الله، قيل في الجواب أنّه يريد الأخبار بذلك و الحكم به، قالت المعتزلة الإرادة لا تتعلّق بالعدم فالمعنى أنّه تعالى ما أراد ذلك كما قال: **وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ** و قد أجاب عنه الرّازي بأنّ الإرادة تتعلّق بالعدم بدليل الآية.

أقول هذا بعينه مصادرة بالمطلوب و الحقّ في الجواب أنّ الإرادة لم تتعلّق بالعدم المطلق بل تعلّقت بعدم جعل الحظّ لهم في الآخرة وله حظّ من الوجود في علمه تعالى هذا أولاً.

ثانياً: أنّ الإرادة أن تعلّقت بالوجود فهو من تحصيل الحاصل و أن تعلّقت بالعدم فهو محال بقولهم فلقاتل أن يقول بأيّ شيء تتعلّق و المفروض عدم الوساطة بين الوجود و العدم و الحقّ أنّ الإرادة تتعلّق بالعدم لكن لا مطلقاً بل المعدوم في الخارج و الموجود في علم المرید فاذا قلنا نريد أن نقوم ننصوّر القيام أو عدم القيام أولاً ثمّ نريد أحدهما فالإرادة تتعلّق بالقيام المتصوّر المعلوم في الذّهن أو بعدمه كذلك ثمّ بها نوجده في الخارج أو لا نوجده هذا فينا ظاهر و أمّا في الله تعالى فالإرادة تتعلّق بما هو موجود في علمه الكلام في الإرادة في موضعه إن شاء الله، و محصل الكلام أنّ المعنى أنّ الله يريد أن يحكم بحرمان ثوابهم الذي عرضوا له بتكليفهم و هو الذي يليق بمذهبنا لأنّ الإحباط عندنا باطل فالله تعالى يعاقبهم في الآخرة على سبيل الجزاء لكفرهم

ونفاقهم بعض المفسرين في هذا الكلام دلالة على تمادي طغيانهم وموتهم على الكفرو كفرهم بلغ الغاية حتى أراد أرحم الراحمين أن لا يكون لهم حظ من رحمته ومع ذلك قال ولهم عذاب عظيم، أي مضافاً الى الحرمان عن الثواب.

فأن قيل كيف قال: يُرِيدُ اللَّهُ وهذا إخبار عن كونه مريداً في حال الأخبار وإرادة الله تعالى لعقابهم تكون يوم القيامة فيلزم تخلف الإرادة عن المراد المعلوم أن تقديم الإرادة على وجه أن يكون عزمًا وتوطئاً للنفس لا يجوز عليه تعالى، قلنا عنه جوابان:

أحدهما: قال أبو علي معناه أنه سيُريد في الآخرة حرمانهم الثواب لكفرهم الذي إرتكبه.

الثاني: أن الإرادة متعلقة بالحكم بذلك وهو حاصل في حال الخطاب قاله في التبيان.

إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

اختلفوا في المراد بقوله: إِنَّ الَّذِينَ الخ على قولين:

أحدهما: أن المراد بهم الكفار وعليه فالمعنى أنهم كانوا يعرفون النبي ﷺ قبل بعثه يستفرون به على أعداءهم فلما بعث كفروا به وتركوا ما كانوا عليه فكانهم أعطوا الإيمان واخذوا الكفر بدله عنه كما يفعل المشتري من اعطاء الشيء واخذ غيره بدلاً عنه.

ثانيهما: أن المراد بهم المنافقون وذلك لأنهم متى كانوا مع المؤمنين أظهرُوا الإيمان وإذا خلوا الى شياطينهم أظهروا الكفر فكان ذلك كأنهم اشتروا الكفر بالإيمان ذكر الرازي في تفسيره والحق أن الآية على عمومها فتشمل كل من كان أو يكون كذلك الى يوم القيامة، ثم أن المفسرين فسروا الإشتراء

بالإستبدال فقالوا أي أن الذين إستبدلوا الكفر بالإيمان ومن المعلوم أن إطلاق لفظ الشراء على ذلك مجاز لكن لما فعلوا الكفر بدلاً من الإيمان شبه ذلك بشراء السلعة بالثمن وبيّن أن من فعل ذلك لا يضر الله شيئاً لأن مضرته عائدة عليه وقد تقدّم الكلام فيه وأتما كرّر قوله: **لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا**، لوجوه:

أحدها: ما ذكره الشيخ في التبيان وتبعه الطبرسي في المجمع وهو أن قوله في الآية السابقة على طريقة العلة لما يجب من التسلية عن المسارعة الى الضلالة و أمّا في هذه الآية على وجه العلة لإختصاص المصرة للعاصي دون المعصي.

ثانيها: ما ذكره الرازي وهو أنهم كانوا كافرين أولاً ثم آمنوا ثم كفروا بعد ذلك وهذا يدل على شدة الإضطراب وضعف الرأي وقلة الثبات ومثل هذا الإنسان لا خوف منه ولا هيبة له ولا قدرة له ألّبتة على إلحاق الضرر بالغير.

ثالثها: ما ذكره أيضاً وهو أنه لا شك أن أمر الدين من أهم الأمور وأعظمها ومثل هذا ممّا لا يقدم الإنسان على دفعه أو تركه إلا بعد إمعان النظر و أمّا هؤلاء فحيث أقدموا فيه بأهون الأسباب وأضعف الموجبات فلا محالة لا يلتفت العاقل اليهم لشدة حماقتهم وقلة عقلهم.

رابعها: ما ذكره أيضاً وهو أن نزاعهم معك في الدين منشأ الحسد والمنازعة في منصب الدنيا ومن كان عقله هذا القدر وهو أنه يبيع بالقليل من الدنيا السعادة العظيمة في الآخرة، لا تقدير على إلحاق الضرر بالغير فهذا هو الفائدة في إعادة هذه الآية انتهى كلامه ملخصاً.

أقول ما ذكره الرازي لا فائدة فيه أصلاً بل هو غير مرتبط بما نحن فيه لأن الآية بصدد إثبات أنهم لا يقدرّون على أن يضرّوا الله شيئاً لا أنهم لن يضرّوا غيرهم ولا شك أنهم أي الكفار أو المنافقون كانوا يقدرّون على إلحاق الضرر بغيرهم كما فعلوا بهم بأحد نعم أنهم لم يقدرّوا على الإضرار بالله تعالى وهو

أمر آخر والحاصل أنَّ الكافر قادر على الإضرار بالغير وغير قادر على الإضرار بالله و أنت ترى أنَّ ما ذكره الرّازي يدلّ على قلّة عقلهم و سفاهتهم و أنّهم عاجزون عن إلحاق الضّرر بالغير وهو أمرٌ يبطله الحسّ و العيان مضافاً الى أنّه لا ملازمة بين قلّة العقل و عدم إلحاق الضّرر بالغير وهو واضح لا خفاء فيه و الذي يخطر بالبال في حلّ الإشكال هو أنَّ الآية الأولى نزلت في حقّ المسارعين الى الكفر و معلومٌ أنَّ المستمر عليه لا يوصف بأنه مسارع في الكفر و أنّما يوصف بالمسارعة من يكفر بعد الإيمان و عليه فلا يبعد أن يكون نزول الآية في شأن المرتدين الذين إرتدّوا عن الإسلام و أقبلوا الى الكفر ثانياً بعد ما تركوه أولاً من دون تأملٍ و تدبّرٍ إذ لو تأملوا فيه لما تركوه و أنّما قلنا ذلك لأنّ المسارعة الى الشئ المبادرة اليه بسرعةٍ من دون إمعان النظر و التدبّر فيه و لذلك قيل العجلة من الشيطان لأنّها تقديم الشئ قبل وقته و حيث أنّهم سارعوا الى الكفر قال الله تعالى: **لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا** و أنّما مضرتّه عائده عليهم فإنّ الله غني عن العالمين.

و أمّا في الآية الثانية فالحكم مطلقٌ أي من رجّح الكفر على الإيمان سواء كان بالمسارعة اليه أم بالإستمرار فلن يضروا الله شيئاً، فظهر الفرق و أن شئت قلت عدم الإضرار بالله أمرٌ محقّق لا مرية فيه إلّا أنّه في الآية الأولى مقيدٌ أو مختصّ بالمسارعين في الكفر و في الثانية ناظرٌ الى مطلق الكفر و الكفار بل كلّ مخالفٍ للحقّ و ظاهر أنّ إثبات الشئ للمقيّد أو نفيه عنه لا يوجب إثباته أو نفيه للمطلق بل الأمر بالعكس هذا كلّّه مضافاً الى أنّ التكرار يفيد التأكيد و قال صاحب تفسير المنار ما هذا لفظه، قال الأستاذ الإمام (الشيخ محمّد عبده) و من فقه الأيتين علم أنّ تلك في المسارعين في الكفر و هذه في الذين إشتروا الكفر بالإيمان أي إختاروه و رضوا به كما يرضى المشتري بالسّلعَة بدلاً من الثمن و يراها بعد بذله فيها متاعاً ينتفع به بل الشأن في المشتري أن يرى ما

أَخَذَهُ أَنْفَعُ لَهُ مِمَّا بَذَلَهُ وَهَذَا الْوَصْفُ أَعَمُّ مِنَ الْأَوَّلِ وَسَاقُ الْكَلَامِ إِلَى أَنْ قَالَ
فَفِي إِعَادَةِ الْعِبَارَةِ بِهَذَا الْأَسْلُوبِ فَائِدَتَانِ.

إِحْدَاهُمَا: أَنَّ فِيهَا قِسْمًا مِنَ الْكَافِرِينَ لَمْ يَذْكُرُوا فِي الْآيَةِ الْأُولَى.

الثَّانِيَّةُ: أَنَّ فِيهَا مَعَ تَأْكِيدِ عَدَمِ إِضْرَارِهِمُ بِالنَّبِيِّ ﷺ بَيَانًا لِحَالِ مَنْ
أَحْوَالُهُمْ يَدُلُّ عَلَى سَخَافَتِهِمْ وَضَعْفِ عَقُولِهِمْ إِذْ رَضُوا بِالْكَفْرِ وَإِخْتَارُوهُ وَ
حَسَبُوهُ مَنْفَعَةً وَفَائِدَةً فَكَأَنَّهُ يَقُولُ أَنَّ هَؤُلَاءَ لَا قِيَمَةَ لَهُمْ فَيَخَافُ مِنْهُمْ أَوْ يَحْزَنُ
عَلَيْهِمْ انْتَهَى.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ
لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ

إِعلم أَنَّ الْآيَةَ كَأَنَّهَا جَوَابٌ عَنْ سُؤَالٍ مُّقَدَّرٍ وَهُوَ أَنَّ الْكَفَّارَ قَدْ يَكُونُوا
مُتَمَتِّعِينَ بِالدُّنْيَا مُنْغَمِرِينَ فِي لَذَاتِهَا قَدْ تَكُونُ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْقُوَّةِ مَا تَمَكَّنْهُمْ مِنْ
الْإِعْتِدَاءِ عَلَيْنَا كَمَا هُمْ الْآنَ كَذَلِكَ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمَالَ وَالْجَاهَ وَالْقُدْرَةَ وَ
بِالْجُمْلَةِ كُلِّ مَا يَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ نَعَمِ الدُّنْيَا سَوَاءٌ حَصَلَ لِلْمُؤْمِنِ الْمُسْلِمِ أَمْ
الْكَافِرِ الْمَعَانِدِ فَلَوْ كَانَ الْكَافِرُ مَغْضُوبًا وَالْمُؤْمِنُ مُحِبُّوبًا لَهُ تَعَالَى فَيَنْبَغِي أَنْ
يَكُونَ الْأَقْرَبُ فَازَالَ اللَّهُ هَذَا الْوَهْمَ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَامْتِثَالَهَا فَقَالَ: وَلَا يَحْسَبَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا قَرَأَ حِمْزَةً وَلَا تَحْسَبَنَّ بِالنَّاءِ وَفَتْحِ السَّيْنِ وَالْبَاقُونَ بِالْيَاءِ فَعَلَى
الْأَوَّلِ يَكُونُ الْمُخَاطَبُ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ وَعَلَى الثَّانِي فَالْمَعْنَى أَنَّ الْكَفَّارَ لَا
يَحْسِبُونَ كَذَلِكَ وَالْمَشْهُورُ بَيْنَ الْقُرَّاءِ الثَّانِي وَعَلَيْهِ فَقَوْلُهُ: يَحْسَبَنَّ فَعَلَ وَقَوْلُهُ:
الَّذِينَ كَفَرُوا فَاعِلٌ يَقْتَضِي مَفْعُولِينَ أَوْ مَفْعُولًا يَسُدُّ مَسَدَ الْمَفْعُولِينَ نَحْوُ
حَسَبْتُ فَقَوْلُهُ فِي الْآيَةِ، أَنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ يَسُدُّ مَسَدَ الْمَفْعُولِينَ
وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ^(١).

و أما على قراءة حمزة بالتاء فالمفعول الأول هو أَنْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ بَدَلْ عَنْهُ، وخير لأنفسهم هو المفعول الثاني والتقدير ولا تحسبن يا محمد إماء الذين كفروا خيراً لهم، وأما، ما، في قوله: أَنَّمَا فَعِيلٌ أَنَّهُ بِمَعْنَى، الَّذِي فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ الَّذِي نُمَلِّيه خَيْرٌ لَّأَنْفُسِهِمْ وَحَذْفُ الْهَاءِ مِنْ، نَمَلِّي، لَأَنَّهُ يَجُوزُ حَذْفُ الْهَاءِ مِنْ صَلَّةِ، الَّذِي، كَقَوْلِكَ الَّذِي رَأَيْتَ زَيْدَ وَقِيلَ أَنَّ مَا مُصَدَّرَةٌ وَالتَّقْدِيرُ أَنَّ إِمْلَاتِي لَهُمْ خَيْرٌ وَهَذَا هُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ صَاحِبُ الْكَشَافِ قَالَ، مَا مُصَدَّرَةٌ بِمَعْنَى وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ إِمْلَاؤَنَا خَيْرٌ وَكَانَ حَقُّهَا فِي قِيَاسِ عِلْمِ الْخَطِّ أَنَّ تُكْتَبَ مَفْصُولَةٌ وَلَكِنَّهَا وَقَعَتْ فِي الْأَمَامِ مُتَّصِلَةٌ فَلَا يَخَالِفُ وَتَتَّبِعُ سَنَةَ الْأَيَّامِ فِي خَطِّ الْمَصَاحِفِ (مَقْصُودُهُ مِنَ الْإِمَامِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ) وَأَمَّا، مَا، فِي قَوْلِهِ: إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا فَحَقُّهَا أَنَّ تُكْتَبَ مُتَّصِلَةٌ لِأَنَّهَا كَافَّةٌ دُونَ الْأَوَّلَى إِذَا عُرِفَتْ هَذَا فَلَنَرْجِعَ إِلَى تَفْسِيرِ الْآيَةِ فَنَقُولُ قَدْ مَرَّ فِي شَرْحِ اللُّغَاتِ أَنَّ الْإِمْلَاءَ، الْإِمْهَالَ وَذَلِكَ لِأَنَّ مَعْنَى، نَمَلِّي، نَطِيلٌ وَنَوَخَرُ وَنَقْلُ عَنْ الْوَاحِدِيِّ أَنَّ إِشْتِقَاقَهُ مِنَ الْمَلُوءَةِ وَهِيَ الْمُدَّةُ مِنَ الزَّمَانِ يُقَالُ مَلُوتٌ مِنَ الدَّهْرِ مَلُوءٌ وَمَلُوءَةٌ وَمَلَاوَةٌ بِمَعْنَى وَاحِدٍ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ يُقَالُ أَمَلًا عَلَيْهِ الزَّمَانُ أَيُّ طَالَ، وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ سَنَةَ اللَّهِ قَدْ جَرَتْ فِي الْاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَبْلُغُ الْخَيْرَ بِعَمَلِهِ الْحَسَنِ وَيَقَعُ فِي الضَّرِيرِ بِتَقْصِيرِهِ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَتَشْمِيرِهِ فِي عَمَلِ السَّيِّئَاتِ وَالْعِبْرَةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْخَوَاتِيمِ فَكَأَنَّهُ قَالَ أَنَّ هَذَا إِمْلَاءٌ لِلْكَافِرِينَ وَلَيْسَ عِنَايَةً مِنَ اللَّهِ بِهِمْ وَإِنَّمَا هُوَ جَرَى عَلَى سَنَنِهِ فِي الْخَلْقِ وَهِيَ أَنْ يَكُونَ مَا يُصِيبُ الْإِنْسَانَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ هُوَ ثَمَرَةُ عَمَلِهِ مُقْتَضَى هَذِهِ السَّنَةِ الْعَادِلَةِ أَنْ يَكُونَ الْإِمْلَاءُ لِلْكَافِرِ عِلَّةً لِعُزْرِهِ وَسَبَباً لِاسْتِرْسَالِهِ فِي فَجْوَهِهِ فَيُوقَعُ ذَلِكَ فِي الْإِثْمِ الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْعَذَابُ الْمُهِينُ هَكَذَا قَرَّرَهُ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ وَنَحْنُ نَشْرَحُ أَلْفَاظَ الْآيَةِ وَنَقُولُ فِيهَا مَا هُوَ الْحَقُّ عِنْدَنَا وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنْفُسِهِمْ

أي أن الخير ليس في الإمهال وإرخاء العنان للإنسان ليعمل بحسب إستعداده وميله ما يشاء وذلك لأن هذه سنة الله في جميع البشر حيث أنهم يقولون و يفعلون ما يشاؤون و يختارون لأنفسهم في حياتهم ما يريدون وإنما الخير للإنسان يكون في الإملاء وطول الأجل مع التمكن من العمل الصالح إذا كان يزداد فيه لينتفع به في نفسه ويرتقي به في الأخلاق العالية والصفات الفاضلة وينفع به الناس في تهذيب أنفسهم وتحسين معيشتهم هذا هو الخير والصالح والسعادة الكفارة والمشركون وأمثالهم ممن حذى حذوهم في القول والعمل وأن كانوا من المسلمين فأنهم لا يزدادون بجهلهم وسوء إختيارهم إلا الإثم والذنب والطغيان بالتمادي في مكابرة الحق، والإسترسال في الفسق وتأييد سلطان الشرفي الخلق والظلم على الناس بغصب حقوقهم وهتك أعراضهم وغير ذلك من الأمور أن قلت إذا كان الإمهال والإملاء في الدنيا سبباً و باعثاً للطغيان والذنب فهو مذموم في نفسه فعدمه أولى من وجوده ولازم ذلك أن لا يستله العبد من الله لكونه موجباً للمعصية والبعد عن مقام القرب، قلت ليس الأمر على ما زعمت وذلك لأن الإمهال من الله تعالى للعبد من أحسن النعم إذ به يتمكن من التوبة والعمل الصالح وقضاء ما فات منه من الخيرات وهكذا كما يتمكن ويقدر على إزدياد الذنب والعصيان فنفس الإمهال منه تعالى لا ضير فيه وإنما الضير في سوء الإستفادة منه وإلى هذه الدقيقة قال: **وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا تُعْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ وَلَمْ يَقُلْ وَلَا يَحْسِبَنَّ الْإِنْسَانُ مَثَلًا** وذلك لأن الكافر بسوء سريرته وخبث طينته وبعده عن الإيمان والمعرفة يسلك مسلك الشيطان ويتبع الهوى فيتضرر بالنعمة التي أنعمها الله عليه بإختياره وإرادته ومن المعلوم أن كيفية الإستفادة من النعمة بيد العبد وأن كان أصلها بيد الله وبعبارة أخرى الإمهال أو كل نعمة من النعم من الله تعالى إفاضاته على العبد هو خير قطعاً إذ لا يصدر منه تعالى

شر اصلاً واما صرف النعمة فهو بيد العبد المختار ان شاء صرفها في الطاعة و ان شاء في المعصية ولذلك قال الله تعالى: **إِنَّمَا نُكَلِّمُ لَهُمْ** اى نملى ونمهل للكفار فى الدنيا ليكون فوجبا لازياد الاثم لهم ففي هذا الكلام إخبار منه تعالى بأن الكفار لا يصرفون النعمة إلا في طريق المعصية فلا يكون الإمهال لهم سبباً وموجباً لتنبههم وتيقظهم من نوم الغفلة بل يصير باعثاً لغرورهم وعجبهم وإنهماكهم في المعاصي فكلما يكون الإمهال لهم أكثر يكون المعاصي أكثر وهذا هو الداء الذي لا دواء له إلا يرجعون الى الحق وحيث أن كثرة النعمة والإمهال في الدنيا غرتهم فلا محالة لا يرجعون عما هم عليه ولا ينتبهون وإذا كانوا كذلك فلهم عذاب مهين في الآخرة بسبب أعمالهم في الدنيا التي صدرت عنهم باختيارهم وإرادتهم وماربك بظلام للعبيد وحيث إنجر الكلام الى هنا فلا بأس بنقل ما إستفاده الرّازي من الآية تبعاً لغيره من الأشاعرة والجواب عنه قال:

المسألة الخامسة: إحتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة القضاء والقدر من وجوه:

الأول: أن هذا الإملاء عبارة عن إطالة المدّة وهى لا شك أنها من فعل الله تعالى والآية نصّ في بيان أن هذا الإملاء ليس بخير وهذا يدلّ على أنه سبحانه فاعل الخير والشر انتهى.

والجواب أن الآية ليست نصّاً في أن الإملاء ليس بخير بل الآية نصّ في أن الكفار يصرفونه في الشر وهو لا ينافي أن يكون في حدّ ذاته خيراً كما هو كذلك ففاعل الشر أنما هو العبد بعمله وفعله والله تعالى منزّه عنه.

قال الثّاني: أنه تعالى نصّ على أن المقصود من هذا الإملاء هو أن يزدادوا الإثم والبغي والعدوان وذلك يدلّ على أن الكفر والمعاصي بيد الله وإرادته ثمّ أنه تعالى أكّد ذلك بقوله: **وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ** أي أنما نملى لهم ليزدادوا إثماً وليكون لهم عذاب مهين.

والجواب عنه هو أَنَّ اللَّهَ تعالى عالم بأنَّهم سيفعلون كذلك و بعبارة أخرى أَنَّ اللَّهَ يعلم بأنَّ الإمهال لهم يكون موجباً لإزدياد الإثم فيهم و أمَّا أَنَّ علمه به يكون سبباً و علّة لعصيانهم فهو أوّل الكلام و على المدّعى الإثبات و عليه فقله أنّه تعالى نصّ على أَنَّ المقصود من هذا الإملاء هو أن يزدادوا الإثم و البغي ليس في محلّه وحقّ العبارة أن يقال أنّه تعالى نصّ على أَنَّ المعلوم من هذا الإملاء هو إزدياد الإثم و ذلك لأنّ قصد الإثم منه تعالى قبيح فأنّ قصد الإثم إثم من وجه و هو تعالى منزّه عنه فالكفر والمعاصي بيد العبد و بإرادته و أن كان معلوماً له تعالى قبل الوجود.

قال الثّالث: أنّه تعالى أخبر عنهم أنّه لا خير لهم في هذا الإملاء و أنّهم لا يحصلون إلّا على إزدياد البغي والطّغيان والإتيان بخلاف فخير الله تعالى مع بقاء ذلك الخير جمع بين التّقيّضين و هو محال و إذا لم يكونوا قادرين مع ذلك الإملاء على الخير والطّاعة مع أنّهم مكلفون بذلك لزم في نفسه بطلان مذهب القوم.

والجواب عنه أنّ الأخبار عنهم بأنّه لا خير لهم في هذا الإملاء و أنّهم لا يحصلون إلّا على إزدياد البغي والطّغيان ليس معناه أنّ الفاعل هو الله تعالى دون العبد و الألزم أن يكون كلّ مخبر عن شيء محقق الوقوع فاعلاً له و لا يقول به عاقل فضلاً عن عالم ألا ترى أنّه لا يصحّ إسناد الفعل إلى المخبر عنه بل يسند إلى فاعله المباشر له و أمّا قوله و الإتيان بخلاف مخبر الله مع بقاء الخير جمع بين التّقيّضين فهو أشبه شيء بالسّفسطة و ذلك لأنّ الإتيان بالفعل خلاف المعلوم لا أنّه جمع بين الفعل و التّرك حتّى يقال أنّه جمع بين التّقيّضين، و أمّا قوله و إذا لم يكونوا قادرين مع ذلك الإملاء على الخير والطّاعة الخ فالجواب أنّهم قادرون مع ذلك الإملاء على الخير كغيرهم من المؤمنين القادرين إلّا أنّهم أي الكفّار بإختيارهم وإرادتهم أعرضوا عن الخير و أقبلوا على الشرّ لا أنّهم لم

يكونوا قادرين على الخير، أليس يزيد بن معاوية قادراً على أن لا يأمر بقتل الحسين أليس عمر بن سعد و شمر و أمثالهما من الأشرار قادرين على ترك القتال كما تركه حرّ بن يزيد الرّياحي ولحقّ بالحسين وأصحابه أليس أبوسفیان قادراً على ترك القتال والمناجزة وهكذا وهكذا ألا ترى أنّ النّجاشي كان من الكفّار وقد كان الله تعالى أملى عليه وهو مع ذلك أسلم وحسن إسلامه ولم يكن الإماء في حقّه موجباً لإزدياد الإثم بل كان موجباً لإزدياد الطّاعة وكم له من نظير في التّاريخ بل وفي زماننا هذا فليس كلّ من أملى الله عليه أثماً طاعياً والآية أيضاً لا تدلّ عليه بل تدلّ على أنّ بعض الكفّار أو أكثرهم كذلك فإنّ الحكم دائماً يكون باعتبار الأغلب وهذا واضح لا خفاء فيه هذا كله بناءً على ما سلكه القوم في تفسير الآية من أنّها مختصّة بالكافرين أعني بهم من لا يؤمن بالله وبرسوله وبعبارة أخرى إختصاصها بالكافر المصطلح وأمّا قالوا عممنها وقلنا أنّ المراد بالكافرين فيها الكافرين بالمعنى الأعم لتشمل الكافرين بالنّعم الإلهيّة أيضاً وأن يكونوا مسلمين بحسب العرف فدائرة المعنى تكون أوسع و أشمل وهذا ممّا لا إشكال فيه بحسب اللفظ اذ لم يدلّ دليل على إرادة الخصوص منها إلّا كونها في سلك الآيات الواردة في غزوة أحد و ظاهر أنّه لا يكفي في إرادة الخصوص منها وذلك لأنّ نظير الآيات ليس على ترتيب نزولها فمن المحتمل عدم نزولها في قصة احد ويؤيد هذا الاحتمال أنّ الآية بصدد بيان حكم آخر لا ربط له بما وقع في احد من الكفار والمشرّكين نعم أمّا تشتمل الكفّار على سبيل العموم فلا فيكون بعض الكفّار في احد منهم مصدوماً و اين هو من اختصاصها بهم وقد بعث أنّ لفظ العامّ يحمل على عمومهِ إلّا أنّ يدلّ دليل على إرادة الخصوص منه المعبر عنه بالمخصّص متصلاً كان أو منفصلاً واذ ليس في المقام من المخصّص عين ولا أثر فالقاعدة تقتضي حمل لفظ العامّ على عمومهِ فالمراد بالكافرين في الآية كلّ الكفّار على

إختلاف أصنافهم حتّى الكافرين بالنعم لصدق الكفر عليهم بحسب اللّغة المطلوب اذا عرفت هذا فنقول أنّ الله تعالى قد أخبر بهذه الآية أنّ الإملاء والإمهال لأولياء النعم في درا الدّنيا لا يكون خيراً لأنفسهم لأنّ الكافر بالنعمة لا يصرفها إلّا في طريق المعصية فلا محالة يزداد بعمله إثماً فوق إثم و معصية فوق معصية فلا ينبغي له أن يغترّ بها ويظنّ أنّ نفس الإملاء خير له وذلك لأنّه للمؤمن خير وللکافر شرّ في الأغلب وليس معنى هذا الكلام أنّ الله تعالى أراد من الكافر شرّاً ومن المؤمن خيراً على سبيل الجبر والإكراه كما قالت الأشاعرة بل المعنى أنّهم يكونون كذلك نوعاً فهو إخبار منه تعالى بما سيقع عنهم على سبيل الإختيار لا إجبار وإكراه على الفعل.

قال الله تعالى: لَنُؤْتِيَنَّكَ مِنْ لَدُنْكَ وَنَنبَذُكَ عَنْ عَذَابِي لِشَدِيدٍ^(١).

قال الله تعالى: وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ^(٢).

قال الله تعالى: وَمَنْ عَمِلْ ضَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ^(٣).

فهذه الآيات وأمثالها قد دلّتنا على أنّ مصير الكفر بأيّ معنى كان الى العذاب والنكال وما نحن فيه أيضاً من هذا القبيل فالقول بأنّ الله أمهلهم في النعمة ليكون لهم عذاب مهيّن لا نفهم معناه بل نشم منه رائحة الكفر والإلحاد لو أريد منه سلب الإختيار عن العبد نعم لو أريد منه أنّ مصيره اليه بإختياره وإرادته فهو حقّ وسيأتى الكلام في هذه المباحث في المستقبل بوجه أبسط



مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ
 حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ
 لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ
 رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ
 تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَلَا
 يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
 هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا
 بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَ
 الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)

◀ اللغة

لِيَذَرَ: يَذَرُ الشَّيْءُ أَي يَقْذِفُهُ لِقَلَّةِ إِعْتِدَادِهِ بِهِ وَلَمْ يَسْتَعْمَلْ مَاضِيَهُ.
 يَجْتَبِي: فَعْلٌ مُضَارِعٌ مِنْ اجْتَبَى وَالْمَصْدَرُ مِنْهُ، الْاجْتِبَاءُ وَمَعْنَاهُ الْإِخْتِيَارُ
 لَأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ جَبِيئِ الْمَاءِ فِي الْحَوْضِ جَمْعَتُهُ.
 سَيُطَوَّقُونَ: أَصْلُ الطَّوْقُ مَا يَجْعَلُ فِي الْعُنُقِ خَلْقَةً كَطَوَقِ الْحَمَامِ أَوْ صَنْعَةً
 كَطَوَقِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَيَتَوَسَّعُ فِيهِ فَيُقَالُ طَوَّقْتَهُ كَذَا كَقَوْلِكَ قَلَّدْتَهُ وَذَلِكَ عَلَى
 التَّشْبِيهِ.
 مِيرَاثُ: الْمِيرَاثُ تَرَكَةُ الْمَيِّتِ.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

◀ الإعراب

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ خَيْرَ كَانَ مَحذُوفٌ تَقْدِيرُهُ مَا كَانَ اللَّهُ مَرِيداً لِأَن يَذَرَ وَلَا
 يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخَيْرُ، لِيَذَرَ، لِأَنَّ الْفِعْلَ بَعْدَ اللَّامِ يَنْتَصِبُ بِأَنْ فَيَصِيرُ التَّقْدِيرُ، مَا
 كَانَ اللَّهُ لِيَتْرَكَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَخَيْرَ كَانَ هُوَ إِسْمُهَا فِي الْمَعْنَى وَ

ليس التَّرك هو الله تعالى يَمِيزُ بَسْكونِ الياء من مَازَ وبتشديدِها من مَيرَها بمعنى واحد التشديد لتعدي الفعل مثل فرح وفرحته لأن ماز وميز يتعديان الى مفعول واحد ولا يَحْسَبَنَّ يقرأ بالياء على الغيبة الَّذِينَ يَتَخَلَّوْنَ الفاعل و في المفعول الأول وجهان:

أحدهما: هو و هو ضمير البُخل الذي دَل عليه يبخلون.

الثاني: هو محذوف تقديره البُخل وهو على هذا فصل، و يقرأ تحسبن بالتاء على الخطاب والتقدير ولا تحسبن يا محمد، فحذف المضاف وهو ضعيف مبرأث والأصل فيه، موارث، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها والميراث مصدر كالميعاد.

◀ التفسير

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ إختلفوا في المخاطب بقوله، أنتم، على أقوال:

أحدها: أن الخطاب للكفار والمنافقين وعليه فالمعنى ما كان الله مريداً ليذر المؤمنين ويدعهم، على ما أنتم عليه، يا أهل الكفر من الإبهام واشتباه المخلص بالمنافق ذهب اليه ابن عباس والضحاك ومقاتل والكلبي وأكثر المفسرين من العامة والخاصة نقل عن الكلبي أنه قال أن قريشاً من أهل مكة قالوا للنبي ﷺ الرجل منا تزعم أنه في النار، وأنه اذا ترك ديننا واتبع دينك قلت هو من أهل الجنة فأخبرنا عن هذا من أين هو وأخبرنا من يأتيك مثالم يأتيك فأنزل الله عز وجل: مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّفَاقُ حَتَّى يُمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ.

ثانيها: أنه خطاب للمشركين والمراد بالمؤمنين في قوله: لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ من في الأصلا ب والأرحام ممن يؤمن، أي ما كان الله ليذر أولادكم الذين حكم لهم بالإيمان على ما أنتم عليه من الشرك حتى يفرق بينكم و

بينهم وعلى هذا فقوله: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ كَلَامَ مُسْتَأْنَفٍ وهو أيضاً قول ابن عباس وكثير من المفسرين.

ثالثها: الخطاب للمؤمنين أي وما كان الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من اختلاط المؤمن بالمنافق حتى يعنى بينكم بالحسنة والى كيف فتعرفوا المنافق الخبيث والمؤمن الطيب وهذا قول اكثر اهل المعانى.

رابعها: أنه خطاب للمسلمين جميعاً من المخلص والمنافق كأنه قال ما كان لينذر المخلص منكم على الحال التى انتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض فهذه هى الاقوال المنقولة فى المخاطب بها والله اعلم.

قل كان الكفار والمنافقون كانوا يستهزؤون بالمؤمنين سرّاً فقال الله تعالى لا يدعكم أيها المؤمنون على ما أنتم عليه أو لا يدعكم أيها الكفار على ما أنتم عليه من الطعن فيهم والإستهزاء ولكن يمتحنكم لتفتضحوا ويظهر نفاقكم عندهم لا في دار واحدة ولكن يجعل لهم داراً أخرى يميز فيها الخبيث من الطيب فيجعل الخبيث فى النار والطيب.

فى الجنة كما أن يميزهم فى الدنيا بالهجرة والجهاد، وقال بعض أن تمييز أحدهما عن الآخر أنما يكون بإخراج أحدهما من صلب الآخر واللام فى قوله: لِيَذَرَ لَامَ الْجُمُودِ وكيف كان ففي الآية إشارة أما أولاً فبأن الله تعالى لا يذر المؤمن أي لا يدعه ولا يتركه فى الدنيا والآخرة بل هو دائماً يكون مشمولاً لعنايته ولطفه.

ثانياً: أن الله يميز الخبيث من الطيب فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فبالامتحان والابتلاء والطاعة والعصيان وأما فى الآخرة فبالعقاب والثواب والجنة والنار ثم أن الخبيث والمخبث على ما قاله الراغب فى المفردات ما يكره رداءة وخساسة محسوساً كان أو معقولاً وذلك يتناول الباطل فى الاعتقاد والكذب فى المقال والقيبح فى الفعال وقال فى معنى الآية أي الأعمال الخبيثة من الأعمال الصالحة والنفس الخبيثة من النفوس الزكية انتهى.

قال الله تعالى: قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ^(١) أَي الكافر والمؤمن والأعمال الفاسدة والأعمال الصالحة.

قال الله تعالى: وَ مِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ^(٢)

قال الله تعالى: الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ^(٣).

قال الله تعالى: وَلَا تَتَّبِعُوا الْاُخْبِيثَ بِالطَّيِّبِ^(٤) والآيات كثيرة.

وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء أي ما كان الله ليطلعكم على الغيب حتى تعرفوا الخبيث قبل الإمتحان.

وفي هذا الكلام إشارة الى نقطة خفية وهى أنه كما إقتضت المصلحة الإلهية والحكمة الربانية أن لا يدع الله المؤمن كذلك إقتضت أن لا يطلعه على الغيب ليعرف ما في قلوب الناس قبل إظهارهم له أو يعرفهم بأشخاصهم و أعيانهم في الخباثة وعدمها وذلك لأن الوقوف على الضمائر والإطلاع على المغيبات يوجب إختلال النظام بالكيفية ولذلك قال الله، ولا يظهر على غيبه أحداً: قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ^(٥) وغيرها من الآيات والمراد بالغيب كل ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداية العقول تكلمنا فيه فى سورة البقرة وسيأتى الكلام فيه فى المستقبل إن شاء الله وأما قوله: وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فمعناه أن الله يختار ويصطفى من رسله من يشاء، فيطلعه على ما شاء من المغيبات فوقع، لكن، هنا لكون ما بعدها ضدّاً لما قبلها فى المعنى إذ تضمن إجتباء من شاء من رسله إطلاعه أياه على ما أراد تعالى من علم الغيب فإطلاع الرسول عليه أتما هو بإطلاع الله أياه بوحي أو إلهام، قال الزجاج وغيره.

روي أن بعض الكفار قالوا لم لا يكون جميعنا أنبياء فنزلت، وقيل قالوا لم لم يُوحَ إلينا في محمد فنزلت، أقول كل هذه الوجوه محتمل ولكن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى هو الذي يميز بين الخبيث والطيب فأخبر أنكم لا تدركون ذلك ولا تقدرُونَ على التمييز وذلك لأن الله لم يطلعكم على ما أضمرته القلوب من الإيمان والتفائق ولكنه تعالى يختار من رسله من يشاء فيطلعه على ذلك فتطلعون عليه من جهته.

قال السدي أنه تعالى حكم فيها بأنه يظهر هذا التمييز ثم بين أنه لا يجوز أن يجعل هذا التمييز في عوام الناس بأن يطلعهم على غيبه فيقولون أن فلاناً منافق وفلاناً مؤمن بل سَنَّ الله جرت بأن لا يطلع عوام الناس على الغيب فلا سبيل لهم إلى معرفة ذلك إلا بالامتحان فأما معرفة ذلك على سبيل الإطلاع على الغيب فهو من خواص الأنبياء ولهذا قال ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء، فخصهم بإعلامهم أن هذا مؤمن وهذا منافق.

فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ

الفاء في قوله: فَأْمِنُوا للتفريع أي إذا كان الأمر على هذا المنوال فآمنوا بالله ورسله فإن أمنتُم به وبما جاء من عند الله من المغيبات وقرنتم بالإيمان تقوى الله بترك المنهيات وفعل المأمورات بقدر الإستطاعة والقدرة فلکم عند الله أجرٌ عظيمٌ، قال صاحب الكشف في معنى الآية، أي بأن تقدروه حق قدره و تعلموه وحده مطلعاً على الغيوب تنزلوهم منازلهم بأن تعلموهم عبداً مجتبيين لا يعلمون إلا ما علظمهم الله ولا يخبرون إلا بما أخبرهم الله من الغيوب و ليسوا من علم الغيب في شيء انتهى.

أقول ما ذكره الزمخشري لا بأس به إلا أنه أمرٌ قد فرغنا عنه في مباحث الاعتقادية إذ لم يقل أحد من العقلاء فضلاً عن المؤمنين أن الأنبياء كانوا عالمين بالغيب من عند أنفسهم وذلك لأنه قد ثبت في محله أن المخلوق

كائنًا من كان لا يقدر على شيء إلا يحول الله وقوته فكما أنّ وجوده من إفاضات جوده تعالى كذلك صفاته من إفاضات الحق فهو لا يقدر إلا على، أقدر الله عليه ولا يعلم إلا ما علمه الله به وهذا حكم عام في حق جميع العباد فيشتمل الانبياء قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ^(١) أي انتم الفقراء من جميع الجهات فحمل الآية على ما حملها عليه من أنّ الله تعالى وحده مطلع على الغيوب و تنزيل الانبياء منازلهم أن كان من باب حمل الكلام على أحد المصاديق فهو وإلا فلا دليل على الإختصاص والحق حمل الآية على العموم وأنها بصدد بيان حسن الإيمان بالله ورسوله من حيث الأجر والمثوبة الأخروية والإعتقاد بأنّ كلّما جاء به الرسول فهو حق لا مرية فيه حكم عام في جميع الرسل أي أنّ المسلم كما يجب أن يعتقد ويؤمن برسول الإسلام وما جاء به من عند الله من الأحكام كذلك يجب أن يعتقد ذلك في حق غيره من الرسل بمعنى أنهم أيضاً كانوا من رسل الله فلا يفرق بين أحد من رسله من هذه الجهة أي جهة الرسالة وأنهم لم ينطقوا عن الهوى و لأجل هذه الدققة قال: فَأَمِينُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، ولم يقل ورسوله:

قال الله تعالى: وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ^(٢).

و حيث أنّ العوام يفهمون من الإيمان، الإعتقاد القلبي المجرّد عن العمل، قال تعالى: وَإِنْ تَوَلَّيْنَا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ فقرن الإيمان بالتقوى أعني فعل الواجبات وترك المنهيات، للدلالة على أنّ الأجر والثواب عند الله على الإيمان المقرون بالتقوى لا الإيمان المجرّد وهو الأمر القلبي الساذج البسيط كما هو معتقد العامة هذا ما وصل اليه فهمنا القاصر في تفسير الآية.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ

البخل بضم الباء إمساك المُقتنيات عما لا يحق حبسها عنه ويُقابله الجود، هكذا فسرهُ الرَّاغب في المفردات، وفضل الزيادة عن الإقتصار و قد مرَّ الكلام فيه إعلم أنَّ الآية نزلت في ذم البخل في الشريعة المقدسة وذلك لأنه من القبايح العقلية والصفات الرديئة الذميمة وقد قال رسول الله ﷺ: بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ بَلْ قِيلَ أَنَّ قُبْحَهُ مِنَ الْمُسْتَقْلَاتِ الْعَقْلِيَّةِ قَبْلَ حَكْمِ الشَّرْعِ كَالظُّلْمِ وَالْكَذِبِ وَالْخِيَانَةِ وَغَيْرِهَا وَكَيْفَ كَانَ لاشْكَ فِي أَنَّهُ مِنْ أَقْبَحِ الصِّفَاتِ عَقْلًا وَشَرْعًا وَقَدْ وَرَدَتْ فِي ذَمِّهِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْصَى.

قال الله تعالى: الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ^(١)

قال الله تعالى: الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْخَمِيدُ ^(٢) وغيرها من الآيات.

وقال رسول الله ﷺ: إِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَائِهِمْ وَأَسْتَحْلَوْا مَحَارِمَهُمْ إِنَّتَهُيْ.

وقال ﷺ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيلٌ وَلَا خَبٌّ وَلَا خَائِنٌ وَلَا سَيِّئُ الْمَلَكَةِ، إِنَّتَهُيْ.

وقال ﷺ: الْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ وَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَابِدٍ عَالِمٍ بَخِيلٍ وَأَدْوَى الدَّاءِ الْبُخْلُ، إِنَّتَهُيْ.

ثمَّ أَنَّ الْمَشْهُورَ بَيْنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْبُخْلِ فِي الْمَقَامِ هُوَ الْبُخْلُ عَنْ إِدَاءِ الزَّكَاةِ.

عن الكافي بأسناده عن محمد بن مسلم قال سألتُ أبا عبد الله عن

قول الله عز وجل: سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ التَّقِيَمَةِ فقال يا مُحَمَّد ما من أحدٍ منع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله عز وجل ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوّقاً في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب ثم قال قول الله عز وجل: سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ التَّقِيَمَةِ يعني ما بخلوا به من الزكاة انتهى.

وبأسناده عن عبد الله بن سنان عنه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: ما من ذي زكاة مالٍ نخلٍ أو زرعٍ أو كرمٍ يمنع زكاة ماله إلا قلّده الله تربة أرضه يطوق بها من سبع أرضين إلى يوم القيامة انتهى و عن عبيد بن زرارة قال سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول ما من عبدٍ يمنع درهماً في حقّه إلا أنفق أثنتين في حقّه وما من رجلٍ يمنع حقاً من ماله إلا طوّقه الله عز وجل به حية من نار يوم القيامة انتهى. وبأسناده عن أيوب بن راشد قال سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: مانع الزكاة يطوق بحية قرعاء تأكل دماغه وذلك قوله عز وجل: سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ التَّقِيَمَةِ.

وبأسناده عن حريز قال قال أبو عبد الله ما من ذي مالٍ ذهبٍ أو فضةٍ يمنع زكاة ماله إلا حبسه الله يوم القيامة بقاع قرقر وسلط الله عليه شجاعاً أقرع يُريده وهو يحيد عنه فاذا رأى أنه لا يتخلص له منه أمكنه من يده فقضمها كما يقضم الفحل ثم يصير طوقاً في عنقه وذلك قوله عز وجل: سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ التَّقِيَمَةِ وما من ذي مالٍ إبلٍ أو غنمٍ أو بقرٍ يمنع زكاة ماله إلا حبسه الله يوم القيامة بقاع قرقر يطأه كلّ ذات ظلف بظلفها وتنهشه كلّ ذات ناب بنابها وما من ذي مالٍ نخلٍ أو كرمٍ أو زرعٍ يمنع زكوتها إلا طوّقه الله ريقه أرضه إلى سبع أرضين إلى يوم القيامة انتهى.

أقول الأحاديث في الباب كثيرة من أراد الإطلاع على أكثر مما نقلناه فعليه بالمطولات من كتب الأخبار.

و أما أهل السنة فأنهم أيضاً سلكوا ما سلكناه في تفسير الآية و قالوا أنها نزلت فيمن منع زكاة ماله قال القرطبي و معنى: **سَيُطَوَّقُونَ مَا يَخْلُوْنَ بِهِ** هو الذي ورد في الحديث عن ابى هريره عن النبي ﷺ قال من آتاه الله مالاً فلم يودّ زكاة مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زيتبان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزئته فيقول انا مالك انا كنزك ثم تلى هذه الآية **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ** أخرجه الناس و خرّجه ابن باجة عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال ما من أحدٍ لا يؤدّي زكاة ماله إلا مثل له يوم القيامة شجاع أقرع حتى يطوق به في عنقه ثم قرأ علينا مصداقه من كتاب الله **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ** و قال الطبري القراءة بالتاء أولى من قراءته بالياء لأن المحسبة من شأنها طلب إسم وخبر، فاذا قرأ **وَلَا يَحْسَبَنَّ** بالياء لم يكن للمحسبة إسم يكون قوله هو خيراً لهم خيراً عنه، وإذا قرأ بالتاء كان قوله: **الَّذِينَ يَبْخُلُونَ** إسماً له قد أدي عن معنى البخل الذي هو خيراً لهم خيراً لها فكان جارياً مجرى المعروف من كلام العرب الفصيح فلذلك اخترنا القراءة بالتاء و أن كانت القراءة بالياء غير خطأ ولكنه ليس بالأفصح و الأشهر من كلام العرب ثم قال و أما تأويل الآية الذي هو تأويلها على ما اخترنا من القراءة في ذلك، و لا تحسبن يا محمد، بخل الذين يبخلون بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال فلا يخرجون منه حق الذي فرضه عليهم من الزكاة هو خيراً لهم عند الله يوم القيامة بل هو شرّ لهم عنده في الآخر كما حدّثنا محمد بن الحسين قال ثنا أحمد بن المفضل قال، ثنا، أسباط عن العدي **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ** هم الذين أتاهاهم الله من فضله فبخلوا أن ينفقوها في سبيل الله و لم يؤدّوا زكاتها انتهى.

ثم قال في قوله تعالى: سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يعني سيجعل الله ما بخل به المانعون الزكاة طوقاً في أعناقهم كهيئة الأطواق المعروفة انتهى.

وقد ذكر الطبري روايات كثيرة في هذا الباب لا نحتاج الى نقلها ومن أراد الإطلاع عليها فليراجعه وتبعه على ذلك غيره من مفسري العامة كالسيوطي في الدر المنثور والقرطبي والزمخشري وأمثالهم فتحصل ممّا ذكرناه إتفاق الفريقين على أنّ المراد بالآية مانع الزكاة فأنّه الذي سيطوقه يوم القيامة فأبخل به وأما ما نقله الطبري عن بعضهم وهو أنّه تعالى عنى بذلك اليهود الذين بخلوا أن يبينوا للناس ما أنزل الله في التوراة من أمر محمد ﷺ ونعته ثم ذكر رواية عن ابن عباس أنّه قال يعني بذلك أهل الكتاب أنّهم بخلوا به أن يبينوه للناس، فهو بعيد غاية البعد.

وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

أي لله تعالى وحده على وجه الإنحصار ميراث السموات والأرضين، و الميراث مصدر كالميعاد وأصله موارث فقلبت الواو ياء لأنكسار ما قبلها و المراد به ما يتوارث والكلام جار على حقيقته ولا مجاز فيه وقد ذكروا في معنى الكلام أقولاً:

أحدها: أنّه تعالى له ملك جميع ما يقع من إرث في السموات والأرض و أنّه هو المالك له حقيقة فكلّ ما يحصل لمخلوقاته ممّا ينسب اليهم ملكه هو ماله حقيقة وإذا كان هو ماله فما لكم تبخلون بشيء أنتم متمتعون به لا مالكوه حقيقة كما قال تعالى وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه.

ثانيهما: أنّه خبر لفناء العالم وأن جميع ما يخلقونه فهو وارثه وهو خطاب على ما يفهم البشر دلّ على فناء الجميع وأنّه لا يبقى مالك إلا الله وأن كان ملكه على كلّ شيء لم يزل.

ثالثها: ما ذكره بعض المتأخرين وهو أنه له وحده جميع ما في السموات والأرض مما يتوارثه الناس فينتقل من واحد إلى آخر لا يستقر في يد ولا تسلم التصرف فيه لأحد إلى أن يفني جميع الوارثين والموروثين ويبقى المالك الحقيقي وهو الله رب العالمين.

أقول الأقوال مرجعها إلى قول واحد وهو أنه تعالى قد أخبر ببقاء دوام ملكه في الأبد كهو في الأزل غني عن العالمين فيرث الأرض بعد فناء خلقه و زوال أملاكهم فجري هذا مجرى الورثة في عادة الخلق ومنه يعلم أنه ليس هذا بميراث في الحقيقة لأن الوارث في الحقيقة هو الذي يرث شيئاً لم يكن ملكه من قبل والله سبحانه وتعالى مالك السموات والأرض والأموال عارية عند أربابها فإذا ماتوا ردت العارية إلى صاحبها الذي كانت له في الأصل ونظير هذه الآية قوله تعالى: **إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا**^(١) فالمعنى أن الله تعالى أمر عباده لأن ينفقوا ولا ييخلوا قبل أن يموتوا ويتركوا ذلك ميراثاً لله تعالى ولا ينفعهم إلا ما أنفقوا **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** أي أنه تعالى عالم بأخبار أعمالكم وقيل أي عالم ببواطن أموركم وقيل، خبير، بمعنى مخبر، كقوله تعالى: **فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**^(٢).



لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ
 نَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَ قَتَلَهُمُ الْآنبيَاءُ
 بِغَيْرِ حَقٍّ وَ نَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١)
 ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ
 لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا
 نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ
 قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالَّذِي
 قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ
 كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا
 بِالْبَيِّنَاتِ وَ الزَّبْرِ وَ الْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)

◀ اللغة

ذُوقُوا: أمرٌ من ذاق يَذوق، والذوق وجود الطعم بالفم.
 عَذَابَ الْحَرِيقِ: الحريق النَّار.

وَ الزَّبْرِ: بضم الزاء والباء قيل أنه جمع زُبرة وهي قطعة عظيمة من الحديد
 قال تعالى: أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ.

◀ الإعراب

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ العامل في موضع أن، و ما
 عملت فيه قالوا وهي المحكية به ويجوز أن يكون معمولاً لقول المضاف لأنه
 مصدر سَنَكْتُبُ ما قالوا يُقْرَأُ بالنون و ما قالوا، منصوب به قَتَلَهُمُ معطوف عليه
 و ما مصدرية أو بمعنى، الذي، وقد يُقْرَأُ بالياء و تسمية الفاعل و على ما لا
 يسم فاعله و قتلهم، بالرفع وهو ظاهر ذَلِكَ مبتدأ بما خبره بِظَلَامٍ فَعَالٌ من

الظلم الَّذِينَ قَالُوا هُوَ فِي مَوْضِعٍ جَرَّ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ، الَّذِينَ قَالُوا وَ يَجُوزُ فِيهِ النَّصَبُ بِإِضْمَارِ أَعْنِي وَ الرَّفْعُ بِإِضْمَارِ هُمْ، أَلَّا تُؤْمِنَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعٍ جَرَّ عَلَى تَقْدِيرٍ، بَأَنْ لَا تُؤْمِنَ، وَ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ عَلَى تَقْدِيرِ حَرْفِ الْجَرِّ، إِفْضَاءُ الْفِعْلِ إِلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ فِيهِ حَذْفُ مُضَافٍ تَقْدِيرُهُ بِتَقْرِبِ قُرْبَانٍ، أَيْ يَشْرَعُ لَنَا ذَلِكَ الْكُرْبُورُ وَ الْكِتَابُ الْمُنِيرُ، عَطَفَ عَلَى الْبَيِّنَاتِ.

◀ التفسير

اختلفوا في نزول قوله: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ فقال بعضهم أَنَّ الَّذِينَ نَسَبُوا اللَّهَ تَعَالَى إِلَى الْفُقَرَاءِ وَأَنْفُسَهُمْ إِلَى الْغِنَاءِ هُمْ قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا^(١) قَالُوا أَمَّا يَسْتَقْرِضُ الْفَقِيرُ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ فَهُوَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ الْأَغْنِيَاءُ وَ الْقَائِلُ لَذَلِكَ حَيٌّ بِنَ أَحْطَبٍ وَ فَنَحْصُ الْيَهُودِي، وَ قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْجَبَائِي هُمْ قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ وَأَمَّا قَالُوا ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ ضَيْقِ الرِّزْقِ، وَ قِيلَ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ تَمْوِيهًا عَلَى ضَعْفَانِهِمْ لَا أَنَّهُمْ إِعْتَقَدُوا أَنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَ قِيلَ أَنَّهُمْ عَنُوا بِذَلِكَ إِلَهَ مُحَمَّدٍ الَّذِي يَدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُهُ دُونَ مَنْ يَعْتَقِدُونَهُمْ هُمْ أَنَّهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ نَقَلَ هَذِهِ الْأَقْوَالُ فِي التَّبَيَّنِ وَ كَيْفَ كَانَ لَا شَكَّ فِي صُدُورِ هَذَا الْكَلَامِ مِنْهُمْ وَ أَمَّا تَعْيِينَ الْقَائِلِ أَوْ الْقَائِلِينَ فَلَا يَهْمُنَا الْبَحْثُ فِيهِ فَنَقُولُ: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قِيلَ مَعْنَاهُ أَدْرَكَ ذَلِكَ عِلْمَ ذَلِكَ عَنِ الْبَلْخِيِّ أَقُولُ سَيَأْتِي الْكَلَامُ فِي مَعْنَى السَّمْعِ وَ الْبَصَرِ فِي حَقِّهِ تَعَالَى فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَ الَّذِي نَقُولُ فِي الْمَقَامِ هُوَ أَنَّ مَعْنَى لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ، عِلْمُهُ بِالْمَسْمُوعَاتِ أَيْ لَقَدْ عِلْمَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُمْ: قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ قَدْ ذَكَرْنَا فِي صَدْرِ الْبَحْثِ أَنَّهُمْ اِخْتَلَفُوا فِي الْقَائِلِينَ بِهَذَا الْكَلَامِ بَعْدَ إِتْفَاقِهِمْ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا جَمَاعَةً بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: الَّذِينَ قَالُوا بِصِغَةِ

بِسْمِ
الْقُرْآنِ
فِي تَفْسِيرِ
الْقُرْآنِ

جزء ٤

بِسْمِ
الْقُرْآنِ

الجمع وقد ذكر غير واحد من مفسري العامة أَنَّ القائل بهذا الكلام هو فنحاص بن عازوراء قال الطبري في تفسيره لهذه الآية نقلاً عن ابن عباس ما هذا لفظه دخل أبوبكر الصديق بيت المدارس فوجد من يهود ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجلٍ منهم يقال له فَنَحَاص كان من علماؤهم وأخبارهم ومعه خبر يقال له أشيع فقال أبو بكر لفنحاص ويحك إتق الله وأسلم فوالله أنك لتعلم أن محمداً ﷺ رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل قال فنحاص والله يا أبابكر ما بنا إلى الله من فقرٍ وأنه الينا لفقيرٍ وما نتضرع إليه كما يتضرع الينا وأنا عنه لأغنياء ولو كان عنا غنياً ما إستقرض منا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الرباء ويعطيناه ولو كان غنياً عنا ما أعطانا الربا فغضب أبوبكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله فأكذبونا ما إستطعتم أن كنتم صادقين فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد أنظر ما صنع بي صاحبك فقال رسول الله لأبي بكر ما حملك على ما صنعت فقال يا رسول الله أن عدو الله قال قولاً عظيماً زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء فلما قال ذلك غضبتُ لله مما قال فضربت وجهه فجحد ذلك فنحاص وقال ذلك فأنزل الله تبارك وتعالى فيما قال فنحاص ردّاً عليه وتصديقاً لأبي بكر، لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَفِي قَوْلِ أَبِي بَكْرٍ وَمَا بَلَغَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْغَضَبِ، لِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَدَى كَثِيراً وَأَنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ انتهى.

أقول هذه القصة نقلها أكثرهم بل جميعهم فيما نعلم في تفاسيرهم كما هو دأبهم في النقل وأظن أنهم أخذوه من الطبري من دون أن يتأملوا وأمعنوا النظر في المنقول كما هو شأن العوام ألم يعلموا أن الله تعالى قال لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ ولم يقول قول الذي قال أن

اللّه فقير و انا غنىّ مثلاً فما ذكره الطبرى من قصّة فنحاس و ابى بكر لو كان حقّاً ليزم اتيان اللفظ بصيغة المفرد و ذلك لأنّ فنحاس كان رجلاً واحداً و هو ظاهر و لقد اجاد الرازى فى المقام بعد نقله القصّة إجمالاً، قال و أعلم أنّه ليس فى الآية تعيين هذا القائل إلاّ أنّ العلماء نسبوا هذا القول الى اليهود و احتجوا عليه بوجوه، ثمّ نقل الوجوه الى أن قال.

المسألة الثانية: هذه الآية تدلّ على أنّه تعالى سميع للأقوال و نظيره قوله تعالى: **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ** ^(١).

المسألة الثالثة: ظاهر الآية تدلّ على أنّ قائل هذا القول كانوا جماعة لأنّه تعالى قال الذين قالوا، و ظاهر هذا القول يفيد الجمع و أمّا ما روي أنّ قائل هذا القول هو فنحاس اليهودي فهذا يدلّ على أنّ غيره لم يقل ذلك فلمّا شهد الكتاب أنّ القائلين كانوا جماعة و جب القطع بذلك انتهى كلامه و فيه كفاية. قال بعض المفسرين و أمّا قالوا أي اليهود هذا، تمويهاً على ضغائنهم، لا أنّهم يعتقدون هذا لأنّهم أهل الكتاب و لكنّهم كفروا بهذا القول لأنّهم أرادوا تشكيك الضّعفاء منهم و من المؤمنين و تكذيب النبي ﷺ أي أنّه فقير على قول محمد ﷺ لأنّه إقرض منا سنكتب ما قالوا قيل معناه سنحفظ ما قالوا فكُنّي بالكناية عن الحفظ لأنّه طريق الى الحفظ و قيل سنكتب ذلك فى صحائف أعمالهم ليقروه فيها يوم القيامة، و فى المقام احتمال آخر و هو أنّه سنكتب ما قالوا فى القرآن حتّى يعلم الخلق شدّة تعنتهم و جهلهم و جدّهم فى الطعن فى نبوة محمد ﷺ الى يوم القيامة.

ضياء القرآن فى تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

وَقَتَلَهُمُ الْآلُفِّيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ الظَّاهِرُ أنّ قوله: **وَقَتَلَهُمُ الْآلُفِّيَاءُ** عطف على قوله: **مَا قَالُوا**

أي سنكتب في صحائف أعمالهم ما قالوا من الكفر وقتلهم الأنبياء بغير حق، قيل في معناه أي سنكتب قتل أسلافهم الأنبياء ورضى هؤلاء به فنجازي كلاً بفعله ذكره الطبرسي رحمته ثم قال وفيه دلالة على أن الرضا بفعل القبيح يجري مجراه في عظم الجرم لأن اليهود الذين وصفوا بقتل الأنبياء لم يتولوا ذلك بأنفسهم وأتما ذموا بذلك لأنهم بمنزلة من تولاه في عظم الإثم انتهى كلامه.

و قيل معناه سنكتب ما قال هؤلاء، ونكتب ما فعله أسلافهم من قتلهم الأنبياء و عليه فالمعنى سيحفظ على الفريقين معاً أقوالهم و أفعالهم، قال الطبري في تفسيره لهذه الآية فإن قال قائل كيف قيل وقتلهم الأنبياء بغير حق وقد ذكرت الآثار التي رويت أن الذين عنوا بقوله: **لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ** بعض اليهود الذين كانوا على عهد نبينا صلوات الله عليه وآله ولم يكن من أولئك أحد قتل نبياً من الأنبياء لأنهم لم يدركوا نبياً من أنبياء الله فيقتلوه، قيل أن معنى ذلك على غير الوجه الذي ذهب اليه وأتما قيل ذلك لأن الذين عني الله تعالى بهذه الآية كانوا راضيين بما فعل أوائلهم من قتل من قتلوا من الأنبياء وكانوا منهم و على مناهجهم من إستحلال ذلك واستجازته فأضاف جل ثناؤه فعل ما فعله من كانوا على مناهجه وطريقته الى جميعهم اذ كانوا أهل ملة واحدة ونحلة واحدة انتهى.

أقول إتفقت أراء المفسرين من العامة والخاصة على أن الوجه في عطف، وقتلهم الأنبياء، على قوله: **الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ** الخ هو أنهم كانوا راضيين بفعل أسلافهم و عليه فالمعنى سنكتب ما قالوا من أن الله فقير ونحن أغنياء أيضاً سنكتب قتلهم الأنبياء من حيث أنهم كانوا راضيين به بناءً على أن من رضي بفعل قوم فهو منهم و أتما قالوا ذلك لأن اليهود القائلين بهذا الكلام في عهد النبي لم يكونوا من قتلة الأنبياء و أتما كان قتلهم على أيدي أسلافهم،

وَأَمَّا إِحْتِاجُوا إِلَى هَذِهِ التَّكَلُّفَاتِ وَالتَّخْرِيجَاتِ فِي صَحَّةِ الْعَطْفِ لِأَنَّهُمْ نَسَبُوا الْقَاتِلِينَ، أَنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، إِلَى الْيَهُودِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ أَيُّ أَنَّ الْيَهُودَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ قَالُوا بِهِذِهِ الْمَقَالَةِ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْقَاتِلِينَ لِلْأَنْبِيَاءِ لَمْ يَكُونُوا فِي عَهْدِ النَّبِيِّ فَلَا مُحَالَةَ إِحْتِاجُوا فِي صَحَّةِ عَطْفِ الْفَرِيقِ الْمَتَأَخَّرِ عَلَى الْمَتَقَدِّمِ بِزَمَانٍ طَوِيلٍ إِلَى مَا سَمِعْتَ مِنْ أَنَّهُمْ مِنْ حَيْثُ رِضَاهُمْ لَعَلَّ أَسْلَافَهُمْ كَتَبَ لَهُمْ مَا كَتَبَ لَهُمْ مِنَ الْوُزْرِ.

وَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ أَيُّ دَلِيلٍ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْقَاتِلِينَ بِهَذَا الْقَوْلِ غَيْرَ الْقَاتِلِينَ لِلْأَنْبِيَاءِ أَمَّا الْآيَةُ فَلَا تَدُلُّ عَلَى التَّفْرِيقِ بَلْ دَلَّالَتُهَا عَلَى الْعَكْسِ أَوَّلَى لِأَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: قَتَلَهُمْ يُرْجَعُ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا مَا قَالُوا ظَاهِرًا وَصَرَفَ اللَّفْظَ عَنْ ظَاهِرِهِ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ وَادِّ لَيْسَ فُلَيْسَ وَعَلَيْهِ فَلَا يَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ حِكَايَةَ عَنْ قَوْلِ أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا قَاتِلِينَ لِلْأَنْبِيَاءِ أَيْضًا وَالْمَعْنَى لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا، مِنْ أَسْلَافِهِمْ، أَنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا حِينَ قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ، أَيُّ أَنَّ ذَنبَهُمْ لَمْ يَكُنْ وَاحِدًا بَلْ أَثْنَانِ، قَوْلُ الْكُفْرِ، وَقَتْلُ الْأَنْبِيَاءِ وَمَحْصَلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّهُ لَا شَكَّ فِي صَدَقِ صُدُورِ الذَّنْبِ عَنْهُمْ بِمَقْتَضَى الْآيَةِ وَأَمَّا التَّفْرِيقُ فَيَحْتَاجُ إِلَى الدَّلِيلِ وَعَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ عَدَمِ التَّفْرِيقِ وَأَنَّ الْقَاتِلِينَ بِالْمَقَالَةِ وَالْقَاتِلِينَ لِلْأَنْبِيَاءِ كُلَّهُمُ كَانُوا فِي سَالِفِ الزَّمَانِ فَيَسْتَقِيمُ الْمَعْنَى وَهُوَ ظَاهِرٌ وَعَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ فَتَكُونُ الْآيَةُ بِصَدَدِ حِكَايَةِ قَوْلِ الْيَهُودِ فِي نَسَبَتِهِمُ الْفَقْرَ إِلَى اللَّهِ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ هَذَا مَا خَطَرَ بِبَالِي فِي الْمَقَامِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: بِغَيْرِ حَقٍّ فَهُوَ تَعْظِيمٌ لِلشُّعْنَةِ وَالذَّنْبِ الَّذِي أَتَوْهُ فَلَيْسَ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ قَدْ يَصِحُّ أَنْ يُقْتَلُوا بِالْحَقِّ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لِمَكَانِ عَصَمَتِهِمْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَصْدَرَ مِنْهُمْ مَا يَقْتُلُونَ بِهِ وَأَمَّا خَرَجَ هَذَا الْكَلَامُ مَخْرَجَ الصِّفَةِ لِقَتْلِهِمْ أَنَّهُ ظَلَمٌ وَلَيْسَ بِحَقٍّ.

وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ

أي ونقول لهؤلاء القائلين ذوقوا عذاب الحريق، وقيل يقال لهم ذلك في جهنم وقيل عند الموت عند الحساب، أعلم أنَّ الذَّوق وجود الطَّعم بالفم و أصله فيما يقل تناوله دون ما يكثر فأَنَّ ما يكثر منه يقال له الأكل قاله الرَّاغب في المفردات أقول فعلى هذا خرج الكلام مخرج الإستعارة تشبيهاً للعذاب بالمأكل والمشروب أو بمطلق ما له طَّعم وإسناد الذَّوق اليه على سبيل المجاز.

أن قلت بناءً على ما ذكره الرَّاغب في تفسيره الذَّوق و أن أصله فيما يقل تناوله يلزم أن يكون ذوق العذاب قليلاً مع أنَّ قتل النَّبي وقول الكفر من أعظم الذَّنوب.

قلت قد أجاب الرَّاغب عنه بأنَّ ذلك و أن كان في التعارف للقليل إلاَّ أنَّه مُستصلح للكثير أيضاً فخصه تعالى بالذكر ليعمَّ الأمرين وكثر إستعماله في العذاب.

قال الله تعالى: لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ^(١)

وقيل لهم: ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ^(٢)

قال الله تعالى: فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ^(٣)

قال الله تعالى: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ^(٤).

الى أن قال وقد جاء في الرَّحمة أيضاً:

قال الله تعالى: وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً^(٥)

قال الله تعالى: وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مِّنْهُ^(٦).

٢- السجده = ٢٠

٤- الدخان = ٤٩

٦- هود = ١٠

١- النساء = ٥٦

٣- آل عمران = ١٠٦

٥- هود = ٩

وحاصل الكلام هو أَنَّ الذَّوق يستعمل فيما يَقْلُ تناوله ويكثر ومانحن فيه من الثاني فقوله تعالى: **ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** معناه ذوقوا العذاب كثيراً بما قَدِّمْتُ أيديكم كما قال:

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ قيل في هذا الكلام دلالة على أَنَّ العقاب يكون ظلماً في صورة عدم وقوع الذنب وأما في صورة وقوعه فلا فهو ردٌّ على المجبِّرة في قولهم أَنَّ الله يعذب الأطفال بغير جرم ويجوز أن يعذب البالغين بغير ذنب.

أَنْ قُلْتُ قد ذكروا أَنَّ صيغة فعال تدلُّ على المبالغة في الفعل فالقتال مبالغة في القتل والضَّرَاب في الضَّرْب والظُّلَم في الظُّلْم وهكذا وقد ثبت أَنَّ نفي الكثير لا يستلزم نفي القليل فاذا قلنا زيد ليس بظلام معناه أَنَّهُ ليس كثير الظلم وهو لا ينافي كونه ظالماً فقوله تعالى: **أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** يدلُّ على نفي الكثرة منه تعالى وهو لا ينافي بثبوت القليل منه وبعبارة أخرى هو يدلُّ على أَنَّهُ ليس كثير الظلم ولا يدلُّ على أَنَّهُ ليس بظالم أصلاً، وقد أجابوا عنه بما حاصله أَنَّ العذاب الَّذي تَوَعَّد الله بأن يفعله بهم لو كان ظلماً عظيماً فنفاه على حَدِّ عظمه لو كان ثابتاً وهذا يؤكد أَنَّ اتصال العقاب اليهم يكون ظلماً لو لم يكونوا مذنبين انتهى.

أقول هذا الجواب لا يحسم مادة الإشكال والأحسن في الجواب أن يقال أَنَّ فعلاً كما يستعمل في الكثرة يستعمل في القليل أيضاً قال طرفة:

ولست بحلالِ التَّلَاعِ مخافةً ولكن متى يسترفد القوم أرفد

وتقريب الاستدلال به هو أَنَّ، حالاً، لم يُرد به القليل أي لم يرد الشارع أَنَّهُ قد يحلُّ التَّلَاعُ قليلاً، لأنَّ ذلك يدفعه قوله، متى يسترفد القوم أرفد، وهذا يدلُّ على نفي البخل في كلِّ حالٍ، ولأنَّ تمام المدح لا يحصل بإرادته الكثرة.

ثانياً: أَنْ ظَلَمَ هُنَا لِلْكَثْرَةِ لِأَنَّهُ مُقَابِلٌ لِلْعِبَادِ وَفِي الْعِبَادِ كَثْرَةٌ وَإِذَا قُبِلَ بِهِمُ الظُّلْمُ كَانَ كَثِيراً.

ثالثاً: أَنَّهُ إِذَا نُفِيَ الظُّلْمُ الْكَثِيرُ إِنْتَفَى الْقَلِيلُ ضَرْباً لِأَنَّ الَّذِي يَظْلِمُ لِيَنْتَفِعَ بِالظُّلْمِ فَإِذَا تَرَكَ الظُّلْمَ الْكَثِيرَ مَعَ زِيَادَةِ نَفْعِهِ فِي حَقِّ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ النَّفْعُ وَالضَّرُّ كَانَ لِلظُّلْمِ الْقَلِيلِ الْمُنْفَعَةِ أَتْرَكَ.

رابعاً: لَا يَبْعُدُ إِرَادَةُ النَّسَبِ مِنَ الْكَلَامِ دُونَ الْمُبَالَغَةِ فَأَنَّ الصَّيْغَةَ كَمَا تَجِي لِلْمُبَالَغَةِ قَدْ تَجِي لِلنَّسَبَةِ أَيْضاً، نَحْوُ بَرَّازٍ، وَعَطَّارٍ، وَقَالَ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ فَالْمَعْنَى أَنَّ رَبَّكَ أَوْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَنْسَبُ إِلَى الظُّلْمِ أَصْلاً فَلَا يَكُونُ ظَالِماً قَطُّ الْمَطْلُوبُ.

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بَقْرَبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ

عن الكعبي أنها نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وهب بن يهودا وزيد بن مانوه وفنحاص بن عازوراء وحبي بن أخطب أتوا رسول الله ﷺ فقالوا اتزعم أن الله بعثك إلينا رسولاً وانزل عليك كتاباً وإن الله عهد إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار فان جئتنا به صدقناك وظاهر هذا القول أنه عهد إليهم في التوراة فقبل كان هذا في التوراة ولكن كان تمام الكلام، حتى يأتيتكم المسيح ومحمد فإذا أتاكم فأمنوا بهما من غير قربان، وقيل كان أمر القربين ثابتاً إلى أن نسخت على لسان المسيح، وقيل ذكرهم هذا العهد هو من كذبهم على الله تعالى وإفترائهم عليه وعلى أنبيائه ومعنى عهد، وصى والعهد أخص من الأمر لأنه في كل ما يتناول أمره ويبقى في غابر الزمان وإسناد الأكل إلى النار مجاز واستعارة عن إذهاب الشيء وإفناءه إذ حقيقة الأكل إنما توجد في الحيوان المتغذي والقربان أكل النار معجز للنبي يوجب الإيمان به فهو وسائر

المعجزات سواء نقل عن الواحدي أنه قال، القربان بضم القاف البَر الذي يتقرب به الى الله وأصله المصدر من قولك قرب قرباناً كالكفران والرجحان و الخسران سمي به نفس المتقرب به ومنه قوله **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: لكعب بن عجرة يا كعب الصّوم جنة والصلاة قربان أي بها يتقرب الى الله ويستشفع في الحاجة لديه انتهى.

أقول الذي روي عنه **عَلَيْهِ السَّلَامُ** الصّوم جنة من النار وأن الصلاة قربان كلّ تقى، الصحيح فإن الصلاة بما هي هي من أي شخص صدرت ليست بقربان ولا يلزم أن تكون الصلاة من المنافق والفاسق قرباناً وهو كما ترى وقال بعضهم، القربان ما يتقرب به الى الله من نسل و صدقة وعمل صالح فعلان من القرية ويكون اسماً ومصدراً فمثال الاسم، السلطان والبرهان، والمصدر العدوان والخسران، وقرأ عيسى بن عمر، قربان بضم الراء اتباعاً لضم القاف كما قيل في جمع، ظلمة، ظلمات وفي حُجرة حُجرات.

قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

والمعنى قل لهؤلاء اليهود قد جاءكم الرُّسل من قبلي بالبيّنات أي الحجج الدّالة على صدقهم في صحّة رسالتهم وحقيقة قولهم كما كنتم تطلبون منهم و أيضاً قد جاءوا بالذي قلتم وهو القربان فلم قتلتموهم أن كنتم صادقين في قولكم هذا، قيل، أراد بالرسّل زكريا ويحيى وشعيا وغيرهم من الأنبياء الذين قتلوهم ولم يؤمنوا بهم والحاصل أنّ الله قد كذبهم في قولهم هذا وأنهم كأسلافهم من اليهود في الكذب والعناد فكما أنّ أسلافهم كانوا معاندين كذلك هؤلاء القائلين بهذه المقالة وحكم الأمثال واحد وعلى هذه القاعدة أو بناءً على أنّ الرّاضي بفعل قوم فهو منهم، قال الله تعالى: **قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ**

مِنْ قَبْلِي وَإِلَافِمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَائِلِينَ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ مِنَ الْيَهُودِ، لَمْ يَكُونُوا فِي عَهْدِ يَحْيَىٰ وَزَكَرِيَّا وَشِيعَا، وَغَيْرِهِمْ وَلَا قَتَلُوهُمْ فَنِسْبَةُ الْقَتْلِ بِهِمْ فِي قَوْلِهِ: قَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ بِإِعْتِبَارِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْوَجْهِ، وَالْمَقْصُودُ هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَدْ بَيَّنَّ بِهَذِهِ الدَّلَائِلِ الْمَذْكُورَةِ فِي آيَةِ أَنَّهُمْ لَمْ يَطْلُبُوا هَذِهِ الْمَعْجَزَةَ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِرْشَادِ بَلْ كَانَ الطَّلَبُ مِنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا الْمَنَوَالِ لَمْ يَجِبْ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ إِسْعَافَهُمْ بِذَلِكَ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ.

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ.

أي فإِنْ كَذَّبُوكَ فِي نَبُوتِكَ فَلَيْسَ هَذَا أَوَّلُ تَكْذِيبٍ وَقَعَ مِنَ الْمَعَانِدِينَ فِي حَقِّ الرَّسْلِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ جَاءُوا لَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْحَجِّ الدَّالَةِ عَلَى صَدَقِ نَبُوتِهِمْ وَبِالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ، أَيِ الْكِتَابِ الْمَزْبُورَةِ يَعْنِي الْمَكْتُوبَةِ، وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ، أَيِ الْوَاضِحِ الْمَضِيِّ هَكَذَا قِيلَ، وَ عَلَيْهِ فَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ بِمَعْنَى الْإِخْتِلَافِ فِي اللَّفْظِ، وَقِيلَ أَنَّمَا حُسِّنَ هَذَا الْعُطْفُ لِأَنَّ الْكِتَابَ الْمُنِيرَ أَشْرَفَ الْكُتُبِ وَأَحْسَنَ الزُّبُرِ فَحَسَنَ الْعُطْفُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ^(١) وَقَالَ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِئِيلَ وَمِيكَائِيلَ الْآيَةِ وَوَجْهَ زِيَادَةِ الشَّرَفِ فِي الْكِتَابِ الْمُنِيرِ أَمَّا كَوْنُهُ مُشْتَمَلًا عَلَى جَمِيعِ الشَّرِيعَةِ أَوْ كَوْنُهُ بَاقِيًّا عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ بِالزُّبُرِ الصُّحُفِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزُّبُورَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِكَلَامِهِ.

إنفتاح ما قبلها لأن ذلك عارض ولذلك لا يجوز همزها مع إنضمامها ولو كانت لازمة لجاز ذلك.

◀ التفسير

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ قد مر الكلام في معنى الذوق وأنه في الأصل عبارة عن وجود الطعم بالقم فيما يقل تناوله دون ما يكثر فأَنْ ما يكثر منه يقال له الأكل إلا أنه وأن كان في التعارف للقليل فهو مستصلح للكثير قاله الراغب في المفردات والأن نقول إختير في القرآن لفظ الذوق ليعم الأمرين فهو تارة يستعمل في العذاب.

قال الله تعالى: **لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** ^(١)

قال الله تعالى: **ذُوقُوا عَذَابَ الْخَرْقِ** ^(٢)

قال الله تعالى: **ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ** ^(٣)

قال الله تعالى: **فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** ^(٤)

وغيرها من الآيات وأخرى يستعمل في الرحمة.

نحو قوله تعالى: **وَلَيِّنْ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً** ^(٥)

قوله تعالى: **وَلَيِّنْ أَدَقْنَا نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسْنَةٍ** ^(٦) الآية وغيرها.

ثالثاً: يستعمل في الإختبار والتجربة ومنه قوله تعالى: **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ** ^(٧) فاستعمال الذوق مع اللباس من أجل أنه أريد به التجربة والإختبار أي فجعلها بحيث تمارس الجوع والخوف إذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى: **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**، معناه أن كل نفس لابد لها من الموت و

١- آل عمران = ١٨١

٢- آل عمران = ١٠٦

٣- هود = ١٠

٤- النساء = ٥٦

٥- السجدة = ٢٠

٦- هود = ٩

٧- النحل = ١١٢

الفناء وفي التعبير بالذوق إشعار بأن الموت الذي يتحقق بخروج النفس عن الجسد تارة يكون عذاباً في حق صاحبه كما في الكافر والمنافق والفاسق و أخرى رحمة كما في المؤمن وحيث أن الذوق صالح لهما أستعمل في المقام فالآية في الحقيقة وعدٌ وعيد وعدٌ للمصدق المؤمن وعيد للمكذب المنافق وفيه إشارة الى أن بعد هذه الدار أعني بها الدنيا دار أخرى وهى الآخرة يتميز فيها المحسن من المسي و يتوفر على كل أحد ما يليق به من الجزاء، ثم أن الآية قد دلت على أن الموت حتمٌ لكل نفس تعلقت بالبدن و أنما قلنا ذلك لأن النفس قد تطلق على ذات الشئ سواء كان ممكناً أم كان واجباً قال تعالى: **تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ** ^(١) حيث أطلق النفس على ذات الله تعالى فلو قلنا أن كل نفس أي كل ذات يموت لزم أن يكون الواجب أيضاً داخلاً في الحكم نعوذ بالله منه فالمراد بالنفس في الآية ليس ذات الموجود بل المراد بها ما يعرض على الجسم المعبر عنه تارة بالنفس و أخرى بالروح و عليه فالمراد بالموت هو خروجها عن الجسد كما أن المراد بالحياة بقاءها فيه وكيف كان لاشك في الموت عقلاً ونقلاً وحساً وقالت الفلاسفة أن الموت واجب الحصول في هذه الحياة الجسمانية وذلك لأن هذه الحياة لا تحصل إلا بالرطوبة الغريزية والحرارة الغريزية ثم أن الحرارة تؤثر في تحليل الرطوبة تزال تستمر هذه الحالة الى أن تفنى الرطوبة الأصلية فتتطفي الحرارة الغريزية ويحصل الموت فبهذا الطريق كان الموت ضرورياً في هذه الحياة والله أعلم فأنه المحيي والمميت.

قال بعض المحققين قوله: **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** يدل على أن النفوس لا تموت بموت البدن لأنه تعالى جعل النفس ذائقة الموت والذائق لابد وأن يكون باقياً حال حصول الذوق فالمعنى أن كل نفس ذائقة موت البدن وهذا

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّفْسَ غَيْرَ الْبَدَنِ وَعَلَى أَنَّ النَّفْسَ لَا تَمُوتُ بِمَوْتِ الْبَدَنِ وَأَيْضاً لَفِظُ النَّفْسِ مَخْتَصٌّ بِالْأَجْسَامِ وَفِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ ضَرُورَةَ الْمَوْتِ مَخْتَصَّةٌ بِالْحَيَاةِ الْجَسَمَانِيَّةِ فَأَمَّا الْأَرْوَاحُ الْمَجْرَدَةُ فَلَا إِنْتِهَى كَلَامِهِ.

أَقُولُ أَنَّ الْآيَةَ لَا تَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرَهُ مِنْ أَنَّ النَّفْسَ لَا تَمُوتُ بِمَوْتِ الْبَدَنِ وَقَوْلُهُ وَالذَّائِقُ لَا يَبْدُو أَنَّ يَكُونُ بَاقِياً حَالَ حَصُولِ الذَّوْقِ، نَحْنُ نَقُولُ بِهِ إِلَّا أَنَّ الْبَقَاءَ حَالَ حَصُولِ الذَّوْقِ لَا يَلْزِمُ الْبَقَاءَ بَعْدَهُ أَيْضاً وَلِتَحْقِيقِهِ مَقَامٌ آخَرُ.

إِنَّمَا تُوقَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

أَيُّ تَعْطُونَ جِزَاءَ أَعْمَالِكُمْ خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا تَامًّا وَافِياً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفِي الْإِتْيَانِ بِكَلِمَةِ إِنَّمَا الَّتِي تَغِي الْحَصْرَ أَشْعَرُ بَانَ الْأَجْرَ الْكَامِلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفِي قَوْلِهِ تُوقَّوْنَ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ بَذْلَهُ يَكُونُ كَافِياً وَافِياً فَإِنْ تَوَفِيَةِ الشَّيْءِ بِذَلِكَ وَافِياً وَاسْتِيفَاتِهِ تَنَاوَلَهُ كَذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: **تُوقَى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ** وَقَالَ إِنَّمَا يَوْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ، مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا نَوَفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا، وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْآيَاتِ كَثِيرَةٌ.

فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ

أَيُّ مَنْ أَبْعَدَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ بِسَبَبِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالِاجْتِنَابِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ فَقَدْ فَازَ وَسَعِدَ فَإِنَّ الْفَوْزَ الظَّفَرَ بِالْخَيْرِ مَعَ حَصُولِ السَّلَامَةِ وَقَدْ كَثُرَ اسْتِعْمَالُهُ فِي الْقُرْآنِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ** (١)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً** (٢)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ** (٣)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** (٤)

قال بعض المفسرين، وهذا تنبيه على أن الإنسان حيثما كان في الدنيا كأنه كان في النار وما ذاك إلا لكثرة آفاتنا وشدة بليّاتها ولهذا قال ﷺ: الدنيا سجن المؤمن انتهى كلامه

أقول ليس في الآية تنبيه على ما ذكره أصلاً ولا يلزم أن يكون الأنبياء والأوصياء والصالحاء كلّهم في النار في الدنيا ولا يقول به عاقل فضلاً عن عالم فإن الدنيا كما تكون وسيلة وسبباً إلى دخول النار كذلك تكون سبباً إلى دخول الجنة فهي في نفسها لا حكم لها وكثرة الأفات وشدة البليّات فيها لا تصيرها ناراً يعذب الله بها الكفار والمنافقين ولو كان كذلك لزم أن يكونوا في النار في مدة حياتهم فيها لأن الأفات وشدة البليّات الموجودة في الدنيا تشملهم أيضاً وقد قال رسول الله ﷺ: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

كيف يقال أن الإنسان حيثما كان في الدنيا كأنه كان في النار وتنخصيص الإنسان بالمؤمن مضافاً إلى أنه لا دليل عليه في حيز المنع والحاصل أن حمل الآية الشريفة على هذه التخريجات جُرأة على الله تعالى.

فالمعنى أن من أبعد عن النار بترك المعاصي وأدخل الجنة بفعل الطاعات فقد فاز فوزاً عظيماً وهذا ظاهر لا خفاء فيه فإن الخلاص عن العذاب والوصول إلى الثواب من أجل الخيرات فمن وصل إلى هذين المطلوبين فقد فاز بالمقصد الأقصى والغاية الأسنى التي لا مطلوب بعدها.

روي عن النبي ﷺ أنه قال من أحبّ أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليؤت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه انتهى.

وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ

شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المقام ويغرّ عليه حتّى يشتره ثم يظهر له فساد ودرأته والشيطان هو المدلس الغرور وهو حقّ لامرية فيه في

حَقٌّ مِنْ آثَرِ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَغَرَّ بِهَا وَآمَنَ مِنْ طَلَبِ الْآخِرَةِ بِهَا فَأَنَّهُ نَعَمَ
الْمَتَاعُ وَلِذَلِكَ أَيُّ لَأَجَلَ أَنَّ الدُّنْيَا لَهَا وَجْهَانِ، إِسْتِقْلَالِي، وَأَلِّي، قَالَ تَعَالَى مَا
قَالَ أَيُّ عَبَّرَ عَنْ حَيَاتِهَا بِمَتَاعِ الْغُرُورِ فَالدُّنْيَا مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا مَا بِهَا يُنْظَرُ إِلَى
الْآخِرَةِ نَعَمَ الْمَتَاعُ إِذَا لَا غُرُورَ فِيهَا حَيْثُ أَنَّهَا مَا بِهَا يُنْظَرُ إِلَى نَفْسِهَا أَوْ مَا فِيهَا
يُنْظَرُ لَيْسَتْ إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ فَالْعَاقِلُ لَا يَغْتَرُّ بِهَا فَأَنَّهُ لَيِّنٌ مَسْهًا قَاتِلٌ سَمَّهَا
ظَاهِرُهَا مَطْيَةَ السَّرُورِ وَبَاطِنُهَا مَطْيَةَ الشَّرُورِ وَلنَعَمَ مَا قِيلَ:

لأن كنت في الدنيا بصيراً فأنما بلاغك منها مثل زاد المسافر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه فما فاته منها فليس بضائر
وقال الموصلي:

وَأَتَيْتُ رَأَيْتُ الدَّهْرَ مِنْذُ صَحْبَتِهِ مُحَاسِنُهُ مَقْرُونَةٌ وَمُعَايِبُهُ
إِذَا سَرَرْنِي فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ لَمْ أَزَلْ عَلَى حَذَرٍ مِنْ أَنْ تَذُمَّ عَوَاقِبُهُ
وقال أبو العتاهية:

إِلَّا أَنَّمَا التَّقْوَى هِيَ الْعِزُّ وَالْكَرَمُ وَحَبُّكَ لِلدُّنْيَا هُوَ الذَّلُّ وَالسَّقَمُ
وَلَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تَقِيٍّ نَقِيصَةٌ إِذَا صَحَّحَ التَّقْوَى وَأَنْ حَاكَ أَوْ حَجَمَ
وقيل بالفارسية:

تورا دنيا همی گوید شب وروز که هان از صُحبتِ پرهیز پرهیز
مده خود را فریب از رنگ و بُویم که هست این خنده من گریه آمیز
وقال الآخر:

بِنَارٍ وَنَعَمْتَ دُنْيَا مِنْهُ دِلٌ كِه دِلِ بَرْدَاشْتَن كَارِي اسْتِ مَشْكَالِ
قال بعض المفسرين وأعلم أن فساد الدنيا من وجوه:

أولها: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ حَصَلَ لَهُ جَمِيعُ مَقَاصِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ لَكَانَ غَمَّهُ وَهَمُّهُ
أَزِيدَ مِنْ سُرُورِهِ وَلَأَجَلَ قَصْرِ وَقْتِهِ وَقَلَّةِ الْوُثُوقِ بِهِ وَعَدَمِ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ هَلْ يَنْتَفِعُ
بِهِ أَمْ لَا.

ثانيها: أَنَّ الإنسان كُلَّمَا كان وجدانه بمرادات الدُّنيا أكثر كان حرصه في طلبها أكثر وكلَّمَا كان الحرص أكثر كان تألم القلب بسبب ذلك الحرص أشدَّ فَأَنَّ الإنسان يتوَهَّم أَنَّهُ إذا فاز بمقصوده سكنت نفسه وليس كذلك بل يزداد طلبه وحرصه ورغبته.

ثالثها: أَنَّ الإنسان بقدر ما يجد من الدُّنيا يبقى محروماً عن الآخرة التي هي أعظم السَّعادات والخيرات ومتى عرفت هذه الوجوه الثلاثة علمت أَنَّ الدُّنيا متاع الغرور وأنها كما وَصَّفها أمير المؤمنين عَلِيٌّ بن أَبِي طالب عليه السلام حيث قال لَيْنٌ مَسَّهَا قَاتِلٌ سَمَّهَا انْتَهَى.

أقول مضرات الدُّنيا كثيرة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حب الدُّنيا راس كلَّ خطيئة و حيث كان الامر على هذا المنوال فلا باس بذلو نبذة مما ورد في ذمِّها وانَّها بزخارفها متاع الغرور قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من احب الدنيا اضرَّ باخرته ومن احب آخرته اضرَّ بدنيها فأثروا ما يبقى على ما يفنى، وقال عليه السلام ياعجب كلَّ العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور.

وقال عليه السلام: أَنَّ الدُّنيا حلوةٌ خضرةٌ وَأَنَّ الله مستخلفكم فيها فناظروا كيف تعملون أَنَّ بني إسرائيل لما بَسَطَتْ لهم الدُّنيا ومَهَّدَتْ بأهوائها في الحلية والنِّساء والثِّياب والطِّيب قال عيسى لا تَتَّخِذُوا الدُّنيا ربًّا فَتَتَّخِذَكُم عِبِيداً أَكْثَرُوا كُنْزَكُم عند من لا يضيعة فَأَنَّ صاحب كنز الدُّنيا يخاف عليه الأفة وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الأفة.

وقال عليه السلام الدُّنيا طالبة ومطلوبة فطالب الآخرة تطلبه الدُّنيا حتَّى يستكمل فيها رزقه وطالب الدُّنيا تطلبه الآخرة حتَّى يجي الموت فيأخذ بعنقه، وقال عليه السلام أحمذوا الدُّنيا فأنَّها أسحر من هاروت وماروت.

و قال المسيح ﷺ ويلٌ لصاحب الدنيا كيف يموت و يتركها و يأمنها و تغره و يشق بها و تخذله ويلٌ للمغتربين كيف رهقهم ما يكرهون و فارقهم ما يُحبّون و جاءهم ما يوعدون ويلٌ لمن الدنيا همّة و الخطايا أمله كيف يُفتضح غداً عند الله انتهى.

و قال ﷺ: يا معشر الحواريين أرضوا بدني الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدني الدين مع سلامة الدنيا، و في معناه قيل:

أرى رجلاً بأدنى الدين قد قنعوا ولا أراهم رضوا في العيش بالدون فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغن الملوك بدنياهم عن الدين و قال أمير المؤمنين ﷺ:

أما بعد فإني أخطرُكم الدنيا فإنها خلوة خصرة، حُفَّتِ بالشهواتِ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ، وَرَأَتْ بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْأَمَالِ، وَتَرَيَنْتِ بِالْغُرُورِ، لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلَا تُؤْمِنُ فَجَعَتُهَا، غَرَارَةٌ ضَرَارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِذَةٌ بَائِدَةٌ، أَكَالَةٌ غَوَالَةٌ، لَا تَعْلُو إِلَى أَنْ قَالَ ﷺ لَا يَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَبًا إِلَّا أَزْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَبًا، وَلَا يُمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ إِلَّا أَضْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ، غَرَارَةٌ غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَإِنَّهُ^(١)... إلى آخر الخطبة بطولها

و قال ﷺ:

وَأَخْذُرُكُمْ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنَزِلٌ قُلْعَةٍ، وَلَيْسَتْ بِدَارٍ نُجْعَةٍ، قَدْ تَرَيَنْتِ بِغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا، دَارُهَا هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا: فَخَلَطَ خَلَائِلُهَا بِحَرَائِمِهَا، وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتُهَا بِمَوْتِهَا، وَخُلُوقُهَا بِمُرُهَا، لَمْ يُصْفِهَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا وَلِيَائِهِ، وَ لَمْ يَضِنَّ بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ، خَيْرَهَا زَهِيدٌ، وَشَرُّهَا عَتِيدٌ، وَجَمْعُهَا يُنْفَذُ، وَمُلْكُهَا يُسَلَبُ، وَعَامِرُهَا يَخْرُبُ،^(٢)...

وقال عليه السلام:

إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعِهِ أَغْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِلْءُ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَغْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ. فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعُ، وَ مِنَ الْغَيْبِ الْخَبَرُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَالَ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِلْءُ الْآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا، فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَاجِعٍ، وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ. إِنَّ الَّذِي أَمَرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهَيْتُمْ عَنْهُ، وَمَا أُلْجِلَ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، فَذَرُّوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ...^(١)

وقال عليه السلام:

فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْإِجْتِهَادِ وَالتَّاهُبِ وَالِاسْتِعْدَادِ وَالتَّرَوُّدِ فِي مَنْزِلِ الرَّادِّ وَلَا تَعُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ الَّذِينَ اخْتَلَبُوا دِرَّتَهَا وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا وَخَلَقُوا جِدَّتَهَا وَأَضَبَحَتْ مَسَاكِينَهُمْ أَجْدَانًا وَأَمْوَالَهُمْ مِيرَاثًا لَا يَعْرِفُونَ مَنْ أَنَاهُمْ وَلَا يَخْفَلُونَ مَنْ بَكَاهُمْ وَلَا يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ فَاحْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَدَارَةٌ خَلُوعٌ مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ مُلْبِسَةٌ نَزْعٌ لَا يَدُومُ رَحَاؤُهَا وَلَا يَنْقُضِي عَنَاؤُهَا وَلَا يَزْكُدُ بِلَاؤُهَا^(٢) انتهى.

وقال عليه السلام:

أَلَا وَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا وَتَرْغَبُونَ فِيهَا وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ لَيْسَتْ لِذَارِكُمْ وَلَا مَنْزِلَكُمْ الَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ وَلَا الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ إِلَّا وَانْهَاجَتْ لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ وَلَا تَبْقَوْنَ عَلَيْهَا وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَرْتُكُمْ شَرَّهَا. فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا وَأَطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا... الخ^(٣)

ضياء القرآن في تفسير القرآن
الجلد الرابع

جزء ٤

والكلام في الدنيا طويل والأخبار والآثار في ذمها كثيرة ولا سيما كتاب الله فأَنْ ما فيه يغني عن غيره ثم بعده نهج البلاغة لأَمير المؤمنين عليه السلام وإمام الزَّاهدين الَّذي لم يُوجد مثله بعد رسول الله ولا مثل كتابه بعد كتاب الله فهو عليه السلام كان أعرف بالدنيا منها نفسها ولذلك تراه عرّف الدنيا في مواضع كثيرة في خطبه ورسائله وكلماته بما لم يسبقه إليه أحد بعد رسول الله وقد نقلنا أنموذجاً بل قطرةً من بحار أساليب كلامه عليه السلام في الباب فإن أردت الإطّلاع على تفصيل الكلمات والوقوف على مضامينها فعليك بشرحنا الكبير على بالنهج البلاغة الَّذي لم يسبقنا إليه أحد والحمد لله على هذه النعمة فأَنه وَلِي النعم ودافع النقم ونرجوا منه تعالى أَنْ يوفّقنا للإتمام هذا السفر الجليل في تفسير كلامه كما وفّقنا للإتمام غير هذا فأَنه تعالى لطيف بعباده وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ^(١) اللَّهُم انك قلت في كتابك أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ فها انا ادعوك فاستجب لي فَأَنْ آتَاكَ بِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ خَبِيرٌ.

لَتُبْلَوْنَ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

قال الرَّاعِب بلى الثوب بلى وبلاء أي خلق ومنه لمن قيل سافر، بلاء سفر أي أبلاه السَّفر، وبلوته إختبرته كَأَنِّي أَخْلَقْتَهُ مِنْ كَثْرَةِ إختباري له أَنْ قال ولذلك قيل أبليت فلاناً إذا إختبرته انتهى.

وعليه فالمعنى في قوله: لَتُبْلَوْنَ أي لتخبرن في أموالكم وأنفسكم وحيث أَنَّ الأموال والأنفس من نعم الله تعالى فالإختبار وقع في النعمة قال بعض المحققين أَنَّ إختبار الله تعالى للعباده تارةً بالمسار وأخرى بالمضار والأول يوجب الشكر والثاني يوجب الصبر فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاء إلاَّ أَنَّ المحنة مقتضية للصبر والمنحة مقتضية للشكر ولَمَّا كان قيام بحقوق الصبر

يسر من القيام بحقوق فصارت المنحة والنعمة أعظم البلائين وإلى هذا المعنى يُشير ما نُقل عن أمير المؤمنين عليه السلام: أَنَّهُ قَالَ مَنْ وَسَّعَ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ فَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ مُكِّرَ بِهِ فَهُوَ مَخْدُوعٌ مِنْ عَقْلِهِ.

قال الله تعالى: وَنَبِّئُوكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ^(١).

قال الله تعالى: وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ^(٢).

إذا عرفت هذا فنقول قوله: لَتُبْلَوُنَّ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ^(٣). من الإبتلاء في النعمة والمنحة معاً وذلك لأنَّ الأموال من النعم فالإبتلاء بها من الإبتلاء بالنعمة، وقوله وأنفسكم إشارة إلى الإبتلاء في الأنفس بالموت والأمراض و فقد الأحباب وغير ذلك من المحن فيكون المعنى لتختبرن في النعمة المحنة فهو:

كقوله تعالى: وَ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ^(٤).

حيث أَنَّهُ إشارة إلى المحنة التي في قوله عز وجل:

يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ^(٥).

والى المحنة التي في قوله تعالى:

وَ اتَّقُوا اللَّهَ مِنْ أَلْيَانِهِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ^(٦).

ثمَّ أَنَّ الإبتلاء في الأقوال معناه إكتسابه من طريق المشروع وصرفه في طريق رضى المعبود الإبتلاء في الأنفس فالعمل بالتكاليف الشرعية والتجَنُّب عن المعاصي والجهاد في سبيل الله والصبر على المصائب وأمثال ذلك من الأمور وأن شئت قلت في الجهاد الأكبر والأصغر.

وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

٢- الانفال = ١٧

٢- البقرة = ٢٩

٦- الدخان = ٣٣

١- الانبياء = ٣٥

٣- آل عمران = ١٨٦

٥- البقرة = ٤٩

أَيُّ وَلِتَسْمَعَنَّ أَيُّهَا النَّبِيُّ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَهَمَّ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى، وَمَنِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا، الْمُرَادُ بِهِمْ كَفَّارُ قَرِيشٍ أَوْ جَمِيعُ الْمُشْرِكِينَ، أَدَّى كَثِيرًا، بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ مَا أَوْذَى نَبِيٍّ مِثْلَ مَا أَوْذَيْتُ.

نَقَلَ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةَ أَتَى قَرِيشًا فَقَالَ أَنَّ النَّاسَ يَجْتَمِعُونَ غَدًا بِالْمَوْسَمِ وَ قَدْ فَشَا أَمْرُ هَذَا الرَّجُلِ فِي النَّاسِ وَهُمْ يَسْأَلُونَكُمْ عَنْهُ فَمَا تَقُولُونَ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ أَقُولُ أَنَّهُ مَجْنُونٌ وَقَالَ أَبُو لَهَبٍ أَقُولُ أَنَّهُ شَاعِرٌ وَقَالَ عَقْبَةُ بْنُ أَبِي مَعِيْطٍ أَقُولُ أَنَّهُ كَاهِنٌ فَقَالَ الْوَلِيدُ بَلْ أَقُولُ هُوَ سَاحِرٌ يَفْرُقُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَأَخِيهِ وَأَبِيهِ فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَمَ الْآيَةَ، وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرِ الْآيَةِ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ وَالْوَلِيدُ وَ عَقْبَةُ وَ شَيْبَةُ لِلنَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ فَقَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ مِثْلَ مَا كُنْتَ أَحَدْتَكُمْ عَنْ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ فَنَزَلَ: **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً** ^(١)

وَ قَالَ النَّضْرُ بْنُ الْحَرِثِ وَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمَيَّةَ يَا مُحَمَّدُ لَنْ تُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَأْتِنَا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ مَعَهُ أَرْبَعَةُ أَمْلَاقٍ يَشْهَدُونَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَنَّكَ رَسُولُهُ، فَنَزَلَ: **وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ** ^(٢) وَ قَالَ قَرِيشٌ مَكَّةَ أَوْ يَهُودُ الْمَدِينَةَ أَنَّ هَذِهِ الْأَرْضُ لَيْسَتْ بِأَرْضِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَنَّهَا أَرْضُ الْأَنْبِيَاءِ الشَّامِ فَاتَّ الشَّامُ فَنَزَلَ: **وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ** ^(٣) وَ قَالَ أَهْلُ مَكَّةَ تَرَكْتَ مِلَّةَ قَوْمِكَ وَ قَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ لَا يَحْمِلُكَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْفَقْرُ فَأَنَّا نَجْمَعُ لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ مِنْ أَغْنَانَا فَنَزَلَ: **قُلْ أَعْيَزُ لِلَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا** ^(٤)

وَ قَالَتْ قَرِيشٌ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَنَّهَا يَعْلَمُهُ بِلْعَامٍ وَكَانَ قَيْنَا بِمَكَّةَ رُومِيًّا نَضْرَانِيًّا، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ عَلَى مُحَمَّدٍ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ فَنَزَلَ: **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ** ^(٥) الْمُنَاقِبُ لِابْنِ شَهْرَ أَشُوبٍ ^(٦).

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

١- الأتعام = ٢٥

٢- الأتعام = ٧

٣- الأسراء = ٧٦

٤- الأتعام = ١٤

٥- النحل = ٢٤

٦- ص ٤٨ و ص ٤٩.

روي أنه ﷺ كان يطوف فشتمه عقبة بن أبي معيط وألقى عمامته في عنقه وجره من المسجد فأخذه من يده، وكان يوماً جالساً على الصفا فشتمه أبو جهل ثم شج رأسه حمزة بن عبد المطلب، فلما نزل أنكم وما تعبدون من دون الله الآيات أجمعوا على خلافه فحذب عليه أبو طالب ومنعه فقام عتبة والوليد وأبو جهل والعاص إلى أبي طالب فقالوا أن ابن أخيك قد سب ألهتنا وعاب ديننا وسفّه أعلامنا وضلل أبائنا أن تكفه عنا وأما أن تخلي بيننا وبينه فال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردّهم ردّاً جميلاً فمضى رسول الله على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعوا اليه واسلم بعض الناس فانمشوا إلى أبي طالب قرة أخرى فقالوا أن لك سناً وشرفاً وفزلة وأنا قد إشتهيناك أن تنهي ابن أخيك فلم ينته وأنا والله لا نصبر على هذا من شتم أبائنا وتسفيه أعلامنا وعيب ألهتنا حتى تكفه عنا أو تنازله في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين فقال أبو طالب ما بال أقوامك يشكونك فقال ﷺ أني أريدكم على كلمة واحدة يقولونها تدين بها العرب وتؤذي اليهم بها العجم الجزية فقالوا كلمة واحدة نعم وأبيك عشراً قال أبو طالب وأي كلمة هي يا ابن أخي قال ﷺ لا إله إلا الله فقاموا ينفضون ثيابهم ويقولون أجعل الآلهة إلهاً واحداً أن هذا الشئ عجاب إلى قوله عذاب وفي رواية قال ﷺ أنه تعالى قد أمرني أن أدعوا إلى دينه الحنفية وخرج من عنده مغضباً فدعاه أبو طالب وطيب قلبه ووعده بالنصر ثم أنشأ يقول:

والله لن يصلوا اليك بجمعهم	حتى أوسد في التراب دفيناً
فأصدع بأمرك ما عليك غضاضته	وأنشر بذاك وقر منك عيوناً
ودعوتني وزعمت أنك ناصح	فلقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت ديناً قد عرفت بأنه	من خير أديان البرية ديناً
لولا المخافة أن يكون معرة	لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

و الأخبار الواردة في الباب في كتب المناقب والسِّير وغيرهما من المطولات كثيرة جداً من أراد الإطلاع عليها فعليه بمراجعتها ولنعم ما قيل:

لقد عجبت لأقوام ذوي سَفِهٍ من القبيلتين من سهمٍ ومخزومٍ
القائلين لما جاء النبي به هذا حديث أتنا غير ملزومٍ
فقد آتاهم بحق غير ذي عوجٍ ومنزلٍ من كتاب الله معلومٍ
من العزيز الذي لا شيء يعدله فيه مصاديق من حقٍّ وتعظيمٍ
فأن يكونوا له ضدّاً يكن لكم ضدّاً بغلباء مثل الليل علىكم
فأمنوا بنبي لا أباً لكم ذي خاتمٍ صاغه الرحمن مختومٍ

وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ

أي وأن تصبروا على جهاد النفس وبذل المال وأذى الخلق وتتقوا بالله عما سواه فإن ذلك الصبر والتقوى من عزم الأمور الذي هو من أمور أولي العزم من الرسل كما قال، فأصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، ويمكن أن يكون المراد من الصبر والتقوى الصبر على مجاهدة الكفار ومناذتهم والإنكار عليهم، قال بعض المفسرين الصبر عبارة عن احتمال المكروه والتقوى عبارة عن الإحتراز عما لا ينبغي فقدّم ذكر الصبر على التقوى لأن الإنسان أنما يقدم على الصبر للاقتفاء عما لا ينبغي وفيه وجه آخر وهو أن المراد من الصبر هو أن مقابلة الإساءة بالإساءة تقضي الى إزدياد الإساءة فأمر بالصبر قليلاً لمضار الدنيا وأمر بالتقوى قليلاً لمضار الآخرة فكانت الآية جامعة لأداب الدنيا والآخرة، قال الأشعث بن قيس دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام فوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهاراً فقلت يا أمير المؤمنين الى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة فما زادني إلا أن قال عليه السلام:

أصبر على مضض الأدلاج في السحر وفي الزواح الى الطاعات في البكر
آتي رأيت وفي الأيام تجربة للصبر عاقبة محمودة الأثر

وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرٍ يُؤَمِّلُهُ
وَقَالَ الْآخَرُ:

وَإِذَا أَمْسَكَ الزَّمَانُ بِضُرٍّ
وَأَتَتْ بَعْدَهُ نَوَائِبُ أُخْرَى
فِيَصْطَبِرُ وَيَنْتَظِرُ بِلُغْ الْأَمَانِي
وَإِذَا أَوْهَنْتَ قِوَاكُ وَجَلَّتْ
عَظُمَتْ دُونَهُ الْخَطُوبُ وَجَلَّتْ
سَمِئَتْ نَفْسُكَ الْحَيَاةُ وَمَلَّتْ
فَالزَّيَا إِذَا تَوَلَّتْ تَوَلَّتْ
كَشَفَتْ عَنْكَ جَمَلَةٌ وَتَخَلَّتْ



وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَسَّ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)

◀ اللُّغَةُ

ميثاق: الميثاق عهد مُؤكَّد بيمينٍ وعهدٍ والمَوْثَقُ الإِسْمُ منه وأصله الموثاق: قَلَبْتُ الْوَإِيَاءَ لِلْكُسْرَةِ فَصَارَتْ مِيثَاقًا.
لَا تَكْتُمُونَهُ: الْكُتْمَانُ الْإِخْفَاءُ وَهُوَ ضِدُّ الْإِعْلَانِ وَالْإِظْهَارِ.
فَنَبَذُوهُ: النَّبَذُ الطَّرْحُ، وَالرَّمْيُ.
بِمَفَازَةٍ: مُصْدَر، فَازَ وَالْإِسْمُ الْفَوْزُ أَيِ لَا تَحْسَبْنَهُمْ يَفُوزُونَ وَيَتَخَلَّصُونَ.

◀ الإِعْرَابُ

لَتُبَيِّنُنَّهُ وَلَا تَكْتُمُونَهُ يقرأن بالياء على الغيبة لأنَّ الرَّاجِعَ إِلَيْهِ الضَّمِيرُ إِسْمٌ ظَاهِرٌ وَكُلُّ ظَاهِرٍ يَكْنَى عَنْهُ بِضَمِيرِ الْغَيْبَةِ وَيَقْرَأُ بِالتَّاءِ عَلَى الْخُطَابِ تَقْدِيرُهُ وَ قَلْنَا لَهُمْ، لِتُبَيِّنَهُ وَلَمَّا كَانَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ فِي مَعْنَى الْقِسْمِ جَاءَ بِاللَّامِ وَالتَّوْنِ فِي الْفِعْلِ وَلَمْ يَأْتِ بِهَا فِي يَكْتُمُونَ إِكْتِفَاءً بِالتَّوْكِيدِ فِي الْفِعْلِ الْأَوَّلِ لِأَنَّ تَكْتُمُونَ تَوْكِيدٌ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ يَقْرَأُ بِالْيَاءِ عَلَى الْغَيْبَةِ وَلِذَلِكَ فَلَا يَحْسَبْنَهُمْ بِالْيَاءِ وَفَاعِلُ الْأَوَّلِ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ وَآمَّا مَفْعُولَاهُ فَمَخْذُومَانِ اِكْتِفَاءً بِمَفْعُولِ

يحسبهم لأنّ الفاعل فيها واحد فالفعل الثّاني تكرير للأوّل وحسن لما طال الكلام المتّصل بالأوّل والفاء زائدة فليست للعطف ولا للجواب بمفازة قال بعضهم هي المفعول الأوّل ومفعوله الثّاني محذوف دلّ عليه مفعول، حسب الثّاني لأنّ التقدير لا يحسب الذين يفرحون أنفسهم بمفازة، وهم في فلا يحسبهم هو، أنفسهم، أي فلا يحسب أنفسهم وأغنى بمفازة الذي هو مفعول الأوّل عن ذكره ثانياً، لحسب الثّاني، ويُقرأ بالتاء فيهما على الخطاب وفتح الباء منهما والخطاب للنبي ﷺ والقول فيه، أنّ الذين يفرحون، هو المفعول الأوّل والثّاني محذوف لدلالة مفعول، حسب الثّاني عليه وقيل التقدير لا تحسب الذين يفرحون بمفازة وأغنى المفعول الثّاني عن ذكره، لحسب الثّاني من العذاب متعلّق بمحذوف لأنّه صفة للمفازة لأنّ المفازة مكان، والمكان لا يعمل ويجوز أن تكون المفازة مصدراً فتعلّق، من، به ويكون التقدير، فلا تحسبهم فانزبن فالمصدر في موضع إسم الفاعل.

التفسير

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ اتَّفَقَ الْمَفْسَرُونَ عَلَى أَنَّ الآية مختصة باليهود والنصارى وذلك لأنّ الله تعالى قد أخذ منهم الميثاق على لسان الأنبياء عليهم السلام بأن لا يكتموا شيئاً ممّا في الكتاب وقيل المراد، بالذين أوتوا الكتاب، اليهود والنصارى وجميع أهل الكتاب فيدخل المسلمون أيضاً في الآية وهو الحقّ اذ لا دليل على التخصيص قال الطبري في تفسيره يعني بذلك تعالى ذكره وأذكر أيضاً من هؤلاء اليهود وغيرهم من أهل الكتاب منهم يا محمّد اذ أخذ الله ميثاقهم ليبين للناس أمرك الذي أخذ ميثاقهم على بيانه للناس في كتابهم الذي في أيديهم وهو التوراة والإنجيل و أنّك لله رسول مرسل بالحقّ ولا يكتمنونه فنبذوه وراء ظهورهم يقول فتركوا أمر الله وضيعوه ونقضوا ميثاقه الذي أخذ عليهم بذلك فكتموا أمرك وكذبوا

بك وإشترؤا به ثمنًا قليلاً يقول وإبتاعوا بكتمانهم ما أخذ عليهم الميثاق أن لا يكتموا من أمر نبوتك عوضاً منه خسيساً قليلاً من عرض الدنيا ثم ذمّ جلّ ثناءه شرائهم ما إشتروا به من ذلك فقال فيئس ما إيشترون ثم قال واختلف أهل التأويل فيمن عني بهذه الآية فقال بعضهم عني بها اليهود خاصة يعني فيخاص وأشيّع وأشباههما من الأحزاب وقال آخرون عني بذلك كلّ من أوتي علماً بأمر الدين ثمّ نقل عن قتادة أنّه قال في هذه الآية، هذا ميثاق أخذ الله على أهل العلم فمن علم شيئاً فليعلمه وإياكم وكتمان العلم فأَنْ كتمان العلم هلكة ولا يتكلّفن رجل ما لا علم به فيخرج من دين الله فيكون من المتكلّفين كان يقال مثل علم لا يقال به كمثّل كنز لا يُنفق منه ومثّل حكمية لا تخرج كمثّل صنم لا يأكل يشرب وكان يقال طوبى لعالم ناطقي وطوبى لمستمع واعي وهذا رجل عليم علماً فعلمه وبذله ودعا اليه ورجل سمع خيراً فحفظه ووعاه وانتفع به انتهى.

أقول ظاهر الآية إرادة العموم وهو ظاهر ولا نقول في التّوراة أو الإنجيل لأنّ القرآن لم يقل بذلك ولا نقول بعدمه أيضاً لما ذكرناه فنطلق ما أطلقه القرآن ونقيّد ما قيّده وحيث أطلق الكتاب وأهله في المقام فنقول به **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** يمكن أن يكون الميثاق في عالم الذر ويمكن أن يكون المراد به ما أخذه عليهم بواسطة الأنبياء عليهم السّلام **لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ** هذا هو الميثاق الذي أخذ عليهم وهو عبارة عن بيان ما في الكتاب للنّاس وعدم كتمانهم عنهم **فَتَبَيَّنُوا وَرَأَى ظُهُورُهُمْ** يمكن عود الضمير في نبذوه، الى ما أخذ عنهم أي فنبذوا ما أخذ الله عنهم وراء ظهورهم أي تركوه ولم يلتفتوا اليه ويمكن عوده الى الكتاب أي نبذوا الكتاب وراء ظهورهم والمراد أنّهم لم يراعوه حقّ رعايته والتّبذ وراء الظّهر مثل الطّرح وترك الإعتداد ونقيضه جعله نصب عينيه فهو كناية عن عدم العمل بما في الكتاب أو أنّهم غفلوا عن ذكره وتشاغّلوا عن فهمه فكان كالشيء الملقى خلف

ظهر الإنسان لا يراه فيذكره ولا يلتفت اليه فينظره فالكلام خرج مخرج الاستعارة وَ أَشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُيِّنَ مَا يَشْتَرُونَ أَي أَنَّهُمْ كَتَمُوا الْحَقَّ وَأَخْفَوْهُ لِيَتَوَسَّلُوا بِهِ إِلَى وَجْدَانِ شَيْءٍ مِنْ حَطَامِ الدُّنْيَا مِنْ جَاءٍ أَوْ مَالٍ أَوْ مَقَامٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ وَحَيْثُ أَنَّ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا فَانِيَةٌ دَائِرَةٌ وَمَعَ ذَلِكَ بِالْبَلَاءِ مُحْفُوفَةٌ وَ بِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ مَتَاعَ الدُّنْيَا بِالْقَلَّةِ تَارَةً وَبِالْغُرُورِ أُخْرَى فَلَا جَرَمَ جَعَلَهَا ثَمَنًا لِلْحَقِّ قَبِيحَ عَقْلًا وَشَرْعًا وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى فَبُيِّنَ مَا يَشْتَرُونَ لِأَنَّ الثَّمَنَ وَهُوَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ كَمَا وَكَيْفًا وَالثَّمَنُ كَثِيرٌ كَذَلِكَ وَالْعَاقِلُ لَا يَقْدُمُ عَلَى هَذَا الْبَيْعِ.

تَنْبِيْهُ إِعْلَمُ أَنَّ أَكْثَرَ الْمَفْسِّرِينَ لَوْلَا كُلُّهُمْ إِسْتِفَادُوا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ حُرْمَةَ كِتْمَانِ الْعِلْمِ وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْعَالَمِ إِظْهَارُ عِلْمِهِ لِلنَّاسِ كَمَا عَرَفْتَ مِنْ حَدِيثِ قِتَادَةَ الَّذِي نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ وَنَحْنُ نَقْلُنَاهُ مِنْهُ وَقَدْ ذَكَرُوا فِي تَفْسِيرِهِمْ أَحَادِيثَ كَثِيرَةً مِنْ طَرَفِهِمْ كُلُّهَا يَدُلُّ عَلَى وَجُوبِ الْإِظْهَارِ وَحُرْمَةِ الْمَكَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَالَمِ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَافِ وَكَفَى بِهِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ مَا خُذَ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يَبَيِّنُوا الْحَقَّ لِلنَّاسِ وَمَا عِلْمُوهُ وَأَنْ لَا يَكْتُمُوا مِنْهُ شَيْئًا لَغَرَضٍ فَاسِدٍ مِنْ تَسْهِيلِ عَلَى الظُّلْمَةِ وَتَطْبِيبِ لِنَفْسِهِمْ وَإِسْتِجْلَابِ لِمَسَارِهِمْ أَوْ لَجَرِّ مَنْفَعَةٍ وَحَطَامِ دُنْيَا أَوْ لَتَقْيَةِ مِمَّا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَلَا إِمَارَةَ وَلَا لِبُخْلِ بِالْعِلْمِ وَغَيْرِهِ أَنْ يَنْسَبَ إِلَيْهِ غَيْرُهُمْ وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ كَتَمَ عِلْمًا عَنْ أَهْلِهِ أَلْجَمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ وَعَنْ طَاوُوسٍ أَنَّهُ قَالَ لَوْ هَبَ أَتَيْ أَرَى اللَّهَ سَوْفَ يَعَذِّبُكَ بِهَذِهِ الْكُتُبِ وَاللَّهُ لَوْ كُنْتَ نَبِيًّا فَكُتِمَ الْعِلْمُ كَمَا تَكْتُمُهُ لَرَأَيْتَ أَنَّ اللَّهَ سَيُعَذِّبُكَ وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ وَلَا يَحِلُّ لِجَاهِلٍ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى جَهْلِهِ حَتَّى يَسْأَلَ وَعَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْجَهْلِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أَخَذَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَعْلَمُوا أَنْتَهَى كَلَامُهُ وَبِهَذِهِ الْمَقَالَةِ قَالَ غَيْرُهُ مِنْ مَفْسِّرِيهِمْ كَالرَّازِيِّ وَالْأَثُوسِيِّ وَالْقُرْطُبِيِّ وَالسَّيُوطِيِّ وَغَيْرِهِمْ.

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ مَنَّا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا

أَلْكِتَابِ قِيلَ أَرَادَ بِهِ الْيَهُودَ خَاصَّةً وَقِيلَ أَرَادَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَقِيلَ أَرَادَ بِهِ كُلٌّ مِنْ أَوْتِي عِلْماً بِشَيْءٍ مِنَ الْكِتَابِ وَتَبِعَهُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ انْتَفَقَتِ الْكَلِمَةُ بَيْنَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ عَلَى وَجوبِ إِظْهَارِ الْعِلْمِ وَهُوَ مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ إجمالاً إِلَّا أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ عَلَى إِطْلَاقِهِ صَحِيحاً بَلِ الْحَقُّ هُوَ الْقَوْلُ بِوُجُوبِهِ فِي بَعْضِ الْمَوَارِدِ دُونَ بَعْضِ كَمُورِدِ التَّقْيَةِ مَثَلاً أَذْ قَدْ ثَبَتَ عَقْلاً وَنَقْلاً كَتِمَانِ الْعِلْمِ فِي بَابِ التَّقْيَةِ بَلِ يَجِبُ الْكَتِمَانُ وَيَحْرَمُ الْإِظْهَارُ فِي جَمِيعِ مَوَارِدِهَا كَمَا هُوَ ثَابِتٌ عِنْدَنَا وَأَمَّا فِي غَيْرِ التَّقْيَةِ فِيمَا إِذَا كَانَ الْمُخَاطَبُ وَالسَّائِلُ أَهْلاً لَهُ فَيَجِبُ الْإِظْهَارُ وَأَمَّا فِيمَا لَمْ يَكُنِ السَّائِلُ أَوْ الْمُسْتَمِعُ أَهْلاً فَلَا يَجِبُ لِأَنَّ الْإِظْهَارَ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَوَارِدِ تَضْيِيعٌ لِلْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَالتَّقْلُّ يَحْكُمَانِ بِقَبْحِهِ.

روى في البحار عن عبد الله بن سليمان قال: كنتُ عند أبي جعفر فقال: له رجل من أهل البصرة يقال له عثمان الأعمى أَنَّ الحَسَنَ البصري يزعم أَنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْعِلْمَ تُوْذِي رِيحَ بَطُونِهِمْ مِنْ يَدْخُلُ النَّارَ فقال أبو جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهَلْكَ إِذَا مَوْءُنَ آلِ فِرْعَوْنَ وَاللَّهِ مَدَحَهُ بِذَلِكَ وَمَا زَالَ الْعِلْمُ مَكْتُوماً مِنْذُ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ نُوحاً فَلْيَذْهَبِ الْحَسَنُ يَمِيناً وَشِمَالاً فَوَاللَّهِ مَا يُوجَدُ الْعِلْمُ إِلَّا هَاهُنَا انْتَهَى. وَبِأَسْنَادِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: أَنَّ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ قَامَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَحْدُثُوا بِالْحِكْمَةِ الْجَهَالَ فَتُظْلَمُوا هُمْ وَلَا تَمْنَعُوهَا أَهْلَهَا فَتُظْلَمُوا هُمْ انْتَهَى.

وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْعَسْكَرِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ سَأَلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ حَيْثُ يَجِبُ إِظْهَارُهُ وَتَزُولُ عَنْهُ التَّقْيَةُ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجِماً بِلُجَامٍ مِنَ النَّارِ انْتَهَى^(١).

والأحاديث بهذه المضامين كثيرة فالآية لا تدل على وجوب إظهار العلم بقولٍ مطلق وهو المطلوب هذا محصل الكلام في تفسير الآية على مذاق المفسرين من العامة والخاصة وقد سلك بعض المفسرين من المتأخرين في تفسير الآية مسلكاً آخر أعلى وأتقن من مسلك القوم ومع ذلك أفيد وأشمل وأوفق بمذاق القرآن وحيث إنجر الكلام الى هنا لا بأس بنقل كلامه قال: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَي أذكروا اذا أخذ الله الميثاق عليهم بلسان أنبيائهم نقول في التوراة لأن القرآن لم يقل بذلك ولا بعده فليس لنا أن نقيّد برأينا ما أطلقه ونزيد عليه بغير علم لَسُبِّتَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ أَي أكد عليهم إيجاب البيان أو التبيين وفيه معنى التكتيّر والتدريج كما يؤكد على المخاطب أهمّ الامور بالعهد واليمين فقال له، الله لتفعلنّ كذا فقرأه من قرأ بقاء الخطاب حكاية للمخاطبة التي أخذ بها الميثاق وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية ابن عياش بالمشنة التحتية، لِيُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ، لأنهم غائبون روي عن سعيد بن جبير والسدي أن الذي أخذ عليهم الموثق ببيانه هو محمد ﷺ وعن الحسن وقتادة أنه الكتاب الذي أوتوه وهو الظاهر المتبادر ويدخل فيه البشارة بالنبي وتبيينه هو أن يوضحوا معانيه كما هي ولا يؤله ولا يحرفوه عن مواضعه التي وضع لتقريرها ومقاصده التي أنزل لأجلها حتى لا يقع في فهمه لبس ولا إضطراب وهاهنا أمران: العلم بالكتاب على غير وجهه وهو نتيجة عدم البيان.

وعدم العلم به بالمرة وهو نتيجة الكتمان وقد يقال أن الظاهر المتبادر في الترتيب هو أن ينهي عن الكتمان أولاً ثم يأمر بالبيان لأن البيان أنما يكون مع إظهار الكتاب فلماذا عكس، ولا جواب عن هذا أن القرآن قدم أهمّ الأمرين لأن المخالفة في الأول وهو الكتمان تقتضي الجهل البسيط وهو الجهل بالدين.

و في الثّاني: تقتضي الجهل المركّب وهو اعتقاد ما ليس بدين ديناً و الجهل البسيط أهون لأنّ صاحبه يوشك أن يظفر بالكتاب يوماً فيهتدي به و يعرف الدّين و أمّا الجهل المركّب و هو فهمه على غير وجهه فيعسر زواله بالمرّة فيكون صاحبه ضالاً وجود اعلام الهداية والعبرة في ذلك ظاهرة عندنا فان كتابنا هو القرآن لم يوجد كتاب في الدّنيا حفظ كما حفظ و نقل كما نقل و نشر كما نشر فإنّ الجماهير من المسلمين قد حفظوه عن ظهر القلب من القرن الأوّل الى هذا اليوم و هم يتلونه في كلّ مكان حتّى أنّك تسمعه في الشّوارع و الأسواق و مجتمعات الأفراح و الاحزان و في كلّ حالٍ من الأحوال و لكنّهم تركوا تبيينه للنّاس فلم يغن عنهم عدم الكتمان شيئاً فأنهم فقدوا هدايته حتّى أنّهم يعترفون بأنّ المسلمين أنفسهم منحرفون عنه و أنّ القابض على دينه كالقابض على الجمر و يعترفون بأنّ العُش قد عمّ وطمّ و يعترفون بارتفاع الأمانة و شيوع الخيانة الخ و كلّ هذا من نتائج ترك التّبيين.

قال ولهذه التّعمية و هذا الإضطراب في فهم الكتاب أسباب أهمّها ما كان من الخلاف بين العلماء من قبل لا سيّما في القرن الثالث فقد انقسمت الأمة الى شيع و ذهبت في الخلاف مذاهب في الأصول و الفروع و صار كلّ فريق ينصر مذهبه و يحتجّ له بالكتاب يأخذ ما وافقه منه و يؤلّ ما خالفه و إنّبعم النّاس على ذلك و رضي كلّ فريق من المسلمين بكتب طائفة من أولئك المختلفين حتّى جاءت أزمنة ترك فيها الجميع التّحاكم الى القرآن و تأييد ما يذهبون اليه به و تأويل ما عداه بل وصلنا الى زمنٍ يحرمون فيه ذلك و لا يرون فيه للقرآن فائدة تتعلّق بمعناه بل كلّ فائدة عندهم أنّه يُتبرك به و يتعبّد بألفاظه و يستشفّى به من أمراض الجسد دون أمراض القلب و الرّوح حتّى صرنا نتمنّى لو دامت تلك الخلافات فأنّه أهون من هجر القرآن تباتاً فإنّ النّاس قد وقعوا في إضطراب من أمر دينهم حتّى صاروا يحسبون ما ليس بدين ديناً و حتّى أنّ العلماء يرون المنكرات و لا ينكرونها بل كثيراً ما يقعون فيها أو يتأوّلون

لفاعليها ولو بَيَّنوا للنَّاس كتاب الله لقبوله أقول أنَّ الذين تصدَّوا لتبيين القرآن في الكتب وهم المفسِّرون لم يكن تبيينهم كما ينبغي وكان جمال الدِّين يقول أنَّ القرآن لا يزال بكَراً، وأنَّ لي كلمة ما زلت أقولها وهي أنَّ سبب تقصير المفسِّرين الذين وصلت إلينا كتبهم هو عدم الإستقلال التَّام في الفهم وما كان ذلك لبلادةٍ وإنَّما جاء من أمور أهمَّها الإفتتان بالروايات الكثيرة وتغلب الإصطلاحات الفُنية في الكلام والأصول والفقه غير ذلك ومحاولة نصر المذاهب وتأييدها.

ثمَّ قال، أنَّ البيان أو التَّبين على نوعين أحدهما تبيينه لغير المؤمنين لأجل دعوتهم إليه وثانيها تبيينه للمؤمنين لأجل إرشادهم وهدايتهم بما أنزل إليهم من ربِّهم وكُلٌّ من كُلٍّ واحد من النوعين واجب حتم لا هوادة فيه ولا يشترط فيه ما أشترطه بعض الفقهاء من الإستفتاء والسؤال إذ زعموا أنَّ العالم لا يجب عليه التصدِّي لدعوة النَّاس وتعليمهم إلَّا إذا سألوه ذلك والقرآن حجة عليهم وهذه الآية أكد في الإيجاب من قوله تعالى في هذه السُّورة: **وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ** ^(١) فَإِنَّ الأمر وأن كان هناك للوجوب لأنَّ الأصل فيه ذلك على قول جمهور الأصوليين وأكَّد بقوله: **أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** إلَّا أنَّ التَّأكيد فيه دون تأكيد أخذ الميثاق هنا وما فيه من معنى القسَم ثمَّ ما يليه من تصوير ترك الإمثال بنبد الكتاب وبيعه بثمن قليل ومن الدَّم والوعيد على ذلك إذ قال: **فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ** التَّبذ الطَّرْح وقد جرت كلمة نبذه وراء ظهره مجرى المثل في ترك الشَّيْ وعدم المُبالاة به والإهتمام بشأنه كما يقال في مقابل ذلك، جعله نصب عينيه، أو ألقاه بين عينيه أي إهتَمَّ به أشدَّ الإهتمام بحيث كأنَّه يراه في كلِّ وقتٍ فلا ينساه ولا يغفل عنه وفيه تنبيه على كون هذا هو الواجب الَّذي كان عليهم أن يقوموا به فيجعلوا الكتاب إماماً لهم ونصب أعينهم لا شيئاً مهملاً ملقاً وراء الظَّهر لا ينظر اليه ولا يفكر في شأنه وكذلك

نبد القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

كان أهل الكتاب الذين يحملونه كما يحمل الحمار الأسفار فلا يستفيد فيها شيئاً، ومنهم الذين يحرفونه عن مواضعه، ومنهم الذين لا يعلمون منه إلا ما في يمتنونها أي قراءات يقرأونها أو تشهيات يشتهونها ثم يبين تعالى جريمة أخرى من جرائمهم في الكتاب فقال: **وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا** أي أخذوا بدله فائدة دنيوية قليلة لا توازي عشر فوائد بيان الكتاب والعمل به فكانوا مغبونين في هذا البيع والشراء وهذا الثمن هو ما كان يستفيدة الرؤساء من المرؤوسين وعكسه، ومنه ما يتقرب به العلماء إلى الحكام وأجور الفتاوي الباطلة.

أَقُولُ ثم فصل الكلام في تعيين مرجع الضمير في قوله فنبدوه وقوله: **وَاشْتَرَوْا بِهِ** فقال هو ضمير الكتاب لا الميثاق أي نبذوا الكتاب وراء ظهورهم واشتروا بالكتاب ثمنًا قليلًا ونقل عن إسناده رجوعه إلى الميثاق، فقال نبذوا الميثاق اذ تركوا العمل بالكتاب والتمن القليل الذي اشتروه به لم يبينه القرآن لأنه ظاهر في نفسه معروف من سيرتهم وهو عبارة عن التمتع بالشهوات الدنية واللذات الفانية فكان أحدهم يجد في العمل بالكتاب والتزام الشريعة مشقة فيتركه حباً في الراحة وإثارة للذة، وأما التأويل والتحريف فقد كان لهم أغراض كثيرة.

منها الخوف من الحكام والرجاء فيهم فيحرف رجال الدين النصوص عن مواضعها المقصودة ويصرفونها إلى معاني أخرى ليوافقوا ما يريد الحاكم فيأمنوا شره وينالوا برّه.

ومنها، إرضاء العامة والأغنياء خاصة بموافقة أهوائهم لإستفادة الجاه والمال. ومنها، وهو الأصل في التحريف الجدل والمرء بين رجال الدين أنفسهم لا سيما الرؤساء وطلاب الرئاسة منهم فأَنَّ الواحد من هؤلاء اذ قال قولاً وافتى فإخطأ فابان خطأ آخر ينبرى ليصيح قوله و توجيهه فيتاه و تخطئة خصمه و تاخذه العزة بالاثم فيرى الموت اهون عليه من الاعتراف بخطاه و الرجوع ال قول اخيه فى العلم والدين.

و منها الجهل فإنَّ المتصدى للتعليم و القيتنا قد يجهل مسائل فيتعرّض لبيانها بغير علم و إذا أبيع لمثل هذا أن يعلم للأسباب التي نعدّها من الرّؤساء الذين يجيزون جهلة الطّلاب بالتدريس و يعطونهم الشّهادة بالعلم محابة لهم فإنّه يرّبي تلاميذ أجهل منه فيكونون كلّهم محرّفين و يفسد بهم الدّين لا سيّما اذا صاروا مقرّبين من الأمراء و الحطّام.

و منها، إنقطاع سلسلة أهل الفهم و التّبيين و خبط النّاس بعدهم فيما يؤثرون عنهم من بيان و حمله على غير المراد منه حتّى بعد و عن الأصل بعداً شاسعاً ثمّ قال و أنظر في حال المسلمين الذين إتبعوا سنن من قبلهم و اعتبر بحال أهل الأزهر منهم ترى بعينك كما رأينا و تسمع بأذنك كما كما سمعنا و تفهم سرّها قصّة الله من أبناء أهل الكتاب علينا و ممّا سمعه هو و هو العجب العجائب قول شيخ من أكبر الشّيوخ سنّاً و شهرةً في العلم في مجلس إدارة الأزهر على مسع ألماء من العلماء، من قال أنّي أعمل بالكتاب و السنّة فهو زيد زنديق يعني أنّه لا يجوز العمل إلّا بكتب الفقهاء فقال له الأستاذ، من قال أنّي أعمل في ديني بغير الكتاب و السنّة فهو الزنديق ثمّ قال و أعلم أنّه لا مفسدة أضّرّ على الدّين و أبعت على إضاعة الكتاب و نبذه وراء الظّهر و اشتراء ثمن قليل به من جعل أرزاق العلماء و رتبهم في أيدي الأمراء و الحكّام فيجب أن يكون علماء الدّين مستقلّين تمام الإستقلال دون الحكّام لا سيّما المستبدّين منهم و أنّي لا أعقل لجعل الرّتب العلميّة و معاش العلماء في أيدي السّلاطين و الأمراء إلّا جعل هذه السّلاسل الذّهبية أغلالاً في أعناقهم يقودونهم بها الى حيث شاؤوا من غشّ العامّة بإسم الدّين و جعلها مستعبدة لهؤلاء المستبدّين ولو علمت العامّة لما أوثقت بقول و لا فتوى من عالم رسمي مطوّق بتلك السّلاسل و قد انتهت الأمر بالرتب العلميّة في الدّولة العثمانيّة أن صارت توجه على الأطفال بله الجاهلين من الرّجال حتّى قال فيها أحد علماء طرابلس الشّام من قصيدة طويلة في سوء حال الدّولة:

زَمَنْ رَأَيْتُ بِهِ الْعَجَائِبُ وَذَهَلْتُ فِيهِ مِنَ الْقَرَائِبِ
 زَمَنْ بِهِ الْوَهْمُ السَّخِيفُ عَلَى الْعُقُولِ (عَلَى عُقُولِ النَّاسِ) غَالِبُ
 أَفْلا تَرَاهُمْ جَانِبُوا كَسْبُ الْمَعَارِفِ وَالْمَادِبِ
 وَرَضُوا بِأَوْرَاقٍ تَخْطُ خُطُوطُهَا مِثْلُ الْعُقَارِبِ
 يَشْهَدُونَ زُوراً أَنَّنِي مِنْ هِيَ بِإِسْمِهِ نُورُ الْغِيَاہِ
 عَلَامَةُ الْعُلَمَاءِ أَوْ بِلَاغُ دَوْلَةِ الْمَآرِبِ
 وَيَكُونُ أَجْهَلُ جَاهِلٍ وَلَمَّا لَهَا بِالْعَشِّ نَاهِبِ
 أَوْ أَنَّهُ حَدَّثَ عَلِيَّ

فَخَذِيهِ خَرَّ اللَّيْلُ لَازِبِ

ثُمَّ قَالَ أَنَّ عُلَمَاءَ السَّلَفِ كَانُوا يَهْرَبُونَ مِنْ قَرَبِ الْأُمَرَاءِ الْمُسْتَبْدِينَ أَشَدَّ مِمَّا يَهْرَبُونَ مِنَ الْحَيَاتِ وَالْعُقَارِبِ وَرَوَوْا فِي ذَلِكَ أَخْبَاراً وَأَثَاراً كَثِيرَةً:

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ زَادَ فِي رِوَايَةِ يَكْذِبُونَ وَيَظْلُمُونَ
 فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي
 وَ لَسْتُ مِنْهُ وَ لَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَيَّ الْحَوْضُ الْحَدِيثُ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ
 وَصَحَّحَهُ أَيْضاً وَ الْبَيْهَقِيُّ وَ فِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ
 أُمَّةٌ يَمْلِكُونَ أَرْزَاقَكُمْ يَحْدِّثُونَكُمْ فَيَكْذِبُونَكُمْ وَيَعْمَلُونَ فَيَسِيئُونَ
 الْعَمَلَ لَا يَرْضَوْنَ مِنْكُمْ حَتَّى تَحْسِنُوا قَبِيحَهُمْ وَتَصَدَّقُوا كَذِبَهُمْ
 فَأَعْطَوْهُمْ الْحَقَّ مَا رَضُوا بِهِ فَإِذَا تَجَاوَزَ فَمَنْ قُتِلَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ
 شَهِيدٌ، رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ أَبِي سَلَالَةَ.

حَدِيثُ أَنَسِ الْمَشْهُورِ، الْعُلَمَاءُ أَمْنَاءُ الرُّسُلِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى مَا
 لَمْ يَخَالُطُوا السُّلْطَانَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ قَدْ خَانُوا الرُّسُلَ فَأَحْذَرُوهُمْ
 وَاعْتَزَلُوهُمْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْمَصْنَفِ الْخ.

حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَنَساً مِنْ أُمَّتِي يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ وَيَقْرَأُونَ
 الْقُرْآنَ فَيَقُولُونَ فَاتَى الْأُمَرَاءَ فَنَصِيبٌ مِنْ دُنْيَاهُمْ وَ نَعْتَزَلُهُمْ بِدِينِنَا

ولا يكون ذلك كما لا يجتني من القتاد إلا الشوك كذلك لا يجتني من قربهم إلا الخطايا قال السيوطي رواه ابن ماجة بسند رواة ثقات وكذا ابن عساكر ومن حديثه عند الديلمي سيكون في آخر الزمان علماء يرغبون الناس في الآخرة ولا يرغبون ويزهدون الناس في الدنيا ولا يزهدون، وينهون عن غشيان الأمراء ولا ينتهون، ومن حديث معاذ بن جبل ما من عالم أتى صاحب سلطان طوعاً إلا كان شريكه في كل لونٍ يعذب به في نار جهنم انتهى.

أقول ثم ذكر روايات أخر في الباب بهذه المضامين أعرضنا عن نقلها لعدم الاحتياج إليها فأنت فيما ذكرناه كفاية.

ثم قال قال تعالى: فَبَشِّرْ مَا يَشْتَرُونَ أي هو ذميمٌ قبيح لأنهم يجعلون هذا العرض الفاني بدلاً من النعيم الباقي في الآخرة وكذا من سعادة الدنيا الحقيقية التي تحصل للامة بمحافظه العلماء على الكتاب وتبيينه لها وإرشادها به إلى ما يهذب أخلاقها ويعلي أدابها ويجمع كلمتها ويحول بينها وبين مطالع المستبدين فيها حتى تكون أمة عزيزة قوية متكافلة متضامنة أمرها شورى بين أهل الرأي وأولي الأمر من أفرادها انتهى كلامه^(١).

أقول أنما نقلنا كلام صاحب المنار بطوله لما فيه من الفوائد ما لا يخفى على المتأمل ولا سيما أنه قد أفرغ على نفسه في موارد كثيرة من كلامه هذا على إنحراف المسلمين وبذم القرآن وراء ظهورهم وتشبثهم بظواهر القرآن دون العمل ما ذكره من تقرّبهم إلى سلاطين الجور وتفسيرهم الآيات طبقاً لأميالهم وآرائهم وأنهم جعلوا هذا العرض الفاني بدلاً من النعيم الباقي إلى آخر ما قال في طي كلماته ونحن أيضاً لاشك في متحد ما ذكره ونقله عن استاده شيخ محمد عبده فإنه حق الامرية فيه إلا أنا نقول ما ذكره في علّة التحريف والتأويل من الأغراض كالخوف من الحكّام وإرضاء العامة والجدل والمراء والجهل وغير

ذلك من الأمور التي ذكرها أصلاً وعلةً لإنحراف المسلمين عن طريق الحق ونبذهم القرآن وراء ظهورهم من حيث عدم العمل ليس اصلاً لانحراف المسلمين بل العلة به بل العلة الأصلية لهذا الداء هي تأسيس السقيفة في صدر الإسلام وحيلولة أصحابها بين القرآن والعتره وبعبارة أخرى أخذهم القرآن على أصل أسستة المؤسس في قوله: حسبنا كتاب الله، وتركهم العمل به إلا فيما إذا كان القرآن موافقاً لمقاصدهم، فهذا أبو بكر بن ابي قحافة يروي عن رسول الله ﷺ أنه قال نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة، مخالف لصريح القرآن حيث قال يُوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين الآية وقال وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض الآية وكيف يعقل أن يقول الرسول به و هو ﷺ قال ما خالف القرآن فأضربوه على الجدار أو نظير ذلك أليس الحديث يُعرض على كتاب الله فما وافقه يؤخذ به وما خالفه يترك والحق أن أبا بكر أراد أن يأخذ فذكاً عن الزهراء عليها السلام فجعل هذا الحديث وشهد له عمر وعائشة وخفصة فأخذ حق البتول تمسكاً بهذا الحديث المخالف للقرآن ونحن نسأل عن صاحب تفسير المنار ونقول له ما تقول في قصة فذك أليس ما فعله أبو بكر على خلاف القرآن طرداً ونبذاً للكتاب وراء ظهره والجواب مثبت فإذا كان أبو بكر بعد رسول الله من أجلى مصاديق الآية فما ظنك بغيره من الخلفاء والحكام بعده و حيث كان أبو بكر من أكبر أولاد السقيفة فهي الأصل ولهذا قلنا في صدر المبحث أن العلة الأصلية لهذا الداء هي وجود السقيفة في صدر الإسلام ثم نشأت من هذا الأم الخبيث أولاداً وأحفاداً لا يمكن عدّها وحصرها كجعل الأحاديث وتفسير القرآن على الآراء والأهواء والعلماء الذين باعوا دينهم أن كان لهم دين، بدنياهم بل بدنيا غيرهم مثل أبي هريرة الدؤسي وسمرة بن جندب وأنس وعمر بن العاص الذي باع دينه بدنيا معاوية والزهرى والشعبي وأمثالهم ممن لا ينبغي عدّهم من المسلمين فضلاً عن العلماء وهلم جرّاً إلى زماننا هذا والعجب كل العجب من صاحب تفسير المنار وغيره من مفسري العامة كيف يتفوهون بهذه

الكلمات وكلهم فسروا القرآن بأرائهم أو بآراء أسلافهم من العلماء الذين عرفتهم إجمالاً فهذا تفسير الطبري وبعده الدر المنثور للسيوطي والجامع لأحكام القرآن للقرطبي وغيرهم من مفسريهم كلهم رَوَوْا في تفاسيرهم عن أبي هريرة وأنس و عطاء وابن أبي رباح و معاوية و عمرو بن العاص و السدي وابن وهب و يونس و قتادة و أمثالهم و ليس من روايات أهل البيت الذين طهرهم الله عن الرّجس في تفاسيرهم عين و لا أثر، ألم يكن الرسول ﷺ جعل العترة عدل الكتاب في حديث الثقلين حيث قال أني تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي أهل بيتي ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً لن يفترقا حتى يردوا عليّ الحوض.

رواه الفريقين في كتبهم فإذا كانت العترة بهذه المثابة في كلام رسول الله فما بال هؤلاء وغيرهم تركوا أقوالهم في كتاب الله وأخذوا بأقوال الجهال و المعاندين الملحدين الذين تعمدوا الكذب على الله و رسوله وسعوا في إنحراف المسلمين عن الحق كما ستعرف في تفسير الآيات شرطاً من شطحاتهم بحول الله وقوته ومحصل الكلام في المقام هو أنّ تفسير كلام الله إذا لم يؤخذ من أهل البيت الذين نزل القرآن في بيتهم وأهل البيت أدري بما في البيت فهو ليس من تفسير كلام الله بشئ و ما ليس من تفسير كلامه ومع ذلك يسند اليه فهو من أجلى مصاديق قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وهذا هو المراد بقوله فنبدوه وراء ظهورهم الخ.

لا ما ذكره صاحب المنار ولنعم ما قيل.

وأئمة من أهل بيت محمد	أحفظوا الشرائع والحديث المسندا
علموا المنايا والبلايا والذي	جهل الوري و المبتدأ والمنتهى
خرّان علم الله من برشادهم	دلّ الإله على هداه وأرشدا
وهم الصراط المستقيم ومنهج	منه الى رب المعالي يهتدي

حجج إذا هم العدو بكتمها

أمر المهيمن قلبه أن يشهدا

ولله در القائل حيث قال:

يا آل حم الذين بُحِبهم حَكَم الكتاب منزلاً تنزيلاً
كان المديح على الملوك وكُنتم حلل المدائح عزّة وجحولاً
بيت إذا عدّ المأثر أهله عدو النبي وثانياً جبريلاً
قوم إذا اعتدلوا الحمائل أصبحوا مقسمين خليفة ورسولاً
نشأوا بآيات الكتاب فما إنثوا حتّى صدرن كهولةً وكُهلوا
ثقلان لن يَتفرقا أو يطيا بالحوض من ظماء الصدور غليل
وخليفتان على الانام بقوله الحق اصدق من تكلم قبيلاً
فاتو الف الا يسين فاصبحوا ما ليدلون سوى الكتاب عدل ولنختم
الكلام فى هذا المقام الحمد لله رب العالمين.

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا

الخطاب للرسول ﷺ أي لا تحسبن الفارحين بما أتوا أي بما فعلوا فإن،
أتى بمعنى، فعل كقوله تعالى: **إِنَّهُ كَانَ وَغَدُةً مُّأْتِيَةً** ^(١) أي مفعولاً ويدل على ما
ذكرناه قراءة، أتي، بما فعلوا، الذي فعلوه أقوال للمفسرين.

أحدها: كنتم ما سألهم عنه الرسول وإخبارهم بغيره وأروه أنهم قد أخبروا
به وإستحمدوا بذلك اليه قاله بن عباس.

الثانى: ما أصابوا من الدنيا وأحبوا أن يقال أنهم علماء قاله بن عباس
أيضاً.

الثالث: قولهم نحن على دين إبراهيم وكنتمهم أمر الرسول قاله ابن جبير.
الرابع: كنتمهم الى اليهود يهود الأرض كلها أن محمداً ليس بنبي فأتيتوا
على دينكم فأجتمعت كلمتهم على الكفر به وقالوا نحن أهل الصوم والصلاة
وأولياء الله قاله الضحاك والسدى.

الخامس: قول يهود خيبر للنبي ﷺ وأصحابه نحن على دينكم ونحن لكم ردة وهم مستمسكون بضلالهم وأرادوا أن يحمدا بما لم يفعلوا قاله قتادة.

السادس: تجهيز اليهود جيشاً إلى النبي ﷺ وإنفاقهم على ذلك الجيش قاله النخعي.

السابع: إخبار جماعة من اليهود للمسلمين حين خرجوا من عند النبي ﷺ قد أخبرهم بأشياء عرفوها فحمدهم المسلمون على ذلك وأبطنوا خلاف ما أظهروا ذكره الزجاج.

الثامن: إتباع الناس لهم في تبديل التوراة وأحبوا حمدهم أيأهم على ذلك ولم يفعلوا شيئاً نافعاً ولا صحيحاً قاله مجاهد.

التاسع: تخلف المنافقين عن الغزو وحلفهم للمسلمين أنهم يسرون بنصرهم وكانوا يحبون أن يقال أنهم في حكم المجاهدين قاله أبو سعيد الخدري انتهى.

أقول فعلى الأخير نزلت في المنافقين وعلى الأقوال السابقة نزلت في اليهود ثم أن الحق في معنى الكلام حمله على العموم ليكون شاملاً لكل من يأتي بحسنة فرح بها فرح إعجاب ويحب أن يحمده الناس ويشنوا عليه بالديانة والزهد وبما ليس فيه أن قلت بناءً على قراءة التاء في، لا تحسبن كما هو المشهور فقوله: الَّذِينَ يَفْرَحُونَ مفعوله الأول، فأين المفعول الثاني، قلت أنه محذوف لدلالة الكلام عليه وهو قوله: تحسبن لأن ما يجي من بعد قوله: فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بمفازة من العذاب يدل عليه أي وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا فائزين أي مبغدين عن العذاب لأن الفوز معناه التباعد من المكروه فقوله: فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ، توكيد للأول، وكيف كان فمعنى الآية لا تحسبن يا محمد، بناءً على قراءة التاء والباء المفتوحة وأما على قراءة من ضم الباء فالمعنى لا تحسبن أيها المؤمنون، وعلى قراءة يحسبن بالياء فالمعنى لا يحسبن اليهود أو

المنافقين على إختلاف النّزول كما مرّ وعلى الجميع أفادت الآية أنّ الذين يفرحون بما أتوا أي بما فعلوا، أو بما أعطوا ويحبّون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا فقد أخطأوا خطأ فاحشاً بل لهم عذاب أليم لنفاقهم وكفرهم أو لكتمانهم أمر محمد ﷺ فالمعنى واضح لا خفاء فيه.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

اللام في، لله، للإختصاص أو للملك والمعنى أنّ ملك السّموات والأرض مختصّ به تعالى أو أنّ السّموات والأرض وما فيهما جميعاً ملكه تعالى، والمال في القولين واحد إذ لا شك أنّ المالك الحقيقي في عالم الوجود ليس إلّا الله وما سواه كائنات من كان مخلوق مملوك له وفي قوله: **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** نصّ على عموم قدرته تعالى على جميع المقدورات فالبحث يقع في مقامين.

أحدهما: إثبات أصل القدرة في حقّه تعالى.

الثاني: إثبات عمومه.

أما الأول: فالدليل عليه هو أنّ العالم حادث محتاج إلى المؤثر والمؤثر لا يكون حادثاً وإلّا يتسلسل وإذا لم يكن حادثاً فهو واجب لإنحصار الموجود فيهما والواجب لا يكون إلّا الله تعالى فثبت أنّ المؤثر واجب الوجود والمؤثر لا بدّ له من القدرة بمعنى الإيجاد على الشيء وإلّا لا يكون مؤثراً فهو تعالى قادر وهو المطلوب وأن شئت قلت أنّ المؤثرية لا تنفك عن القدرة وإلّا لا يكون المؤثر مؤثراً هـ.

أما الثاني: وهو عموم القدرة وهو الذي أشارت إليه الآية فقد نازع فيه الحكماء، فمنهم من قال أنّه تعالى واحد والواحد لا يصدر منه إلّا واحد ومنهم من زعم أنّه تعالى لا يقدر على إيجاد الشّور و هم الثنوية ومنهم من اعتقد أنّه لا يقدر على القبيح وهو النظام، ومنهم من منع قدرته على مثل

مقدورنا وهو البلخي ومن تبعه ومنهم من أحال قدرته على عين مقدورنا و هما الجبائيان والكل باطل عاطل وذلك لأن نسبة ذاته الى جميع المقدورات على حد سواء، ولا مانع بين الذات والمقدور فيجب التعلق العام أعني به عموم القدرة.

أما الأول: فلأن مقتضى لكونه تعالى قادراً ليس إلا ذاته ونسبتها الى الجميع متساوية لتجردها فيكون مقتضاها أيضاً متساوي النسبة.

أما الثاني: فلأن مقتضى لكون الشيء مقدوراً هو إمكانه وهو مشترك بين الكل فيكون مقتضاه أيضاً متساوي النسبة وهو المطلوب.

واذا انتفى المانع بالنسبة الى القادر والمقدور وجب التعلق التام ولا نعني بعموم القدرة إلا هذا وأما دليل النقل على اثباتها وعموماً فلانحتاج الى ذكره بكثرة الآيات والاختبار في الباب . وإذا انتفى المانع بالنسبة الى القادر وبالنسبة الى المقدور وجب.



إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ
 اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ (١٩٠)
 الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى
 جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا
 عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ
 فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢)
 رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا
 بِرَبِّكُمْ فَأَمْنَّا رَبَّنَا فَأَعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
 سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا
 وَعَدْتَنَا عَلَى رُسْلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ
 لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)

◀ اللغة

الْأَلْبَاب: جمع اللَّب وهو العقل الخالص من شوائب الأهوام ولَب الشَّيْ خالصة.

جُنُوبِهِمْ: أصل الجَنْب الجارحة ثم يستعار في النَّاحِيَةِ التي تليها.

أَخْزَيْتَهُ: يقال خزي الرجل إِذْ لَحِقَهُ إِنْكَسَارٌ أَمَا مِنْ نَفْسِهِ وَأَمَا مِنْ غَيْرِهِ
 فَالَّذِي يَلْحَقُهُ مِنْ نَفْسِهِ هُوَ الْحِيَاءُ الْمَفْرُطُ وَمَصْدَرُهُ الْخِزَايَةُ وَالَّذِي يَلْحَقُهُ مِنْ
 غَيْرِ يُقَالُ هُوَ ضَرَبٌ مِنَ الْإِسْتِخْفَافِ وَمَصْدَرُهُ الْخِزْيُ، وَأَخْزَى مِنَ الْخِزَايَةِ
 وَالْخِزْيِ جَمِيعًا، كَفَرَ، التَّكْفِيرُ، السَّرُّ وَالتَّغْطِيَةُ حَتَّى يَصِيرَ بِمَنْزِلَةِ مَا لَمْ يَعْمَلْ.

◀ الإعراب

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِي مَوْضِعٍ جَزْءٍ، لأولي الألباب أو في موضع نصب بإضمار أعني أو رفع على إضمار، هم، ويجوز أن يكون مبتدأ، والخبر محذوف تقديره يقولون ربنا قيماً وقعوداً حالان من ضمير الفاعل في يذكرون وعلى جنوبيهم حال أيضاً وحرف الجر يتعلق بمحذوف هو الحال في الأصل تقديره ومضطجعين على جنبهم ويتفكرون معطوف على يذكرون ويجوز أن يكون حالاً أي يذكرون الله متفكرين باطلاً مفعول لأجله والباطل هنا فاعل بمعنى المصدر والمعنى فأخلفتها عبثاً من تدخل النار في موضع نصب بتدخل أو منصوب بفعل دل عليه جواب الشرط وهو فقد أخزيتته و قيل، من مبتدأ والشرط وجوابه الخبر يُنادي صفة، لمنادياً، أو حال من الضمير فيه أن أمثوا أن هنا بمعنى، أي، ويجوز أن تكون مصدرية وصلت بالأمر والتقدير، ينادي للإيمان بأن آمنوا مع الأبرار صفة للمفعول المحذوف تقديره، أبراراً مع الأبرار وأبراراً، على هذا حال، والأبرار جمع برّ وأصله بر مثل كتف وأكتاف على رُسلك أي على سنته رسلك، وعلى، متعلقة، بوعدتنا ويجوز أن يكون بآتنا الميعاد مصدر بمعنى الوعد.

◀ التفسير

إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ، سماء كل شيء أعلاه وقال بعضهم كل سماء بالاضافة الى ما دونها فسماء وبالأضافة الى ما فوقها فأرض الى أن قال والسماء المقابل للأرض مؤنث وقد يذكر ويستعمل للواحد والجمع وقد يقال في جمعها سموات انتهى.

وقال، الأرض الجرم المقابل وجمعه أرضون ويعبر بها عن أسفل الشيء كما يعبر بالسماء عن أعلاه قال الشاعر:

وأحمر كالدجاج أما سماؤها فزياً وأما أرضها فمحمول انتهى

وَأَمَّا عَجَائِبُ الْخَلْقَةِ فِيهِمَا فَلَا يَصِلُ إِلَيْهَا عَقْلُ الْبَشَرِ وَمَعَ ذَلِكَ أَمْرٌ بِالتَّفَكُّرِ فِيهِمَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ لِأَنَّ مَا لَا يُدْرِكُ كُلَّهُ لَا يَتْرَكَ كُلَّهُ أَلَا تَرَى أَنَّ تَوْحِيدَ الْعَوَامِ لَا يَحْصُلُ إِلَّا مِنْ دَلَالَةِ الْآثَارِ عَلَى وَجُودِ الْمُؤَثِّرِ وَمِنْ أَعْظَمِ الْآثَارِ الْمَحْسُوسَةِ وَجُودِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَنَافِعِ الْمَعْدَّةِ لِأَدَامَةِ الْحَيَاتِ لَهُمْ وَلِذَلِكَ أَمَرْنَا بِالتَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ فِيهِمَا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالثَّلْجِ الَّذِي تَجْرِي فِيهِ الْبَحْرُ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْضَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضَرِّفُ الرِّيَّاحُ وَالسَّحَابُ الْمُسَخَّرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْضِ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^(٣).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ^(٤) وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ فِيهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ^(٥) وَالْآيَاتُ كَثِيرَةٌ.

قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ الْمَرَادُ بِالْخَلْقِ هُنَا التَّرْتِيبُ وَالتَّقْدِيرُ لَا الْإِبْجَادُ مِنَ الْعَدَمِ كَمَا هُوَ مُصْطَلَحُ أَهْلِ الْكَلَامِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِالطَّوْلِ وَالْقَصْرِ فِي أَيَّامِ السَّنَةِ أَوْ بِالنُّورِ وَالظُّلْمَةِ وَجَعَلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَسِيلَةً وَسَبَبًا لِلْبَقَاءِ

والحياة لآياتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ أَي أَنَّ فِيهَا لآياتٍ أَي علامات دالّات على وجود الصّانع الحكيم الخبير وذلك لأنّ نظم الآثار يدلّ على وجود الخالق الحكيم فوجود الاثر يدلّ على وجود المؤثر ونظمه وترتيبه يدلّ على حكمة الخالق وحسن وتديره كما قيل.

تفكر في نبات الارض وانظر الى آثار ما صنع عليك
ففى راس الزبرجد شاهدات بان الله ليس له شريك
وَأَمَّا خَصَّ التَّعْقِلَ فِيهَا بِأُولَى الْأَلْبَابِ فَقَالَ: لِأُولَى الْأَلْبَابِ وَلَمْ يَقُلْ
لِلنَّاسِ مَثَلًا لِأَنَّ أُولَى الْأَلْبَابِ أَي ذَوِي الْعُقُولِ الْخَالِصَةِ عَنْ شَوَائِبِ الْأَوْهَامِ
يَفْهَمُونَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ مَا لَا يَفْهَمُهُ غَيْرُهُمْ مِنَ الْعَوَامِ وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ غَيْرَ
أُولَى الْأَلْبَابِ لَا يَدْرِكُونَ شَيْئًا مِنْهَا أَصْلًا فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ لَكُونُهَا مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ
يَدْرِكُهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْعُقَلَاءِ عَلَى قَدْرِ عِلْمِهِ وَفَهْمِهِ وَجُودَةُ فَكْرِهِ هَذَا إِذَا قُلْنَا
أَنَّ أُولَى الْأَلْبَابِ مِنْ لَهُمْ عُقُولٌ خَالِصَةٌ عَنِ الْأَوْهَامِ كَالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ وَقَلِيلٌ
مِنَ الْعُلَمَاءِ عَلَى حَسَبِ مَرَاتِبِهِمْ وَأَمَّا أَنْ قُلْنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمْ مُطْلَقٌ ذَوِي الْعُقُولِ
فَالْأَمْرُ أَسْهَلُ وَلَأَجْلَ ذَلِكَ فَسَّرَ اللَّهُ تَعَالَى أُولَى الْأَلْبَابِ بِقَوْلِهِ:

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ

أَي يَذْكُرُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَلَا يَغْفُلُونَ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ فِي الْقِيَامِ وَالْقُعُودِ وَ
الْإِضْطِجَاعِ وَبِالْجُمْلَةِ فِي كُلِّ حَالٍ وَالْمُرَادُ بِالذِّكْرِ، اللَّسَانِي وَالْحَالِي وَالْقَبْلِي وَ
أَنْ شَتَّ قُلْتَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ بِاللِّسَانِ، وَبِالْأَعْضَاءِ وَالْجَوَارِحِ بِسَبَبِ الْأَعْمَالِ، وَ
بِالْقَلْبِ، أَعْلَمُ أَنَّهُمْ إِخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الذِّكْرِ فِي الْمَقَامِ عَلَى أَقْوَالٍ:

الأول: أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ دَائِمَ الذِّكْرِ لِرَبِّهِ.

الثاني: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ الصَّلَاةُ وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ يَصَلُّونَ فِي حَالِ
الْقِيَامِ فَأَنْ عَجَزُوا فِي حَالِ الْقُعُودِ فَأَنْ عَجَزُوا فِي حَالِ الْإِضْطِجَاعِ وَالْمَعْنَى
أَنَّهُمْ لَا يَتْرَكُونَ الصَّلَاةَ عَلَى حَالٍ.

الثالث: أن يكون قيامه وقعوده وإضطجاعه لله تعالى وفي سبيل مرضاته ويعبر عنه بالذكر الحالي، قال بعض المفسرين أن الذكر في الآية يحمل على معناه العام الشامل للصلوة وغيرها ومصادقه الأكمل ذكر القلب وهو توجه النفس إلى خالقه وتذكر حكمه وفضله في حال القيام والقعود والإضطجاع وهذه الحالات التي لا يخلو العبد عنها تكون فيها السموات والأرض معه لا يتفارقان والآيات الإلهية لا تظهر من السموات والأرض إلا لأهل الذكر فكأين من عالم يقضي ليله في رصد الكواكب فيعرف منها ما لا يعرف الناس يتلذذ بذلك العلم ولكنه مع هذا لا تظهر له هذه الآيات لأنه منصرف عنها بالكلية ثم أن ذكر الله تعالى لا يكفي في الاقتداء إلى الآيات ولكن يشترط مع الذكر التفكير فيها فلا بد له من الجمع بين الذكر والفكر فقد يذكر المؤمن بالله ربه يتفكر في بديع صنعه وأسرار خليقته إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره لا بأس به إذا أردنا من الذكر، الذكر اللساني فقط وأما أن أردنا منه الذكر بجميع أحواله من اللساني والحالي والقلبي فلانحتاج إلى هذه القيود التي ذكرها فإن الذاكر الواقعي لا يكون إلا متفكراً متوجهاً إلى الآيات متدبراً فيها وهو معلوم لا خفاء فيه وحيث أن معنى الذكر لا يعلمه إلا أهله فنقول قال إمام المتقين ورئيس الذاكرين بعد خاتم النبيين أمير المؤمنين عليه السلام

لِلذِّكْرِ لَاهِلًا أَخْلَوْهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ وَيَفْتَتِفُونَ بِالزَّوْجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتِمُرُونَ بِهِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا فَشَاهِدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ فَكَأَنَّمَا أُطْلِعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طَوْلِ الْإِقَامَةِ فِيهِ الْخ... (١)

يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

لَمَّا ثَبَتَ الذِّكْرُ لَا يَكْمَلُ إِلَّا مَعَ الْفِكْرِ لَا جَرَمَ قَالَ بَعْدَ قَوْلِهِ: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ
 اللَّهَ قِيَامًا...، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ مَشْعُرًا بِأَنَّ الذَّاكِرَ الْحَقِيقِيَّ يَتَفَكَّرُ
 فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَصَّهُمَا بِالذِّكْرِ فِي الْآيَةِ مَعَ أَنَّ الذَّاكِرَ يَتَفَكَّرُ فِي كُلِّ
 شَيْءٍ وَفِي كُلِّ مَخْلُوقٍ، أَمَّا لِأَنَّهُمَا مِنْ أَجْلِ الْمَحْسُوسَاتِ وَأَعْظَمَهَا وَأَمَّا لِأَنَّ
 كُلَّ مَوْجُودٍ فِي عَالَمِ الْمَادَّةِ بَلْ وَعَالَمِ الْمَلَكُوتِ لَا يَخْرُجُ عَنْهُمَا، وَقَالَ بَعْضُ
 الْمُحَقِّقِينَ دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ مَحْصُورَةٌ فِي قِسْمَيْنِ دَلَائِلُ الْأَفَاقِ وَدَلَائِلُ الْأَنْفُسِ وَ
 لَا شَكَّ أَنَّ دَلَائِلَ الْأَفَاقِ أَجَلٌ وَأَعْظَمُ كَمَا قَالَ تَعَالَى لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَا جَرَمَ أَمَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالْفِكْرِ فِي
 خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِأَنَّ دَلَالَتَهَا أَعْجَبُ وَشَوَاهِدُهَا أَعْظَمُ وَكَيْفَ لَا نَقُولُ
 ذَلِكَ وَلَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ نَظَرَ إِلَى وَرَقَةٍ صَغِيرَةٍ مِنْ أَوْرَاقِ شَجَرَةٍ رَأَى فِي تِلْكَ الْوَرَقَةِ
 عِرْقًا وَاحِدًا مَمْتَدًّا فِي وَسْطِهَا ثُمَّ يَتَشَعَّبُ مِنْ ذَلِكَ الْعِرْقِ عُرُوقٌ كَثِيرَةٌ إِلَى
 الْجَانِبَيْنِ ثُمَّ يَتَشَعَّبُ مِنْهَا عُرُوقٌ دَقِيقَةٌ وَلَا يَزَالُ يَتَشَعَّبُ مِنْ كُلِّ عِرْقٍ عُرُوقٌ
 أُخْرَى حَتَّى يَقِيدَ فِي الدَّقَّةِ بِحَيْثُ لَا يَرَاهَا الْبَصَرُ وَعِنْدَ هَذَا يَعْلَمُ أَنَّ لِلْخَالِقِ فِي
 تَدْبِيرِ مَلِكِ الْوَرَقَةِ حِكْمًا بِالْغَةِ وَاسْرَارًا عَجِيبَةً وَأَنَّ اللَّهَ أَوْدَعَ فِيهَا قُوًى جَاذِبَةً
 لِمُغْذَائِهَا مِنْ قَعْرِ الْأَرْضِ ثُمَّ أَنَّ ذَلِكَ الْغِذَاءَ يَجْرِي فِي تِلْكَ الْعُرُوقِ حَتَّى يَتَوَزَّعَ
 عَلَى كُلِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ تِلْكَ الْوَرَقَةِ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ الْغِذَاءِ بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ
 وَلَوْ أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفِيَّةَ تِلْكَ الْوَرَقَةِ وَكَيْفِيَّةَ التَّدْبِيرِ فِي إِيجَادِهَا وَإِبْدَاعِ
 الْقُوًى الْغَاذِيَةِ وَالنَّامِيَةِ فِيهَا لَعَجَزَ عَنْهُ فَإِذَا عَرَفَ أَنَّ عَقْلَهُ قَاصِرٌ عَنِ الْوُقُوفِ
 عَلَى كَيْفِيَّةِ خَلْقِهِ تِلْكَ الْوَرَقَةِ الصَّغِيرَةِ فَكَيْفَ لَا يَقْصُرُ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِمَا فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ أَسْرَارِ الْخَلْقَةِ الْمَوْدَعَةِ فِيهِمَا مَعَ مَا فِيهِمَا مِنَ الشَّمْسِ وَ
 الْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَالْبَحَارِ وَالْجِبَالِ وَالْمِعَادِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَغَيْرِهَا مِنَ
 الْمَوْجُودَاتِ فَلَا يَبْقَى مَعَ هَذَا الْقُصُورِ إِلَّا الْإِعْتِرَافُ بِأَنَّ الْخَالِقَ أَجَلٌ، وَأَعْظَمُ

من أن يحيط به وصف الواصفين ومعارف العارفين بل ليسلم أن كل ما خلقه فيه حكمٌ بالغة وأسرار عظيمة وأن كان لا سبيل إلى معرفتها فعند هذا يقول بلسان الحال والمقال والقلب.

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا

أي ربنا ما خلقت هذا الذي نراه من العوالم السماوية والأرضية باطلاً ولا أبدعته وأنته عبثاً سُبحانَكَ أي تنزيهاً لك عن الباطل والعبث بل كل خلقك حقٌ مؤيدٌ بالحكم فهو لا يبطل ولا يزول وأن عرض له التحول والتحليل والأفول فبقينا عذاب النار بعنايتك وتوفيقك هذا.

ويمكن أن يكون المراد من قوله: وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أي يجمعون بين الذكر والفكر وذلك لأن قوله: وَ يَتَفَكَّرُونَ عطف على قوله: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ و عليه فالمعنى أن أولى الأبواب في الآية عبارة عن الذين يذكرون الله على كل حال قياماً وقعوداً وإضطجاعاً وهم مع ذلك لا يقنعون به بل يتفكرون في خلق السموات والأرض وذلك لأن الإنسان قد يكون ذاكراً ولا يكون متفكراً وقد يكون بالعكس وقد يجمع بين المقامين أما الأول والثاني فلا فضل لهما لأن الذكر بدون الفكر وبالعكس لا يفيد وأما الثالث فله الفضل والشرف والرجحان لأنه يهدي إلى الحق قال تعالى: أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ^(١)

وتوضيح ذلك إجمالاً هو أنه قد يتفكر الإنسان في عجائب خلقه السموات والأرض والأسرار المودعة فيهما من الإبتقان والإبداع والحركات وهو غافل عن الخالق القادر الحكيم الذي خلق ذلك على أحسن نظام فهو متفكرٌ بذاكرٍ كأكثر علماء الهيئة من الكفار وقد يكون ذاكراً في يومه وليلته بالمواظبة على

فعل الطاعات بل ولسانه مشغول بالذكر دائماً أوفي أغلب الأوقات ومع ذلك لا يعرف الخالق حق المعرفة وذلك كأكثر أهل الذكر من المتصوفة والجهال المتنسكين الذين قصموا ظهر النبي بتنسكهم جهلاً، وقد يكون متذكراً متفكراً، بمعنى أن ذكره فكر وفكره ذكر وهذا هو المراد من الآية ولذلك نقول أن الذكر بدون الفكر كالتصديق بدون التصور فباطل لمن جمع بين الأمرين وإستمتع بهاتين و فاز بالإتصاف بهما في النشأتين فكان من الذين أوتوا في الدنيا حسنة ونجوا من عذاب النار في الآخرة كما قيل:

من كل معنى لطيف اجتلى قدحاً وكلّ حادثة في الكون تطربني

ثم أن الإنسان بسبب التفكير والتدبر في مجاري الخلق على هذا النظام المتقن المبرم يعلم تقصيره من حيث هو إنسان عن شكر المنعم عليه بكل شيء يتمتع به وعن القيام بوظائف العبودية فتعلو همّه في طلب الكمال ورفع التّقصير عن نفسه بقدر الإمكان فيقول بلسان الدّعاء والثناء وقلبه بين الخوف والرجاء رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا وهذا هو نتيجة الأمرين أعني بهما الذكر والفكر سُبْحَانَكَ أي تنزيهاً لك عن الباطل والعبث فكلّ خلقك حقّ مؤيد بالحكم والمصالح الخفية كما قلت: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا^(١) ثم أن المراد بالباطل في الآية هو مقابل الحقّ قال الرّاعب في المفردات الباطل يقابل الحقّ وعليه فالمعنى ما خلقت هذا أي هذا الخلق باطلاً أي على غير حقّ فيرجع المعنى ما خلقت هذا إلا بالحقّ والمراد منه رعاية مصالح العباد، نقل الرّازي في تفسيره عن الواحدي أنّه قال الباطل عبارة عن الزائل الذّاهب الذي لا يكون له قوّة ولا صلاية ولا بقاء وخلق السّموات والأرض متقنّ مُحكم ألا ترى إلى قوله تعالى: مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ^(٢) وقال: وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا^(٣) فكان

المراد من قوله: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا هَذَا المعنى انتهى.

أقول ما نقله الرّازي عن الواحدي في معنى الباطل لم يقل به أحد من أهل اللغة فأنهم إتفقوا على أنّ الباطل ضدّ الحقّ، فقوله خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ متقنّ محكم فلا يكون باطلاً مثلاً كلام لا طائل تحته فإنّ الخلق كلّ متقن محكم ولا يختصّ هذا الحكم بهما فليلزم ان لا يكون في الخلق باطل اصلاً وهو كما ترى ضدّ بديهة العقل والنقل وهو فيه عجيب ومن الرّازي اعجب حيث قال لم لا يجوز أن يكون تأويل الآية ما حكيناه عن الواحدي الى أن قال لم لا يجوز أن يكون المراد ربّنا ما خلقت هذا رِخواً فاسد التّركيب بل خلقته صلباً محكماً وقوله: سُبْحَانَكَ معناه أنّك وأن خلقت السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ صلبة شديدة باقية فأنت منزّه عن الإحتياج اليه والإنتفاع به فيكون قوله: سُبْحَانَكَ معناه هذا انتهى.

ولقائل أن يقول ما خلق الله شيئاً في عالم الخلق رِخواً فاسد التّركيب بل كلّ مخلوق خلقه الله صلباً محكماً وصلابة كلّ شيء بحسبه هذا أولاً.

ثانياً: أنّ الصّلاية من مختصّات الجسم الكثيف والسّماء وما فيها من الموجودات بمعزل عن هذه القاعدة أمّا السّماء فليس بجسم قطعاً وأمّا الموجودات فيه فعلى أقسام، قسم منها في عداد الأجرام مثل الشّمس والقمر والكواكب وقسم منها داخل في الأجسام اللّطيفة النّورية مثل الملائكة يبعد أن يكون هناك قسماً أو أقساماً آخر من الموجودات لا يعلمها إلا الله وكيف كان، ليس هناك جسم كثيف حتّى يتّصف بالصّلاية والرّخوة إلا أنّهما في كلّ جسم بحسبه لأنّها من الأمور الإضافيّة وهو واضح وأمّا قوله فأنت منزّه عن الإحتياج اليه الخ فهو حقّ لا مرية فيه إلا أنّه خارج عمّا نحن بصده اذ لم يقل أحد أنّ الله محتاج الى خلقه، اذا عرفت هذا فنقول، قوله: سُبْحَانَكَ معناه تنزيهه تعالى عن إيجاد اللغو والعبث فحيث قال، ما خلقت هذا باطلاً، أي عبثاً، قال سبحانه، أي أنت منزّه عن خلق الباطل والعبث ففَقِنَا عَذَابَ النَّارِ الفاء للتّفريع.

أَنْ قُلْتَ أَيَّ مَنَاسِبَةٍ بَيْنَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالتَّفَكَّرَ فِيهِمَا وَبَيْنَ الْوَقَايَةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ حَتَّى يَتَفَرَّعَ الْوَقَايَةِ عَلَى الذِّكْرِ وَالتَّفَكُّرِ.

قُلْتَ لِمَا كَلَّفَ اللَّهُ أُولَى الْأَلْبَابِ بِالتَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالذِّكْرِ قِيَاماً وَقَعُوداً وَاضْطِجَاعاً كَانَتْ وَظِيفَتُهُمُ الْقِيَامُ بِمَرَاتِبِ الشُّكْرِ عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ عَلَى أَسَاسِ الْمَعْرِفَةِ الْحَاصِلَةِ مِنَ التَّفَكُّرِ فِي الْأَفَاقِ وَالْأَنْفُسِ ثُمَّ أَقَرَّ الْعَبْدَ عَلَى نَفْسِهِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا خَلَقَ هَذَا الْخَلْقَ بِاطْلَالٍ بَلْ خَلَقَهُ لِأَجْلِ الْإِعْتِبَارِ وَالْقِيَامِ بِوُضَائِفِ الْعِبَادَةِ وَحَيْثُ أَنَّ الْعَبْدَ قَصَّرَ فِي وَضَائِفِهِ صَارَ بِذَلِكَ مُسْتَحَقّاً لِلْعَذَابِ فَلَا جَرَمَ يَنْطَلِقُ لِسَانُهُ بِالذِّعَاءِ وَالثَّنَاءِ فَيَقُولُ مُتَضَرِّعاً إِلَى اللَّهِ نَادِماً عَمَّا فَعَلَهُ أَوْ تَرْكِهِ، فَقَدْ عَذَابَ النَّارِ، فَأَنَا لَمْ نَعْتَبِرْ مِنْ آيَاتِكَ حَقَّ الْإِعْتِبَارِ فَلَا جَرَمَ مَا عَرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ فَمَا عَبْدُنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ وَمِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُسْتَحَقٌّ لِلْعَذَابِ لَوْلَا فَضْلُكَ وَكَرَمُكَ.

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ

أَيَّ أَذَلَّتْهُ وَ أَهْتَتْهُ فَأَنَّ الْخِزْيَ الَّذِي يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ مِنْ غَيْرِهِ هُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْإِسْتِخْفَافِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْأَسُوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْخَيَوَةِ الدُّنْيَا^(٣).

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ وَصَفَ مِنْ يَدْخُلُونَ النَّارَ، بِالظَّالِمِينَ لِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَوْ عَلَى غَيْرِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَالظَّالِمُ هُنَا لَا يَخْتَصُّ بِالْكَافِرِ بَلْ هُوَ عَامٌّ يَشْمَلُ الْكَافِرَ وَالْمُسْلِمَ خِلَافاً لِبَعْضِ الْمَفْسَّرِينَ حَيْثُ خَصَّهُ بِالْكَافِرِ.

رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ

المنادي للإيمان هو الرسول ﷺ قبل ذكره بوصف المنادي تفخيماً لشأن هذا النداء وهو قوله: قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلَحُوا أَنْ أُمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأَمَّا أَي المنادي كان يقول أُمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأَمَّا بِهِ أَي أَمَّا بِاللَّهِ ورسوله وبجميع ما جاء به من قبله والإيمان هو الإقرار باللسان والإعتقاد بالقلب والعمل بالجوارح على مذهبنا وهو مذهب أهل البيت وأما على مسلك القوم فهو والإسلام سيان فكل مسلم مؤمن وبالعكس وبعضهم يقول الإيمان هو الإقرار والإعتقاد رَبَّنَا فَاعْفُ عَنَّا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ المطلوب في هذا الدعاء ثلاثة أشياء:

أحدهما: غفران الذنوب.

ثانيها: تكفير السيئات.

ثالثها: وفاتهم مع الأبرار.

قال بعض المفسرين، الغفران هو السّتر والتغطية، والتكفير أيضاً هو التغطية فالمغفرة والتكفير بحسب اللغة معناهما شيء واحد أما المفسرون فذكروا فيه وجوهاً:

أحدها: أنهما شيء واحد وإنما أُعيد للتأكيد لأن الإلحاح في الدعاء والمبالغة فيه مندوب.

ثانيها: المراد بالأول ما تقدم من الذنوب وبالثاني المستأنف.

ثالثها: أن يُريد بالغفران ما يزول بالتوبة وبالكفران ما تكفره الطاعة العظيمة

رابعها: أن يكون المراد بالأول ما أتى به الإنسان مع العلم بكونه معصيته وذنباً وبالثاني ما أتى به الإنسان مع جهله بكونه معصية وذنباً انتهى نقله لرازي في تفسيره.

أقول ما ذكره ونقله من الجواب أنما هو على أصله وهو أنّ المغفرة و

التكفير بحسب اللغة واحد وليس كذلك فأَنَّ المغفرة غير التكفير، قال الرَّاعِبُ الغُفْران والمغفرة من الله هو أن يَصُونَ العبد من أن يَمَسَّه العذاب إنتهى وقال والتكفير ستره وتَظْطِيتُه حَتَّى يَصِيرَ بِمَنْزِلَةِ مَا لَمْ يُعْمَلْ وَيَصَحَّ أن يكون أصله إزالة الكُفْرِ والكُفْران نحو التَّمْرِض في كونه إزالة للمَرَض وتقْذِية العَيْن في إزالة القَذَى عنه إنتهى.

ثُمَّ أَنَّ الذَّنْبَ فِي الْأَصْلِ الْأَخْذَ بِذَنْبِ الشَّيْ يُقَالُ ذَنْبْتُ أَصَبْتُ ذَنْبَهُ وَتُسْتَعْمَلُ فِي كُلِّ فِعْلٍ يُسْتَوْحَمُ عُقْبَاهُ إِعْتِبَاراً بِذَنْبِ الشَّيْ وَلِهَذَا يُسَمَّى الذَّنْبُ تَبَعَةً إِعْتِبَاراً لِمَا يَحْصُلُ مِنْ عَاقِبَتِهِ انْتَهَى كَلَامُهُ.

وَأَمَّا السَّيِّئَةُ فَهِيَ مِنَ السُّوءِ وَهُوَ كُلُّ مَا يَغْمُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ، وَالسَّيِّئَةُ الْفِعْلَةُ الْقَبِيحَةُ وَهِيَ ضِدُّ الْحَسَنَةِ وَالْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ ضَرْبَانِ:

أحدهما: بحسب إعتبار العقل والشرع نحو المذكور في قوله تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْقَالٍهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا^(١)

ثانيهما: بحسب إعتبار الطَّبع فكلُّ مَا يَسْتَخْفَهُ الطَّبع حَسَنَةً وَكُلُّ مَا يَسْتَتِقِلُّهُ سَيِّئَةٌ نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْمِ مُوسَى فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ^(٢) إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ بَيْنَ الذَّنْبِ وَالسَّيِّئَةِ مِنَ النَّسَبِ الْعُمُومُ وَالْخُصُوصُ مُطْلَقاً أَذْكَلُ ذَنْبٍ فَهُوَ سَيِّئَةٌ أَيْ مَتَّصِفٌ بِالْقَبِيحِ وَلَيْسَ كُلُّ سَيِّئَةٍ ذَنْباً بَلْ بَعْضُهَا مِنَ الذَّنْبِ وَهُوَ الَّذِي لَهُ تَبَعَاتٌ وَعُقَبَاتٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِثْلُ الزَّنا وَشَرْبِ الْخَمْرِ وَالْقَتْلِ وَنَحْوِهَا.

وَبَعْضُهَا لَيْسَ مِنَ الذَّنْبِ شَرْعاً وَهُوَ مَا لَيْسَ لَهُ تَبَعَاتٌ مِثْلُ تَأْخِيرِ الصَّلَاةِ عَنْ أَوَّلِ وَقْتِهَا مِنْ غَيْرِ عَذْرِ وَالسَّفَرِ فِي شَهْرِ الصَّيَامِ عَمْداً مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ لِأَجْلِ أَنْ لَا يَصُومُ مِثْلاً فِي الصَّيْفِ وَعَدَمُ الْإِعْتِنَاءِ بِشَأْنِ الْعُلَمَاءِ وَالْمَشَاهِدِ الْمَشْرِفَةِ وَالمَسَاجِدِ وَغَيْرِهَا فَأَنَّ هَذِهِ الْأَفْعَالَ قَبِيحَةٌ قَطْعاً عَقْلاً وَشَرْعاً إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَتْ مِنَ الذَّنْبِ بِشَيْءٍ بِمَعْنَى تَرْتَبِ الْعُقَابِ عَلَيْهَا وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ تَرَكَ السَّلَامُ فَأَنَّهُ قَبِيحٌ

وليس بذنب بل نقول المستحبات كلها من هذا القبيل حيث أن تركها قبيح و ليس بذنب و الإشتغال بالكسب يوم الجمعة ولا سيما اذا نودي للصلاة منها قبيح و ليس بذنب و هكذا ثبت أن بعض السيئة ذنب وبعضها ليس بذنب فلا عقاب عليه و هو المطلوب اذا علمت ذلك فأعلم أن الله تعالى قال في الذنوب، فأغفر و في السيئات، كَفَر، لأجل أن المذنب بذنبه مستحق للعقاب فلا جرم يطلب من الله أن يصونه منه فيقول فأغفر لنا و أما المسي فقد لا يكون بفعله مستحقاً للعذاب كما عرفت و لكنه مستحق للفضيحة فقال كفر أي أسترنا عن الفضيحة في الدنيا والآخرة فلا تكرر في الآية و لا تأكيد حتى نحتاج الى الجواب، هذا ما فهمنا من الآية والعلم عند الله فان أخطأنا فمن أنفسنا أصبنا فبالهامه وتوفيقه.

وَأَمَّا الدَّعَاءُ الثَّالِثُ: وهو قوله تعالى: وَتَوَقَّنا مَعَ الْأَبْرارِ الْأَبْرار جمع برّ أو جمع بارّ كزبّ وأرباب وصاحب وأصحاب هكذا قال بعض المفسرين والحق أن الأبرار جمع، برّ و أما جمع البار على بررة قيل أن البرّ أبلغ من البار كما أن عدلاً أبلغ من عادل وكيف كان فقد ذكرنا في تفسير هذه المعية وجهين: **الأول:** أن وفاتهم معهم هي أن يموتوا على مثل أعمالهم حتى يكونوا في درجاتهم يوم القيامة.

الثاني: معناه، شاركنا مع الأبرار في جميع مالهم يوم القيامة، وزاد بعضهم قولاً ثالثاً و هو أن يكون المراد منه كونهم في جملة أتباع الأبرار و أشياعهم و منه قوله تعالى: فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ^(١).

أقول الأحسن أن يقال توفنا مع الأبرار، أي أحشرنا معهم غداً يوم القيامة فهو من قبيل ذكر السبب وإرادة المسبب و أننا قلنا ذلك لأن مجرد الموت معهم لا يكفي في النيل الى السعادة فأكثر من الفساق والكفار يموتون مع الأبرار في زمان واحد و لا تزر وازرة وزر أخرى فالوفاة معهم كناية عن الحشر

معمهم قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي، وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ^(١) فقلوه: فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي هو الحشر مع الأبرار وهو من أعظم النعم وأعلى الدرجات كما سيأتي إن شاء الله في تفسير الآية.

رَبَّنَا وَاتِّبْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسْلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ

أي يقولون هؤلاء الأخيار، ربنا وأتينا ما وعدتنا على رسلك أي على السنة رسلك ولا تخزننا أي ولا تفضحنا يوم القيامة أنك لا تخلف الميعاد وهو مصدر بمعنى الوعد قيل إن هذه الدعوات وما في تضامينها من كمال الفراغة والآبتهال ليس لخوفهم مناخلاف الميعاد بل لخوفهم ان لا يكون من جملة الموعودين لسوء عاقبة وقصور في الامتثال فمرجعها الى الدعاء بالتثبيت او للمبالغة في التعبد والخشوع ثم قوله: وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ شبيهه بقوله تعالى: وَبَدَأْ لَهُمْ مِنِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ^(٢) فإنه ربما يظن الإنسان أنه على الاعتقاد الحق والعمل الصالح ثم يوم القيامة يظهر له خلاف ما كان يظنه في الدنيا فهناك تحصل الحسرة الكاملة والأسف الشديد وذلك هو العذاب الروحاني وهو أشد من العذاب الجسماني ومما يدل على هذا أنه سبحانه حكى عن هؤلاء العباد المؤمنين أنهم طلبوا في هذه الأنواع الخمسة من الدعاء أشياء فأولها الإحتراز عن العذاب الجسماني وهو قوله: فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ وأخرها العذاب الروحاني وهو قوله: وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ وذلك يدل على ما قلناه انتهى.

أقول معنى الآية واضح لا خفاء فيه.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ
 مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ
 فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا
 فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ
 سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ
 الثَّوَابِ (١٩٥) لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي
 الْأَلْبَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ
 الْمِهَادُ (١٩٧)

◀ اللغة

فَاسْتَجَابَ: الإجابة قيل هي الإجابة وحقيقتها هي التحري للجواب
 والتَّهَيُّؤُ له لكن عبر به عن الإجابة لقلة إنفكاكها منها.
 أَضِيعُ بَضَمُ الألف وكسر الضاد وسكون الياء من أضاع يضيع إضاعةً.
 مَاؤُهُمْ: المأوى المكان.
 الْمِهَادُ: المهد والمهاد المكان الممهد الموطئ.

◀ الإعراب

عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْكُمْ صفة لعاملٍ وَمِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بدل من، منكم وهو بدل
 الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ وهما لعين واحدة بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ مستأنف ويجوز أن
 يكون حالاً أو صفة فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا مبتدأ وَلَا كُفِّرَنَّ وما إتصل به الخبر وهو
 جواب قسم محذوف ثَوَابًا مصدر وقيل هو حال، وقيل تمييز والثواب
 بمعنى الإثابة مَتَاعٌ قَلِيلٌ أي تقلّبهم متاعاً فالمبتدأ محذوف.

◀ التفسير

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ قِيلَ الْإِسْتِجَابَةُ أَخَصَّ مِنَ الْإِجَابَةِ فَأَنَّ الْإِجَابَةَ مَعْنَاهَا الْجَوَابُ حَصَلَ الْمَطْلُوبُ أَمْ لَا وَالْإِسْتِجَابَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ حَصُولِ الْمَطْلُوبِ وَقَدْ يَتَعَدَّى الْفِعْلُ بِنَفْسِهِ وَقَدْ يَتَعَدَّى بِاللَّامِ أَنْبَى أَيْ بَأَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلًا غَامِلًا مِنْكُمْ مِنَ الْإِضَاعَةِ أَوْ التَّضْيِيعِ عَلَى إِخْتِلَافِ الْقَرَأَتَيْنِ وَالْمَعْنَى أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ الْعَامِلِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى أَيْ سَوَاءٌ كَانَ الْعَامِلُ رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً وَهُوَ مَا حَكَى عَنْهُمْ مِنَ الْمُوَاطَظَةِ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ فِي جَمِيعِ حَالَاتِهِمْ وَالتَّفَكُّرِ فِي مَصْنُوعَاتِهِ إِسْتِدْلَالًا وَإِعْتِبَارًا وَالثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ بِالْإِعْتِرَافِ بِرَبُّوبِيَّتِهِ وَتَنْزِيهِهِ عَنِ الْعُبْثِ وَخَلْقِ الْبَاطِلِ وَالِإِسْتِغَالِ بِالذِّعَاءِ وَجَعَلَ هَذِهِ الْأَعْمَالُ سَبَبًا لِلْإِسْتِجَابَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ إِسْتِجَابَةَ الذِّعَاءِ مُشْرُوطَةٌ بِهَذِهِ الشَّرُوطِ وَبِهَذِهِ الْأُمُورِ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ الْفَرْقِ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا لِأَنَّ الذَّكَرَ مِنَ الْأُنْثَى وَالْأُنْثَى مِنَ الذَّكَرِ أَيْ يَوْجَدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنَ الْآخَرِ، قَالَ الرَّازِي وَفِيهِ وَجُوهٌ أَحْسَنُهَا أَنْ يَقَالَ، مَنْ، بِمَعْنَى الْكَافِ أَيْ بَعْضُكُمْ كَبَعْضٍ فِي الثَّوَابِ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْعِقَابِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَقَالَ الْفُقَهَاءُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ فَلَنْ مَنِّي أَيْ عَلَى خَلْقِي وَسِيرَتِي وَهِيَ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ بَهَا شَرِكَةِ النِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ فِيمَا وَعَدَ لِلْعَمَلِ أَنْتَهَى.

أَقُولُ الْأَحْسَنُ أَنْ يَقَالَ فِي الْمَقَامِ أَنَّ كَلِمَةَ، مَنْ، نَشْئِيَّةٌ أَيْ أَنَّ الذَّكَرَ نَشَأَ مِنَ الْأُنْثَى وَبِالْعَكْسِ أَيْ وُجِدَ وَخُلِقَ رُوي عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنِّي أَسْمَعُ اللَّهَ يَذْكُرُ الرِّجَالَ فِي الْهَجْرَةِ وَلَا يَذْكُرُ النِّسَاءَ فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى، أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ الْخِ أَقُولُ وَيُمْكِنُ أَنْ يَسْتَدِلَّ عَلَى الْمَدْعَى مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ بِأَنَّ الثَّوَابَ يَتَوَقَّفُ عَلَى الْعَمَلِ نَفْسَهُ مِنْ أَيْ شَخْصٍ صَدَرَ وَهَذَا هُوَ مُقْتَضَى الْعَدْلِ وَالْإِلْزَمُ التَّرْجِيحُ بِلَا مُرْجَحٍ وَهُوَ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَحَيْثُ أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَادِلٌ وَالْعَدْلُ عِبَارَةٌ عَنْ وَضْعِ الشَّيْءِ فِي مَحَلِّهِ كَمَا أَنَّ الظُّلْمَ وَضَعَهُ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ فَالْعَقْلُ يَحْكُمُ بِوَضْعِ الثَّوَابِ مِنْ أَيْ عَامِلٍ صَدَرَ الْفِعْلُ عَلَى فِعْلِهِ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ هَذَا أَوَّلًا.

ثانياً: أَنَّ الْأَنْثَى فِي التَّكْلِيفِ كَالذَّكَرِ فَلَا وَجْهَ لِتَضْيِيعِ عَمَلِهِ بَعْدَ الثَّوَابِ عَلَيْهِ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَا تُكْفَرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ أَيُّ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ مَعَ الرَّسُولِ وَالْمَرَادُ فَالَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، الَّذِينَ أُلْجِأَهُمُ الْكَفَّارُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ كَجَعْفَرِ الطَّيَّارِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ سَارُوا إِلَى حَبْشَةَ وَقِيلَ الْمَرَادُ مِنْهُمْ مَنْ أَخْرَجَ مِنْ مَكَّةَ بَعْدَ الْهَجْرَةِ وَالَّذِينَ أُوذُوا فِي سَبِيلِي مِثْلَ عِمَارِ بْنِ يَاسِرٍ وَآيْ ذَرٍّ وَغَيْرِهِمَا مِمَّنْ أُوذُوا فِي طَرِيقِ الْحَقِّ، وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا، كَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَهُمْ أَوَّلًا تَكْفِيرَ السَّيِّئَاتِ وَتَغْطِيطَهَا عَنْهُمْ فَقَالَ: لَا تُكْفَرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ.

ثانياً: إِدْخَالَهُمُ الْجَنَّةَ فَقَالَ: وَلَا دُخْلَ لَهَا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

ثالثاً: إِعْطَاءَهُمُ الثَّوَابَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ فَقَالَ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَقَوْلُهُ: وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ قِيلَ أَنَّهُ لِلتَّأَكِيدِ وَالْإِشْعَارِ بِأَنَّ هَذَا الثَّوَابَ فِي غَايَةِ الشَّرَفِ (لَا يَغْرُنُكَ تَقَلُّبُ).

الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ) الْآيَةُ خُطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ظَاهِراً وَآلِى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ وَاقِعاً قِيلَ نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي الْيَهُودِ كَانُوا يُضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ فَيَضِيبُونَ الْأُمُومَالَ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَالَ أَيْضاً هُمْ أَهْلُ مَكَّةَ وَرَوَى أَنَّ نَاساً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَرُونَ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْخَصْبِ وَالرِّخَاءِ وَلَبِنِ الْعَيْشِ فَيَقُولُونَ أَنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ فِيمَا نَرَى مِنَ الْخَيْرِ وَقَدْ هَلَكْنَا مِنَ الْجُوعِ وَالْجَهْدِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ فِي مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَفْظُ عَامٍ وَالْكَافُ لِلخُطَابِ وَالْحَقُّ مَا قُلْنَاهُ أَوَّلًا مِنْ أَنَّهُ خُطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمَرَادُ جَمِيعُ الْأُمَّةِ، قَالُوا الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: لَا يَغْرُنُكَ، أَيُّ لَا تَظُنَّ أَنَّ حَالِ الْكَفَّارِ حَسَنَةٌ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَغْتَرَّ فَارِحَ بِالشَّيْءِ الَّذِي يَغْتَرُّ بِهِ فَالْكَفَّارُ مَغْتَرٌّ بِتَقَلُّبِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ مُهْتَمُونَ بِهِ لَكِنَّهُ رُبَّمَا يَقَعُ فِي نَفْسٍ مُؤْمِنٍ أَنَّ هَذَا

الأملاء للكفار أنما هو خير لهم فيجزي هذا جنوحاً إلى حالهم ونوعاً من الإغترار ولذلك حسنت لا يغرّنك وقال الرّمخشري لا يغرّنك الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد أي لا تنظر إلى ما هم عليه من سعة الرزق وإصابة حظوظ الدنيا ولا تغترر بظاهر ما ترى من تبسطهم في الأرض وتصرفهم في البلاد، فأن قلت كيف جاز أن يغتر رسول الله بذلك حتّى ينهي عنه وعن الإغترار به قلت فيه وجهان.

أحدهما: أن مقدّم القوم يخاطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً فكأنه قيل لا يغرّنكم.

الثاني: أن رسول الله كان غير مغرور بحالهم فأكد عليه ما كان وثبت على التزامه كقوله: **وَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَطْعَ الْمُكَذِّبِينَ** وهذا في النهي نظير قوله في الأمر، **أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** وقد جعل النهي في الظاهر للتقلب وهو في المعنى للمخاطب وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبب لأنّ التقلب لو عزه لإغتر به فمنع السبب ليمتنع المسبب انتهى.

مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ أي ذلك التبسط والتقلب شيء قليل متعوبه ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد وقلته باعتبار إنقضاءه وزواله والمراد بالمأوى المكان الذي يأوون إليه وهو جهنم وعبر بالمأوى إشعاراً بانتقالهم عن الأماكن التي تقلّبوا فيها.

هذا آخر الكلام في تفسير الجزء الثالث و يتلوه الجزء الرابع والحمد لله.

لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ
مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ مَا
أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اصْبِرُوا وَ صَابِرُوا وَ رَابِطُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

◀ اللغة

نُزُلًا: بضم نين ما يعد للنازل من الزاد والنزل أيضاً الرُّبْع يقال طعام كثير النُّزُل.

لِلْأَبْرَارِ: أبرار جمع برّ وبار وقد مضى البحث فيه عند قوله وتوفنا مع الأبرار.

خَاشِعِينَ: الخُشُوع الضراعة وأكثر ما يستعمل الخُشُوع فيما يوجد على الجوارح والضراعة في القلب ولذلك يقال إذا ضرع القلب خشعت الجوارح. رَابِطُوا: يقال فلان رابط الجأش إذا قوى قلبه.

◀ الإعراب

لَكِنَّ الجمهور على تخفيف النون وقرأ بتشديدها والإعراب ظاهر خَالِدِينَ فِيهَا حال من الصمير في لَهُمْ والعامل معنى الإستقرار وإرتفاع الجنات بالإبتداء وبالجار نُزُلًا مصدر وانتصابه بالمعنى لأن معنى لهم جنات

أي نزلهم وعند الكوفيين هو حال أو تمييز ويجوز أن يكون جمع نازل فعلى هذا يكون حالاً من الضمير في خالدين وإذا جعلته مصدراً يجوز أن يكون بمعنى المفعول فيكون حالاً من الضمير المجرور فيها أي منزلة من عند الله أن جعلت نزلاً مصدراً، كان من عند الله صفة له وأن جعلته جمعاً فيه وجهان:

أحدهما: هو حال من المفعول المحذوف لأن التقدير، نزلاً، إياها.
الثاني: أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي ذلك من عند الله (ما عند الله) ما بمعنى الذي وهو مبتدأ وفي الخبر وجهان.
أحدهما: هو خيرٌ ولأبرار نعت للخير.

الثاني: أن يكون الخبر، للأبرار والنية به التقديم أي والذي عند الله مستقر للأبرار، وخيرٌ على هذا خبرتان وقال بعضهم للأبرار حال من الضمير في الظرف والخبر، خبر المبتدأ وهو بعيد لمن يؤمن من في موضع نصب اسم أن ومن سرّة موصوفة خاشعين حال من الضمير في يومين ويجوز أن يكون حالاً من الهاء والميم فيكون العامل، أنزل والله متعلق بخاشعين وقيل هو متعلق بقوله: لا يشترون وهو في نية التأخير أي لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً لأجل الله أولئك مبتدأ لهم أجرهم فيه أوجه.

أحدها: أن قوله: لهم خبر أجر، والجملة خبر الأول وعند ربهم ظرف للأجر، والآخر أن يكون الأجر مرتفعاً بالظرف إرتفاع الفاعل بفعله.
الثاني: أن يكون أجرهم مبتدأ وعند ربهم خبره ويكون، لهم، يتعلق بما دل عليه الكلام من الاستقرار والثبوت لأنه في حكم الظرف.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

التفسير

لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَمَّا ذَكَرَ فِيمَا تَقَدَّمَ أَنَّ ذَلِكَ التَّقَلُّبَ وَالتَّعَرُّفَ فِي الْبِلَادِ هُوَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَأَنَّ الْمُتَقَلِّبِينَ فِيهَا يَأْوُونَ بَعْدَ إِلَى جَهَنَّمَ فَدَلَّ عَلَى قَلَّةِ مَا

مَتَّعُوا بِهِ وَعَلَىٰ إِسْتِقْرَارِهِمْ فِي النَّارِ إِسْتَدْرَكَ، ولكن، الأخبار عن المَتَّقِينَ فِي مِقَابِلِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِ الْكَافِرِينَ وَذَلِكَ شَيْئَانِ:

أحدهما: مكان الإِسْتِقْرَارِ وَهِيَ الْجَنَّاتُ.

الثاني: الْخُلُودُ فِيهَا أَعْنِي بِهِ الْإِقَامَةُ فِيهَا دَائِمًا وَالتَّمَتُّعُ بِنَعِيمِهَا سِرْمَدًا فَقَابِلِ جَهَنَّمَ، بِالْجَنَّاتِ، وَقَلَّةُ مَتَاعِ الدُّنْيَا بِالْخُلُودِ الَّذِي هُوَ الدَّيْمُومَةُ فِي النِّعَمِ فَوَقَعَتْ، لَكِنْ، بَيْنَ الضَّدَيْنِ لِأَنَّهُ آلُ مَعْنَى الْجَمْلَتَيْنِ إِلَى تَكْذِيبِ الْكُفَّارِ وَالْإِثْمِ النَّعِيمِ الْمَتَّقِينَ وَلِذَلِكَ قَالَ: **لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا** وَفِي قَوْلِهِ: **نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ** إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقَامَاتِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ مِنْ قَبِيلِ النَّزْلِ وَهُوَ مَا يَعْدُو نَازِلًا مِنَ الصَّيَافَةِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَكُنَّا إِذِ الْجَبَّارُ بِالْحَيْشِ ضَافِنًا جَعَلْنَا الْقَنَا وَالْمُرْهَفَاتِ لَهُ نُزُلًا

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، النَّزْلُ الثَّوَابُ وَهِيَ كَقَوْلِهِ: ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَقِيلَ النَّزْلُ الرِّزْقُ وَمَا يَتَغَذَّى بِهِ وَمِنْهُ فَنَزَلَ مِنْ حَمِيمٍ، أَيِ فِغْدَاءٍ وَنَقَلَ عَنِ الْهَرَوِيِّ أَنَّهُ قَالَ الْإِنْزَالُ الَّتِي سَوَّيْتُ وَنَزَلَ عَلَيْهَا وَمَعْنَى مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَيِ لَا مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ وَسَمَّاهُ نُزُلًا لِأَنَّهُ إِرْتَفَعَ عَنْهُمْ تَكَالُفُ السَّعْيِ وَالْكَسْبِ فَهُوَ شَيْءٌ مُهَيَّأٌ يَهَيَّيْ لَهُمْ لَا تَعِبَ عَلَيْهِمْ فِي تَحْصِيلِهِ هُنَاكَ وَلَا شَقَّةٌ كَالطَّعَامِ الْمَهَيَّأِ لِلضَّيْفِ لَمْ يَتَعَبَ فِي تَحْصِيلِهِ وَلَا فِي تَسْوِيَّتِهِ وَمَعَالَجَتِهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ أَيِ أَنَّ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا هُمْ فِي الدُّنْيَا وَإِلَيْهِ ذَهَبَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكُفَّارِ أَيِ هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا يَتَقَلَّبُ فِيهِ الْكُفَّارُ مِنَ الْمَتَاعِ الزَّائِلِ وَقِيلَ، خَيْرٌ، هُنَا لَيْسَتْ لِلتَّفْضِيلِ كَمَا أَنَّهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا** ^(١) وَالْأَظْهَرُ مَا قَدَّمَ، وَلِلْأَبْرَارِ مَتَّعٌ، بِخَيْرٍ وَالْأَبْرَارِ هُمُ الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ، وَقِيلَ فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ أَيِ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ لِلْأَبْرَارِ خَيْرٌ لَهُمْ.

قال الطبرسي رحمته الله لكن، للإستدراك فيكون بخلاف المعنى المتقدم فمعناه ليس للكفار عاقبة خير أنما هو للمؤمنين المتقين الذين إتقوا ربهم بفعل الطاعات وترك المعاصي وقال في قوله: لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزلاً من عند الله، بين سبحانه ما يصيرون اليه من النعيم المقيم في دار القرار المعدّة للأبرار والنزول ما يعدّه للضيف من الكرامة والبرد والطعام والشراب، وما عند الله، من الثواب والكرامة، خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ مِمَّا يَتَّقِلَب فِيهِ الَّذِينَ كَفَرُوا لأنّ ذلك عن قريب سيزول وما عند الله تعالى لا يزول ويروى عن عبد الله بن مسعود أنّه قال ما من نفس برّة أو فاجرة إلاّ و الموت خير لها من الحياة فأما الأبرار فقد قال الله، وما عند الله خير للأبرار، و أما الفجار فقال: وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَلَّى لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ^(١) انتهى.

هذا ما ذكره في الآية والعجب من الرّازي حيث قال واحتجّ بعض أصحابنا بهذه الآية على الرّؤية لأنّه لما كانت الجنّة بكلّيتها نزلاً فلا بدّ من الرّؤية لتكون خلعة ونظيره قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزْلاً^(٢) انتهى كلامه.

أقول على فرض أن تكون الجنّة بكلّيتها نزلاً أي محلاً ومقاماً للأبرار كما هو كذلك ليس في ذلك دليل على الرّؤية لا عقلاً ولا نقلاً وأيّ ملازمة بين كونه نزلاً ورؤية الله تعالى فقوله فلا بدّ من الرّؤية، لانفهم ما أراد منه وهو من أهل المعقول فإن أراد بكلامه هذا الملازمة العقلية فعليه بالبيان والإثبات وأتى له بإثبات ذلك فإنّ كون الجنّة بما فيها من النعم نزلاً للأبرار أمر معقول لا إشكال فيه عقلاً وشرعاً وعرفاً وأما أنّ لازم ذلك هو الرّؤية فهو غير معقول لما ثبت استحالتها عقلاً وشرعاً وهل يعقل ان يكون غير المعقول متريباً او لازماً للمعقول ومحصل الكلام هو أنّ الآية بمعزل عن الرّؤية وسيحجى الكلام في جوازها بما لا مزيد عليه.

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

اختلفوا في سبب نزولها فقيل لَمَّا مات أصمحة النَّجاشي ملك الحبشة و
معنى الأصمحة بالعربية عطية قال سفيان وغيره صَلَّى عليه رسول الله ﷺ
فقال قائل صَلَّى عليه البلح النَّصراني وهو في أرضه فنزلت قاله جابر وابن
عبَّاس وأنس والحسن وقتادة في النَّجاشي وأصحابه وعن ابن عبَّاس برواية
أبي صالح نزلت في مؤمني أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى وبه قال مجاهد
وقال ابن جريج وابن زيد ومقاتل نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه، و
قال عطاء، نزلت في أربعين من نجران وأثنى وثلاثين من الحبشة وثمانية من
الرَّوم كانوا على دين عيسى فأمَّنوا بالنبي ﷺ وقيل غير ذلك ثم أُنْ من، في
قوله لمن، الظَّاهر أنَّها موصولة وأجيز أن تكون نكرة موصوفة أي لقوماً.

أقول الحقُّ أنَّه لَمَّا ذمَّ الله تعالى أهل الكتاب فيما تقدَّم وصف طائفةً منهم
بالإيمان وإظهار الحقِّ حتَّى لا يظنَّ ظانُّ أنَّ جميع أهل الكتاب كانوا على الكفر
والضَّلالة وتدُلَّ عليه كلمة، من، التي للتبعية أي بعض أهل الكتاب كذلك و
عليه فليس المراد منهم خصوص اليهود والنَّصارى بل المراد مطلق أهل
الكتاب من اليهود والنَّصارى والمجوس وغيرهم فوصفهم الله تعالى.

أولاً: بالإيمان بالله وهو الإقرار والإعتقاد والعمل بالجوارح.

ثانياً: بما أنزل على النبي ﷺ في الشريعة المقدسة من الأحكام حلالها و
حرامها في الكتاب والسنة فقال: مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ.

ثالثاً: إيمانهم بما أنزل اليهم بواسطة أنبياءهم فقال: مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ.

رابعاً: وصفهم بالخشوع والخضوع والإنقياد في جنب الله تعالى الَّذِي هو
ثمرة الإيمان الصحيح السَّالم عن الإضطراب والشُّكوك فأَنَّ الخشوع لا يحصل
إلا من الخشية فقال: خَاشِعِينَ لِلَّهِ.

خامساً: بعدم إشتراءهم شيئاً من متاع الدُّنيا بآيات الله من تحريف
الكتاب أو تفسيره على غير وجهه فقال: لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا و

من كان كذلك فهو مؤمن حقاً وهذا عامٌ في حق جميع المؤمنين هذا كله بناء على أن يكون المراد من أهل الكتاب أهل الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبل الإسلام كاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم ممن لهم كتاب وأما أن قلنا أن المراد بالكتاب جنس الكتاب وبعبارة أخرى كل كتاب أنزل من الله على نبي من الأنبياء من البدو إلى الختم ليشمل القرآن أيضاً فلا إشكال فيه وعليه فالمقصود من الآية هو بيان أن أهل الكتاب كائناً من كان على صنفين. صنفٌ يعدون منه ظاهراً وليسوا منه واقعاً، وصنفٌ يعدون منه ظاهراً وواقعاً.

أما الأول: فاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم ممن كانوا يعدون أنفسهم من أهل الكتاب ظاهراً ولم يكونوا منه واقعاً على ما مرّ الكلام فيه.

الثاني: الذين كانوا معتقدين بكتابهم قبل نزول القرآن وبعده آمنوا به حق الإيمان فهؤلاء أهل الكتاب حقاً ظاهراً وواقعاً هذا بالنسبة إلى أتباع الكتب السماوية قبل طلوع الإسلام وهذا المعنى بعينه جارٍ في حق المسلمين أيضاً، وذلك لأنّ منهم من هو من أهل القرآن ظاهراً وليس من أهله واقعاً كأبي سفيان ومعاوية وغيرهما من المنافقين ومنه من ليس كذلك وهو غيرهم من المؤمنين والحاصل أن أهل الكتاب في كل ملة وأمة حالهم كذلك منهم مؤمن ومنهم غير مؤمن ومجرد إطلاق أهل الكتاب عليهم لا يكفي في مدحهم والثناء عليهم وهذا أصلٌ كلي في جميع الأديان والمِلل وكيف كان فقد وعد الله المؤمنين الأجر والثواب فقال: **أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** يحاسب الخلق كلّهم في إن واحد لأنّه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم قبل أن يعملوها وبعد ما عملوها فلا حاجة به إلى إحصاء عدد ذلك فيقع في الإحصاء إبطاء ولذلك قال أن الله سريع الحساب.

ثم ختم سبحانه وتعالى السورة بالوصية للمؤمنين لأنها توجب إستجابة الدعاء وإيفاء الوعد بالنصر في الدنيا وحسن الجزاء في الآخرة فقال:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أوصاهم الله تعالى بأمر أربعة نافعة في الدنيا والآخرة، أحدها الصبر، وثانيها المصابرة، وثالثها المراقبة، ورابعها التقوى، فالمسائل أربعة:

الأولى: الصبر وهو في اللغة الإمساك في ضيق يقال صبرت الدابة حبستها بلا علف وصبرت فلاناً خلفته خلفاً لا خروج له منها، وفي الاصطلاح حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه فالصبر لفظ عام وربما خولف بين أسماءه بحسب اختلاف مواضعه فان كان حبس النفس لمصيبة سمي سراً لا غير ويضاده الجزع وأن كان في محاربة سمي شجاعة و يضاده الجبن وان كان في نائبة فضجرة سمي رحب المصدر الصجر وان كان في امساك الكلام سمي كتماناً قال الله تعالى: **الْصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالْأَضْرَاءِ** وسمى القوم صبراً لكونه كالنوع له قال صلى الله عليه وسلم صيام شهر الصبر وثلاثة أيام في كل شهر يذهب وحر الصدر وقوله تعالى: **فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ** قال أبو عبيدة أن ذلك لغة بمعنى الجراءة انتهى كلام الراغب في المفردات.

إذا عرفت معنى الصبر فأعلم أن الله تعالى في كثير من الآيات أمر بالصبر و بشر الصابرين بالثواب والرحمة كما مرّ مراراً وسيجي في المستقبل أيضاً ومن هذه الآيات قوله: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا** خاطب المؤمنين به دون الناس فلم يقل يا أيها الناس مثلاً، إما لأجل أن المؤمن يصبر لله، وإما لأجل أن الثواب ليس على مطلق الصبر بأي داع كان بل على الصبر الذي يكون منبعثاً عن الإيمان بالله و اليوم الآخر والصبر بهذا المعنى مختص بالمؤمن.

الثانية: قوله: **وَ صَابِرُوا** اختلفوا في معناه فقيل إصبر و صابروا بمعنى واحد و عليه فقوله: **وَ صَابِرُوا** للتأكد، وقيل إصبروا على طاعة الله في تكاليفه و صابروا أعداء الله في الجهاد، وقيل أي لا تسأموا وانتظروا الفرح و قال في المفردات في قوله: **أَصْبِرُوا وَ صَابِرُوا** أي إحبسوا أنفسكم على

العبادة وجاهدوا أهوائكم، وقيل معناه المغالبة في الصبر وفي ربط الخيل أي وصابروا الأعداء الذين يقاومونكم ليغلبوكم على أمركم ويخذلون الحق الذي في أيديكم، وقال الرّازي المصابرة عبارة عن تحمّل المكاره الواقعة بينه وبين الغير ويدخل فيه تحمّل الأخلاق الرديئة من أهل البيت والجيران والأقارب ويدخل فيه ترك الانتقام ممّن أساء اليك كما قال تعالى: **وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**^(١) ويدخل فيه الإيثار على الغير كما قال: **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ** ولو كان بهم خصاصة ويدخل فيه العفو عمّن ظلمك كما قال وأن تعفو أقرب للتقوى ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويدخل فيه الجهاد فأنّه تعريض النفس للهلاك ويدخل فيه المصابرة مع المبطلين وحلّ شكوكهم فثبت أنّ قوله إصبروا تناول كلّ ما تعلّق به وعده وأما قوله: **وَصَابِرُوا** تناول كلّ ما كان مشتركاً بينه وبين غيره إنتهى كلامه.

الثالثة: قوله: **وَرَابِطُوا** قال ابن عطية والقول الصحيح هو أنّ الرباط هو الملازمة في سبيل الله أصلها من ربط الخيل ثمّ سمّي كلّ ملازم لثغر من ثغور الإسلام مرابطاً فارساً كان أو راجلاً وقال الزّمخشري وابطوا أي فأقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين للغزو وقال الله تعالى: **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**^(٢)

الرابعة: قوله: **وَاتَّقُوا اللَّهَ** حقيقة التقوى أن تقى نفسك من الله أي من غضبه وسخطه وعقوبته ولا يمكن هذا إلا بعد معرفته ومعرفة ما يرضيه وما يسخطه ولا يعرف هذا إلا من فهم كتاب الله وعرف سنّة نبيه فمن صبر وصابر وابط لأجل حماية الحق وأهله ونشر دعوته فقد أعدّ نفسه بذلك للفلاح والفوز بالسعادة عند الله تعالى هكذا قال بعض المفسرين ثمّ قال أنّ الفلاح هو الفوز والغبية المقصودة من العمل وقد يكون ذلك خاصّاً بالدنيا كقوله تعالى

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

حكاية فرعون وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى^(١) وقد يكون خاصاً بالأخرة كقوله حكاية عن أصحاب الكهف وَلَنْ نَفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا^(٢) وقد يكون مشتركاً بين الدارين وأكثر وعد القرآن المؤمنين بالفلاح من هذا القبيل ومن المعلوم أنَّ الصبر ومصابرة الأعداء، والمُرابطة، والتقوى، كلها من أسباب الفوز على الأعداء في الدنيا كما أنَّها مع حسن النية ومقصد إقامة الحق والعدل الذي هو شأن المؤمن من أسباب سعادة الآخرة وهذه الأعمال كلها إختيارية داخلية في مقدور العبد ولذلك أمر بها فعمله إذا هو سبب فلاحه إنتهى.

تنبيه إعلم أنَّ الأفعال الصادرة من الإنسان على قسمين:

قسم منها يكون منشأه التقوى وطلب رضى الرب وقسم منها لا يكون كذلك.

أما الثانى: فلا كلام لنا فيه فعلاً، وأما الأول وهو الأفعال التي مصدرها التقوى وهو تعالى أمر فيها بالصبر والمصابرة ولما كانت الأفعال صادر عن القوى أمر بمجاهدة القوى وهى المرابطة وحيث أنَّ الأفعال إذا صدرت كذلك توجب الفوز والفلاح قال: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ فاتَّقُوا اللَّهَ بالتبري عما سوى لكي تفلحوا غاية الفلاح، أو اتَّقُوا القبائح لَعَلَّكُمْ تفلحون بنيل المقامة الثلاثة المترتبة التي هي الصبر على مضض الطاعات ومصابرة النفس في رفض العادات ومرابطة السر على جناب الحق لترصد الواردات المعبر عنها بالشرعية والطريقة والحقيقة فعلم من هذا أنَّ الصبر دون المصابرة وهى دون المرابطة ولا بد من السلوك حتى يتجاوز العبد عن الأموال والمقامات الى أقصى النهايات.

سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ
نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا
رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي
تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ
رَقِيبًا (١) وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا
الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمُ إِلَىٰ
أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا
تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنْ
النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا
تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ
أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ
نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ
هَنِيئًا مَرِيَّتًا (٤) وَلَا تَوَثُّوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ
الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَ
اكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٥)

◀ اللغة

بَثَّ: البَثُّ التفریق وإثارة الشَّيْ كَبَثَّ الرِّيحُ التُّرابَ وبَثَّ النَّفْسَ ما إنطوت عليه من الغَمِّ والسَّري قال بثثته فأنبثَّ.

وَنِسَاءً: النِّسَاءُ والنِّسْوَانُ والنِّسْوَةُ جمع المرأة من غير لفظها كالقوم في جمع المرء

الْأَرْحَامُ: الرِّحْمُ بفتح الراء وكسر الحاء مستودع الجنين ثمَّ أَسْتَعِيرَ للقرابة لكونهم خارجين من رَحِمٍ واحدة وجمعه الأرحام.

رَقِيبًا: الرَّقِيبُ الحافظ

حُوبًا: الحُوبُ بضم الحاء الإثم وبفتح الحاء المصدر منه

أَلَّا تَعْدِلُوا: العَوْلُ ترك النصفَ بأخذ الزيادة ومنه عالت الفريضة اذ زادت في القسمة.

صَدَقَاتِهِنَّ: واحدها صَدَقَةٌ وفيه لغات أكثرها فتح الصَّاد والثانية كسرهما والجمع، صُدُوقٌ بضمَّتَيْنِ والثالثة لغة الحجاز، صَدَقَةٌ والجمع صدقات على لفظها وقد جاءت في التَّنْزِيلِ والمراد بها في المقام المهر.

نَحْلَةً يُقَالُ نَحَلُ ابْنُهُ كَذَا وَأَنْحَلَهُ وَالْإِنْتِحَالُ إِدْعَاءُ الشَّيْ وتناوله وسمي الصَّدَاقُ بها من حيث أنه لا يجب في مقابلته أكثر من تمتع دون عوض مَالِيٍّ.

طِبْنٌ: يُقَالُ طَابَ الشَّيْ طَيِّبٌ طَيِّبًا فَهُوَ طَيِّبٌ وَأَصْلُهُ مَا تَسْتَلْذُهُ النَّفْسُ. هَنَيْتًا مَرَبَّتًا: الْهَنَى كُلُّ مَا لَا يَلْحَقُ فِيهِ مَشَقَّةٌ وَلَا يَعْقِبُ وَخَامَةٌ وَأَصْلُهُ فِي الطَّعَامِ، وَ الْمَرِيَّ بِالْهَمْزَةِ وَبِدُونِهَا قِيلَ مَعْنَاهُ مَحْمُودُ الْعَاقِبَةِ وَقِيلَ مَعْنَاهُ السَّائِقُ مَعْنَاهُ الْحَلَالُ الطَّيِّبُ وَغَيْرَ ذَلِكَ.

السُّفْهَاءُ: السَّفَهُ خَفَّةٌ فِي الْبَدَنِ وَإِسْتِعْمَلُ فِي خَفَّةِ النَّفْسِ لِنَقْصَانِ الْعَقْلِ وَفِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْمُتَّصِفُ بِهِ يُقَالُ لَهُ أَنَّهُ سَفِيهٌ وَجَمْعُهُ سَفْهَاءٌ كَغَرِيبٌ وَغَرَبَاءٌ وَنَجِيبٌ وَنَجَبَاءٌ.

◀ الإعراب

قد مضى القول في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ فِي الْبَقَرَةِ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ بِنَجْعَلِكُمْ، ومن، لإبتداء الغاية وكذلك مِنْهَا رُؤُوسُهَا وَمِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا نَعْتُ لِرِجَالٍ وَلَمْ يُؤْنِثْ حَمَلًا عَلَى الْمَعْنَى لِأَنَّ رِجَالًا بِمَعْنَى عَدَدٍ أَوْ جِنْسٍ أَوْ جَمْعٍ كَمَا ذَكَرَ الْفِعْلَ الْمُسْنَدَ إِلَى جَمَاعَةِ الْمُؤْنِثِ كَقَوْلِهِ وَقَالَ نِسْوَةٌ، وَقِيلَ كَثِيرًا، نَعْتُ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ أَيْ بَنَاءً كَثِيرًا تَسَاءَلُونَ قَرَأَ بِتَشْدِيدِ السَّيْنِ وَالْأَصْلُ تَسْأَلُونَ فَأَبْدَلْتَ التَّاءَ الثَّانِيَةَ سِينًا فِرَارًا مِنْ تَكْرِيرِ الْمَثَلِ، وَيَقْرَأُ بِالْتَّخْفِيفِ عَلَى حَذْفِ التَّاءِ الثَّانِيَةِ لِأَنَّ الْبَاقِيَةَ تَدُلُّ عَلَيْهَا وَدَخَلَ حَرْفُ الْجَرِّ عَلَى الْمَفْعُولِ لِأَنَّ الْمَعْنَى تَحَالِفُونَ بِهِ أَلَّا زُحَامَ يَقْرَأُ بِالنَّصْبِ لِأَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى إِسْمِ اللَّهِ أَيْ وَإِتَّقُوا الْأَرْحَامَ أَنْ تَقْطَعُوهَا، أَوْ أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى مَوْضِعِ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ كَمَا تَقُولُ مَرَرْتُ بِزَيْدٍ وَعَمْرَأَ وَالتَّقْدِيرُ، الَّذِي، تَعْظُمُونَهُ وَالْأَرْحَامُ يَقْرَأُ بِالْجَرِّ لِأَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى الْمَجْرُورِ وَهُوَ ضَعِيفٌ بِالطَّبِيبِ هُوَ الْمَفْعُولُ الثَّانِي لِتَبَدُّلِهَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِلَى مُتَعَلِّقَةٍ بِمَحْذُوفٍ وَهُوَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَيْ مِزَاجَةٍ إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَقِيلَ هُوَ مَفْعُولٌ بِهِ عَلَى الْمَعْنَى لِأَنَّ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ، لَا تَضِيعُوهَا، أَنَّهُ، الْهَاءُ ضَمِيرُ الْمَصْدَرِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ تَأْكُلُوا، أَيْ أَنْ الْأَكْلَ وَالْأَخْذَ حُبًّا هُوَ إِسْمٌ لِلْمَصْدَرِ وَقِيلَ مَصْدَرٌ وَيَقْرَأُ بِفَتْحِ الْهَاءِ وَهُوَ مَصْدَرٌ حَابٍ يَحِبُّ حُبًّا إِذَا ائْتَمَّ وَإِنْ خِفْتُمْ فِي جَوَابِ هَذَا الشَّرْطِ وَجِهَانِ. أَحَدُهُمَا: قَوْلُهُ: فَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ.

الثاني: قَوْلُهُ: فَوَاحِدَةً ثُمَّ أَعَادَ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا لِمَا طَالَ الْفَصْلُ بَيْنَ الْأَوَّلِ وَجَوَابِهِ أَنْ لَا تَنْقَسُطُوا الْجُمْهُورَ عَلَى ضَمِّ التَّاءِ مِنْ، أَقْسَطَ إِذَا عَدَلَ وَقَرَأَ شَاذًّا بِفَتْحِهَا وَهُوَ مِنْ قَسَطَ إِذَا جَارَ، وَتَكُونُ لَا زَائِدَةً مَا طَابَ مَا بِمَعْنَى مَنْ وَلَهَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ سَتَمَرَّ بِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَقِيلَ مَا، تَكُونُ لَصِفَاتٍ مَنْ يَعْقِلُ وَهِيَ هُنَا كَذَلِكَ وَقِيلَ هِيَ نَكْرَةٌ مَوْصُوفَةٌ تَقْدِيرُهُ،

فأنكحوا جنساً طيباً يطيب لكم أو عددٌ يطيب لكم و قيل هي مصدرية أي أنكحوا الطيب من النساء حال من ضمير الفاعل في طاب مثني وثلاث و رباع نكرات لا تنصرف للعدل والوصف وهي بدل من ما، وقيل هي مال من النساء والواو في ثلاث ورباع، ليست للعطف الموجب للجمع في زمن واحد اذ لو كان كذلك يكون عبثاً فواحدة أي ما نحو واحدة و يقرأ على أنه خبر مبتداء محذوف أي فالمنكوحة واحدة أن يكون التقدير فواحدة تكفي أو ما ملكت أو للتجир على بابها وقيل لا باحة ما هنا بمنزلة ما في قوله ما طاب ان لا تعول أي الى ان لا تقولوا نحلة مصدر في موضع الحال فعلى هذا يكون حالاً من الفاعلين أي فاعلى وان يكون من الصدقات، وأن يكون من النساء أي منحولات نفساً تمييز والعامل فيه، طبن و المفرد هنا في موضع الجمع لأن المعنى مفهوم ويجوز أن يكون في معنى الجنس فصار كدرهما في قولك عندي عشرون درهماً فكلوه الهاء تعود على شيء والهاء في، منه، تعود على المال، هنيئاً مصدر جاء على فاعيل وهو نعت لمصدر محذوف أي أكلاً هنيئاً و قيل هو مصدر في موضع الحال من الهاء والتقدير مهنيئاً أو طيباً مرتباً مثله وهو فاعيل بمعنى مفعول أموالكم التي الجمهور على أفراد، التي، لأن الواحد من الأموال مذكر فلو قال اللواتي لكان جمعاً كما أن الأموال جمع والصفة اذا جمعت من أجل أن الموصوف، جمع، كان و احدها كواحد الموصوف في التذكير والتأنيث جعل الله أي صيرها فهو متعد الى مفعولين والأول محذوف وهو العائد ويجوز أن يكون بمعنى خلق فيكون قياماً حالاً قياماً بالياء والألف وهو مصدر، تام والياء بدل من الواو وأبدلت منها لما أعلت في الفعل وكانت قلبها كسرة وأرزقوهم فيها قيل أن، في، على أصلها والمعنى أجعلوا لهم فيها رزقاً وقيل أنها بمعنى، من.

◀ التفسير

إِعلم أَنَّ سورة النساء هي مَدَنِيَّة كُلُّهَا على المشهور إلَّا:
قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا^(١).

فأنها نزلت بمكة وقيل هي:

قال الله تعالى: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِكُمْ فِي الْأَكَلَةِ^(٢).

وعدد آياتها مائة وسبع وسبعون آيات في العد الشامي، وسب في الكوفي، و
خمس في الباقي يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
وَاحِدَةٍ لِّمَّا ختم الله سورة آل عمران بالتقوى والأمر بها:

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا
اللَّهَ^(٣).

إفتتح هذه السورة أيضاً بالأمر بها إلَّا أَنَّ هناك خص الأمر بالمؤمنين هذه
السورة عم الأمر لجميع المتكلمين فقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَالنَّاس
يطلق على جميع أفراد البشر، لأنَّ الإنسان خلاف الجن والإنس من كل شيء ما
يلي الإنسان والوحشي ما يلي الجانب الآخر له وجمع الإنس أناسي قيل
سُمي الإنسان به لأنَّه خلق خلقاً لأقوام له إلَّا بأنس بعضهم ببعض ولهذا قيل
الإنسان مدني بالطبع وقيل سُمي به لأنَّه يأنس بكل ما يألفه، والإنسان إسم
جنس يقع على الذكر والأنثى والواحد والجمع وأختلف في اشتقاقه مع
إتفاقهم على زيادة النون الأخيرة فقال البصريون من الإنس، والهمزة أصلية
وزنه فعلا الكوفيون أنه مشتق من النسيان فالهمزة زائدة وقيل أصله أنسيان
على وزن إفعلا وقيل غير ذلك وكيف كان لا خلاف في صدق الناس على
جميع أفراد الإنسان من العرب والعجم والأبيض والأسود والمذكر
المؤنث وهكذا فقله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ خطاب للجميع أمرهم الله بالتقوى مرَّ

معنى التقوى غير مرة مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ اتَّفَقَ المفسِّرون على أنَّ المراد بالنفس هنا هو آدم أبو البشر وعليه فالمعنى خلقكم من آدم، ونقل عن ابن عباس أنَّه قال المراد بالناس في قوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أهل مكة دون عامة الناس وإستدل على ذلك بقوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ لَأَنَّ العرب هم الذين كانوا يتسائلون بذلك يقولهم أنشدك بالله وبآلؤهم، وأجابوا عنه بأنَّ خصوص آخر الآية لا يمنع من عموم أولها فقوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ عام في الكل وقوله:

وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ

مختصَّ بالعرب والحق في الآية كلها العموم وذلك لأنَّ خصوص المورد لا ينافي في عموم الخطاب، قال الرازي أعلم أنَّه تعالى أمرنا بالتقوى وذكر عقبيه أنَّه خلقنا من نفس واحدة وهذا مشعرٌ بأنَّ الأمر بالتقوى معلَّل بأنَّه تعالى خلقنا من نفس واحدة ولا بدَّ من بيان المناسبة بين هذا الحكم وبين ذلك الوصف ثمَّ قال قولنا خلقنا من نفس واحدة مشتمل على قيتين.

أحدهما: أنَّه خلقنا.

الثاني: كيفية التخلُّق وهو أنَّه خلقنا من نفس واحدة ولكل واحدٍ من هذين القيدين أثر في وجوب التقوى.

أما القيد الأول: وهو أنَّه تعالى خلقنا فلا شك أنَّ هذا المعنى علةٌ لأنَّ يجب علينا الانقياد لتكاليف الله تعالى والخضوع لأوامره ونواهيه وبيان ذلك من وجوه ثمَّ ذكر الوجوه تفصيلاً كما هو دأبه في جميع تأليفاته ولا سيَّما هذا الكتاب بما لا فائدة فيه إن شئت الإطلاع عليه فراجعهُ ولنرجع الى تفسير الآية فنقول، قد أجمع المفسِّرون على أنَّ المراد بالنفس الواحدة في الآية هو آدم أبو البشر كما مرَّ ولم يخالف فيه أحد ولم يذكروا دليلاً على المدعى والآية لا تدلُّ على أكثر من أنَّ الله خلقنا من نفس واحدة وأما أنَّ المراد بها آدم أو غيره

فَلَايَة سَاكِنَة عَنْهُ قَالَ صَاحِبُ تَفْسِيرِ الْمَنَارِ نَقْلًا عَنْ اسْتَاذِهِ مَا هَذَا لَفْظُهُ قَالَ
الْاِسْتَاذُ لَيْسَ الْمَرَادُ بِالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ آدَمَ بِالنَّصِّ وَلَا بِالظَّاهِرِ فَمِنْ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ
يَقُولُ أَنَّ كُلَّ نَدَاءٍ مِثْلُ هَذَا يَرَادُ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ أَوْ قَرِيشَ فَإِذَا صَحَّ هَذَا هُنَا جَازَنَ
يَفْهَمُ مِنْهُ بَنُو قَرِيشَ أَنَّ النَّفْسَ الْوَاحِدَةَ هِيَ قَرِيشَ أَوْ عَدْنَانَ وَإِذَا كَانَ الْخُطَابُ
لِلْعَرَبِ جَازَ أَنْ يَفْهَمُوا مِنْهُ أَنَّ الْمَرَادَ بِالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ يَعْرَبُ أَوْ قُحْطَانَ وَإِذَا قُلْنَا
أَنَّ الْخُطَابَ لِجَمِيعِ أَهْلِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ أَيْ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ فَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ
أُمَّةٍ تَفْهَمُ مِنْهُ مَا تَعْتَقِدُهُ فَالَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ جَمِيعَ الْبَشَرِ مِنْ سَلَالَةِ آدَمَ يَفْهَمُونَ
أَنَّ الْمَرَادَ بِالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ آدَمَ وَالَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ لِكُلِّ صَنَفٍ مِنَ الْبَشَرِ أَبًا
يَحْمِلُونَ النَّفْسَ عَلَى مَا يَعْتَقِدُونَ (وَالْأَصْنَافُ الْكَبِيرَى هِيَ الْأَبْيَضُ وَالْقَوَاقِاسِي
وَالْأَصْفَرُ الْمَغُولِي وَالْأَسْوَدُ الزَّنْجِي وَغَيْرُهُ) وَبَعْضُ فُرُوعِ هَذَا تَكَادَ تَكُونُ
أَصُولًا كَالْأَحْمَرِ الْحَبَشِي وَالْهِنْدِي، وَالْأَمْرِيكِي وَالْمَلْقِي ثُمَّ قَالَ وَالْقَرْنِيَّةُ عَلَى
أَنَّهُ لَيْسَ هُنَا بِالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ آدَمَ قَوْلُهُ: وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً
بِالتَّنْكِيرِ الْمُنَاسِبِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ أَنْ يَقُولَ وَبَثَّ مِنْهُمَا جَمِيعَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
وَكَيْفَ يَنْصُ عَلَى نَفْسٍ مَعْهُودَةٍ وَالْخُطَابُ عَامٌّ لِجَمِيعِ الشُّعُوبِ وَهَذَا الْعَهْدُ
لَيْسَ مَعْرُوفًا عِنْدَ جَمِيعِهِمْ فَمِنْ النَّاسِ مَنْ لَا يَعْرِفُ آدَمَ وَلَا حَوَاءَ وَلَمْ يَسْمَعُوا
بِهِمَا وَهَذَا النَّسَبُ الْمَشْهُورُ عِنْدَ ذُرِّيَّةِ نُوْحٍ مِثْلًا هُوَ مَا خُوِذَ عَنِ الْعِبْرَانِيِّينَ فَأَتَنَّهُمْ
هُمْ الَّذِينَ جَعَلُوا لِلْبَشَرِ تَارِيخًا مُتَّصِلًا بِآدَمَ وَحُدُودًا لَهُ زَمَنًا قَرِيبًا وَأَهْلُ الْقَيْنِ
يُنْسِبُونَ الْبَشَرَ إِلَى أَبِي آخَرَ وَيَذْهَبُونَ بِتَارِيخِهِ إِلَى زَمَنٍ أَبْعَدَ مِنَ الزَّمَنِ الَّذِي
ذَهَبَ إِلَيْهِ الْعِبْرَانِيُّونَ وَالْعِلْمُ وَالبَحْثُ فِي أَثَارِ الْبَشَرِ مِمَّا يَطْعَنُ فِي تَارِيخِ
الْعِبْرَانِيِّينَ وَنَحْنُ لَا نَكْلِفُ تَصْدِيقَ تَارِيخِ الْيَهُودِ وَأَنْ عَزَوْهُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
فَأَنَّهُ لَا ثِقَةَ عِنْدَنَا بِأَنَّهُ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَنَّهُ بَقِيَ كَمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ، نَحْنُ لَا
نَحْتَاجُ عَلَى مَا وَرَاءَ مَدْرَكَاتِ الْحَسِّ وَالْعَقْلِ إِلَّا بِالْوَحْيِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ
وَأَنَّا نَقِفُ عِنْدَ هَذَا الْوَحْيِ لَا نَزِيدُ وَلَا نَنْقُصُ كَمَا قُلْنَا مَرَّاتٍ كَثِيرَةً وَقَدْ أَبْهَمَ
اللَّهُ تَعَالَى هُنَا أَمْرَ النَّفْسِ الَّتِي خَلَقَ النَّاسَ مِنْهَا وَجَاءَ بِهِ نَكْرَةً فَندَعُهَا عَلَى

إبهامها فاذا ثبت ما يقوله الباحثون من الأمر نج من أن لكل صنفٍ من أصناف البشر أباً، كان ذلك غير واردٍ على كتابنا كما يرد على كتابهم التّوراة لما فيها من النصّ الصّريح في ذلك وهو ممّا حمل باحثيهم على الطّعن في كونها من عند الله تعالى ووحيه، قال، وما ورد في آيات أخرى من مخاطبة النّاس بقوله: يا بني آدم، لا ينافي هذا ولا يعدّ نصّاً قاطعاً في كون جميع البشر من أبنائه اذ يكفي في صحّة الخطاب أن يكون من وجه اليهم في زمن التّنزيل من أولاد آدم وقد تقدّم في تفسير قصّة آدم في أوائل سورة البقرة أنّه كان في الأرض قبله نوع من هذا الجنس أفسدوا فيها وسفكوا الدّماء وإذا كان جماهير المفسّرين فسروا النّفس الواحدة هنا بآدم فهم لم يأخذوا ذلك من نصّ الآية ولا من ظاهرها بل من المسألة المسلّحة عندهم وهي أنّ آدم أبو البشر وقد اختلفوا في مثل هذا التعبير:

قال الله تعالى: **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ^(١).

فقد ذكر الرّازي في تفسيرها ثلاث تأويلات الأوّل ما ذكره القفال وهو أنّه تعالى ذكر هذه القصّة على سبيل ضرب المثل والمراد خلق كلّ واحدٍ منكم من نفسٍ وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانيّة.

الثّاني: أنّ الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد النّبي وهم آل قصي وأن المراد بالنّفس الواحدة قصي.

الثّالث: أنّ النّفس الواحدة آدم، قال، وقد نقل عن الإماميّة والصوفيّة أنّه كان قبل آدم المشهور عند أهل الكتاب وعندنا آدميّون كثيرون قال في روح المعاني وذكر صاحب جامع الأخبار من الإماميّة في الفصل الخامس عشر خبراً طويلاً نقل فيه أنّ الله تعالى خلق أبينا آدم ثلاثين آدم بين كلّ آدم وآدم

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

ألف سنة ثم خلق أبونا آدم ﷺ وروي ابن بابويه في كتاب التوحيد عن الصادق في حديث طويل أيضاً أنه قال لعلك ترى أن الله لم يخلق بشراً غيركم بلئى والله لقد خلق ألف ألف آدم أنتم في آخر أولئك الأدميين وقال الميثم في شرحه الكبير على النهج ونقل عن محمد بن علي الباقر ﷺ: أنه قال قد إنقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر و ذكر الشيخ الأكبر (مراده محي الدين العربي) ما يقتضي بظاهره أن قبل آدم بأربعين ألف سنة آدم غيره وفي كتاب الخصائص لابن بابويه كما في الهامش، ما يكاد يفهم منه التعدد أيضاً حيث روي فيه عن الصادق ﷺ أنه قال أن لله تعالى أثني عشر ألف عالم كل عالم منهم أكبر من سبع سموات وسبع أرضين ما يرى عالم منهم أن لله عز وجل عالماً غيرهم المراد منه وفي المسألة نقول أخرى في الفتوحات وغيرها (لا نفهم معنى هذه العبارة) ثم نقل زين العرب القول بكفر من يقول بتعدد آدم وهذا من جرأته وجرأة أمثاله يتهمجون على ما يكفي المسلمين لأوهى الشبهات وقال وللاستاذ الامام فى هذا المقام رأيان.

احدهما: ظاهر هذه الآية يابى ان يكون المراد بالنفس الواحدة آدم اى سواء كان هو الاب لجميع البشر ام لا لما ذكره من معارضة المباحث العلمية و التاريخيه له و من تنكر ما بثه منهما و من زوجها ان قال.

ثانياً: أن ليس في القرآن نص قاطع على أن جميع البشر من ذرية آدم و المراد بالبشر هنا هذا الحيوان الناطق البادئ البشرية المستصب القامة الذي يطلق عليه لفظ الإنسان انتهى كلام صاحب المنار بألفاظه و عباراته و نحن نقول:

أما ما نقله المفسرين من أن كل نداء مثل هذا يراد به أهل مكة أو قريش: **أما أولاً:** أنا لا نعرف من المفسرين الذين يعتنى بقولهم ويسمع كلامهم في تفسير كلام الله من قال بهذه المقالة نعم نسب أبو حيان في تفسيره هذا القول، الى قيل، ولم ينبه وهو مشعر بالتمريض.

ثانياً: قد ثبت في موضعه أنَّ خصوص المورد في نزول الآية لا يوجب خصوص المعنى.

ثالثاً: أنَّ النَّاسَ معرّف بالألف واللام المفيد للجنس وهو يفيد العموم.

رابعاً: أنَّ القرآن و أن نزل بلسان العرب إلاَّ أنَّه لم ينزل لهم دون غيرهم.

أما قوله اذا كان الخطاب للعرب جاز أن يفهموا منه أنَّ المراد بالنفس الواحدة يعرب أو قحطان، فهو كلام لا طائل تحته لأنَّ فهم النَّاس لا دخل له بأصل المراد ومنه يعلم فساد قوله في سورة الخطاب لجميع أهل الدَّعوة أنَّ كلَّ أمةٍ تفهم منه ما تعتقده، وذلك لأنَّ إعتقاد المخاطب أو السَّامع لا يغير المعنى الواقعي ممَّا هو عليه وبعبارة أخرى القرآن لم ينزل عليَّ وفق مقاصد القاصدين أو فهم المخاطبين فأنَّ الوقوف على أسرار القرآن و متشابهاته منحصراً لمن خوطب به أو أنزل اليه وهو الرِّسول وأهل بيته المعصومين.

وأما القرينة التي ذكرها على مدَّعاه وهى قوله: **وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً** بالتَّنكير وكان المناسب أن يقول جميع الرِّجال والنِّساء، فنقول في الجواب أنَّه قد ثبت أنَّ في التَّنكير من الشُّيوع ما ليس في غيره فقوله تعالى: **رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً** أي ونساء كثيرة وأنت ترى أنَّه تعالى لم يكتف بالشُّيوع حتَّى صرَّح بالكثرة أيضاً.

وأما قوله نحن لا نحتجَّ على ما وراء مدركات الحسِّ والعقل إلاَّ بالوحي الخ.

فهو كلام حق لا مَرية فيه فأتنا أيضاً نقف عند الوحي لا نزيد ولا ننقص، و ما نقله عن الإمامية و الصوفية بواسطة الألوسي أو بغير واسطة فنحن فيه من المتوقفين اذ ليس عندي جامع الأخبار و أما كتاب الخصائص لابن بابويه فلم نسمعه الى الآن هف و محصّل الكلام هو أنَّ ما ذكره من الدليل على إثبات مدَّعاه لا يرجع الى محصّل و أما أصل الإدعاء فلا كلام لنا فيه فعلاً.

قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية، و ظاهر السِّياق أنَّ المراد

بِالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ آدَمَ وَمِنْ زَوْجِهَا زَوْجَتَهُ وَهُمَا أَبُو هَذَا النَّسْلِ الْمَوْجُودِ الَّذِي نَحْنُ مِنْهُ وَالْيَهُمَا نَنْتَهِي جَمِيعاً عَلَى مَا هُوَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا^(١)**.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ^(٢)**.

وَأَمَّا مَا إِحْتَمَلَهُ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ زَوْجَهَا فِي الْآيَةِ مَطْلُوقَ الذَّكَورِ وَالْإِنْثَاءِ مِنَ الْإِنْسَانِ الزَّوْجَيْنِ اللَّذَيْنِ عَلَيْهِمَا مَدَارُ النَّسْلِ فَيُؤَوَّلُ الْمَعْنَى إِلَى نَحْوِ قَوْلِنَا خَلَقَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمُ مِنْ أَبِي وَأُمِّ بَشَرَيْنِ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ فِي ذَلِكَ بَيْنَكُمْ فَيُنَظَرُ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى^(٣)**.

حَيْثُ أَنَّ ظَاهِرَهُ نَفْيُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ مِنْ جِهَةٍ تَوْلَدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنْ زَوْجَيْنِ مِنْ نَوْعِهِ ذَكَرٌ وَأُنْثَى فَفِيهِ فُسَادُ ظَاهِرٍ وَقَدْ فَاتَهُ أَنْ يَبِينُ الْآيَتَيْنِ أَعْنَى آيَةِ النِّسَاءِ وَآيَةِ الْحِجَرَاتِ فَرْقٌ بَيِّنٌ فَأَنَّ آيَةَ الْحِجَرَاتِ فِي مَقَامِ بَيَانِ إِتْحَادِ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ الْحَقِيقَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَنَفْيُ الْفَرْقِ بَيْنَهُمْ مِنْ جِهَةٍ إِنْتِهَاءُ تَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى أَبِي وَأُمِّ إِنْسَانَيْنِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَبَّرَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ وَلَا يَتَكَبَّرَ إِلَّا بِالْقُوَّةِ وَأَمَّا آيَةُ النِّسَاءِ فَهِيَ فِي مَقَامِ بَيَانِ إِتْحَادِ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ الْحَقِيقَةُ وَأَنَّهُمْ عَلَى كَثَرَتِهِمْ رِجَالًا وَنِسَاءً أَمَّا إِشْتِقَاؤُهُمْ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ وَتَشَعُّبُهُمْ مِنْ مَنْشَأٍ وَاحِدٍ فَصَارُوا كَثِيرًا عَلَى مَا هُوَ ظَاهِرُ قَوْلِهِ: **وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً^(٤)** الْمَعْنَى كَمَا تَرَى لَا يَنْسَابُ كَوْنُ الْمُرَادِ مِنَ النَّفْسِ الْوَاحِدَةِ زَوْجَهَا مَطْلُوقَ الذَّكَرِ وَالْإِنْثَى النَّاسِلَيْنِ مِنَ الْإِنْسَانِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْسَابُ غَرَضُ السُّورَةِ أَيْضاً وَسَاقُ الْكَلَامِ إِلَى أَنْ قَالَ وَظَاهِرُ الْجُمْلَةِ أَعْنَى قَوْلِهِ، وَخَلَقَ

منها زوجها أنها بيان لكون زوجها من نوعها بالتماثل وأن هؤلاء الأفراد المبتوثين مرجعهم جميعاً الى فردين متماثلين متشابهين، فلفظة (من) نشأية والآية في مساق قوله تعالى: **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا** ^(١) ثم ذكر آيات أخر من هذا الباب انتهى كلامه بلفظه ^(٢).

أقول أنما نقلنا عين عباراته وألفاظه لأمرين:

أحدهما: حفظ الأمانة وأن تعلم أن المفسرين في تفسير الآية فيما وقعوا من الإضطراب في فهم الآية الى ان قنعوا بتفسير الألفاظ ولم يعدلوا عن ظاهر القرآن فقالوا أن المراد بالنفس الواحدة آدم ومن زوجها زوجته كما عرفت أنفاً من كلامه وكلام غيره والعبارات مختلفة، وتارة يقولون ان المراد بالنفس الواحدة آدم وعليه جمهور المفسرين وكذا ولم نظفر بعد الفحص التام على دليل اقامو على هذا الحمل والكتاب ساكت عنه فان سئل منهم سائل من اين اخذتم هذا وحملتكم النفس الواحدة عليه يقولون في الجواب لم يخالف فيه أحد أو عليه الجمهور من المفسرين وأمثال ذلك مما قالوه في تفاسيرهم يعلموا أن المسألة ليست من الفروع حتى يمكن فيها، التشبث بالأجماع كان كذلك فقول الجمهور ليس بحجة والموضوع يبقى على إبهامه كما كان وأعجب من ذلك كله أنك تراهم مصرين على قولهم من غير إقرار منهم على أنفسهم بالعجز وليس هذا إلا الجهل المركب ولا غرو فيه فإن القرآن كلام الخالق وقد قال الله تعالى: **وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** ^(٣). ولا سيما أَلَمْتشابهات منه وما نحن فيه من هذا القبيل ولولم يكن منها فلا أقل من أنه من المعضلات التي لا تصل أفهامنا الى درك حقيقتها اذا عرفت هذا فنقول: لا يبعد أن يكون المعنى في قوله: **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ خَلَقَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ** من نفس واحدة وخلق منها أي من النفس زوجها فيه إشارة الى أن لكل نفس زوج منها.

٢- تفسير الميزان، ج ٤، ص ١٣٥.

١- الروم = ٢١

٣- الاسراء = ٨٥

أي من جنسها والحاصل أن كل نفس وزوجها من جنس واحد من حيث الحقيقة والماهية لا إختلاف فيهما من هذه الجهة وأما الإختلاف بالعوارض والمشخصات، وهذا يجيء كثيراً في القرآن وفي كلام العرب قال الله تعالى: وَ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةٍ شَهْدَاءَ فَاُجْلِدُوهُمْ^(١) أي فأجلدوا كل واحد منهم ثمانين جلدة فإن كان هذا الإحتمال مقروناً بالصحة فهو المطلوب وأن لم يكن فالكلام باقٍ على إبهامه والله أعلم وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَ نِسَاءً الْبَثُّ هو التفريق بالإثارة ونحوها قال تعالى: فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا^(٢)

والمقصود منه أن النسل الموجود من الإنسان ينتهي إلى آدم وزوجته على المشهور في تفسير الآية أو ينتهي إلى النفس وزوجته بأي معنى كانت كان لا شك في هذا المعنى كما هو المشاهد المحسوس في أصناف الإنسان من الأبيض والأسود والأحمر وكونهم ميثوثين في نقاط الأرض وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحَامَ إِيَّاهُ فِي مَعْنَى الكلام فمنهم من عطف الأرحام على لفظ الجلالة أي إتقوا الأرحام و عليه فالمعنى إتقوا الله في التسائل وهو سؤال بعض الناس بعضاً بالله مثل أن يقول أسألك بالله أن تفعل كذا وكذا أي لا تفعلوا ذلك وإتقوا الله في الأرحام بالبر والصلة إليهم، ومنهم من عطف قوله: وَ الْأَرْحَامَ على محل الضمير في قوله: بِهِ وهو النصب أو على الضمير المتصل المجرور وهو الجر و عليه فالمعنى إتقوا التسائل والرحم فلا تقولوا أسألك بالله أو أسألك بالرحم، وقرأ الجمهور السبعة بنصب الميم في الأرحام وهو الثابت في القرآن فعلاً وليس هذا إلا من عطف الأرحام على محل الضمير، ونقل الرفع أيضاً بناء على أنه مبتدأ والخبر محذوف قدره ابن عطية، والأرحام أهل أن توصل وقدره الزمخشري والأرحام مما يتقى أو ممّا يتسائل به إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا الرَّقِيبُ الحفيظ والمراقبة المحافظة، والله تعالى رقيب على العباد، أمّا لأنه يحفظ عليهم أعمالهم ليجزيهم بها.

وَأَمَّا لِأَنَّهُ يَحْفَظُهُمْ عَنِ الْآفَاتِ وَالْبَلِيَّاتِ:

من الأول: قوله تعالى: وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ^(١).

من الثاني: قوله: فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ^(٢).

وَأَتُوا أَيْتَامِي أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا.

وصَّى الله تعالى في الآية السابقة بالأرحام وفي هذه الآية بالأيتام وفي الآية مباحث:

الأول: قال الرَّاعِبُ الثِّمُّ إنقطاع الصَّبِي عن أبيه قبل بلوغه وفي سائر الحيوانات من قبل أمه، وقال صاحب الكَشَافِ اليتامى الَّذِينَ مات أباءهم فأنفردوا عنهم واليتيم الْإِنْفِرَادُ ومنه الرَّمْلَةُ اليتيمة والدُّرَّةُ اليتيمة وقيل اليتيم في الأناسي من قبل الأبَاء وفي البهائم من قِبَلِ الأمهات قال وَحَقَّ هذا الإِسْمُ أَنْ يَقَعَ عَلَى الصَّغَارِ والكبار لبقاء الْإِنْفِرَادِ عن الأبَاءِ إِلَّا أَنْ فِي الْعُرْفِ إختَصَّ هذا الإِسْمُ بمن لم يبلغ مبلغ الرِّجَالِ فإذا صار بحيث يستغنى بنفسه في تحصيل مصالحه كان كافلاً يُكْفَلُهُ وَقِيمَ يقوم بأمره زال عنه هذا الإِسْمُ وكانت قريش تقول لرسول الله ﷺ يَتِيمٌ أَبِي طَالِبٌ أَمَّا عَلَى الْقِيَّاسِ وَأَمَّا عَلَى حِكَايَةِ الْحَالِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا حِينَ كَانَ صَغِيرًا نَاشِئًا فِي حَجَرٍ عَمَهُ تَوْضِيعًا لَهُ وَأَمَّا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَتِمُّ بَعْدَ حَلَمٍ، فَهُوَ تَعْلِيمُ الشَّرِيعَةِ لَا تَعْلِيمُ اللُّغَةِ يَعْنِي إِذَا احْتَلَمَ فَأَنَّهُ لَا تَجْرِي عَلَيْهِ أَحْكَامُ الصَّغَارِ.

أَنْ قُلْتَ الْيَتِيمَ، فَعِيلٌ وَهُوَ يَجْمَعُ عَلَى فَعْلَى كَمَرِيضٌ وَمَرَضَى وَقَتِيلٌ وَقَتَلَى وَجَرِيحٌ وَجَرَحَى وَهَكَذَا فَكَيْفَ جَمَعَ الْيَتِيمَ عَلَى يَتَامَى فِي الْقُرْآنِ.

قُلْتُ قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ فِيهِ وَجْهَانِ:

أحدهما: أَنْ يَقَالَ جَمَعَ الْيَتِيمَ يَتِمَى ثُمَّ يَجْمَعُ فَعَلَى عَلَى فَعَالَى وَعَلَيْهِ

فاليتامى جمع يتامى وهو جمع يتيم فاليتامى جمع الجمع.
ثانيهما: أن يقال جمع يتيم يتائم لأنَّ اليتيم جار مجرى الأسماء نحو صاحب و فارس ثمَّ يقلب اليتائم يتامى انتهى.

ونقل عن القفال أنه قال يجوز يتيم و يتامى كنديم وندامى و يجوز أيضاً يتيم و أيتام كشریف و اشرف انتهى وفى المقام الاشكال آخر وهو أنه تعالى: **وَ اتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ** ولاشك أن اليتيم لا يجوز دفع المال اليه مادام كونه يتيماً و اما بعد البلوغ فيجوز دفع المال الا أنه ليس بيتيم فكيف قال و اتوا اليتامى اقوالهم و قد أجابوا عنه بوجهين:

أحدهما: أن المراد من اليتامى فى الآية الذين بلغوا و كبروا و أتما سماء يتامى على قانون اللغة أو أنه تعالى سماء بهم لقرب عهدهم باليتيم و أن كان قد زال فى هذا الوقت كما يطلق القاتل و الضارب على من قتل و ضرب فى الماضي قال الله تعالى: **فَأَلْفَىٰ السَّحَرَةَ سَاجِدِينَ**^(١) و من المعلوم أنهم كانوا سحرة قبل الإيمان و السجود لله تعالى.

ثانيهما: أن نقول أن المراد باليتامى الصغار و المعنى أَدفعوا اليهم أي الى الصغار أموالهم فى المستقبل بعد زوال صفة اليتيم عنهم و يدل عليه قوله تعالى: **وَ اتُّكِّلُوا لِيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ**^(٢) و سيجئ تفسيرها.

و فى المقام إحتمال آخر وهو أن يكون المراد بقوله: **وَ اتُّكِّلُوا لِيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ** ما يحتاجون اليه لفقتهم و كسوتهم الجواب لا يصح اذ لو كان المراد بالآية ما ذكره هذا القائل لوجب أن يقال و اتوا اليتامى من أموالهم و حيث لم يقل ذلك فهذا الإحتمال ساقط عن أصله **وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ** قال بعض المفسرين أنها نزلت فى رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم فلما بلغ طلب المال فمنعه عمه فتراجعفا الى النبي ﷺ فنزلت هذه

الآية فلَمَّا سَمِعَهَا الْعَمَّ قَالَ أَطْعَنَا اللَّهُ وَأَطْعَنَا الرَّسُولَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْحَوْبِ الْكَبِيرِ وَدَفَعَ مَالَهُ إِلَيْهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَنْ يُوْقُ شَيْخَ نَفْسِهِ وَيُطْعِمُ رَبَّهُ هَكَذَا فَاتَّهَ يَحِلُّ دَارَهُ أَيْ جَنَّتَهُ فَلَمَّا قَبِضَ الصَّبِيُّ مَالَهُ أَتَفَقَّهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ ثَبَتَ الْأَجْرَ وَبَقِيَ الْوِزْرَ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ عَرَفْنَا أَنَّهُ ثَبَتَ الْأَجْرَ فَكَيْفَ بَقِيَ الْوِزْرَ وَهُوَ يَنْفِقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ، ثَبَتَ أَجْرَ الْغُلَامِ وَبَقِيَ الْوِزْرَ عَلَى وَالِدِهِ ثُمَّ أَنَّ الْخَبِيثَ عَلَى مَا فَسَّرَهُ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ الرَّدِّيَّ وَذَلِكَ بِتَنَاوُلِ الْبَاطِلِ فِي الْإِعْتِقَادِ وَالْكَذِبِ فِي الْمَقَالِ وَالْقَبِيحِ فِي الْفِعَالِ انْتَهَى وَلِذَلِكَ قِيلَ، الْخَبِيثُ مَا يُكْرَهُ رِدَاءَةً وَخَسَاسَةً مُحْسُوسًا كَانَ أَوْ مَعْقُولًا:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ^(١).

أَيِ الْأَعْمَالِ الْخَبِيثَةِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالنَّفُوسِ الْخَبِيثَةِ مِنَ النَّفُوسِ الزَّكِيَّةِ وَقَدْ مَضَى تَقْسِيرُ الْآيَةِ.

وَأَمَّا الْخَبِيثُ فِي الْمَقَامِ فَالْمُرَادُ بِهِ الْمَالُ الْحَرَامُ كَمَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالطَّيِّبِ الْحَلَالَ مِنْهُ أَيْ لَا تَتَبَدَّلُوا الْحَرَامَ بِالْحَلَالَ وَفِي كَيْفِيَّةِ التَّبْدِيلِ أَقْوَالٌ:

أحدها: معناه لَا تَسْتَبَدِّلُوا قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ وَالتَّفَعُّلُ بِمَعْنَى الْإِسْتِفْعَالِ غَيْرُ عَزِيزٍ وَمِنْهُ التَّعْمَلُ بِمَعْنَى اسْتِعْجَالٍ وَالتَّأَخُّرُ بِمَعْنَى الْإِسْتِخَارِ عَنْ الْوَاحِدِيِّ أَنَّهُ قَالَ، يُقَالُ تَبَدَّلَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ إِذَا أَخَذَ مَكَانَهُ، وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى لَا تَتَبَدَّلُوا الْحَرَامَ وَهُوَ مَالُ الْيَتَامَى بِالْحَلَالَ وَهُوَ مَالُكُمْ الَّذِي أُبِيحَ لَكُمْ مِنَ الْمَكَاسِبِ وَرَزَقَ اللَّهُ الْمَبْتُوثَ فِي الْأَرْضِ فَتَأْكُلُهُ مَكَانَهُ.

ثانيها: لَا تَسْتَبَدِّلُوا الْأَمْرَ الْخَبِيثَ وَهُوَ إِخْتِزَالُ أَمْوَالِ الْيَتَامَى بِالْأَمْرِ الطَّيِّبِ حِفْظُهَا وَالتَّوَرُّعُ مِنْهَا وَهُوَ قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ أَنَّهُ كَانَ وَلِيُّ الْيَتِيمِ يَأْخُذُ الْجَيِّدَ مِنْ مَالِهِ وَيَجْعَلُ مَكَانَهُ الدَّوْنَ بِجَعْلِ الزَّائِفِ بَدَلَ الْجَيِّدِ وَالمَهْزُولُ بَدَلَ السَّمِينِ وَطَعْنُ صَاحِبِ الْكَشَافِ فِي هَذَا الْوَجْهِ فَقَالَ لَيْسَ هَذَا بِتَبَدُّلٍ وَأَمَّا هُوَ بِتَبْدِيلٍ.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

ثالثها: معناه أن يأكلوا مال اليتيم سلفاً مع إلزام بدله بعد ذلك وفي هذا يكون متبدلاً الخبيث بالطيب ذكر هذه الوجوه الرّازي في تفسيره وقال الطّبرسي رحمته بعد نقل الأقوال وأقوى الوجوه الأول لأنه أنما ذكر عقيب أموال اليتامى فيكون معناه لا تأخذوا السّمين والجيد من أموالهم وتضعوا مكانهما المهزول والرّدي فتحفظون عليهم عدد أموالهم ومقاديرها ويجحفون بهم في صفاتها انتهى.

أقول ما جعله الطّبرسي أول الأقوال جعله الرّازي ثانياً والأمر سهل. **أقول** هذا الذي إختاره الطّبرسي رحمته لا بأس به إلا أنه لا يلائم التبدل فإن أخذ السمين والجيد وضع المهزول والرّدي مكانهما هو التّبدل بعينه والآية نهت عن التبدل فقال تعالى: **لَا تَتَّبَدَّلُوا** ولم يقل لا تبدّلوا اللهم إلا أن يقال أن التبدل هنا معناه التبدل لا يقال أن التبدل معناه الإستبدال وعليه فلا إشكال في المعنى باقي على حاله اذ لو كان التبدل معناه الإستبدال كما فسّره فلم لم يقل ولا تستبدلوا الخبيث بالطيب وقال ولا تبدّلوا، نعم قال بعض أهل اللغة، الإبدال والتبديل والتبدل والإستبدال بمعنى واحد وهو جعل شيء مكان آخر وبذلك يرتفع الإشكال.

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا

أي ولا تضموا أموالهم إلى أموالكم حتى لا يتفرقوا بين الأموال في حلّ الإنتفاع بها، وقيل أن (إلى هنا بمعنى «قَعَ») أي لا تاكلوا أموالهم مع أموالكم كما قال الله تعالى: **مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ** أي مع الله والأول اوضح وسنأتي الكلام في هذه الآية وأن «إلى» ليست بمعنى رمع فانتظر كما قال تعالى: **مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ** أي مع الله، والأول وقوله: **إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا** الحُوب بالضم الإثم الكبير والمعنى أن أكل مال اليتيم من أعظم الإثم أعادنا الله منه وسيأتي الكلام فيه وإن **خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى** قال الرّازي في المفردات القسط بكسر القاف هو النصيب بالعدل كالتّصف والتّصف.

قال الله تعالى: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ^(١).

قال الله تعالى: وَأَقِيمُوا الزُّنْنَ بِالْقِسْطِ^(٢).

والقسط هو أن يأخذ قسط غيره و ذلك جور و الإقسط أن يعطي قسط غيره و ذلك إنصاف و لذلك قسط الرجل اذا جار و أقسط اذا عدل.

قال الله تعالى: وَ أَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا^(٣).

قال الله تعالى: وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ^(٤) أي أعدلوا انتهى

ونقل عن الزجاج أنه قال أصل قسط و أقسط جميعاً من القسط و هو النصيب فإذا قالوا، قسط بمعنى جار أرادوا أنه ظلم صاحبه في قسطه الذي يصيبه ألا ترى أنهم قالوا قاسطته فقسطته اذا غلبته على قسطه فبني قسط على بناء ظلم و جار و غلب و اذا قالوا أقسطه فالمراد أنه صار ذا قسط و عدل فبني على بناء أنصف اذا أتى بالنصف والعدل في قوله و فعله و قسمه انتهى.

اذا عرفت معنى القسط و الأقسط فأعلم أن الجمهور على ضم التاء في الآية من أقسط يقسط أقسطاً و قرأ شاذاً بفتح التاء من قَسَطَ يَقْسِطُ بمعنى جار و ظلم فعلى هذه القراءة تكون، لا، زائدة والمعنى أن خفتم أن تظلموا و تجوروا، على قراءة المشهور فلا تكون زائدة و هو ظاهر و أظن أنهم قرأوا بالتاء من أقسط لأجل الفرار من القول بالزيادة في القرآن و إلا فالمعنى على القراءتين واحد، اذ لا فرق بين قولنا: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا و قولنا أن خفتم أن تظلموا أو تجوروا لأن ضد العدل الظلم و بالعكس، ثم أنهم إتفقوا على أن كلمة، إن، للشرط فالجملة شرطية و قوله فأنكحوا جزاء للشرط و لازم ذلك هو أن يكون النكاح موقوفاً على وجود الشرط و هو الخوف من العدالة و قد ثبت أن المشروط ينتفي بإنتفاء شرطه و عليه فأن ثبت الخوف من إجراء العدالة يجوز النكاح منى و ثلاث و رباع و إلا فلا اذا علمت هذا فنقول كيف جعل الخوف

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

٢- الرحمن = ٩

٤- الجات = ٩

١- يونس = ٤

٣- الجن = ١٥

من إجراء العدل في اليتامى شرطاً للنكاح مثنى وثلاث ورباع في الآية وأيّ ربط بين الشرط والمشروط في المقام ولصعوبة الإشكال ترى المفسرين من العامة والخاصة وقعوا في حيص وبيص فقالوا في حله ما قالوا والإنصاف أنهم لم يقدروا على رفع الإشكال ونحن ننقل من تفاسيرهم ما قالوا فيه ونحيل القضاة اليك فأقض ما أنت قاض.

وقال الطبري في تفسير الآية، اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم معنى ذلك، وأن خفتم يا معشر أولياء اليتامى ألا تقسطوا في صداقهن فتعدلوا فيه وبلغوا بصداقهن صدقات أمثالهن فلا تنكحوهن ولكن أنكحوا غيرهن من الغرائب أكثر من واحدة إلى أربع وأن خفتم أن تجوروا إذا نكحتم من الغرائب أكثر من واحدة فلا تعدلوا، فأنكحوا منهن واحدة أو ما ملكت أيمانكم، حدثنا ابن حميد قال حدثنا ابن المبارك عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة، وأن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فأنكحوا ما طاب لكم من النساء فقالت يابن أختي هي اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في مالها وجمالها ويريد أن ينكحها بأدنى من سنة صداقها فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن في اكمال الصداق وأمروا أن ينكحوا ما سواهن من النساء انتهى. ثم ذكر أحاديث كثيرة بالأسناد كلها عن عائشة أنها قالت هي اليتيمة تكون في حجر وليها الخ، ثم قال الطبري فعلى هذا التأويل جواب قوله: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا قوله: فأنكحوا.

وقال آخرون بل معنى ذلك النهي عن نكاح ما فوق الأربع حذراً على أموال اليتامى أن يتلفها أولياءهم وذلك أن قرشاً كان الرجل منهم يتزوج العشر من النساء والأكثر والأقل فاذا صار معدماً مال على مال يتيمة الذي في حجره فأنفقه أو تزوج به فنهوا عن ذلك وقيل لهم أن أنتم خفتم على أموال أيتامكم أن تنفقوها فلا تعدلوا فيها من أجل حاجتكم إليها لما يلزمكم من مؤن نسائكم فلا تجاوزوا فيما تنكحون من عدد النساء على أربع، ثم ذكر ما يناسب هذا القول من الأحاديث.

وقال آخرون بل معنى ذلك أن القوم كانوا يتحَوَّبُونَ في أموال اليتامى ألاَّ يعدلوا فيها ولا يَتَّحِبُونَ في النساء ألاَّ يعدلوا فيهنَّ فقبل لهم كما خفتم ألاَّ تعدلوا في اليتامى فكذلك فخافوا في النساء ألاَّ تعدلوا فيهنَّ ولا تنكحوا منهنَّ إلاَّ من واحدة إلى الأربع ولا تزيدوا على ذلك فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا أيضاً في الزيادة عن الواحدة فلا تنكحوا إلاَّ ما لا تخافون أن تجوروا فيهنَّ من واحدة أو فيما ملكت أيمانكم، ثم ذكر عدّة روايات في ذلك.

وقال آخرون معنى ذلك فكما خفتم في اليتامى فكذلك فتَّخَفَوْا في النساء أن تزنوا بهنَّ ولكن أنكحوا ما طاب لكم من النساء، ثم ذكر عدّة روايات في ذلك.

وقال آخرون، بل معنى ذلك وأن خفتم ألاَّ تقسطوا في اليتامى اللّاتِي أنتم ولا تهنَّ فلا تنكحوهنَّ وأنكحوا أنتم ما حلَّ لكم منهنَّ، ثم ذكر عدّة روايات في ذلك وبعد نقله لهذه الأقوال قال واولى الأقوال التي نقلناها في تاويل الآية قول عن قال تأويلها.

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى

وكذلك ينبغي أن تخافوا في النساء فلا تنكحوهنَّ إلاَّ ما لا تخافوا أن سيجور فيه منهنَّ عن واحدة ولاكن عليكم بما ملكت أيمانكم فأنه أخرى أن لا تجوروا عليهنَّ وأنما قلنا أن ذلك أولى بتأويل الآية لأنَّ الله جلَّ ثناءه إفتتح الآية التي قبلها بالنهاي عن أكل أموال اليتامى بغير حقِّها وخلطها بغيرها من الأموال فقال وأتوا اليتامى أموالهم ولا تبدّلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم أنه كان حوباً كبيراً ثم أعلمهم أنهم أن إتقوا الله في ذلك فتحرّجوا فيه، فالواجب عليهم من إتقاء الله والتحرّج في أمر النساء مثل الذي عليهم من التحرّج في أمر اليتامى وأعلمهم كيف التخلّص لهم من الجور فيهنَّ كما عرّفهم المخلص من الجور في أموال اليتامى فقال أنكحوا أن أمنتهم الجور

في النساء على أنفسكم ما أبحت لكم منهنّ وحلته مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم أيضاً الجور على أنفسكم في أمر الواحدة بأن لا تقدروا على إنصافها فلا تنكحوها ولكن تسروا من المماليك فأنكم أحرى أن لا تجوروا عليهنّ لأنهنّ أملاككم وأموالكم ولا يلزمكم لهنّ من الحقوق كالذي يلزمكم للحرائر فيكون ذلك أقرب لكم الى السلامة من الإثم والجور ففي الكلام اذ كان المعنى ما قلنا متروك إستغنى بدلالة ما ظهر من الكلام عن ذكره وذلك أنّ معنى الكلام وأن خفتم ألا تقسطوا في أموال اليتامى فتعدلوا فيها فكذلك فخافوا ألا تقسطوا في حقوق النساء التي أوجبها الله عليكم فلا تتزوّجوا منهنّ إلا ما أمتنّ معه الجور مثنى وثلاث ورباع وأن خفتم أيضاً في ذلك فواحدة وأن خفتم في الواحدة فما ملكت أيماكم فترك ذكر قوله فكذلك فخافوا أن لا تقسطوا في حقوق النساء بدلالة ما ظهر من قوله تعالى:

فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ فَأَيْنَ جَوَابُ قَوْلِهِ: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى قِيلَ قَوْلُهُ: فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ غَيْرَ أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْمُرَادِ بِذَلِكَ مَا قُلْنَا قَوْلَهُ: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَقُولُوا بَيْنًا فِيمَا مَضَى قَبْلَ أَنْ مَعْنَى الْإِقْسَاطِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْعَدْلُ وَالْإِنْصَافُ وَأَنَّ الْقِسْطَ الْجَوْرَ وَالْحَيْفَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، إِنَّتَهَى.

كلامه بالأفاظه وعباراته وإتّما نقلناه بطوله مع عدم الفائدة فيه لكي تعلم أن ما قوّاه من الأقوال المنقولة ثمّ أيّده بهذه الألفاظ لا قوّة فيه أصلاً بل هو أوهم من بيت العنكبوت بل هو خارج عن طور البحث بالكليّة وذلك لأنّ أصل الإشكال أنّما هو في وجود الزّبط بين الشّروط والجزاء وعدمه وأمّا ما ذكره الطّبري وإختاره من الأقوال وقدّر في الآية ما شاء وأراد من غير دليل يدلّ عليه فهو لا يرفع الإشكال أصلاً فقلّوه أنّ معنى الكلام وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا

تُقْسِطُوا في أموال اليتامى فتعدلوا فيها فكذلك فخافوا ألا تقسطوا في حقوق النساء الخ.

كلام لا خلاف فيه إلا أنه لا يستفاد من الآية ولا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه ويقول في معنى الكلام برأيه هذا كلام الطبري وهو فحل المفسرين عندهم وأما غيره من المفسرين بعده فما قالوا إلا ما قال الطبري لتقدمه عليهم علماً وزماناً، وقد نقل الرّازي في تفسيره أيضاً أقوالاً بعضها عين بعض ما نقله الطبري مثل حديث عائشة وبعضها لم ينقله الطبري فراجعه أن شئت الإطلاع عليها والذي إختاره منها وهو الرابع من الأقوال في تفسيره وقد رواه عن عكرمة أنه قال كان الرجل عنده النسوة ويكون عنده الأيتام فإذا إنفق مال نفسه على النسوة ولم يبق له مال وصار محتاجاً أخذ في إنفاق أموال اليتامى عليهن فقال تعالى: **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى** عند كثرة الزوجات فقد حظرت عليكم أن لا تنكحوا أكثر من أربع كي يزول هذا الخوف وأن خفتُمْ في الأربع أيضاً فواحدة فذكر الطرف الزائد وهو الأربع والنقص وهو الواحدة ونبه بذلك على ما بينهما فكأنه تعالى قال فإن خفتُمْ من الأربع فثلاث فإن خفتُمْ فإثنتان فإن خفتُمْ فواحدة وهذا القول أقرب فكأنه تعالى خوفاً من الإكثار من النكاح بما عساه يقع من الولي من التعدي في مال اليتيم للحاجة إلى الإنفاق الكثير عند التزوّج بالعدد الكثير انتهى كلامه.

وقد نقل الطبرسي **وَيُؤْتِي** أيضاً هذه الأقوال وهكذا غيره من مفسري الشيعة كلهم سلكوا هذا المسلك مع تغيير في الألفاظ والعبارات كما هو لا يخفى على الناظر في أقوالهم، والحق أن الآية مسوقة في الأصل للوصية بحفظ حق يتامى النساء في أموالهنّ وأنفسهنّ دون مطلق اليتامى وذلك لأنه لو كان المراد باليتامى في قوله: **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى** مطلق اليتامى لا يوجد الربط بين الشرط والجزاء في غير يتامى النساء إذ أي ربط بين القسط في أموال اليتامى إذا لم يكونوا من صنف الإناث وبين النكاح من النساء مثني و

ثلاث و ربا و هذا بخلاف ما إذا كان المراد بهم هو يتامى النساء فإن الرِّبَاط حينئذ يكون موجوداً و عليه فالمراد باليتامى فى الآية النساء و المراد بالنساء فى الآية غير اليتامى و عليه فالمعنى وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا إِيَّانَ لَا تَعْدِلُوا فِي يَتَامَى النِّسَاءِ فَتَعَامِلُوهُنَّ كَمَا تَعَامِلُونَ غَيْرَهُنَّ فِي الْمَهْرِ وَ غَيْرِهِ أَوْ أَحْسَنَ، فَأَتْرَكُوا التَّزْوَاجَ بِهِنَّ وَتَزَوَّجُوا مَا حَلَّ لَكُمْ أَوْ مَا رَاقَ لَكُمْ وَحَسَّنَ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنْ غَيْرَهُنَّ وَ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى إِتْرَكُوهُنَّ فَقَدْ أَحْلَلْتَ لَكُمْ أَرْبَعاً أَيْ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ فِي غَيْرَهُنَّ حَتَّى لَا يَظْلَمُوهُنَّ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ إِذَا أَرَدْتُمْ التَّزْوَاجَ بِالْيَتِيمَةِ وَ خِفْتُمْ أَنَّ تَسْهَلَ عَلَيْكُمُ الزَّوْجِيَّةُ أَنْ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهَا فَأَتْرَكُوا التَّزْوَاجَ بِهَا وَ أَنْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ فَعَلَى هَذَا الرِّبَاطِ بَيْنَ الشَّرْطِ وَالْجِزَاءِ ظَاهِرٌ وَأَمَّا عَلَى مَا ذَكَرُوهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ فَلَا وَ هُوَ ظَاهِرٌ عَلَى الْمَتَأَمَّلِ فِي أَقْوَالِهِمْ فَالْآيَةُ تَقُولُ أَنَّ لَمْ تَطْلُبْ لَكُمْ الْيَتَامَى لِلْخَوْفِ مِنْ عَدَمِ الْقِسْطِ فَلَا تَنْكَحُوهُنَّ وَ أَنْكَحُوا نِسَاءَ غَيْرَهُنَّ فَقَوْلُهُ: فَأَنْكَحُوا سَادَ مَسَدَ الْجِزَاءِ وَ بِهَذَا الْقَوْلِ أَخَذَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ الْعَامَّةِ وَ تَبِعَهُ بَعْضُ الْمَعَاصِرِينَ مِنَ الشَّيْعَةِ وَ لَا بَأْسَ بِهِ (مَثْنَى وَ ثَلَاثَ وَ رُبَاعَ) أَيْ فَأَنْكَحُوا إِثْنَتَيْنِ وَ ثَلَاثًا وَ ثَلَاثًا وَ أَرْبَعًا وَ أَرْبَعًا وَ أَنْمَا فَسَرْنَاهُ بِذَلِكَ لِأَنَّ بِنَاءَ مَفْعَلٍ وَ فَعَالٍ فِي الْأَعْدَادِ عَلَى تَكْرَرِ الْمَادَّةِ وَ قَدْ جِيئَ بِالْعَطْفِ بِالْوَاوِ لِإِفَادَةِ التَّخْيِيرِ أَيْ أَنْتُمْ مُخَيَّرُونَ بَيْنَ إِثْنَتَيْنِ وَ ثَلَاثًا وَ أَرْبَعًا وَ لَيْسَتْ الْوَاوُ لِلْجَمْعِ فَيَكُونُ فِي الْكَلَامِ تَجْوِيزُ الْجَمْعِ بَيْنَ تِسْعِ نِسْوَةٍ، قَالَ فِي تَفْسِيرِ الْمِيزَانِ لِأَنَّ مَجْمُوعَ الْإِثْنَتَيْنِ وَ الثَّلَاثِ وَ الْأَرْبَعِ تِسْعٌ وَ قَدْ ذَكَرَ فِي الْمَجْمَعِ أَنَّ الْجَمْعَ بِهَذَا الْمَعْنَى غَيْرَ مُحْتَمَلٍ الْبَتَّةُ فَإِنَّ مَنْ قَالَ، دَخَلَ الْقَوْمُ الْبَلَدَ مَثْنَى وَ ثَلَاثَ وَ رُبَاعَ لَمْ يَلْزَمْ مِنْهُ إِجْتِمَاعُ الْأَعْدَادِ فَيَكُونُ دَخُولُهُمْ تِسْعَةً تِسْعَةً لِأَنَّ لِهَذَا الْعَدَدَ لَفْظًا مُوَضَّوعًا وَ هُوَ تِسْعٌ فَالْعَدُولُ عَنْهُ إِلَى مَثْنَى وَ ثَلَاثَ وَ رُبَاعَ نَوْعٌ مِنَ الْعَمَلِ جَلَّ كَلَامُهُ عَنْ ذَلِكَ وَ تَقَدَّسَ، أَقُولُ قَدْ إِتَّفَقَ الْمُفَسِّرُونَ مِنَ الْعَامَّةِ وَ الْخَاصَّةِ عَلَى أَنَّ الْوَاوَ لَيْسَتْ لِلْجَمْعِ وَ الْمَعْنَى إِثْنَتَيْنِ وَ ثَلَاثًا وَ ثَلَاثًا وَ أَرْبَعًا وَ أَرْبَعًا وَ يُؤَيِّدُهُ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَنْفِذُ الْجَمْعَ بَيْنَ أَزِيدَ مِنْ أَرْبَعِ نِسْوَةٍ فِي الدَّائِمِيَّاتِ كَمَا أَنَّهُ لَا يَنْفِذُ

إشترك أزيد من رجلٍ في زوجةٍ واحدة وقد روي في المجمع عن الصادق عليه السلام: أَنَّهُ قَالَ، لَا يَحِلُّ لِمَاءِ الرَّجُلِ أَنْ يَجْرِيَ فِي أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَرْحَامٍ مِنَ الْحَرَائِرِ انْتَهَى.

ولقائل أن يقول أَنَّ الجمع في الحكم لا يستلزم الجمع في الزمان فلا محذور، لأنَّ المنهي عنه في باب النكاح ليس مطلق الزائد على الأربع بأي نحو إتفق بل المنهي عنه هو الزائد على الأربع في زمان واحدٍ من حيث الجمع بينهما على سبيل التعاقب فلا إشكال فيه وهو ظاهر إذا عرفت هذا فنقول لو كانت الواو في الآية بحالها لزم منه الجمع في الحكم وهو ممّا لا إشكال فيه إذا لم يكن الجمع في زمانٍ واحدٍ وحيث أَنَّهُ لا ملازمة بين الجمعين فلانحتاج إلى هذه التكاليفات ويمكن الجواب عنه بأنَّ القرنية الحالية أو المقالية في الآية تدلنا على المراد وهو الجمع الزماني وذلك لأنَّ الآية بصدد بيان النّهي في زمانٍ واحدٍ وأمّا الجمع على سبيل التعاقب فلا كلام لأحدٍ في جوازه: فَإِنَّ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَي أَن خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا بَيْنَهُنَّ فَأُنْكِحُوا واحدة لا أزيد يدل على أَنَّ النكاح بأكثر من واحدة مشروط بالعدالة بين النساء فمن لا يقدر على ذلك لا يجوز له النكاح بأكثر منها فمن نكح آثم لا أَنَّ النكاح باطل لعدم دلالة النّهي على الفساد في غير العبادات ثمَّ أَنَّ المراد بالعدالة بين النساء العدالة في الجماع والعشرة والقسم بين الزوجات الأربع والثلاث والإثنين وأمّا الميل والمحبة فهما أمران خارجان عن الإختيار فلا يمكن عدّهما من موارد العدالة كما ذهب إليه بعض العامة أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا يريد الإماء وهو عطف على فَوَاحِدَةً أَي أَن خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا في واحدة فما ملكت يمينكم، والحقُّ أَنَّ، أَوْ، للتخيير والمعنى أَن خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ فَأَنْتُمْ مَخْيَرُونَ بَيْنَ النِّكَاحِ بِوَاحِدَةٍ، من، الحرائر والإكتفاء بما ملكت إيمانكم من الإماء، وقيل تجب مراعاة الترتيب وهو ممّا لا دليل عليه قوله: أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ففيل في معناه، أي ذلك أقرب إلى أَنْ لَا تَعْمِلُوا عن

الحقَّ و تجوروا نقلوه عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما يقال عال الرجل يعول إذا جار و مال ومنه قولهم عال السهم عن الهدف، مال عنه قال الشاعر:
قالوا إتبعنا رسول الله وأطرحوا قول الرسول ومألوا في الموازين
أي جاروا وقال أبو طالب ^{عليه السلام}
بميزان صدقٍ لا يُغفل شعيرةً له شاهدٌ من نفسه غير عائلٍ
أي غير مائلٍ
وقال آخر:

ثلاثة أنفيس وثلاث زودٍ لقد عال الزمان على عيالي
أي جار ومال، يقال عال الرجل يعيل إذا افتقر فصار عالة ومنه قوله تعالى:
(وإن خفتم عيلة) الآية ومنه قول الشاعر:

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يُعيل
نقل القرطبي عن ابن العربي أن عال، على سبعة معانٍ لا ثامن لها.
يقال عال، بمعنى مال.

الثاني: بمعنى زاد.

الثالث: بمعنى جار.

الرابع: بمعنى افتقر.

الخامس: بمعنى أثقل.

السادس: بمعنى قام يقال عل أي قام بمؤنة العيال ومنه قوله ^{عليه السلام} وأبدأ
بمن تعول.

السابع: بمعنى غلب ومنه عل صبره أي غلب انتهى.

ثم قال أما ذكره ابن العربي من الحق فلا يصح وقد ذكرنا عال الامر اشتدّ و
نفاقم حكاة الجوهرى وقال الآخر يقال عال الرجل فى الارض يعيل فيها ام
ضرب فيها وقال الاحمر يقال عال الشئ يعلنى عبلاً و فعيلاً اذا عجرَكَ الى
آخر ما قال.

أَقُولُ الْحَقَّ أَنَّ الْعَوْلَ فِي الْآيَةِ بِمَعْنَى الْجَوْرِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْحَقِّ أَيْ ذَلِكَ أَقْرَبُ مِنْ أَنْ لَا تَجُورُوا أَوْ لَا تَمِيلُوا فِي النَّفَقَةِ مِنْ قَوْلِهِمْ، عَالٌ فِي الْحُكْمِ أَيْ مَالٌ وَجَارٌ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الَّذِي أَحْصَى رَمْلَ عَالِجٍ لِيَعْلَمَ أَنَّ السَّهَامَ لَا تَعُولُ قِيلَ أَوَّلُ مِنْ أَعَالِ الْفَرَانِضِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْعَوْلُ عِبَارَةٌ عَنْ قُصُورِ التَّرَكَّةِ عَنْ سِهَامِ ذَوِي الْفُرُوضِ وَهُوَ ضِدُّ التَّعْصِيبِ وَسَيَجِيءُ الْكَلَامُ فِيهِ فِي مَبَاحِثِ الْإِرْثِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَكَيْفَ كَانَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ أَسَاسَ التَّشْرِيعِ فِي أَحْكَامِ النِّكَاحِ عَلَى الْقِسْطِ وَنَفْيِ الْعَوْلِ فِي الْحَقُوقِ وَعَلَيْهِ فَمَنْ كَثُرَ عِيَالُهُ لَزِمَهُ أَنْ يَعُولَهُمْ ذَلِكَ مَا تَصَعَّبَ عَلَيْهِ الْمَحَافَظَةُ عَلَى حُدُودِ الْوَرَعِ وَكَسْبِ الْحَلَالِ وَالرِّزْقِ الطَّيِّبِ وَالْقِسْمِ وَالْعَشْرَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْحَقُوقِ اللَّازِمَةِ عَلَى الزَّوْجِ وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً إِلَى قَوْلِهِ ذَلِكَ: أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا وَهُوَ وَاضِحٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ.

وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا

صَدُقَاتِهِنَّ، بضم الدال جمع صدقة وبنو تميم يقولون، صدقة، بضم الصاد و سكنون الدال ويجوز فيه الفتح أيضاً نقل عن المازني أنه قال صداق المرأة، بالكسر ولا يقال بالفتح ثم أنهم اختلفوا في المخاطبين بهذه الآية فقليل أنها خطاب للأزواج قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد وغيرهم قالوا أمرهم الله بأن يتبرعوا بإعطاء المهور نحلة منهم لأزواجهم وقيل الخطاب للأولياء وذلك لأن الولي كان يأخذ مهر المرأة ولا يعطيها شيئاً فنهوا عن ذلك وأمروا بدفعه إليهن ونقل القرطبي بعد نقله ما نقلناه عن الحضرمي أن المراد بالآية المتشاغرون الذين كانوا يتزوجون امرأةً بأخرى فأمرُوا أَنْ يَضْرِبُوا الْمَهْرَ، ثم قال والأوّل أظهر فإنّ الصُّمائر واحدة وهى بجملتها للأزواج فهم المراد لأنّه قال، وأن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى الى قوله: **وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً** وذلك يُوجب تناسق الصُّمائر وأن يكون الأوّل فيها هو الآخر انتهى كلامه.

اقول الحقُّ أنَّ الآية خطاب للأزواج أعني بهم الرجال التي يوم القيامة ولا ينافي هذا العموم خصوص المورد لو كان و عليه فالمعنى أعطوا النساء مهوهرن عطية من الله تعالى قيل في وجه ذلك أنَّ الله تعالى جعل الإستمتاع مشتركاً بين الزوجين ثمَّ أوجب لهما بأزاء الإستمتاع مهراً على زوجها فذلك عطية من الله للنساء، وقيل المراد بالنحلة الفريضة لأنَّ النحلة معناها الديانة والملة والشريعة والمذهب يقال فلان يتنحل كذا اذا كان يتدين به ونحلته كذا أي دينه ومذهبه فقوله تعالى: **وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً** أي أتوهن مهوهرن فأنَّها نحلة أي شريعة ودين ومذهب وما هو كذلك فهو فريضة و لذلك سُمي الشهرستاني كتابه الذي كتبه في الملل والأديان بالملل والنحل فعلى هذا يصير معنى الآية أعطوا النساء صدقاتهن أي مهوهرن على سبيل الفرض والوجوب فقوله، نحلة حال من الصدقات أي ديناً من الله فرضها و شرعه و أمّا أن حملنا النحلة على العطية فهي منصوبة على المصدر و ذلك لأنَّ النحلة والإيتاء بمعنى الإعطاء فكأنَّه قيل وأنحلوا النساء صدقاتهن نحلة أي أعطوهن مهوهرن عن طيبة أنفسكم و قيل، أنَّها نصب على الحال من المخاطبين أي أتوهن صدقاتهن ناحلين طيبين النفوس بالإعطاء أو من الصدقات أي منحولة معطاة عن طيبة الأنفس، وكيف كان فالآية تدل على وجوب إعطاء المهور لهنَّ بعد العقد و هذا ممّا لا كلام فيه إجمالاً إلا أنَّهم اختلفوا في وجوب الإعطاء قبل الدخول و أمّا بعده فلا كلام لأحد فيه و ملخص الكلام فيه هو أنَّ المشهور عند علماءنا أنَّ المرأة تملك الصداق بمجرد العقد ويستقر بالدخول فاذا طلقها بعد الدخول أو مات عنها فلها المهر كلّهُ و هذا ممّا لا خلاف فيه و أمّا اذا طلقها أو مات عنها قبل الدخول فقد اختلفوا فيه.

قال ابن حمزة يلزم المهر بنفس العقد ويستقر بأحد ثلاثة أشياء، بالدخول والموت، وإرتداد الزوج، وقال ابن إدريس متى مات أحد الزوجين قبل

الدَّخُولُ إِسْتَقَرَّ جَمِيعُ الْمَهْرِ كَامِلًا لِأَنَّ الْمَوْتَ عِنْدَ مُحْصَلِي أَصْحَابِنَا يَجْرِي مَجْرَى الدَّخُولِ وَإِسْتِقْرَارُ الْمَهْرِ جَمِيعِهِ وَهُوَ إِخْتِيَارُ شَيْخِنَا الْمَفِيدِ فِي أَحْكَامِ النِّسَاءِ وَهُوَ الصَّحِيحُ لِأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا بِغَيْرِ خِلَافٍ نَبِينًا أَنَّ بِالْعَقْدِ تَسْتَحَقُّ الْمَرْأَةُ جَمِيعَ الْمَهْرِ الْمُسَمًّى وَسَقَطَ بِالطَّلَاقِ وَ قَبْلَ الدَّخُولِ نِصْفُهُ وَالطَّلَاقُ غَيْرُ حَاصِلٍ إِذَا مَاتَ فَبَقِينَا عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنْ إِسْتِحْقَاقِهِ فَمَنْ إِذْعَى سَقُوطَ شَيْءٍ فِيهِ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهِ مِنْ أَجْمَاعٍ لِأَنَّ أَصْحَابِنَا مُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَلَا مِنْ تَوَاتُرِ أَخْبَارٍ وَلَا دَلِيلَ عَقْلٍ بَلِ الْكِتَابُ قَاضٍ بِمَا قُلْنَا حَاكِمٌ بِمَا اخْتَرْنَاهُ ثُمَّ نَسَبَ كَلَامَ الشَّيْخِ إِلَى أَنَّهَا أَخْبَارُ أَحَادٍ انْتَهَى.

وَقَالَ ابْنُ جَنِيدٍ، الَّذِي يُوجِبُهُ الْعَقْدُ مِنَ الْمَهْرِ النِّصْفَ وَالَّذِي يُوجِبُ النِّصْفَ الثَّانِي مِنَ الْمَهْرِ بَعْدَ الَّذِي وَجِبَ بِالْعَقْدِ مِنْهُ هُوَ إِيقَاعُ الْوَقَاعِ أَوْ مَا قَامَ مِنْ تَسْلِيمِ نَفْسِهَا لِذَلِكَ انْتَهَى.

وَقَالَ الصَّدُوقُ فِي الْمَقْنَعِ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ لَمْ يَكُنْ دَخَلَ بِهَا وَقَدْ فَرَضَ لَهَا مَهْرًا فَلَهَا نِصْفُهُ وَلَهَا الْمِيرَاثُ وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ وَهُوَ الَّذِي اعْتَمَدَهُ وَأَفْتَى بِهِ إِذَا عُرِفَتْ هَذَا فَنَقُولُ قَالَ الْعَلَامَةُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْمَخْتَلَفِ مَسْأَلَةً، الْمَشْهُورُ عِنْدَ عُلَمَائِنَا أَنَّ الْمَرْأَةَ تَمْلِكُ الصَّدَاقَ بِالْعَقْدِ وَيَسْتَقَرُّ بِالدَّخُولِ فَإِذَا طَلَّقَهَا قَبْلَ الدَّخُولِ رَجَعَ عَلَيْهَا بِالنِّصْفِ أَنَّ كَانَتْ قَبْضَتْهُ وَقَالَ ابْنُ الْجَنِيدِ الَّذِي يُوجِبُهُ الْعَقْدُ مِنَ الْمَهْرِ الْمُسَمًّى النِّصْفَ وَالَّذِي يُوجِبُ النِّصْفَ الثَّانِي مِنْهُ هُوَ الْوَقَاعُ أَوْ مَا قَامَ مَقَامَهُ مِنْ تَسْلِيمِ الْمَرْأَةِ نَفْسَهَا لِذَلِكَ، ثُمَّ اسْتَدَلَّ الْعَلَامَةُ عَلَى قَوْلِ الْمَشْهُورِ فَقَالَ، لَنَا، قَوْلُهُ تَعَالَى: **وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً** أَصْنَافُ الصَّدَاقِ الْيَهَنِّ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَهُنَّ وَلَمْ يَفْرُقْ بَيْنَ قَبْلِ الدَّخُولِ وَبَعْدِهِ وَأَمْرٌ أَيْضًا بِإِتْيَانِهِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ فَثَبِتَ أَنَّ الْكُلَّ لَهُنَّ وَمَا رَوَاهُ عُبَيْدَةُ بْنُ زُرَّارَةَ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ قُلْتُ لَهُ رَجُلٌ تَزَوَّجَ امْرَأَةً وَأَمْهَرَهَا مَهْرًا فَسَاقَ إِلَيْهَا غَنَمًا وَرَقِيقًا فَوُلِدَتْ عَنْهَا فَطَلَّقَهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ كَانَ قَدْ سَاقَ إِلَيْهَا مَا سَاقَ حَمْلُنَ عَنْدهُ فَلَهُ نِصْفُهَا وَنِصْفُ وَلَدِهَا وَأَنَّ كُنَّ حَمْلُنَ عَنْدهَا فَلَا شَيْءَ لَهُ مِنَ الْأَوْلَادِ

لأنَّ الصَّدَاقَ بَدَلُ البُضْعِ فإذا ملك الزوج البضع بنفس العقد وجب أن تملك المرأة العوض كالمتابعين انتهى كلام العلامة ثم قال، إحتج ابن الجنيدي بأنه لو ملكته بالعقد لاستقر عملاً بالأصل ولم يزل عن ملكها إلا بسبب ناقلٍ كبيع أو هبة أو غيرهما ولم يوجد السبب فلا يتحقق الملك وما رواه يونس بن يعقوب عن الصادق عليه السلام قال سمعته يقول لا يوجب المهر إلا الوقاع في الفرج وعن محمد بن مسلم عن الباقر عليه السلام قال سألته متى يجب المهر قال عليه السلام إذا دخل بها يقتضي عدم الوجوب مع عدم الدخول انتهى وأجابوا عنه بالمنع من الملازمة فإن الوجوب أعم من الاستقرار والعام لا يستلزم الخاص والسقوط لا يمنع الوجوب كالإرتداد والسبب للزوال ثابت وهو الطلاق بنص القرآن وهو قوله تعالى: **فَيُضْفُ مَا قَرْضُكُمْ** والزوايات محمولة على الاستقرار جمعاً بين الأدلة ولأنه المفهوم من الوجوب في الأغلب والفائدة تظهر فيما نما المهر قبل الدخول والطلاق ثم طلق انتهى.

وقال الشيخ رحمه الله متى مات الرجل عن زوجته قبل الدخول بها وجب على ورثته أن يعطوا المرأة المهر كاملاً ويستحب لها أن تترك نصف المهر فإن لم تفعل كان لها المهر كله وأن ماتت المرأة قبل الدخول بها كان لأوليائها نصف المهر وتبعه ابن البراج في الكامل وقال في التهذيب لورثتها المطالبة بالمهر انتهى.

وأما على قول ابن إدريس فلا فرق بين موت الزوج قبل الزوجة وبالعكس لأن الموت عنده يجري مجرى الدخول وقد نقلنا كلامه في صدر البحث.

أقول الذي يحصل لنا في المقام من كلماتهم وأراءهم هو أن الزوجة تملك نصف المهر لو طلقها الزوج قبل الدخول وتماه بعده وأما في صورة موت الزوج تملك المرأة جميع الصداق إلا أنه يستحب لها أن تترك نصف المهر فإن لم تفعل كان لها المهر كله وتفصيل الكلام في هذه المباحث موكول إلى الفقه. قال القُرطبي في تفسيره لهذه الآية أن هذه الآية تدل على وجوب الصداق

لِلْمَرْأَةِ وَهُوَ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ وَلَا خِلَافَ فِيهِ إِلَّا مَا رَوَى عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ أَنَّ السَّيِّدَ إِذَا زَوَّجَ عَبْدَهُ مِنْ أُمَّتِهِ أَنَّهُ لَا يَجِبُ فِيهِ صَدَاقٌ وَلَيْسَ بِشَيْءٍ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: **وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَعِمَّ:**

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ^(١) انتهى موضع الحاجة من كلامه.

أَقُولُ الآية لا تدل على وجوب الصداق أصلاً بل تدل على وجوب إعطاء الصداق لو كان وذلك لأن الله تعالى لم يأمر بوجوب الصداق بل أمر بإعطاءه بعد تحققه وحيث أن القرطبي لم يفرق بين المقامين ظن أن الأمر بإعطاء الصداق أمرٌ بإيجاده فقال أن الآية تدل على وجوب الصداق لها فلو قال قائل، أدد دينك، أو يجب عليك أداء الدين ليس معناه يجب عليك الدين بل معناه أن كان دينٌ عليك يجب أدائه فقول الله تعالى وأتوا النساء صدقاتهن نحلة، في قوة الشرطية أي أن كان هناك صداقاً يجب عليك أدائه وأن لم يكن فلا مثل مفوضة البضع حيث لا صداق لها وهو ظاهر وأما حد الصداق فقد إتفقوا على أنه لا حد لكثيره لقوله تعالى: **وَآتَيْنَهُمْ كِتَابًا وَفُتُوحًا كَثِيرًا وَفَضْلًا** قال السيد المرتضى **فَيُتْرَكُ** في إنتصاره مما انفردت به الإمامية لا يجاوز بالمهر خمس مائة درهم جياذ قيمتها خمسون ديناراً فما زاد على ذلك رد إلى السنة انتهى.

أَقُولُ سأل المفضل بن عمر أبا عبد الله **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** عَيَّنَ مَهْرَ الْمَرْأَةِ الَّتِي لَا يَجُوزُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَجُوزَهُ فَقَالَ السَّنَّةُ الْمَحْمُودِيَّةُ خَمْسُ مِائَةِ دِرْهَمٍ فَمَنْ زَادَ عَلَى ذَلِكَ رَدَّ إِلَى السَّنَةِ وَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْهَا وَسَيَاتِي الْكَلَامُ فِيهِ الْقِيَاءُ فَإِنْ طُبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُّوهُ هَبِيتًا مَرَبِّيًا أَيْ

في تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

فإن طبن النساء لكم عن شيءٍ منه إلى السنة ولا شيءٍ عليه أكثر من خمس مائة درهم منه، أي من الصداق، نفساً، نصب على التمييز والمعنى طابت أنفسهن لكم من الصداق بنقل الفعل من الأنفس اليهن فخرجت النفس مفسرة كما قالوا أنت حسنٌ وجهاً، و الفعل في الأصل للوجه فلما حوّل إلى صاحب الوجه خرج مفسراً لموقع الفعل ومثله قررت به عيناً وضقت به ذرعاً هكذا قيل وأنما وحّد النفس لأن المراد به بيان موقع الفعل وذلك يحصل بالواحد ومثله عشرون درهماً، و، من، في قوله، منه، للتبيين لا للتبعض والمعنى عن شيءٍ من هذا الجنس الذي هو مهر:

قال الله تعالى: **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ.**

و ذلك لأن المرأة لو طابت نفسها عن جميع المهر بالكلية حلّ للزوج أن يأخذها و عليه فالمعنى، فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق عن طيبة النفس من غير أن يكون السبب فيه سوء الخلق و المعاشرة معهن فكلوه هنيئاً مريئاً، و هما صفتان من هنوء الطعام و مروءه إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه فقوله هنيئاً مريئاً وصف للمصدر أي أكلاً مريئاً أو حال من الضمير أي كلوه وهو هنيئ مريئ يوقف على قوله: **فَكُلُّوهُ** ثم يبتدأ بقوله: **هَنِيئًا مَرِيئًا** على الدعاء قاله الرازي في تفسيره و قال صاحب الكشف الضمير في منه جار مجرى إسم الإشارة كأنه قيل عن شيءٍ من ذلك:

قال الله تعالى: **قُلْ أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ بِحَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ^(١).**

بعد ذكر الشهوات ثم قال، والمعنى، فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق و تجافت عنه نفوسهن طيبات غير مخبتات بما يضطرهن إلى الهبة من شكاسة أخلاقكم و سوء معاشرتكم فكلوه هنيئاً مريئاً كأنه قيل هناءً مرأً، وهذه عبارة عن التحليل و المبالغة في الإباحة انتهى.

أقول في مرجع الضمير في قوله: مِنْهُ أقوال لا بأس بذكرها.

أحدها: أَنَّهُ يرجع الى الصَّدَاق المفهوم من الصَّدَقَات.

ثانيها: أَنَّهُ يعود على صَدَقَاتِهِن مَسْلُوكاً به مَسْلَكَ إسم الإشارة كَأَنَّهُ قيل عن شيء من ذلك وإسم الإشارة وأن كان مفرداً ولكنَّه قد يشار به الى مجموع كقوله تعالى: **قُلْ أُوْنِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ** ذكر هذين الوجهين الرَّمْخِشِي فِي الكشَّاف وقد مرَّ ذكرهما.

ثالثها: أَنَّهُ يعود على الإِتْيَاء وهو المصدر الدَّال عليه، وآثُوا، قاله الرَّاغِب.

رابعها: أَنَّهُ يرجع الى المال المفهوم من الصَّدَقَات.

خامسها: أَنَّهُ يرجع الى الشيء الَّذي هو أَعَمُّ من المال كما إذا كان الصَّدَاق تعليم سُورَة من القرآن هذا تمام الكلام في تفسير الآية.

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا.

ففيه نهْيٌ عن إعطاء السُّفَهَاء أموالكم حال كونهم سفهاء وذلك لأنَّه تعالى لَمَّا أمر بدفع أموال اليتامى والعيال الصَّدَقَات الى الزَّوْجَات بَيَّن في هذه الآية أَنَّ السُّفَهَاء لا يجوز دفع المال اليه والسُّفَهَاء على ما قاله الرَّاغِب في المفردات مَنْ لَهُ خَفَّةٌ وَرَقَّةٌ فِي الْبَدَنِ قَالَ السُّفَهَاءُ خَفَّةٌ فِي الْبَدَنِ وَمِنْهُ قِيلَ زَمَامٌ سَفِيهِ كَثِيرُ الْإِضْطِرَابِ وَثَوْبٌ سَفِيهِ رَدْيُ النَّسْجِ وَأُسْتَعْمِلَ فِي خَفَّةِ النَّفْسِ لِنَقْصَانِ الْعَقْلِ وَفِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ فَقِيلَ سَفِهَ نَفْسَهُ فَمِنْ السُّفَهَاءِ الدُّنْيَوِيُّ هَذِهِ الْآيَةُ وَمِنْ الْأُخْرَى.

قال الله تعالى: **وَأَنَّهُ كَانَ يَفْقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا** (١).

وقد يعبر عنه بالسُّفَهَاء في الدِّين إذا علمت معنى السُّفَاهَةِ فنقول قرأ نافع وابن عامر، قيماً بغير ألف والباقون، قياماً بالألف ونقل أَنَّ فيه ثلاث لغات، قياماً

و قِيماً و قواماً و المراد ما به قوام معاشكم و معادكم و السَّفَه خلاف الرُّشد و قيل أنه قد يكون متعلقه أمر المعاش و قد يكون أمر المعاد و اختلف في معنى الآية على أقوال.

أحدها: أَنَّ الخطاب فيها للأولياء أمروا أن يمسكوا أموال اليتامى و يجرؤا عليهم النَّفَقَة و ما يحتاجون اليه و أن يرفقوا بهم بالقول و حسن المعاشرة و الملازمة الى البلوغ و الرُّشد و عليه فالمراد بالسَّفَهَاء هنا هم اليتامى و أنما أضاف الأموال اليهم لأنَّها من جنس ما يقيم به النَّاس معاشهم أو لأنَّها بأيديهم و تحت تصرفهم و الأضافة يكفي فيها أدنى ملاسة أو لأنَّ منهم من يؤل ماله اليهم كأن يكون هو الوارث جرياً على الغالب من كون المتولَّى لذلك من الأقرباء و يدل عليه:

ما رواه عَلِي بن حمزة عن أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزَّ و جلَّ: وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ قال عليه السلام: هم اليتامى تعطوهم أموالهم حتَّى تعرفوا منهم الرُّشد قلت فكيف يكون أموالهم أمولنا فقال عليه السلام إذا كنت أنت الوارث لهم انتهى.

الثاني: أَنَّ الخطاب أيضاً للأولياء و ذلك أنه تعالى لما تَضَمَّن كلامه السابق على هذه الآية الأمر بدفع مال الأيتام اليهم عقبه بذكر من لا يجوز دفع المال اليه منهم و هو من بلغ سفيهاً فالمراد بالسَّفِيه على هذين القولين من كان ناقص العقل و غير مصلح لأمواله و النَّهْي للتحريم.

الثالث: أَنَّ الخطاب يسؤال المطففين من المؤمنين أن لا تضعوا أموالهم الى من لا يوثق به في الدِّيانَة أو حفظ الأموال و ارجاعها اليهم أو نفاذها الى ما يزيدون او الى ما يريدون فيكون المراد بالسَّفِيه من الصَّف باحر المعيين «الفسق» و افساد المال و يدل على هذا القول ما رواه العِيَّاشِي عن يونس بن يعقوب قال سئلت ابا عبد الله في قوله تعالى: وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ قال عليه السلام من لا تثق به انتهى.

و عن إبراهيم بن عبد الحميد عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن هذه الآية فقال عليه السلام كلّ مَنْ شَرِبَ الخمر فهو سفیه انتهی.

وما رواه في قرب الأسناد عن هارون بن مسلم عن سعدة بن زياد قال: سمعت أبا الحسن يقول لأبيه يا أبة أنّ فلاناً يريد الیمن أفلا أزودّه بضاعة لیشتري بها عصب الیمن فقال عليه السلام: له يا بنی لا تفعل قال و لم قال عليه السلام: لأنّها إذا ذهبت لم تؤجر علیها و لم یخلف علیک لأنّ الله تبارک و تعالی يقول: وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ أَيِّ سَفَهٍ أُسِفَهِ بعد النساء من شارب الخمر انتهی.

وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ فَالسُّفَهَاءُ النساء والولد إذا علم الرجل أنّ إمرأته سفیهة مفسدة وولده سفیه مفسد لا ینبغي له أن یسلط واحداً منهما على ماله الذي جعل الله له قیاماً یقول معاشاً و أرزقوهم منه و أكسوهم و قولوا لهم قولاً معروفاً والمعروف العدة أي أي ما یعدهم بتسليم مالهم الیهم إذا کبروا و أنّه حافظ ذلك لهم لمصلحتهم و نفقتهم و نحو ذلك ممّا یسلبهم عن أخذه و یكون باعثاً على إطمئنانهم انتهی.

و الأخبار كثيرة و یدخل في هذا الحكم الوصیة الیه و من ثمّ ذهب أكثر الأصحاب الى إشتراط العدالة في الوصی لأنها إستئمان على مال الأطفال و الفاسق لیس أهلاً للإستئمان على هذا الوجه و أن كان أهلاً للوكالة بوجوب الثبوت عند خبره و لأنها تتضمن الركون الیه باعتبار فعل ما أوصی الیه من تفرقه المال و صرفه في الوجوه الشرعیة و الفاسق ظالم لا يجوز الركون الیه لقوله تعالى: وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ^(١) و لأنها إستنابة على مال الغير لا على مال الموصي لإنتقاله عنه بعد موته و ولاية الوصی أنما تحصل

ضیاء القرآن فی تفسیر القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

بعد الموت فيشترط في النَّائب العدالة وذهب ابن إدريس إلى عدم الإشتراط و رَّجَّحه في النَّافع المختلف لأنها إستنابة تابعة لإختيار الموصي كالوكالة، و الحقَّ جوازها في ثلثه وخاصَّة نفسه لأنه مالك للتصرف فيه كيف شاء وأما الباقي فلا و عليه فحمل النهي في الآية والزَّوايات على الكراهية أولى والله أعلم.

وفي المقام فوائد يجب التنبيه عليها.

الأولى: ذكر السَّفه في الآية منفرداً يشعر بأنه نفسه علَّة تامَّة في الحجر و المنع من التَّصرف سواء بلغ الصَّبي متَّصفاً به أم حدث بعد البلوغ وبه قال الأصحاب و هو ظاهر إطلاق الأخبار واليه ذهب كثير من العامة.

الثانية: تعليق الحكم على الوصف يشعر بأنه العلَّة فيه فالآية تدل بإطلاقها على أن وجود الوصف أعني به السَّفه كاف في ثبوت الحجر فلا يحتاج إلى حكم الحاكم و يدلُّ عليه أيضاً مفهوم قوله تعالى: فَإِنْ أَنْشَأْتُمْ مِنْهُمْ زُشُدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ^(١) و حيث أثبت الولاية بمجرَّد السَّفه فتوقَّفها على أمرٍ آخر لا يحتاج إلى دليل وكذا الكلام في زواله فإنه لا يحتاج إلى الحاكم و للأصحاب فيها أربعة أقوال:

أحدهما: عدم الإحتياج إليه فيهما.

الثاني: الإحتياج فيهما.

الثالث: عدم الإحتياج في الثبوت فقط.

الرَّابع: عكسه، و قيل أن موضع النزاع في السَّفه الحادث بعد البلوغ أما من بلغ سفيهاً فلا ريب في عدم توقُّفه على ذلك.

الثالثة: ذكر الأصحاب أن السَّفه أنما يمنع من التَّصرف المالي و أما غيره كالطلاق والقصاص فلا.

الرابعة: قيل في قوله: وَ أَرْزُقُوهُمْ فِيهَا دون أن يقول منها دلالة على

جواز التَّكْسِبِ لَهِمْ فِيهَا بَلْ وَ عَلَيَّ وَجُوبُهُ لَثَلَا يَفْنِيهَا الْإِنْفَاقُ وَ قَدْ أورد بعض المحققين على هذا القول بما حاصله أَنَّهُ لَمْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ الرِّزْقَ لَهِمْ فِيهَا مِضَافاً إِلَى أَنَّ التَّكْسِبَ بِمَالِ السَّفِيهِ يوجب الضَّمانَ كما يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رواه الشَّيْخُ فِي الصَّحِيحِ عَنِ الْحَلْبِيِّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَوْثُوقُ عَنْ سَمَاعَةَ وَ مَا رواه عَنْ سَعِيدِ السَّمَانِ وَ عَنْ مَنْصُورِ الصَّقِيلِ فَأَنَّهَا تَدُلُّ بِإِطْلَاقِهَا عَلَى لَزُومِ الضَّمانِ عَلَى التَّجَرُّ بِمَا لَهِمْ مطلقاً عَلَى كُلِّ حَالٍ وَ بِهِ قَالَ ابْنُ بَابُوَيْهِ فِي الْفَقِيهِ وَالْمَفِيدِ فِي الْمَقْتَعَةِ وَ هُوَ الظَّاهِرُ أَيْضاً مِنْ جَمَاعَةِ مِنَ الْأَصْحَابِ إِلَّا أَنَّ الشَّيْخَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَفَى الضَّمانَ عَنْ قِصْدِ بَذَلِكَ النَّظَرِ لِلْيَتِيمِ وَتَبَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَصْحَابِ، وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِرَوَايَةِ أَبِي الرَّبِيعِ الدَّالَّةِ عَلَى الْجَوَازِ مَعَ ضَعْفِهَا حَمْلُهَا عَلَى أَنَّ الْمَالَ كَانَ مَشْتَرَكاً بَيْنَهُمَا وَكَانَ نَظَرُهُ إِصْلَاحَ الْمَالِ مَعَ ذَلِكَ فَإِنَّمَا يَجُوزُ لِمَنْ يَكُونُ مَلِيّاً لِمَا رواه الشَّيْخُ عَنْ أَصْبَاطِ بْنِ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُلْتَ أَخِي أَمَرَنِي أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ مَالِ يَتِيمٍ فِي حِجْرِهِ يَتَجَرُّ بِهِ قَالَ أَنْ كَانَ لِأَخِيكَ مَالٌ يَحِيطُ بِمَالِ الْيَتِيمِ أَنْ تَلْفَ أَوْ أَصَابَهُ شَيْءٌ غَرَمَهُ وَ إِلَّا فَلَا يَتَعَرَّضُ لِمَالِ الْيَتِيمِ، وَالأَخْبَارُ بِهَذَا الْمَضْمُونِ كَثِيرَةٌ وَ بِالْجُمْلَةِ مَا يَسْتَفَادُ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الرِّوَايَاتِ الْجَوَازِ لِمَنْ كَانَ مَلِيّاً مَعَ كَوْنِهِ ضَافِياً وَ يَدُلُّ عَلَيْهِ.

مَا رواه فِي الْكَافِي عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ يَتِيمٍ قَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَ لَيْسَ بِعَقْلِهِ بَاسٌ وَ لَهُ مَالٌ عَلَى يَدِ رَجُلٍ فَارَادَ الرَّجُلُ الَّذِي عِنْدَهُ الْمَالَ أَنْ يَعْمَلَ بِمَالِ الْيَتِيمِ مُضَارِبَهُ فَاذَنْ لَهُ الْغُلَامُ فَقَالَ لَا يَصْلُحُ لَهُ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ حَتَّى يَحْتَمِلَ وَيُدْفَعَ إِلَيْهِ مَالُهُ وَ أَنْ إِحْتَمَلَ يَكُنْ لَهُ عَقْلٌ لَمْ يُدْفَعْ إِلَيْهِ شَيْءٌ إِنَّتَهَى.

فَدَلَّ هَذَا الْخَبَرَ بِإِطْلَاقِهِ عَلَى عَدَمِ الْجَوَازِ مَعَ إِذْنِ الْمَمَّيزِ فَغَيْرِهِ أَوْلَى بِالْمَنْعِ وَ أَقْلَ مَرَاتِبِ النَّهْيِ الْكَرَاهَةُ هَذَا تِمَامُ الْكَلَامِ فِي الْآيَةِ مِنْ حَيْثُ الْأَحْكَامُ وَ لَنَرْجِعَ إِلَى تَفْسِيرِ أَلْفَاظِهَا فَنَقُولُ (الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً) أَيِ الْأَمْوَالِ الَّتِي

جعل الله لكم قياماً أي لا يحصل قيامكم ولا معاشكم إلا بهذا المال وحيث أن المال كان سبباً للقيام والاستقلال بأمر المعاش سمّاه بالقيام إطلاقاً لإسم المستب على السبب على سبيل المبالغة يعني كان هذا المال نفس قيامكم وابتغاء معاشكم هكذا قيل والذي يختلج بالبال في معنى الكلام هو أن المراد بالأموال في الآية أموال السفهاء وهذا ممّا لا كلام فيه و عليه فالمراد بالقيام القيام بأمر السفهاء والتصرّف في أموالهم فالمعنى: **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ** أي أموالهم التي جعل الله لكم قياماً أي صار المال سبباً لقيامكم بشؤون السفهاء وبعبارة أخرى الأموال التي جعل الله لكم سببها كذا وكذا لا تؤتوها لهم حال كونهم سفهاء **وَآرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا** أي أنفقوا عليهم ما يحتاجون اليه من الأكل والشرب واللباس وغيرها ممّا هو لازم لهم في حياتهم وبقائهم بقدر الكفاف وقولوا قولاً معروفاً، اختلفوا في القول المعروف على أقوال:

أحدها: أنه العدة الجميلة من البر والصلّة.

ثانيها: أنه الدعاء مثل أن يقول عافانا الله وإياك بارك الله فيك وبالجملة كلّ ما سكنت اليه النفوس وأحبته من قول وعمل فهو معروف وكلّ ما أنكرته وكرهته ونفرت منه فهو منكّر.

ثالثها: ما قاله الزّجاج قال أي علّموهم أمر دينهم مضافاً الى الإطعام والكسوة.

رابعها: قال القفال القول المعروف هو أنه أن كان المولي عليه صبيّاً فالولي يعرفه أن المال ماله وهو خازن له وأنه إذا زال صباه فأنه يرّد المال اليه وأن كان المولي عليه سفيهاً وعظه ونصحه وحثه على الصلّة والصوم وسائر الأحكام بقدر الإمكان ورغبه في ترك التّبذير والإسراف وعزّفه أن عاقبة التّبذير والفقر والإحتياج الى الخلق ما يشبه هذا النوع من الكلام إنتهى.

وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ
 أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا
 تَكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ
 غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ
 بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا
 عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦) لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ
 مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ
 مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ
 كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ
 أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ
 مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨) وَلْيَخْشَ
 الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا
 عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ
 الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ
 فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا (١٠)

◀ اللّٰغَة

وَابْتَلُوا: أَمَرُ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ وَهُوَ الْإِخْتِبَارُ أَيْ إِخْتَبَرُوا وَأَمْتَحَنُوا الْيَتَامَى.
 أَنْتُمْ: مِنَ الْأَنْسِ وَهُوَ الْإِلْفَةُ وَسُكُونُ الْقَلْبِ وَضَدُّهُ الْوَحْشَةُ وَالْمَعْنَى
 عَلِمْتُمْ وَوَجَدْتُمْ بِحَيْثُ سَكَنَ قَلْبُكُمْ وَأَطْمَأَنَّ.
 رُشْدًا: الرُّشْدُ وَالرُّشْدُ خِلَافُ الْغَيِّ يَسْتَعْمَلُ إِسْتِعْمَالُ الْهَدَايَةِ.
 إِسْرَافًا وَبِدَارًا: السَّرْفُ تَجَاوُزُ الْحَدِّ فِي كُلِّ فِعْلٍ يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ وَأَنْ كَانَ
 ذَلِكَ فِي الْإِنْفَاقِ أَشْهَرُ، وَالْبِدَارُ الْمَسَارَعَةُ.

مَفْرُوضًا: أي معلوماً و الفرض في الأصل القطع.
سَدِيدًا: السَّدَاد والسَّدَد الإستقامة والسَّدَاد ما يسدُّ به الثَّلمة والثَّغْر.
سَعِيرًا: إلتهاب النَّار والباقي واضح.

◀ الإعراب

إِسْرَافًا وِ بَدَارًا مصدران وضعاً موضع الحال و موضع أَنْ يَكْبُرُوا نصب بالمبادرة أي لا تأكلوا مسرفين و مبادرين كبرهم بِالْمَعْرُوفِ الجار و المجرور في موضع نصب على الحال كَفَى بِاللَّهِ الباء زائدة و الجار و المجرور في موضع رفع بأنَّه فاعل، كَفَى و حَسِيبًا منصوب على الحال أو التَّمييز و التقدير كفى الله في حال الحساب نَصِيبًا مَفْرُوضًا نصب على الحال مِنْ خَلْفِهِمْ يجوز أن يكون ظرفاً، ليركوا، و أن يكون حالاً ظَلُمًا مفعول له أو مصدر في موضع الحال.

◀ التفسير

وَ أَتَبَتُوا آلِيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تعالى في الآيات السابقة إيتاء الأيتام أموالهم و منع من دفع المال الى السُّفهاء ذكر في المقام الحُد الفاصل بين ما يَحِلُّ و ما لا يَحِلُّ و ابتلو اليتامى اى اخبروهم واقبحوهم فى عقولهم و صلاحهم قيل أنَّها نزلت فى ثابت بن رفاعه فقال رفاعه و في عمه و ذلك أنَّ رفاعه توفي و قد ترك إبنه و هو صغير فاتى عمّ ثابت الى النَّبِى و قال أنَّ ابن اخي يتيم فى حجرى فما يحلُّ لى ماله و حتى ادفع اليه ماله فانزل الله هذه الآية ثُمَّ أَنَّهُمْ اختلفوا فى معنى الاختيار و كفيئته فى المقام فقال قوم هو اَنْ يتأمل الوصى اخلاق تيمه و يسيع الى اغراضه فتحصيل له بجانبه و ضبط ماله و الاهمال لذلك فاذا توسم الخير لا بأس أن يدفع اليه شيئاً من ماله يبيح له التعرّف فيه فأن نماء و حسن النظر فيه فقد وقع الإختبار و وجب على

الوصي تسليم جميع ماله اليه و أن أساء النّظر فيه وجب عليه إمساك ماله عنده في العلماء من يقول أنّه إذا أختبر الصّبي فوجده رشيداً ترتفع الولاية عنه يجب دفع ماله اليه وإطلاق يده في التّصرف لقوله تعالى: **حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ** وقال جماعة، الصّغير لا يخلو من أحد أمرين:

إمّا أن يكون غلاماً أو جارية فإن كان غلاماً ردّ النّظر اليه في نفقة الدّار شهراً أو أعطاه شيئاً نزرأ يتصرّف فيه ليعرف كيف تدبيره وتصرّفه وهو مع ذلك يراعيه لئلا يتلفه فإن أتلّفه فلا ضمان على الوصي فاذا رآه متوخّياً سلّم اليه ماله وأشهد عليه و أن كانت جارية ردّ اليها ما يرّد الى ربّة البيت من تدبير بيتها و النّظر فيه فإن رآها رشيدة سلّم أيضاً اليها مالها وأشهد عليها وإلا بقيا تحت الحجر حتّى يؤنس رشدهما، وقال الحسن ومجاهد وغيرهما، إختبروهم في عقولهم وأديانهم وتنمية أموالهم انتهى ما ذكره القرطبي في كلامه.

قال الجزائري رحمته الله في آيات الأحكام ونعم ما قال ما لفظه، ولنذكر شرحها في ضمن فوائد:

الأولى: الخطاب للأولياء الذين بيدهم أموال اليتامى أو لمن كان بيده مال لم يكن ولياً ولا وصياً، والإبتلاء الإختبار وهو يختلف باختلاف أهل المكان الذي نشأوا فيه وأحوالهم، فإن كان من ذوي المكاسب يختبر بالبيع و الشّراء والإجارة مثلاً و أن كان من أولاد العلماء والوزراء والرؤوساء يختبر بما يناسب حاله وهكذا ولا يكفي موافقته لوضع الشّيء موضعه وحفظه و إصلاحه له مرّة واحدة بل لا بدّ من التّكرار الى أن يحصل العلم بأنّه بهذه الصّفة وهو المراد بایناس الرّشد أي العبارة وقد يكتفي فيه بالظنّ المتآخم للعلم و قرأ، أحسبتم أي وجدتم فحذفت إحدى السّينين كما في فظلتم تفكّهون، أي ظلّلتم وحتّى هنا حرف ابتداء وما بعدها جملة مستأنفة وهي جملة الشرطية و الجملة الشرطية الثّانية جزاء فالفاء الأولى رابطة للشرط الأوّل والثّانية للثّاني

روي ابن بابويه في الفقيه عن الصادق عليه السلام: عن قول الله عز وجل
فَأَنْ أُنْسِتُمْ مِنْهُمْ رِشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ، قال عليه السلام إيناس
الرشد حفظ المال وفي رواية أخرى أن إحتلم ولم يكن له عقل لم
يدفع إليه شيء أبداً.

الثانية: المراد ببلوغ النكاح بلوغ الحد الذي يقدرون معه على الواقعة و
الإنزال أو الحد الذي يمكن فيه الإحتلام وليس المراد بالبلوغ الإحتلام لأن في
الناس من لا يحتلم أو يتأخر إحتلامه ويدل عليه:

ما رواه في الكافي والشيخ وابن بابويه في الحسن عن عبد الله بن
سنان عن أبي عبد الله عليه السلام: قال إذا بلغ الغلام أشده ثلاثة عشر سنة
ودخل في الأربع عشرة سنة وجب عليه ما وجب على المحتملين
إحتلم أو لم يحتلم وكتبت عليه السيئات وكتبت له الحسنات وجاز
له كل شيء إلا أن يكون ضعيفاً أو سفيهاً انتهى

وفي الصحيح عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنقطاع
يتم اليتيم الإحتلام وهو أشده وأن أحتلم ولم يونس منه رشد و
كان سفيهاً أو ضعيفاً فليمسك عنه وليه ماله.

وروي الشيخ عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله قال: سأله أبي
وأنا حاضر عن قول الله عز وجل حتّى إذا بلغ أشده قال عليه السلام:
الإحتلام قال فقال يحتلم في ست عشرة سنة أو سبع عشرة سنة و
نحوها قال إذا أتت عليه ثلاث عشرة سنة ونحوها فقال عليه السلام لا إذا
أتت عليه ثلاث عشرة سنة كتبت له الحسنات وكتبت عليه السيئات
وجاز أمره إلا أن يكون سفيهاً أو ضعيفاً فقال الذي يشتري الدرهم
بأضعافه قال وما الضعيف قال الأبله انتهى.

أقول لاشك أن الصبي محجور عليه إلى أن يحصل له البلوغ والرشد وهذا القدر
مما أقيم عليه الإجماع من الخاصة والعامة ثم أن البلوغ يعرف بأحد أمور ثلاثة:

أحدها: السُّنن والروايات فيه مختلفة و المشهور المتيقن بين الفقهاء هو خمس عشرة سنة كاملة في الذكر وتسع في الانثى هلالية لأنه المعهود ونقل عن المسالك الإجماع عليه ولا بد من إستكمال السنة الأخيرة فيهما عملاً بالإستصحاب وفتوى الأصحاب وقيل بالإكتفاء في الذكر بأربع عشرة سنة وقيل بثلاث عشرة سنة والدخول في الأربع وقوي هذا القول كثير من الفقهاء وتفصيل الكلام في المسألة خارج عن طور الكتاب.

وأما العامة فذهب الشافعي إلى التحديد، بالخمس عشرة في الذكر والأنثى أبو حنيفة وصاحبه في الذكر ثمان عشرة سنة والمرأة عندهما كالذكر، وقال مالك البلوغ ان يغظ الصوت او نثيق الغضروف وهو رأس الالف فأما السن فلا تعلق له بالبلوغ وقال داود الحكم بالبلوغ بالسن قال القُرطبي في تفسيره لهذه الآية والبلوغ يكون بخمسة أشياء ثلاثة يشترك فيها، الرجال والنساء وأثنان يختصان بالنساء وهما الحيض والحبل فأما الحيض والحبل فلم يختلف العلماء في أنه بلوغ وأن الفرائض والأحكام تجب بهما وإختلفوا في الثلاث، فأما الانبات والسُّنن فقال الأوزعي والشافعي وابن حنبل خمس عشرة سنة بلوغ لمن لم يحتلم وهو قول ابن وهب وأصبع وعبد الملك بن الماجشون وعمر بن عبد العزيز وجماعة من أهل المدينة وإختاره ابن العربي وتجب الحدود والفرائض عندهم على من بلغ هذا السُّنن قال أصبغ بن الفرّج والذي نقول به أنّ حدّ البلوغ الذي تلزم به الفرائض والحدود خمس عشرة سنة وذلك أحبّ ما فيه إلّٰي وأحسنه عندي لأنّه الحدّ الذي يستهم فيه في الجهاد لمن حضر القتال واحتجّ بحديث ابن عمر اذ عُرِض يوم الخندق ابن خمس عشرة سنة فأجيز ولم يُجز يوم أحد لأنّه كان ابن أربع عشرة سنة أخرجه مسلم وقال أبو عُمر بن عبد البرّ هذا فيمن عرف مولده وأما من جهل مولده وعدّة سنّه أو جحدّه فالعمل فيه بما روي نافع عن أسلم عن عُمر بن الخطاب أنّه كتب إلى أمراء الأجناد إلّا تضربوا الجزية إلّا على من جرت عليه

المواسي، وقال عثمان في غلام سرق أنظره أن كان قد أخضر مأزره فأقطعوه و ساق الكلام في نقل الأقوال الى أن قال وعن أبي حنيفة رواية أخرى تسع عشرة سنة وهي الأشهر.

وقال في الجارية بلوغها لسبع عشرة سنة وعليها النّظر وروي اللؤلؤي عنه ثمان عشرة سنة وقال داود لا يبلغ بالسّن ما لم يحتلم ولو بلغ أربعين سنة فهذه هي الأقوال العامة في السّن بنقل القرطبي وهو أعرف بها لأنّه منهم.

ثانيها: الإنبات، والمراد به إنبات الشّعر الحّسن على العانة فأنّه دليل على البلوغ عند علماءنا أجمع قاله في التذكرة والحق بذلك أخضرار الشّارب في الدّالة على ذلك وقواه الشّهيد الثّاني في الرّوضة وهذا ممّا لا كلام فيه عندنا وأما العامة فمنهم من قال به روي عن مالك أنّه قال به مرّة والشافعي في أحد قوليّه وبه قال أحمد وإسحاق وأبو ثور وقيل هو بلوغ إلّا أنّه يحكم به في الكفّار فيقتل من أنبت ويجعل من لم ينبت في الذّراي قاله الشّافعي في القول الآخر لحديث عطية القرظي في قصّة اليهود وحكم سعد بن معاذ بقتل الرّجال منهم فقتل من أنبت وبقي من لن ينبت قال ولا إعتبار بالخضرة والزّغب وأنما يترتّب الحكم على الشّعر وقال ابن القاسم سمعت مالكا يقول العمل عندي على حديث عمر بن الخطّاب لو جرت عليه المواسي لحدّته قال أصبغ قال لي ابن القاسم وأحبّ إليّ إلّا يقام عليه الحدّ إلّا بإجتماع الإنبات والبلوغ أبو حنيفة لا يثبت بالإنبات حكم وليس هو ببلوغ ولا دلالة على البلوغ الزّهري وعطاء، لا حدّ على من لم يحتلم وهو قول الشّافعي ومال إليه مالك مرّة به بعض أصحابه و ظاهره عدم إعتبار الإنبات والسّن وقال ابن العربي إذا لم يكن حديث ابن عمر دليلاً في السّن فكُلّ عددٍ يذكرونه من السّنين فأنّه دعوى والسّن التي أجازها رسول الله ﷺ أولى من سنيّ لم يعتبرها ولا قام في الشّرع دليل عليها وكذلك إعتبر النبي ﷺ الإنبات في بني قريظة فمن عذيري ممّن ترك أمرين إعتبرهما النبي ﷺ فيتاؤله ويعتبر ما لم

يعتبره النبي ﷺ لفظاً ولا جعل الله له في الشريعة نظراً.

ثالثها: الإحتلام وهو يتحقق بخروج الماء الذي منه الولد المسمى بالمنى من الموضع المعتاد ليلاً أو نهاراً يقظةً أو نوماً بجماع أو غيره لكن لا بد أن يكون ذلك في الزمن المحتمل للبلوغ فقبله لا يكون دليلاً عليه وأن كان بصفته وحد الزمن في جانب القلة بالنسبة الى المرأة كمال التسع والدخول في العاشرة كما هو ظاهر الأخبار وأما الرجل فليس في الأخبار ما هو صريح الدلالة عليه وذلك لأن في الناس من لا يحتلم أو يتأخر إحتلامه ولما روي في الأخبار أنه أن إحتلم ولم يكن له عقل لم يدفع اليه شيء أبداً نعم هو بضميمة الإنبات أو السن يكون دليلاً على البلوغ وأما الإحتلام وحده فلا هذا تمام الكلام في علائم البلوغ من الإنبات والإحتلام والسن والله أعلم بحقيقة الحال قوله:

فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَ
بِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا

فنقول لا شك أن الآية قد دلت على إعتبار الرشد في اليتيم وقد عرفت أن معناه أن يكون له عقل يصلح به أمواله ولا يخدع غالباً في المعاملات والتصرفات اللاتقة به وقال العامة المراد به الصلاح في العقل والدين بعضهم الصلاح في العقل وحفظ المال قال سعيد بن جبير والشعبي على ما نقلوه عنهما أن الرجل ليأخذ بلحيته وما بلغ رشده فلا يدفع الى اليتيم ماله وان كان شيخاً حتى يونس منه رشده وقال الضحاك لا يعطى اليتيم وان بلغ مائة سنته حتى يعلم منه اصلاح ماله وقال مجاهد الرشد في العقل خاصته واكثر العلماء على أن الرشد لا يكون إلا بعد البلوغ وعلى أنه لم يرشد بعد بلوغ الحلم وأن شيخاً لا يزول الحجر عنه وهو مذهب مالك وغيره وقال أبو حنيفة لا يحجر على الحر البالغ اذا بلغ مبلغ الرجال ولو كان أفسق الناس وأشدهم تبذيراً اذا كان عاقلاً وبه قال زفر بن الهذيل وهو مذهب النخعي وقال

الشَّافِعِي أَن كَانَ مَفْسُداً لِمَالِهِ وَدِينِهِ أَوْ كَانَ مَفْسُداً لِمَالِهِ دُونَ دِينِهِ حَجَرَ عَلَيْهِ وَ
أَن كَانَ مَفْسُداً لَدِينِهِ مُصْلِحاً لِمَالِهِ فَعَلِيَ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: يحجر عليه وهو إختيار أبي العباس بن شريح.

الثاني: لا حجر عليه وهو إختيار أبي إسحاق المروزي والأظهر من
مذهب الشافعي قال الثعلبي وهذا الذي ذكرناه من الحجر على السفيه قول
عثمان وعلي والزبير وعائشة وابن عباس وعبدالله بن جعفر ومن التابعين
شريح وبه قال الفقهاء مالك وأهل المدينة والأوزعي وأهل الشام وأبو
يوسف ومحمد وأحمد وإسحاق وأبو ثور قال الثعلبي وإدعى أصحابنا
الإجماع في هذه المسألة هذا ما نقله القرطبي من أقوال العامة في معنى الرشد
والمراد به في الآية إذا عرفت ذلك فأعلم أن المستفاد من الآية أمور ينبغي
التنبه عليها:

أحدها: يفهم منها تقديم الإختبار على البلوغ لقوله تعالى في أول الآية وَ
أَبْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فالإختبار قبل البلوغ وهو المطلوب
والوجه فيه على ما قيل هو أن مناط الرشد هو عقل المعاش وجوده لا
يتوقف على البلوغ ولأنه يحتاج إلى فسحة من الزمان لتحصيل الوثوق بكثرة
المعاشرة والإمتحانات ويترتب على ذلك المسارعة إلى دفع المال إلى أهله
كما يقتضيه الأمر به في قوله: فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وذهب بعض العامة إلى
أنه أتما يكون بعد البلوغ نظراً إلى أنه تعالى أوجب دفع أموالهم بعد إسناس
الرشد فلو كان الإبتلاء قبله لما جاز ذلك فكيف الوجوب وضعفه ظاهر لأن
لزوم تأخير الدفع عن حصول العلم بالرشد لا يستلزم وجوب تأخير التحصيل
عن البلوغ.

ثانيها: أنه قد استدلل بعضهم بها على صحة تصرفات الصبي المميز
الواقعة بأذن الولي لأن الإبتلاء بالمأمر به قبل البلوغ وهو أتما يحصل إذا أذن
له الولي في البيع والشراء ونحوهما ليحصل الغرض المقصود من الإختبار.

ثالثها: إطلاق الآية يقتضي جواز دفع المال اليهم بل وجوبه على الفور كما يقتضيه التعقيب بالفاء وذلك لأنه علّق الأمر بالدفع على إستيناس الرشد فلو توقّف معه على أمرٍ آخر لم يكن الشرط صحيحاً ومقتضاها أيضاً لزوم دفعه اليهم بعد حصول الأمرين من غير توقّف على أذن الحاكم ولأنّ المقتضي للحجر هو السّفه فاذا إرتفع زال المقتضي فيجب أن يزول ويدلّ عليه ظاهر إطلاق الروايات أيضاً فلو أهمل أثم وضمن سيّما عند الطّلب والى ذلك ذهب جماعة من الأصحاب وذهب جماعة منهم المحقّق الى أنّه يتوقّف زواله على حكم الحاكم لأنّ الحجر حكم شرعي ولا يثبت إلا بدليل شرعي وأن السّفه أمرٌ خفيّ والأنظار فيه مختلفة فناسب أن يكون ذلك منوطاً بنظر الحاكم.

رابعها: مقتضي مفهوم الشرط عدم جواز الدّفع عند عدم الرشد ولو طعن في السنّ لقوله تعالى: **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ** وبذلك قال الأصحاب وأكثر العامة ونقل عن أبي حنيفة أنّه يزداد على زمان بلوغه سبع سنين ثم يعطي ماله رشد أم لا وضعفه ظاهر.

خامسها: أنّ الآية تضمّنت النّهي عن أكل مال اليتيم والمراد به مطلق التصرف فقوله لا تأكلوها إسرافاً وبداراً صريح في المدعى ثم أنّ الإسراف و البدار منصوبان على التعليل فالأول إيماء الى العقوبة الآخروية و عليه فالمراد به الإسراف على النّص الموجب للدّخول في النّار.

والثّاني: الى العقوبة الدّنيوية أي تحرّزاً من أن يكبروا فتقع العداوة و السّحناء المورثة هلاك الأموال والأنفس أو لأجل المبادرة الى دفعها اليهم اذا كبر ولما مر من وجوبه على الفور وقيل المعنى لا تأكلوها لإسرافكم و مبادرتكم كبرهم تفرطون في إنفاقها و تقولون نفقها قبل أن يكبروا فينتزعوها منّا و حينئذٍ فتقييد الأكل بما ذكر مع أنّه محرّم على الإطلاق لما فيه من زيادة القبح و يجوز أن يكونا صفة لمصدر محذوف بيّن الله تعالى فيه نوعي الأكل أي أكلاً إسرافاً و أكلاً بداراً من أن يكبروا فيأخذوه و عليه فيكون، أن يكبروا،

في محلّ النَّصَب على التَّعْلِيل للبدار و يجوز أن يكون نصب الإسراف على الحال و البدار كما مرَّ أو كلاهما على الحال أي مسرفين و مبادرين كبرهم و على الوجهين الأخيرين الظَّاهر أنَّ الإسراف هنا هو خلاف المعروف كما هو المتبادر في العُرف فيدلُّ بمفهومه على جواز الأكل بالمعروف كما هو المستفاد من الأخبار و منها يعرف المصروف الجائز فعلة فيكون باقي الآية من قبيل التَّصريح بما علَّم جوازه من طريق المفهوم و البيان و التَّفصيل أنَّ من بيده مال الأيتام أمَّا أن يكون غنيًّا أو يكون فقيرًا فأن كان غنيًّا لا يجوز له أن يتناول شيئاً من مال اليتيم لظاهر الأمر المقتضي لذلك و اليه ذهب الشافعي و قيل يجوز له ذلك و لكن لا يتجاوز مقدار أجرة مثله حملاً للأمر على الإستحباب كما يشعر به لفظ الإستعفاف في قوله:

وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ

فالمراد بالإستعفاف في الآية هو الاكل من مال اليتيم بمقدار اجره مثله و يدلُّ عليه ما رواه الشيخ عن هشام بن الحكم قال سئلت ابا عبد الله فيمن تولَّى مال اليتيم، ماله أن يأكل منه فقال ^{عليه السلام} ينظر الى ما كان غيره يقوم به من الأجر لهم فليأكل بقدر ذلك إلا أنه لا يبعد تقييدها بالأخبار الدالة على أنَّ ذلك أمَّا هو للمحتاج المشتغل بإصلاح أموالهم بحيث يشغله ذلك عن مال نفسه و أن لا يكون المال قليلاً و هذا في غير الأجير الذي يستأجره الوصي أو القيم لإصلاح مال اليتيم اذ لا شك في جواز إعطاء الأجرة له من ماله وكذا جعل و نحوه الحاكم في جواز الإستيجار والجعالة لكن اذا لم يوجد متبرعٌ بذلك و إلا فلا و أمَّا المحتاج مع حصول القيود التي ذكرناها فلا حرج عليه في ذلك قطعاً مع عدم الإسراف و الإفساد لدلالة الآية عليه كما قال:

وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ

و من المعلوم أنَّ المراد بالأكل بالمعروف هو الأكل الذي لا إسراف فيه و لا إفساد عليه فمراعاة أقل الأمرين من القوت و أجرة مثله أحوط لأن فيه جمعٌ

بين الأخبار ولأنه الأحسن في حفظ مال اليتيم كما يقتضيه قوله تعالى: **وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ^(١) ثُمَّ أَنَّ الظاهر من الآية والأخبار الواردة في المقام أنه لا يجب ردّ عوض ما أكل بعد اليسار لأنه في ذلك من قبيل الأجير وهذا هو المشهور وقيل المعنى أَنَّ من كان فقيراً فليأخذ قدر الكفاية والحاجة قرضاً ثُمَّ يردّ عوض ما أخذ اذا أيسر.

قاله الطبرسي في مجمع البيان نقلاً عن سعيد بن جبير ومجاهد وأبي العالية والزّهري وعبيدة السلماني قال **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ**، وهو مروي عن الباقر **عَلَيْهِ السَّلَام** ثُمَّ قال معناه يأخذ قدر ما يسدّ به جوعه ويستر عورته لا على جهة القرض عن عطاء بن أبي رباح و قتادة وجماعة ولم يوجبوا أجره المثل لأن أجره المثل ربما كان أكثر من قدر الحاجة والظاهر في روايات أصحابنا أَنَّ له أجره المثل سواء كان قدر كفايته أو لم يكن انتهى.

أَمَّا الْعَامَّةُ فقد حملوا الأكل بالمعروف على القرض قال القرطبي واختلف الجمهور في الأكل بالمعروف ما هو فقال قوم هو القرض اذا احتاج ويقضي اذا أيسر، قاله عمر بن الخطاب وابن عباس وعبيدة وابن جبير والشعبي ومجاهد وأبو العالية وهو قول الأوزعي ولا يستلف أكثر من حاجته قال عمر ألا أني أنزلت نفسي من مال الله منزلة الولي من مال اليتيم أن إستفتيت إستعفتت إفتقرت أكلت بالمعروف فاذا أيسرت قضيت روي عبد الله بن المبارك عن عاصم عن أبي العالية **وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ** قال قرضاً ثُمَّ قال وقول ثان روي عن إبراهيم وعطاء والحسن البصري والنخعي و قتادة، لا قضاء على الوصي الفقير فيما يأكل بالمعروف لأن ذلك حق النظر الفقهاء قال الحسن وهو طعمة من الله له، وذلك أنه يأكل ما يسدّ جوعته ويكتسي ما يستر عورته ولا يلبس الرفيع من الكتان ولا الحلل والدليل على صحة هذا القول إجماع الأمة على أن الإمام الناظر للمسلمين لا يجب عليه عزم ما أكل

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

بالمعروف لأن الله تعالى قد فرض سهمه في مال الله فلا حجة لهم في قول عمر، فإذا أيسرت قضيت أن لو صح انتهى كلامه.

أقول بعض العامة فرق بين وصي الأب والحاكم فأجاز لوصي الأب أن يأكل بالمعروف وأما وصي الحاكم فلا سبيل له إلى المال بوجه، ونقل عن مجاهد أنه قال ليس له أن يأخذ قرضاً ولا غيره وذهب إلى أن الآية منسوخة نسخها:

قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ** ^(١).

وهذا ليس بتجارة وقال زيد بن أسلم أن الرخصة في هذه الآية منسوخة أن الذين يأكلون، أموال اليتامى ظلماً الآية، وقال بعضهم بالفرق بين الحضر والسفر فيمنع إذا كان قتيماً ويجيز إذا احتاج أن يسافر من أجله فله أن يأخذ ما يحتاج إليه ولا يقتني شيئاً قاله أبو حنيفة وصاحبه، وقال أبو قلابة فليأكل بالمعروف مما يجني من الغلة فأما المال الناض فليس له أن يأخذ منه شيئاً قرضاً ولا غيره وروي عكرمة عن ابن عباس في قوله: **وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ** قال إذا احتاج واضطر وقال الشعبي كذلك إذا كان منه بمنزلة الدّم ولحم الخنزير أخذ منه فأن وجد أوفى ونقل عن ابن عباس والنخعي أنهما قالاً أن يأكل الوصي بالمعروف من مال نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم فليستعفف الغني بغناه والفقير يقتر على نفسه حتى لا يحتاج إلى مال يتيمه قال النحاس وهذا أحسن ما روي في تفسير الآية لأن أموال الناس محظورة لا يطلق شيء منها إلا بحجة قاطعة قال القرطبي بعد نقله ما نقلناه وقد إختار هذا القول الكيا الطبري في أحكام القرآن له فقال توهّم متوهّمون من السلف بحكم الآية أن للوصي أن يأكل من مال الصبي قدر لا ينتهي إلى حد الشرف وذلك خلاف ما أمر الله به في قوله: **لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا**

أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ^(١) ولا يتحقق ذلك في مال اليتيم وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ يرجع الى كل مال نفسه دون مال اليتيم بالباطل إلا أن تكون تجارة فمعناه ولا تأكلوا أموال اليتيم مع أموالكم بل إقتصروا على أكل أموالكم وقد دل عليه قوله تعالى: وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا و بان بقوله تعالى: وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ الإقتصار على البلغة حتى لا يحتاج الى أكل مال اليتيم فهذا تمام معنى الآية انتهى كلامه.

أقول هذا ما وصل الينا من أقوالهم ولعل ما لم يصل منهما أكثر مما وصل غرو فيه فأنت تفسير كلام الله اذا لم يؤخذ من أهله فلا محالة تكون الأقوال فيه مختلفة والأراء متشتتة فلا يطمئن القلب إلا بذكر الأخبار الواردة عن أهل البيت الذين جعلهم الرسول عن قبل الله تعالى عدلاً للكتاب وأمر الناس بالتمسك بهما معاً في قوله: «أَتَيْ تَارِكُ فَيْكُمْ التَّقْلِينَ كِتَابَ اللَّهِ وَعَتَرْتِي أَهْلَ بَيْتِي مَا أَنْ تَمْسَكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضَلُّوا أَبَدًا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّىٰ يَرْدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»، المعلوم أن علم القرآن يوجد عند من خوطب به فنقول:

روي العياشي في تفسيره عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله تعالى: وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ قال عليه السلام: ذلك اذا حبس نفسه من أموالهم فال يحترث لنفسه فليأكل بالمعروف من مالهم انتهى.

وعن إسحاق بن عمار بن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله: وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ قال عليه السلام هذا رجل يحبس نفسه لليтим على حرب أو ماشية ويشغل فيها نفسه فليأكل منه بالمعروف وليس ذلك له في الدنانير والدراهم التي عنده موضوعة انتهى.

و في الكافي بأسناده عن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عزَّ وجلَّ: وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ قال عليه السلام: من كان يلي شيئاً لليتامى و هو محتاج ليس له ما يقيمه فهو يتقاضى أموالهم و يقوم في ضيعتهم فليأكل بقدرٍ ولا يسرف فأن كان ضيعتهم لا تشغله عمّا يعالج نفسه فلا يرز أن من أموالهم شيئاً انتهى.

و بأسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزَّ وجلَّ: فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ قال عليه السلام: المعروف هو القوت و أنما عني الوصي أو القيم في أموالهم و ما يصلحهم انتهى.

و بأسناده عن حنان بن سدير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: سألتني عيسى بن موسى عن القيم للأيتام في الإبل و ما يحل له منها فقلت إذا لاط حوضها و طلب ضالّتها و هنأ جرباها فله أن يصيب من لبنها في غير نهكٍ لضرع و لا فسادٍ لنسلٍ انتهى.

و بأسناده عنه عليه السلام: في قول الله: وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فقال ذلك رجل يحبس نفسه عن المعيشة فلا بأس أن يأكل بالمعروف إذا كان يصلح لهم أموالهم فأن كان المال قليلاً فلا يأكل منه شيئاً والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة ^(١).

فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا.

فقد أمر الله تعالى بالإشهاد عند دفع أموالهم اليهم فبعضهم حمل الأمر على الوجوب و أيده بأن فيه أي في الإشهاد مبادرة إلى حفظ مال اليتيم وعدم تضييعه لأنه قد ينكر اليتيم التسليم اليه والمشهور حملة على الإستحباب أو الإرشاد إلى المصلحة كدفع التهمة عنه بأكله و سقوط الضمان لو أنكر اليتيم التسليم قالوا والظاهر من الآية أنه لا تسمع دعوى الولي التسليم إلا بالبينة و

لأنه لا كلفة عليه بذلك ويدل عليه عموم الأخبار وبذلك أفتى الأصحاب واليه ذهب الشافعي وذهب الحنفية إلى أنه يصدق مع اليمين كسائر الأيمان وضعفه ظاهر لأنه خلاف ظاهر الآية مضافاً إلى أنه أمين من جهة الشرع لا من جهة اليمين وليس له نيابة عامة كحاكم الشرع ولا كمال الشفقة كالأب وغير ذلك من الإشكالات وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا أي كفى الله تعالى حاسباً لأعمالكم ومجازياً بها ففيه وعيد لكل جاحد حق والباء زائدة على ما قيل هذا تمام البحث في هذه الآية والحمد لله وحده.

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا.

لما ذكر الله تعالى أمر اليتامى وأموالهم وصله بذكر الموارث قيل نزلت الآية في أوس بن ثابت الأنصاري توفى وترك امرأة يقال لها أم كجة وثلاث بنات له منها فقام رجلان هما ابنا عم الميت وصياه يقال لهما سويد وعرفجة فأخذوا ماله ولم يعطيا إمرأته وبناته شيئاً وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وأن كان ذكراً ويقولون لا يُعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل و طاعن بالرمح وضارب بالسيف وحاز الغنيمة فذكرت أم كجة ذلك لرسول الله ﷺ فدعاهما فقالا يا رسول الله ولدها لا يركب فرساً ولا يحمل كلاً ولا ينكأ عدواً فقال رسول الله ﷺ إنصرفا حتى أنظر ما يحدث الله لى فيهن فانزل هذه الآية ردّاً عليهم وإبطالاً لقد لهم وتصرفهم فان الورثة الصغار كان ينبغي ان يكونوا احق بالمال من الكبار انتهى ما ذكره القرصبي في نزول الآية اقول المعنى انه تعالى جعل لكل واحد من الرجال والنساء حصته الميراث اجمالاً ثم بين نصيب كل واحد وأن ذلك مع التساوي في الدرجة بدليل آخر كما في الآية الآتية قيل وفيها دلالة على نفي التعصب لأنه تعالى فرض للنساء كما فرض للرجال في التركة فشارك بينهما وذكر الوالدين وفي لفظ الأقرب

دلالة على أنه ليس المراد مطلق الرجال والنساء بل المراد المتساوون في الدّرج ومن ثم لا يرث ولد الولد مع وجود الولد الصّلبّي فأقتضت مشاركة جميع أهل تلك الدّرجة من النساء والرجال في التّركة فترث العمّة مع العمّ و بنت العمّ مع ابن العمّ والأخت مع الأخ والقائلون بالتعصّب يمنعون ذلك ويخصّون ما فضل عن الفريضة بالرجال دون النساء وهو خلاف مقتضى الآية فيكون باطلاً وذلك لأنّ المقتضى لتوريثهما واحد فلو جاز حرمان النساء لجاز حرمان الرجال أيضاً والتّالي باطل فالمقدّم مثله وفي قوله: **مَقْرُوضًا** دلالة على أنّ هذا النّصيب يدخل في ملك الوارث بغير الإختيار فلو أعرض عنه لم يخرج عن ملكه إلا بنائلي شرعي وسيأتي تفصيل الكلام فيه:

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا.

قال الطبرسي رحمته الله واختلف من قال أنّها محكمة على قولين أحدهما أنّ الأمر فيه للوجوب والزرّوم عن مجاهد وهو ما طابت به نفس الورثة وقال الآخرون الأمر فيها على النّدب ثم قال وإذا حضر القسمة، معناه إذا شهد قسمة الميراث، أولوا القربى، أي فقراء قرابة الميّت، واليتامى والمساكين، أي يتاماهم ومساكينهم يرجون أن تعودوا عليهم **فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ** أي أعطوهم من التّركة قبل القسمة شيئاً، واختلف في المخاطبين بقوله: **فَارْزُقُوهُمْ** على قولين

أحدهما: أنّ المخاطب بذلك الورثة أمروا بأن يرزقوا المذكورين إذا كانوا لا سهم لهم في الميراث عن ابن عباس وسعيد بن جبّير وابن الزّبير والحسن وأكثر المفسّرون، والآخر أنّ المخاطب بذلك من حضرته الوفاة وأراد الوصيّة فقد أمر بأن يوصي لمن لا يرثه من المذكورين بشيء من ماله عن ابن عباس وسعيد بن المسيّب واختاره الطّبري انتهى.

أقول الظاهر أنَّ المراد بأولي القُربى قرابة المَيِّت مِمَّن لا يرث منه ويحتمل الأعمَّ منه ومن قرابة الوارث وأما تقيدهم بالفقراء كما فعله الطبرسي فلا دليل عليه وهكذا تقييده اليتامى والمساكين بمن يرجون أن تعوذوا عليهم، لا دليل عليه أما أولاً فلأنه خلاف ما يقتضيه ظاهر العطف فإنَّ اليتامى والمساكين عطف على أولي القربى وقد مرَّ أنَّ المراد بهم مطلق الأقرباء فليكن المعطوف أيضاً كذلك وأما قوله: **فَارْزُقُوهُمْ** فالظاهر أنَّ الأمر ليس للوجوب ولا نعلم قائلاً به منّا، وأما كونها منسوخة أولاً، فالظاهر عدم النسخ ولكن تقييد الورثة بالكبار أولى وأحوط وأنما قلنا بعدم النسخ لأنه ليس في آية الأثر منافاة لهذه الآية حتّى يحكم بالنسخ وإذا كان كذلك و صار النسخ مشكوكاً فيه فلا أصل عدمه هذا.

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا.

حذفت الألف من **لْيَخْشَ** للجزم بالأمر ومفعول الفعل محذوف لدلالة الكلام عليه أي ليخش النار أو العقاب أو الله تعالى، وجملة الشرط والجزاء وصلة الموصول وظلماً حال أو صفة لمحذوف أي أكلاً ظلماً وهو خلاف المعروف ففيه دلالة على جواز الأكل بالمعروف من حيث المفهوم، والمعنى أنه ينبغي للمؤمن الذي ترك ذريةً ضعافاً بعد موته خاف عليهم الفقر والضياع، أن يخشى على ورثة غيره من الفقر والضياع ولا يقول لمن يحضر وصيته أن يوصي بما يضرُّ بورثته وليتَّق الله في ذلك وليتَّق الإضرار بورثة المؤمن، وليقل قولاً سديداً وهو السليم من خلل الفساد الحقّ بالدعاء إلى العدل في القسم بما لا يجحف بالورثة ولا يحرم ذوي القربى وأصل السديد، من سدّ الخلل هكذا فسرها الشيخ في التبيان وقد نقل القرطبي في تفسيره أقوالاً في تفسيرها.

أحدها: ما نسبته الى ابن عباس وهو أنَّ الآية وعظ للأوصياء أي إفعلوا باليتامى ما تحبُّون أن يفعل بأولادكم من بعدكم.

ثانيها: المراد جميع النَّاس أمرهم الله بالإتقاء في الأيتام وأولاد النَّاس و أن لم يكونوا في حجورهم وأن يسدّدوا لهم القول كما يريد كلّ واحدٍ منهم أن يفعل بولده بعده.

وقول ثالث، قاله جمعٌ من المفسّرين هذا في الرّجل يحضره الموت فيقول من يحضرته عند وصيته أنَّ الله سيرزق ولدك فأنظر لنفسك وأوص بمالك في سبيل الله وتصدّق وأعتق حتّى يأتي على عامّة ماله أو يستغفره فيضّر ذلك بورثته فنهوا عن ذلك فكأنَّ الآية تقول لهم كما تخشون على ورثتكم و ذرّيتكم بعدكم فلذلك فاحشوا على ورثة غيركم ولا تحملوا على تبذير ماله قاله ابن عباس وقادة والسّدّى وفيهم وقول رابع قال مقسم وحضرمى نزّلت في عكس هذا وهو أن يقول للمتحيّض من يحضره اسك على ورثتك وابقٍ لذلك فليس اخذ الحقّ بمالك من أولادك وينهاه عن الوصية فيتضرّر بذلك ذوو القربى وكلّ من يستحق أن يوصى له فقليل لهم كما تخشون على ذرّيتكم وتسرون بأن يُحسن إليهم فكذلك سدّدوا القول في جهة المساكين و اليتامى وإتقوا الله في ضررهم قال القرطبي وهذان القولان مبنيان على وقت وجوب الوصية قبل نزول آية الموارث انتهى ما أردنا ذكره ونشر الى بعض الأخبار الواردة في الباب من طريق أهل البيت.

فعن عيون الأخبار فيما كتب الرضا الى محمّد بن سنان و حرّم أكل مال اليتيم ظلماً لعلّ كثيرة من وجوه الفساد أوّل ذلك أنّه اذا أكل مال اليتيم ظلماً فقد أعان على قتله اذ اليتيم غير مستغنٍ ولا محتمل لنفسه ولا عليم بشأنه و لا له من يقوم عليه ويكفيه كقيام والديه فاذا أكل ماله فكأنّه قد قتله وصيّره الى الفقر والفاقة مع خوف الله وجعل له من العقوبة في قوله: **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ**.

ولقول أبي جعفر عليه السلام: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ فِي أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ عِقُوبَتَيْنِ عِقُوبَةٌ فِي الدُّنْيَا وَعِقُوبَةٌ فِي الْآخِرَةِ فِي تَحْرِيمِ مَالِ الْيَتِيمِ إِسْتِغْنَاءَ الْيَتِيمِ وَإِسْتِقْلَالَهِ بِنَفْسِهِ وَالسَّلَامَةَ لِعَقْبِهِ أَنْ يَصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُ لَمَّا أَوْعَدَهُ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الْعِقُوبَةِ الْحَدِيثِ.

وَعَنْ ثَوَابِ الْأَعْمَالِ بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ قَالَ عليه السلام: أَنَّ فِي كِتَابِ عَلِيٍّ أَنْ أَكَلَ مَالَ الْيَتِيمِ سَيَدْرِكُهُ وَبَالَ ذَلِكَ فِي عَقْبِهِ مِنْ بَعْدِهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: وَلَيُخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ فِي الْمَوْتِ فِي مَوْتِهِمْ عَنْ سَمَاعَةٍ قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْعَدَ فِي مَالِ الْيَتِيمِ عِقُوبَتَيْنِ أَمَّا أَحَدُهُمَا، فَعِقُوبَةُ الْآخِرَةِ النَّارُ وَأَمَّا عِقُوبَةُ الدُّنْيَا فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَيُخْشَ الَّذِينَ إِلَىٰ قَوْلِهِ: قَوْلًا سَدِيدًا يَعْنِي لَيُخْشَ أَنْ أَخْلَفَهُ فِي ذَرْيَتِهِ كَمَا صَنَعَ بِهِؤَلَاءِ الْيَتَامَىٰ انْتَهَىٰ

وَعَنْ الْمُعَلَّى بْنِ خُنَيْسٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: مَنْ أَكَلَ مَالَ الْيَتِيمِ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَنْ يَظْلِمُهُ وَعَلَىٰ عَقْبِهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: وَلَيُخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا إِلَىٰ قَوْلِهِ: قَوْلًا سَدِيدًا انْتَهَىٰ.

وَعَنْ الْكَافِي عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ مَوْلَىٰ آلِ سَامٍ عَنْهُ عليه السلام: سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَنْ يَظْلِمُهُ أَوْ عَلَىٰ عَقْبِهِ أَوْ عَلَىٰ عَقْبِ عَقْبِهِ انْتَهَىٰ وَالْأَحَادِيثُ نَقَلْنَاهَا عَنْ آيَاتِ الْأَحْكَامِ لِلْجَزَائِرِيِّ رحمته الله.

أَقُولُ يَسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي مَنْ أَكَلَ مَالَ الْيَتِيمِ فَالْمَعْنَى فِي وَلَيُخْشَ اللَّهُ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذَرْيَةً ضَعِيفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ، أَوْ وَلَيُخْشَ اللَّهُ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا، فَاتَّهَمُوا لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذَرْيَةً ضَعِيفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ، سَيَدْرِكُهُمْ وَبَالَ ذَلِكَ فِي عَقْبِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ فَيُؤْكَلُ أَمْوَالُ أَوْلَادِهِمْ كَمَا أَكَلُوا أَمْوَالَ أَوْلَادِ غَيْرِهِمْ وَأَمَّا عَلَى الْمَشْهُورِ فَاتَّهَمُوا لَنَزَلَتْ لِلَّذِينَ

يجلسون عند المريض ويقولون أن أولادك لا يغنون عنك من الله شيئاً فقدّم مالك في سبيل الله فيفعل المريض ما يقولون له فيبقى أولاده ضائعين كلاً على الناس فأمرهم الله أن يخافوا الله في هذه المقالة و يقدرّون أن أولادهم هم المخلفون ويفعلون بهم ما هم أشاروا به ويؤيده أن النبي ﷺ نهى أن يُوصي بأكثر من الثلث وقال عائشة والثالث كثير، وقال عائشة لسعد، لأن تدع ورثتك أغنياء أحبّ إليّ من أن تدعهم عالة يتكفّفون الناس بأيديهم والله أعلم بكلامه.

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا.

أتما علّق الوعيد في الآية لمن يأكل أموال اليتامى ظلماً لأن من يأكله على وجه الإستحقاق على ما مرّ بيانه مفصلاً لا يدخل في الوعيد وهو واضح وأتما يدخل فيه الأكل على غير وجه الإستحقاق فقوله: ظُلْمًا نصب على المصدر أي أن من أكل مال اليتيم فأنه يظلمه ظلماً، وأما قوله: إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا فقيل في معناه أن أكل مال اليتيم ظلماً يبعث يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه ومن أذنيه وأنفه وعينه يعرفه من رآه بأكل مال اليتيم، وقيل أنه على وجه المثل من حيث أن فعل ذلك يصير إلى جهنم فتمتلاً بالنار أجوافهم عقاباً على ذلك الأكل كما قال الشاعر:

وَأَنْ الَّذِي أَصْبَحْتُمْ تَحْلُبُونَهُ دَمٌ غَيْرَ أَنَّ اللَّوْنَ لَيْسَ بِأَحْمَرَ

يصف أقواماً أخذوا الإبل في الدية يقول فالذي تحلبون من ألبانها ليس لبناً أتما هو دم القتل وقوله: وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا فالصلّى لزوم النار للإحراق أو التسخن أو الإنضاج.

وفي تفسير علي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ لما أُسرى بي إلى السماء رأيتُ قومًا تقذف في أجوافهم النَّارَ وتخرج من أدبارهم فقلتُ من هؤلاء يا جبرئيل فقال هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً.

وفي الكافي عن أبي جعفر عليه السلام يجي يوم القيامة والنَّار تلتهب من بطنه حتّى يخرج لهب النَّار من فيه يعرفه اهل الجمع أنّه آكل مال اليتيم انتهى.

آيات الاحكام للجزائري وروى في تفسير نورالثقلين:

عن الباقر عليه السلام أنّه قال: قال رسول الله يبعث ناس من قبورهم يوم القيامة ما حجج افواههم ناراً. قيل يا رسول الله من هؤلاء فقراء الامة.

وبأسناده عن أبي بصير قال سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: من أكل مال أخيه ظلماً ولم يرده إليه أكلَ جذوة من النَّار يوم القيامة انتهى. والأخبار في الباب كثيرة أعادنا الله منه ولمّا بيّن في هذه الآيات حكم الأيتام و أموالهم وأشار إلى ثبوت الإرث إجمالاً فقال:



يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ
 الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا
 مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ
 لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ
 وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ
 الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ
 وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ أَوْ
 دَيْنٍ لَا تَدْرُونَ أَيْهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنْ
 اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ
 مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ
 لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ
 يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ
 لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ
 مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ
 إِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كِلَاءَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ
 أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا
 أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ
 وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةُ
 مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
 وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
 تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ
 الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَ
 يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ
 مُّهِينٌ (١٤)

◀ اللّغة

يُوصِيكُمُ اللَّهُ: الوَصِيَّةُ التقدّم الى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظٍ من قولهم أرضٌ واصية متّصلة النّبات.

كَلَالَةً: الكلالَة في الأصل الإحاطة ومنه الإكليل لإحاطته بالرّأس ومنه الكلالَة لإحاطته بالعدد فالكلالة تحيط بأصل النسب الذي هو الوَلَدُ وقال الرّاغب في المفردات رُوي أَنَّ النَّبِيَّ سَأَلَ عَنْ الْكَلَالَةِ فَقَالَ مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ، وَقَالَ أَيْضاً الْكَلَالَةُ إِسْمٌ لِمَا عَدَا الْوَلَدَ وَالْوَالِدَ مِنَ الْوَرِثَةِ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ هُوَ إِسْمٌ لِمَنْ عَدَا الْوَلَدَ وَسَيَأْتِي شَرْحُهَا فِي التَّفْسِيرِ وَبَاقِي اللَّغَاتِ وَاضِحٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ.

◀ الإعراب

لِلَّذَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ الجملة في موضع نصب بيوصي لأنّ المعنى يفرض لكم أو يشرع في أولادكم والتقدير في أمر أولادكم فَإِنْ كُنَّ الضّمير للمتروكات أي فإن كانت المتروكات ودّل ذكر الأولاد عليه فَوْقَ اثْنَتَيْنِ صفة النساء وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً بالنّصب أي كانت الوارثة واحدة وبالرفع على أنّ، كان، تامّة الْإِصْفُ بالضم والكسر لغتان فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ الجمع هنا للأنثيين لأنّ الأنثيين يحجبان عند الجمهور وعند ابن عباس هو على بابهِ والأنثان لا يُحجبان مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يجوز أن يكون حالاً من السُّدُس تقديره مستحقاً من بعد وصية والعامل الظرف أن يكون ظرفاً أي يستقرّ لهم ذلك بعد إخراج الوصية أَوْ دَيْنٍ أَوْ، لأحد، الشّئيين ولا تدلّ على التّرتيب كذا قيل أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ مبتدأ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نفعاً الجملة خبر المبتدأ فَرِيضَةٌ مصدر لفعل محذوف أي فرض ذلك فريضة وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ كَانَ، تامّة ورجل فاعلها يُوْرَثُ صفة له كَلَالَةً حال من الضّمير في يُوْرَثُ.

وقيل أنها ناقصة ورجل إسمها ويورث خبرها وكلاهما حال أيضاً غير مُضَافٍ حال من ضمير الفاعل في يُوصي نازراً خالداً فيها نارا مفعول ثانٍ ليدخل وخالداً حال من المفعول الأول ويجوز أن يكون صفة، لنار، لأنه لو كان كذلك لبرز ضمير الفاعل لجريانه على غير من هو له ويخرج على قول الكوفيين جواز جعله صفة لأنهم يشترطون إبراز الضمير في هذا النحو من الكلام.

◀ التفسير

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ حَكَمَ الْإِرْثِ إجمالاً فصله في هذه الآية فقال: يُوصِيكُمُ اللَّهُ وَصِيَّةَ اللَّهِ عِبْرَةٌ عَنْ أَمْرِهِ وفرضه أي يأمركم الله ويفرض عليكم والدليل عليه قوله تعالى: وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذِكْرُكُمْ وَصِيَّتُكُمْ بِهِ^(١) أي ذلك يأمركم ويفرض عليكم وعليه فالمعنى يأمركم الله ويعهد اليكم (في أولادكم) أي في توريثهم بعد الموت والخطاب للأحياء بأن يعلموا ويقسموا بينهم التركة إذا نَزَلَ بأحدهم الموت على الوجه المقرر في الشرع، وقيل الخطاب للحكام والقضاة بأن يقسموا بينهم كذلك والأظهر أن الخطاب لجميع الناس كما هو ظاهر الآية فتخصيصه بالقضاة والحكام لا وجه له ثم أن المراد بالأولاد هنا ما يلد حياً ذكراً أو أنثى.

قالت الشافعية الأولاد في الآية وفي كل موضع حقيقة في أولاد الصلب فأما ولد الابن فأتى يدخل فيه بطريق المجاز ولذلك إذا حلف أن لا ولد له وله ولد ابن لم يحنث، وإذا أوصى لولد فلان لم يدخل فيه ولد ولده وأما أبو حنيفة فيقول أنه يدخل فيه أن لم يكن له ولد صلب ومعلوم أن الالفاظ لا

تتغير و قال ابن المنذر ظاهر الآية أنّ الميراث لجميع الاولاد من المؤمن و الكافر فلما ثبت عن رسول الله ﷺ أنّه قال لا يرث المسلم الكافر عليم ان الله اراد بعض فلا يرث المسلم الكافر وبالعكس.

أقول ما ذكره ابن المنذر لا يرجع الى محصلٍ أمّا أولاً فلأنّ الخطاب في الآية للمسلم و الكافر ما دام كونه كافراً و أن كان مخاطباً بهذا الخطاب و غيره من الأحكام الفرعية إلا لا يقدر على العمل في حال الكفر فسطح أن يقال أنّ المخاطب بالآية للعمل بها إنّما هو المسلم لا غيره و عليه فالمراد بقوله، في أولادكم، أولاد المسلمين و أمّا الكفار فهم خارجون عن الآية خروجاً تخصّيصاً لا تخصيصاً فظاهر الآية لا يشمل أولاد الكفار من بدو الخطاب، وثانياً قوله لا يرث المسلم الكافر و لا الكافر المسلم، في حيز المنع فإنّ المسلم يرث الكافر و لا عكس، قال القرطبي قلت في أولادكم، دخل فيهم الأسير في أيدي الكفار فإنّه يرث ما دام تعلم حياته على الإسلام و به قال كافة أهل العلم إلا النخعي فإنّه قال لا يرث الأسير ثمّ قال القرطبي و لم يدخل في عموم الآية ميراث النبي ﷺ لقوله ﷺ لا نورث ما تركناه صدقة و سيأتى بيانه في مريم، و كذلك لم يدخل القاتل عمداً لأبيه أو جدّه أو أخيه أو عمّه بالسنة و إجماع الأمة إنتهى كلامه.

أقول أمّا الأسير فإنّه داخل في الحكم قطعاً و قول النخعي خارج عن قانون الشرع و أمّا ميراث النبي فهو أيضاً داخل في عموم الآية بلا كلام و ذلك لأنّ قوله تعالى: **يُوصِيكُمُ اللَّهُ** عامّ لجميع المسلمين و من المعلوم أنّ الرسول رئيس المسلمين و صدرهم فكيف لم يدخل في عموم الآية ميراثه و أمّا ما رواه من قوله: لا نورث ما تركناه صدقة، فهو حديث مجعول رواه أبو بكر و شهدت به عائشة و تابعها عمر لمصلحة سياسية و هى أخذ فدك و غضبها و الدليل على بطلانه أمّا أولاً فلاّته مخالف لنصّ الكتاب و قد ثبت أنّ الحديث إذا كان مخالفاً للكتاب فأضربوه على الجدار و ثانياً أنّ المسلم يرث المسلم و

المنع يحتاج الى دليل مخرج كالإرتداد و القتل و ما نحن فيه ليس من هذا القبيل فإذا كان الرسول ﷺ في صدر المسلمين وإبنته فاطمة سلام الله عليها أيضاً كذلك بعد أبيه ولم تفعل شيئاً يمنعها عن إرثها فلم لا ترث ولذلك قالت في خطبتها التي خطبت بها في مسجد النبي ﷺ يا بن أبي قحافة ترث في كتاب الله ولا أرث أبي لقد جئت شيئاً فرياً، وقالت عائشة رضي الله عنها في موضع آخر منها، أفخصكم الله بأية أخرج منها أبي، أم هل تقولون أهل ملتين لا يتوارثان و لست أنا وأبي من أهل ملة واحدة أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من ابن عمي ألخ فكيف يقول القرطبي لم يدخل في عموم الآية ميراثه وأما قوله وسيأتي بيانه في مريم وسيأتي بياننا أيضاً في مريم في جوابه إنشاء الله.

لِلذَّكَرِ مِثْلُ مِثْلِ الْأُنثَيَيْنِ أي إذا اجتمع منهم في مرتبة ذكرٌ وأنثى أو ذكور و أناث فللذكر منهم من الميراث مثل حظّ الأنثيين أي سهم الرجل من الميراث مثل سهم الأنثيين فسهم الرجل سهم الأنثى وسهمها نصف سهم الرجل. روي لجهة التضعيف علل منها ما عن الفقيه في الصحيح عن هشام أن ابن أبي العرباء قال لمحمد بن النعمان الأحوال ما بال المرأة الضعيفة لها سهم واحد و للرجل القوي الموسر سهمان قال فذكرت ذلك لأبي عبد الله، فقال عائشة رضي الله عنها أن المرأة ليس عليها عاقلة وليس عليها نفقة ولا جهاد وعدد أشياء غير هذا على الرجل فلذلك جعل له سهمان ولها سهم انتهى.

و عن الكافي عن يونس بن عبد الرحمن عن الرضا رضي الله عنه قال قلت له جعلت فداك كيف صار الرجل إذا مات وولده من القرابة سواء ترث النساء نصف ميراث الرجال وهنّ أضعف من الرجال وأقلّ حيلة فقال رضي الله عنه لأنّ الله فضّل الرجال على النساء بدرجة ولأنّ النساء يرجعن عيلاً على الرجال انتهى.

و روي عن الصادق رضي الله عنه: أنّ الحَبَّاتِ التي أكلها آدم عليه السلام وحواء

كانت ثمانية عشر فأكل آدم اثني عشر وأكلت حواء ستاً فلذلك صار للذكر ضعف الأنثى والله أعلم.

فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَاثًا مَا تَرَكَ

أشار سبحانه الى حكم النساء المنفردات عن الأولاد الذكور بقوله: فَإِنْ كُنَّ أَيُّ فَانْ كُنَّ الأولاد نساءً، فالثانيتين باعتبار الخبر كقولهم من كانت أمك أو باعتبار التأويل بالمولدات والمتروكات وقوله: فَوْقَ اثْنَتَيْنِ أَيُّ ثَلَاثًا فصاعداً وهو صفة نساء أو خبر ثان، فلهنّ، أي للنساء، وأن كُنَّ مائة، ثلثا ما ترك، الميّت يشتركن فيه (وأن كانت واحدة) أي وأن كانت المولودة واحدة فَلَهَا النِّصْفُ أي للمولودة النصف، فالثلثان فرض المتعددات والنصف فرض الواحدة بحسب الأصل وما بقي من الفريضة يرُدّ عليهنّ كما دلّت عليه الأخبار.

وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ

أي أن كان للميّت ولد أو أولاد أبواه حيّين بعد موته فلا بويه لكل واحد منهما السدس، من أصل التركة والباقي للولد أو الأولاد ففي إنحصار الأولاد في الذكور يقسم المال بينهم بالسوية وفي صورة الإنفراد فالمال بعد إخراج سهم الأبوين كلّ له وإن كانوا مختلفين بالذكورية والأنثوية فالمال يقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين فاذا فرضنا أن زيدا مات وله أب وأم وولد وأولاد كذا لك وفرضنا التركة بعد إخراج الدين أن كانت وهكذا سائر المستثنين سمانه درهم ست مائة درهم، فسهم الأب مائة درهم وهو السدس وسهم الأم أيضاً كذلك فيبقى أربع مائة درهم فأن كان الولد منحصر فالمال له وأن كانوا متعددين فالمال يقسم بينهم على ما مرّ بيانه على كتاب الله هذا إذا كان للميّت ولد مع الأبوين فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ أَيُّ أَنْ مَاتَ وَكَانَ وَارِثُهُ منحصرًا بالأبوين ولم يكن له ولد معهما كما في الصورة السابقة فحينئذٍ لامه

الثَّلاثُ والباقي كلُّه للأب كما قال **فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ** وتوضيحه، أَنَّ الثَّلاثَ لِلْأُمِّ في صورة الاجتماع مع الأب وعدم الأولاد للميت، والباقي للأب وأما في صورة الإنفراد بأن كان الوارث منحصراً في الأم فكان لها الثَّلاثُ تسميَةً والباقي يردُّ عليها، ولو كان منحصراً بالأب فالمال كلُّه له بالفرض والفرق بينهما أَنَّ الأم يردُّ عليها الباقي والأب يرث الكلَّ تسميَةً لا بالردِّ هذا إذا لم يكن للميت أخوة. فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ خاصّةً فأنَّهم يمنعونها عمّا زاد عنه توفيراً للأب من جهة العيلة وعليه فما زاد عن السُّدُسِ للأب إذا لا يرث الأخ والأخوة مع وجود الأبوين فالأخوة تُحجب الأم لا الأب إلا أن لهذا الحجب شروط:

الأول: كونهم ذكرين أو ذكر وأختين أو أربع أخوات ويدل على الحجب بالأربع وبالدَّكر أو الأثنين كون الإمرأتين بمنزلة الرّجل في سائر الأحكام ورد بذلك أخبار متعدّدة عن أهل البيت عليهم السّلام مضافاً إلى إجماع الطائفة عليه ولا ينافي ذلك التّصير بصيغة الجمع لأنّه قد ثبت إطلاقها على الاثنين حقيقة بل قد يقال أَنَّ أَقْلَ الجمع أثنان سلّمنا لكن نقول أَنَّ الأخوين مع الإضافة إلى الميت تصير الأخوة ثلاثة ويدل على هذا.

مارواه الشّيخ في الحسن عن أبي العباس عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا ترك أخوين فهم أخوة مع الميت حجباً للأمّ وأن كان واحداً لم يحجب.

وقال عليه السلام: إذا كنَّ أربع أخوات حجبن الأمّ عن الثَّلاثِ لأنّهن بمنزلة الأخوين وأن كنَّ ثلاثاً لم يحجبن انتهى.

على أَنَّ الإستعمال فيه مجازاً لا شك فيه والقرنية فيه هنا إجماع السلف والخلف على ذلك لأنّه لم ينقل إعتبار كون الحجب بثلاثة فصاعداً إلا عن ابن عباس.

الثان: أن لا يكونوا كفرة ولا أرقاء وهو مروي عن أبي عبد الله عليه السلام خلاف فيه بين الأصحاب والمشهور أن القاتل أيضاً ملحق بهما بل نقل عن الشيخ الإجماع عليه وخالف في ذلك الصدوقان وابن أبي عقيل نظراً إلى عموم الآية وعدم دليل صالح للتخصيص.

الثالث: أن يكونوا للأب والام أو للأب ويدل عليه الأخبار مضافاً إلى أنه موضع وفاق بين الأصحاب.

الزابع: كون الأب حياً ويدل عليه سياق الآية ورواية بكير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **الأم لا تنقص من الثلث أبداً إلا مع الولد والأخوة إذا كان الأب حياً** وهذا هو المشهور بين الأصحاب.

الخامس: يفهم منها كونهم منفصلين بالولادة لأن من كان في البطن لا يسمي أخاً عرفاً ويدل عليه مضافاً إلى التعليل المذكور رواية العلابن الفضل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **أنّ الطّفل والوليد لا يحجب ولا يرث إلا ما أذن بالصّراخ ولا شيء أكنه البطن وأن تحرّك إلا ما اختلف عليه الليل والنّهار** وهذا هو المشهور بين الأصحاب بل المخالف في هذه المسألة غير معلوم.

السادس: كونهم أحياء عند موت الموروث فلو إقترن موتها بموته أو إشتبه فلا حجب وهذا هو المتبادر من الآية والروايات.

السابع: يفهم من الآية المغايرة بين الحاجب والمحجوب فلعله شرط في ذلك وهو المعلوم من الأخبار فلو كانت الأم هي رابعة الأخوات فلا حجب كما في المجوس وفي الشبهة كأن وطئ الرجل إبنته فأولدها أخوها لأبيها فمع وجود هذه الشرائط السبعة يثبت الحجب وإلا فلا إذا عرفت ذلك ففي الآية مسائل لا بدّ من التنبية عليها:

أحدها: أن مفهوم الواحدة في قوله: **وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ** يقتضي أن الأنتنتين لا يكون فرضها النصف بل الثلاثين ومفهوم **فَوْقَ اثْنَتَيْنِ** ينافية، توضيحه أن قوله تعالى: **وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً** أي أن كانت المولودة

واحدة فلها النصف ومفهوم هذا الكلام هو أنَّ المولودة أن كانت أثنين فصاعداً مثلاً فليس لها النصف بل لها الثلثان لأنَّ الأمر يدور مدار الثلثين و النصف، وأما قوله قبل ذلك فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ فمفهومه أنَّ النساء لو كنَّ اثنتين مثلاً فلهنَّ النصف لأنَّ الثلثين حقَّ النساء لو كنَّ فوق اثنتين وهو الثلاث فصاعداً وهو واضح ولازم ذلك هو أنَّ النساء لو كنَّ اثنتين كان فرضهما الثلثين والنصف معاً وهو كما ترى أما الثلثان فلكونهما أكثر من واحدة النصف فلكونهما اثنتين وعدم كونهما فوق اثنتين ومن المعلوم أنَّ الجمع بين النصف و الثلثين محال فلو فرضنا أنَّ المال المقسوم ثلاثون قولاً فنصفه وثلثاه يصير خمس و ثلاثون درهما والمفروض أنَّ المال ثلاثون وكيف التوفيق ولذلك صارت المسئلة من العصريات فعن ابن عباس انه قال أنَّ لهما النصف عملاً بمفهوم قوله تعالى: فَوْقَ اثْنَتَيْنِ وفيه نظر لما ذكرناه من التعارض بين المفهومين ولا ترجيح لأحدهما على الآخر، بل الترجيح في جانب الثلثين لوجوه.

أحدها: أنَّه تعالى ذكر أنَّ للذكر مثل حظَّ الأنثيين وهذا ممَّا لا كلام فيه و مقتضاه أنَّ للبنات الواحدة مع أخيها الواحد الثلث فبالطريق اولى أن يكون لها مع أختها الثلث فيكمل لهما الثلثان وعليه فلا يبعد أنَّه تعالى إكتفى بهذا البيان على النص على الثنتين بخصوصهما وصرح بما زاد عليهما وبالواحدة. ثانيها: النصوص الواردة عن أهل البيت عليهم السلام مضافاً الى إجماع الطائفة عليه.

الثاني: أنَّه تعالى ذكر أنَّ للأختين الثلثين فيدل بطريق الأولوية على أنَّ البنيتين كذلك لأنَّهما أمس رحماً وأصق قرابةً ولأنَّهما لا يخلوان من الأثر في حالٍ من الأحوال بخلاف الأختين.

الثالث: قوله: وَلَا يَوْرِيهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ أراد به الجنس الشامل للذكر والأنثى والمنفرد والمتعدد والصلب ولد

الولد غير أن الولد أن كان بنتاً واحدة فما بقى بعد النصف والسدسين يرّد إخماساً إن لم يكن هناك حاجب والأرباعاً وأن كان معهم ذكر أو ذكور أو كان الولد أكثر من واحدة أو كان الولد ذكراً أو ذكوراً فلي لهما سوى السدس والذي يدل على الرّد آية أولوا الأرحام والأخبار وأجماع الطائفة وقد ثبت بطلان القول بالتعصب عندنا.

ويدل على كون الرّد بالطريق المذكورة تساوي الوالدين والولد في القرابة بالنسبة إلى الميت فيكون على نسبة سهامهم.

الرابع: قد دلت الآية على مشاركة الوالدين للأولاد والآية الآتية تدل على مشاركة الزوجين لهم أيضاً فيفهم من ذلك مشاركتهما للوالدين ويدل عليه الأخبار ففي رواية إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام: أربعة لا يدخل عليهم ضرر في الميراث، للوالدين السدسان أو ما فوق ذلك، وللزوج النصف أو الربع، وللمرأة الربع أو الثمن ونحو ذلك من الأخبار وهو مما أجمعت الأمة عليه فعلى هذا لو كان مع الوالدين زوج أو زوجة ولم يكن هناك إخوة كان للأمة ثلث التركة وللزوج أو الزوجة من التركة حصتهما العليا وما بقى منهما يكون للأب وعليه دلت الأخبار عن معدن الوحي وهو الظاهر من إطلاق الآية حيث جعل الله تعالى لها الثلث مع عدم الولد وذهب العامة إلى أن لها ثلث ما بقى بعد حصة الزوجين نظراً إلى قوله: **وَرِثَةُ آبَوَاهُ** وأن المعنى أتهما الوارثان له بلا مشارك لهما مطه وهو ضعيف لأنه تقييد بلا دليل ولأنه ما كان يحتاج إلى قوله: **فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ** ولأنه لا يفهم وحيد ثبوت فريضة الأم مع وجود وارث غير الولد فكيف يكون لها ثلث ما بقى مع كونه سدس الأصل فته.

الخامس: إطلاق الآية مقيد بأمور وهي أن لا يكون الوارث رَقاً ولا كافراً قاتلاً ونحو ذلك من موانع الأثر وهي كثيرة أنهاها في الدروس إلى عشرين.

السادس: المذكور في الآية هو حكم الأولاد من الذكور والأنثى المقطوع بذكوريتهم وأنوثيتهم فأما الخنثى المشكل فلا يبعد إستنباط حكمها من الآية فتعطى النصف من نصيب الذكر والنصف من نصيب الأنثى، وقال بعضهم بالقرعة وبعضهم الى عدّ الأضلاع هذا في غير الحجب وأما فيه فهي بحكم الأنثى قطعاً.

السابع: إطلاق الأولاد في الآية يشمل أولاد الأولاد فيقومون مقام آباءهم ويرث كل واحد منهم نصيب من يتقرب به والأخبار به كثيرة وذهب السيد المرتضى وتبعه جماعة منهم معين الدين المصري وابن إدريس الى أن الأولاد يقتسمون مقاسمة الأولاد من غير إعتبار من يتقربون به فلو خلف بنت ابن و ابن بنت فللذكر الثلثان وللأنثى الثلث ولو كان مع ابن البنت أحد الأبوين أو هما معاً فكما لو كان الأبْن للصلب ولو كانا أو أحدهما مع بنت الأبْن فكما لو كانا أو أحدهما مع البنت للصلب ومستندهم أنهم أولاد حقيقة فيدخلون في معوم، يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ويدل على كونهم أولاداً تحريم حلالهم في قوله و حلالل أبناءكم وتحريم بنات الأبْن والبنت لقوله وبناتكم هذا والمشهور ما ذكرناه أولاً من أنهم يقومون مقام آباءهم فيرث كل واحد منهم من يتقرب به وللبحث فيه مقام آخر.

الثامن: يظهر من الآية أن الورثة يشتركون في جميع التركة لكن خرج من ذلك ما يجيء به أكبر الولد من الذكور لقيام الدليل عليه وهذا الحكم مما انفردت به الإمامية والأخبار في كمية ما يجيء به مختلفة والإقتصار على السيف والخاتم والمصحف وثياب جلده احوط.

مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ أَوْ دِينَ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا

اي ان تقسيم التركة بين الورثة إنما هو بعد وصية الموصى او دينه و عليه فإذا مات يجب إخراجهما عن التركة قبل التقسيم وإختلفوا في تقديم أحدهما

على الآخر فقال قوم بتقديم الوصية على الدين وقال الآخرون بتقديم الدين عليها والمشهور تقديم الدين ولا خلاف عندنا فيه وأن أحاط بالمال.

وأما الوصية فقد قيل أنها مقدمة على الميراث بمعنى أنه يجب إخراجها من التركة أولاً بعد إداء الدين أن كان، ثم تقسيم التركة بين الورثة وقيل بل الموصى له شريك الوارث فله الثلث ولهم الثلثان وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال أنكم تقرأون في هذه الآية الوصية قبل الدين وأن رسول الله صلى الله عليه وآله قضى بالدين قبل الوصية قال الطبرسي رحمته الله بعد نقله ما نقلناه والوجه في تقديم الدين على الوصية في الآية هو أن لفظ، أو، إنما هو لأحد الشيئين أو الأشياء ولا توجب الترتيب فكأنه قال من بعد أحد هذين مفرداً أو مضموماً إلى الآخر وهذا أقولهم جالس الحسن أو ابن سيرين أي جالس أحدهما مفرداً أو مضموماً إلى الآخر انتهى.

وأما قوله: **أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ** قيل في معناه أنكم لا تدرون أي هؤلاء أنفع لكم في الدنيا فتعطونه من الميراث ما يستحق ولكن الله قد فرض الفرائض على ما هو عنده حكمة، عن مجاهد.

ثانيها: لا تدرون بأيهم أنتم أسعد في الدنيا والدين والله يعلمه فأقسموه على ما بينه من المصلحة فيه، عن الحسن.

ثالثها: لا تدرون أن نفعكم بترية آباءكم لكم أكثر أم نفع آباءكم بخدمتكم أياه وإنفاقكم عليه عند كبره أكثر، عن الجبائي.

رابعها: أن المعنى أطوعكم لله من الآباء والابناء أرفعكم درجة يوم القيامة لأن الله يشفع المؤمنين بعضهم في بعض فأن كان الوالد أرفع درجة عند الله في الجنة من ولده رفع الله إليه ولده في درجته لتقر بذلك عينه وأن كان الولد أرفع درجة من والديه رفع الله والديه إلى درجته لتقر بذلك أعينهم، عن ابن عباس.

خامسها: لا تدرون أي الوارثين والمورثين أسرع قوماً فيرثه صاحبه فلا تتموا موت الموروث ولا تستعجلوه، عن أبي مسلم.

ذكر هذه الوجوه الطبرسي رحمته الله في تفسيره قَرِيبَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا.

قوله: قَرِيبَةً منصوب على المصدرية لتأكيد الجملة الأولى أي فرض الله ذلك فرضاً أن الله كان عليمًا، بمصالح العباد (حكيمًا) في أفعاله يضع كل شيء في موضعه.

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ

الخطاب في قوله لكم، للرجال، والأزواج جمع الزوج، بين الله تعالى في هذه الآية ميراث الزوج والزوجة مع وجود الولد و عدمه ثم حكم الكلالة فنقول نصت الآية الكريمة على أن لا يحجب الزوج عن الربع والزوجة عن الثمن أحد وأنه لا يحجبهما عن النصيب الأعلى إلا الولد بشرط أن يكون وارثاً ذكرًا كان الولد أو أنثى فتدل الآية على مشاركتهما للاولاد مطلقاً وأن نزلوا للأنباء علواً ولسائر الورثة بالطريق الأولى وفي قوله: لَهُنَّ دلالة على أن المعتبر في هذه الصورة ولدها وأن لم يكن ولدًا للزوج كما أن في قوله: لَكُمْ دلالة على أن المعتبر ولده وأن لم يكن ولدًا لها وهذه الأحكام لا خلاف فيها، قيل أن لفظ الأزواج تناول الأحرار والعبيد والمسلمين والكفار والنكاح الدائم والمنقطع لكن خرج غير الأحرار وغير المسلمين بالنص والأجماع على كون الكفر والرق مانعاً من الميراث وأما النكاح المنقطع فباختلاف فيه الأصحاب لأختلاف الأخبار فيه وأظهرها عدم التوثرث إلا مع شرطه إذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير ألفاظ الآية فنقول إذا ماتت الزوجة ولم يكن لها ولد سواء كان الولد من هذا الزوج الوارث أم من غيره فللزوج نصف ما ترك وأن كان لها ولد فله أي للزوج الربع والى هذين الحكمين أشار الله تعالى بقوله: وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ الى قوله: فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ أي أن الميراث بعد إخراج الوصية والدين مر الكلام فيهما في الآية السابقة و قلنا أن إخراج الدين مقدم على الوصية هذا إذا كان

الميت زوجة والوارث الزوج فلو عكس الأمر بأن مات الزوج وورثت الزوجة فلها الربع إن لم يكن للزوج ولد منها أو من زوجة غيرها، وأما إذا كان للزوج ولد منها أو من غيرها فلها الثمن من التركة بعد الدين والوصية وإلى هذا الحكم أشار بقوله:

وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثَّمَنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا
ويجب التنبيه على أمور.

أحدها: أن إطلاق الزوج والزوجة يتناول المقصود عليها وأن لم يحصل الدخول بها فترثه ويرثها ويتناول المطلقة رجعيًا لأنها في حكم الزوجة فترث وتورث ما دامت في العدة نعم يستثنى من الحكم الأول المريض فإنه مشروط بالدخول فأن مات في مرضه ولم يدخل فلا مهر ولا ميراث ويدل عليه حسنة زرارة عن أحدهما عليه السلام قال ليس للمريض أن يطلق وله أن يتزوج فأن هو تزوج ودخل بها وهو جائز وإن لم يدخل بها حتى مات في قرصة قطيلقه باطل ولا ولا ميراث انتهى. ويلحق بالحكم الثاني ما لو طلقها وهو وفيها فأنها ترثه إلى سنته ما لم يبرأ من قرصه أو تزوج المثرة.

الثاني: أن الزوجة ترث من جميع التركة وأنها لا تحرم من شيء منها إلا أن الأخبار الواردة في الباب دلت على حرمانها من بعض الأشياء.

حسنة زرارة وبكير وفضيل وبريد ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله عليه السلام: أن المرأة لا ترث من تركه زوجها من تربة دارٍ أو أرضٍ إلا أن يقوم الطوب والخشب قيمة فتعطى ربعها أو ثمنها أن كان من قيمة الطوب والجذوع والخشب انتهى. صحيحة زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: أن المرأة لا ترث مما ترك زوجها من القرى والدور والسلاح والدواب شيئاً وترث من المال و

الفرش والثياب ومتاع البيت مما ترك ويُقَوِّم النقص والأبواب والجذوع والقصب فتُعْطَى حَقَّهَا مِنْهُ.

رواية أخرى لمحمد بن مسلم قال قال أبو عبد الله تَرِثُ الْمَرْأَةُ الطَّوْبَ وَلَا تَرِثُ مِنَ الرَّبَاعِ شَيْئاً قَالَ قُلْتُ كَيْفَ تَرِثُ مِنَ الْفُرْعِ وَلَا تَرِثُ مِنَ الرَّبَاعِ شَيْئاً فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ لَهَا مِنْهُمْ نَسَبٌ تَرِثُ بِهِ وَإِنَّمَا هِيَ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فَتَرِثُ مِنَ الْفُرْعِ وَلَا تَرِثُ مِنَ الْأَصْلِ وَلَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ دَاخِلٌ لِسَبَبِهَا.

ما رواه يزيد الصائغ قال سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: النِّسَاءُ لَا يَرِثُنَّ مِنْ رِبَاعِ الْأَرْضِ شَيْئاً وَلَكِنْ لَهُنَّ قِيَمَةُ الطَّوْبِ وَالْخَشَبِ قَالَ قُلْتُ أَلَا النَّاسُ لَا يَأْخُذُونَ بِهَذَا قَالَ إِذَا وَلَّيْنَا ضَرْبِنَاهُمْ بِالسُّوْطِ فَأَنْتَهَوْا وَإِلَّا ضَرْبِنَاهُمْ بِالسَّيْفِ انْتَهَى.

ما عن حماد بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام: أَنَّمَا جُعِلَ قِيَمَةُ الْخَشَبِ وَالطَّوْبِ لئَلَّا يَتَزَوَّجْنَ فَيَدْخُلَ عَلَيْهِمْ مِنْ يَفْسُدُ مَوَارِيثُهُمْ.

ما كتبه الرضا عليه السلام إلى ابن سنان، علة أن المرأة لا تَرِثُ مِنَ الْعَقَارِ شَيْئاً إِلَّا قِيَمَةَ الطَّوْبِ وَالنَّقْضِ لِأَنَّ الْعَقَارَ لَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُهُ وَقَلْبُهُ وَ الْمَرْأَةُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَقْطَعَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ مِنَ الْعِصْمَةِ وَيَجُوزُ تَغْيِيرُهَا وَتَبْدِيلُهَا وَلَيْسَ الْوَلَدُ كَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ التَّفْصِي مِنْهُمَا وَ الْمَرْأَةُ يُمْكِنُ الْإِسْتِبْدَالُ بِهَا فَمَا يَجُوزُ أَنْ يَجِيَّ وَيَذْهَبَ كَانَ مِيرَاثُهُ فِيمَا يَجُوزُ تَبْدِيلُهُ وَتَغْيِيرُهُ إِذَا شَبَّهَهَا وَكَانَ الثَّابِتُ الْمَقِيمُ عَلَى حَالِهِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الثَّبَاتِ وَالْقِيَامِ انْتَهَى.

والأخبار في الباب كثيرة جداً وفيما نقلناه كفاية لأهل الحق ثم أن هذه الروايات هي المقيدة لإطلاق الآية وبها أخذ فقهاءنا كلهم إلا ابن الجنيدي فإنه ذهب إلى أنها لا تحرم من شيء من التركة ولا حجة فيه في مقابل الإجماع وتحقيق الكلام في الفقه، ثم بناءً على المشهور فالأظهر حرمانها من نفس

الأرض عيناً وقيمة سواء كانت الأرض بياضاً أو مشغولة بزرع أو شجر أو بناء فحرامتها من أعيان ما فيها من الأشجار والألات والأبنية وتعطي قيمتها بل لا يبعد حرمانها من الأشجار عيناً وقيمة لدخولها في العقار والقرى.

الثالث: يظهر من الآية أنه لا يزيد الرجل على النصف ولا المرأة على الربع في حال من الأحوال وهو كذلك مع وجود مشارك من الورثة بصريح الأخبار والإجماع وأما في صورة وجود المُشارك فأن كان الميّت هو الزوجة فالظاهر أنّ الزوج يرث المال كلّ نصفه بالتسمية ونصفه الآخر بالردّ عليه وهذا هو المشهور بين الأصحاب لما روي محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام: في إمراة توفيت ولم يعلم لها أحد ولها زوج قال عليه السلام الميراث لزوجها انتهى. ونحوها من الأخبار وأما أن كان الميّت هو الزوج فالظاهر أنّه لاردّ عليها بل يكون الباقي للإمام يدفع اليه في أيام حضوره وأما في غيبته فيكون الحكم فيه كالحكم في سائر أمواله عليه السلام وهذا هو المشهور بين الأصحاب ثم أنّ حكم الواحدة من الأزواج والثنتين والثلاث والأربع في الربع أن لم يكن له ولد ولا ثمن أن كان له ولد، واحد بمعنى أنّ الربع أو الثمن يقسم بينهما لأنّ الله عزّ وجلّ لم يفرق بين حكم الواحدة فيهنّ وبين حكم الجميع كما فرّق بين حكم الواحدة من البنات والواحدة من الأخوات وبين حكم الجميع منهنّ.

وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ

اختلف أهل اللغة في معنى الكلالة فقال الفراء الكلالة ما خلى الوالد والولد سموا كلاله لإستدراحتهم بنسب الميّت الأقرب فالأقرب من تكلفة الشئ إذا إستدار فكلّ وارث ليس بوالد للميّت ولا ولد له فهو كلالة مؤرثة.

وعن الصّحاح الكلّ الذي لا ولد له ولا والد يقال منه كلّ الرجل يكلّ كلاله والعرب تقول لمن يرثه كلاله أي لم يرثه عن عرض بل عن قرب وإستحقاق قال الفرزدق:

ورثتم فتاة الملك غير كلاله عن ابن مناف عبد شمس وهاشم
وفي القاموس الكلاله الإعياء ومن لا ولد له ولا والد والأكليل في التاج و
شبهه عصابة تزين بالجواهر.

وعن معاني الأخبار في الصحيح بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال الكلاله
الكلالة ما لم يكن والد ولا ولد.

وفي الصحيح عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال اذا ترك الرجل
أباه وأمه وابنه وابنته أو ترك واحداً من هؤلاء الأربعة فليس الذين هم عني
الله قل الله يفتيكم في الكلاله فظهر مما ذكرناه أن الكلاله هم الأقارب غير
الوالد والولد سموا بذلك إعتباطاً وإرتجالاً أو أخذاً من الأكليل لإستدارتهم
بالنسب وخلو الوسط عن الوالد والولد أو من الكلال وهو الأعياء فكأنهم
لتنالهم الميراث من بعد على إعياء وضعف وتطلق على الوارث والموروث
من جهة إنتساب كل واحد منهما الى الآخر وهى مصدر تناول الذكر والأنثى و
إنتصابه فى الآية لأنه خبر (لكان) ورجل اسمها ويورث صفة للرجل او امرأة
عطف عليه والمعنى وان كان الموروث كلاله ويجوز ان (كان) تامّة و(كلالة
حالا) من الضمير فى يورث والمعنى ان وجد رجل مورث فطلّل النسب اذا
عرفت ذلك فنقول معنى الآية وأن كان رجل مورث أو امرأة مورثة، كلاله، و
له، أي وللرجل أو للمرأة، وإكتفى بحكم الرجل لإقتضاء العطف إشتراكهما
فيه أن يكون مرجع الضمير فى، وله، الكلاله الشاملة للرجل و المرأة بإعتبار
موصوفها وهو الميت أو الموروث أي وللميت أو الموروث الكلاله أخ أو
أخت فلكل واحد منهما، أي لكل واحد من الأخ والأخت السُّدُس من التركة
وَإِنْ كَانَ أَي أَن كَانَ مِنْ يَنْتَسِبُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ أَي أَكْثَرَ مِنَ الْأَخِ وَالْأُخْتِ أَي
أَخَوَيْنِ فِصَاعِدًا أَوْ أُخْتَيْنِ فِصَاعِدًا أَوْ هُمَا مَعًا فَهُمُ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ أَي فَلَهُمُ
الثَّلَاثُ فِرْصَةً يَشْتَرِكُونَ فِيهِ وَيَقْتَسِمُونَهُ عَلَى السَّوِيَّةِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي
بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ نَسَبَ عَلَى الْحَالِ وَالْعَامِلِ فِيهِ، يوصي أي يوصي بها

حال كونه غير مضار فالإضرار راجع الى الوصية والذين معاً أما في الوصية فبأن يزيد على الثلث، وأما في الذين فبالاقرار به في مرضة لاجل الافرار بالورثة أي أن يقتسم التركة بعد إخراج الذين والوصية كما مرّ وصية نصب على المصدر في موضع الحال والعامل، يوصيكم، صحّ وصيّة من الله والله عليمٌ حلیمٌ أي أنّ ذها الحكم وغيره من الأحكام فرضٌ عليكم من الله تعالى وأنما قلنا ذلك لما مرّ سابقاً أنّ الوصية من الله معناها الفرض والوجوب ثمّ أنّ المراد بالأخوة في المقام الأخوة من جانب الأمّ لأنهم يتساوون في الميراث و أمّا الأخوة من طرف الأب فلا وحيث قال في الآية فهم شركاء في الثلث، علمنا أنّ المراد الأخوة من طرف الأمّ فهم المرادون في الآية، ويدلّ على ذلك ما رواه في الكافي عن بكير بن أعين قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام امرأة تركت زوجها وأخوتها لأمّها وأخوتها لأبيها فقال عليه السلام للزوج النصف ثلاثة أسهم وللأخوة والأخوات من الأمّ الثلث الذكر والأنثى فيه سواء وبقي سهم فهو للأخوة والأخوات من الأب للذكر مثل حظّ الأنثيين لأنّ السهام لا تعول ولا تنقص الزوج من النصف ولا الأخوة من الأمّ من ثلثهم لأنّ الله عزّ وجلّ يقول فأن كانوا أكثر فهم شركاء في الثلث وأن كانت واحدة فلها السدس والذي عني الله في قوله: وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أُنْمَا عَنِي بِذَلِكَ الأخوة والأخوات من الأمّ خاصّة هذا تمام الكلام في تفسير الآية إجمالاً والتفصيل موكول إلى كتب الفقهية.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

قالوا، تلك بمعنى، هذه، أي هذه أحكام قد بينها لكم لتعرفوها وتعملوا بها ومن يطع الله ورسوله، في قسمة الموارث بل في جميع الأحكام ويعمل بها كما أمره الله تعالى: يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، جزاء بما

عمل و أطاق فَأَنَّ الْجَنَّةَ لِلْمُطِيعِ الْعَامِلِ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا فَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَ ذَلِكَ، أَيِ ذَلِكَ الْخُلُودِ فِيهَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهُ وَلَا دُثُورَ.

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَتَجَاوَزْ وَيَخَالِفْ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، يُدْخِلُهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا أَيُّ أَنَّ اللَّهَ سَيَدْخِلُهُ النَّارَ لِعَصْيَانِهِ وَتَمَرُّدِهِ خَالِدًا فِيهَا بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبَدًا وَ لَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ أَيُّ مِضَافًا إِلَى دُخُولِهِ النَّارِ لَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ فِيهَا أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُ.

قَالُوا سَمَاءٌ مُهِينًا لِأَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُهُ عَلَى وَجْهِ الْإِهَانَةِ كَمَا أَنَّهُ يَثِيبُ الْمُؤْمِنَ عَلَى وَجْهِ الْكَرَامَةِ، وَقَدْ حَمَلَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ آيَةَ عَلَى مَنْ تَعَدَّى حُدُودَ اللَّهِ وَ عَصَاهُ مُسْتَحْلًا لِذَلِكَ وَ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا كَافِرًا وَ أَنَّمَا حَمَلَهَا عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ بَعْصِيَانَهُ لَا يَكُونُ مُخَلَّدًا فِي النَّارِ، وَ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ أَيُّ دَلِيلٍ مِنَ الْعَقْلِ أَوْ النَّقْلِ دَلٌّ عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَكُونُ مُخَلَّدًا فِي النَّارِ حَتَّى نَحْتَاجَ إِلَى حَمْلِ آيَةِ عَلَى خِلَافِ ظَاهِرِهَا مَعَ أَنَّا نَعْلَمُ عِلْمًا لَا شَكَّ لَنَا فِيهِ أَنَّ فِي الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ عَصْرِ وَ زَمَانٍ يَوْجَدُ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ ذَنْبًا مِنَ الْكُفَّارِ أَلَيْسَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مِلْجَمٍ وَ عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ وَ ابْنُ زِيَادٍ وَ مَعَاوِيَةُ وَ يَزِيدُ وَ شَمْرُ ذِي الْجَوْشَنِ وَ أَمْثَالُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ أَنَّهُمْ أَشَدُّ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْكُفَّارِ وَ هَكَذَا أَمْثَالُهُمْ نَعَمْ لَوْ قَالَ قَائِلٌ أَنَّ عِلَّةَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ هِيَ الْكُفْرُ لَا غَيْرَهُ مِنَ الْمَعَاصِي فَالْمُسْلِمَ لَا يَكُونُ مُخَلَّدًا فِيهَا وَ أَنَّى لَهُ بِإِثْبَاتِ ذَلِكَ.

وَالَّذِينَ يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ
فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا
فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّهِنَّ الْمَوْتُ
أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا
مِنْكُمْ فَاذْوَهْمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا
عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ
عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ
يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ
كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ
لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ
الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ
وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)

◀ اللغة

وَالَّذِينَ: جمع التي وكذلك اللواتي.

الْفَاحِشَةُ: الفحش و الفحشاء و الفاحشة ما عظم قبحه من الافعال و
الاقوال و المراد بها في الآية الزنا و الباقي واضح.

◀ الاعراب

وَالَّذِينَ: موقعها الرفع بلا ابتداء أو يُجْعَلَ اللَّهُ أو عاطفة و التقدير او الى
ان يجعل الله لهن يجوز أن يتعلّق بيجعل و أن يكون حالاً من، سبيلاً، إِنَّمَا
التَّوْبَةُ مبتدأ وفي الخبر وجهان: أحدهما هو عَلَى اللَّهِ أي ثابتة على الله فعلى

هذا يكون لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ حَالاً مِنَ الضَّمِيرِ فِي الظَّرْفِ وَهُوَ قَوْلُهُ عَلَى اللَّهِ، وَالْعَالُ فِيهَا الظَّرْفُ أَوْ الْإِسْتِقْرَارُ.

وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ فِي مَوْضِعِهِ وَجِهَانِ:

أحدهما: هو جَزْ عَطْفُهُ عَلَى الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَيْ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ، الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مَبْتَدَأً وَخَبَرَهُ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ وَاللَّامُ لَامُ الْإِبْتِدَاءِ وَلَيْسَتْ لِلنَّفْيِ.

◀ التفسير

بعد بيان حكم الميراث للرجال والنساء بين حكم الحدود في النساء فقال: وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ إِنْتَقَ الْمَفْسُرُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمَا فِي الْمَقَامِ الزَّانَاكَانَتِ بِحَسَبِ اللَّغَةِ أَعْمَ مِنْهُنَّ نِسَاءُكُمْ أَيْ أَنَّ النِّسَاءَ اللَّاتِي يَزِينُ فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ أَيْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْعُدُولِ وَالْخُطَابِ لِلْحَاكِمِ وَالْأُثْمَةُ فَأَنْ إِجْرَاءَ الْحُدُودِ يَحْتَاجُ إِلَى أَذْنِ الْحَاكِمِ الشَّرْعِيِّ فَلَا يَجُوزُ لغيرِ الْحَاكِمِ إِجْرَاءُ الْحَدِّ عَلَى الْمَشْهُورِ وَالْمَعْنَى أَطْلَبُوا أَرْبَعَةً مِنَ الشُّهُودِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ عَدَمِ الْإِقْرَارِ وَقِيلَ أَنَّ الْخُطَابَ لِلزَّوْجِ فِي نِسَاءِهِمْ أَيْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَقْوَى وَنَقَلَ الرَّازِي عَنْ أَبِي مُسْلِمٍ الْأَصْفَهَانِي أَنَّهُ قَالَ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ السَّحَاقَاتُ وَحُدُّهَا الْحَبْسُ إِلَى أَنْ تَمُوتَ وَهَذَا الْقَوْلُ مُخَالَفٌ لِإِجْمَاعِ الْمَفْسِّرِينَ إِذْ لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ فَإِنْ شَهِدُوا أَيْ فَإِنْ شَهِدَ الشُّهُودُ عَلَى الزَّانَا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ أَيْ فَأَحْبِسُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ هَذِهِ أَوَّلُ عَقُوبَاتِ الزَّانَا وَكَانَ هَذَا فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ حَتَّى يَتَوَقَّعَنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا أَيْ حَتَّى يَدْرِكَهُنَّ الْمَوْتُ فَيَمْتَنَ فِي الْبُيُوتِ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا قَالُوا لِمَا نَزَلَ قَوْلُهُ: أَلْزَانِيَّةٌ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ^(١) قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: خَذُوا عَنِّي خَذُوا عَنِّي قَدْ

جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، الْبَكَرَ بِالْبَكَرِ وَالثَّيْبَ بِالثَّيْبِ الْبَكَرَ تَجْلِدُ وَتَنْفَى وَالثَّيْبُ تَجْلِدُ وَتَرْجُمُ.

في الآية مسائل.

الأولى: هذه الآية منسوخة عند جمهور المفسرين.

وهو المروى عن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله فقد روى العياشي في تفسيره عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن هذه الآية: وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ إِلَى قَوْلِهِ: سَبِيلًا قَالَ عليه السلام: هذه منسوخة قلت كيف كانت قال عليه السلام كانت المرأة إذا فجرت فقام عليها أربعة شهود أدخلت بيتاً ولم تحدث ولم تكلم تجالس وأتيت بطعامها وشرابها حتى تموت قال أو يجعل الله لها سبيلاً، فقال عليه السلام جعل السبيل الجلد والرجم والإمساك في البيوت. وروى في أصول الكافي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام: في حديث طويل يقول فيه و سورة النور أنزلت بعد سورة النساء و تصديق ذلك أن الله عز وجل أنزل عليه في سورة النساء وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ إِلَى قَوْلِهِ: سَبِيلًا والسبيل الذي قال عز وجل هو سورة أنزلناها وفرضناها إلى قوله وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين، و في غوالي اللبالي قال النبي صلى الله عليه وآله خذوا عني جعل الله لها سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم.

الثانية: قوله: يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ أي يفعلنها وفي نسبه اليهن دلالة على أن المكروهة على الفعل لا يكون عليها هذا الحكم لأنها لم تفعل الفعل بإختيارها بل أكرهها غيرها عليه ويدل على رفع الحكم عنها حديث الرفع أيضاً وهو قوله صلى الله عليه وآله: رفع عن أمتي تسعة وعد منها ما استكرهوا عليه.

الثالثة: قوله: نِسَاءَكُمْ قيل المراد بهن المؤمنات وقيل الزوجات والأول أظهر وأوفق بعموم الآية لأن الحكم عام كما تقتضيه الروايات.

الرابعة: قوله: فَاسْتَشْهِدُوا والخطاب لحكام الشرع كما مر الكلام فيه صريحة الدلالة على أن شهود الزنا ينبغي أن تكون أربعة وفي قوله منكم، دلالة على أنه يشترط فيهم الإسلام والدكورة وأما سائر الشروط المعتبرة فيه فتعلم من دليل آخر.

الخامسة: مقتضى الآية أن الإمساك في البيوت عقوبة وحدّ لهنّ وهو الذي دلّت عليه رواية أبي بصير المذكورة وقيل أن ذلك ليس على وجه الحد بل صيانة لهنّ ومحافظة عليهنّ من أن يفعلن مثل ذلك الفعل.

السادسة: في قوله: أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا دلالة على أن هذا الحكم من قبيل المعنى بغاية من أول الأمر فليس من الفسخ المصطلح المشروط فيه التأبید.

وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا

وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ قال الحسن وعطا المراد بقوله: وَالَّذَانِ الرَّجُل والمرأة، وقال السدي وابن زيد هما البكران من الرجال والنساء وقال مجاهد هما الرجلان الزانيان نقل هذه الأقوال في التبيان ثم قال مكي قال الرماني قول مجاهد.

لا يصح لأنه لو كان كذلك لم يكن للتثنية معنى لأنه أتما يجيء الوعد والوعيد بلفظ الجمع لأنه لكل واحدٍ منهم أو بلفظ الواحد لدلالته على الجنس الذي يعمّ جميعهم فأما التثنية فلا فائدة فيها ثم قل الرماني والأول أظهر وقال أبو مسلم هما الرجلان يخلوان بالفاحشة بينها وروى عن النبي ﷺ قال قال السحاق زنا النساء بينهنّ ومباشرة الرجل للرجل الزنا ومباشرة المرأة للمرأة

زناء قال ولا يعرف فى كلام العرب جمع بين الذكر والانثى فى لفظ التذكير اذا تقدمه ما يدل عليه كقوله: **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ** ثم قال، أعد الله لهم، والى هذا التأويل فى معنى الرجلين ذهب أهل العراق فلا يحدون للوطي وهذا قول بعيد والذي عليه جمهور المفسرين أن الفاحشة فى الآية، الزناء فقول أبى مسلم ومجاهد لا سبيل اليه بقى فى المقام قولان:

أحدهما: أن المراد بقوله واللذان، الرجل والمرأة.

الثانى: أن المراد بهما البكران وهو قول السدى.

الأول: مردود لأن الرجل والمرأة اذا أتيا بالفاحشة أى الزناء ليس حكمهما فى جميع الموارد ما ذكره فى الآية وهو قوله: **فَأَذُوهُمَا اللَّهُمَّ** إلا أن يقال كان الحكم فيهما فى أول الأمر كذلك ثم نسخ، بقى فى المقام قول واحد وهو أن المراد بهما البكران ويؤيده ما ذكر فى آخر الرواية التى رواها العياشى عن أبى بصير عن أبى عبد الله عليه السلام قال قوله: **وَالَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَلَا إِلَهَ نَعْنِي** البكر اذا أتت الفاحشة التى أنتتها هذه الثيب، فأذوهما، قال تحبس، فأن تابا وأصلحا فأن الله كان تواباً رحيماً.

قال صاحب آيات الأحكام بعد نقله ما نقلناه، مقتضى هذه الرواية أن أية الأولى: **وَالَّذَاتِي يَأْتِيَنَّهَا الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ** فى الثيب من النساء وهذه الآية، فى البكر منهن وأن حكمها معاً الحبس وفيه إشكال لأنه عبر تعالى بصيغة تثنية المذكر فلا يناسب هذا التفسير مع أنه عبر هناك بالحبس فى البيوت وهنا بالإيذاء ثم قال ويمكن التوجيه بأن يقال المراد بقوله عليه السلام يعنى البكر، الجنس الشامل للذكر، والأنثى أى الزانى والزانية كما قاله جمع من المفسرين ويكون إتيان الصيغة بصورة المذكر من باب التغليب فتكون الآية الأولى لبيان حكم الثيبين وأنه حبس مؤبد فى بيت كما وصف وهذه الآية لبيان حكم البكرين وأنه حبس غير مقيد بكونه على الوجه المذكور فى الآية الأولى ولا يخفى ما فيه من التكليف وعلى كل حال هي منسوخة ثم قال، و

قال علي بن إبراهيم في تفسيره كان في الجاهلية اذازنى الرجل والمرأة تحبس في بيت الى أن تموت ثم نسخ ذلك بقوله: **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي** انتهى.

ما أردنا نقله من آيات الأحكام وقال بعضهم أن المراد بالآيتين شيء واحد و أن هذه الآية كانت سابقة على الأولى نزولاً وكانت عقوبة الزنا، الإيذاء ثم نسخ بالحبس ثم نسخ بالجلد والرجم وإستقر الحكم على ذلك، وقال الآخرون أن الآية الأولى لبيان حكم السحق والثانية لبيان حكم اللواط وأن حكمها باق غير منسوخ والى هذا التأويل ذهب أهل العراق فهذه هى الأقوال المنقولة عنهم في الآية.

أقول ومن المحتمل أن تكون الآية الأولى لبيان حكم الزنا بالنساء بعد الشهادة والثانية أيضاً لبيان حكم الزنا قبل الشهادة وبعبارة أخرى كان الحكم في الصدر الأول قبل النسخ حبس الزانية في البيت بعد شهادة الشهود وأما قبلها فكان الحكم الإيذاء لعدم ثبوت الزنا شرعاً وكيف كان فالآيتان منسوختان بإجماع المفسرين و عليه فتطويل الكلام فيهما لا طائل تحته.

و أما قوله: **فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا** معناه أن رجعا عن الفاحشة بالتوبة وأصلحا العمل فيما بعده، فأعرضوا عنهما، أي أعرضوا عن أذاهما وأصفحوا عنهما، أن الله كان تواباً رحيماً، أي أنه تعالى يقبل التوبة عن عباده ويرحمهم، قالوا في الآية دلالة على نسخ القرآن بالسنة لأنها نسخت بالجلد والرجم وقد ثبت بالسنة وأما من لم يجوز نسخ القرآن بالسنة يقول أن هذه الآية نسخت بالجلد في الزنا وأضيف الرجم اليه زيادة لا نسخاً وأما الأذى المذكور في الآية منسوخ لأن الجلد والرجم من الإيذاء ثم بعد ما أشار الله تعالى في آخر الآية الى التوبة بقوله: **إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً** فصل الكلام فيها وبين شرائطها فقال:

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً.

إِعلم أَنَّ التَّوبَةَ بفتح التَّاء مصدر قولك تاب يتوب و تَوْبَةً ومعناها الرَّجُوع يقال تاب اذا رجع عَمَّا كان عليه و أَمَّا في الشَّرِيعَةِ المقدَّسة فهي ترك الذَّنْب و الرَّجُوع الى الطَّاعَةِ قال الرَّاعِب في المفردات التَّوب ترك الذَّنْب على أَجْمَل الوجوه و هو أبلغ وجوه الإعتذار فَأَنَّ الإعتذار على ثلاثة أوجه:

أَمَّا أن يقول المعتذر لم أفعل، أو يقول فعلت لأجل كذا أو فعلت وأساءت و قد أفلعت و لا رابع لذلك و هذا الأخير هو التَّوبَة و التَّوبَة في الشَّرْع ترك الذَّنْب لقبحه والذَّم على ما فرط منه والعزيمة على ترك المعاوذة و تدارك ما امكنه يتدارك من الاعمال بالاعادة فان اجتمعت هذه الاربعة فقد كمل شرائط التَّوبَة انتهى كلامه.

و عن امير المؤمنين التَّوبَة تجمعها ستَّة اشياء على الماضي الذَّنْب الندامة و للفرائض بالاعادة فقول إجتمعت ولفرائض الإعادة، وردَّ المظالم، و إستحلال الخصوم، و أن تعزم أن لا تعود، و أن تربي نفسك في طاعة الله كما ربَّيتها في معصية الله، و أن تذكها مرارات الطَّاعَةِ كما أدققتها حلالة المعصية، اذا عرفت حقيقة التَّوبَة و شرائطها إجمالاً فنقول قوله: **إِنَّمَا التَّوبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ** كلمة، أنما، تفيد الحصر أي أَنَّ التَّوبَة لا تكون بغير ذلك و اختلفوا، في معنى الجهالة في الآية، نُقل عن مجاهد و قتادة و ابن عباس و عطا و ابن زيد أنَّهم قالوا هو أن يفعلوها على جهة المعصية لله تعالى لأنَّ كُلَّ معصية لها جهالة لأنَّه يدعو اليها الجهل ويزينها للعبد و أن كانت عمداً.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

الثاني: أَنَّ المعنى أي بحال كحال الجهالة التي لا يعلم صاحبها ما عليه في مثلها من المضرة.

الثالث: قال الفراء معنى، بجهالة أي لا يعلمون ما فيه من العقوبة.

الرابع: أي وهم يجهلون أنَّها ذنوب و معاصي إختاره الجبائي قال يفعلونها بجهالة أَمَّا بتأويل يخطئون فيه أو بأن يفرطوا في الإستدلال على قبحها.

قال الزماني، هذا ضعيف لأنه خلاف إجماع المفسرين قال أبو العالية أن أصحاب رسول الله كانوا يقولون، كل ذنب أصابه عبد فجهالة وقال قتادة أجمع أصحاب رسول الله على ذلك انتهى ما ذكره الشيخ في التبيان. وقال القرطبي، السوء في هذه الآية وفي سورة الأنعام، أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة، يعلم الكفر والمعاصي فكل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصية.

وروي عن الضحاك ومجاهد أنهما قالوا الجهالة هنا العمد وقال عكرمة أمور الدنيا كلها جهالة وقال الزجاج إختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية وغير ذلك من الأقوال المذكورة في تفاسيرهم.

أقول المسألة أوضح من أن تخفى على أحد من العقلاء فلا نحتاج في تفسير الجهل الى هذه الأقوال الخارجة عن موضوع البحث وذلك لأن الجهل ضد العلم فكل فعل يفعله الفاعل لا يخلو حاله من أمور:

أحدها: أنه يعلم ما يفعل موضوعاً وحكماً كما اذا تصرف في مال الغير بدون إذن صاحبه وهو عالم بكونه موضوعاً للغضب المحرم في الشريعة فله علمان علم بكونه غصباً وهو العلم بالموضوع وعلم بكونه حراماً وهو العلم بالحكم فهو عالم بالغضب موضوعاً وحكماً.

ثانيها: أنه لا يعلم ما يفعل لا موضوعاً ولا حكماً كما اذا لم يعلم أنه غصب ثم لم يعلم أنه حرام فهو جاهل بالغضب موضوعاً وحكماً.

ثالثها: أنه عالم بالموضوع وجاهل بالحكم أي أنه يعلم أن هذا من مصاديق الغضب ولكن لا يعلم حرمة في الشريعة المقدسة.

رابعها: عكس الثالث أي أنه يعلم بحرمة الغضب ولا يعلم أنه من مصاديق الغضب فهذه أمور أربعة لا يخلو كل فعل منها في صورة العلم والجهل لأن العلم مقابل للجهل فاذا جاء التقسيم في الجهل جاء في العلم أيضاً وبالعكس اذا عرفت هذا فنقول اذا عصي المكلف فإن كان جاهلاً بالموضوع

والحكم معاً فلا شيء عليه وكذلك اذا كان جاهلاً بالموضوع فقط و أما اذا كان جاهلاً بالحكم عالماً بالموضوع فأن قصر في العلم بالحكم فهو في حكم العاقد و إلا فلا و أما اذا كان عالماً بهما فال عذر له قطعاً، فقوله تعالى: **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ** معناه يعصون الله بجهالة سواء كان الجهل بالموضوع فقط أو به وبالحكم معاً أو بالحكم فقط دون الموضوع بشرط عدم التقصير في العلم به فلو كان عالماً بهما أو كان عالماً بالموضوع و قصر في العلم بالحكم فهو غير معذور و عليه فالمراد بالجهالة معانها المتعارف و مفهوم الآية أن العامل بالسوء عن علم لا توبة له لأن الله تعالى قال: **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى** وجه الحصر المستفاد من كلمة، أنما، أي أن التوبة منحصرة بالجاهل و مفهوم هذا الكلام هو عدمها في حق العالم و هو مشكل جداً.

و يظهر من كلمات بعض المحققين أن العالم الذي لا يقبل توبته بمفهوم الآية أنما هو العالم المعاند اللجوج لا مطلق العالم و هو الذي يؤخر التوبة حتى الموت و أما غيره فلا يكون كذلك و توضيحه إجمالاً أن العالم على قسمين معاند و غير معاند والأول يؤخر التوبة الى وقت الموت والثاني لا يؤخرها و مفهوم الآية ناظر الى المعاند بدليل قوله تعالى بعد هذه الآية.

وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ **قَالَ إِنِّي تُبْتُ آلَانَ** و سيحيي الكلام فيها و من المعلوم أن القرآن تفسيره بعضه بعضاً فكانت الآية التالية لهذه الآية و الدليل على ما ذكرناه قوله: **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** فقوله: **ثُمَّ يَتُوبُونَ** من قريب أي يتوبون حضور الموت فأولئك، الذين يتوبون من قريب أي قبل حضور الموت، يتوب الله عليهم، أي يقبل توبتهم لأنها وقعت في محلها، وكان الله عليمًا، بالعباد و بأفعالهم وأقوالهم و نياتهم،

حكيماً، بمواضع الأمور وَ لَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ آلَانَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا أَي أَنَّ التَّوْبَةَ لَا تَقْبَلُ مِنْ صَنَفَيْنِ:

أحدهما: من عمل السُّوء وكان مريماً عليه حَتَّى إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ فَتَابَ حِينَ مَوْتِهِ.

ثانيهما: من مات على الكفر ثُمَّ نَدِمَ بَعْدَ الْمَوْتِ هَكَذَا قِيلَ فِي تَفْسِيرِ الْكَلَامِ وَهُوَ بَعِيدٌ لِأَنَّ النَّدَامَةَ بَعْدَ الْمَوْتِ لَا تَفِيدُ وَهَذَا غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى الذِّكْرِ الْحَقُّ أَنَّ يُقَالُ مَعْنَاهُ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَيَتُوبُونَ حِينَ الْمَوْتِ كَمَا فَعَلَهُ فِرْعَوْنُ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى التَّوْبَةُ حِينَ حُضُورِ الْمَوْتِ لَا تَقْبَلُ سِوَاءَ كَانَتْ مِنْ مُسْلِمٍ أَمْ مِنْ كَافِرٍ إِذَا كَانَ الْمُسْلِمُ عَالِماً بِعُتُودِهِ وَأَمَّا إِذَا كَانَ جَاهِلاً فَتَقْبَلُ قَبْلَ الْمَوْتِ كَمَا وَرَدَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ وَأَمَّا قَوْلُهُ: **أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** فَالْمُشَارُ إِلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: **أُولَئِكَ الْكُفَّارُ**، الَّذِينَ يَمُوتُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الْكُفَّارَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمَعَانِدِينَ الَّذِينَ لَا تَقْبَلُ تَوْبَتُهُمْ إِذَا حَضَرَهُمْ الْمَوْتُ هَذَا تَمَامُ الْكَلَامِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ وَلِنُخْتِمَ الْكَلَامَ بِذِكْرِ مَا قَالَهُ بَعْضُ الْعُرَفَاءِ فِي الْبَابِ:

قَالَ، التَّوْبَةُ لَا تَصَحُّ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ الذَّنْبِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّوْبَةَ هِيَ الرُّجُوعُ عَنْ مُخَالَفَةِ حُكْمِ الْحَقِّ إِلَى مُوَافَقَتِهِ فَمَا لِمَ يَعْرِفُ الْمَكْلَفُ حَقِيقَةَ الذَّنْبِ وَكَوْنُ الْفِعْلِ الصَّادِرِ عَنْهُ مُخَالَفاً لِحُكْمِ الْحَقِّ لَمْ يَصَحِّ لَهُ الرُّجُوعُ عَنْهُ وَشَرَايِطُ التَّوْبَةِ ثَلَاثَةٌ أَشْيَاءُ:

أحدها: النَّدَمُ.

ثانيها: الإِعْتِذَارُ.

ثالثها: الإِقْلَاعُ.

فَالنَّدَمُ بِالْقَلْبِ، وَالْإِعْتِذَارُ بِاللِّسَانِ بِكَثْرَةِ الْإِسْتِغْفَارِ، وَالْإِقْلَاعُ بِالْجَوَارِحِ الْكَفِّ عَنْ الذَّنْبِ حَتَّى يَنْخَرُطَ فِي سُلُوكِ الرُّجُوعِ عَنْهُ بِالْكَلِّيَّةِ وَالْأَلَمْ تَصَحُّ تَوْبَتُهُ. قَالَ بَعْضُهُمْ أَنَّ التَّوْبَةَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

توبة العامة وتوبة الخاصة، وتوبة الأوساط.

فالتوبة العامة لاستكثار الطاعة فأنها تدعو الى ثلاثة أشياء، الى جحود نعمة السر والإهمال ورؤية الحق على الله، والإستغناء الذي هو عين الجبروت و التوثب على الله.

أما توبة الخاصة من تضييع الوقت فأنه يدعو الى درك النقيصة و يطفئ نور المراقبة و يكدّر عين الصّحة و توبة الأوساط من إستقلال المعصية و هو عين الجراءة و المبارزة و محض التدّين بالحمية، و الإسترسال للقطيعة و حيث إنجرّ البحث الى التوبة فلا بأس بذكر بعض ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام في الباب قال عليه السلام:

إِنَّ اللَّهَ يَنْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ يَنْقُصُ الثَّمَرَاتِ وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ
وَإِغْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ لِيَتُوبَ تَائِبٌ وَيُقْلَعَ مُقْلَعٌ وَيَتَذَكَّرُ مُتَذَكِّرٌ وَيَزْدَجِرُ مُزْدَجِرٌ
وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْإِسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةً الْخَلْقِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ:
(اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ
وَبَيِّنٍ) فَرَجَمَ اللَّهُ أَمْرًا اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ وَاسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ. ^(١)

و قال عليه السلام:

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَذْبَرَتْ وَأَذْنَتْ بِوَدَاعٍ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَأَشْرَفَتْ
بِاطْلَاعٍ، أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارُ، وَغَدَا السَّبَاقُ، وَالسَّبْقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّارُ، أَفَلَا
تَأْتِبُ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ، أَلَا عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ، ^(٢) الخ...

و قال عليه السلام:

فَبَادِرُوا الْمَعَادَ سَابِقُوا الْأَجَالَ. فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطَعَ بِهِمْ الْأَمَلُ وَيَزْهَقَهُمْ
الْأَجَلُ وَيَسُدُّ عَنْهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةُ مَنْ
كَانَ قَبْلَكُمْ ^(٣) الخ.

فضاء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

وقال عليه السلام:

قَبْلَ أَنْ يَحْمَدَ الْعَمَلُ وَيَنْقَطِعَ الْمَهْلُ وَيَنْقَضِيَ الْأَجَلُ وَيُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ ^(١) الخ.

وقال عليه السلام في قصار الحكم:

ولا خير في الدنيا إلا لِرَجُلَيْنِ رَجُلٍ أَذْنَبَ ذُنُوبًا فَهُوَ يَتَذَكَّرُهَا بِالتَّوْبَةِ وَرَجُلٍ يُسَارِعُ فِي الْخَيْرَاتِ ^(٢)...

وقال عليه السلام:

وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ الْقَبُولُ ^(٣)...

وقال عليه السلام:

لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ الْعَمَلِ وَيُرْجَى التَّوْبَةَ بِطُولِ الْأَمَلِ... ^(٤) وأمثال هذه المواعظ في نهج البلاغة كثيرة جداً.

وأما الأخبار الواردة في الباب من طريق العامة والخاصة فهي أيضاً كثيرة لا يخفى على أحد حسن التوبة وأنها من أعظم النعم على العباد اللهم وفقنا لها قبل حضور الأجل بحق محمد وآله الطاهرين ونقول اللهم إنا نتوب اليك من قبائح أفعالنا فتب علينا أنك أنت التواب الرحيم.



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا
النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا
اتَّيَمُّوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَ
عَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى
أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجعلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا
(١٩) وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَ
اتَّيَمْتُمْ اخْدِيهِنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا
أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ
تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ
وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) وَلَا تَنْكِحُوا مَا
نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ
فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ
أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَ
خَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَ
أُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ
الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرِيَاءُيَكُمُ اللَّاتِي
فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ
فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَ
حَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ
تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٣)

◀ اللّٰغَةُ

وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ: العضل المنع أي لا تمنعهن من التزّوج.
 آسْتَبْدَلْ: مصدر من إستبدل وهو جُعِلَ شَيْءٌ مكانَ آخر وهو أَعْمَ من
 العوض فأنَّ العوض هو أن يصير لك الثَّاني بِإِعْطَاءِ الأوَّل، والتبديل قد يقال
 للتغيير محله وأن لم يأت ببدله.

قِنْطَارًا: القِنْطَار بكسر القاف قيل في معناه هو ألف ومائتا أَوْقِيَّة، وقيل
 أربعون أَوْقِيَّة وقيل مائة وعشرون رِطْلًا وهكذا قال الرَّاعِب هو غير محدود و
 القدر في نفسه وإنَّما هو بحسب الإضافة كالغنى ولذلك اختلفوا فيه.

بُهْتَانًا: هو من البُهْت يُقال بُهَتَ بُهْتًا وَبُهْتَانًا أي قال عليه ما لم يفعله
 إِنَّمَا: الإثم بكسر الألف والإثام إسم للأفعال المبطنة عن الثَّواب وجمع
 الإثم آثَام

وَمَقْتًا: المَقْت بفتح الميم وسكون القاف البُغْض الشَّدِيد وكان سُمِّيَ
 تَزَوَّج الرَّجُلُ إمْرَأَةً أَبِيهِ نِكَاحَ المَقْت.

◀ الإِعْرَابُ

أَنْ تَرِثُوا فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ، فاعِل، يَحِلُّ وَالنِّسَاءَ فِيهِ وَجْهَانِ:
 أحدهما: هو المفعول الأوَّل والنِّسَاءَ عَلَى هَذَا هُنَّ الموروثات.
 الثَّاني: أَنَّهُ المفعول الثَّاني والتقدير أن تَرِثُوا مِنَ النِّسَاءِ المَالِ.

كَرَّهًا مصدر في مَوْضِعِ الحَالِ مِنَ المفعول وفيهِ الضَّمُّ والفتح وَلَا
 تَعْضُلُوهُنَّ منصوب عطفاً عَلَى، تَرِثُوا أَي وَلَا أَنْ تَعْضُلُوهُنَّ، وقيل هو جزم
 بالنهي فهو مستأنف لِتَذْهَبُوا اللَّامُ مُتَعَلِّقَةٌ بِتَعْضُلُوا وفي الكلام حذف تقديره و
 لَا تَعْضُلُوهُنَّ مِنَ النِّكَاحِ أَوْ مِنَ الطَّلَاقِ مَا لَيْسَ مُؤَهَّنٌ الْعَانِدَ عَلَى، مَا، محذوف
 تقديره مَا آتِيَتُمُوهُنَّ إِيَّاهُ وهو المفعول الثَّاني إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ فِي

موضع نصب على الإستثناء المنقطع وقيل في موضع الحال تقديره إلا في حال إتيانهم الفاحشة وقول ثالث هو إستثناء متصل تقديره ولا تعضلوهم في حال إلا في حال إتيان الفاحشة مُبَيَّنَةٌ صفة لفاحشة بِالْمَعْرُوفِ مفعول أو حال أَنْ تَكْرَهُوا فاعل عسى خبر لها هاهنا لأن المصدر إذا تقدم صارت، عسى، بمعنى قرب فاستغنت عن تقدير المفعول المسمى خبراً وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ ظرف للإستبدال وفي قوله وَآتَيْتُمْ إِخْدِيَهُنَّ قِطْرًا إِشْكَالًا:

أحدهما: أنه جمع الضمير والمتقدم زوجان.

الثاني: أن التي يريد أن يستبدل بها هي التي تكون قد أعطاهما مالا فينهاه عن أخذه فأما التي يريد أن يستحدثها فلم يكن أعطاها شيئا حتى عن أخذه و قد أجابوا عن الأول بأن المراد بالزوج الجمع لأن الخطاب لجماعة الرجال و عن الثاني بأنه وضع الظاهر موضع المضمرة وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ كَيْفَ، في موضع نصب على الحال و التقدير تأخذونه جائرين قَدْ أَقْضَى في موضع الحال أيضاً وَأَخَذْنَ أَي و قد أخذن لأنها حال معطوفة مِنْكُمْ متعلق، بأخذن أو حالاً من ميثاق مِنَ النِّسَاءِ في موضع الحال من، ما، أو من العائد عليها إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ فِي، ما، وجهان:

أحدهما: هي بمعنى من.

الثاني: هي مصدرية و الإستثناء منقطع إِنَّهُ الهاء ضمير النكاح وَمَقَاتِلُ الكلام ثم يستأنف وَ سَاءَ سَبِيلًا أَي وساء هذا السبيل أَمْهَاتُكُمْ الهاء زائدة بِنَاتُكُمْ لام الكلمة محذوفة مِنَ الرِّضَاعَةِ في موضع الحال من أخواتكم وَأَنْ تَجْمَعُوا في موضع رفع عطفاً على أَمْهَاتُكُمْ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إستثناء منقطع في موضع نصب.

﴿التفسير﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ إِنْ خَلَفُوا فِي سَبَبِ نَزُولِهَا مِنْهُمْ مَنْ قَالَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ كَانَ أَوْلِيَاءُهُ أَحَقُّ بِأَمْرَاتِهِ أَنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزْوِجَهَا وَأَنْ شَاءَ وَازْوَجُوهَا وَأَنْ شَاءَ وَالْمِ يَزْوِجُوهَا فَهَمُّ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا وَنَفْسُهَا فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَقِيلَ كَانَ مِنْ عَادَتِهِمْ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ يَلْقَى ابْنَهُ مِنْ غَيْرِهَا أَوْ أَقْرَبَ عَصْبَةٍ ثَوْبَهُ عَلَى الْمَرْأَةِ فَيَصِيرُ أَحَقُّ بِهَا مِنْ نَفْسِهَا وَمِنْ أَوْلِيَاءِهَا فَإِنْ شَاءَ تَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ صَدَاقٍ إِلَّا الصَّدَاقَ الَّذِي أَصْدَقَهَا الْمَيِّتَ وَأَنْ شَاءَ زَوَّجَهَا مِنْ غَيْرِهِ وَأَخَذَ صَدَاقَهَا وَلَمْ يَعْطِهَا شَيْئاً شَاءَ عَضْلُهَا لِتَقْتَدِيَ مِنْهُ بِمَا وَرِثَتْهُ مِنَ الْمَيِّتِ أَوْ تَمُوتَ فَيَرِثَهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ.

وَقِيلَ كَانَ الْمَوَارِثُ أَنْ سَبَقَ فَأَلْقَى عَلَيْهَا ثَوْباً فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا وَأَنْ سَبَقَتْهُ فَذَهَبَتْ إِلَى أَهْلِهَا كَانَتْ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا، وَقِيلَ كَانَ يَكُونُ عِنْدَ الرَّجُلِ عَجُوزٌ وَنَفْسُهُ تَتَوَقَّعُ إِلَى الشَّابَةِ فَيَكْرَهُ فِرَاقَ الْعَجُوزِ لِمَالِهَا فَيُمْسِكُهَا وَلَا يَقْرِبُهَا حَتَّى تَقْتَدِيَ مِنْهُ بِمَالِهَا أَوْ تَمُوتَ فَيَرِثَ مَالَهَا فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَأَمْرُ الزَّوْجِ أَنْ يَطْلُقَهَا أَنْ كَرِهَ صَحْبَتَهَا وَلَا يُمْسِكُهَا كَرِهَ ذِكْرَ هَذِهِ الْوُجُوهِ الْقُرْطُبِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ وَلَنَرْجِعَ إِلَى تَفْسِيرِ الْآيَةِ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهَ أَيُّ لَا تَجْعَلُوا النِّسَاءَ كَالْمَالِ يورِثُ عَنْ الرِّجَالِ يورِثُ الْمَالُ فَالْخُطَابُ لِلأَوْلِيَاءِ وَقِيلَ الْخُطَابُ لِأَزْوَاجِ النِّسَاءِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَحْسِبُونَ النِّسَاءَ فِي الْبُيُوتِ مَعَ سُوءِ الْعَشْرَةِ طِمَاعِيَّةً ارْتِهَاءً وَيَقْتَدِينَ بِبَعْضِ مَهْوَرنَ، وَقَالَ الطَّبْرَسِيُّ، لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ أَيُّ نِكَاحِ النِّسَاءِ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا أُتِيَتْهُنَّ أَيُّ لَا تَمْنَعُوهُنَّ عَنِ النِّكَاحِ أَوْ لَا تَحْبِسُوهُنَّ وَإِخْتَلَفُوا فِي الْمَخَاطَبِ بِهَذَا النَّهْيِ عَلَى أَقْوَالٍ:

أحدها: أَنَّ الْمَخَاطَبَ بِهِ جَمِيعُ الرِّجَالِ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يُكْرَهُ زَوْجَتُهُ وَيُرِيدُ مَفَارَقَتَهَا فَكَانَ يَسِيءُ الْعَشْرَةَ مَعَهَا وَيَضِيقُ عَلَيْهَا حَتَّى تَقْتَدِيَ مِنْهُ نَفْسُهَا بِمَهْرِهَا وَهَذَا الْقَوْلُ إِخْتَارَهُ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ فَكَأَنَّهُ

قَالَ تَعَالَى لَا يَحِلُّ لَكُمْ التَّزْوِجُ بِهِنَّ بِالْإِكْرَاهِ كَمَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ بَعْدَ التَّزْوِجِ بِهِنَّ الْعِضْلُ، وَالْحَبْسُ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا أُتَيْتُمُوهُنَّ.

ثانيها: الخطاب للوارث بأن يترك منعها من التَّزْوِجِ بمن شاءت وأرادت كما كان يفعله أهل الجاهلية فأنهم كان يحبسون امرأة الميت وعرضهم أن تبذل المرأة ما أخذت من ميراث الميت أو من الصَّدَاق.

ثالثها: الخطاب للأولياء وأنه تعالى نهاهم عن عَظْل المرأة من التَّزْوِجِ بمن شاءت.

رابعها: الخطاب للأزواج فأنهم كانوا يطلقون المرأة ومع ذلك كانوا يعضلونهنَّ عن التَّزْوِجِ و يضيّقون الأمر عليهن لغرض أن يأخذوا منهنَّ شيئاً و الحقُّ أنَّ النَّهْيَ عَامٌّ وَالْخَطَابُ لِلْكَلِّ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ فِي زَمَانِنَا هَذَا أَيْضاً يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فَيَضِيقُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ فِي الْمَعَاشِرَةِ وَحَتَّى فِي الْغِذَاءِ وَاللِّبَاسِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ بَلْ لَا يَقْنَعُونَ بِذَلِكَ فَيَضْرِبُوهُنَّ وَيَشْتُمُوهُنَّ وَيُظْلِمُوهُنَّ بِأَنْوَاعِ الظُّلْمِ كُلِّ ذَلِكَ لِأَجْلِ أَنَّ الْمَرْأَةَ تَفْتَدِي مِنْ نَفْسِهَا بِمَهْرِهَا بَلْ وَبِأَكْثَرِ مِنْ مَهْرِهَا.

وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا أُتَيْتُمُوهُنَّ عَامٌّ يَشْمَلُ الْكَلَّ الْمَطْلُوبَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ قِيلَ الْمَرَادُ بِهَا الشُّوْزُ وَشَكَاةُ الْخَلْقِ وَإِيْذَاءُ الزَّوْجِ وَأَهْلِهِ وَ عَلَيْهِ فَالْمَعْنَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ سُوءُ الْعِشْرَةِ مِنْ جِهَتَيْنِ فَقَدْ عَذَرْتُمْ فِي طَلَبِ الْخَلْعِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، إِلَّا أَنْ يَفْحَشْنَ عَلَيْكُمْ.

وَقِيلَ الْمَرَادُ بِهَا الزَّنا وَ فِي قَوْلِهِ مُبَيَّنَةٌ إِشْعَارُ أَنَّ الزَّنا لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَبَيَّنَ بِسَبَبِ الْإِقْرَارِ أَوْ شَهَادَةِ الشُّهُودِ وَأَمَّا صِرْفُ التَّهْمَةِ فَهُوَ لَا يَكْفِي وَ عَلَيْهِ فَالْمُسْتَنَى مِنْهُ هُوَ اخْتِادُ الْأَمْوَالِ أَيْ لَا يَجُوزُ اخْتِادُ الْمَالِ مِنْهُنَّ إِلَّا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ.

وَقِيلَ الْمُسْتَنَى مِنْهُ هُوَ الْحَبْسُ وَالْإِمْسَاكُ فِي قَوْلِهِ: فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ

أَي لَا تَحْسِبُوهُمْ إِلَّا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ وَعَاشِرُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَهُوَ النِّصْفَةُ فِي الْمَبِيتِ وَالتَّقَى وَحَسَنُ السَّيْرِ وَالْعَشِيرَةِ.

فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُمْ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا
أَي فَاِنْ كَرِهْتُمْ مَعَاشِرَتَهُمْ وَمَصَاحِبَتَهُمْ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ فِي هَذِهِ الْكَرَاهَةِ
خَيْرًا كَثِيرًا أَمَّا لَكُمْ وَأَمَّا لِلْمَرْأَةِ وَأَمَّا لَكُمْ جَمِيعًا.
أَمَّا الْأَوَّلُ: فَلَأَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَذِهِ الْمَصِيبَةِ يُوجِبُ لَكُمْ الْأَجْرَ فِي الْآخِرَةِ
هَذَا أَوَّلًا.

ثَانِيًا: أَنَّ الْمُؤْمِنَ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَا بَدَّ لَهُ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ بِالْبَلَاءِ
مَحْفُوفَةٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى بِحِكْمَتِهِ إِبْتَلَاهُ بِهَذِهِ الْبَلِيَّةِ وَلَعَلَّهَا أَسْهَلُ مِنْ غَيْرِهَا وَهُوَ لَا
يَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ خَرَجَ مِنْهَا دَخَلَ فِي بَلِيَّةٍ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَعَلَيْهِ فَفِي الْبَقَاءِ
عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ لَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ.

أَمَّا الثَّانِي: وَهُوَ رَجُوعُ الْخَيْرِ إِلَى الْمَرْأَةِ فَلَعَلَّهَا لَوْ تَخَلَّصَتْ مِنْ هَذَا الزَّوْجِ
وَجَدَتْ زَوْجًا خَيْرًا مِنْهُ وَهِيَ أَيْضًا لَا تَعْلَمُ بِهِ.

أَمَّا الثَّلَاثُ: فَلَأَنَّ الْمَتَارَكَةَ بَيْنَهُمَا رُبَّمَا تَكُونُ مُصْلِحَةً لِهَاجِرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
بِأَنْ يَجِدَ الزَّوْجَ زَوْجَةً خَيْرًا مِنْهَا وَهِيَ أَيْضًا تَجِدُ زَوْجًا خَيْرًا مِنْهُ وَإِذَا كَانَ
كَذَلِكَ فَقَدْ ظَهَرَ حَسَنُ كَلَامِهِ تَعَالَى حَيْثُ قَالَ: فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا الْخ
وَالسَّرُّ فِيهِ أَنَّ الْمَصَالِحَ وَالْمَفَاسِدَ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ فَحُرِي بِالْعَبْدِ تَفْوِضُ أَمْرَهُ
إِلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا
شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ^(١).

ففي هذه الآية دلالة صريحة على أن العبد لا يعلم المصالح و المفسدات المترتبة على الفعل:

قال الله تعالى: وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنْ أَلْعَلْمِ إِلَّا قَلِيلًا^(١).

و أيضاً دلالة على أن الأوامر والنواهي في الشريعة تابعة للمصالح والمفاسد الواقعية فلا يؤمر العبد إلا بما فيه مصلحة كما لا ينهى إلا عما فيه مضرة ومفسدة ولذلك يجب على العبد تسليم أمره اليه تعالى في جميع الموارد لتحقق العبودية إلا به قوله تعالى:

وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَ أُنْتِيْتُمْ إِخْدِيْهِنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا

أي أن أردتم تخلية المرأة سواء إستبدل مكانها أولم يستبدل، و أنتيم أحدهن قنطاراً أي مالا كثيراً من المهر، فلا تأخذوا منه، أي من الزوج شيئاً، بدون رضاها، روي أن الرجل منهم اذا أراد أن تتزوج بامرأة اخرى رمى زوجته بالفاحشة حتى يلجئها الى الاقتداء بما اقطاعها من الصداق فنهى الله تعالى عن ذلك وفي الآية دلالة على مغالاة في المهر روي ان عمر قال النبي الا لاتغالوا في فهور نسائكم فقامت امرأة و قالت يابن الخطاب الله يعطينا و أنت تمنع وتلت هذه الآية فقال عمر كل الناس أفقه من عمر حتى المخدرات ورجع عن كراهة المغالاة.

قال الرازي بعد نقله ما نقلناه عنه، وعندني أن الآية لا دلالة فيها على جواز المغالاة لأن قوله: وَ أُنْتِيْتُمْ إِخْدِيْهِنَّ قِنْطَارًا لا يدل على جواز إيتاء القنطار كما أن قوله: لَوْ كَانَ فِيْهِنَّ إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَنَسَبْتَنَّا^(٢) لا يدل على حصول الألهة و الحاصل أنه لا يلزم من جعل الشيء شرطاً لشيء آخر كون ذلك الشرط في نفسه جائز الوقوع الى آخر كلامه.

في تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

أقول: العجب من الرّازي وهو من رجال العلم والفلسفة بإدعاءه كيف قال بهذه المقالة ولم يعلم الفرق بين الشرط اذا كان محالاً ممتنعاً في نفسه وبينه اذا كان جائزاً ممكن الوقوع ففي الصورة الأولى يكون المشروط أيضاً محالاً لتعليقه على الشرط المحال وما علق على المحال محال وأما في الصورة الثانية فلا يكون تحقق المشروط محالاً لتعليقه على الممكن الجائز وما علق على الممكن ممكن ألا ترى أنك اذا قلت إن طرث إلى السماء لا تقتل أو لا تحبس مثلاً علقت عدم القتل والحبس على الطيران الذي هو محال له في حد نفسه لعدم إمكان الطيران إلى السماء لغير الطير فالمعنى يرجع إلى أنك تقتل أو تحبس لا محالة.

وأما اذا قلت أن خرجت من بيتك تقتل فقد علقت المشروط وهو القتل على الخروج وهو أمر ممكن في حد نفسه أي أن الخروج وعدم الخروج على حد سواء بالنسبة إليك فلك أن تخرج ولك أن لا تخرج وهذا هو معنى الممكن فإن معناه أن وجود لاشئ وعدمه بالنسبة إلى ذاته على سواء اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى: **وَآتَيْتُمْ إِحْدِيهِنَّ قِنْطَارًا** شرط وقوله: **فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا** مشروط وأما قلنا، **وَآتَيْتُمْ إِحْدِيهِنَّ قِنْطَارًا** شرط لأنه عطف على أن أردتم أي وأن أردتم إستبدال زوج مكان زوج وأن آتيتم أحدهن قنطاراً الخ أو نقول أن الجملة واحدة وكيف كانت فلا شك في وجود الشرط والمشروط ثم أن الشرط وهو إيتاء القنطار أي المال الكثير بالنسبة إلى البازل في المهر وصداق المرأة أمر ممكن في حد نفسه لا إستحالة فيه وإذا كان الشرط ممكناً، فالمشروط أيضاً ممكن لما بيناه، وهذا بخلاف قوله تعالى: **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**^(١) لأن وجود الآلهة في حد ذاته أمر مستحيل كما ثبت في محله فالمشروط وهو الفساد مترتب عليه بقياس الآية على ما نحن فيه قياس مع الفارق وأن شئت قلت هو نوع من المغالطة كما هو دأب

إمام المشككين فثبت أن قوله تعالى: **وَ اتَّيْتُمْ إِحْدِيهِنَّ قِنطَارًا** يدل على جواز إتيانه والدليل عليه وقوعه في الشريعة المقدسة وعدم منع الشرع منه و بذلك قد ظهر لك أن قوله والحاصل أنه لا يلزم من جعل الشيء شرطاً لشيء آخر كون ذلك الشرط في نفسه جائز الوقوع، كلام لا طائل تحته وذلك لأننا لا نقول كل شرط فهو جائز الوقوع بل نقول أن هذا الشرط جائز الوقوع وأن كان بعض الشروط لا يجوز وقوعها وقد قلنا أن الشرط على قسمين محال وممكن، وما نحن فيه من الثاني وأما قوله وقد يقول الرجل لو كان الإله جسمًا لكان محدثًا و هذا حق ولا يلزم منه أن قولنا الإله جسم حق، فقد ظهر لك بطلانه أيضاً لأن الشرط في هذا الكلام وهو الجسمية محال ممتنع بالأدلة العقلية وما ثبت إقتناعه لا يوجد أبداً ولا كلام لنا فيه وأمثاله من الشروط الممتنعة كثيرة إلا أن ما نحن فيه ليس منها وهو المطلوب.

أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا والهمزة للإسْتِفْهَام الإنكاري أي لا تأخذوه كذلك فإنه إثم مبين أي ذنب ومعصية ظاهرة لا خفاء فيها لأنه من التصرف في مال الغير بدون رضی صاحبه فهو من مصاديق الغصب واقعاً وأن كان في الظاهر برضاه وذلك لأن رضی المكره كعدمه فأن الإكراه والإضطراب والنسيان وأمثاله كلها من مصاديق حديث الزرع المشهور بين العامة والخاصة و قوله ﷺ رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي تِسْعَةٌ أَيْ أَثَارَهَا وَهُوَ ظَاهِرٌ.

وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا.

قيل أصل أفصى من الفضاء الذي هو السعة يقال فضى يفضوا فضوا و فضاء إذا اتسع وقيل معنى وصل يقال أفصى فلان إلى فلان أي وصل إليه و أصله أنه صار في فرجته وفضاء ثم أنهم اختلفوا في معنى الإفضاء في الآية، فقيل أنه كناية عن الجماع وهو قول ابن عباس ومجاهد والسدي وأمثالهم.

وقيل الإفضاء أن يخلو بها وأن لم يُجامعها وتُقل عن الكلبي، أن الإفضاء أن يكون معها في لحاف واحد جامعها أو لم يُجامعها قال بعض المحققين **إعلم أن النكاح بالنسبة إلى المهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:**

الأول: أن يخلو عن ذكر المهر بالكلية وتسمى مفوضة البضع.

الثاني: أن يذكر إجمالاً كأن يفوض الحكم إلى أحد الزوجين وتسمى مفوضة المهر.

الثالث: أن يذكر المهر قل أو أكثر وهو الأكثر وعلى التقادير فأما أن يفارقها بطلاق أو نحوه من الأسباب قبل الدخول، أو بعده قال اقام تصير سبته و سياى الكلام فيها والمراد بالاستبدال فى المقام العقد على زوجه بعد مفارقة الاخرى بالطلاق والمراد أنه لا يجوز له ان تاخذ ممام عطاها شيئاً وان قل اذا اراد طلاقها الأ برضاها وقيدة بالاستبدال جرياً على الغالب فهانها فوائد لا باس بالإشارة إليها تكميلاً للبحث.

الأولى: فى ذكر الإرادة والأخذ المقيّد بالبهتان إشعار بأنّ المنهي عنه هو الأخذ بعنوان الإكراه والإلجاء لها على ذلك فلو كان البذل بإرادتها هي وطيب نفسها كما فى عوض الخلع فلا منع فيه فلا منافاة بين هاتين الآيتين وأية الخلع وقيل ليس له أن يأخذ عوض الخلع عملاً بمقتضى هذه الآية وقيل هي منسوخة بأية الخلع وكلا القولين باطلان لا وجه لهما.

الثانية: فى الآية دلالة على جواز المره أى قدر شاء وبذل عليه إطلاق قوله: **فأتوهن أجورهنّ.** وقوله: **وصدقاتهنّ.** وإطلاق قوله: **فدّصف ما قرضتكم** وقوله **عليها:** المهر ما تراضى عليه الناس وفى رواية زرارة الصّداق ما تراضيا عليه قل أو أكثر وخالف فى ذلك المرتضى **في الانتصار** فقال ممّا انفردت به الإمامية أنّه لا يتجاوز بالمهر خمس مائة درهماً جياداً قيمتها خمسون ديناراً فما زاد على ذلك ردّ إلى السنة والجواب أنّ الإجماع لم يثبت والأخبار الواردة فيه تحمل على الإستحباب وتفصيل الكلام فيه فى الفقه.

الثالثة: أَنَّ الظَّاهِرَ مِنَ الْإِفْضَاءِ هُوَ الْجَمَاعُ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ فِي تَعْلِيلِ النَّهْيِ وَالْإِنْكَارِ بِالْإِفْضَاءِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمَهْرَ أَنَّمَا يَسْتَقَرُّ بِهِ دُونَ الْخُلُوعِ وَ سَيَأْتِي الْكَلَامُ فِيهِ أَيْضاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي مَوْضِعِهِ.

الرابعة: اِخْتَلَفُوا فِي الْمِيثَاقِ الْغَلِيظِ عَلَى أَقْوَال:

أحدها: قَالَ السَّيِّدِي وَ عَكْرَمَةُ وَ غَيْرُهُمَا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ هُوَ قَوْلُهُ **عَلَيْهَا** فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَأَتَكُمُ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ. **ثانيها:** قَوْلُهُ تَعَالَى: **فَأَمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِبِحْ بِإِحْسَانٍ** ^(١) قَالَهُ الْحَسَنُ وَابْنُ سِيرِينَ وَ قَتَادَةُ.

ثالثها: عَقْدَةُ النِّكَاحِ فِي قَوْلِ الرَّجُلِ نَكَحْتُ وَ مَلَكَتُ ذَكَرَ هَذِهِ الْوُجُوهِ الْقُرْطُبِيُّ.

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَزَوَّجُونَ بِأَزْوَاجِ آبَائِهِمْ فَنهَاهُمُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَنْ ذَلِكَ الْفِعْلِ.

رَوِيَ فِي تَفْسِيرِ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِي الْجَارُودِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا** فَإِنَّهُ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِي أَوَّلِ مَا أَسْلَمُوا مِنْ قِبَائِلِ الْعَرَبِ إِذَا مَاتَ حَمِيمُ الرَّجُلِ وَلَهُ إِمْرَأَةٌ أَلْقَى الرَّجُلُ ثَوْبَهُ عَلَيْهَا فَوَرِثَ نِكَاحَهَا بِصَدَاقِ حَمِيمِهِ الَّذِي كَانَ أَصْدَقَهَا فَكَانَ يَرِثُ نِكَاحَهَا كَمَا يَرِثُ الْمَالُ فَلَمَّا مَاتَ أَبُو قَيْسِ بْنِ الْأَسْلَتِ أَلْقَى مُحْصَنٌ بِنَ أَبِي قَيْسٍ ثَوْبَهُ عَلَى إِمْرَأَةِ أَبِيهِ وَهِيَ كَبِيشَةُ بِنْتُ مَعْمَرِ بْنِ مَعْبَدٍ فَوَرِثَ نِكَاحَهَا ثُمَّ تَرَكَهَا لَا يَدْخُلُ بِهَا وَلَا يَنْفَقُ عَلَيْهَا فَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ **ﷺ** فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَاتَ أَبُو قَيْسٍ بِنْتُ الْأَسْلَتِ فَوَرِثَ ابْنُهُ مُحْصَنٌ نِكَاحِي فَلَا يَدْخُلُ

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

عَلَيَّ يَنْفِقَ عَلَيَّ وَلَا يَخْلِي سَبِيلِي فَأَلْحَقْ بِأَهْلِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرْجِعِي إِلَى بَيْتِكَ فَإِنْ يَحْدُثَ اللَّهُ فِي شَأْنِكَ شَيْئًا أَعْلَمْتُكَ فَنَزَلَ، وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاءُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ الْأُتَى، فَلَحِقَتْ بِأَهْلِهَا وَقَدْ رَوَى عَنْهُمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلَبِ سَنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خَمْسَ سَنَنِ أَجْرَاهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي الْإِسْلَامِ.

منها، أَنَّهُ حَرَّمَ نِسَاءَ الْأَبَاءِ عَلَى الْأَبْنَاءِ فَانْزَلَ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ فعلى هذا يكون المراد منكوحات الأب، فما، موصولة وعاندها محذوف، النساء، بيان لما، وقيل المعنى لَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ أي مثله فتكون، ما، مصدريّة فيتناول النهي حلائل الأباء وكلّ نكاح فاسدٍ قد تعارف عندهم.

الأول: أظهر وأما الإستثناء فقليل أَنَّهُ يَكُونُ مَقْطَعًا أَي لَكِنْ مَا سَلَفَ لَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهِ، وَقِيلَ بِالِاتِّصَالِ وَعَلَيْهِ فَهُوَ مُسْتَثْنَى مِنَ اللَّفْظِ مِنْ قَبِيلِ التَّعْلِيقِ عَلَى الْمَحَالِ مِبَالِغَةٍ فِي التَّحْرِيمِ وَالتَّأْيِيدِ وَالْمَعْنَى أَنَّ أَمَكْنَكُمْ نِكَاحَ مَا سَلَفَ فَأَنْكِحُوهُ فَلَا يَحِلُّ لَكُمْ غَيْرُهُ وَذَلِكَ غَيْرُ مُمْكِنٍ فَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ فَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سَيُفْهَمُ بِهِمْ فُلُوكَ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَابِ، وَقَوْلُهُ لَا عَيْبَ فِيهَا غَيْرَ أَنَّ قُطُوفَهَا سَرِيعٌ وَيُمْكِنُ أَنَّ يَكُونُ مُسْتَثْنَى مِنَ الْمَعْنَى اللَّازِمِ لِلنَّهْيِ وَهُوَ الْعِقَابُ وَالْمُؤَاخَذَةُ كَأَنَّهُ قِيلَ أَنْتُمْ مُؤَاخِذُونَ بِهَذَا الْفِعْلِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ قَبْلَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فَإِنَّهُ لَا عِقَابَ فِيهِ تَفْضُلًا وَعَفْوًا مِنْهُ كَمَا يَشْعُرُ بِهِ لَفْظُ، كَانَ، الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ كَانَ مُحَرَّمًا قَبْلَ ذَلِكَ أَيْضًا حَيْثُ وَصَفَهُ بِالْفَاحِشَةِ أَيْ الزَّانَا، أَوِ الْقَبِيحِ، وَقَوْلُهُ: مَقْتًا أَي يَبْغُضُ اللَّهُ صَاحِبَهُ وَكَانُوا يَسْمَوْنَ الْوَلَدَ مِنْ زَوْجَةِ أَبِيهِ الْمَقْتَى كَالْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ وَأَبُو مَعِيْطٍ جَدُّ الْوَلِيدِ بْنِ عَقْبَةَ، وَسَاءَ سَبِيلًا أَي بِشَسِطِ الطَّرِيقِ ذَلِكَ النِّكَاحُ فعلى هذا يكون الضمير المنصوب، بأن، راجعاً إلى النكاح الذي كان عليه أهل الجاهلية وقيل أَنَّهُ رَاجِعُ إِلَى النِّكَاحِ بَعْدَ النَّهْيِ دُونَ مَا قَبْلَهُ وَرَبَّمَا يَرُشِدُ إِلَى كَوْنِهِ لَمْ يَكُنْ مُحَرَّمًا قَبْلَ النَّهْيِ إِنْتِظَارُهُ ﷺ لِلْوَصِيِّ وَكَوْنِهِ مِنْ سَنَنِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ وَمِنْ ثَمَّ قِيلَ أَنَّ، زَائِدَةٌ أَوْ يُقَالُ أَنَّ، كَانَ، قَدْ تَسْتَعْمَلُ فِي مَجْرَدِ الثَّبُوتِ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءٌ، وَقَوْلُهُ كَانَ قَبْلَ

كُلُّ شَيْءٍ وَكَانَ قَبْلَ الْقَبْلِ وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْآيَةَ دَالَّةٌ عَلَى التَّحْرِيمِ إِبْتِدَاءً وَ
إِسْتِدَامَةً وَأَمَّا فَعَلُهُ عَبْدُ الْمَطْلُبِ قَبْلَ نَزُولِهَا مِنْ تَحْرِيمِ حُلَاثِلِ الْآ عَلَى الْأَبْنَاءِ
كَانَ إِقْتِطَاعًا مِنَ الْمُتَعَارَفِ عِنْدَ الْجَاهِلِيَّةِ وَمِمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ مِنْ غَيْرِهِ وَاعَادَةً
كَوْنَهُ حَلَالًا أَوْ حَرَامًا شَرْعًا وَأَمَّا أَجَرَ اللَّهِ تَعَالَى مَا نَقَلَهُ عَبْدُ الْمَطْلُبِ فِي هَذِهِ
الْمَلَّةِ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ مَبَاحَةً فِي شَرْعٍ مِنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُولِ وَعَلَيْهِ
فَرِيضَةٌ كَانَتْ مَمْنُوعَةً وَاسْتِعْمَالُهَا فِي مَجْرَدِ الثَّبُوتِ خِلَافَ حَقِيقَتِهَا لَا يَحْمِلُ
عَلَيْهِ إِلَّا مَعَ الْوُجُوبِ وَهِيَ مَفْقُودَةٌ هَكَذَا أَفَادَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ إِذَا عُرِفَتْ هَذَا فَهَذَا
أَحْكَامٌ لَا بَدَلَ لَنَا مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَيْهَا.

الأول: أَنَّ الظَّاهِرَ مِنْ لَفْظِ النِّكَاحِ فِي الْآيَةِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْعَقْدَ أَمَّا بِنَاءٌ عَلَى
كَوْنِهِ حَقِيقَةً فِيهِ شَرْعًا أَوْ لِأَنَّهُ الْأَكْثَرُ وَالْأَشْبَحُ فِي اسْتِعْمَالِ الشَّرْعِ سِيَمًا فِي
الْقُرْآنِ وَعَلَيْهِ فَيَدْخُلُ فِي الْحُكْمِ بِالتَّحْرِيمِ، مَنْ عَقَدَ عَلَيْهَا الْأَبَ دَائِمًا وَمَنْقَطَعًا
وَأَنْ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا دُونَ الْمَرْئِي بِهَا وَالْمَوْطُوءَةِ بِالْمَلِكِ لِعَدَمِ الْعَقْدِ عَلَيْهِنَ، إِلَّا
بِدَلِيلٍ خَارِجٍ هَذَا إِذَا قُلْنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالنِّكَاحِ فِي الْآيَةِ الْعَقْدَ الْمَجْرَدَ عَنِ الْوُطْئِ
أَوْ مَعَهُ وَأَمَّا إِذَا قُلْنَا أَنَّ النِّكَاحَ فِي الْمَقَامِ أُرِيدَ بِهِ الْوُطْئُ كَمَا هُوَ أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِيهِ
فَيَدْخُلُ فِي الْحُكْمِ مَوْطُوءَةُ الْأَبِ سَوَاءٌ كَانَتْ بِالْعَقْدِ أَمْ لَمْ تَكُنْ وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ
لَفْظَ النِّكَاحِ حَقِيقَةً فِي الْوُطْئِ لُغَةً كَمَا قِيلَ وَالْأَصْلُ عَدَمُ النُّقْلِ أَوْ أَنَّهُ قَدْ
أُسْتَعْمِلَ فِيهِ شَرْعًا اسْتِعْمَالًا كَثِيرًا فَيَتَحَقَّقُ التَّحْرِيمُ بِهِ وَأَمَّا التَّحْرِيمُ بِمَجْرَدِ
الْعَقْدِ فَهُوَ مُسْتَفَادٌ مِنْ دَلِيلٍ آخَرَ كَالْإِجْمَاعِ وَالزَّوَايَاتِ وَفِي الْمَقَامِ قَوْلُ ثَالِثٍ وَ
هُوَ إِشْتِرَاكُهُ بَيْنَ الْمَعْنِيَيْنِ وَهُوَ مَبْنًى عَلَى الْقَوْلِ بِالِشْتِرَاكِ وَجَوَازِ اسْتِعْمَالِهِ فِي
مَعْنِيَةٍ وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنْ مَجْمَعِ الْبَيَانِ قَالَ الْعَلَامَةُ رحمته الله فِي الْمَخْتَلَفِ عِنْدَ نَقْلِهِ
قَوْلَ الشَّيْخِ رحمته الله يَحْرِمُ الزَّانِيَةَ عَلَى أَبِ الزَّانِي وَأَبْنَاهُ ثُمَّ نَقَلَ عَنْ ابْنِ إِدْرِيسَ وَ
الْمُفِيدِ وَالْمُرْتَضَى الْقَوْلَ بِالْإِبَاحَةِ مَا لَفْظُهُ لَنَا قَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ
أَبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ وَالِاسْتِدْلَالُ عَلَى تَعْمِيمِ التَّحْرِيمِ بِهَذِهِ الْآيَةِ يَتَوَقَّفُ عَلَى
مَقَامَيْنِ الْأَوَّلُ، أَنَّ النِّكَاحَ وَبَرَادَ بِهِ الْوُطْئُ كَمَا يَرَادُ بِهِ الْعَقْدَ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ

حقيقة في اللغة للوطي إجماعاً فيكون كذلك في الشرع لأصالة البقاء وعدم النسخ والتغيير وقد أستعمل فيه كقوله فأنكحوا ما طاب لكم وغير ذلك من الآيات والأثار بل نقول أنه لما كان حقيقة في الوطي لم يكن حقيقة في غيره والألزم الإشتراك والأصل عدمه وإستعماله في العقد في نحو قوله تعالى: إِذَا تَكَتَّخْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ^(١) مجاز لأنه خير من الإشتراك ووجه حسن المجاز أن العقد يؤدي إلى الوطي فأشبه العلة فحسن التجوز ولو سلم أنه حقيقة شرعية فلا يمنع من إستعماله في حقيقة اللغوية بل قد أستعمل كما بيناه إذا تقرر هذا فنقول النهي يتناول النكاح بمعنى الوطي لأنه حقيقة فيه ولأنه لما كان العقد المؤدي إلى الوطي لا دائماً يثمر إنتشار الحرمة كان الوطي الذي هو أبلغ منه أولى بإنتشارها انتهى كلامه رفع مقامه.

أقول ما حققه العلامة رحمته لا مرية فيه وهو الحق الحقيقي بالإتباع وبه قال الشيخ أبو جعفر الطوسي رحمته قبله في كتاب العدة على ما نقل عنه فإنه قال النكاح إسم للوطي حقيقة ومجاز في العقد لأنه يوصل إليه وأن كان في عرف الشرع قد إختص بالعقد كلفظ الصلاة وغيرها انتهى.

وذهب ابن إدريس إلى أنه حقيقة في العقد وقال، الإستدلال بقوله: وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ عَلَى أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِي الْوُطِيِّ مِنْ قَبْلِ التَّمَسُّكِ ببيت العنكبوت لأنه لا خلاف أنه اذا كان في الكلمة عرفان لغوي وشرعي كان الحكم بعرف الشرع ذون اللغة ولا خلاف في أن النكاح في عرف الشرع هو العقد حقيقة وهو الطاري على عرف اللغة كالنسخ له فلوطي الحرام لا يطلق عليه في عرف الشرع إسم النكاح بلا خلاف انتهى وأجاب عنه العلامة بأن كون النكاح مستعمالاً في عرف الشرع في العقد لا ينافي الحقيقة الأصلية والإستعمال الشرعي فيها وقد بينا وروده في الوطي شرعاً كهذه الآية.

قال الله تعالى: فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجَ غَيْرِهِ^(١)

قال الله تعالى: فَانْكِحُوهُمْ بِأَذْنِ أَهْلِيهِمْ وَانْتَهُنَّ أَجُورَهُنَّ^(٢)

قال الله تعالى: وَانْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ^(٣)

والتعليل يدل على إرادة الوطئ وقوله **عَلَيْهَا** تناكحوا تناسلوا وغير ذلك مما لا تحصى كثرة والوطئ الحرام لا يطلق عليه في عرف الشرع إسم النكاح و ادعاء الإجماع عليه خطأ ولهذا يقسم النكاح الى محلل ومحرم في الشرع ومورد القسمة مشترك بين الأقسام وصادق عليها انتهى ما أردنا نقله من كلامه فثبت وتحقق من هذه الكلمات أن لفظ النكاح حقيقة في الوطئ مجاز في العقد فقوله تعالى: **وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ** معناه تحرم معقودة الأب على ابنه وابن ابنه وهكذا حرمة دائمية سواء كان العقد دائمياً أم إنقطاعياً وسواء دخل العاقل بالمعقودة أم لم يدخل بها وسواء كان الأب والإبن نسبين أورشاعيين، وأما إذا لم يعقد عليها ولكن زنى بها فقال الشيخ وأكثر الفقهاء بالحرمة أيضاً لعدم الفرق وقال ابن إدريس بالإباحة ونسب هذا القول الى السيد المرتضى والمفيد أيضاً حجة المشهور أن النكاح حقيقة في الوطئ في أصل اللغة وهو قد حصل فيدخل في عموم قوله: **وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ** وحجة ابن إدريس ومن وافقه أن النكاح في الشرع العقد وهو لم يحصل وإطلاقه على الوطئ وأن كان موافقاً لأصل اللغة إلا أنه في دوران الأمر بين المعنى الشرعي واللغوي إذا أستعمل اللفظ في الشرع كان الحكم بعرف الشرع وهو العقد دون اللغة والمفروض عدم العقد فلا تحرم هذا الثاني يدخل في قوله: **وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ** إجماع الأب وإجماع الأم وإن علق فمعقودة الجلد

مثلاً حكمها مقصودة الاب في الحرفة و هكذا موطونة الجدّ عل مافر الكلام فيه ويدلّ عليه:

ما رواه الشيخ في الصحيح عن محمد بن مسلم عن احدهما عليهما السلام أنّه قال: لو لم يحرم على الناس أزواج النبي ﷺ لقول الله عزّ وجلّ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبداً، حرّم على الحسن والحسين ﷺ بقول الله عزّ وجلّ: وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ وَلَا يَصْلَحَ لِلرَّجُلِ أَنْ يَنْكِحَ إِمْرَأَةً جَدَّه انتهی.

و في تفسير العیاشي عن الحسين بن سدير قال: سمعتُ أبا عبد الله ﷺ يقول أنّ الله حرّم علينا نساء النبي بقوله ولا تنكحوا ما نكح آباءكم من النساء انتهی.

الثالث: حيث ذكرنا أنّ المراد من النكاح العقد في الشرع وأن كان للوطي بحسب اللغة فالمراد بالعقد الصحيح منه لأنّه المتبادر من الإطلاق فلا تحرم المعقود عليها بالعقد الفاسد كما اذا كانت المرأة في العدة والمكرهه أو حالة الإحرام وأمثال ذلك وأما الفضولي منه فمن قال بعدم صحّته فهو داخل في الفاسد عنده فلا تحرم على الابن وأما من قال بصحّته وتوقفه على الإجازة ولم تحصل فالظاهر أنّه كذلك لحصول الكاشف عن فساده وكذا لو زنى الأب بعد هذا العقد ثمّ حصلت الإجازة ولو لم تحصل الإجازة فالحكم فيه حكم الزنا قبله.

الرابع: قالوا منظورة الأب وملمؤسته لا يتناولها لفظ النكاح لما عرفت أنّه حقيقة في العقد أو الوطى أو مشترك بينهما فتدخل في قوله تعالى وأحلّ لكم ما وراء ذلك فيكون حلالاً على الابن وذهب بعض الفقهاء الى التحريم اذا كان النّظر واللمس بشهوة وهذا القول أوفق بالإحتياط.

الخامس: المراد بالأب الذي ولدك بالنكاح الصحيح أو حكمه فالولد المخلوق من ماء الزنا لا تحرم عليه منكوحة الزاني على القاعدة والأقوى حرمة مراعاة للإحتياط ولا سيما في الفروج هذا كله على المشهور بين المفسرين الطبري فهو سلك مسلكاً آخر في تفسير الآية فإنه ذكر في تفسيره أقوالاً من العامة ثم قال ما هذا لفظه:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب على ما قاله أهل التأويل في تأويله أن يكون معناه، ولا تنكحوا من النساء نكاح أباءكم إلا ما قد سلف منكم فمضي في الجاهلية فإنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً فيكون قوله: **مِنَ النِّسَاءِ** من صلة قوله: **وَلَا تَنْكِحُوا** ويكون قوله: **مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ** بمعنى المصدر ويكون قوله: **إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ** بمعنى الإستثناء المنقطع انتهى.

أقول ملخص كلامه أن المعنى، لا تنكحوا نكاحاً مثل نكاح أباءكم، فإن أنكحتهم كانت بغير ولي ولا شهود وعلى سبيل القهر والإلجاء على ما مر بيانه وعليه فالنهي أنما وقع على أن لا ينكحوا مثل نكاح أباءهم الفاسد وتبعه على هذا التفسير بعضهم وإذا كان كذلك فتكون، من، متعلقة بتنكحوا، وما، في ما نكح، مصدرية قالوا ولو كان معناه ولا تنكحوا النساء اللاتي نكح أباءكم لوجب أن يكون موضع ما، من، وليس كذلك وقد أجابوا عنه بأن، ما، بمعنى، الذي، أي ولا تنكحوا الذي نكح أباءكم أو بمعنى، من، أي لا تنكحوا من نكح أباءكم والدليل عليه إجماع الأمة وإتفاق المفسرين قال القرطبي بعد نقله ما نقلناه عنه في جوابه والدليل عليه أن الصحابة تلفت الآية على ذلك المعنى ومنه إستدلّت على منع نكاح الأبناء حلال الأباء وقد كان في العرب قبائل قد اعتادت أن يخلف ابن الرجل على امرأة أبيه وكانت هذه السيرة في الأنصار لازمة وكانت في قريش مباحة مع التراضي إلى آخر ما قال: **إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ** إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا قالوا أن الإستثناء منقطع لأنه لا يجوز إستثناء الماضي من المستقبل والمعنى لكن ما قد سلف فلا جناح عليكم قاله

الطَّبْرَسِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ الْقُرْطَبِيُّ أَيُّ لَكُنْ مَا قَدْ سَلَفَ فَأَجْتَنَّبُوهُ وَدَعُوهُ، بَعْدَ قَوْلِهِ بِأَنَّ الْإِسْتِثْنََاءَ مُنْقَطِعٌ.

أَقُولُ لَا نَفْهَمُ مَعْنَى كَلَامِ الْقُرْطَبِيِّ وَلَعَلَّهُ إِشْتَبَاهَ مِنْهُ فَأَنَّ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ هُوَ نِكَاحُ حَالِثِ الْأَبَاءِ وَهُوَ مِنْهُيٌّ عَنْهُ وَلَا زَمَّ الْإِسْتِثْنََاءُ بِقَوْلِهِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ هُوَ الْجَوَازُ وَمَعْنَى قَوْلِهِ فَأَجْتَنَّبُوهُ وَدَعُوهُ هُوَ عَدَمُ الْجَوَازِ وَهُوَ كَمَا تَرَى فَالْآيَةُ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِ الْقَائِلِ، لَا تَبِعْ مِنْ مَتَاعِي إِلَّا مَا بَعْتَ أَيُّ لَكُنْ مَا بَعْتَ فَلَا جَنَاحَ عَلَيْكَ فِيهِ وَقَدْ ذَكَرَ الرَّازِيُّ فِي قَوْلِهِ: **إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ وَجُوهًا**:

الأول: مَا نَقَلَهُ عَنِ السَّيِّدِ صَاحِبِ حَلِّ الْعَقْدِ أَنَّهُ قَالَ هَذَا إِسْتِثْنََاءٌ عَلَى طَرِيقِ الْمَعْنَى لِأَنَّ قَوْلَهُ: **وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ** قَبْلَ نَزُولِ آيَةِ التَّحْرِيمِ فَإِنَّهُ مَعْفُو عَنْهُ.

الثاني: مَا نَقَلَهُ عَنِ صَاحِبِ الْكَشَافِ أَنَّهُ قَالَ هَذَا كَمَا إِسْتِثْنَى، غَيْرَ أَنَّ سَيُوفَهُمْ، مِنْ قَوْلِهِ، وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ، فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سَيُوفَهُمْ، يَعْنِي أَنَّ امْكِتَنَكُمْ أَنْ تَنْكِحُوا مَا قَدْ سَلَفَ فَانْكِحُوهُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكُمْ غَيْرُهُ وَذَلِكَ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَالْغَرَضُ الْمُبَالِغَةُ فِي تَحْرِيمِهِ وَسَدُّ الطَّرِيقِ إِلَى ابْتِغَائِهِ.

الثالث: إِنْ الْآهَانَا بِمَعْنَى بَعْدَ أَيِّ بَعْدَ مَا سَلَفَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى** ^(١) أَيِّ بَعْدَ الْمَوْتِ.

الرابع: مَا نَقَلْنَاهُ عَنِ الطَّبْرَسِيِّ وَقَدْ مَرَّ فَهَذِهِ هِيَ الْوُجُوهُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ: **إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ** وَاحْسِنُهَا مَا ذَكَرَهُ الطَّبْرَسِيُّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى النِّكَاحَ فِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ بِأُمُورٍ ثَلَاثَةٍ:

أولها: أَنَّهُ فَاحِشَةٌ قِيلَ لِأَنَّ زَوْجَةَ الْأَبِ تُشَبِّهُ الْأُمَّ فَكَانَتْ مُبَاشَرَتُهَا مِنْ أَفْحَشِ الْفَوَاحِشِ.

ثانيها: المقت وهو في الأصل البغض وكانت العرب تقول للرجل من امرأة أبيه، مقيت فسمي تعالى هذا النكاح، مقتاً، اذ هو ذا مقت يلحق فاعله هكذا قيل نقل القرطبي عن أبي العباس أنه قال سألت ابن الأعرابي عن نكاح المقت فقال هو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه.

ثالثها: قوله: وَ سَاءَ سَبِيلًا أي بئس الطريق هذا في أمر النكاح وهو من أهم الأمور، فقولوه: فاحِشَةً إشارة إلى القبح العقلي، وقوله: مَقْتًا إلى القبح الشرعي، وساء سبيلاً، إلى القبح في العرف والعادة قاله الرّازي في تفسيره:

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَ بَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَ خَالَاتُكُمْ وَ بَنَاتُ الْأَخِ وَ بَنَاتُ الْأُخْتِ أي حُرِّمَتْ عليكم نكاح أمهاتكم ونكاح بناتكم الخ...

فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه وأُثِمّا قلنا ذلك لأنّ التّحريم لا يتعلّق بالأعيان و أُنّما يتعلّق بأفعال المكلفين حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ كُلّ إمْرأةٍ رجع نسبك إليها بالولادة من جهة أمك بأنات رجعت إليها أو بذكور فهي أمك و ذلك كجدّتك من أبيك و من أمك وَ بَنَاتُكُمْ البنات جمع البنت وهي كلّ إمْرأةٍ رجع نسبها اليك بالولادة بدرجةٍ أو بدرجاتٍ بأنات رجع نسبها أو بذكور فبنت البنت عليك حرام كما أنّ بنت الإبن عليك حرام وهكذا وَ أَخَوَاتُكُمْ الأخوات جمع الأخت قالوا كلّ أنثى ولّدها شخص و لدك في الدّرجة الأولى فهي أختك وهي حرام عليك وَ عَمَّاتُكُمْ هي جمع عَمّة أخت الأب فكلّ ذكرٍ رجع نسبك اليه فأخته عمّتك و لا فرق في هذا الحكم بين العمّة للأب و العمّة للأمّ فأخت أبيك عمّتك و أخت جدّك عمّتك فصاعداً عليك حرام كأخت أبيك و أخت أبي أبيك فصاعداً وَ خَالَاتُكُمْ جمع خالة فكلّ أنثى رجع نسبك إليها بالولادة فأختها خالتك و قد تكون الخالة من جهة أبيك مثل أخت أمّ أبيك أو أخت جدّة أبيك فصاعداً وَ بَنَاتُ الْأَخِ وَ بَنَاتُ

أَلْأُخْتِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ بَنَاتِ الْأَخِ وَبَنَاتِ الْأُخْتِ حُكِمَهُنَّ حَكَمَ بَنَاتِ الصُّلْبِ قَالَ
الطَّبْرَسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا خَاطَبَ الْمُكَلِّفِينَ بِلَفْظِ الْجَمْعِ كَقَوْلِهِ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ثُمَّ
أَضَافَ الْمَحْرَمَاتِ بَعْدَهُ إِلَيْهِمْ بِلَفْظِ الْجَمْعِ فَلِلْأَحَادِ يَقَعُ بِأَزَاءِ الْأَحَادِ فَكَأَنَّهُ قَالَ
حَرَّمَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ نِكَاحَ أُمِّهِ أَوْ مِنْ يَقَعُ عَلَيْهَا إِسْمُ الْأُمِّ وَنِكَاحَ بَنَتِهِ يَقَعُ
عَلَيْهَا إِسْمُ الْبِنْتِ وَكَذَلِكَ الْجَمِيعُ ثُمَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ أَعْنَى الْأُمّهَاتِ وَ الْبَنَاتِ وَ
الْأُخَوَاتِ وَ الْعَمَّاتِ وَ الْخَالَاتِ وَ بَنَاتِ الْأَخِ وَبَنَاتِ الْأُخْتِ هِيَ الْمَحْرَمَاتُ
بِالنَّسَبِ وَ هِيَ سَبْعَةٌ وَآلِ هَذَا أَشَارَ ابْنُ عَبَّاسٍ حَيْثُ قَالَ حَرَّمَ اللَّهُ مِنَ النِّسَاءِ
سَبْعًا بِالنَّسَبِ ثُمَّ قَالَ وَ السَّابِعَةُ وَ لَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاءُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ وَ لَا كَلَامَ
لِأَحَدٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا يَحْرُمُ بِالنَّسَبِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا
يَحِلُّ مِنَ النِّسَاءِ وَ مَا يَحْرُمُ فَحَرَّمَ اللَّهُ سَبْعًا مِنَ النَّسَبِ ثُمَّ قَالَ وَ ثَبَتَ الرِّوَايَةُ
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ حَرَّمَ مِنَ النَّسَبِ سَبْعٌ وَ مِنَ الصُّهْرِ سَبْعٌ قَالَ وَ السَّبْعُ
الْمَحْرَمَاتُ بِالصُّهْرِ وَ الرِّضَاعِ، الْأُمّهَاتُ مِنَ الرِّضَاعَةِ، وَ الْأُخَوَاتُ كَذَلِكَ، وَ
أُمّهَاتُ النِّسَاءِ وَ الرِّبَائِبُ وَ حَلَائِلُ الْأَبْنَاءِ وَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ وَ السَّابِعَةُ وَ لَا
تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاءُكُمْ.

قَالَ الطَّحَاوِيُّ وَكُلُّ هَذَا مِنَ الْمُحْكَمِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ وَغَيْرِ جَائِزٍ نِكَاحَ وَاحِدَةٍ
مِنْهُنَّ بِإِجْمَاعٍ، إِلَّا أُمّهَاتُ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي لَمْ يَدْخُلْ بِهِنَّ أَزْوَاجُهُنَّ فَأَنَّ جُمْهُورَ
السَّلَفِ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْأُمَّ تَحْرُمُ بِالْعَقْدِ عَلَى الْإِبْنَةِ وَ لَا تَحْرُمُ الْإِبْنَةَ إِلَّا بِالْدَّخُولِ
بِالْأُمِّ وَبِهَذَا قَوْلُ جَمِيعِ أَئِمَّةِ الْفَتَوَى بِالْأَمْصَارِ انْتَهَى كَلَامُهُ.

أَقُولُ فِي الْمَقَامِ تَنْبِيْهَانِ لَا يَدُّ مِنْ ذِكْرِهِمَا:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ تَحْرِيمَ النِّكَاحِ مِنْ أَحَدِ الطَّرْفَيْنِ يَقْتَضِي التَّحْرِيمَ مِنَ الطَّرْفِ
الْآخَرِ أَيْضًا فَلَا مُحَالَةَ يَكُونُ الْحُكْمُ بِتَحْرِيمِ الْأُمِّ وَأَنْ عَلَتْ عَلَى الْوَلَدِ وَأَنْ نَزَلَ،
مُقْتَضِيًا لِتَحْرِيمِ الْوَلَدِ وَأَنْ نَزَلَ عَلَى الْأُمِّ وَأَنْ عَلَتْ وَكَذَا الْكَلَامُ فِي الْبَوَاقِي وَ
لَعَلَّهُ النَّكْتَةُ فِي تَخْصِيصِ اللَّهِ تَعَالَى الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ بِالرِّجَالِ وَلَمْ يَذْكُرِ الْعَكْسَ وَ
يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ وَهُوَ التَّحْرِيمُ مِنَ الطَّرْفَيْنِ الْإِجْمَاعُ وَالْأَخْبَارُ.

ثانيهما: أنه لا خلاف بين العلماء في ثبوت النسب المذكور بالنكاح الصحيح والمراد به الوطئ المستحق شرعاً عند الفاعل أو في نفس الأمر وأن حرم بالعارض كالوطئ في الحيض، والتقييد بنفس الأمر ليدخل فيه الوطئ بقصد الزنا ثم تبين أنها زوجته أو أمته فأل نكاحه صحيح وأن أثم بأقدامه على ذلك، والتقييد بعند الفاعل ليدخل فيه نكاح المجوسي لأمه أو أخته فأولدها ويلحق به وطي الشبهة إذا كانت من الطرفين ولو إختصت بأحدهما إختص به الولد على الأظهر وأما الزنا فلا يثبت به النسب اجماعاً ويدل عليه اخبار كثيرة وهل يثبت به التحريم المطلق بالنسب فتحرم على الزاني النسب المخلوقة من ماته كما يحرم على الزانية المتولد فيها بالزنا ولا يثبت فيه خلاف بين العامة والخاصة.

أما العامة قال الرأزي في تفسيره المسألة الثانية قال الشافعي البنت المخلوقة من ماء الزنا لا تحرم على الزاني وقال أبو حنيفة تحرم، حجة الشافعي أنها ليست بنتاً له فوجب أن لا تحرم أتما قلنا ليست بنتاً لوجوه.

الأول: أن أبا حنيفة إما أن يثبت كونها بنتاً له على الحقيقة وهي كونها مخلوقة من ماءه أو بناءً على حكم الشرع بثبوت هذا النسب والأول باطل على مذهبه طرداً وعكساً أما الطرد فهو أنه إذا إشتري جارية بكرة وافتضها وحبسها في داره فأدت بولد فهذا الولد معلوم أنه مخلوق من ماءه مع أن أبا حنيفة قال لا يثبت نسبها إلا عند الإستلحاق ولو كان السبب هو كون الولد متخلفاً من ماءه لما توقف في ثبوت هذا النسب بغير الإستلحاق وأما العكس فهو أن المشرقي إذا تزوج بالعربية وحصل هناك ولد فأبو حنيفة أثبت النسب هنا مع القطع بأنه غير مخلوق من ماءه فثبت أن القول بجعل التخليق من ماءه سبباً للنسب باطل طرداً وعكساً على قول أبي حنيفة وأما إذا قلنا النسب إنما يثبت بحكم الشرع فهذا هنا أجمع المسلمون على أنه لا نسب لولد الزنا من الزاني ولو إنتسب إلى الزاني لوجب على القاضي منعه من ذلك الإنتساب

فثبت أن إنتسابها اليه غير ممكن لا بناءً على الحقيقة ولا بناءً على حكم الشرع.
الوجه الثاني: التمسك بقوله الولد للفراش وللعاشر الحجر فقوله الولد للفراش يقتضي حصر النسب للفراش.

الثالث: لو كانت بنتاً لأخذت الميراث لقوله تعالى: **لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ** ولثبت له ولاية الإيجاب لقوله **عَلَيْهَا زَوْجُوا بَنَاتِكُمُ الْأَكْفَاءُ** ولو جب عليه نفقتها وحضانتها ولحلت الخلوة بها فلمّا لم يثبت شيء من ذلك علمنا إنتفاء البنتية وإذا ثبت أنها ليست بنتاً له وجب أن يحلّ التزوّج بها لأنّ حرمة التزوّج بها أمّا للبنتية أو لأجل أنّ الزّناء يوجب حرمة المصاهرة وهذا الحصر ثابت بالإجماع والبنتية باطلة كما ذكرنا وحرمة المصاهرة بسبب الزّناء، أيضاً باطلة كما تقدّم فثبت أنها غير محرّمة على الزّاني انتهى وقال القرطبي وروي عن مالك أنّ الزّناء يحرم الأمّ والإبنة وأنه بمنزلة الحلال وهو قول أهل العراق ثمّ قال والصّحيح من قول مالك وأهل الحجاز أنّ الزّنى لا حكم له وهو قول الشافعي وأبو ثور لأنّه لمّا ارتفع الصّدّاق في الزّناء وجوب العدة والميراث ولحق الولد وجوب الحدّ ارتفع أن يحكم له بحكم النكاح الجائز وروي الدّارقطني من حديث الزّهري عن عروة عن عائشة قالت سألت رسول الله ﷺ عن رجل زنى بإمرأة فأراد أن يتزوّجها أو أبنتها فقال لا يحرم الحرام الحلال أمّا يحرم ما كان بنكاح قال ومن الحجّة للقول الآخر إخبار النّبي عن جريح وقوله يا غلام، من أبوك، قال فلان الرّاعي، فهذا يدلّ على أنّ الزّناء يحرم كما يحرم الوطئ الحلال ويستدلّ به أيضاً على أنّ المخلوقة من ماء الزّاني بأمّها وهو المشهور قال **عَلَيْهَا** لا ينظر الله إلى رجلٍ نظر إلى فرج امرأة وإبنتها ولم يفعل بين الحلال والحرام وساق الكلام إلى أن قال وقال عبد الملك المباحشون أنّها تحلّ الصّحيح لقوله تعالى: **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا** ^(١) يعني بالنكاح الصّحيح على ما يأتي في الفرقان انتهى كلامه.

أما الخاصة قال العلامة رحمته الله في المختلف، إختلف علماؤنا في الزنا، هل ينشر حرمة التزويج بأمها وبنتها فأثبتته الشيخ وأبو البراج وابن حمزة، وقال المفيد والسيد المرتضى والصدوق في المقنع وسلاّر وابن إدريس أنه لا ينشر الحرمة فحلّ للرجل نكاح أم المزنّي بها وأبنتها سواء تقدّم العقد على الزنا أو تأخر والمعتمد الأول أقام الدلائل على إثبات مدّعه مفصلاً وقال بعد ذلك، مسألة قال الشيخ رحمته الله يحرم الزانية على أب الزاني وأبنته وهو مذهب أبي الصلاح وابن البراج وابن حمزة وابن زهرة ونقل عن ابن إدريس وعن المفيد والسيد المرتضى الإباحة والمعتمد الأول ثم أقام الدلائل بما لا مزيد عليه وقال في موضع آخر منه مسألة قد بيّنا فيما سلف أن الزنا ينشر حرمة المصاهرة على قول كثير من أصحابنا ومنع آخرون منه ويلزم القائل بذلك في الزنا القول به في عقد الشبهة وطئي الشبهة وقال ابن إدريس فأما عقد الشبهة فعندنا لا ينشر الحرمة ولا يثبت تحريم المصاهرة بحال والوجه الأول وقد تقدّم قال رحمته الله المطلب الرابع في بقايا أسباب التحريم مسألة المخلوقة من ماء الزنا تحرم عليه قاله في الخلاف والمبسوط (أي قاله الشيخ) وإستدل عليه في الخلاف بوجهين:

الأول: أنه إذا زنى بإمرأة حرّم عليه بنتها وانتشرت الحرمة وهذه بنتها وطريقة الإحتياط تقتضي تجنّب هذا.

الثاني: لقوله تعالى: **وَبَنَاتُكُمْ** وهذه بنته لغةً وأن لم تكن شرعاً، ثم نقل عن ابن إدريس أيضاً القول بالتحريم في المقام مع أنه في غير هذا المقام لا يقول بنشر الحرمة في الزنا كما عرفت من كلامه وهو دليل على أن المخلوقة من ماء الزاني تحرم على الزاني بلا خلاف عند علماء الشيعة وإن اختلفوا في غيرها والوجه فيه هو أن المخلوقة من ماء الزاني بنيت الزاني لغته وعرفاً كما قال الشيخ فهي داخلة تحت قوله: **وَبَنَاتُكُمْ** بحسب أصل اللغة والعرف وأيضاً قوله تعالى: **إِلَّا آلَتِي وَلَدْنَهُمْ** حيث جعل المولدة مطلقاً أما

فيكون المتولدة بنتاً لا محالة على حسب القانون اللغوي نعم الأحكام الشرعية المتعلقة بالنسب منتفية هنا لحكمة شرعية أما حقيقة البنتية والأختية والأمومية فلا وأن شئت قلت هي بنت له حقيقةً ولأزم ذلك هو ترتب جميع الأحكام المتعلقة بالبنت عليها إلا ما خرج منها بالدليل ونحن نقول به فكلما أخرجه الدليل أخرجناه وكلما أبواه أبقيناه ومن المعلوم أن الدليل لم يخرج أكثر مما يتعلق بالنسب وأما ما يتعلق بغيره فهو باقٍ على حاله وما نحن فيه من هذا القبيل إذ نفي النسب لا يلزم نفي حرمة التزوج بها فالنسب منتفٍ بالدليل وأما حرمة التزوج بها باقٍ على الأصل من تحريم البنت على الأب هذا تمام الكلام في المحرمات بالنسب وأما المحرمات بالرضاع: فقال تعالى: **وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ** سَمَاهُنَّ تَعَالَى أُمَّهَاتٌ لِلْحَرَمَةِ وَكُلٌّ أَنْتَى إِنْ تَسَبَّ إِلَيْهَا بِاللَّبَنِ فَهِيَ أُمٌّ فَالَّتِي أَرْضَعْتِكَ أَوْ أَرْضَعْتَ امْرَأَةً أَرْضَعْتَكَ أَوْ رَجُلًا أَرْضَعْتَ بِلْبَانِهِ مِنْ زَوْجَتِهِ وَ أُمٌّ وَلَدٍ لَهُ فَهِيَ أُمٌّكَ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَكَذَلِكَ كُلُّ امْرَأَةٍ وَلَدَتْ امْرَأَةً أَرْضَعْتَكَ أَوْ رَجُلًا أَرْضَعْتَكَ فَهِيَ أُمٌّكَ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأَمَّا الْأَخَوَاتُ فَهِيَ جَمْعُ الْأَخْتِ وَالْمَرَادُ بِهِنَّ بَنَاتُ الْمَرْضُوعَةِ وَهِنَّ ثَلَاثٌ، الصَّغِيرَةُ الْأَجْنَبِيَّةُ الَّتِي أَرْضَعْتَهَا أُمٌّكَ بِلْبَانِ أَبِيكَ سِوَاءِ أَرْضَعْتَهَا مَعَكَ أَوْ مَعَ وَلَدٍ قَبْلَكَ أَوْ بَعْدَكَ وَالثَّانِيَةِ، أَخْتُكَ لِأُمِّكَ دُونَ أَبِيكَ وَهِيَ الَّتِي أَرْضَعْتَهَا أُمٌّكَ بِلْبَانِ غَيْرِ أَبِيكَ.

وَالثَّالِثَةُ: أَخْتُكَ لِأَبِيكَ دُونَ أُمِّكَ وَهِيَ أَرْضَعْتَهَا زَوْجَةَ أَبِيكَ بِلَيْنِ أَبِيكَ وَ أُمُّ الرِّضَاعَةِ وَأَخْتُ الرِّضَاعَةِ لَمْ تَحْرَمَا فَإِنَّ الرِّضَاعَةَ سَبَبُ تَحْرِيمِهِمَا وَكُلٌّ مِنْ يَحْرَمُ بِالنَّسَبِ مِنَ اللَّاتِي مَضَى ذِكْرُهُنَّ تَحْرَمُ أَمْثَالَهُنَّ بِالرِّضَاعِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ **أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا حَرَّمَ بِالنَّسَبِ** قَالَ الطَّبْرَسِيُّ **مُتَّفِقٌ** بَعْدَ ذِكْرِهِ مَا نَقَلْنَاهُ عَنْهُ فَتَبَيَّنَ بِهَذَا الْخَبَرِ أَنَّ السَّبْعَ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ بِالنَّسَبِ عَلَى التَّفْصِيلِ الَّذِي مَرَّ ذِكْرُهُ مَحْرَمَاتٌ بِالرِّضَاعِ ثُمَّ قَالَ، وَالْكَلَامُ فِي الرِّضَاعِ يَشْتَمِلُ عَلَى فصول.

أحدها: مدّة الرّضاع وقد اختلف فيها فقال أكثر أهل العلم لا يحرم إلا ما كان في مدّة الحولين وبه قال أصحابنا وهو مذهب الشّافعي وأبو يوسف ومحمّد أبو حنيفة حولان ونصف وقال مالك حولان وشهر وإتفقوا على أن رضاع الكبير لا يحرم.

ثانيها: قدر الرّضاع وقد اختلف فيه أيضاً وقال أبو حنيفة أن قليله وكثيره يحرم وروي ذلك عن ابن عمر وابن عباس وهو مذهب مالك والأوزاعي الشّافعي أنما يحرم خمس رضعات وبه قالت عائشة وسعيد بن جبير وقال أصحابنا لا يحرم إلا ما أنبت اللّحم وإنشدّ العظم وأنما يعتبر ذلك برضاع يوم وليلة لا يفصل بينها برضاع امرأة أخرى أو بخمس عشر رضعة متواليات لا يفصل بينها برضاع امرأة أخرى وقال بعض أصحابنا المحرم عشر رضعات متواليات.

ثالثها: كيفيّة الرّضاع فعند أصحابنا ما وصل إلى الجوف من الثدي في المجرى المعتاد الذي هو الفم وأما ما يوجر أو يسعط أو يحقن به فلا يحرم بحال ولبن الميتة لا حرمة له في التّحريم وفي بيع ذلك خلاف هذا ما ذكره الطّبرسي رحمته الله في المقام وهو حق لا كلام فيه إلا أنه لا يفي بالمقصود فلا بدّ لنا من التّنبيه على أمور فنقول.

إعلم أن ظاهر إطلاق الآية دال على ترتّب الحكم على مسماه كيف إتفقوا على أي حال وبه أخذ بعض العامة ولكن النصوص الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام قيّده بشروط.

أحدها: كونه من امرأة لا من رجل ولا من خنثى مشكل وكونه عن نكاح أي وطئ محلّل فيندرج فيه المعقود عليها بالعقد الدائم والمنقطع وملك اليمين الشامل للمحللة إجماعاً ويلحق به نكاح الشبهة على المشهور فلو درأ عن نكاح أو كان من الزّناء لا ينشر الحرمة بلا خلاف لصحيحة عبد الله بن سنان عن الصادق عليه السلام: قال سألته عن لبن الفحل فقال عليه السلام هو ما أرضعت إمرأتك من لبنك ولبن ولّدك إمرأة.

أخرى، وأطلق بعض الأصحاب إعتبار النكاح وقيدَه آخرون بالحمل والأقوى إعتبار الإنفصال كما قاله في التحرير.

الشَّرْطُ الثَّانِي: تقديره بواحدٍ من أمور ثلاثة.

الأول: إنبات اللَّحْمِ وشَدَّ العظم ويدل عليه ما رواه الشَّيْخُ فِي الْحَسَنِ عن حماد بن عثمان عن أَبِي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَا يَحْرَمُ مِنَ الرِّضَاعِ إِلَّا مَا أَنْبَتَ اللَّحْمُ وَالدَّمُ، وعن عبد الله بن سنان قال سمعت أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ لَا يَحْرَمُ مِنَ الرِّضَاعِ إِلَّا مَا أَنْبَتَ اللَّحْمُ وشَدَّ العظم، والأخبار به كثيرة.

الثَّانِي: العَدَدُ وقد اختلف فيه الأصحاب على ثلاثة أقوال لأختلاف الأخبار في ذلك فذهب ابن الجنيْد إلى الإكتفاء برضعة واحدة تملأ جوف الولد بأيِّ نحو اتَّفَقَ إِسْتِدْلَالاً بِعُمُومِ الْآيَةِ وَصَحِيحَةِ عَلِيِّ بْنِ مَهْزِيَارٍ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَيْهِ يَسْأَلُهُ عَمَّا يَحْرَمُ مِنَ الرِّضَاعِ فَكَتَبَ إِلَيْهِ قَلِيلَهُ وَكَثِيرَهُ حَرَامٌ. وَذَهَبَ أَكْثَرُ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ أَصْحَابِنَا كَالْمَفِيدِ وَسَلَّارٌ وَابْنُ أَبِي عَقِيلٍ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ الْعَلَامَةُ فِي الْمُخْتَلِ وَلَدَهُ فِي الْمُحَقِّقِينَ وَالشَّهِيدَ إِلَى أَنْ قَالَ مُعْتَبَرُ عَشْرِ رِضَاتٍ وَقَالَ بَعْضُهُمْ عَلَى الْحَصُولِ بِالْخَمْسِ عَشْرَةَ الْمُتَوَالِيَةِ وَإِلَيْهِ قَالَ أَكْثَرُ الْمُتَأَخِّرِينَ.

الثالث: التَّقْدِيرُ بِالزَّمَانِ وَالْمَشْهُورُ أَنَّهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ وَقِيلَ خَمْسَةُ عَشْرِ يَوْمًا وَلَيْلَةً لَيْسَ بَيْنَهُنَّ رِضَاعٌ وَقِيلَ سَنَّتُهُ كَامِلَةٌ، لِمَا رَوَاهُ فِي الْفَقِيهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ سَأَلْتُهُ عَنِ الرِّضَاعِ قَالَ لَا يَحْرَمُ مِنَ الرِّضَاعِ إِلَّا مَا إِرْتَضَعَ مِنْ ثَدِيٍّ وَاحِدٍ سَنَةً انْتَهَى.

وقيل سنتان، لما رواه زرارة عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنِ الرِّضَاعِ قَالَ لَا يَحْرَمُ مِنَ الرِّضَاعِ إِلَّا مَا رَضَعَ مِنْ ثَدِيٍّ وَاحِدٍ حَوْلِينَ كَامِلِينَ.

الشَّرْطُ الثَّلَاثُ: أَنْ يَقَعَ الرِّضَاعُ قَبْلَ إِسْتِكْمَالِ الْحَوْلِينَ، لِمَا رَوَاهُ فِي الْكَافِي فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا إِرْضَاعَ بَعْدَ فِطَامٍ قُلْتُ جَعَلْتَ فِدَاكَ وَمَا الْفِطَامُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْحَوْلِينَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَ

حكى في التذكرة الإجماع عليه و أنه قول أكثر أهل العلم فلو كان الرضاع الواقع بعد الفطام قبل إتمام الحولين أيضاً ينشر الحرمة و أما إذا كان بعد الحولين و قبل الفطام فهو لا ينشر الحرمة وبالجملة المنطوق هو الحولان لا الفطام و قيل بالعكس.

الشرط الرابع: أن يكون اللبن لفحل واحد فيحرم أحد الرضيعين على الآخر و أن تعددت المرضعة و لا يحرم أحدهما على الآخر لو تعددوا إن اتحدت المرضعة، فقد روي ابن بابويه بأسناده في الصحيح عن بريد العجلي قال قلت لأبي جعفر عليه السلام رأيت قول رسول الله صلى الله عليه وآله يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، فسرّه لي فقال عليه السلام كلّ امرأة أرضعت من لبن فحلها ولد امرأة أخرى من جارية أو غلام فذلك الرضاع الذي قال رسول الله يحرم بالرضاع ما يحرم من النسب الى غير ذلك من الروايات المتعددة و ذهب الطبرسي ميرزا الى عدم اشتراط إتحاد الفحل بل يكفي إتحاد المرضعة لأنه يكون بينهم إخوة الأم فيدخل في عموم قوله: و أمهاتكم من الرضاعة و عموم قوله صلى الله عليه وآله يحرم بالرضاع ما يحرم بالنسب لأن الأخ من الأم يحرم إجماعاً، و قال القرطبي التحريم بالرضاع أنما يحصل إذا إتفق الإرضاع في الحولين و لا فرق بين قليل الرضاع وكثيره عندنا إذا وصل الى الأمعاء ولو مصّة واحدة و إعتبر الشافعي في الرضاع شرطين.

أحدهما: خمس رضعات لحديث عائشة.

الثاني: كونه في الحولين فإن كان خارجاً عنهما لم يحرم و إعتبر أبو حنيفة بعد الحولين ستة أشهر و قال مالك الشهر ونحوه و قال زفر مادام يجترئ باللين و لم يفطم فهو رضاع و أن أتى عليه ثلاث سنين و قال الأوزاعي إذا فطم لسنة واستمر فطامه فليس بعده رضاع وإنفرد الليث بن سعد من بين العلماء أن رضاع الكبير يوجب التحريم و هو قول عائشة و ساق الكلام الى أن قال و ذهب من عدا هؤلاء من أئمة الفتوى الى أن الرضعة الواحدة تحرم إذا تحققت كما

ذكرنا متمسكين بأقل ما ينطلق عليه إسم الرضاع انتهى كلامه أقول الأقوال في الباب كثيرة جداً بحيث لا تكاد تنضبط وفما ذكرناه كفاية و من أراد الإطلاع على أكثر منه فعليه بكتب الفقهاء.

إذا عرفت هذا فاعلم أن الشروط المذكورة من طريق أهل البيت إذا اجتمعت في الرضاع فقد حصل الرضاع المحرم وانتشر التحريم وصارت المرضعة أمًا كما يقتضاه نص الكتاب وعليه الإجماع ويتبعها في ذلك أباءها وأمهاتها علو فيصIRON أجداداً وجدّات للمرتضع وأخواتها وأخوتها يصIRON أخوالاً وخالات وأولادها يصIRON أخوة وأخوات لأن ذلك من لوازم الآموم فيدخل تحت مقتضى الآية بطريق الإلتزام وكذا حكم المرتضع بالنسبة إلى هؤلاء لأنه لازم للنسبة فيصير ولدًا لها وأولاده وأن نزلوا حفدة لها ولأبائها وأمهاتها وابن أخت للأخوال والخالات وأخًا لأولادها ولده وأن نزلوا ولد أخ فيدخل جميع ذلك في مقتضى الآية بطريق الإلتزام ولا خلاف فيه بين المسلمين ثم أن العلامة رحمته في التذكرة إستثنى من هذه القاعدة أربع صور:

الأولى: أم الأخ والاخت حرام من النسب لأنها، إماً، أم أوزوجة أب، وأما في الرضاع فإن كانت كذلك حرمت والألم تحرم كما لو حصل الرضاع من الأجنبية.

قال بعض المحققين وفيه نظر لأن أم الأخ والأخت ليست من المحرمات السبع من النسب وذلك لأنها أن كانت أمًا فهي محرمة لذلك لا لكونها أم أخ وأن كانت زوجة أب فجهة التحريم تلك لا لكونها أم أخ مع أن التحريم من جهة المصاهرة فعدم التحريم في المرضعة، لفقد الجهتين.

الثانية: أم ولد حرام لأنها إماً بنت أو حليلة إبن وفي الرضاع قد لا يكون أحداها كما لو أرضعته الأجنبية.

أقول والكلام في هذه كالأولى لأنها ليست من السبع النسبية من هذه الجهة بل من جهة النسبية أو كونها حليلة الإبن مع أنها من المصاهرة لا النسب.

الثالثة: جدّة الولد في النسبة حرام لأنها أمك أو أم زوجتك وقد لا يكون من الرضاع كذلك كما لو أرضعته الأجنبية فأَنَّ أمّها جدّته وليست بأمك ولا أمّ زوجتك، والكلام فيها كما سبق فأَنَّ جدّة الولد ليست محرّمة من هذه الجهة بل من إحدى الجهتين المذكورتين.

الرابعة: أخت ولدك في النسب حرام عليك لأنها بنت أوريثته وإذا أرضعت اجنبيته ولدك فبنيتها أخت ولدك وليست احداً منها ولا تحرم أخت الاخ في النسب ولا في الرضاع إذا لم يكن اختاً بأن يكون له اخ من الاب و أخت من الام نافّة يجوز للاخ من الاب نكاح الأخت من الام وفي الرضاع لو أرضعت امرأة وأرضعت صغيرة اختاً صغيرة أجنبية منك يجوز لأخيك نكاحها أختك من الرضاع.

والكلام في إستثناءها كما سبق من أنّ أخته ليست من السبع وأنها مشتركة بين المحرّم بالنسب والمصاهرة فلا تحرم هذا تمام الكلام في المحرّمات بالرضاع وأما المحرّمات بالمصاهرة فهي قسمان:

الأول: ما يقتضي التحريم عيناً وهو أربع مسائل:
الأولى: أمّ الزوجة لقوله تعالى: **أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ.**
الثانية: بنتها مع الدخول بالأم.

الثالثة: حليّة الإبن والرابعة، منكوحة الأب وقد مرّ الكلام فيها.

القسم الثاني: ما يقتضي التحريم جمعاً وهو ثلاث مسائل:

الأولى: الجمع بين الأربع وما زاد.

الثانية: الجمع بين الأختين.

الثالثة: الجمع بين الأم والبنت مع عدم الدخول بالأم إذا عرفت هذا فنقول فالأولى أعني بها أمّ الزوجة لا خلاف في تحريمها بين الأمة في الجملة لقوله تعالى وأُمَّهَاتُ نِسَاءكُمْ وفي التعبير بصيغة الجمع إشعار بأن المراد ما يشمل الجدّات وأن علون وما يشمل النسب والرضاع ولا خلاف فيه أيضاً و

في التعبير بلفظ النساء دلالة على كون المراد ما يشمل العقد الدائم والمنقطع والموطوءة بالملك الشامل للتحليل وهذا أيضاً لا خلاف فيه وَرَبَائِبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ أي تحرم عليكم ربائبكم والربيبة بنت الزوجة من زوج آخر مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ أي أن كانت الربيبة من الزوجة المدخول بها فهي حرام عليك وإلا فلا كما قال تعالى: فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أي فلا جناح عليكم في التزويج بها أي بالربيبة إذا لم تكونوا دخلتم بأمهاتهن.

وإعلم أن هذا الحكم صار معركة الأراء بين الفقهاء فذهب بعض الفقهاء مينا إلى أن الأم والبنت في هذا الحكم سواء فإذا لم يدخل بأحدهما حلّت له الأخرى وأما إذا دخل بأحدهما حرمت عليه الأخرى أبداً وذهب الأكثرون وهو المشهور إلى تحريم أم الزوجة مؤبداً إذا عقد على البنت سواء دخل بها أم لم يدخل وأما إذا عقد على الأم فلا تحرم عله البنت قبل الدخول بالأم نعم في صورة الدخول تحرم البنت مؤبداً ومحصل الكلام هو أنه يشترط في جانب البنت الدخول وأما في جانب الأم فلا يشترط بل مجرد العقد يكفي في تحريم البنت.

قال العلامة رحمته في المختلف، مسألة: المشهور عند علماءنا أجمع إلا ابن أبي عقيل والصدوق تحريم أم الزوجة مؤبداً سواء دخل بالبنت أم لا وقال ابن أبي عقيل الشرط عند آل الرسول في الأمهات ولا ربائب جميعاً الدخول فإذا تزوج الرجل المرأة ثم ماتت عنه أو طلقها قبل أن يدخل بها فله أن يتزوج أمها وأبنتها وأما الصدوق فإنه روى في كتاب من لا يحضره الفقيه عن جميل بن دراج عن الصادق أنه سأل عن رجل يتزوج امرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها هل له أن يتزوج إبتها قال عليه السلام الأم والإبنة في هذا سواء إذا لم يدخل بأحدها حلّت له الأخرى وقال في المقنع إذا تزوج البنت فدخل بها أو لم يدخل فقد حرمت عليه الأم وقد روي أن الأم والبنت في هذا سواء إذا لم يدخل بأحدهما حلّت له الأخرى.

أقول منشأ الخلاف في الحكم هو نفس الآية فأنها هي الاصل في الباب لأنَّ وَ أُمَّهَاتِ نِسَائِكُمْ وَ رِبَايِكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ الى قوله: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فقوله تعالى: اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ قيد و وصف في الآية و هذا ممَّا لا كلام فيه إلا أنَّ البحث وقع في متعلّق القيد والوصف و أن هذا الوصف أو القيد أو الشرط أو ما شئت فسمه، الى أي شيء يرجع والإحتمالات ثلاثة لا رابع لها.

أحدها: أن يكون قوله: اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ الى الأُمَّهَاتِ أي أُمَّهَاتِ النِّسَاءِ و عليه فالمعنى أُمَّهَاتِ النِّسَاءِ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ حرام عليكم و لازم ذلك حرمة الأمِّ بشرط الدَّخُولِ في البنت و أمّا في صورة عدم الدَّخُولِ بها فلا تحرم الأمِّ.

ثانيها: أن يكون الوصف أو القيد للرَّبَائِبِ و عليه فالمعنى تحرم ربائبكم اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ لكن لا مطلقاً بل بشرط كونهنَّ من النِّسَاءِ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ اذا كانت الرِّبِيبَةُ من النِّسَاءِ اللَّاتِي لم يدخل بهنَّ فلا تحرم و لازم ذلك حرمة الرَّبَائِبِ بشرط كونهنَّ من النِّسَاءِ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ وهذه الصُّورة عكس الصُّورة السابقة لأنَّ في السابقة حرمت الأمِّ بعد الدَّخُولِ في البنت و في هذه الصُّورة تحرم البنت بسبب الدَّخُولِ في الأمِّ.

ثالثها: أن يكون القيد لهما جمعاً و عليه فالمعنى حرمت الأمِّ و البنت بعد الدَّخُولِ باجدايهما فلا فرق فيها من الجهة فاذا دخلتُ بالأمِّ حرمت عليك البنت مويّداً و اذا دخلت بالبنت حرمت الأمِّ كذلك اي مويّداً فالشرط في حرمة المويّد من الطرفين الدَّخُولِ و لازم ذلك عدم الحرمة لعدمه اذا دخلت اذا عرفت هذا فنقول لمّا ذهب ابن أبي عقيل والصدوق و من تبعهما الى رجوع الشرط أو القيد أعني به الدَّخُولِ المستفاد من قوله: اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ الى الأُمَّهَاتِ و الرَّبَائِبِ جميعاً أي حرمة كلّ واحدة من الأمِّ و الرِّبِيبَةِ مشروطة بالدَّخُولِ في الأخرى فلا جرم أفتوا بجواز التَّزْوِجِ بكُلِّ واحدة منهما

إذا لم يدخل بها وهو ظاهر وأما المشهور من الفقهاء فقد أرجعوا القيد وهو الدخول إلى النساء في قوله: **مِنْ نِسَائِكُمْ** بدليل أن الأقرب يمنع الأبعد قال العلامة في الجواب ما لفظه والجواب بمنع عود الوصف إلى الجملتين معاً فأنا قد بينا في أصول الفقه أولوية رجوع الوصف والشرط والاستثناء إلى الأخير من الجمل المتعاقبة ولأن شرط الدخول هنا عائد إلى الرئائب خاصة فإنه قال: **مِنْ نِسَائِكُمْ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ** والرئائب من النساء لا محالة فيصح أن يرجع اليهن لأنه شرط أن تكون من نساءنا، وما أمهات النساء فلن من نساءنا بل نساءنا فيهن وإذا تعدد رجوع الشرط إلى الأولى وجب اختصاصه بالأخيرة انتهى كلامه. ومن المعلوم أن القيد إذا كان للأخيرة هو عدم تحريم البنت إذا لم يدخل بالأم وبعبارة أخرى بناءً على هذا القول إذا عقد على البنت تحرم عليه أمها سواء دخل بالبنت أم لا وأما إذا عقد على الأم فلا تحرم عليه البنت أبداً ما لم يدخل بالأم فله أن يطلق الأم مثلاً ثم تزوج بالبنت.

وأما الإحتمال الأول وهو رجوع القيد إلى الأمهات خاصة فهو باطل بالإجماع وعليه فالأمر يدور مدار الإحتمالين المذكورين أعني بهما الثاني والثالث وعليهما يدور كلام الفقهاء كما عرفت ولا شك أن رجوع القيد إلى الأخيرة أوفق بالقواعد الأصولية فإن الأقرب يمنع الأبعد وعليه إتفاقهم في الأصول وهو القول المشهور عندهم وعليه فإذا تزوج الرجل بالمرأة حرمت عليه أمها بمجرد العقد دخل بها أو لا وأما ابنتها فلا تحرم عليه إلا بعد الدخول بأمتها وهذا هو مقتضى القاعدة إلا أن الإحتياط في مسألة الفروج مما لا يخفى حسنه على أحد فقول ابن أبي عقيل والصدوق ومن تبعهما أوفق به والحمد لله رب العالمين قوله: **وَخَلَّيْلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ** قد قلنا في صدر المبحث أن المحرمات بالمصاهرة على قسمين:

قسم يقتضي التحريم عيناً وقسم يقتضيه جمعاً.

أما القسم الأول: فمنه أم الزوجة وقد مضى الكلام فيه، ومنه بنت الزوجة مع الدخول بالأم وهو أيضاً قد مضى ومنه حليمة الإبن، والكلام إشارة إليها. وأما منكوحة الأب فقد مرّ البحث فيها في قوله: **وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ** فنقول قوله تعالى: **وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمُ الْحَلَائِلُ** جمع حليمة، وهي مأخوذة أمّا من الحِلِّ ضدّ الحرام أو من الحلول لأنها تحلّ معه في فراشه أو من الحلّ ضدّ العقد لأنه يحلّ أزارها عند الجماع، وأنما قيّد حلائل الأبناء بالأبناء الصلبية لإخراج ولد البنتي ويدخل في الحكم حلائل أولاد الأولاد وأن نزلوا وكذا حلائل أولاد البنات ولا خلاف فيه بين المسلمين وفي حكمه الولد من الرضاع لقوله عَلَيْهِ السَّلَام يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب والإطلاق في الحلائل يشمل الدائم والمنقطع سواء دخل بهنّ أم لا وعليه فالمعنى حرّمت عليكم حلائل أبناءكم أيضاً بمقتضى العطف.

وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا أي وحرّم عليكم الجمع بينهما فحذف الفعل لدلالة سابقه عليه والحكم في هذه المسألة ممّا أجمع عليه علماء الإسلام إلّا أنّ هاهنا أحكام قد تعرّضوا لها فنحن أيضاً نشير إليها إجمالاً تنميماً للبحث.

الأول: قالوا إطلاق الآية يقتضي تحريم الجمع بينهما في العقد والوطي و أنّه لا فرق فيه بين الدائم والمنقطع وملك اليمين ولا بين كونهما من النسب أو من الرضاع ولا بين كونهما من الأبوين أو من أحدهما والكُلّ ممّا لا خلاف بين الأصحاب والنصوص به كثيرة وبه قال أكثر العامة.

الثاني: ظاهر إطلاق التحريم بينهما يقتضي بطلان العقد لإقتضاء النّهي الفساد والى هذا ذهب أكثر المتأخّرين.

وقيل أنّ المحلّ صالح للعقد ومتعلّق النّهي وصف الجمع فلا يقتضي فساد العقد من أصله فلوزال هذا الوصف بمفارقة أحدهما كان العقد صحيحاً بالنسبة إلى الأخرى ومن ثمّ ذهب الشّيخ وابن الجنيّد وابن البرّاج.

في الكافي بهذا السُّنَد بدون إرسال عن أبي عبد الله عليه السلام في رجل تزَّوج خمساً في عقدٍ واحدة قال عليه السلام يخلِّي سبيل أيهنَّ شاء ويُمسك أربعاً انتهى.

الثالث: لو سبق العقد على أحداها صحَّ ولبطل الآخر سواء كان عالماً أو جاهلاً وسواء دخل بالأخيرة أم لا ويدل عليه ما رواه في الكافي والفقهاء في الصحيح عن زرارة بن أعين قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن رجل تزَّوج امرأة بالعراق ثم خرج إلى الشام وتزَّوج امرأة أخرى فإذا هي أخت امرأة التي بالعراق قال عليه السلام يفرق بينه وبين التي تزَّوجها بالشَّام ولا يقرب المرأة حتَّى تنقضي عدَّة الشَّامية قلت فإن تزَّوج امرأة ثم تزَّوج أمها وهو لا يعلم أنَّها أمها قال عليه السلام قد وضع الله عنه جهالته بذلك ثم إذا علم أنَّها فلا يقربها ولا يقرب البنت حتَّى تنقضي عدَّة الأم فإذا إنقضت عدَّة الأم حلَّ له نكاح البنت قلت فإن جاءت الأم بولدٍ قال عليه السلام هو ولده ويكون ابنه وأخا إمرأته وإلى هذا القول ذهب أكثر الأصحاب وذهب ابن الجنيْد إلى أنَّه لو تزَّوج بأخت امرأة وهو لا يعلم فرَّق بينهما أن كان لم يدخل بالثَّانية فإن دخل بها خيَّر أيهما شاء ويخلِّي سبيل الأخرى ولا يقرب التي يختار حتَّى تنقضي عدَّة التي فارق.

الرابع: لو دخل بالثَّانية جاهلاً ثم علم وفارقها فإنَّ لها المهر وعليها العدَّة تحرم عليه الأولى مدَّة عدَّة الثَّانية ذهب الشَّيخ وجماعة إلى التَّحريم، الأكثر بالعدم لصحة عقدھا ظاهراً وباطناً وعقد الثَّانية طارِ فیتوجَّه النِّهي اليه.

الخامس: يجوز الجمع بين الأمتين بالملك وعليه دلَّت النُّصوص. هذا آخر الكلام في تفسير الجزء الرَّابع ویتلوهُ الجزء الخامس والحمد لله.

الفهرست

سورة آل عمران ٩

الآيات ٩٣ الى ٩٥ ٩

اللغة ٩

الإعراب ٩

التفسير ١٠

الآيات ٩٦ و ٩٧ ١٤

اللغة ١٤

الإعراب ١٥

التفسير ١٥

الآيات ٩٨ الى ١٠٠ ٣٦

اللغة ٣٦

الإعراب ٣٦

التفسير ٣٧

الآيات ١٠١ الى ١٠٣ ٤١

اللغة ٤١

الإعراب ٤٢

التفسير ٤٢

الآيات ١٠٤ الى ١٠٧ ٥٧

اللغة ٥٧

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

٥٧	الإعراب
٥٨	التفسير
٦٨	الآيات ١٠٨ و ١٠٩
٦٨	اللغة
٦٨	الإعراب
٦٨	التفسير
٧٠	الآية ١١٠
٧٠	اللغة
٧٠	الإعراب
٧٠	التفسير
٧٩	الآيات ١١١ الى ١١٥
٧٩	اللغة
٨٠	الاعراب
٨٠	التفسير
٨٨	الآيات ١١٦ و ١١٧
٨٨	اللغة
٨٨	الإعراب
٨٨	التفسير
٩٤	الآيات ١١٨ الى ١٢٠
٩٤	اللغة
٩٥	الإعراب
٩٦	التفسير
١٠٢	الآيات ١٢١ و ١٢٢
١٠٢	اللغة
١٠٢	الإعراب
١٠٣	التفسير

الآيات ١٢٣ الى ١٢٩	١٠٩
اللغة	١٠٩
الإعراب	١١٠
التفسير	١١٠
الآيات ١٣٠ الى ١٤٣	١٢٣
اللغة	١٢٤
الإعراب	١٢٥
التفسير	١٢٦
الآيات ١٤٤ الى ١٤٨	١٥٨
اللغة	١٥٨
الإعراب	١٥٩
التفسير	١٥٩
الآيات ١٤٩ الى ١٥١	١٨١
اللغة	١٨١
الإعراب	١٨٢
التفسير	١٨٢
الآيات ١٥٢ و ١٥٣	١٩٦
اللغة	١٩٦
الإعراب	١٩٧
التفسير	١٩٧
الآيات ١٥٤ و ١٥٥	٢٠٦
اللغة	٢٠٦
الإعراب	٢٠٧
التفسير	٢٠٨
الآيات ١٥٦ الى ١٥٩	٢٢٦
اللغة	٢٢٦

٢٢٧	الإعراب
٢٢٧	التفسير
٢٤٩	الآيات ١٦٠ الى ١٦٣
٢٤٩	اللغة
٢٤٩	الإعراب
٢٥٠	التفسير
٢٦١	الآية ١٦٤
٢٦١	اللغة
٢٦١	الإعراب
٢٦١	التفسير
٢٦٧	الآيات ١٦٥ الى ١٧٠
٢٦٧	اللغة
٢٦٨	الإعراب
٢٦٨	التفسير
٢٨٥	الآيات ١٧١ الى ١٧٥
٢٨٥	اللغة
٢٨٥	الإعراب
٢٨٦	التفسير
٢٩٥	الآيات ١٧٦ الى ١٧٨
٢٩٥	اللغة
٢٩٥	الإعراب
٢٩٥	التفسير
٣٠٨	الآيات ١٧٩ و ١٨٠
٣٠٨	اللغة
٣٠٨	الإعراب
٣٠٩	التفسير

الآيات ١٨١ الى ١٨٤.....	٣١٩
اللغة.....	٣١٩
الإعراب.....	٣١٩
التفسير.....	٣٢٠
الآيات ١٨٥ و ١٨٦.....	٣٣٠
اللغة.....	٣٣٠
الإعراب.....	٣٣٠
التفسير.....	٣٣١
الآيات ١٨٧ الى ١٨٩.....	٣٤٥
اللغة.....	٣٤٥
الإعراب.....	٣٤٥
التفسير.....	٣٤٦
الآيات ١٩٠ الى ١٩٤.....	٣٤٣
اللغة.....	٣٤٣
الإعراب.....	٣٤٤
التفسير.....	٣٤٤
الآيات ١٩٥ الى ١٩٧.....	٣٧٧
اللغة.....	٣٧٧
الإعراب.....	٣٧٧
التفسير.....	٣٧٨
الآيات ١٩٨ الى ٢٠٠.....	٣٨١
اللغة.....	٣٨١
الإعراب.....	٣٨١
التفسير.....	٣٨٢

سورة النساء..... ٣٩١

الآيات ١ الى ٥ ٣٩١

اللغة..... ٣٩٢

الإعراب..... ٣٩٣

التفسير..... ٣٩٥

الآيات ٦ الى ١٠ ٤٢٨

اللغة..... ٤٢٨

الإعراب..... ٤٢٩

التفسير..... ٤٢٩

الآيات ١١ الى ١٤ ٤٤٩

اللغة..... ٤٥٠

الإعراب..... ٤٥٠

التفسير..... ٤٥١

الآيات ١٥ الى ١٨ ٤٦٨

اللغة..... ٤٦٨

الإعراب..... ٤٦٨

التفسير..... ٤٦٩

الآيات ١٩ الى ٢٣ ٤٨٠

اللغة..... ٤٨١

الإعراب..... ٤٨١

التفسير..... ٤٨٣